سترابون



الجغرافيا

في سبعة عشر كتاب

كتاب I-X



ترجمة
د. حسان مخائيل اسحق



الجغـرافيـا

سبعة عشر كتاباً في جـزأين

الجزء الثاني

11- 17

Στράβων

Γεογραφικά

I-XVII

سترابون

الجغرافيا

سبعة عشر كتاباً في جزأين

الجزء الثاني

11- 17

ترجمة

د. حسان مخائيل إسحق

♦ الجغـــرافيـــا.
سبعة عشر كتاباً في جزأين.
الجزء الثاني 11- 17.

- تأليف: سترابون.
- ترجمة: د. حسان مخائيل إسحق.
- الطبعة الأولى: 2017.
- عدد النسخ: 1000 نسخة.
- الترقيم الدولي: ISBN: 978-9933-18-765-1

يطلب الكتاب على العنوان التالي:

دار عـــلاء الـــدين
للنشر والطباعة والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5617071
فاكس: 00963 11 5613241
ص. ب: 30598 جرمانا
www.zoyaala-addin.com
ala-addin@mail.sy

دار ومؤسسة رسلان
للطباعة والنشر والتوزيع
سوريا ـ دمشق ـ جرمانا
هاتف: 00963 11 5627060
00963 11 5637060
فاكس: 00963 11 5632860
ص. ب: 259 جرمانا
www.darrislan.com
darrislansyria@gmail.com

وفـــاءً لذكرى
السيدة زويـــا ميخائيلينكو
لدورها الكبير في مسيرة دار علاء الدين

الكتـاب الحادي عشر

الفصل الأول

1- تجاور أوروبا آسيا، وتتلامس معها على طول نهر تانايس. ولذلك ينبغي أن ننتقل لوصف هذا الجزء من العالم؛ ولتحقيق مزيد من الوضوح نقسمه إلى حدوده الطبيعية المعروفة. فما فعله إيراتوسفين بالنسبة للمعمورة كلّها، ينبغي عليّ أن أفعله بالنسبة لآسيا.

2- تطوّق جبال طوروس هذه القارّة في الوسط تقريباً، فتمتدّ من الغرب إلى الشرق، وهي تبقي في غضون ذلك جزءاً منها باتجاه الشمال والجزء الآخر باتجاه الجنوب. ويدعو الإغريق أحد الجزأين «بالواقع على هذا الجانب»، والجزء الآخر «بالواقع على ذلك الجانب من طوروس». وأنا كنت قد أشرت إلى هذا سابقاً[1]، وينبغي عليّ الآن أن أكرر ما كنت قد قلته لكي أذكّر وحسب.

3- ففي كثير من الأماكن يصل عرض هذه الجبال إلى 3000 مرحلة، أمّا طولها فمساوٍ لطول آسيا، إذ يبلغ ما يقارب 45.000 مرحلة (ابتداء من الساحل المقابل لرودوس، حتّى أطراف الهند وسكيثيا شرقاً).

4- وهي تنقسم إلى أجزاء كثيرة تحمل تسميات مختلفة، وهذه الأجزاء بدورها منفصل بعضها عن بعض بحدود أقلّ أو أكثر وضوحاً. ولكنْ بما أنّ بعض الأقوام لا يحظى بشهرة واسعة، وبعضها الآخر ذائع الصيت (مثل بارثيا، وميديا، وأرمينيا، وبعض القبدوقيين، والكيليكيين، والبيسيديين)، فإن أولئك الذين يقطنون بأعداد غفيرة في أجزائها الشمالية، ينبغي إنزالهم هنا[2]، والذين يقطنون الأجزاء الجنوبية، ينبغي إنزالهم هناك[3]؛ أمّا الذين يسكنون الأجزاء الوسطى من هذه الجبال، فإن تشابه المناخ عندهم يجعلنا نلحقهم بالشمال تقريباً، لأنّ المناخ في الوسط بارد، وفي

الأجزاء الجنوبية دافئ. وكلّ الأنهار التي تنبع من طوروس تجري بالاتجاه المعاكس تقريباً، بعضها نحو الأجزاء الشمالية، والأخرى نحو الأجزاء الجنوبية (في أقل تقدير عند بداية جريانها، مع أن بعضاً منها يتّجه بعد ذلك غرباً أو شرقاً)؛ وهي تمثّل معالم معروفة عندما نقسم آسيا بهذه الجبال إلى شطرين. وعلى نحو مماثل، فإن البحر الذي على هذا الجانب من الأعمدة[4]، والذي يمتدّ بجزئه الأعظم على خطّ مستقيم تقريباً، مع هذه الجبال، يمكن أن يعدّ ملائماً لتقسيم أوروبا وليبيا إلى قارتين، لأنه يشكّل حدّاً لجزأي العالم هذين.

5- إن من ينتقل في الوصف الجغرافي من أوروبا إلى آسيا، يصل أوّل ما يصل إلى المناطق الشمالية. ولذلك يتأتّى البدء بها. ومن البلدان الواقعة في أقصى الشمال [سوف أبدأ وصفي] أولاً من المناطق الواقعة على تانايس، الذي اتخذته حدّاً بين أوروبا وآسيا. وتشبه هذه المناطق شبه الجزيرة إلى حدّ ما، لأنّ نهر تانايس وبحيرة ميوتيدا يحدّانها من الغرب وصولاً إلى البسبور وأجزاء ساحل البونتس الإيفيكسيني التي تنتهي عند كولهيدا؛ ويشاطئها المحيط من الشمال حتّى ثغر بحر قزوين؛ ويحدّها من الشرق هذا البحر نفسه حتّى حدود ألبانيا وأرمينيا حيث يصبّ نهرا كير وأراكس في البحر؛ ويجري أراكس عبر أرمينيا، بينما يجري كير عبر إيبيريا وألبانيا؛ وأخيراً، يحدّ هذه المناطق من الجنوب المدى الممتدّ من مصبّ كير حتّى كولهيدا على مسافة قدرها 3000 مرحلة من البحر إلى البحر عبر ألبانيا وإيبيريا بحيث تأخذ شكل برزخ. ولكنّ هناك كتّاباً يجعلون من هذا البرزخ ضيقاً إلى درجة أنّ البحرين يغمرانه، وهذا ما يفعله كليتارخ مثلاً، بيد أن مثل هذه الآراء لا تستحق المناقشة. ويحدّد بوسيدونيوس عرض هذا البرزخ بـ 1500 مرحلة، وهذا يساوي عرض البرزخ الذي يمتدّ من بيلوسي إلى البحر الأحمر. ويقول بوسيدونيوس: «أنا أظنّ أن البرزخ الذي يمتدّ من ميوتيدا إلى المحيط يختلف عنه [من حيث العرض] بعض الاختلاف».

6- وأنا لا أستطيع أن أتخيّل كيف يمكن الوثوق ببوسيدونيوس فيما يخصّ ما هو مجهول (وهذا ما ليس بمقدوره أن يقول عنه أيّ شيء حقيقي)، إذا كان يتحدّث بلا عقلانية عمّا هو معلوم؛ مع أنه كان صديقاً لبومبيوس الذي شنّ حملة على الإيبيريين والألبانيين وصل فيها حتّى البحرين من الجهتين: بحر قزوين وبحر كولهيدا[5]. وعلى أيّ حال يقال، إنه عندما كان بومبيوس في رودوس أثناء حربه على القراصنة (وقد عزم بعد ذلك على أن يتحرّك مباشرة ضدّ ميتريدات والقبائل التي

تقطن مناطق بحر قزوين)، قدّر له أن يشهد واحدة من جلسات بوسيدونيوس. ولدى رحيله سأل بومبيوس بوسيدونيوس عمّا إذا كان يريد أن يكلّفه بأمر ما. فأجابه بوسيدونيوس:

احرص أن تبزّ الآخرين، وتبقى دوماً متألقاً.

(الإلياذا VI، 208)

وينبغي أن نضيف إلى هذه الرواية، أن بوسيدونيوس كتب تاريخ بومبيوس. ولهذا أيضاً كان لزاماً عليه أن يتحرّى الحقيقة أكثر.

7- وكان يمكن أن يكون الشطر الثاني، هو المنطقة الواقعة إلى الأعلى من البحر الهركاني الذي ندعوه نحن بحر قزوين، وصولاً إلى السكيثيين الذين يقطنون على مقربة من الهند. ثمّ الشطر الثالث، وهو المنطقة التي تجاور البرزخ المذكور، وكذلك المناطق التي تليها مباشرة بعد البرزخ والبوابات القزوينية التي تتألّف من البلدان الواقعة على هذا الجانب من طوروس والأقرب إلى أوروبا. وهذه المناطق، هي ميديا، وأرمينيا، وقبدوقيا، والبلدان الواقعة بينها. وأخيراً، الشطر الرابع الذي يتألّف من الأراضي الواقعة على هذا الجانب من هاليس[6] وعلى السلسلة الجبلية نفسها، كما على جانبها الآخر، لأنها تدخل إطار شبه الجزيرة التي يشكّلها البرزخ الفاصل بين بحر البونتس والبحر الكيليكي. أمّا باقي البلدان، وتحديداً تلك الواقعة وراء طوروس، فإنني أُلحق بها الهند وأريانا وصولاً إلى الأقوام التي تنتشر حتّى البحر الفارسي، والخليج العربي، ونهر النيل، والبحر المصري وبحر إيسّ.

الفصل الثاني

1- في هذا الموقع الجغرافي يقطن الشطر الأول أي البلدان الشمالية حتّى المحيط- بعض السكيثيين الرحّل الذين يعيشون في مركبات، وأبعد منهم في عمق البلاد يقطن السارماثيون (وهم سكيثيون أيضاً)، والآورسيون، والسيراكيون الذين ينتشرون نحو الجنوب حتّى جبال القفقاس؛ وبعض هؤلاء بدو رحّل وبعضهم الآخر يعيش في خيام ويعمل في الزراعة. ويسكن الميوتيون حول بحيرة ميوتيدا. ويقع عند البحر، الشطر الآسيوي من البسبور ومنطقة سيندا. ويقطن وراءها الآخيون، والزيغيّون، والجينيوخيون، والكيركيتيون، والماكروبوغونيون[1]. وإلى الأعلى من هذه المناطق

يقع كهف الثتيروفاغيين[2]. ووراء الجينيوخيين تقع كولهيدا الواقعة عند سفوح جبال القفقاس والجبال الموسخية. ولكن بما أن نهر تانايس هو الحد الفاصل بين أوروبا وآسيا، فإنني سأبدأ من هنا وصفي لباقي البلدان.

2- يجري تانايس من الأجزاء الشمالية، ولكن ليس باتجاه معاكس تماماً لجريان النيل، كما يظن أكثرهم، إنما أكثر انحرافاً منه نحو الشرق، [وكما نهر النيل] فإنّ منابع تانايس مجهولة. ولكنّ جزءاً كبيراً من مجرى النيل معروف، لأنّ هذا النهر يجري عبر بلاد الوصول إليه فيها سهل ومتاح، وهو نفسه صالح للملاحة لمسافات طويلة صعوداً مع مجراه. ونحن نعرف مصبّ تانايس (له مصبّان في الشطر الشمالي من ميوتيدا، يبعد واحدهما عن الآخر 60 مرحلة)؛ ولكنّ جزءاً صغيراً من مجرى النهر، إلى الأعلى من مصبّه، وحده المعروف بسبب الصقيع والشحّ الذي يستطيع السكّان تحمّله لأنّهم يتناولون اللحوم، ومشتقات الحليب على عادة البدو الرحل، ولكنّ الغرباء لا يستطيعون تحمّل ذلك. وعلاوة على هذا فإنّ الرحّل الذين لا يقيمون علاقات مع الأقوام الأخرى، يستخدمون تفوّقهم العددي وقوّتهم لقطع المسالك في شتّى مناطق البلاد السالكة، وفي أجزاء النهر الصالحة للملاحة. ولهذا السبب ظنّ بعضهم أن منابع هذا النهر في جبال القفقاس؛ وإنه يجري أولاً شمالاً ثمّ ينعطف ويصبّ في ميوتيدا (ويتّفق مع هؤلاء في الرأي ثيوفانوس الميثيليني)، وعلى الضدّ من هذا، بحسب معطيات آخرين، أنّ تانايس ينبع من المناطق الواقعة في أعالي إيستر، بيد أنهم لا يسوقون أي براهين تؤكّد على أن منابع النهر تقع بعيداً إلى هذا الحدّ، أو في «أقاليم»[3] أخرى، كما لو أن النهر لا يمكن أن ينبع من مناطق شمالية قريبة.

3- وتقوم على النهر والبحيرة مدينة تحمل الاسم عينه، بناها الإغريق بعد أن استولوا على البسبور. ومنذ وقت قريب دمّرها الملك بوليمون[4] لأنها أبت أن تخضع له. لقد كانت هذه المدينة مركزاً تجارياً مشتركاً للبدو الرحل الأوروبيين والآسيويين من جهة، وللذين يدخلون البحيرة بسفنهم مبحرين من البسبور من جهة أخرى، وقد حمل إليها البدو العبيد، والجلود وسوى ذلك من السلع التي يمكن أن تجدها لدى البدو، بينما حمل تجار السفن الألبسة، والنبيذ وما إلى ذلك من مستلزمات العيش المتحضر ليبادلوها بما كان يحمله البدو الرحل. وعلى بعد 100 مرحلة أمام هذا المركز التجاري تقع جزيرة آلوبيكيا التي يعيش فيها خليط من المستوطنين. وثمّة على مقربة في البحيرة جزر صغيرة أخرى. ويبعد تانايس[5] عن مدخله في ميوتيدا 2200 مرحلة على

خطّ مباشر نحو الشمال؛ لكنّ المسافة تغدو أكبر بعض الشيء إذا أبحرت على طول الشاطئ.

4- ولدى إبحارنا على طول الشاطئ انطلاقاً من تانايس، يطالعنا أول ما يطالعنا على بعد 800 مرحلة، نهر يدعى رومبيت الكبير، حيث تقع أكبر مواقع صيد الأسماك المعدّة للتمليح. وعلى بعد 800 مرحلة أخرى يقع رومبيت الصغير ورأس بحرية، وتقع هناك أيضاً أماكن أصغر لصيد الأسماك. وبالنسبة للذين يعيشون عند رومبيت الكبير، تشكل الجزر الصغيرة محطات لصيد الأسماك، أمّا عند رومبيت الصغير فإن الميوتيين أنفسهم يعملون بهذه الحرفة. فالميوتيون ينتشرون على امتداد هذا الساحل كله؛ ومع أنهم يعملون في الزراعة، إلاّ أنهم لا يقلّون عن البدو الرحل في إتقان فنون الحرب. وهم يتوزّعون على عدد من القبائل، ولكنّ الذين يعيشون منهم على مقربة من تانايس، هم الأكثر توحّشاً، أمّا الذين يجاورون منهم البسبور، فإنهم أكثر تحضّراً. وتبلغ المسافة من رومبيت الصغير إلى تيرامبا وأنتيكيتوس 600 مرحلة؛ ثمّ 120 مرحلة إلى مستوطنة كيميريك التي تشكل نقطة انطلاق للإبحار في البحيرة. ويروى أن على هذه الطريق عدّة نقاط مراقبة[6] للكلازومينيين.

5- وفي الزمن الماضي كانت كيميريك مدينة في شبه الجزيرة، فأقفلت البرزخ بخندق وساتر ترابي. وفي زمن ما كان الكيميريون يسيطرون على البسبور، ولذلك دُعي هذا المضيق بالبسبور الكيميري. والكيميريون قبيلة كانت تقلق بغزواتها سكّان الأجزاء الداخلية من البلاد على الجانب اليميني من البونتس وصولاً إلى إيونيا. ولكنّ السكيثيين طردوهم من هذه المنطقة، ثمّ طرد الإغريق هؤلاء الأخيرين، وأسّسوا هنا بانتيكابيوس ومدن البسبور الأخرى.

6- وبعد ذلك، إلى قرية أخيللوس، حيث يقع معبد أخيليس، 20 مرحلة. والمضيق هنا عند مدخل ميوتيدا أضيق، فلا يتجاوز عرضه 20 مرحلة، أو أكثر. وعلى الساحل الآخر تقع قرية ميرميكي؛ وتقع غير بعيد عنها هيراقليا وبارفينيوس[7].

7- ومن هنا إلى نصب ساتير 90 مرحلة. وهذا عبارة عن تلّ صناعي أُنشئ على رأس بحرية تخليداً لذكرى واحد من أشهر ملوك البسبور[8].

8- وغير بعيد تقع قرية باتراي التي تبعد 130 مرحلة عن قرية كوروكوندما. وهذه الأخيرة هي آخر موقع في البسبور الكيميري. فهكذا يدعى المضيق الواقع عند مدخل ميوتيدا؛ ويمتدّ هذا المضيق من الثغور الواقعة بين أخيللوس وميرميكي وصولاً

إلى كوروكونداما وقرية صغيرة تُدعى أكرا تقع في الجهة المقابلة في منطقة البانتيكابيين؛ ويفصل أكرا عن كوروكانداما مضيق عرضه 70 مرحلة. ويمتدّ الجليد إلى هذه الأنحاء[9] عندما تتجمّد مياه ميوتيدا وقت الصقيع، ويغدو السير عليها أمراً ممكناً. وتنتشر المراسي الملائمة في كلّ مكان من هذا المضيق.

9- وتقع فوق كوروكونداما بحيرة كبيرة تدعى كوروكونداميتس، على اسم هذه القرية. وعلى بعد 10 مراحل من القرية تصبّ البحيرة في البحر. ويصبّ في هذه البحيرة أحد فروع نهر أنتيكيتوس ويشكّل جزيرة تشاطئها هذه البحيرة، وميوتيدا والنهر. ويدعو بعضهم هذا النهر هيبانيس أيضاً، على اسم النهر الواقع عند مدينة بوريسفين.

10- ولدى الدخول إلى كوروكانداميتس تقع مدينة مهمّة تدعى فاناغوريا، وتقع هناك أيضاً مدينة كيبي، ومدينة هيرموناسّا، ومدينة أباتور- معبد أفروديت. وتقع فاناغوريا وكيبي على الجزيرة المذكورة لدى الدخول إلى البحيرة من جهة اليسار، أمّا هيرموناسّا وأباتور فتقعان وراء هيبانيس في منطقة سيندا. وفي هذه الأخيرة يقع مكان غوركيبيا وهي عاصمة مملكة السينديين، غير بعيد عن البحر، وتقع هنا أيضاً أبوراكا. وتُدعى القبائل الخاضعة لحكّام البسبور كلّها بالقبائل البسبورية. والمدينة الرئيسة للبسبوريين الأوروبيين، هي مدينة بانتيكابيوس، أمّا مدينة البسبوريين الآسيويين الرئيسة فهي فاناغوريوس (لأنّ هذه المدينة تُدعى هكذا). ومن الواضح أن فاناغوريا كانت مركزاً لعبور البضائع الواردة من ميوتيدا، ومن البلاد البربرية الواقعة إلى الأعلى، أمّا بانتيكابيوس فكانت مركزاً لعبور البضائع الواردة إلى هناك من البحر. ويقوم في فاناغوريا معبد أفروديت أباتوروس الشهير. ولتفسير الصفة البدئية لهذه الإلهة، يروون أسطورة تقول: عندما هاجم العمالقة الإلهة هنا، طلبت العون من هرقل وأخفته في أحد الكهوف، ثمّ أخذت تستقبل العمالقة فرادى، لكي يقتلهم هرقل غدراً واحداً واحداً[10].

11- وينتمي إلى الميوتيين، السينديون أنفسهم والداندريون، والتورياتيون، والآغريون، والأريخيون، وكذلك التاربيتيون، الأبيدياكينيون، والسيتاكينيون، والدوسيكون وبعض الأقوام الأخرى. وينتمي إليهم الأسبوجيانيون الذين يقطنون في مكان بين فاناغوريا وغورغيبيا امتداده حوالي 500 مرحلة. وعندما هاجمهم الملك بوليمون متذرعاً بعقد معاهدة صداقة، ولم ينجح مع ذلك في إخفاء أغراضه الحقيقية،

تمكنوا من خداعه فأخذوه أسيراً ثمّ قتلوه. لقد كان فريق من الميوتيين الآسيويين تابعاً لمالكيّ المركز التجاري القائم على تانايس، والفريق الآخر تابعاً للبسبوريين. بيد أن الفريقين كانا يثوران بين وقت وآخر ضدّ حكّامهما. وكان حكّام البسبوريين يستولون في أحيان كثيرة على المناطق الممتدة حتّى تانايس، خاصة آخر حكّامهم: فارناك، وأساندرس، وبوليمون. ويقولون إنّ فارناك نظّف يوماً قناة قديمة وساق عبرها نهر هيبانيس إلى بلاد الداندارين وأغرقها.

12- بعد منطقة سيندا وغورغيبييا الواقعتين على البحر، يأتي ساحل الآخيين، والزيفيين، الجينيوخيين الصخري الخالي أكثره من المراسي، لأنه يشكّل جزءاً من القفقاس. وتعيش هذه الأقوام على القرصنة البحرية، التي يستخدمون فيها قوارب صغيرة ضيّقة وسريعة لا تتسع لأكثر من 25 شخصاً، ونادراً 30 شخصاً. وقد دعا الإغريق هذه القوارب «كاماري»[11]. ويقولون إن هذه الآخيا استوطنها الآخيون الثيوتيون من قوّات ياسون، بينما سكن اللاكونيون جينيوخيا؛ وتزعّم هؤلاء الأخيرين كريكاس[12] وأمفيستراتوس، حوذيا الديوسكوري؛ وعلى أغلب الظن أن الجينخيين[13] أخذوا اسمهم منهما. لقد كان هؤلاء يعدّون أساطيل صغيرة من مثل هذه «الكاماري» ويغيرون على السفن التجارية، أو حتّى على بلاد أو مدينة، وعلى هذا النحو سيطروا على البحر. وفي بعض الأحيان كانوا يتلقّون العون من سكّان البسبور، إذ كان هؤلاء يقدمون لهم مراسيهم، وأسواقهم لبيع غنائمهم. وعندما يرجعون إلى ديارهم، كانوا يحملون «كاماراتهم» هذه على أكتافهم، بسبب افتقار سواحلهم للمراسي، ويدخلون بها إلى الغابات حيث يعيشون ويحرثون أراضيهم الشحيحة. وعندما يحين موعد الإبحار، يحملون قواربهم من جديد إلى البحر. وكان هذا هو ما كانوا يفعلونه أيضاً في البلدان الأجنبية التي كانوا يعرفون مناطق الغابات فيها معرفة جيّدة؛ فقد كانوا يخفون «كاماراتهم» هناك ثمّ يتجوّلون في الأنحاء ليلاً ونهاراً يخطفون الناس ليبيعوهم عبيداً. لكنّهم قبل ذلك كانوا يعلنون للمخطوفين أنهم على استعداد لإخلاء سبيلهم إذا ما دفعوا فدية، ثمّ يخبرون أهلهم بذلك بعد أن يخرجوا إلى عرض البحر. وفي الأراضي الخاضعة لحكم الملوك، كان هؤلاء يقدّمون العون لضحايا العنف؛ كما كانوا من جانبهم يهاجمون القراصنة، وإذ يستولون على «كاماراتهم» يعودون بها أدراجهم مع طواقمها. لكنّ المناطق الخاضعة للرومان عاجزة عن مقاومة هذا الشرّ بسبب لامبالاة الولاة الذين يرسلونهم إلى هناك.

13- إنّ هـذا هـو نمـط عـيش هـذه الأقـوام. ويـدير شـؤونهم أشـخاص يـدعون «سـكيبتوخي»[14]، وهـؤلاء بـدورهم خاضـعون لـتيران أو لملـوك. فقـد كـان عنـد الجينيوخيين مثلاً، أربعة ملوك، عندما عبر أراضيهم ميتريدات إيفباتور المطرود من أرض آبائه وأجداده إلى البسبور. فقد تبيّن أن عبور هذه البلاد سهل يسير؛ واضطر ميتريدات إلى أن يصرف النظر عن عبور بلاد الزيغيين لأنها وعرة ومقفرة، وعانى صعوبات جمّة حتّى تمكّن من المسير على طول الساحل، فالشطر الأكبر من الطريق قطعه على مقربة من البحر إلى أن بلغ بلاد الآخيين. وبعون من هؤلاء نجح الملك في أن يصل إلى فاسيس قاطعاً طريقاً امتدادها أقلّ من 4000 مرحلة بقليل.

14- من كوروكونداما تتّجه الطريق البحرية مباشرة نحو الشرق. وعلى بعد 180 مرحلة منها تقع ميناء سيندا ومدينة سيندا. وبعد 400 مرحلة تأتي باتي، وهي قرية ومرسى، حيث يظنّون أنه هناك نحو الجنوب، قبالة هذا الساحل تقريباً تقع سينوبس، مثلما تقع رأس كارامبيس البحرية (التي جرى الحديث عنها سابقاً)[15] قبالة كريوميتوبون. وبعد باتي يذكر أرتيميدور ساحل الكيركيتيين (الذي تقع عليه مراس وقرى) الذي يقارب طوله 850 مرحلة؛ يليه ساحل الآخيين، وطوله 500 مرحلة؛ ثمّ ساحل الجينيوخيين، وطوله 1000 مرحلة؛ فساحل البيتيونت الكبير، وطوله 360 مرحلة وصولاً إلى ديوسكوريادس. أمّا مؤرّخو حروب ميتريرات الذين يستحقّون كلّ الثقة، فإنهم على الضدّ من هذا يذكرون الآخيين أولاً، ثمّ الزيغيين، فالجينيوخيين، وبعد ذلك الكيركيتيين، والماسخيين، والكولهيين، والثتيروفاغيين الذين يقطنون إلى الأعلى منهم، والسانيين، وباقي الأقوام الصغيرة الأخرى القريبة من القفقاس. وفي الأوّل يمتدّ الساحل شرقاً، كما كنت قد أسلفت، ويتّجه جنوباً، لكنّه ابتداء من الباتيين ينعطف قليلاً ثمّ يتّجه غرباً لينتهي عند بيتييونت وديوسكوريادس؛ فمناطق كولهيدا هذه تجاور الساحل المذكور. ويأتي بعد ديوسكوريادس باقي ساحل كولهيدا وساحل ترابيزونت الذي يجاوره بعد منعطف كبير؛ ثمّ يتواصل بعد ذلك على خطّ مستقيم تقريباً، ليشكّل من ثمّ الجهة اليمنى للبونتس، التي تتّجه شمالاً. وساحل الآخيين وباقي الأقوام كلّه، وصولاً إلى ديوسكوريادس والمناطق الواقعة على خطّ مباشر إلى الجنوب منها في عمق البلاد، كلّها تقع على سفوح القفقاس.

15- ويعلو هذا الجبل فوق البحرين معاً، بحر البونتس وبحر قزوين، حتّى يبدو كأنه سور يحيط بالبرزخ الذي يفصل بينهما. ومن جهة الجنوب يفصل الجبل ألبانيا

وإيبيريا، ومن الشمال، السهول السارماثية. والجبل مكسوّ بشتّى أنواع الشجر، خاصة الشجر الصالح لبناء السفن. وبحسب إيراتوسفين أنّ السكّان المحلّيين يدعون القفقاس قزوين، ربّما نسبة إلى [قبيلة] القزوينيين. وتبرز بعض ذيول هذا الجبل نحو الجنوب؛ فهي تطوّق وسط إيبيريا، وتلامس جبال أرمينيا والجبال التي تسمّى الجبال الموسخية، كما تلامس أيضاً سكيدس وباريادرس. وتعدّ هذه كلّها أجزاء من طوروس التي تشكّل الجانب الجنوبي منها أرمينيا؛ وتبدو هذه الجبال كأنها مقتطعة من طوروس في الشمال وتبرز حتّى القفقاس وأجزاء من الساحل الإيفكسيني، من كولهيدا حتّى ثيميسكيرا.

16- وبما أن ديوسكورياديس تقع في هذا الخليج، وتشغل أقصى نقطة شرقية في البحر كله، فإنها تعدّ «وهدة» البونتس الإيفيكسيني و[الإبحار إليها] هو الأبعد. لأنّه هكذا ينبغي أن نفهم بيت الشعر المعروف

إلى فاسيس، على متون السفن، حيث أقصى طريق،

(*تراجيديا مجهولة المؤلّف*، مقطع 559 . ناؤوك)

وليس كما لو أن مؤلّف اليامبا عنى النهر بقوله هذا، بل لأنه عنى المدينة التي تحمل اسم النهر عينه، والتي تقع على النهر؛ وعلى أغلب الظنّ، إنه دعا كولهيدا كلّها باسم جزء من أجزائها، لأنه من النهر والمدينة إلى «الوهدة» تبقى طريق على خطّ مباشر لا تقلّ مسافتها عن 600 مرحلة. وديوسكورياديس هذه، تعدّ أوّل البرزخ القائم بين بحر قزوين وبحر البونتس، والمركز التجاري المشترك للأقوام التي تسكن إلى الأعلى والأقوام المجاورة. وفي الأحوال كلّها فإن هذه المدينة تجمع 70 من الشعوب المختلفة (وبحسب آخرين لا يلقون بالاً لواقع الأشياء، أن المدينة تجمع 300 شعب). ويتحدّث كلّ من هؤلاء لغته التي تختلف عن لغات الآخرين، لأنّ كلّ شعب يعيش منعزلاً عن الآخرين، بسبب غطرسته وانطوائيته. وأكثر هؤلاء سارماثيون، لكنّ كلّهم قفقاسيّ. وهذا كلّ ما لديّ عن ديوسكورياديس.

17- أمّا ما تبقّى من كولهيدا فإن الشطر الأكبر منها يقع على البحر. وعبر كولهيدا يجري فاسيس، وهو نهر كبير ينبع من أرمينيا، وترفده مياه غلاوك ونهر هيبس اللذان ينبعان من الجبال المجاورة. وفاسيس صالح للملاحة حتّى سارابانا، وهي قلعة تتسع لسكنى سكّان مدينة كاملة. ومن هنا برّاً على طريق مطروقة إلى كير

مسير أربعة أيام. وتقوم على نهر فاسيس مدينة تحمل الاسم نفسه، وتعدّ هذه المدينة المركز التجاري للكولخيين، ويطوّقها النهر من جهة وبحيرة من جهة، والبحر من جهة ثالثة. ويستغرق الإبحار من هنا إلى أميس وسينوبس يومين أو ثلاثة، لأنّ أرض السواحل البحرية موحلة وفي مصبّات الأنهار مستنقعية. ولا تشتهر هذه البلاد بغلالها فقط (ما عدا عسلها لأنّ في طعمه مراراً ظاهراً)، إنما بكلّ ما هو ضروري لبناء السفن أيضاً. فهي تنتج كثيراً من الأخشاب وتنقلها عبر الأنهار. ويصنع سكّانها كثيراً من المنسوجات الكتانية، والقنّب، ويستخرجون القطران والشمع. وتحظى منسوجاتهم الكتانية التي يصنعونها محلّياً، بشهرة واسعة. فقد كانوا يصدّرونها إلى البلدان الأخرى، ورغبة من بعضهم في إقامة صلة نسب بين الكولخيين والمصريين، يرون في هذه الحقيقة دليلاً على صحّة وجهة نظرهم. وعلى الأنهار المذكورة يقع في بلاد الموسخيين معبد ليوكوفيا الذي بناه فريكس، وموحى فريكس الذي يحرّم تقديم الخرفان ذبائح فيه. وفي زمن ما نهب فارناك هذا الموحى الغني، ثمّ كرر الفعلة بعده ميتريدات البرغامي، فبحسب يوريبيدس أنه بعد نهب البلاد

يتألّم الإله، ولا تتعطّش الأجيال

(*الثلاثيات*، 26)

18- وتظهر الأساطير التي تتحدّث لو بطريقة مبهمة عن حملة ياسون الذي وصل إلى ميديا، وحملة فريكس المبكرة التي سبقت حملة ياسون، تظهر مدى الشهرة التي كانت تحظى بها هذه البلاد. وامتلك الملوك الورثة الذين جاؤوا بعد ذلك، البلاد المقسّمة إلى «سكيبتوخات»[16]، لكنّ رخاءهم كان محدوداً. وعندما زادت سلطة ميتريدات إيفباتور قوّة، خضعت البلاد لسيطرته. وكان الملك يرسل إلى هناك دائماً أحد «أصدقائه» [المقرّبين] «عاملاً» أو «حاكماً»[17]. وكان مواثيرنوس أحد هؤلاء «العمال»، وهو عمّ والدتي. ومن هذه البلاد كان الملك يتلقّى أكبر العون لتزويد أسطوله. وبعد انهيار قوّة ميتريدات، تفككت دولته وانقسمت بين كثير من الحكّام. وفي نهاية المطاف امتلك بوليمون كولهيدا، وبعد وفاة هذا الأخير حكمت البلاد زوجته بيثودوريدس التي كانت ملكة الكولهيين ومدينتي ترابيزونت وفارناكيا والمناطق البربرية الواقعة إلى الأعلى التي سنتحدّث عنها فيما بعد[18]. وتنقسم بلاد الموسخيين التي يقع فيها المعبد[19]، إلى ثلاثة أقسام: جزء تحت سلطة الكولهيين، وجزء تحت

سلطة الإيبيديين، وجزء يملكه الأرمن. وثمّة في إيبيديا أيضاً مدينة صغيرة (مدينة فريكس)، هي إيديسّا المعاصرة، وهي موقع حصين على حدود كولهيدا. وعلى مقربة من ديوسكوريادس يجري نهر هاريس.

19-ويندرج في عداد الأقوام التي تجتمع في ديوسكوريادس، الثتيروفاغيون[20]، الذين حملوا هذا الاسم بسبب قذارة أجسادهم. وعلى مقربة يعيش السوانيون الذين لا يقلّون عنهم قذارة، لكنّهم أكثر منهم جبروتاً؛ وربّما كانوا أكثر من الآخرين كلّهم قوة وامتلاكاً للروح القتالية. وعلى أيّ حال فإنهم يسودون على كلّ الأقوام المحيطة بهم، إذ يشغلون قمم القفقاس التي تعلو فوق ديوسكوريادس. ولدى السوانيين ملك ومجلس من 300 عضو، ويقال إنهم يستطيعون تجنيد 200.000 مقاتل. فواقع الحال، هو أن الكتلة الشعبية كلّها عندهم مؤهلة للقتال، مع أنها ليست قوّة منظمة. ويروى أن الأنهار الجبلية في بلادهم تحمل الذهب، فيلتقطه البرابرة بالغرابيل والجلود الشعثاء[21]. ومن هنا جاءت أسطورة الجزّة الذهبية، كما يقولون. ويدعو بعضهم السوانيين إيبيريين أيضاً - على حدّ سواء مع الغربيين - نسبة إلى الرواسب الذهبية الموجودة في البلدين. ويشبع السوانيون رؤوس سهامهم بسمّ ذي فاعلية مذهلة، إذ يعاني من رائحته حتّى الذين لم تجرحهم السهام المشبعة به. أمّا الأقوام الأخرى التي تعيش قرب القفقاس، فإنها تشغل أراض شحيحة لا أهمية لها؛ وعلى الضدّ منها القبائل الإيبيرية والألبانية التي تشغل الشطر الأكبر من البرزخ المذكور، إذ يمكن أن تدعى قبائل قفقاسية أيضاً. فهي تملك أراض خصبة ويمكنها أن تطوّر اقتصاداً جيّداً.

الفصل الثالث

1- إن الشطر الأعظم من إيبيريا يعجّ فعلاً بكثرة من المدن، والبلدات، والقرى، وتنتشر في هذه المراكز السكّانية، الأسقف القرميدية، وساحات الأسواق وسوى ذلك من المنشآت المبنية وفق قواعد الهندسة المعمارية.

2- وتحيط جبال القفقاس بجزء من هذه البلاد. وكما قلت سابقاً[1]، إن ذيول هذه الجبال تبرز نحو الجنوب؛ وهي أراض ذهبية تحيط بايبيريا كلّها وتصل لتجاور أرمينيا وكولهيدا. ويقع في وسط إيبيريا سهل تجري فيه أنهار، أكبرها نهر كير. وينبع هذا من أرمينيا، وفي اللحظة التي يدخل فيها السهل المذكور، يستقبل نهر آراغ (الذي يجري من القفقاس)، وسواه من الأنهار الأخرى، ثمّ يعبر وادياً ضيقاً ليدخل بعد

ذلك ألبانيا؛ وبين هذا الوادي وأرمينيا يندفع النهر هادراً عبر سهول غنية جدّاً بالمراعي، ويستقبل أنهاراً أخرى، منها نهر ألازونيوس، ونهر ساندوبان، ونهر ريتاك، ونهر خان (وكلّها صالح للملاحة)، ليصبّ في آخر المطاف في بحر قزوين. وكان هذا النهر يدعى من قبل نهر كور.

3- ويقطن سهل إيبيريا أناس يميلون إلى العمل الزراعي وينزعون نحو السلام. ويرتدي هؤلاء أزياء كالأزياء الأرمينية والميدية؛ أمّا المناطق الجبلية فيقطنها أناس أجلاف ومقاتلون يعيشون وفق نمط العيش السكيثي والسارماتي، وهم جيران هؤلاء وتربطهم بهم أواصر القرابة؛ ولكنّهم يعملون بالزراعة أيضاً. وفي حال نشوء حالة من الاضطراب والقلق يستطيع هؤلاء أن يجنّدوا عشرات آلاف المقاتلين من بين صفوفهم كما من صفوف السكيث والسارمات.

4- وثمّة أربعة معابر تقود إلى هذه البلاد. أحدها عبر الحصن الكولهي سارابانا والثغر الواقع على مقربة منه. وعبر هذا الثغر ينحدر فاسيس هادراً بعنف (بسبب كثرة التواءات هذا النهر أقاموا عليه 20 جسراً) إلى كولهيدا، وعندما تهطل الأمطار بغزارة تغطي المكان أخاديد كثيرة تحدثها التيارات المائية الجبلية. وتقع منابع فاسيس في الجبال الواقعة فوق إيبيريا، حيث يمتلئ هناك بمياه كثير من الينابيع، ثمّ يستقبل في السهول أنهاراً أخرى، منها نهر غلاوك ونهر هيبس. وإذ يمتلئ بمياه هذه الروافد كلّها ويغدو صالحاً للملاحة، يمضي هذا النهر ليصبّ في البونتس؛ وتقع عند مصبّه مدينة تحمل اسمه، وعلى مقربة من هذه الأخيرة تقع بحيرة. هذا هو وصفي للمعبر من كولهيدا إلى إيبيريا، وهو المعبر الذي تحيط به الحصون، والصخور، والأنهار الهادرة.

5- وتنطلق من منطقة الرّحل الشماليين طريق صاعدة وعرة يستغرق اجتيازها ثلاثة أيام، ثمّ يبدأ بعد ذلك واد نهري ضيّق يمتدّ على طول آراغ، وتعبر الوادي طريق مستوية يستغرق اجتيازها أربعة أيام لشخص من دون حمولة. ويحرس القطاع الأخير من الطريق حصن منيع. ويمضي العبور من ألبانيا في أوّل الأمر عبر منطقة صخرية تخترقها طريق صغيرة، ثمّ عبر منطقة فيضانات يشكلها نهر ألازونيوس الذي ينحدر من القفقاس. أمّا المعابر التي تنطلق من أرمينيا، فهي ثغر كير وآراغ. فإلى الأعلى من نقطة التقاء هذين النهرين، تقع على الصخور مدينتان محصّنتان تبعد واحدتهما عن الأخرى قرابة 16 مرحلة: مدينة هارموزيكا على نهر كير، ومدينة سيسامورا على

النهـر الآخـر. وقـد اسـتخدم هـذه المعـابر في أوّل الأمـر، بومبيـوس الـذي كـان زاحفـاً بجيوشه من أرمينيا، ثمّ استخدمها كانيدس.

6- وتقطن هذه البلاد أربعة أصناف من النـاس. أحدهما يعدّ الصنف الرئيس، ومنه يختارون ملوكهم، من الأكبر سنّاً والأكثر عراقة؛ والشخصية التالية من حيث الأهمية، هو القاضي والقائد العسكري؛ والصنف الثاني، هو الكهنة، الذين يديرون إلى جانب شؤون أخرى، الدعاوى والخصومات مع الجيران. ويتألّف الصنف الثالث من المقاتلين والفلاحين. وأخيراً الصنف الرابع الذي يتألّف من باقي فئات الشعب العادية؛ إنهم عبيد الملك الذين ينهضون بكلّ أعمال تحصيل موارد العيش. والملكية عند هؤلاء مشتركة، ويدير شؤون كلّ ملكية ويحافظ عليها الرجل الأكبر سنّاً. هؤلاء هم الإيبيريون، وهذه هي بلادهم.

الفصل الرابع

1- يميل الألبانيون أكثر إلى تربية الحيوانات والرعي، وهم أكثر قرباً من الرحّل؛ لكنّهم ليسوا قساة، ولذلك فعدوانيتهم غير زائدة. وهم يعيشون بين الإيبيريين وبحر قزوين؛ ومن الشرق تجاور بلادهم البحر، وتحاذي الإيبيريين من الغرب. أمّا فيما يخصّ الجهتين الأخريين، فالشمالية منهما تحيط بها جبال القفقاس (لأنّ هذه الجبال تعلو فوق السهول، وتُدعى، خاصة شطرها المجاور للبحر، بالجبال الكيرافنية)، وتشكل أرمينيا الجهة الأخيرة التي تجاورها؛ وأرمينيا جزئياً، عبارة عن سهل، وجزؤها الآخر بلاد جبلية، مثل كامبيسينا، حيث يتجاور الأرمن مع الإيبيريين والألبانيين في الوقت نفسه.

2- ويزيد نهر كير الذي يجري عبر ألبانيا، ومعه الأنهار الأخرى التي ترفده بمياهها، من خصوبة الأرض، لكنّه بالمقابل يفصلها عن البحر. فما يحمله النهر يصل إلى هنا بكميات كبيرة تملأ المعبر، فتتّصل الجزر الصغيرة المجاورة مع البرّ مشكّلة هنا وهناك مخاضات بارزة يصعب تفاديها. ويتزايد تغيّر المخاضات المتواصل هذا بسبب تلاطم الأمواج وقت الجزر. ويقال، إن مصبّات الأنهار تنقسم هنا إلى اثني عشر مخرجاً؛ بعضها ناء، وما تبقّى منها يطاله لطم الأمواج وليس فيه مراس. ومع أن الساحل يشاطئ البحر والأنهار مسافة تزيد على 60 مرحلة، إلاّ أن كلّ جزء منه عصيّ ولا يمكن بلوغه؛ فالترسبات النهرية تمتدّ حتّى 500 مرحلة وتجعل الشاطئ رملياً. وعلى مقربة

يصبّ أراكس الذي ينحدر صاخباً من أرمينيا. ولكنّ الترسبات التي يحملها أراكس إلى مصبّه، جاعلاً مجراه صالحاً للملاحة، يعوّضها كير بالكمّ نفسه.

3- وعلى أيّ حال ربّما لا يكون للبحر ضرورة عند مثل هؤلاء الناس البتّة. بل حتّى الأرض لا يستخدمها هؤلاء حسب جودتها، لأنّ هذه الأرض لا تنتج شتّى أنواع الثمار فقط، إنما مختلف النباتات أيضاً؛ وتنمو فيها فعلاً مختلف النباتات الدائمة الخضرة. ولا تحتاج أرضهم في غضون ذلك أيّ شكل من أشكال العناية بها، إنما خيراتها كلّها

من غير حراثة وبذار تنمو

(*الأوذيسا* IX، 109)

وهذا ما يخبّر به أولئك الذين قاموا برحلات إلى هذه البلاد[1]، إذ رووا عمّا يمكن أن يدعى نمط عيشهم «السيكلوبي»[2]. فعلى حدّ قول هؤلاء الكتّاب، إن الأرض التي زرعت مرّة هنا، أعطت في أماكن كثيرة محصولين أو ثلاثة محاصيل، بل قد جاء المحصول الأوّل بقدر خمسين ضعفاً؛ ولم يكن الحقل في غضون ذلك بوراً، كما أنه لم يحرث بمحراث حديدي، بل بمحراث خشبي. ويروى هذا السهل بمياه أنهاره ومياه المصادر المائية الأخرى، أفضل مما تروى سهول بابل ومصر، فهو يحافظ دوماً على اخضراره وتكثر فيه المراعي. وعلاوة على هذا فإن المناخ هنا ملائم أكثر مما هي عليه في بابل ومصر.

ولا تُعزق عرائش العنب هنا حتّى النهاية أبداً، بل يشذّبونها مرّة كلّ خمس سنوات. والعرائش المزروعة حديثاً تعطي محصولها في العام الثاني، وهي إذ يكتمل نموّها تعطي من العناقيد ما لا يتسنّى قطافه كاملاً، فيبقى قسم كبير من المحصول على غصونه. وعلى النحو نفسه تتكاثر قطعان هذه البلاد أيضاً، المنزلية منها والبرية.

4- ويتميّز الناس بجمال المظهر وطول القامة، وهم في الوقت عينه بسطاء يحملون قلوباً طيّبة، لكنّهم ليسوا سطحيين يهتمّون بتوافه الأمور فقط. والمسكوكات النقدية ليست متداولة عندهم عادة، ولا يعرفون عدداً أكبر من المئة، وتعتمد تجارتهم على التبادل العيني. أمّا موقفهم من الشؤون الحياتية الأخرى فيتسم باللامبالاة. ولا يعرفون شيئاً عن المقاييس والمعايير والموازين الدقيقة. كما لا يبدون أيّ اهتمام بمسائل الحرب، وبناء الدولة، والعمل الزراعي. ولكنّهم يقاتلون مشاة وفرساناً بأسلحة خفيفة، كما يفعل الأرمن[3].

5- ويجنّد هؤلاء أعداداً من المقاتلين أكبر ممّا يجنّده الإيبيريون. فهم على وجه التحديد الذين يضعون تحت السلاح 60.000 من الجنود المشاة، و22.000 من الفرسان[4]، وبهذا العدد الكبير من المقاتلين واجهوا بومبييوس. ويقدّم الرحّل العون للألبانيين كما للإيبيريين في الحرب ضدّ الغرباء، للأسباب عينها. ولكنّهم يشنّون ضدّهم الغزوات في أحيان كثيرة، فيعيقون بذلك أعمالهم الزراعية. ويتألّف سلاح الألبانيين من المزاريق والأقواس والسهام؛ وهم يرتدون الدروع، ويحملون تروساً أكثر تطاولاً، ويعتمرون خوذاً من جلود الوحوش، مثلهم في هذا مثل الإيبيريين. وإلى منطقة الألبانيين تتبع منطقة قزوينيا التي حملت اسم قبيلة اندثرت بعد أن أعطت اسمها لبحر أيضاً. ويمتدّ المعبر من إيبيريا إلى ألبانيا عبر منطقة صخرية قاحلة تدعى كامبيسينا، ثمّ إلى نهر ألوزونيوس. ويميل الألبانيون، وكذلك كلابهم للصيد، ولكن ليس بدافع مهاراتهم، بل بدافع شغفهم به.

6- ولملوكهم أيضاً شهرة واسعة. والحقيقة أن لهم الآن ملكاً واحداً يدير شؤون القبائل كلّها، بينما في الماضي كان لكلّ قبيلة تتحدّث لغة مختلفة، ملكها الخاص بها، وعندهم 26 لغة، ولذلك ليس التواصل فيما بينهم بالأمر اليسير. وتوجد في هذه البلاد عدة أنواع من الزواحف السامّة، إضافة إلى العقارب والعناكب السامّة[5]. وترغم لدغة بعضها الملدوغ على أن يموت وهو يضحك، بينما ترغمه لدغة بعضها الآخر على أن يموت وهو يبكي فراق أهله وأقاربه.

7- ويعبدون من الآلهة هيليوس، وزيوس، وسيلينا، خاصة سيلينا التي يقع معبدها على مقربة من إيبيريا. وينهض بمهمات الكاهن عندهم الشخص الذي يحظى بأكبر احترام بعد الملك؛ ويقف هذا على رأس منطقة مقدّسة ذات كثافة سكّانية عالية، ويتصرّف بعبيد المعبد المسكون أكثرهم بإله، وينطق بالنبوءات. ومن منهم يغدو مسكوناً بالإله، يجول بالغابات وحيداً، فيأمر الكاهن بالقبض عليه وتكبيله بسلسلة مقدّسة، ثمّ يُعال بسخاء طول العام؛ وبعد ذلك يُدهن المعدّ ذبيحة للإلهة بالطيب، وينحر مع الذبائح الأخرى. وتقدّم الذبيحة على النحو الآتي: يخرج من الحشد شخص ما ضليع في مثل هذا العمل، وهو يحمل بيده رمحاً مقدّساً ينجزون به وفق التقليد تقديم الذبيحة البشرية، فيطعن الضحية في القلب عبر الجنب. وعندما يسقط الضحية على الأرض، يتلقّون علامات معروفة تظهر بحسب طريقة سقوطه، ويعلنون

ذلك على الجميع. ثمّ يحملون الجثمان إلى مكان معيّن يطؤه فيه جميعهم بالأقدام، مؤدّين بذلك طقس التطهر.

8- ويجلّ الألبانيون الشيخوخة إجلالاً عظيماً، ولا ينسحب هذا على الوالدين فقط، بل على الناس الآخرين كلّهم. ولكنّ الاهتمام بالأموات، أو حتّى تذكّرهم، عدّ شأناً قبيحاً عندهم. وكانوا يدفنون مع المتوفّى مقتنياته كلّها، ولذلك هم فقراء محرومون من تركات والديهم. وهذه هي معلوماتي عن الألبانيين. وبحسب الأسطورة أن ياسون أثناء رحلته إلى الكولخيين مع التسالي أرمين، توغّل حتّى وصل بحر قزوين، وزار إيبيريا، وألبانيا، والشطر الأكبر من أرمينيا وميديا، وهذا ما يؤكّده وجود معابده هناك[6]، إضافة إلى آثار أخرى. وبحسب الحكايات، إن أرمين ينحدر من أرمينوس، وهي واحدة من المدن الواقعة على مقربة من بحيرة بيبييدا، بين ثيرا ولاريسا. وقد شغل مرافقو أرمين منطقة أكيليسينا وسيبيريتيدا وصولاً إلى كالاهانا وأديابينا، بل وترك من بعده بلاداً دعيت باسمه: أرمينيا.

الفصل الخامس

1- يقال إن الأمازونيس يقطنّ في الجبال التي تعلو فوق ألبانيا. ويروي ثيوفانوس الذي رافق بومبييوس في حملته وزار بلاد الألبانيين، إن قبائل الليفيين والهيليين السكيثية تعيش بين الأمازونيس والألبانيين وإن نهر ميرماداليدا يجري في هذه البلاد في الوسط بين هذه القبائل والأمازونيس. ولكنّ كتّاباً آخرين يعرفون هذه الأماكن معرفة جيّدة (منهم ميترودور السكيبسيسي[1]، وهيبسيقراط)، يزعمون أنّ الأمازونيس يقطنّ في جوار الغارغاريين في مرتفعات تلك الأجزاء من جبال القفقاس التي تدعى الجبال الكيرافنية. وتستغلّ الأمازونيس الباقي من الوقت كلّه[2] للاهتمام بأمورهن الخاصة، فينجزون أعمالاً معيّنة، كحراثة الأرض، وأعمال البستنة، والعناية بالقطعان، خاصة الخيل؛ ويعمل الأكثر قوّة من الأمازونيس بالصيد على صهوات الجياد، كما يمارسن التمارين القتالية. وفي سنّ الطفولة يحرقن الثدي الأيمن لكلّ منهن، لكي يتسنّى لهنّ استخدام اليد اليمنى من غير عائق في أيّ عمل كان، خاصة لدى رمي الرمح. كما يستخدمن القوس والسهام، والفأس القتالية وترساً خفيفاً؛ ويصنعن من جلود الوحوش خوذاً، وأردية، وأحزمة. ولديهنّ في الربيع شهران لهما خصوصية خاصة، إذ يصعدن إلى الجبل المجاور الذي يفصل بين قبيلتهن والغارغاريين.

ووفق واحدة من العادات القديمة العهد، أن الغارغارين يصعدون إلى هذا الجبل أيضاً، لكي يقدّموا الذبائح مع نسائهم ثمّ يتناسلون معهن لإنجاب الأولاد؛ وتجري المعاشرة أثناء ذلك في الظلام إذ يعاشر كلّ رجل المرأة التي يصادف؛ وعندما يحصل الحمل يطلق الغارغاريون نساءهم ليرجعن إلى الديار. وعندما تضع النساء حملهن، تُبقي الأمازونيس المولودات الإناث لديهنّ، ويدفعن بالمواليد الذكور إلى الغارغاريين لتربيتهم، فيأخذ كلّ غارغاريّ الوليد الذي يُعطى له، ويعدّه ابناً له.

2- ويجري نهر ميرمودا[3] الذي ينحدر صاخباً من الجبال، عبر بلاد الأمازونيس، وسيراكينا، ثمّ يعبر كلّ البادية الممتدّة بينهما ليصبّ في ميوتيدا. ويقولون، إن الغارغاريين صعدوا مع الأمازونيس إلى هذه الأماكن من ثميسكيرا؛ لكنّهم ثاروا بعد ذلك وبدؤوا حرباً ضدّ الأمازونيس شاركهم فيها بعض من التراقيين والإيبيين (الذين وصلوا في ترحالهم إلى هذه الأماكن)؛ وبعد أن أوقفوا الحرب، عقدوا معهن اتفاقاً تضمّن الشروط المذكورة: يقتصر التواصل بين الفريقين على إنجاب الأطفال، بينما يعيش كلّ منهما مستقلاً عن الآخر.

3- لكنّ شيئاً ما غريباً وقع لحكاية الأمازونيس. ففي الحكايات الأخرى كلّها يوجد حدّ فاصل بين العناصر الميثولوجية والعناصر التاريخية؛ فالعاديات، والاختلاق، والعجيب تدعى كلّها أساطير، أمّا التاريخ، سواء كان قديماً أم حديثاً، فهو يستحضر الحقيقة، وليس للعجيب مكان فيه إلاّ فيما ندر. وفيما يتعلّق بالأمازونيس، فقد تناقلوا عنهن دائماً، سواء فيما مضى أو الآن، الحكايات عينها، وهي كلّها حكايات عجيبية ومستحيلة. فمن يصدّق مثلاً، أنّ قوات ما أو قبيلة ما يمكن أن تتألّف في أي زمن كان، من النساء فقط؟ ولم يكفهم أن تتألّف من النساء فقط، بل كانت تشنّ غزوات على أراضي الغير، وتحقّق الانتصارات على القبائل المجاورة، حتّى أنها وصلت أتيكا نفسها؟ وواقع الأمر أن التسليم بهذا يماثل قولنا: إن رجال ذلك الزمن كانوا نساء، ونساءه رجالاً. والأدهى من هذا، إن حكايات الأمازونيس لا تزال شائعة حتّى يومنا هذا، وإن نزوعنا لأخذ مثل هذه الحكايات على محمل الجدّ، هو أقوى من ميلنا إلى صحّة الروايات المعاصرة، وهذا ما يجعل وجه الغرابة المذكور أعظم.

4- ويتحدّثون عن تأسيس الأمازونيس عدد من المدن التي جاءت أسماؤها من الأمازونيس، فيذكرون في هذا السياق إفسس، وسميرنا، وكيما، وميرينا، كما

يتحدّثون أيضاً عن قبورهن وسوى ذلك من المعالم. ويدعو كلهم ثميسكيرا والسهول الواقعة قرب ثيرمودونت والجبال التي تعلو فوقها، بلاد الأمازونيس، إذ يزعمون أنهنّ طردن من هنا. وفيما يخصّ مكان تواجد الأمازونيس اليوم، فإن بعضهم فقط ينقل معلومات لا أساس لها وغير معقولة. ومن مثل هذه الروايات، قصة ملكة الأمازونيس فاليستريا التي يزعمون أن الإسكندر عاشرها في هيركانيا لكي ينجب منها أبناء. بيد أن هذه الرواية لا يأخذها كلّهم على محمل الجدّ؛ فليس بين المصادر الكثيرة التي تهوى الحقيقة أوّلاً، أيّ مصدر يأتي على ذكر مثل الرواية، كما لا يتطرّق إليها بأيّ شكل كان أيّ من أولئك الذين يستحقون أكبر الثقة، وحتى الذين ساقوا رواية هذه الواقعة، ساقوها بأشكال مختلفة. فبحسب كليتارخ، أن فاليستريا جاءت إلى الإسكندر من البوابات القزوينية وثيرمودونت، ويجدر أن نذكر هنا أن المسافة بين منطقة قزوين وثيرمودونت أكثر من 600 مرحلة.

5- وحتى الروايات الشائعة التي أُنشئت لتبجيل الإسكندر، لا تحظى بقبول عام لأنّ ما انشغل به مؤلّفوها هو التملّق وليس الحقيقة. فقد نقل هؤلاء، على سبيل المثال، اسم «القفقاس» من الجبال التي تعلو فوق كولهيدا والبونتس الإيفيكسيني إلى الجبال الهندية والبحر الشرقي الواقع على مقربة منها. فالإغريق لم يدعوا سوى هذه الجبال الواقعة على بعد أكثر من 30.000 مرحلة عن الهند، بجبال القفقاس، وإلى هنا نقلوا مكان أحداث أسطورة بروميثيوس وأغلاله. وحقيقة الأمر أن هذه الجبال كانت عندئذٍ الجبال الأبعد بين الجبال التي كانت معروفة لناس ذلك الزمن. أمّا حملتا ديونيسسيوس وهرقل فإنهما على الضدّ من هذا تشيران إلى نشوء الأسطورة في زمن أحدث من هذا التاريخ. والحقيقة أن مجد الإسكندر كان أعظم بكثير لو أخضع آسيا حتّى الجبال الهندية، مما لو بلغ أقصى نقطة على البونتس الإيفيكسيني والقفقاس، ولكنّ المجد الذي كانت تحظى به هذه الجبال والاعتقاد الذي كان سائداً عن أن ياسون ورفاقه قد قاموا بأبعد حملة بين الحملات كلّها، فوصلوا إلى المناطق المتاخمة للقفقاس، وكذلك أسطورة بروميثيوس الذي قيّد بالأغلال على أطراف الأرض فوق القفقاس، هذا كلّه كان السبب الذي جعل الكتّاب يتملّقون الملك، فنقلوا اسم القفقاس إلى الهند.

6- إن أعلى أقسام جبال القفقاس، هي أقصى أقسامها الجنوبية الواقعة عند ألبانيا، وإيبيريا، وبلاد الكولهيين والجينيوخيين. وتقطن هناك القبائل التي تذهب،

كما أشرت آنفاً[4]، إلى ديوسكوريادس، والغرض الرئيس لذهابها إلى هناك، هو الحصول على الملح. ومن هذه القبائل من يشغل قمم الجبال، ومنهم من يشغل الوديان، التي تكسوها الغابات، ويقتات هؤلاء أساساً بلحوم الحيوانات البّرية، والغلال البرية، والحليب ومشتقاته. ولكنّ بلوغ قمم الجبال أمر متعذّر في الشتاء، ولذلك يصعد إليها الناس صيفاً بعد أن يربطوا على أرجلهم، بسبب الثلوج والجليد، قطعاً من جلد الثور العريضة الطرية المدعوكة التي تشبه الطبل، ويغرزون فيها أشواكاً. وكانوا يضطرّون إلى النزول من هناك مع أحمالهم مستلقين على الجلود متزلّجين على الجليد، كما يفعلون في ميديا الأتروباتية، وعلى جبل ماسي في أرمينيا. ولكنّهم يضعون هناك تحت نعال جزمهم عجلات خشبية صغيرة مغروزة بالشوك. تلكم هي قمم القفقاس.

7- وإذ نهبط إلى السفوح، نصل منطقة تقع إلى الشمال، مناخها أكثر لطافة. فهذه المنطقة تتاخم سهول السيراكيين. ويعيش هنا أيضاً بعض التروغلوديتيين، الذين أرغمهم الصقيع على العيش في وجار الوحوش، بيد أن عندهم كثيراً من خبز الشعير. ويلي التروغلوديتيين الخاميكيتيون[5]، وما يدعون بالبوليفاغيين[6]، ومستوطنات الإيساديكين الذين لا يزال بإمكانهم ممارسة العمل الزراعي، لأنهم لا يعيشون في أقصى الشمال.

8- ويأتي بعد ذلك الرحّل الذين يعيشون بين ميوتيدا وبحر قزوين، وهؤلاء هم على وجه التحديد النابيانيون، والبانكسانيون، وكذلك قبائل السيراكيين، والآورسيين. ومن الواضح أن هؤلاء الآورسيين والسيراكيين هم مطاريد القبائل التي تقطن إلى الأعلى، أمّا الآورسيون فيسكنون إلى الشمال من السيراكيين. وكان أبياك ملك السراكيين يضع تحت السلاح 20.000 فارس (بينما كان فارناك يملك البوسبور)، أمّا سبارادين، ملك الآورسيين، فقد كان يجند حتّى 200.000؛ لكنّ الآورسيين العُلْويين كانوا يجنّدون أكثر من هذا، لأنهم كانوا يشغلون منطقة شاسعة أكثر، إذ امتلكوا الشطر الأعظم من ساحل بحر قزوين. ولذلك عملوا بتجارة القوافل، واستخدموا فيها الجمال، وقد كانوا يبادلون بالبضائع الهندية والبابلية، البضائع الأرمينية والميدية؛ وتبعاً لثرائهم كانوا يتزينون بحليّ ذهبية. ويعيش الآورسيون عموماً على مجرى تانايس، والسيراكيون على مجرى أخارديوس الذي ينبع من جبال القفقاس ويصبّ في ميوتيدا.

الفصل السادس

1- يبدأ الشطر الثاني[1] من آسيا عند بحر قزوين الذي ينتهي عنده شطرها الأوّل. ويدعى هذا البحر بالبحر الهركاني أيضاً. وينبغي عليّ أن أتحدّث عن هذا البحر والشعوب القاطنة حوله أوّلاً. فبحر قزوين عبارة عن خليج يمتدّ من المحيط[2] نحو الجنوب؛ والبحر متضيّق في أوّله بشكل ملحوظ، إلاّ أنه يتسع كلّما اتّجه نحو العمق، خاصة في المنطقة الأقصى منه، حيث يبلغ عرضه حوالي 5000 مرحلة. والمسافة من مدخله الذي يقع على حدود العالم غير المأهول، حتّى أقصى نقطة في البحر أكثر من هذا بقليل. فبحسب إيراتوسفين إن امتداد الطريق التي يعرفها الإغريق حول هذا البحر على طول شواطئ الألبانيين والكادوسيين، 5400 مرحلة، أمّا على طول شواطئ الأناريكيين، والمارديين، والهركانيين وصولاً إلى مصبّ نهر أوكس فإن هذه المسافة هي 4800 مرحلة، ومن هناك إلى ياكسارت 2400 مرحلة. وعلى وجه العموم ينبغي ألاّ تؤخذ المعطيات المنقولة عن هذا الشطر من آسيا، على وجه الدّقّة، خاصة عندما يجري الحديث عن المسافات.

2- وإذا دخلنا بحر قزوين، فعلى يمينه يقطن السكيثيون أو السارماثيون الذين يجاورون البلدان الأوروبية، وبين تانايس وهذا البحر أكثر السكّان من الرحل (وكنت قد أشرت إليهم)[3]. ويعيش على يساره السكيثيون الشرقيون، والنوماديون أيضاً، وتنبسط منطقة هؤلاء حتّى البحر الشرقي والهند. وكان المؤرّخون الإغريق القدماء قد دعوا الشعوب الشمالية كلّها باسم واحد، هو الشعوب السكيثية أو السلتوسكيثية. لكنّ المؤرّخين الأقدم من هؤلاء كانوا قد ميَّزوا بين هذه الشعوب، إذ دعوا القبائل التي كانت تقطن فوق البونتس الإيفيكسيني، والإيستر، والبحر الأدرياتيكي، بالهيبربورياس، والسافروماتيين، والإريماسبيين. أمّا القبائل التي تقطن وراء بحر قزوين، فقد دعا هؤلاء المؤرّخون بعضها بالساكيين، وبعضها الآخر بالماساجيتيين، لكنّهم كانوا عاجزين عن نقل أيّ شيء محدّد عنها، مع أنهم وصفوا حرب قورش مع الماساجيتيين[3]. بيد أنّ أبحاث هؤلاء المؤرّخين لم تنقل أي شيء دقيق عن هذه القبيلة، أمّا التاريخ القديم للفرس، والميديين، والسوريين، فلم يحظ بالثقة، بسبب سذاجة المؤرّخين وولعهم بالأساطير.

3- فقد رأى هؤلاء المؤرّخون أنّ مؤلّفي الأساطير يحظون بالاحترام، لذلك عزموا

على أن تكون مؤلّفاتهم مقبولة، فكتبوا تحت اسم التاريخ ما لم يَروا، وما لم يسمعوا به أبداً (أو في أقل تقدير ما سمعوه من أشخاص غير عارفين)، واضعين نصب أعينهم هدفاً واحداً، هو تحقيق المتعة لقرّائهم. ويبدو من الأسهل أن نصدّق هسيود وهوميروس ورواياتهما عن الأبطال أو شعراء التراجيديا، من أن نصدّق كتيسيوس، وهيرودوت وهيلاّنيكوس وأمثالهم من الكتّاب.

4- وليس من السهل أن نثق بمؤرّخي الإسكندر كلّهم، لأنهم لا يتعاملون مع الوقائع بالحذر المطلوب، بسبب اهتمامهم الزائد بتمجيد الإسكندر، ولأنّ حملته بلغت أقصى أطراف آسيا، بعيداً عنّا، وهو ما يشكّل صعوبة في دحض أخبارهم عن بعض الأماكن. ولكنّ سيطرة الرومان والبارثين تكشف لنا الآن عن هذه البلدان معطيات تفوق كثيراً تلك التي وصلت إلينا من قبل. فالكتّاب الذين يكتبون عن هذه الأصقاع والقبائل البعيدة عنّا، وحيث دارت الأحداث المعنية، يصوّرونها بدقّة أكبر مما فعل سابقوهم، لأنهم يتعمّقون أكثر في المادّة التي يدرسونها.

الفصل السابع

1- وعلى الجانب الأيسر لدى الدخول إلى بحر قزوين، يقطن الرحّل الذين يدعوهم معاصرونا بالدائيين ويلقبونهم بالأبارنيين. ثمّ تقع في الفاصل بينهم صحراء، وتأتي بعد ذلك مباشرة هركانيا التي يمتدّ عندها بحر قزوين منتشراً على اتساع وصولاً إلى النقطة التي يتّصل عندها بالجبال الميدية والأرمينية. ولهذه الجبال شكل الهلال على منحدراتها التي إذ تنتهي عند البحر تشكّل أقصى زاوية في الخليج. وعلى منحدر الجبال هذا، من البحر حتّى القمم يقطن في مدى جغرافي غير كبير، فريق من الألبانيين والأرمن، لكنّ الهيليين، والكادوسيين، والأمارديين، والفيتيين، والأنارياكيين يشغلون الشطر الأكبر من المنحدر. ويقولون إن بعض البارّاسيين يعيشون مع الأنارياكيين الذي يدعونهم الآن بارّاسيين؛ أمّا الإينيانيون فقد بنوا في منطقة الفيتيين مدينة محصّنة تدعى إينيانا؛ ويعرضون لزوارهم هنا أسلحة إغريقية، وأواني نحاسية، ومقابر، وتقع هنا أيضاً مدينة أنارياكا (حيث، كما يقولون، يعرضون للناظر موْحى للنيام)[1]؛ [ويعيش هنا] بعض القبائل الأخرى التي تمارس الغزو والنهب والحرب، أكثر من ممارستها العمل الزراعي، وهو ما يعلل بعنف هذه البلاد وقسوتها. ويشغل الكادوسيون الشطر الأكبر من الساحل المتاخم للمنطقة الجبلية، وهي منطقة يبلغ

امتدادها 5000 مرحلة تقريباً، كما يقول باتروكلس الذي يرى أن هذا البحر مساو لبحر البونتس. ولكنّ هذه المناطق قاحلة.

2- أمّا هركانيا فهي إقليم خصب وشاسع؛ وفي الشطر الأكبر من هذا السهل مدن مهمّة؛ ومنها تالابروكا، وساماريانا، وكارتا، والعاصمة تابا. ويقولون، إن هذه الأخيرة تقع أعلى من البحر وعلى بعد 1400 مرحلة عن البوابات القزوينية. ويشهد على رخاء هذه البلاد الآتي: دالية العنب الواحدة تعطي ميتريتاً من النبيذ، وشجرة التين الواحدة تعطي 60 ميديمناً من ثمار التين؛ ويخرج الخبز من الحب الذي يتساقط من التبن؛ والنحل يبني على الشجر، فيسيل العسل على ورقه. والحالة نفسها موجودة في إقليم ماتيانا في ميديا، وكذلك في ساكاسينا وأراكسينا في أرمينيا. بيد أن البلاد والبحر الذي يحمل اسمها لم يسترعيا الاهتمام الذي يستحقّان، لأنّ البحر غير صالح للملاحة وليس قيد الاستخدام. وثمّة في هذا البحر جزر غير مأهولة مع أنها مؤهّلة لأن تكون مأهولة، بل بحسب بعضهم إن فيها تربة تحتوي ذهباً. ويكمن سبب هذا الإهمال في أنّ الهركانيين كانوا خاضعين في أوّل الأمر للبرابرة، وتحديداً للميديين والفرس، ثمّ خضعوا بعد ذلك لمن هم أسوأ من هؤلاء، أي للبارثيين، زد إلى هذا أن البلاد المجاورة تعجّ كلّها بقطاع الطرق والرحّل، وهي بلاد صحراوية. وقد استولى المقدونيون على هذه البلاد لبعض الوقت فقط، لأنّ حروبهم لم تسمح لهم بأن يهتمّوا بهذه الأصقاع النائية. وبحسب أريستوبول إن في هركانيا كثيرة الغابات ينمو شجر البلوط، لكنّ شجر الصنوبر والشوح والتنّوب[2] لا وجود له هنا، مع أن هذا الشجر كثير في الهند. وتنتمي إلى هركانيا نيسييا أيضاً. لكنّ بعضهم يرى أن نيسييا إقليم مستقلّ[3].

3- ويعبر هركانيا نهر أوخ ونهر أوكس حتّى مصبيّهما في البحر. ويجري نهر أوخ عبر نيسييا أيضاً، لكنّ بعضهم يقول إن أوخ يصبّ في أوكس. بل يعلن أريستوبول أن نهر أوكس هو أكبر الأنهار التي رآها في آسيا، ما عدا أنهار الهند. وبحسب قوله، إن هذا النهر صالح للملاحة (لكنّه هو وإيراتوسفين أخذا هذه المعلومة عن باتروكليس)، ومياهه تنقل كثيراً من غلال الهند نزولاً إلى البحر الهركاني، ثمّ ينقلونها من هناك إلى ألبانيا، وعبر نهر كير والمناطق التي تليه لتصل إلى البونتس الإيفيكسيني. ولا يأتي القدماء على ذكر أوكس البتّة. لكنّ أبوللودوروس[4]، مؤلّف كتاب «تاريخ البارثيين» يذكر هذا النهر دائماً كنهر يجري على مقربة مباشرة من بلاد البارثيين.

4- لقد أُلحق بالقصص التي رويت عن هذا البحر كثير من الاختلاقات التي كان الغرض منها إرضاء غرور الإسكندر. ولأنّ نهر تانايس، هو بحسب إجماع العلماء، الحدّ الفاصل بين أوروبا وآسيا، ولأنّ الإقليم الواقع بين البحر وتانايس، والذي يشكل شطراً مهمّاً من آسيا، لم يكن خاضعاً لسلطة المقدونيين، لذلك قرروا اللجوء إلى الحيلة: أن يُظهروا (في أقلّ تقدير في إشاعة شعبية)، أن الإسكندر أخضع هذه البلاد أيضاً. ولهذا جمعوا بين بحيرة ميوتيدا التي يصبّ فيها تانايس مياهه، وبحر قزوين الذي دعوه في غضون ذلك بحيرة، وأكّدوا على أن الحوضين يرتبط بعضهما ببعض بمعبر جوفيّ، وأنّ كلاً منهما يشكّل جزءاً من الآخر. بل يسوق بوليكليتوس برهاناً على أن هذا البحر يعدّ بحيرة (لأنّ فيه ثعابين، ومياهه عذبة بعض الشيء). ويستنتج أن بحر قزوين ليس بحراً مستقلاً مختلفاً عن ميوتيدا، لأنّ تانايس يصبّ في ميوتيدا. ومن الجبال الهندية نفسها التي ينبع منها أوخ وأوكس وبعض الأنهار الأخرى، ينبع أيضاً ياكسارت الذي يصبّ في بحر قزون أيضاً مثله مثل الأنهار الأخرى؛ وهذا النهر هو النهر الشمالي الأقصى بين هذه الأنهار كلّها. وقد دعوا ياكسارت باسم تانايس وألحقوا بزعمهم هذا براهين على أن هذا النهر نهر تانايس الذي ذكره بوليكليتوس: في المنطقة التي تمتدّ وراء هذا النهر ينبت الشوح، ويستخدم السكيثيون الذين يعيشون هناك، سهاماً من خشب الشوح؛ وهذا يمثّل من وجهة نظرهم برهاناً على أنّ المنطقة التي تقع وراء النهر، هي منطقة أوروبية وليست آسيوية. والحقيقة أن الشوح لا ينمو في آسيا العليا والشرقية. لكنّ إيراتوسفين يؤكّد على الضدّ من هذا، إن الشوح ينمو في الهند أيضاً، وإن الإسكندر بنى أسطوله هناك من خشبه. ويحاول إيراتوسفين أن يدحض مزاعم كثيرة من هذا النمط. أمّا فيما يخصني فإن ما قلته في هذا الموضوع يكفي.

5- ومن الروايات المستحيلة التي رواها إيفدوكس وآخرون عن هركانيا، الرواية الآتية: تقع في البحر صخور كهفية ساحلية ما، وبينها وبين البحر يمتدّ شاطئ منخفض. وتنقضّ الأنهار من الجروف العالية الشديدة الانحدار بقوة تجعلها فور ملامستها الصخور تقذف مياهها إلى البحر، فتبقى الشواطئ جافة، ولذلك حتّى الجيوش يمكنها أن تعبر تحت غطاء الشلال النازل من الأعلى. وفي أحيان كثيرة يجتمع السكّان المحلّيون في هذا المكان إلى ولائم، وإقامة طقوس نحر الذبائح؛ ويجتمعون أحياناً في الكهوف، وأحياناً أخرى تحت شمس الشاطئ الواقع تحت الشلال

مباشرة؛ ومن الجانبين يظهر البحر والشاطئ الذي تكسوه الأعشاب والزهور بفضل الرطوبة المتوفرة لتربته.

الفصل الثامن

1- وإذا ما اتّجهنا إلى الشرق من البحر الهركاني، فستكون على يميننا الجبال التي تمتدّ حتّى البحر الهندي. وقد أطلق الإغريق عليها اسم طوروس. وتبدأ هذه الجبال عند بامفيليا وكيليكيا وتمتدّ من الغرب إلى هذه الأماكن في سلسلة متصلة، وتتخذ في أثناء ذلك هذا الاسم أو ذاك. ويقطن إلى الشمال منها مباشرة، كما كنت قد أشرت[1]، الهيليون، والكادوسيون، والأمارديون، وبعض الهركانيين؛ ثمّ تليهم قبائل البارثيين، والمارغيانيين، والآريين؛ ثمّ تنبسط بعد ذلك صحراء يفصلها عن هركانيا نهر سارني (إذا سرت شرقاً باتجاه نهر أوخ). ويدعى الجبل الذي يمتدّ من أرمينيا إلى هذا المكان، أو قبله بقليل، جبل باراخوافرا. ومن البحر الهركاني إلى منطقة الآريين ما يقارب 6000 مرحلة. ثمّ تأتي بعد ذلك باكتريانا، وسوغديا، وأخيراً الرحّل السكيثيون. وقد أطلق المقدونيون على باقي الجبال كلّها ابتداء من الآريين، اسم جبال القفقاس؛ أمّا البرابرة فقد أطلقوا على القمم الشمالية[2] واحدة واحدة، أسماء خاصة: باروباميس، إيمودا، وإيماي، وأطلقت أسماء أخرى من هذا القبيل على أجزاء مستقلّة.

2- وعلى الجهة اليسرى، قبالة هذه القبائل استقر السكيثيون وقبائل رحلّ شغلت الجهة الشمالية كلّها. ويحمل أكثر السكيثيين بدءاً من بحر قزوين، اسم الدائيين. وتحمل القبائل التي تعيش إلى الشرق من هؤلاء الأخيرين، اسم الماساجيتيين والساكيين، أمّا القبائل الأخرى فتحمل اسماً مشتركاً واحداً: السكيثيين، بيد أن لكلّ قبيلة منها اسمها الخاص. وهؤلاء كلّهم رحّل. وقد اشتهر من هؤلاء الرحّل على وجه الخصوص، أولئك الذين انتزعوا باكتريانا من الإغريق، أي الآسيين، والباسيانيين، والتوخاريين والساكاراوليين الذين انتقلوا للسكنى على الضفّة الأخرى لنهر ياكسارت في جوار منطقة الساكيين والسوغديين التي كان يشغلها الساكيون. ويدعى بعض الدائيين أبارنانيين، وبعضهم الآخر كسانثيين، وبعضهم الثالث بيسورنيين. والبارنيون أقربهم إلى هركانيا والبحر الذي في جوارها؛ بينما ينتشر الآخرون حتّى المنطقة الواقعة قبالة آريا.

3- وتمتدّ بين الأبارنيين، وهركانيا، وبارثيا وصولاً إلى منطقة الآريين صحراء شاسعة قاحلة لا ماء فيها؛ وعبر مفازاتها الطويلة كان الأبارنيون يشنون غزواتهم على هركانيا، ونيسيا، وسهول البارثيين. وقد قبلت هذه القبائل [التي كانت تتعرّض للغزو] أن تؤدّي الإتاوة للأبارنيين؛ وتمثّلت الإتاوة في السماح لهم بغزو البلاد في وقت محدّد وأخذ الغنائم. ولكن عندما كان الأبارنيون ينتهكون هذا الاتفاق ويغدرون، كانت تشتعل الحرب بين الطرفين، ليحلّ بعد ذلك السلام، ثمّ تندلع العمليات القتالية من جديد. وعلى هذا المنوال سار نمط عيش الرحّل الآخرين: كانوا يغيرون دائماً على جيرانهم، ثمّ يعقدون الصلح معهم.

4- لقد شنّ الساكيون غزوات، مثلهم في هذا مثل الكيميريين والتريريين: بعض غزواتهم كانت على مناطق بعيدة، وبعضها الآخر على أماكن قريبة، فاستولوا على باكتريانا، وأفضل أراضي أرمينيا التي تركوا لها تسمية مشتقة من اسمهم: ساكاسينا؛ ووصلوا حتّى بلاد القبدوقيين، وعلى وجه التحديد، حتّى أولئك الذين يقطنون على البحر الإيفيكسيني الذي يدعى الآن بالبونتس. ولكنّ القادة العسكريين الذي كانوا في تلك البلاد عندئذٍ، هاجموهم ليلاً بينما كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم الشعبية المعتادة بعد اقتسام الغنائم، وأبادوهم تماماً. وإذ رفعوا في هذا السهل فوق إحدى الصخور مزلقاناً، أعطى القادة العسكريون الصخرة شكل التلّ، ثمّ بنوا بعد ذلك سوراً وشيّدوا معبداً لأناهيت والآلهة الذين يشتركون معها في مذبح واحد: للإله الفارس أومان، وأناوات، وأسّسوا عيداً سنوياً مقدّساً، هو الساكيي، الذي لا يزال سكّان زيلا (هكذا يدعى المكان) يحتفلون به حتّى الآن. وزيلا مدينة صغيرة يملك خدم المعبد[3] الشطر الأكبر منها. ثمّ أضاف بومبيوس إلى أراضي المدينة منطقة كبيرة وأسكن سكّانها خارج الأسوار، وعدّها واحدة من المدن التي أسّسها ونظمها بعد الإطاحة بميتريدات.

5- إن هذه هي رواية فريق من الكتّاب عن الساكيين. وبحسب فريق آخر أن قورش قاد حملة على الساكيين، لكنّه اضطر إلى الفرار بعد أن خسر المعركة. فعسكر بعد ذلك في موقع ترك فيه الأمتعة مع كثرة من مختلف الاحتياطات التموينية، خاصة النبيذ، ومنح قواته استراحة قصيرة، ثمّ ترك خيامه مليئة بالمؤن، وعند المساء تحرّك متظاهراً بأنه يهرب. وبعد أن قطع مسافة رأى أنها كافية، توقف عن المسير. وفي تلك الأثناء كان الساكيون قد وصلوا إلى معسكر قورش المتروك

واستولوا عليه، وأكلوا حتّى التخمة. عندئذٍ عاد قورش وأدرك الساكيين وهم في حالة سكر شديد؛ فأباد فريقاً منهم وهم نائمون من شدّة السكر، وسقط الآخرون صرعى بسيوف أعدائهم بينما كانوا يرقصون من غير سلاح وهم في حالة من النشوة الباخوسية، فكانت النتيجة هلاك جميعهم تقريباً. أمّا قورش الذي رأى أن نجاحه منّة إلهية، فقد كرّس هذا اليوم يوماً مقدّساً لإلهة الوطن، ودعاه يوم الساكيين. وفي كلّ مكان يقوم فيه معبد لهذه الإلهة تقام احتفالات عيد الساكيين، وهو احتفال من نمط الاحتفالات الباخوسية يرتدي الرجال المشاركون فيه الزّي السكيثي، ويشربون الخمر من غير أن يكفوا عن اللهو بعضهم مع بعض، ومع النسوة اللواتي يشاركنهم الوليمة الاحتفالية.

6- لقد برهن الماساجيتيون في حربهم ضدّ قورش على شجاعتهم التي غالباً ما يمتدحها كثيرون؛ ويجدر بنا نحن أن نقتبس المعلومات عن هذا منهم أيضاً. فقد رووا عنهم روايات على المنوال الآتي: يسكن بعضهم الجبال، ويقطن آخرون في السهول، وينتشر فريق ثالث في مناطق المستنقعات التي تشكّل أنهاراً، ويقطن رابع في جزر تقع في قلب المستنقعات. وفضلاً عن هذا يقولون، إن نهر أراكس يغرق البلاد، فينقسم إلى كثرة من الفروع وتصبّ فروعه كلّها شمالاً في بحر آخر[4]، ما عدا فرع واحد يصبّ في الخليج الهركاني. ولا يعبدون إلهاً لهم سوى الشمس، ويقدمون الأفراس ذبائح لها. ولا يتزوّج الرجل منهم سوى زوجة واحدة، لكنّهم يعاشرون زوجات الآخرين، وهو ما لا يخفونه البتّة؛ فمن يرغب في معاشرة امرأة غير زوجته، يعلّق كنانته على المركبة ويدخل عليها علانية. ويرون أن أفضل طرائق الموت، هي تقطيع المسنين إلى قطع صغيرة، وخلط لحمهم مع لحم الخرفان وأكله. أمّا الذين يموتون بأمراضهم فيرمونهم كأي جيفة تصلح طعاماً للوحوش فقط. وهم فرسان خيالة من الطراز الأوّل، ومقاتلون مشاة بواسل؛ سلاحهم السهام، والسيوف، والدروع، والفؤوس الحربية البرونزية[5]؛ ويتزنّرون في المعارك بأحزمة ذهبية، ويضعون على رؤوسهم عصابات. وألجمة جيادهم وأربطتها من الذهب. وليس في بلادهم فضّة، أمّا الحديد فوجوده عندهم قليل، لكنّ النحاس والذهب وفيران.

7- بسبب افتقارهم لحبوب البذار، يقتات الماساجيتيون الذين يعيشون في الجزر، على الجذور والثمار البرّية؛ ويصنعون ملابسهم من ألياف الشجر (لأنه ليس عندهم مواش البتّة)؛ ويشربون عصائر ثمار الأشجار المثمرة. ويقتات سكّان المستنقعات

علـى الأسمـاك، ويرتـدون جلـود الفقمـات الـتي تجـيء إلى هنـا مـن البحـر. كمـا يقتـات سكّان الجبال بالثمار البرية أيضاً؛ وليس لدى هؤلاء سـوى قليل مـن الأغنـام، ولـذلك لا ينحرونهـا، بـل يتركونهـا للأصـواف والحليـب. ويلـوّن هـؤلاء ملابسـهم بطيـف مـن ألـوان مختلفة لا تفقد نضارتها. ولا يعمل سكّان السهول بالزراعـة (مـع أن الأراضـي الزراعيـة موجـودة عنـدهم)، بـل يعيشـون وفـق نمـط عـيش الرحّل والسـكيثيين، فيقتـاتون بلحـم الخروف والأسماك. ونحن نقف عند هذه القبائل كلّها على نمط عيش مشترك، وهـذا ما أشـرت إليه غير مرّة[6]: طقوس الـدفن وشـعائره عنـدهم متشـابهة، وكـذلك عـاداتهم ووقـائع حيـاتهم اليوميـة؛ إنهـم أنـاس أصـلاء قـائمون بـذواتهم، متوحّشـون وعـدوانيون، لكنّهم شرفاء وصادقون في تعاملهم.

8- وينتمي إلى قبيلة الماساجيتيين أيضـاً، الأتّاسيون والخوارسميـون الـذين اختبـأ عندهم من بلاد الباكتريين والسوغديين سبيتامين[7]، وهـو أحد الفرس الذين فـرّوا مـن وجه الإسكندر، مثله بيّس. وفيما بعد عندما فرّ أرسـاك مـن وجـه سـلوقس كـالينيك، لجأ إلى بلاد الأباسياكيين. وبحسب إيراتوسفين إن الأراخـوتيين والماسـاجيتيين يعيشـون بجوار الباكتريين، إلى الغرب منهم على مجرى نهـر أوكـس؛ وتقـع أراضـي السـاكيين والسوغديين كلّها مقابل الهند. أمّا الباكتريون فلا يقع مقابل الهند من أراضيهم سـوى حيّـز صـغير، لأنّ الشـطر الأكـبر منهـا يقـع علـى امتـداد باروبـاميس. ويفصـل نهـر ياكسـارت بـين السـاكيين والسـوغديين، أمّـا نهـر أوكـس فيفصـل بـين السـوغديين والبـاكتريين. ويقطـن التـابيري بـين الهركـانيين والآريـين. وفي ناحيـة قـرب البحـر، وراء منطقـة الهركـانيين يقطـن الأمـارديون، والأنارياكيون، والكادوسـيون، والألبـانيون، والقزوينيون، والفيتيون، وربّما شعوب أخرى وصولاً إلى بلاد السكيثيين. وعلى الجانب الآخـر مـن الهركـانيين يقطـن الـديربيكيون، أمّـا الكادوسـيون فيجـاورون الميـديين والماتيانيين عند سفوح باراخوافرا.

9- وفيما يخصّ المسافات فإن إيراتوسفين يسـوق الآتـي. مـن جبـل قـزوين إلى نهـر كـير حـوالي 1800 مرحلـة؛ ومـن هنـا إلى البوابـات القزوينيـة 5600 مرحلـة؛ ثـمّ إلى الإسـكندرية الـتي في بـلاد الآريـين 6400 مرحلـة؛ وبعـد ذلـك حتّـى مدينـة بـاكترا (الـتي تدعى أيضاً زارياسبا) 3870 مرحلة؛ وبعدها إلى نهر ياكسارت (الذي بلغه الإسـكندر) حـوالي 5000 مرحلـة. والمجمـوع الكلّـي 22670 مرحلـة. ويحـدّد إيراتوسـفين المسـافة مـن البوابـات القزوينيـة حتّـى الهنـد علـى النحـو الآتـي: حتّـى هيكـاتومبيلوس 1960 مرحلـة،

وحتى الإسكندرية التي في بلاد الآريين 4530 مرحلة؛ وبعد ذلك حتّى بروفتاسيا التي في درانغا 1600 مرحلة، ووفق معطيات أخرى 1500 مرحلة؛ وبعدها حتّى مدينة الأراخوتيين 4120 مرحلة؛ وبعد ذلك حتّى أورتوسبانا، حتّى تقاطع الطرق الثلاث الآتية من باكترا 2000 مرحلة؛ وأخيراً، حتّى حدود الهند 1000 مرحلة. والمجموع الكلّي 15300[8]. وينبغي أن نتخيّل طول الهند من نهر الهندوس حتّى البحر الشرقي كامتداد مباشر لهذه المسافة على خطّ مستقيم. هذه هي معلوماتي عن الساكين.

الفصل التاسع

1- ليست بارثيا بلاداً كبيرة. أثناء خضوعها لسيطرة الفرس كانت تؤدّي لهم الجبايات مع الهركانيين، وبعد ذلك، في زمن السيطرة المقدونية، بقيت الحال على ما كانت عليه. وعلاوة على عدم أهمية حيّزها الجغرافي، تغطيها غابات كثيفة، وجبال، وهي فقيرة، ولذلك كان الملوك يعبرونها بجحافلهم على عجل، لأنها كانت عاجزة عن إطعامهم حتّى لوقت قصير. لكنّ البلاد باتت الآن أكبر مساحة. فقد دخلت قوامها كوميسينا وخورينا، إضافة إلى كلّ المناطق حتّى البوابات القزوينية تقريباً، وحتى راغي وبلاد التابيري اللتين كانتا تابعتين من قبل لميديا. وتقع غرب راغي مدينتا آفاميا وهيراقليا. ومن البوابات القزوينية حتّى راغي، بحسب أبوللودوروس 500 مرحلة، وحتى عاصمة البارثيين هيكاتومبيلوس 1260 مرحلة. ويقال إن راغي[1] أخذت اسمها من الهزّات الأرضية التي كانت تقع هناك ودمّرت بحسب بوسيدونيوس، مدناً كثيرة وألفيّ قرية. ويقولون إن التابيري يسكنون بين الديربيكيين والهركانيين. ويروى أنه لدى التابيري تقليد تعطى بموجبه النساء المتزوّجات لأزواج آخرين بعد أن ينجبن ولدين أو ثلاثة أولاد، كما في زمننا هذا أعطى كاتون، بحسب التقليد الروماني القديم، مارسيا زوجة لغوتينزي تلبية لطلبه.

2- عندما بدأت انتفاضات البلدان الواقعة وراء طوروس، وبسبب انشغال ملكيّ سوريا وميديا اللذين كانا يملكان على هذه البلدان، حرّض الولاة الذين كانوا مكلّفين إدارة شؤون هذه البلدان، وأنا أقصد إلى إيفتيديموس وأنصاره، حرّضوا باكتريانا أولاً، والبلاد المجاورة لها على العصيان، ثمّ حرّضوا أرساك السكيثي مع بعض الدائيين، إضافة إلى الأبارنيين، والرحّل الذين ينتقلون على ضفاف نهر أوخ، وهاجموا بارثيا واستولوا عليها. وفي أوّل الأمر كان أرساك عاجزاً، لكنّ حروبه

المتواصلة التي كانت تؤدّي إلى استيلائه على مزيد من أراضي جيرانه وهو ما تابعه خلفاؤه من بعده، هذه الحروب جعلت منهم قوّة مهولة لكثرة ما انتزعوا من المناطق المجاورة، حتّى أضحوا في آخر المطاف سادة كلّ الإقليم الممتدّ على هذا الجانب من الفرات. كما استولوا على شطر من باكتريانا بعد أن دحروا السكيثيين، وقبلهم إيثيكراتيس وأنصاره. وهم يمتلكون الآن بلاداً مترامية الأطراف فيها كثرة كثيرة من القبائل، وهذا ما يجعل منهم من حيث اتساع حدود دولتهم منافسين للرومان إلى حدّ ما. وسبب ذلك، هو أن نمط عيشهم وعاداتهم بربرية وسكيثية إلى حدّ كبير، لكنّها لا تزال أكثر ملاءمة لتحقيق السيطرة والنجاحات العسكرية.

3- ويروى أن الأبارنيين- الدائيين كانوا وافدين من منطقة الدائيين القاطنين على ميوتيدا، والذين يدعونهم كسانديين وباريين. ولكنّ وجود دائيين بين السكيثيين القاطنين على ميوتيدا، أمر لا يقرّ به المتخصصون جميعهم. ويقال، إنّ أرساك ينحدر من هؤلاء السكيثيين؛ بيد أنّ آخرين يرون أنه باكتريّ قاد انتفاضة في بارثيا لينجو من سطوة ديودوت وخلفائه التي كانت تزداد قوّة يوماً عن يوم. ولكن بما أنني أوردت كثيراً من المعطيات عن عادات البارثيين في الكتاب 6 من «مذكّراتي التاريخية»، والكتاب الثاني من مؤلّفي «تاريخ الأحداث بعد بوليبيوس»، فإنني سأتجاوز هذه المسألة هنا تفادياً للتكرار؛ لكني أذكّر فقط بأن مجلس البارثيين الأعلى يتألّف، بحسب بوسيدونيوس من قسمين: في الأوّل منهما أقارب الملك، وفي الثاني الحكماء والسحرة. وينتخبون الملوك من القسمين.

الفصل العاشر

1- تعدّ آريا ومارغيانا أقوى بلدين في هذا الشطر من آسيا؛ وتحيط بهما الجبال جزئياً، والجزء الآخر من مستوطناتهم يقع في السهول. ويقيم في الجبال من يدعونهم «سكّان الخيام»؛ ويجري في السهول نهران يرويانها، وهما آريوس ومارغ. وتجاور آريا باكتريانا [....][1]. وهي تقع على مسافة تقارب 6000 مرحلة من هركانيا. وكانت تؤدّي الإتاوة مع آريا درياتغيانا أيضاً (وصولاً إلى كارمانيا)، التي يقع الشطر الأكبر منها عند سفوح الأجزاء الجنوبية من الجبال؛ بيد أن أجزاء منها تقترب من الجبال الشمالية الواقعة مقابل آريا. وغير بعيد من هنا تقع أراخوسيا أيضاً؛ فهي تقع عند سفوح الأجزاء الجنوبية من الجبال، وتمتدّ حتّى نهر الهندوس، وتؤلّف جزءاً من أريانا. ويبلغ

طول آريا حوالي 2000 مرحلة، وعرض سهلها 300 مرحلة. ومدن هذه البلاد: آرتاكانيا، والإسكندرية، وآخيا، يحمل كلّ منها اسم مؤسّسها. وتنتج البلاد كثيراً من النبيذ الذي يحفظ في آنية غير مطلية بالقار، على مدى ثلاثة أجيال.

2- وتشبه مارغيانا هذه البلاد، لكنّ سهلها تحيط به الصحارى. ولمّا أذهلت خصوبة السهل أنطوخ سوتير، أمر بأن يحاط بسور امتداد محيطه 1500 مرحلة، ثمّ بنى هناك مدينة أنطاكيا. وهذه البلاد غنية بكروم العنب. ويروى أنه غالباً ما تشاهد هنا عرائش عنب لا يحيط بجذورها شخص واحد، بل شخصان، وطول عنقود العنب هنا ذراعان[2].

الفصل الحادي عشر

1- تمتدّ أجزاء باكتريا على طول حدود آريا باتجاه الشمال، ويقع الشطر الأكبر منها فوق آريا إلى الشرق منها. وباكتريا بلاد شاسعة تنتج شتّى الغلال، ما عدا زيت الزيتون. وبسبب خصوبة البلاد اكتسب الإغريق الذين حرّضوا باكتريا على العصيان جبروتاً مكّنهم من أن يصبحوا لا سادة أريانا وحدها، إنمّا، وبحسب أبوللودوروس الأرتيميتي، سادة الهند أيضاً؛ لقد أخضع هؤلاء من القبائل أكثر مما أخضع الإسكندر؛ خاصة ميناندرس (إذا صحّ أنه عبر هيبانيس في الشرق واجتاز حتّى وصل إلى إيماي)؛ فقد أخضع هذا بعض القبائل بنفسه، وبعضها الآخر أخضعه ديميتري بن إيفتيديموس ملك الباكتريين. فقد امتلك باتالينا، وما يدعى مملكة ساراوست وسيجيرديدس على ما تبقى من الساحل. وتعدّ باكتريانا على وجه العموم حسناء أريانا، كما يقول أبوللودوروس. وعلاوة على هذا، مدّ الملوك الباكتريون حدود مملكتهم حتّى بلاد السيريين والفرينيين.

2- وكانت مدنهم هي: باكترا التي كانت تدعى زارياسبا أيضاً، ويجري فيها نهر يحمل الاسم نفسه ويصبّ في أوكس؛ وداراسبا، وبعض المدن الأخرى. وكانت بين هذه الأخيرة مدينة إيثيكراتيس التي دعيت باسم حاكمها السابق. وقد قسم الإغريق هذه المنطقة بعد أن امتلكوها إلى ولايات؛ انتزع البارثيون ولايتين منها من إيثيكراتيس، هما إسبيون وتوريفا. كما استولوا كذلك على سوغديانا الواقعة إلى الأعلى من باكتريانا نحو الشرق، بين نهري أوكس الذي يفصل بين بلاد الباكتريين وبلاد السوغديانيين وياكسارت. كما يشكّل ياكسارت الحد مع السوغديين والرحّل.

3- ففي الأزمنة السابقة لم يكن نمط عيش السوغديين والباكتريين يختلف كثيراً عن نمط عيش الرحّل، إلاّ أن عادات الباكتريين كانت مع ذلك أكثر تحضّراً بعض الشيء؛ لكنّ شهادة أونيسيكريتيس بهم لم تكن إيجابية. فهو يقول إنهم يرمون المرضى الذين لا شفاء لأمراضهم أحياء إلى كلاب يربّونها لهذا الغرض تحديداً، فقد أطلقوا عليها تسمية تعني بلغتهم الأمّ «الدفّانين». وكانت الأراضي الواقعة خارج أسوار عاصمة الباكتريين نظيفة تماماً، بينما الشطر الأكبر من تلك التي داخل الأسوار مليئة بالعظام البشرية؛ لكنّ الإسكندر وضع حدّاً لهذه العادة. كما يروون شيئاً مشابهاً عن القزوينيين: عندما يتجاوز الوالدان عندهم سنّ السبعين، يحتجزونهما في مكان مغلق ويتركونهما ليموتا من الجوع. وهذه العادة أقلّ وحشية، وهي تشبه العادة الكيوسية[1]، على الرّغم من منشئها السكيثي، لكنّ عادة الباكتريين تشبه العادة السكيثية أكثر. وواقع الحال هو أنه إذا كان هذا قد أثار الاشمئزاز حينما أدرك الإسكندر مثل هذه العادات، فما الذي يجب قوله إذن عن تلك العادات التي كانت عند الفرس القدماء، وعند حكّامهم الأكثر قدماً؟

4- يقال إن الإسكندر أسّس ثماني مدن في باكتريا وسوغديانا، وهزم عدداً من المدن التي كانت قائمة هناك. ومن هذه الأخيرة، مدينة كارياتا في باكتريا (حيث اعتقل ماليسفين ووضع تحت الحراسة)، ومدينة ماراقند في سوغديانا، ومدينة قورا، وهذه الأخيرة أسّسها قورش على نهر ياكسارت، وهنا كانت نهاية حدود الدولة الفارسية. ومع أن الإسكندر كان يكن احتراماً واضحاً لقورش إلاّ أنه أمر بهدم المدينة بسبب انتفاضات سكّانها المتكررة ضده. وبسبب الخيانة نجح الإسكندر في الاستيلاء على حصنين آخرين كانا مبنيين على الصخور: أحد الحصنين هو حصن سيسميترا في باكتريانا، حيث كانت تقيم روكسانا ابنة أوكسيارت، والآخر أوكس في سوغديانا (أو كما يقول آخرون: أريامازا). ويقولون، إن ارتفاع صخرة سيسميترا 15 مرحلة، ومحيطها 80 مرحلة. وقمّة الصخرة مستوية وتغطيها تربة خصبة يمكن أن تطعم 500 نسمة. واستقبل الإسكندر هناك على الرحب والسعة، واحتفل بزفافه على روكسانا ابنة أوكسيارت. ويقولون، إن ارتفاع صخرة سوغديانا أكبر بمرّتين من ارتفاع الصخرة الباكترية. وغير بعيد عن هذه الأماكن دمّر الإسكندر مدينة البرانهيدس الذين أسكنهم كسيراكس هناك؛ وقد سار هؤلاء معه طوعاً

تاركين موطنهم، فقد قدّموا له ثروات الإله[2] وكنوزه التي في ديديما. ويروى أن الإسكندر دمّر المدينة بسبب اشمئزازه من الخيانة وتدنيس المقدّسات.

5- ويدعو أريستوبول النهر الذي عبر سوغديانا، بوليتميت، وهو الاسم الذي أطلقه المقدونيون على النهر (فهؤلاء بدّلوا كثيراً من التسميات القديمة، وحرفوا الأسماء الأخرى). وبعد أن يروي النهر البلاد يتّجه نحو الصحراء ومنطقة رملية تبتلعه، كما تبتلع الرمال نهر آريوس الذي يجري عبر الأرض الآرية. ويقال، إنه على مقربة من نهر أوخ، عثر الحفّارون على نبع لمادّة زيتية. والحقيقة أنه كما أن بعض السوائل القلوية والقابضة، التي تحتوي على الإسفلت والكبريت، تنبثق من باطن الأرض، كذلك يمكن أن تنبثق منها أيضاً السوائل الزيتية. لكنّ ندرة هذه الأخيرة هي التي تخلق الانطباع بغرابة الحدث ولامعقوليته[3]. وبحسب قول بعضهم، إنّ أوخ يجري عبر باكتريانا، بينما يقول آخرون، إنه يجري على مقربة منها، ويزعم بعضهم أن أوخ يتميّز عن أوكس حتّى مصبّه إذ يجري إلى الجنوب منه؛ ويصبّ النهران كلاهما في البحر داخل حدود هركانيا؛ وعلى الضدّ من هذا يرى آخرون، أن أوخ، وعلى الرّغم من أنه يختلف في البداية إلاّ أنه يدخل بعد ذلك في مجرى واحد مع أوكس، حيث يصل عرضه في بعض الأماكن إلى 6 أو 7 مراحل. ولكنّ ياكسارت متميّز من منبعه حتّى مصبّه عن أوكس، وهو يصبّ في البحر نفسه؛ وبحسب باتروكلس أن مصبيّ هذين النهرين يبعد واحدهما عن الآخر ما يقارب 80 باراسانغ، ويحدّد بعضهم الباراسانغ الفارسي بـ 60 مرحلة، بينما يحدّده آخرون بـ 30 أو 40 مرحلة. وعندما أبحرت صعوداً في نهر النيل، كانت السخينات[4] تتحدّد بشكل يختلف من مدينة لأخرى، ففي بعض الأماكن كان عدد السخينات نفسه يعني مسافة أطول، وفي بعضها الآخر مسافة أقصر. هكذا كان الأمر منذ البداية، ولا يزال على حاله حتّى يومنا هذا.

6- وفي أوّل الأمر كانت القبائل القاطنة إلى الشرق من هركانيا وصولاً إلى سوغديانا على هذا الجانب من طوروس[5]، معروفة للفرس وبعد ذلك للمقدونيين والبارثيين. ويدّل المظهر الخارجي للقبائل التي تقطن خارج حدود هؤلاء على خطّ مستقيم إنها قبائل سكيثية، على الرغم من أننا لا نعرف عن حملات شنّت عليها، أو على قبائل الرحل في أقصى الشمال. لقد عزم الإسكندر على أن يقود قوّاته ضدّ هؤلاء الرحّل عندما كان يطارد بيّس وسبيتامين؛ وبعد أن وقع بيس في الأسر وأُعيد من حيث أتى، وبعد أن قتل البرابرة سبيتامين، تراجع الملك عن عزمه هذا. ولكنّ خبر إبحار

بعضهم من الهند إلى هركانيا لا يلقى اعترافاً من جميعهم، إلاّ أن باتروكلس يرى أن الأمر كان ممكناً.

7- ويقولون، إن أقصى شطر من طوروس (الذي يدعونه إيماي)، الذي يلامس البحر الهندي، لا يبرز البتّة نحو الشرق أبعد من الهند ولا يصل إلى أطرافها. وكلّما تقدمنا شمالاً يُهيَّأ لنا أن البحر يقلّص طول البلاد وعرضها؛ ولذلك يجعل شطر آسيا الذي نصفه الآن والذي يشغل المدى الواقع بين طوروس والمحيط الذي يملأ بحر قزوين، شطراً مقطوعاً نحو الشرق. وأكبر طول لهذا الشطر من آسيا، وهو الطول الذي يمتدّ من البحر الهركاني حتّى المحيط، قبالة إيماي (إذا كانت الطريق تسير على طول سلسلة جبال طوروس)، يصل إلى 30.000 مرحلة، وعرضه أقلّ من 10.000 مرحلة. وكما قلت سابقاً[6]، إن المسافة من خليج إيّس حتّى البحر الشرقي عند الهند، حوالي 40.000 مرحلة، ومن أطراف أعمدة هرقل حتّى إيّس 30.000 مرحلة أخرى. ويقع الشطر الأقصى من خليج إيّس إلى الشرق قليلاً (أو قليلاً جدّاً) من أميس؛ أمّا المسافة من أميس إلى الأرض الهركانية (التي تقع على موازاة المسافة من إيّس إلى الهند)، فهي تشكّل ما يقارب 10.000 مرحلة. وتبعاً لهذا يبقى الامتداد الطولي الذي أشرنا إليه، والذي يمتدّ إلى الشرق من الشطر الذي وصفناه هنا: على وجه التحديد 30.000 مرحلة. وبما أنّ أقصى عرض للمعمورة التي لها شكل الكلاميس[7]، يشكل ما يقارب 30.000 مرحلة، فإن هذه المسافة تبدو قريبة من دائرة الطول الممتدة عبر البحر الهركاني والبحر الفارسي، إذا كان امتداد طول المعمورة 70.000 مرحلة. وإذا كانت المسافة من البحر الهركاني إلى أرتيميتا في بابل 8000 مرحلة، كما يزعم أبولودوروس الأرتيميتي، ومن هنا إلى مدخل الخليج الفارسي 8000 مرحلة أخرى، إضافة إلى أقلّ بقليل من 8000 ثالثة حتّى البلاد الواقعة على دائرة عرض واحدة مع أطراف إيثوبيا، فإنّ ما يبقى من عرض المعمورة المذكور، هو المسافة من وهدة البحر الهركاني إلى مدخله، وهي المسافة التي ذكرتها سابقاً[8]. وبما أن هذه القطعة من الأرض تغدو مدبّبة بالاتجاه نحو الأجزاء الشرقية، فإنها تشبه من حيث الشكل سكين الطبّاخ، وفي الوقت نفسه يمتدّ الجبل على خطّ مستقيم ليبدو كأنه نصل هذه السكين، أمّا الساحل من مدخل البحر الهركاني إلى تامار، فيبدو كأنه الجانب الآخر للسكين التي تنتهي بخطّ مثني مدبّب.

8- ويجدر أن نشير إلى بعض العادات الشاذّة الشائعة لدى الشعوب البربرية

الخالصة، التي يروون عنها دائماً؛ ومنها على سبيل المثال عادات الشعوب التي تعيش قرب القفقاس وما تبقّى من هذه البلاد الجبلية. فيقولون، إن مقولة يوريبيدس الآتية ذهبت عندهم عادة من العادات:

ابك الابن الوليد، فالحياة تخبّئ له غير قليل من الألم.

أمّا المتوفى الذي تخلّص من النكبات،

فأخرجه من البيت بفرح وإجلال.

(*كريسفونت، مقطع* 449. *ناؤوك*)

وهناك آخرون لا يقتلون حتّى أعتى المجرمين، ويكتفون بطردهم مع عائلاتهم إلى خارج البلاد، على الضدّ من عادة الديربيكيين الذين يحكمون بالموت لأتفه الهفوات. ويعبد هؤلاء الأرض الأمّ؛ ولا يقدّمون أيّ قرابين، ولا يأكلون أيّ كائن أنثى. ويقتل الديربيكيون رجالهم الذين يتجاوزون السبعين من العمر، ويأكل أقارب هؤلاء أجسادهم؛ أمّا النسوة العجائز فيقتلونهنّ خنقاً، ثمّ يدفنونهنّ. ويتّبع السيغينيون عادات الفرس في أشياء كثيرة، ما عدا أنهم يستخدمون الأفراس الصغيرة الشعثاء التي لا قدرة لها على أن تحمل الفرسان فيقرنونها أربعاً لجرّ المركبات التي تقودها النساء اللواتي يجري إعدادهن لهذا العمل منذ الطفولة، ومن حق الحوذية الأكثر مهارة أن تعاشر أي رجل تختار. ويقال، إن قبائل أخرى تعمل جاهدة على أن تبدو رؤوس أفرادها أطول، وجباههم بارزة إلى الأمام فوق ذقونهم. وعند التابيري يرتدي الرجال ثياباً سوداء ويطلقون شعرهم طويلاً، أمّا النساء فيرتدين ملابس بيضاء، وشعرهنّ قصير. ويقطن هؤلاء بين الديربيكيين والهركانيين. والرجل الذي يعترفون له بأنه الأكثر شجاعة، يحقّ له أن يتزوّج أي امرأة يشاء. أمّا القزوينيون فيميتون جوعاً كلّ من يتجاوز منهم السبعين من العمر، ويرمون جثامينهم في البراري؛ ثمّ يراقبون من بعيد: إذا أخذت الطير تحمل الجثامين من النقالات، فذلك يعني أن الميت مغبوط في النعيم، أمّا إذا حملت جثامينهم الوحوش أو الكلاب، فهذا يعني أنهم أقلّ غبطة؛ وإذا ما بقيت الجثامين على حالها ولم يقربها أحد، فذلك يعني التعاسة للمتوفين.

الفصل الثاني عشر

1- بما أن طوروس تشكّل الأجزاء الشمالية من آسيا، التي تدعى آسيا «التي على هذا الجانب من طوروس»[1]، فقد رأيت من الأفضل أن أعطي قبل كلّ شيء

وصفاً لهذه الأجزاء. وتتبع لهذه الأجزاء، المناطق التي تقع كلّها أو أكبر أجزائها، في الجبال نفسها. وكلّ الأجزاء الواقعة إلى الشرق من البوابات القزوينية، تحتاج، بسبب وحشيتها، وصفاً أكثر بساطة؛ وربّما لا يكون هنا فرق كبير إذا ما ألحقناها بهذا «الإقليم»[2] أو ذاك. أمّا الأجزاء الغربية فهي على الضدّ من ذلك، تقدّم مادّة غنية للوصف، ولذلك ينبغي أن ننتقل إلى المناطق الواقعة عند البوابات القزوينية. فمن الغرب تجاورها ميديا، وهي بلاد شاسعة كان لها جبروتها في زمن مضى، وهي تقع في وسط طوروس الذي يتشعّب هناك إلى كثير من الذيول، ويحتوي كثيراً من الوديان، كما هي عليه الحال في أرمينيا.

2- ويبدأ هذا الجبل في كاريا وليكيا، لكنّه لا يبلغ هناك عرضاً كبيراً أو ارتفاعاً ملحوظاً، فأوّل ارتفاع ملحوظٍ له يقع قرب خيليدونيوس (وهي جزيرة في أوّل ساحل بامفيليا). ثمّ يمتدّ طوروس شرقاً ليضمّ الوديان الصغيرة[3] في كيليكيا؛ وعلى أحد جانبيه ينفصل الأمانوس، وعلى الجانب الآخر أنتيطوروس، حيث تقع كومانا في قبدوقيا العليا. وينتهي أنتيطوروس في كاتاونيا، أمّا جبل الأمانوس فيمتدّ حتّى الفرات وميليتينا، حيث تجاور كومّاجينا قبدوقيا. وامتداده هنا يتشكل من جبال الجانب الآخر من الفرات التي تتّصل مباشرة بالجبال التي أشرنا إليها، ماعدا أن هناك نهراً يجري بينها. وهنا يزداد بشكل ملحوظ ارتفاع الجبل وعرضه، ويتشعب إلى شعب كثيرة. وأقصى جزء إلى الجنوب، هو طوروس الذي يفصل بين أرمينيا ووادي الرافدين.

3- ويتدفق من هناك النهران: الفرات ودجلة؛ اللذان يطوّقان وادي الرافدين، ويقترب بعضهما من بعض في بابل، ثمّ يصبّان في البحر الفارسي. وليس الفرات هو الأكبر بينهما فقط، إنما يقطع في مجراه الملتوي أراضي أكثر أيضاً. وتقع منابعه في الشطر الشمالي من طوروس؛ ويجري الفرات غرباً عبر ما يدعونها أرمينيا الكبرى حتّى يصل إلى أرمينيا الصغرى، وتقع هذه الأخيرة على ضفته اليمنى، بينما تقع أكيليسينا على ضفّته اليسرى. ثمّ ينعطف النهر نحو الجنوب، فيلامس في هذا المنعطف حدود قبدوقيا. وبعد أن يتجاوز هذه الحدود ومنطقة كومّاجينا على يمينه وأكيليسينا وسوفينا التي في أرمينيا الكبرى على يساره يجري النهر حتّى سوريا ثمّ ينعطف من جديد نحو بابل والخليج الفارسي. أمّا دجلة فينطلق من الشطر الجنوبي لهذا الجبل نفسه، ويجري نحو سلوقيا مقترباً كثيراً من الفرات؛ وهنا يشكل مع الفرات منطقة ما بين النهرين، ثمّ يصبّ في الخليج نفسه الذي يصبّ الفرات فيه. وتقع منابع

الفرات ودجلة بعيدة بعضها عن بعض 2500 مرحلة تقريباً.

4- ويتشعب من طوروس نحو الشمال كثير من الشعب الجبلية، أحدها الذي يدعى أنتيطوروس. ويحمل هذا الاسم جبل يطوّق سوفينا في واد يقع بينها وبين طوروس. وعلى ذلك الجانب من الفرات، قرب أرمينيا الصغرى نحو الشمال، يمتدّ إثر أنتيطورروس جبل كبير وكثرة من الشّعب الجبلية الأخرى. ويدعى أحد هذه الشّعب باريادرس، والآخر: الجبال الموسيخية، ويحمل الثالث تسميات مختلفة. وتشغل هذه الجبال أرمينيا كلّها وصولاً إلى إيبيديا وألبانيا. وترتفع الجبال الأخرى شرقاً، وعلى وجه التحديد تلك التي تقع فوق بحر قزوين وصولاً إلى ميديا: ميديا الأتروباتية، وكذلك ميديا الكبرى. إن أجزاء الجبال هذه كلّها، وكذلك تلك التي تمتدّ حتّى البوابات القزوينية، وتلك التي تمتدّ نحو الشرق أيضاً، تدعى إذ تلامس آريا، جبال باراخوافرا. وتحمل الجبال الشمالية هذا الاسم نفسه، أمّا الجنوبية الواقعة على ذلك الجانب من الفرات، التي تمتدّ إلى الشرق من قبدوقيا وكوماجينا، كانت تدعى في الأوّل طوروس الذي يفصل سوفينا وباقي أرمينيا عن وادي الرافدين. ويدعو بعضهم هذه الجبال، الجبال الغوردية. ومن هذه الأخيرة، جبل ماسوس الذي يرتفع فوق نيسبيا وتيغرانوكيرتا. وبعد ذلك يرتفع طوروس أعلى فأعلى ويدعى نيفات. وتقع هنا في مكان ما على الجانب الجنوبي من البلاد الجبلية، منابع الفرات. وبعد نيفات تمتدّ السلسلة الجبلية أبعد فأبعد لتشكل جبل زاغروس الذي يفصل بين ميديا وبابل. وبعد زاغروس فوق بابل، تقع بلاد العيلاميين والباريتاكينيين الجبلية، وتقع إلى الأعلى من ميديا بلاد الكوسيين. وفي الوسط تقع ميديا وأرمينيا التي تضمّ كثيراً من الجبال، والهضاب، وكذلك السهول والوديان الكبيرة، وكثيراً من الشعوب الجبلية التي تقطن الأطراف، أكثرها صغير وقطاع طرق. وعلى هذا النحو إنني أوضّح على هذا الجانب من طوروس ميديا (التي تضمّ البوابات القزوينية) وأرمينيا.

5- ومن وجهة نظرنا إن هذه الشعوب تنتمي إلى الشعوب الشمالية، لأنها تقطن هذا الجانب من طوروس أيضاً؛ لكنّ إيراتوسفين الذي أرسى تقسيم آسيا إلى جنوبية وشمالية وما دعاها «سفراجيدس»[4] (دعا بعضها «بالسفراجيدس» الشمالية، والأخرى «السفراجيدس» الجنوبية)، يرى أن البوابات القزوينية هي الحدّ الفاصل بين «الإقليمين». ولذلك يمكنه أن يرى في الأجزاء الواقعة جنوبي البوابات القزوينية (ومنها ميديا وأرمينيا) آسيا الجنوبية والأجزاء الواقعة شمالي البوابات القزوينية، آسيا



الشمالية، لأنّ هذا يرتبط باختلاف الوسائل المعتمدة لتقسيم البلاد. فربّما لم يخطر لإيراتوسفين أن وراء طوروس نحو الجنوب لا يقع أيّ شطر من أرمينيا أو ميديا.

الفصل الثالث عشر

1- تنقسم ميديا إلى شطرين. دعوا الشطر الأوّل ميديا الكبرى، ومدينتها الرئيسة إيكباتانا، وهي مدينة كبيرة وعاصمة الدولة الميدية (ولا تزال حتّى الآن عاصمة البارثيين، وفيها يقضي ملكهم فصل الصيف في أقلّ تقدير، لأنّ ميديا بلاد باردة، ويقضون الشتاء في سلوقية دجلة الواقعة غير بعيد عن بابل). أمّا شطرها الثاني، فهو ميديا الأتروباتية؛ وقد أخذت هذه اسمها من القائد العسكري[1] أتروبات الذي لم يسمح بأن تتحوّل هذه البلاد بصفتها جزءاً من ميديا الكبرى، إلى بلاد خاضعة لسلطة المقدونيين. وقد جعل أتروبات الذي أُعلن ملكاً، من هذه البلاد بلاداً مستقلّة فعلاً، ولا تزال وراثة العرش في سلالته حتّى يومنا هذا، لأنّ أحفاده تزاوجوا مع ملوك أرمينيا وسوريا، وبعد ذلك مع الملوك البارثيين.

2- وتقع هذه البلاد إلى الشرق من أرمينيا وماتيانا، وإلى الغرب من ميديا الكبرى وإلى الشمال من البلدين كليهما؛ وتتاخم من الجنوب المناطق الواقعة قرب منخفض البحر الهركاني وماتيانا. وتعدّ ميديا الأتروباتية بلاداً يحسب لها حساب من حيث القوّة العسكرية، فهي قادرة أن تجنّد على حدّ قول أبوللونيدس، 10.000 فارس و40.000 مقاتل من المشاة. وتقع في ميديا بحيرة كابافتا، حيث يحدث تبلور الأملاح وترسّبها. وتثير هذه الأملاح الحكّة وإحساساً بالمرض؛ وترياق هذا المرض، هو زيت الزيتون، وينقّي الماء العذب الثياب الملوثة بالأملاح إذا ما غسلت فيها عن غير قصد. والحقيقة أنّ للأتروباتيين جيران أقوياء وجبابرة، هم الأرمن والبارثيون الذين غالباً ما يغزون البلاد وينهبونها. لكنّ الأتروباتيين يصدون الغزو ويستعيدون الأراضي التي تنتزع منهم؛ فقد انتزعوا سيمباكا من الأرمن مثلاً، عندما بات هؤلاء تحت سيطرة الرومان؛ وعقدوا معاهدات صداقة مع قيصر؛ ولكنّهم في الوقت نفسه حاولوا استرضاء البارثيين.

3- عاصمتهم الصيفية، هي مدينة غازاكا الواقعة في منطقة سهلية، وعاصمتهم الشتوية، هي القلعة الحصينة فيرا التي حاصرها أنطونيو عندما شنّ حملته على البارثيين. وتقع فيرا هذه على بعد 2400 مرحلة عن نهر أراكس الذي يفصل بين

أرمينيا وأتروباتينا، كما ينقل ديللوس صديق أنطونيو الذي أرّخ لحملته البارثية التي شارك هو نفسه فيها بصفته ليغاتوس. وتتميّز مناطق هذه البلاد كلّها بالخصوبة، ومنطقتها الشمالية جبلية قاسية وباردة، وتقطن هنا القبائل الجبلية: الكادوسيون، والأمارديون، والتابيري، والكيرتيون وسواهم من الشعوب المتنقلة التي تمارس النهب واللصوصية. فهذه الشعوب مشتتة في مختلف أرجاء زاغروس ونيفات: الكيرتيون والمارديون في بيرسيدا (فالمارديون يحملون مثل هذه التسمية أيضاً)، كما لا تزال حتّى الآن تعيش في أرمينيا قبائل تحمل اسمهم نفسه، وهؤلاء كلهم متماثلون بالمظهر الخارجي.

4- ويتفوّق الأريانيون على الكادوسيين قليلاً من حيث أعداد المقاتلين المشاة؛ لكنّ مهارة هؤلاء الأخيرين في قذف المزاريق لا يدانيها أحد؛ وفي المناطق الجبلية يقاتل هؤلاء بدلاً من الفرسان. ولكن لا علاقة للشروط الطبيعية للمكان في عرقلة حملة أنطونيو، إنمّا مرشده، الملك الأرميني أرتافاسد الذي جعله أنطونيو مستشاره وقائد خططه الحربية من غير أي حسابات أخرى (مع أن أرتافاسد كان يتآمر عليه)، هو الذي أفسد كلّ شيء. والحقيقة أن أنطونيو عاقبه، لكنّه تأخّر كثيراً في ذلك، إذ تبيّن أن الملك مسؤول عن كثير من المآسي التي حلّت بالرومان، ولم يقتصر الأمر على أرتافاسد وحده، بل انضمّ إليه أيضاً المرشد الآخر الذي قاد أنطونيو من زيغما على الفرات حتّى حدود أتروباتينا في طريق طولها 8000 مرحلة عبر الجبال في طرقات لا معالم لها، أي في طريق متعرجة طولها ضعفا الطريق المباشرة.

5- بعد أن دمّرت ميديا الكبرى قديماً دولة السوريين، بسطت سيطرتها على آسيا كلّها. لكنّ قورش والفرس سلبوها فيما بعد جبروتها هذا في عهد أستياغ، ومع ذلك حافظت إلى حدّ بعيد على مجد الأسلاف. لقد كانت إيكباتانا العاصمة الشتوية[2] لملوك فارس، وللمقدونيين أيضاً، الذين بسطوا سيطرتهم على سوريا بعد أن أخضعوا فارس؛ ولا تزال هذه المدينة حتّى يومنا توفّر للملوك البارثيين وسائل الاستجمام نفسها والأمان نفسه.

6- وفي الشرق تتاخم ميديا الكبرى بارثيا وجبال الكوسيين، وهم قبيلة من قطاع الطرق كانت تجنّد فيما مضى 13000 من رماة السهام أثناء تحالفها مع العيلاميين ضدّ السوسيين والبابليين. وينقل نيارخس أنه كانت توجد هنا أربع قبائل من قطاع الطرق؛ وكان المارديون منها يجاورون الفرس، والأوكسيون والعيلاميون

يجاورون الماردين والسوسيين، والكوسيون يجاورون الميديين. لقد أرغم هؤلاء كلّهم الملوك على أن يؤدّوا لهم الإتاوات، أمّا الكوسيون فقد كانوا يتلقون الهدايا عندما يكون الملك في طريق عودته إلى بابل من إيكباتانا التي قضى فصل الصيف فيها. لكنّ الإسكندر هاجمهم شتاءً ووضع حدّاً لغدرهم وعربدتهم. إذن، في الشرق تجاور ميديا الكبرى هذه القبيلة، كما تجاور الباريتاكينيين أيضاً (قبيلة جبلية من قطاع الطرق)، الذين يجاورون الفرس. وفي الشمال تجاور الكادوسيين الذين يقطنون إلى الأعلى من البحر الهركاني، إضافة إلى القبائل الأخرى التي تحدّثت عنها للتوّ. وفي الجنوب تجاور ميديا الكبرى أبوللونياتيدس (التي دعاها القدماء سيتاكينا)، وجبال زاغروس حيث تقع ماساباتيكا التي تتبع ميديا (أو عيلام بحسب آخرين). وأخيراً، في الشرق تجاور ميديا الأتروباتيين، والأرمن جزئياً. وفي ميديا مدن إغريقية أيضاً، أسّسها المقدونيون؛ وأذكر من هذه المدن لاوديكا، وأفاميا، ومدينة تقع عند راغا[3]، وراغا[4] نفسها أسّسها سلوقس نيكاتور. وقد دعاها هذا الأخير يوروبوس، أمّا البارثيون فقد دعوها أرساكيا. وبحسب أبوللودوروس الأرتيميتي، إن هذه المدينة تقع على بعد يقارب 500 مرحلة إلى الجنوب من البوابات القزوينية.

7- إنّ الشطر الأكبر من ميديا جبال شاهقة، وهي بلادة باردة. ومن هذه الجبال تلك التي تعلو فوق إيكباتانا، وتلك الواقعة عند راغا والبوابات القزوينية والمناطق الشمالية على وجه العموم، من هنا حتّى ماتيانا وأرمينيا. أمّا المنطقة الواقعة إلى الأسفل من البوابات القزوينية، المنطقة الواقعة في الوهاد والمنخفضات، فإنها على الضدّ، شديدة الخصوبة وتنتج شتّى أنواع الغلال، ما عدا الزيتون. وإذا كان شجر الزيتون ينمو هنا وهناك، فإنّ ثماره جافة ولا تعطي أيّ زيت. وهذه البلاد مثلها مثل أرمينيا، «غنية بالخيل» غنى لا مثيل له. وثمّة مرج هنا يحمل اسم «الوفير الخيل»[5] يعبره المتّجهون من بيرسيدا وبابل إلى البوابات القزوينية، ويقولون إنه في الأزمنة الفارسية كانت ترعى في هذا المرج 50.000 مهرة. لقد كانت تلك هي القطعان الملكية. وفيما يتعلّق بالجياد النيسية التي كان يستخدمها الملوك بصفتها الجياد الأفضل والأكبر، فإنّ بعضهم يزعم أنها محلّية المنشأ، ويزعم آخرون أنها من أرمينيا. ومثلها مثل الجياد البارثية تتميّز هذه بميزة فريدة مقارنة بالجياد الهلاّدية وسواها من جياد بلادنا الأخرى. ونحن نعطي الأعشاب التي تعدّ أفضل علف للجياد، تسمية خاصة، هي الأعشاب «الميدية» لأنها تنمو هناك بكميات كبيرة. كما تنتج الأرض الميدية نبات السلفيوم،

ومن هناك يؤتى بما يدعى العصير «الميدي»، الذي لا يرقى أبداً إلى مستوى «القوريني»، لكنّه يتفوّق عليه أحياناً إمّا بفضل الشروط المحلّية، أو بسبب تبدّل نوع النبات، أو بسبب سعي جامعيه وصانعي العصير منه، الذين ينجحون في جعل العصير يحفظ لزمن طويل لكي يستخدم فيما بعد.

8- إنّ هذا هو طابع البلاد. أمّا فيما يخصّ حجمها، فإن طولها وعرضها متساويان تقريباً. وأقصى عرضها تبلغه ميديا في المدى الممتدّ من معابر زاغروس (التي تدعى البوابات الميدية)، حتّى البوابات القزوينية عبر سيغريانا: 4100 مرحلة. ويتوافق حجم البلاد وجبروتها مع المعطيات عن أحجام الإتاوات التي تجبى منها: لقد كانت قبدوقيا تجمع للفرس سنوياً (ما عدا الضرائب النقدية)، 1500 فرس، و2000 بغل، و50.000 رأس غنم، بينما كان الميديون يؤدّون لهم ضعف هذه الإتاوة تقريباً.

9- وأكثر عادات الميدين هي عينها التي عند الأرمن، والسبب في هذا هو تشابه بلديهما. ولكن يقال، إن الميديين هم آباء العادات الأرمينية، وقبل الفرس ساد ملوكهم وأحفادهم في آسيا. فما يدعونه الآن «الستولا»[6] الفارسية، على سبيل المثال، ومثلها شغفهم برمي السهام، وركوب الخيل، وخدمة الملوك، والزيّ الذي يرتديه ملوكهم، وتبجيل المواطنين لملوكهم تبجيلاً إلهياً، هذا جاءهم من الميديين. وتتّضح صحّة هذا القول أكثر ما تتّضح على مثال ملابسهم: التيارا[7]، والكيتارا[8]، وقبعة اللبّاد، والقفطان ذو الكمّين، والسروال؛ فهذه الملابس تلائم الطقس البارد الذي يسود في البلدان الشمالية، كما هي حال البلدان الميدية، لكنّها لا تلائم الأقاليم الجنوبية قط. وأكثر مستوطنات الفرس كانت تتوضّع على البحر الأحمر، إلى الجنوب من بلاد البابليين والسوسيين، وبعد أن وضع الفرس حدّاً للدولة الميدية، ألحقوا بعض المناطق المجاورة لميديا بأملاكهم. ولكنّ المنتصرين رأوا أن عادات الشعب الذي هزموه، تستحقّ كلّ الاحترام وتلائم الفخامة الملكية، فقرّروا أن يرتدوا الملابس النسائية ويتدثروا بالمعاطف، بدل أن يتجوّلوا شبه عراة أو في ملابس خفيفة.

10- وبحسب بعضهم إنّ ميديا هي التي كرّست ارتداء هذه الملابس عندما كانت تحكم هذه البلاد مع ياسون. ويقال، إنّ ميديا كانت تغطي وجهها أيضاً حينما كانت تخرج إلى الناس بدلاً من الملك. وشواهد ياسون تستخدم معابد على شرف البطل ياسون، وهي تحظى باحترام كبير لدى البرابرة (وفوق البوابات القزوينية، على الجهة اليمنى، يرتفع جبل كبير يدعى ياسونيوس)؛ وقد تمثّلت ذكرى ميديا في الأزياء واسم

البلاد. ويزعمون أنّ ابنها ميدس ورث سلطتها وترك اسمه لتحمله البلاد. ويتوافق مع هذا الخبر، وجود معابر ياسون في أرمينيا، واسم البلاد، وأشياء أخرى كثيرة سأتحدّث عنها في حينه.

11- واختيار الشخص الأكثر شجاعة وبسالة لكي يكون ملكاً، هي عادة ميدية أيضاً؛ لكنّ هذه العادة ليست ديدناً للميديين كلّهم، بل لميديّ الجبال فقط، أمّا العادة الأكثر شيوعاً عند الميديين كلّهم، فهي عادة تعدد الزوجات لدى ملوكهم. وعند ميديّ الجبال تنسحب هذه العادة على الرجال كلّهم، إذ لا يسمح لأيّ رجل هناك أن يكون لديه أقلّ من خمس زوجات. ويقولون، إن النساء أيضاً يتفاخرن بكثرة عدد الأزواج لديهنّ، ويرون في المرأة امرأة تاعسة سيّئة الحظ إذا كان لديها أقلّ من خمسة أزواج[9]. ومع أنّ الباقي من ميديا شديد الخصوبة، إلاّ أنّ شطرها الشمالي الجبلي فقير مدقع. فسكّانها يقتاتون بثمار الشجر، ويخبزون من التفاح المجفف المجروش؛ ويصنعون الخبز من اللوز المشوي؛ ويعتصرون نبيذاً من بعض الجذور؛ ويستخدمون لحوم الوحوش في غذائهم، لكنّهم لا يربّون الحيوانات المنزلية. إن هذه هي معلوماتي عن الميديين. أمّا فيما يخصّ العادات الميدية المشتركة، فإنها متماثلة مع العادات الفارسية نتيجة لاستيلاء الفرس على البلاد، وأنا سأتحدّث عنها لدى حديثي عن الفرس.

الفصل الرابع عشر

1- تغطّي طوروس الأجزاء الجنوبية من أرمينيا وتفصلها على كلّ المنطقة الواقعة بين الفرات ودجلة، وهي المنطقة التي يدعونها بلاد ما بين النهرين؛ وتتاخم أجزاؤها الشرقية حدود ميديا الكبرى وأتروباتينا؛ أمّا أجزاؤها الشمالية فهي جبال باراخوافرا الواقعة فوق بحر قزوين، وألبانيا، وإيبيريا والقفقاس الذي يحيط بهذه الشعوب ويجاور أرمينيا، كما يجاور أيضاً الجبال الموسخية والكولخية وصولاً إلى الذين يدعونهم تيبارنيين؛ وفي الغرب تقع هذه الشعوب، وجبل باريادرس وسكيديس حتّى أرمينيا الصغرى ومنطقة الفرات التي تفصل أرمينيا عن قبدوقيا وكوماجينا.

2- ينبع الفرات من الجانب الشمالي لطوروس؛ ويجري في الأوّل نحو الغرب عبر أرمينيا، ثمّ ينعطف نحو الجنوب ويقطع طوروس بين أرمينيا وقبدوقيا، وكوماجينا؛ وبعد أن يتجاوز طوروس ويبلغ سوريا، ينعطف النهر نحو المطلع الشتوي للشمس[1] حتّى

بابل، ليشكل مع دجلة منطقة ما بين النهرين. وينتهي النهران معاً إلى الخليج الفارسي. إن هذه هي البلدان التي تحيط بأرمينيا؛ وهي كلّها بلدان جبلية غير مستوية، ما عدا شطر صغير يتّجه نحو ميديا. ولكن، بما أن طوروس الذي ذكرناه سابقاً[2]، يبدأ من جديد على الجانب الآخر من الفرات مقابل كوماجينا وميليتينا (منطقتان يشكلهما الفرات)، فإن ماسوس جبل يعلو في الجنوب فوق الميغدونيين وبلاد ما بين النهرين التي تقع نيسيبيا في منطقتهم، بينما تقع سوفينا في الأجزاء الشمالية بين ماسيوس وأنتيطوروس. ويبدأ أنتيطوروس عند الفرات وطوروس، وينتهي في الشطر الشرقي من أرمينيا؛ ويضمّ على أحد جانبيه وسط سوفينا[3]، وعلى الجانب الآخر تقع أكيليسينا الواقعة بين أنتيطوروس ومنطقة الفرات النهرية حتّى منعطف هذا الأخير نحو الجنوب. والعاصمة الملكية في سوفينا هي كاركافيوكريتا. ويرتفع قبالة غوردييينا نحو الشرق جبل نيفات فوق جبل ماسوس؛ ثمّ يأتي بعد ذلك جبل آب الذي ينبثق منه الفرات وأراكس، فيتّجه الأوّل غرباً، والثاني شرقاً؛ وأخيراً جبل نيبار الذي يمتدّ حتّى ميديا.

3- وأنا كنت قد وصفت مجرى الفرات. أمّا أراكس فإنه يتّجه في الأوّل شرقاً حتّى أتروباتينا، ثمّ ينعطف نحو الغرب والشمال ليجري أوّلاً على مقربة من أزارا، وبعد ذلك قرب أرتاكساتا، وهما مدينتان أرمينيتان؛ وبعد أن يعبر سهل أراكسينا يصبّ في نهاية المطاف في بحر قزوين.

4- وفي أرمينيا نفسها كثير من الجبال والهضاب، حيث لا تنمو عرائش العنب إلاّ بصعوبة؛ وهناك كثير من الوديان أيضاً، لكنّ بعضها لا يتميّز بخصوبة خاصة، بينما بعضها الآخر على الضدّ يتميّز بخصوبة فريدة، كما هي حال سهل أراكس الذي يجري فيه نهر أراكس حتّى حدود ألبانيا، ليصبّ في بحر قزوين. وتلي هذا السهل منطقة ساكاسينا التي تتاخم أيضاً ألبانيا ونهر كير؛ وأبعد من هذا تقع منطقة غوغارينا. وتمتلئ هذه البلاد كلّها بالثمار البرية وثمار الشجر الذي يزرعه الإنسان، وبالشجر الدائم الخضرة؛ كما ينمو الزيتون هنا أيضاً. وتعدّ فافينا[4]، ومثلها كوميسينا، وأورخيستينا ولايات أرمينية، وهي التي تقدّم العدد الأكبر من الفرسان. أمّا خورزينا وكاميسينا فإنهما الأبعد نحو الشمال، وتكثر الثلوج فيهما أكثر من المناطق الأخرى؛ إنهما تقعان على الحدود مع جبال القفقاس، وإيبيريا وكولهيدا. ويقولون إن قوافل كاملة تهلك هنا على المعابر الجبلية عندما تتساقط الثلوج بقوة. وتحسباً لهذا الخطر يحمل الرحالة معهم عيداناً خاصة يخرجونها من وقت لآخر من

تحـت الثلـوج إلى السـطح ليفتحـوا متنفسـاً ويعطـوا إشـارة إلى العـابرين ليـأتوا لنجـدتهم. ويقولـون، إن جلاميـد جليديـة مجوّفـة تتشـكل هنـا، وتحتـوي كمـا في سـحابة مـن الجليـد، مياهـاً جيّـدة تسـرح فيهـا كائنـات حيـة يـدعوها أبوللونيـدس ديـداناً، أمّـا ثيوفانوس فيدعوها أساريع. ويقال، إن هذه الجلاميد الجليدية تحتوي على مياه ممتازة تستخدم للشرب بعد ثقب قشرة الجلمود. ويـرى بعضهم أن نشـوء هـذه الكائنـات الحية مثله مثل نشوء البعوض من الشعلة والشرر من المناجم.

5- ويروون بعد ذلك إنّ أرمينيا كانت في الأزمنة الغابرة بلاداً صغيرة، ضاعفت حجمهـا حـروب أرتاكسـوس وزاريـادرس. وكـان هـذان في بـادئ عهـدهما قائـديين عسكريين لدى أنطوح الأكبر، وبعد هزيمته، صارا إلى ملكين (الأوّل على سوفينا، وأكسـينا، وأودمـانتس وبعـض المنـاطق الأخـرى؛ والثـاني علـى الـبلاد الواقعـة حـول أرتاكساتا)؛ لقد زاد هذان معاً حدود أملاكهما فانتزعا شطراً من أراضي الشعوب المحيطـة بهمـا، وتحديـداً أراضـي الميـديين، إذ انتزعـا منهم قزوينيـا، وفافنيتيـدس، وباسوروبيدا؛ وانتزعا من الإيبيريين منحدرات باريادرس، وخورزينا، وغوغارينا التي تقع على الجانب الآخر من نهر كير؛ وانتزعا من الخـاليبيين والموسـينيكيين كارينيتيـدا وكسيراكسـينا الـتي تتـاخم أرمينيـا الصـغرى أو تعـدّ جـزءاً منهـا؛ ومـن الكاتـاونيين إكيليسينا والمنطقة المحيطة بأنتيطوروس؛ وأخيراً انتزعا من السورين تارونتيدا. ولـذلك تتحدّث هذه الشعوب كلّها الآن لغة واحدة.

6- ومـدن أرمينيـا هـي: أرتاكسـاتا (الـتي يـدعونها أيضـاً أرتاكسياسـاتا) الـتي أسّسها هنيبعل للملك أرتاكسوس، وأركساتا؛ وتقع هاتان المدينتان على نهر أراكس: أركساتا على مقربة من حدود أتروباتيا، وأرتاكسـاتا غير بعيد عن سهل أراكسينا؛ وهي مدينة غنية منظمة وعاصمة البلاد، تقع على مرتفع يشبه شبه الجزيرة، ويجـري أمام أسوارها من الجهات كلّها نهر، ما عدا حيّز البرزخ الذي يحميه خندق وسياج من الأوتاد المدببة. وغير بعيد عن المدينة تقع خزائن تيغيران وأرتافاسد في حصنين منيعين: بابيرسـا وأولانـا. كمـا كانـت علـى الفـرات حصـون أخـرى. لكـنّ آدور قائـد الحصـن حرّض الأتـاغريين على العصيان، إلاّ أنّ قـادة قوات قيصر أخذوا الحصن بعد حصار طويل ودمّروا أسواره.

7- ويجـري في الـبلاد عـدد مـن الأنهـار، أشـهرها نهـر فاسيس ونهـر ليـك اللـذان يصبان في بحر البونتس (ويخطئ إيراتوسفين عندما يكتب ثيرموندونت بدلاً من ليك)،

بينما يصبّ نهر كير ونهر أراكس في بحر قزوين، ويصبّ الفرات ودجلة في البحر الأحمر.

8- وفي أرمينيا بحيرات كبيرة تحمل إحداها اسم مانتيانا[5]، ومعناه «الزرقاء». ويقال إنها أكبر بحيرة مالحة بعد ميوتيدا؛ فهي تنبسط حتّى أتروباتيا؛ وعليها ملّاحات. والبحيرة الأخرى هي بحيرة أرسينا وتدعى أيضاً ثوبيتيدا. وتحتوي مياه هذه البحيرة على الصودا التي تنقّي الملابس وتجددها. ولكن هذا الخليط من الصودا يجعل مياه البحيرة غير صالحة للشرب. ويندفع نهر دجلة هادراً صاخباً من حدود البلاد الجبلية عند نيفات، ليجري عبر البحيرة محافظاً في أثناء ذلك، بسبب قوّة جريانه، على نقاء مياهه وعدم اختلاطها بمياه البحيرة، ومنه جاء اسم النهر، لأنّ الميديين يدعون السهم «تيغريس» (من المعروف أن نهر دجلة يدعى بغير العربية، تيغر- ح.إ). ويعيش في هذا النهر مختلف أنواع السمك، بينما سمك البحيرة من نوع واحد. وعند أقصى نقطة في البحيرة يسقط النهر في هوّة ليجري مسافة طويلة تحت الأرض، ثمّ يخرج إلى السطح عند هالونتيدا[6]. ومن هنا يجري نهر دجلة نحو أوبي، ثمّ إلى سور سميراميس تاركاً وراءه كلّ منطقة الغورديين وما بين النهرين على يمينه، بينما يترك الفرات هذه البلاد عينها على يساره. وإذ يقترب النهران واحدهما من الآخر، يشكلان منطقة ما بين النهرين، ثمّ يجري دجلة عبر سلوقيا إلى الخليج الفارسي، أمّا الفرات فيجري عبر بابل كما أشرت من قبل[7] معارضاً إيراتوسفين وهيبارخ.

9- وفي سيسبيريتيدا غير بعيد عن كابالا تقع مناجم الذهب؛ وإلى هناك أرسل الإسكندر مينون مع وحدة من المقاتلين، لكنّ أهل البلاد أخذوه أسيراً وقادوه إلى عمق البلاد[8]. وتوجد هناك مناجم أخرى أيضاً، بما فيها التي يستخرجون منها ما يدعى «سانديك»[9] الذي يدعى بالصباغ «الأرميني»، وهو يشبه اللون القرمزي. وهذه البلاد «غنية بالجياد» (ليست أقلّ من ميديا) إلى درجة أن الجياد النيسية نفسها التي كان يستخدمها الملوك الفرس، كانت تربى هنا. فقد كان والي أرمينيا يرسل إلى الملك الفارسي 20.000 مهر في كلّ عام في العيد الذي يدعى ميتراكينا. ولدى اجتياحه ميديا مع أنطونيو، استعرض أرتافاسد إضافة إلى الفرسان الآخرين، 6000 من الخيل المدرّعة التي اصطفّت في نسق قتالي. ولم يكن الميديون والأرمن وحدهم الذين يهوون هذا النوع من وحدات الفرسان، بل شاركهم هذه الهواية الألبانيون أيضاً، لأنهم كانوا يستخدمون الخيل المدرّعة في حروبهم.

10- ومن العلامات المهمّة الأخرى التي تدلّ على ثراء هذه البلاد، الحادثة التالية. فقد فرض بومبيوس على تيغيران والد أرتافاسد إتاوة قدرها 6000 تالانت من الفضّة، وفي اللحظة نفسها وزّع هذا المبلغ على القوّات الرومانية 50 دراخما لكلّ جنديّ، و1000 دراخما لكلّ قائد مئة، وتالانتاً واحداً لكلّ هيبارخس وكليارخس.

11- ويحدّد ثيوفانوس أبعاد هذه البلاد على النحو الآتي: عرضها 100 سخين، وطولها ضعف عرضها، عادّاً السخين الواحد يساوي 40 مرحلة. لكنّه يبالغ كثيراً هنا. فالأقرب إلى واقع الأشياء أن يعدّ الرقم الذي حدّده لعرض البلاد رقماً لطولها ونصف هذا الرقم أو أكثر بقليل لعرضها. لقد كانت هذه هي الخاصيات الطبيعية لأرمينيا، وقوّتها.

12- أمّا التاريخ القديم لهذا الشعب، فهو على النحو الآتي تقريباً. فكما قلت من قبل[10]، إن أرمين ينحدر من مدينة أرمينيا التسالية الواقعة بين ثيرا ولاريسا على بحيرة بيبا، وكان هذا قد مضى في حملة مع ياسون إلى أرمينيا. ويزعم كيرسيلوس الفرسالي وميديوس اللارسي، اللذان شاركا في حملة الإسكندر، أنّ أرمينيا أخذت اسمها منه. وقد استوطن فريق من مرافقي أرمين في أكيليسينا (التي كانت خاضعة في الأزمنة الماضية للسوفينيين)، بينما استوطن فريق آخر سيسبيريتيدا وصولاً إلى كالاهينا وأديابينا وراء الجبال الأرمينية. ويقولون، إن زيّ الأرمن زيّ تسالي؛ فالقفاطين الطويلة مثلاً، التي تدعى في التراجيديات بالتسالية، ترفع عند الصدر بحزام، وتحبك الملابس الخارجية بمشابك، بحيث يبدو كأنّ الممثلين يقلّدون التساليين في زيّهم هذا؛ فقد كانوا بحاجة إلى زخرفة أجنبية من هذا النوع؛ ولكن بما أن التساليين كانوا يرتدون ملابس طويلة أصلاً (ربّما لأنهم خلافاً للإغريق الآخرين كانوا يقطنون في أقصى الشمال، في أكثر المناطق برودة)، فقد رأى الممثلون في هذه الثياب النموذج الأكثر ملاءمة لمحاكاة الشخصيات التي كانوا يجسدونها في المشاهد التي يؤدّونها. كما جاء ولع الأرمن والميديين بركوب الخيل، من التساليين أيضاً. ويشهد على حملة ياسون وجود معابد ياسون التي بنى بعضها الحكّام المحلّيون، مثلما فعل بارمنيون عندما بنى معبداً لياسون في أبديرا.

13- ويقولون، إن أرمين ومرافقيه دعوا أراكس وبينييوس باسم واحد بسبب تشابه النهرين بعضهما مع بعض؛ فبينييوس يدعى أراكس أيضاً، لأنه «فلق»[11] أوسّا عن أولميب، وشقّ وادي تيمبييوس. ويروى أن أراكس الأرميني كان ينهال قديماً بعد

جريانه الصاخب عبر الجبال، على مدى واسع من السهول الواقعة تحتها، ولمّا لم يجد مخرجاً شكّل بحراً هناك. أمّا ياسون فقد شقّ أخدوداً في الصخر وفق نموذج وادي تيمبييوس، تتدفق[12] مياه النهر عبره الآن إلى بحر قزوين. ونتيجة لذلك جفّ سهل أراكسينا الذي يجري النهر عبره إلى منحدر سقوطه[13] في البحر. وثمّة شيء من الحقيقة في هذه القصة؛ أمّا رواية هيرودوت فهي غير واقعية البتّة. فبحسب هيرودوت إن أراكس ينبع من منطقة الماتينيين، ثمّ يتوزّع على 40 فرعاً، فاصلاً بذلك بين السكيثيين والباكتريين[14]. وحذا كاالليسفين حذو هيرودوت.

14- ويقولون أيضاً، إن فريقاً من الإينيانيين استوطن في فيتيا، والفريق الآخر إلى الأعلى من الأرمن، وراء جبليّ آب ونيبار. ويشكل هذين الجبلين جزأين لا يتجزآن من طوروس؛ ويقع آب على مقربة من الطريق التي تقود إلى إيكباتانا غير بعيد عن معبد باريدا. وتقول الروايات، إن جماعة من التراقيين تدعى السارابايين، «قاطعيّ الرؤوس»، سكنوا فوق أرمينيا بجوار الغورانيين والميديين؛ وهؤلاء قبيلة من الوحوش البشرية الجبلية العصية الذين يسلخون فروات الرؤوس ويقطعونها، لأنّ هذا معناه «سارباريون». وأنا كنت ذكّرت بأسطورة ميديا أثناء وصفي لميديا. ولذلك فإن مقارنة هذه الأخبار كلّها تقودنا إلى القول، إنّ هناك أواصر قرابة تربط بين الميديين والأرمن، وإلى حدّ ما بين التساليين وأحفاد ياسون وميديا.

15- تلكم كانت الحكاية القديمة. أمّا القصة الأحدث عهداً عن الأحداث التي وقعت منذ سيطرة الفرس وما تلاها وصولاً إلى زمننا هذا، فربّما يكون من الأفضل أن نعرضها باختصار على النحو الآتي. في أوّل الأمر استولى الفرس والمقدونيون على أرمينيا؛ ثمّ سيطر عليها بعد ذلك أولئك الذين خضعت لهم سوريا وميديا؛ وآخر الذين استولوا على أرمينيا، هو أورونت حفيد هيدران وأحد الفرس السبعة[15]. ثمّ قسم أرتاكسوس وزاريادرس قائد قوات أنطوخ الأكبر الذي حارب الرومان البلاد إلى شطرين. وقد أدار هذان شؤون البلاد بتكليف من الملك. ولكن بعد أن هزم الملك أمام الرومان، انتقلا إلى صفّهم، وبعد أن توّجا ملكين نالا استقلالهما. وكان تيغران خليفة أرتاكسوس مالكاً فعلياً لأرمينيا، فهذه المنطقة تجاور ميديا، وألبانيا، وإيبيريا وصولاً إلى كولهيدا وقبدوقيا على البونتس الإيفيكسيني؛ أمّا خليفة زاريادرس فكان السوفيني أرتان[16]، الذي خضعت له المناطق الجنوبية، والمناطق الواقعة إلى الغرب منها. وقد هزم تيغران هذا الأخير وملك على البلاد كلّها. وكان مقدّراً لتيغران أن

يصارع تقلّبات القدر على اختلافها. ففي بادئ الأمر عاش رهينة لدى البارثيين؛ ثمّ نجح بعد ذلك في نيل إذن منهم بالعودة إلى وطنه، لكنّ البارثيين أخذوا منه فدية 70 وادياً في أرمينيا. ولكن، بعد أن قويت شوكته لم يكتف تيغران بانتزاع هذه المناطق من البارثيين، إنما غزا بلادهم نفسها ونهبها: المناطق المحيطة بنين وأربيل. ثمّ أخضع بعد ذلك حكّام أتروباتينا وغورديبا، واستولى بمساعدتهم على ما تبقى من وادي الرافدين. وعبر بعد ذلك الفرات ليأخذ سوريا وفينيقيا عنوة. وإذ بلغ هذه الدرجة من القوّة والجبروت، أسّس تيغران مدينة على مقربة من إيبيريا[17]، بين هذا المكان وزيغما على الفرات. وبعد أن ساق إلى هنا سكّان 12 مدينة إغريقية غزاها ونهبها، دعا هذه المدينة تيغرانوكيرتا. ولكنّ لوكولاّ الذي شنّ حرباً على ميتريدات وصل إلى هنا قبل أن يكتمل بناء المدينة، ولم يكتف بإطلاق سكّانها كلّ إلى مدينته الأم، بل دمّر النصف الذي كان قد اكتمل بناؤه من المدينة، ولم يبق إلاّ على قرية صغيرة[18]. وبعدئذٍ طرد لوكولاّ تيغران من سوريا وفينيقيا. لكنّ خليفته أرتافاسد أفلح طالما بقي على تحالفه مع الرومان، ولكنّه بعد أن خان أنطونيو أثناء حرب هذا الأخير ضدّ البارثيين، ناله عقاب صارم. فقد جاء به أنطونيو إلى الإسكندرية، وجال به في موكب نصره مقيداً، ووضعه تحت الحراسة لبعض الوقت، لكنّه قتله عندما بدأت الحرب الأكتية. وبعد أرتافاسد حكم البلاد عدد من الملوك الذين كانوا تابعين لقيصر والرومان؛ ولا تزال البلاد موجودة حتّى الآن وتدار وفق الأسس نفسها.

16- ويبجّل الميديون والأرمن الطقوس الفارسية المقدّسة كلّها. ولعبادة أناهيتا مكانة خاصة عند الأرمن الذين بنوا على شرف هذه الإلهة معابد في شتّى أرجاء البلاد، بما في ذلك أكيليسينا. وكرّسوا فيها عبيداً وإماء لخدمة الإلهة. وليس ما هو غريب في هذا. فصفوة وجهاء القبيلة يكرّسون بناتهم للإلهة أيضاً. وعند هؤلاء عادة تقضي بألاّ يتزوّجن قبل أن يقضين زمناً طويلاً يعاشرن الرجال خلاله في معبد الإلهة مقابل أجر، ولم ير أحد أي عيب في أن يتزوّج مثل هذه المرأة. ويروي هيرودوت عن شيء ما يشبه هذا لدى النسوة الميديات[19]؛ فيقول إن كلّهنّ يمارسن الفجور والتهتّك. ويتعاملن مع عشاقهنّ في أثناء ذلك بكل رقّة، فيقدمن لهم الضيافة، ويتبادلن معهم الهدايا، وليس نادراً أن يعطينهم أكثر مما يأخذن منهم، خاصة أنهنّ ينتمين أصلاً إلى عائلات ثرية تقدم لهن موارد كافية لهذه الأغراض. وعلى وجه العموم لا تستقبل هؤلاء النسوة أيّاً كان من الرجال، إنما غالباً الرجال الذين ينتمون إلى طبقتهن الاجتماعية نفسها.

الكتاب الثاني عشر

الفصل الأول

1- تنقسم قبدوقيا إلى أقسام كثيرة عرفت تغييرات عديدة. فالقبدوقيون الذين يتحدّثون لغة واحدة، هم الذين يجاورون من جهة الجنوب ما يدعي طوروس الكيليكي، ومن جهة الشرق أرمينيا وكولهيدا والشعوب التي تقطن في المنطقة الفاصلة بينهما وتتحدّث لغات مختلفة؛ ويجاورهم من جهة الشمال، البونتس الإيفيكسيني حتّى مصبّ نهر هاليس، ومن جهة الغرب قبيلة البافلاغونيين، والغالاطيين الذين استوطنوا فريجيا حتّى منطقة الليكاونيين والكيليكيين الذين يقطنون كيليكيا «التراخية»[1].

2- ومن هذه القبائل التي تتحدّث لغة واحدة، عدّ القدماء قبيلة الكاتاونيين شعباً مستقلاً قائماً بذاته، وعارضوهم مع القبدوقيين بصفتهم قبيلة أخرى. ولدى تعداد الشعوب جاءت كاتاونيا عندهم بعد قبدوقيا، وجاء بعد ذلك الفرات والقبائل التي تقطن وراءه، حتّى أنهم ألحقوا ميليتينا بكاتاونيا، وتقع ميليتينا هذه بين قبدوقيا والفرات متاخمة كوماجينا؛ وتشكّل ميليتينا $\frac{1}{10}$ قبدوقيا، وفق تقسيم البلاد إلى 10 عامليات[2]. فقد أنشأ هذا التقسيم في زمننا هذا ملوك البلاد الذين حكموا قبل أرخيلايوس. كما تشكّل كاتاونيا بدورها $\frac{1}{10}$ قبدوقيا. وفي زمننا هذا لكلّ من البلدين عامله الخاص[3]. ولكن بما أنّه لا تظهر لدى الكاتاونيين أيّ اختلافات في اللغة أو في الاعتيادات الأخرى، مع القبدوقيين الآخرين، فإن اختفاء كلّ أثر لانتمائهم إلى شعب آخر أمر يثير الاستغراب. وفي الأحوال كلّها كان هؤلاء يشكلون في السابق قبيلة خاصة؛ فقد ضمهم أرياراف الذي كان أوّل من نال لقب ملك القبدوقيين، إلى مملكته.

3- وتبدو هذه البلاد كأنها برزخ شبه جزيرة كبيرة واقعة بين بحرين: خليج إيسوس وصولاً إلى كيليكيا التراخية، والبونتس الإيفيكسيني بين سينوبس وساحل التيبارينيين. وعلى وجه التحديد تدعى البلاد الواقعة إلى الغرب من قبدوقيا على هذا الجانب من البرزخ، كلّها «شبه جزيرة»، وهي البلاد التي يدعوها هيرودوت «البلاد التي على هذا الجانب من نهر هاليس»[4]. إن هذه البلاد هي البلاد التي حكمها كريز كاملة، وقد دعاه هيرودوت سيّد قبائل «هذا الجانب من نهر هاليس». ويدعو معاصرونا آسيا بالبلاد التي على هذا الجانب من طوروس، مانحين إياها اسماً واحداً مع آسيا كلها. وتعيش في الشطر الشرقي من هذه البلاد، الشعوب التالية: البافلاغونيون، والفريجيون، والليكاونيون، ثمّ الطيبيون، والميسيون و«الإيبيكتيتيون»[5]، وبعد ذلك طروادا وهلليسبونتيا، وبعدهما في البحر، الإغريق، والإيوليون، والإيونيون، وممّا تبقّى، الكاريون والليكيون؛ أمّا في داخل البلاد، فيعيش الليديون. وسأتحدّث عن الآخرين فيما بعد.

4- وفيما يخصّ قبدوقيا، فقد انتزعها المقدينون من الفرس مقسّمة إلى ولايتين. وسلّم المقدونيون، جزئياً برضاهم، وجزئياً رغماً عنهم بتحويل الولايتين إلى مملكتين. فدعوا إحداهما «قبدوقيا نفسها»، و«قبدوقيا التي عند طوروس»، بل دعوها أيضاً «قبدوقيا العظمى»، ودعوا الأخرى «البونتس»، مع أن الآخرين يدعونها قبدوقيا البونتية. ونحن لا نعرف حتّى الآن[6] شيئاً عن بناء قبدوقيا العظمى. فبعد وفاة الملك أرخيلايوس، قرر قيصر [7] والسينات تحويلها إلى ولاية رومانية. وفي عهد أرخيلايوس والملوك الذين سبقوه، عندما كانت البلاد مقسمة إلى 10 عامليات، كانت خمس منها تعدّ في طوروس: ميليتينا، وكاتاونيا، وكيليكيا، وتيانيتيدس، وهارسافريتيدس؛ والخمس الأُخر: لافيانسينا، وسارغارافسينا، وسارافينا، وهامانينا، وموريمينا. وفيما بعد فصل الرومان عن كيليكيا لأسلاف أرخيلايوس 11 عاملية، وعلى وجه التحديد منطقة كاستابال وكيبيستر وصولاً إلى ديربا، التي كانت تابعة للقرصان أنتيباتر؛ وأعطوا أرخيلايوس شطر كيليكيا التراخية الواقع حول إيليوسا، وكلّ المنطقة الموحدة لأعمال القرصنة.

الفصل الثاني

1- وتبدي ميليتينا تشابهاً مع كوماجينا. ففي قبدوقيا كلّها، هذه البلاد

وحدها التي تزرع الأشجار المثمرة فيها، وعليه فإنها لا تنتج زيت الزيتون فقط بل تنتج النبيذ المونارِيتي الذي لا يقلّ جودة عن النبيذ الإغريقي. وتقع ميليتينا قبالة سوفينا التي لا يفصلها عنها سوى نهر الفرات الذي يجري بينها وبين كوماجينا الحدودية. وعلى ضفّة النهر الأخرى تقع القلعة القبدوقية المهمّة توميس، التي بيعت لحاكم سوفينا بمئة تالانت، ثمّ قدّمها لوكولاّ فيما بعد هدية لحاكم قبدوقيا مكافأة له على بسالته، وكان هذا قد حالفه ووقف إلى جانبه في حربه ضدّ ميتريدات.

2- وكاتاونيا سهل فسيح منخفض تنمو فيه شتّى أنواع النباتات، ما عدا النباتات الدائمة الخضرة. والبلاد محاطة بالجبال، ومن بينها من جهة الجنوب، جبل الأمانوس، أحد ذيول طوروس الكيليكية؛ وأنتيطوروس الذي ينعطف بالاتجاه المعاكس. ويمتدّ الأمانوس فعلاً من كاتاونيا حتّى كيليكيا والبحر السوري غرباً وجنوباً، ويطوّق على هذا الامتداد كلّه خليج إيسوس وسهول الكيليكيين الواقعة هنا، والتي تتّجه نحو طوروس. أمّا أنتيطوروس فيميل نحوالشمال، وبعد أن يدخل نحو الشرق قليلاً، ينتهي في أعماق البلاد.

3- وعلى هذا الأنتيطوروس تقع وديان عميقة ضيّقة تقع فيها مدينة كومانا ومعبد إينيو التي يدعوها السكّان المحلّيون ما. وكومانا هذه مدينة كبيرة، لكنّ أكثر سكّانها مسكونون بالإله وخدم في المعبد. وسكّان المدينة من الكاتاونيين؛ وهم خاضعون على وجه العموم، لسلطة الملك، لكنّهم يخضعون في غالب الأحيان لسلطة الكاهن. والكاهن رئيس المعبد والعبيد المعبديين، الذين كان عددهم أثناء إقامتي هناك 6000 رجل وامرأة معاً. كما يملك المعبد مساحة كبيرة من الأرض الزراعية يتصرّف الكاهن بمردودها كيفما يشاء. ويعدّ الكاهن في قبدوقيا الشخصية الثانية من حيث الأهمية، بعد الملك. وينتمي هؤلاء الكهنة عادة إلى السلالة الملكية نفسها. وهذه الطقوس المقدّسة، طقوس أرطميس تاوروبولوس، نقلها إلى هنا من سكيثيا التاورية، أوريستوس وأخته إيفيجينيا؛ وهنا وضعا شعرهما[1] الذي حلقاه تعبيراً عن حزنهما؛ ومن هنا جاء اسم المدينة. ويجري عبر هذه المدينة نهر سار الذي يخرج عبر أخدود طوروس إلى السهول الكيليكية والبحر الذي يقع تحتها.

4- ويجري عبر كاتاونيا نهر بيراموس الصالح للملاحة الذي تقع منابعه في وسط السهل. ويقع هنا تجويف عميق كبير يمكن أن ترى فيه كيف تسيل المياه عبره على حيّز كبير، مختبئة تحت الأرض، ثمّ تظهر إلى السطح بعد ذلك. وإذا ما رميت

رمحاً من الأعلى إلى عمق التجويف، فسترى أن قوّة مقاومة ضغط الماء بالكاد تسمح للرمح أن يغوص. وفي عمق واتساع كبيرين يجري بيراموس في بادئ الأمر نهراً جبّاراً، لكنّه ما إن يبلغ طوروس حتّى يضيق بصورة تثير الاستغراب. ويثير الدهشة كذلك الانهدام الجبلي الذي يمتدّ مجرى النهر عبره. فكما ترى في الحجارة المشطورة شقين توافق نتوءات أحد الشقين مع تجويفات الشق الآخر (بحيث يمكن إعادة تركيبهما من جديد)، كذلك رأيت أنا بأمّ عيني التجويفات على الصخور (التي ترتفع على جانبي النهر لتصل تقريباً إلى قمة الجبل على بعد 2 أو 3 بليفرات واحدتها عن الأخرى) الواقعة قبالة الحافتين. والتربة بين الصخور تربة صخرية كلّها؛ وثمّة في الوسط أخدود عميق ضيّق جدّاً، إلى درجة أنه يمكن لأي كلب أو أرنب أن يقفز عبره. وهذا الأخدود، هو مجرى النهر؛ وهو ممتلئ حتّى حافتيه، ويشبه قناة عريضة؛ وبسبب التواءات المجرى وضيقه الشديد، وبسبب عمق الأخدود فإن صخب الماء كصوت هزيم الرعد يصمّ آذان المارة من بعيد. وبعد أن يجتاز النهر الجبال، يحمل معه إلى البحر كميات مهولة من الطمي (جزء منها من كاتاونيا، والجزء الآخر من السهول الكيليكية) عظيمة إلى حدّ جعلهم يتداولون النبوءة التالية:

سيكون هذا في زمن الأحفاد، عندما سيحمل بيراموس

ذو المياه الفضية شاطئ البحر ليبلغ قبرص المقدّسة.

وفي مصر يحصل شيء ما مشابه أيضاً، لأنّ النيل هناك يحوّل البحر شيئاً فشيئاً إلى يابسة بما يحمله من طمي. ولذلك دعا هيرودوت مصر «هبة النيل»[2]، أمّا هوميروس فيقول، إنّ فاروس «كانت تقع في عرض البحر»[3]، لأنها في السابق كانت كما الآن، مرتبطة ببرّ مصر[4].

5- وليس[5] في سهل الكاتاونيين، ولا في ميليتينا مدن، لكنّ هناك حصنين منيعين في الجبال: أزامورا وداستارك الذي يجري حوله نهر كارمال. ويقع هنا معبد أبوللون الكاتاوني الذي يعبده القبدوقيون في كلّ مكان من بلادهم؛ ويبنون معابدهم على مثاله. أمّا العامليات الأخرى كلّها، ما عدا اثنتين، فليس فيها مدن. ومن العامليات الأخرى هنا بلدة في سارغارافسينا تدعى هيربا، ونهر كارمال الذي يصبّ بدوره[6] في البحر الكيليكي. وفي عامليات أخرى يقع آرغوس، وهو حصن على مرتفع عند طوروس ونورا (يدعيان الآن نيرواس)، حيث صمد إيفمين لحصار طويل. وفي أيامنا هذه كان هذا الحصن مقرّ خزنة سيسين الذي كان يسعى لبسط سيطرته على

قبدوقيا. كما كانت له كادينا التي اتّخذ منها عاصمة له، فقد كانت لهذا المركز السكّاني بنية مدينية حقيقية. وعلى الحدود مع ليكاونيا تقع بلدة غارسافيدا التي يقولون، إنها في زمن ما، كانت المدينة الرئيسة في البلاد. ويقوم في موريمينا معبد لزيوس الذي يعبدونه في فيناسا التي تقع فيها قرية يقيم فيها ما يقارب 3000 عبد معبدي، ومساحة خصبة جدّاً من الأرض المقدّسة يرد الكاهن منها 15 تالانتاً في العام. ويشغل هذا الكاهن منصبه مدى الحياة، ومثله كاهن كومانا، الذي يعدّ الشخصية الثانية بعده من حيث الهيبة والوقار.

6- ويشغل المكانة الثالثة من حيث الهيبة، كهنوت معبد زيوس الداكي[7]، ومع أنه أقلّ مكانة من كهنوت إينيو، إلاّ أنّ له مع ذلك مكانة مرموقة. ويقع هنا ينبوع مياهه مالحة، حجمه كحجم بحيرة كبيرة؛ وتحيط به هضاب عالية شديدة الانحدار، بحيث يبدو النزول إليه كالنزول على سلّم. ويقال، إنّ منسوب مياهه لا يرتفع، بينما لا يرى لها أي مصرف.

7- ولا توجد المدن إلاّ في عامليتين فقط: في تيانيتيدس، مدينة تيانا الواقعة عند سفوح طوروس، قرب البوابات الكيليكية حيث يقع أسهل ممرّ إلى كيليكيا وسوريا. ويدعى هذا الممرّ «يفسيفيا الطوروسية». وتعدّ تيانيتيدس بلاداً خصبة، شطرها الأكبر سهلي. وتقع تيانا على منحدر سميراميس الحصين. وغير بعيد عن هذه المدينة تقع كاستابالا وكيبيترا، وهما مدينتان صغيرتان أكثر قرباً إلى الجبل. ويقع في كاستابالا معبد أرطميس البيراسية، حيث يمشي الكهنة، كما يقال، حفاة على الجمر من غير أن يشعروا بالألم. وهنا غالباً ما يعيد بعضهم تكرار قصة أوريستوس وأرطميس التاوروبولوسية، مؤكّدين على أنّ البرج دعي بالبرج «البيراسي» لأنهم جاؤوا به «من ذاك الشاطئ»[8]. وفي واحدة من العامليات العشر المذكورة- عاملية تيانيتيدس- تقع مدينة تيانا (وأنا لا أُلحق بهذه العامليات عامليتيّ كاستابالا، وكيبيسترا، ومنطقة كيليكيا التراخية[9]، حيث جزيرة إيليوسا الشديدة الخصوبة التي عمّرها أرخيلايوس كما ينبغي، وكان يقضي فيها أكثر وقته)، ومدينة مازاكي، المدينة الرئيسة للقبيلة، وهي تقع في كيليكيا. وتحمل هذه المدينة اسم «يفسيفيا» أيضاً، وهي تلقّب «بالقريبة من آرغييوس»؛ وهي تقع فعلاً عند سفح هذا الجبل الذي يعدّ الأعلى بين الجبال الأخرى كلّها، وتكسو قمّته ثلوج أبدية؛ ويقول الذين صعدوا إلى قمته هذه (وهم قلّة)، إنه يمكن في أيام الصحو رؤية البحرين من هناك: البونتس

والإيسيّ. وعلى وجه العموم فإن طبيعة مازاكي نفسها ليست ملائمة للسكن المديني؛ فالمدينة ليس فيها ماء، وليست حصينة بطبيعتها الجغرافية، وبسبب إهمال الحكّام ليست محاطة بسور دفاعي (ربّما عن سابق قصد، كي لا تشكل الأسوار حصوناً يعتمد عليها سكّان السهول لممارسة الغزو والنهب انطلاقاً من التلال العصية على السهام). والضواحي أيضاً مجدبة ولا تصلح للعمل الزراعي، مع أنها أراض سهلية؛ إلاّ أنها رملية وصخرية بعض الشيء. وإذا ما تقدّمنا إلى الأمام قليلاً، تتبسط أمامنا على امتداد مراحل كثيرة سهول بركانية مليئة بالفوهات النارية. ولذلك يؤتى من بعيد بالمؤن الضرورية للعيش، وحتى ما يبدو أنه يشكل وفرة، يخفي في ثناياه خطراً محدقاً. ومع أن قبدوقيا كلّها تقريباً خالية من الغابات، إلاّ أنّ ضواحي آرغييوس فيها قليل منها. ولكنّ المنطقة الواقعة إلى الأسفل من منطقة الغابات تندلع النيران في أماكن كثيرة منها، وتوجد فيها احواض من المياه الباردة الجوفية، ولكنّ المياه لا تخرج هنا إلى سطح الأرض، وكذلك النيران. ولذلك تغطي الأعشاب مساحات كبيرة من أراضي البلاد. والتربة في بعض الأماكن تربة مستنقعية، وفي الليالي يتعالى اللهب من جوف الأرض. ويمارس الناس الذين يعرفون خاصيات المكان، قطع الأشجار هنا بحذر شديد؛ [فالعمل في هذه الأماكن] خطر بالنسبة لأكثر الناس، لكنّ الخطر الأكبر على القطعان لأنها غالباً ما تسقط في الفوهات الملتهبة المخفية.

8- ويجري في السهل الممتدّ أمام المدينة نهر يدعى نهر ميلاس، يبعد مجراه عنها 40 مرحلة تقريباً؛ وتقع منابعه في مكان أكثر انخفاضاً من موقع المدينة نفسها. وبما أنّ مجرى النهر يقع في مكان غير ملائم، والنهر نفسه إذ يفيض يشكّل مستنقعات وبحيرات، لذلك فالنهر لا ينفع السكّان في شيء؛ وفي الصيف يلوّث النهر الهواء في محيط المدينة فيعوق العمل في مقالع الحجارة، مع أن العمل فيها سهل في الأصل. فهناك تقع صفائح الحجارة التي يستخرج منها المازاكيون كثيراً من مواد البناء التي يبنون منازلهم منها؛ لكنّ الصفائح الحجرية التي تغمرها المياه يصعب الوصول إليها واستخراجها. وهذه المستنقعات بركانية في كلّ مكان. وبما أنّ لميلاس ممرّ إلى هاليس[10] عبر أحد الثغور، فقد أمر الملك أرياراف بإغلاقه، فحوّل بذلك السهل المجاور إلى بحيرة تشبه البحر؛ وأبرز هناك عدداً من الجزر من نوع جزر كيكلادا كان يقضي فيها أوقات لهوه عندما كان شاباً. ولكن حينما انهار السدّ عادت المياه تجري ثانية، ففاض هاليس[11] وجرف معه طبقة مهمّة من تربة قبدوقيا، ودّمر كثيراً

من القرى والمساحات المشجّرة، كما خرّب شطراً من منطقة الغلاطيين الذين كانوا يشغلون فريجيا. فطالب الغلاطيون أرياراف بأن يدفع لهم 30 تالانتاً من الفضّة تعويضاً عن الأذى الذي لحق بهم، ورفعوا الأمر إلى الرومان ليفصلوا فيه. ومثل هذا الأذى لحق أيضاً بمدينة هيربا، لأنّ أرياراف كان قد أمر بأن يبنى هناك سدّ يحجز مياه نهر كارمال. وبعد أن وقع انهدام في السدّ أدّى إلى انهياره، ودمّرت المياه عدداً من المناطق القريبة من مدينة ماللّوس، اضطر الملك إلى دفع تعويضات للمتضررين.

9- ومع أنّ منطقة المازاكيين من نواحي كثيرة لا تصلح بطبيعتها للسكن، إلاّ أنّ الملوك اختاروها لسبب رئيس، هو أنها تقع في وسط البلاد، بين المناطق التي تتوفّر فيها مواد الغابات والحجر الصالح لبناء المنازل، والحشائش التي كانوا يحتاجون إليها بصفتهم رعاة. فالمدينة كانت بالنسبة إليهم، بمعنى ما، معسكر وحسب. وفيما عدا ذلك وجدوا الأمن والأمان بالنسبة لهم ولعبيدهم في الحصون الجبلية (التي كانت كثيرة هناك)، التي كان بعضها للملك، وبعضها الآخر «لأصدقاء»[12] الملك. وتبعد مازاكي عن البونتس نحو 800 مرحلة نحو الجنوب، وأقلّ من هذه المسافة بمرّتين عن نهر الفرات؛ وتبعد عن البوابات الكيليكية ومعسكر قورش[13] مسافة ستة أيام عبر تيانا. وفي منتصف الطريق تقع تيانا على بعد 300 مرحلة من كيبيسترا. ويعتمد المازاكيون في حياتهم قوانين كاروندس؛ كما ينتخبون النومود[14] الذي يعدّ عندهم الفقيه الذي يؤوّل القوانين ويشرحها، مثله في هذا كمثل المستشار القانوني عند الرومان. وفي أثناء حملته على قبدوقيا، وضعهم الملك الأرميني تيغران في وضع حرج؛ فقد طرد الملك المازاكيين كلّهم إلى وادي الرافدين، وجعل منهم سكّاناً لتيغرانوكيرتا[15]. وعندما سقطت تيغرانوكيرتا فيما بعد، عاد من كان قادراً منهم على العودة إلى وطنه.

10- وتمتدّ هذه البلاد عرضاً من البونتس إلى طوروس حوالي 1800 مرحلة، وطولاً من ليكاونيا وفريجيا إلى الفرات شرقاً باتجاه أرمينيا، ما يقارب 3000 مرحلة. وهي غنية بالغلال، خاصة الأقماح، ومختلف أنواع المواشي، بسبب موقعها إلى الجنوب من البونتس، مع أنها أكثر برودة منه. أمّا في باغادانيا، ومع أنّ هذا السهل يقع في أقصى الجنوب (عند سفح طوروس)، إلاّ أنه بالكاد تنمو الأشجار المثمرة هنا، وعلى أيّ حال توجد هنا مروج تسرح فيها الحمير البرّية، ويوجد مثلها أيضاً في الشطر الأكبر من البلاد، خاصة قرب غارسافيرا، وليكاونيا، وموريمينا. وتنتج قبدوقيا ما

يسمّى الزينجفْر «السينوبي»؛ وهو الأفضل بين أنواعه الأخرى؛ ولكنّ الزينجفْر الإيبيري ينافسه. وقد أخذ تسمية السينوبي لأنّ التجار كانوا يرسلونه إلى هناك إلى أن تغلغلت تجارة إفسوس ووصلت إلى سكّان قبدوقيا. ويروى أنه على مقربة من غلاطيا كان عمال المناجم لدى أرخيلايوس يستخرجون صفائح الكريستال الصخري وحجر العقيق. كما كان هناك مكان يستخرجون منه الحجر الأبيض (يشبه لونه لون العاج) بأحجام لا يتجاوز واحدها حجم حجر المسنّ الصغير، ومن هذه الحجارة كانوا يصنعون مقابض السيوف. إضافة إلى هذا كلّه كان هناك مكان فيه حجارة شفافة كبيرة[16] تستخدم للنوافذ، وقد كانوا يصدّرون منها إلى الخارج. وكانت المنطقة الجبلية الموازية لطوروس، هي التي تشكّل حدود البونتس وقبدوقيا؛ وتبدأ من الأطراف الغربية لهامّانينا، حيث يقوم على المنحدر حصن داسميندا، ثمّ تمتدّ حتّى الأطراف الشرقية للأفيانسينا. وفي قبدوقيا عاميليتان، هما هامّانينا ولافيانسينا.

11- بعد أن انتصر الرومان على أنطوخ بدأوا مباشرة تنظيم شؤون آسيا، فعقدوا معاهدات صداقة وتحالفات مع الشعوب والملوك، وقد حدث أن منحوا هذا الشرف للملوك الآخرين كلّهم على المستوى الشخصي فقط، ما عدا ملك قبدوقيا الذي ناله هو وشعبه. وبعد أن انقطعت ذرية السلالة الملكية، وافق الرومان عملاً باتفاقية الصداقة والتحالف الموقعة مع هذا الشعب على منحه استقلاله، لكنّ السفراء الذين وصلوا إلى روما امتنعوا عن قبول الحرية الممنوحة لشعبهم بزعم أنهم عاجزين عن النهوض بأعبائها وطلبوا منحهم ملكاً. وقد استغرب الرومان وجود أيّ شعب كان تضنيه الحرية إلى هذا الحدّ [....][17]، وأجازوا لهم أنّ ينتخبوا من أوساطهم من يشاؤون فانتخبوا أريوبارزان. وعندما انقطعت ذريته في الجيل الثالث عيّن أنطونيو أرخيلايوس ملكاً (مع أنه لم تكن له أيّ صلة به). إن هذه هي معلوماتي عن قبدوقيا الكبرى. أمّا كيليكيا التراخية التي أُلحقت بقبدوقيا الكبرى، فمن الأفضل أن نتحدّث عنها لدى وصفنا لكيليكيا كاملة[18].

الفصل الثالث

1- لقد أصبح ميتريدات إيفباتور ملكاً على البونتس. وقد امتلك هذا بلاداً تمتدّ حدودها من هاليس حتّى منطقة التيبارانيين وأرمينيا والبلدان الواقعة على هذا الجانب من هاليس: حتّى أماستريا وبعض أجزاء بافلاغونيا. وامتلك علاوة على هذا، الساحل

الغربي وصولاً إلى هيراقليا، موطن هيراقليط الأفلاطوني، وامتلك بالاتجاه المغاير، الساحل الممتدّ حتّى كولهيدا وأرمينيا الصغرى؛ وقد ألحق هذه البلدان بالبونتس. وعندما انتصر بومبيوس على ميتربدات، امتلك البلاد التي تمتدّ داخل هذه الحدود فعلاً. ووزّع المنتصر أجزاءها التي تقع باتجاه أرمينيا وقرب كولهيدا على الحكّام الذين قاتلوا إلى جانبه، وقسّم ما تبقى إلى إحدى عشرة دولة وألحقها ببيتينيا، فتشكلت من الشطرين ولاية واحدة. ووضع بومبيوس فريقاً من البافلاغونيين الذين كانوا يعيشون بينهما[1] تحت سلطة الملوك من أحفاد بيليمين، كما أخضع الغلاطين لسلطة التيتراخ[2] من سلالتهم الأصل. وفيما بعد أعاد الرومان رسم حدود البلاد من جديد، وعيّنوا ملوكاً وحكّاماً، ومنحوا الحرية لمدن، ووضعوا مدناً أخرى تحت سلطة حكّام، وأبقوا مدناً ثالثة تحت سلطة الشعب الروماني. وإذ أُباشر وصف هذه البلاد، ينبغي عليّ أن أتحدّث عن وضعها الراهن وأُلامس ماضيها حيث يكون ثمّة ضرورة لذلك. وهاأنذا أبدأ من هيراقليا الواقعة في أقصى غربيّ هذه المنطقة.

2- إذا أبحرت من بروبونتيدا إلى البونتس الإيفيكسيني، فعلى يسارك تقع الأماكن المجاورة لبيزنطا (وهي للتراقيين، وتحمل اسم «الجهة اليسرى» للبونتس) أمّا على يمينك فتقع المناطق المحاذية لخلكيديا. وأوّل من يقطن هنا هم البيثينيون، يليهم الماريانديون (بعضهم يدعوهم بالكافكونيين)، ثمّ البافلاغونيون قبل نهر هاليس، وأخيراً القبدوقيون الذين على البونتس وما يليهم من الشعوب وصولاً إلى كولهيدا. وتدعى هذه المناطق كلّها «الجهة اليمنى» للبونتس الإيفيكسيني. وقد ساد إيفباتور[3] على الساحل كلّه، من كولهيدا حتّى هيراقليا، أمّا المناطق الواقعة وراء هذه الحدود وصولاً إلى البونتس، فقد بقيت تحت سلطة الملك البيثيني. وبعد الإطاحة بالملوك، أبقى الرومان على الحدود نفسها: أُلحقت هيراقليا بالبونتس، والمنطقة الواقعة وراءها أُلحقت ببيثينيا.

3- ويتّفق أكثرهم على أنّ البيثينيين الذين كانوا من قبل ميسينيين، تلقّوا اسمهم الجديد هذا من التراقيين، من البيثينيين والثينيين الذين استوطنوا هذه البلاد. وفيما يتعلّق بقبيلة البيثينيين يوردون للبرهان على صحّة وجهة النظر هذه، دليلاً مفاده أنه حتّى وقتنا الراهن لا تزال بعض القبائل في تراقيا تدعى بيثينية، وبرهانهم بالنسبة للثينيين هو أنّ الساحل الممتدّ بالقرب من أبوللونيا وساليديسّ لا يزال يحمل اسم ثينادس. كما كان البيبريكيون، الذين استوطنوا في ميسيا قبل هذه القبيلة، تراقيين

على ما أظنّ. وأنا أشرت سابقاً إلى أن الميسيسيين أنفسهم قد انحدروا من أولئك التراقيين الذين يدعون الآن ميسيسيين. وهذا ما يروى عن هذه القبيلة.

4- ولا ينقل كلّهم معلومات متماثلة عن الماريانديينيين والكافكونيين: يقولون إنّ هيراقليا تقع في منطقة الماريانديينيين، وأن الميلتوسيين هم الذين أسّسوها؛ لكنّهم لا يقولون أيّ شيء عن هؤلاء، من هم، ومن أين جاؤوا. ولا يقال شيء عن لغتهم، أو عن سمة إثنية تفريقية أخرى، لكنّهم كانوا يشبهون البيثينيين. ويهيّأ لي أن هذه القبيلة بدورها كانت قبيلة تراقية أيضاً. وبحسب ثيوبومبوس أنّ ماريانديين حكم هذا الشطر من بافلاغونيا التي كانت خاضعة لحكّام كثر؛ ثمّ هاجم بلاد البيبريكيين واستولى عليها، لكنّه تركها بعد ذلك ومضى بعد أن أعطاها اسمه. ويقولون أيضاً إنّ بناة هيراقليا الأوائل- الميلتوسيين- أرغموا الماريانديين، حكّام البلاد السابقين، على أن يخدموا عندهم كهيللوت، حتّى أنهم أخذوا يبيعونهم في أسواق النخاسة، لكن داخل البلاد فقط (لأنهم اتّفقوا بعضهم مع بعض على هذا)، على النحو الذي كانت عليه حال مشاعة المينوويين[4] عبيد الأرض لدى الكريتيين، ومشاعة البينيستيين لدى التساليين.

5- أمّا بالنسبة للكافكونيين الذين يقولون، إنهم سكنوا على الساحل بعد الماريانديين مباشرة، قبل نهر بارثينوس (مدينتهم ثيي)، فبعضهم يعدّهم سكيثيين، بينما يرى فيهم آخرون قبيلة من القبائل المقدونية، ويقول فريق ثالث، إنهم من البيلاسيغيس. وأنا كنت قد تحدّثت عن هؤلاء القوم في مكان ما من هذا الكتاب[5]. ووصل الأمر بكاليسفين في مؤلّفة «بناء التشكيل القتالي للسفن»، إلى حدّ أنه دسّ في نصّ هوميروس بعد البيت:

وفي كلّ مكان من كرومني وإيغالوس وصخور أريثينا استوطنوا

(الإلياذا II، 855)

البيتين:

قاد جحافل الكافكونيين بوليكليا الابن الصالح،

وهم الذين قطنوا عند مجرى بارثينوس في منازل جميلة.

فعلى حدّ قوله، إن الكافكونيين انتشروا من هيراقليا ومنطقة الماريانديين إلى اللوكو- سوريين الذين ندعوهم قبدوقيين، وقبيلة الكافكونيين الذين يقطنون عند

ثيني، ووصلوا حتّى نهر بارثينوس، بينما قطنت قبيلة الجينيتيين المجاورة التي كانت تمتلك كيتور، وراء بارثينوس، وحتى يومنا هذا لا يزال بعض الكافكونيين[6] يعيشون عند نهر بارثينوس.

6- وتتوفّر هيراقليا على موانئ جيّدة، وهي على وجه العموم مدينة تستحق الذكر، لأنها أنشأت مستعمرات وعمّرتها، فكرسونيس وكالاّتيدس من مستعمراتها. وكانت هذه في بادئ الأمر مدينة مستقلّة، لكنّها خضعت بعدئذٍ لسلطة التيران بعض الوقت، ثمّ استعادت حريتها من جديد. وفيما بعد خضعت المدينة لسيطرة الرومان وكان يحكمها الملوك. واستقبلت المدينة المستعمرة الرومانية التي شغلت شطراً من المدينة نفسها وشطراً من ضواحيها. وتلقّى أدياتوريغ بن دومنيكلوس تيترارخ الغلاطيين من أنطونيو شطراً من المدينة كان يشغله الهيراقليوتيون؛ وقبل وقت قصير من وقوع معركة أكسيوم هاجم هذا الرومان ليلاً وأبادهم، كما قال هو نفسه بعد ذلك، لكنّه فعل ذلك بإذن من أنطونيو. وبعد النصر الذي تحقّق في أكسيوم سار أدياتوريغ أسيراً في موكب النصر، ثمّ أُعدم مع ابنه. وتدخل المدينة الآن قوام ولاية البونتس التي تمّ توحيدها مع بيثينيا.

7- ويجري بين خلكيدون وهيراقليا عدد من الأنهار؛ منها نهر بسيلليس، ونهر كالبا، ونهر سانغاري الذي يذكره هوميروس[7]. وتقع منابع سانغاروس عند قرية سانغيا الواقعة على مسافة تقارب 150 مرحلة من نهر بيسينونت. ويجري هذا النهر عبر الشطر الأكبر من أراضي فريجيا إيبيكتيت، كما يجري عبر شطر من بيثينيا، بحيث لا يبعد عن نيقوميديا أكثر من 300 مرحلة في النقطة التي ينضمّ فيها إليه نهر غال الذي يبدأ عند مودرا في فريجيا على الهيلليسبونت. وهذه البلاد هي البلاد نفسها التي تدعى فريجيا إيبيكتيت؛ وكانت تابعة فيما مضى للبيثينيين. وبعد أن كبر وازداد وأضحى نهراً صالحاً للملاحة (لأنه لم يكن فيما مضى صالحاً للملاحة)، شكّل سانغاروس عند مصبّة حدود بيثينيا. وتقع أمام هذا الشاطئ جزيرة ثينيا. وفي منطقة هيراقليا ينمو نبات خانق الذئب - الأكونيت[8]. وتقع هذه المدينة على مسافة تقارب 1500 مرحلة من معبد خلكيدونيا، و500 مرحلة من نهر سانغاروس.

8- وثيي مدينة صغيرة لم تكن تستحقّ الذكر لو لم تكن مسقط رأس فيليتروس مؤسّس سلالة الملوك الأتاليين. ثمّ يليها نهر بارثينوس الذي يجري في منطقة تغطيها الزهور، فأخذ اسمه منها[9]. وتقع منابع النهر في بافلاغونيا نفسها. وتأتي بعد

ذلـك بافلاغونيـا وإينيتـا. ومــن غـير المتّفـق عليـه حتّـى الآن أيّ إينيتـيين عنـى هـوميروس عندما قال:

الزعيم بيليمين تقدّم البافلاغونيين، وبقلب جسور

أخرجهم من إينيتا حيث موئل البغال البرّية.

(الإلياذا II، 851)

ولكن يقال إن الإينيتيين لا وجود لهم في بافلاغونيا الآن، مع أن آخرين يزعمون أن هناك قرية تحمل هـذا الاسـم، وهـي تقع على إيغـالوس، على بعد 10 سـخينات من أماستريا. فزينودوت يكتب «من إينيتا»[10] ويزعم أنّ هوميروس يشير تحديداً إلى أميسا المعاصرة. ويقول فريق ثالث، إن هنـاك قبيلـة تحمـل مثل هـذا الاسـم تستوطن في جوار القبـدوقيين، وقد حاربت إلى جانـب الكيميريين، ثمّ طـردت إلى البحـر الأدرياتيكي. لكنّ الرأي الذي يحظى بأكبر قدر من القبول، هو الرأي القائل، إن هـؤلاء الإينيتـيين كانوا أهمّ قبيلة من قبائل البافلاغونيين التي خرج بيليمين منها. عدا عن هذا إنّ أكثر الإينيتـيين حـاربوا إلى جانبـه؛ وبعـد أن فقـدوا زعـيمهم، توجّهـوا بعـد سـقوط طـروادا إلى تراقيا، وفي أثناء تجوالهم حطّوا رحالهم في إينيتيكا المعاصـرة. وبحسـب بعـض الكتّـاب إن أنتينـور وأولاده شـاركوا في هـذه الحملـة وسـكنوا أقصـى أطـراف الأدريـاتيكي، كما كنت قد أشرت في وصفي لإيطاليا[11]. ولـذلك انـدثر الإينيتيـون ولم يعـد لهـم أثـر في بافلاغونيا.

9- يشكّل نهر هـاليس الحـدود الشـرقية للبلافلاغـونيين، و«يجـري» هـذا النهـر بحسب هيرودوت[12]، «من الجنوب بين السوريين والبافلاغونيين ويصبّ في البحـر الـذي يـدعى البـونتس الإيفيكسـيني»؛ وهـو يعـدّ القبـدوقيين سـوريين؛ وفعـلاً، حتّـى الآن يدعونهم «لوكو- سوريين»، بينما يدعى الـذين يعيشـون على هـذا الجانـب مـن طوروس «سوريين». ولأنّ بشرة السوريين الذين يعيشون على هـذا الجانـب مـن طـوروس لم تلوّحهـا الشـمس، بينمـا لوّحـت الشـمس بشـرة أولئـك، لـذلك أطلقـوا علـيهم هـذا اللقـب. ويقـول بينداروس، إنّ الأمازونيس

قدن قوّات السوريين، الرمّاحين الجبابرة،

(مقطع 53، بيوس)

مشـيراً علـى هــذا النحـو إلى سـكناهم في ثيميسـكيرا. وهــذه الأخـيرة هــي

للأميسـيين وأمـيس، هـي للسـوريين البـيض الـذين يعيشـون وراء هـاليس. وهـكـذا فـإن هـاليس يمثّـل الحـدود الشـرقية للبـافلاغونيين؛ وفي الجنـوب، الفريجيـون والغلاطيـون الذين استوطنوا هناك؛ وفي الغرب، البيثينيون والماريانديـنيون (لأن قبيلة الكـافكونيين اندثرت في كلّ مكـان)؛ أمّا في الشمال، فالبونتس الإيفيكسـيني. وبمـا أنّ هـذه الـبلاد انقسمت إلى منطقتين، داخلية وساحلية، وكلاهما امتدت من هاليس إلى بيثينيا، فقد ساد ميتريدات إيفباتور على السـاحل الممتدّ حتّى هيراقليـا، ولم تخضـع لـه مـن المنطقـة الداخليـة[13] سـوى الأجـزاء المجـاورة (بعضـها يمتـدّ وراء هـاليس)؛ وكـانـت حـدود ولايـة البونتس الرومانية تصل إلى هذه الأطراف. أمّا بـاقي أجـزاء المنطقـة الداخليـة مـن الـبلاد فقد كان يمتلكها الحكّـام المحلّيـون، حتّى بعـد الإطاحـة بميتريدات. وأنـا سـأتحدّث لاحقـاً[14] عـن البـافلاغونيين الـذين سـكنوا المنطقـة الداخليـة (ولم يخضـعوا لسـلطة ميتريدات)؛ أمّا الآن فعليّ أن أعطي وصفاً للبلاد التي يحكمها، وهي تدعى البونتس.

10- وبعد نهر بارثينوس تأتي أماستريا، وهـي مدينـة تحمـل اسـم مؤسّسـها. وقـد بنيت المدينـة علـى بـرزخ تقـوم المـوانئ علـى جانبيـه. وكانـت أماسـتريا زوجـة ديونيسـيوس تيران هيراقليا، وابنة أوكسياثرا شقيق داريوس الـذي عاصـر الإسـكندر. وقـد أسّسـت أماستريا المدينة من أربع قرى اتحدت بعضـها مـع بعـض: سيسـام، وكيتـور، وكـرومني (التي يذكرها هوميروس في وصفه للتشكيل القتـالي للسـفن البافلاغونيـة)[15]، وثيـي. لكنّ هذه الأخيرة سـرعان مـا انفصـلت عـن الجامعـة، بينمـا بقيـت الأخريـات متّحـدات؛ ومن المدن الثلاث دعيت سيسـام وحـدها أكروبـوليس أماسـتريا. وكانـت كيتـور لـزمن مينـاء ألكسينوبسـيين، ودعيـت علـى حـدّ قـول إيثـور علـى اسـم كيتـور ابـن فـريكس. وتنمـو في أراضـي أماسـتريا بكثـرة أفضـل أنـواع شـجر الـزّان، خاصـة قـرب كيتـور. وإيغـالوس عبـارة عـن شـاطئ طويـل امتـداده حـوالي 100 مرحلـة؛ وتقـع عليـه قريـة تحمـل الاسم نفسه كان قد ذكرها هوميروس:

وفي كلّ مكان من كرومني وإيغالوس، وصخور أريثينا استوطنوا،

(*الإلياذة* II، 855)

لكنّ بعضهم يكتب:

كرومني وكوبيال.

ويقولـون، إن إريثينـا المعاصـرة تـدعى إريثينـا بسـبب لونهـا[16]؛ وهـذه عبـارة عـن

صخرتين. وتلي إيغالوس كارامبيس، وهي رأس بحرية تمتدّ شمالاً و نحو كرسونيس السكيثية. وأنا كنت قد ذكرتها مراراً وذكرت معها أيضاً رأس كريوميتوبون الواقعة قبالتها، والتي تشطر البونتس الإيفيكسيني إلى بحرين[17]. وتلي كارامبيس كينوليس، وأنتيكينوليس، ومدينة أبونوتيخوس[18]، وأرمينا التي ضُرب بها المثل:

من يعان من البطالة فليرفع أسواراً لأرمينا.

وهي مستوطنة للسينوبسيين وفيها ميناء.

11- وعلى بعد خمسين مرحلة من أرمينيا تقع سينوبس نفسها، وهي أبرز مدن هذا الجزء من العالم. وكانت تأسّست على أيدي الميلتوسيين. وبعد أن أعدّت أسطولاً وجهّزته، فرضت سينوبس سيطرتها على البحر في هذا الجانب من الكيانيين، أمّا على الجانب الآخر، فقد شارك السينوبسيون في كثير من المعارك إلى جانب الإغريق. ومع أن المدينة حافظت على استقلالها زمناً طويلاً، إلاّ أنها كانت عاجزة عن أن تصون حريتها حتّى النهاية؛ فبعد أن حاصرها فارناك[19]، استولى عليها واستعبدها، ثمّ خضعت لخلفائه كلّهم حتّى ميتريدات إيفباتور، وبعده للرومان الذين حطموا جبروت هذا الأخير. وكان إيفباتور قد ولد في سينوبس وتلّقى تربيته فيها. وأحاط الملك المدينة بمجد فريد، حتّى أنه جعل منها عاصمة مملكته. وكانت الطبيعة نفسها، وكذلك الجهود التي بذلها الناس قد أعدّت المدينة وأحسنت تجهيزها بأسباب الراحة كلّها؛ فهي شيّدت على برزخ شبه جزيرة تقوم على جانبيها الموانئ، ومحطات السفن، ومؤسّسات تمليح أسماك البلاميدا الشهيرة التي أشرت إليها من قبل[20]، ويصيد السينوبسيون ثاني أكبر كمية من هذه الأسماك، يليهم البزنطيون في المرتبة الثالثة. ويحيط بشبه الجزيرة ساحل تخدّده صخور فيها منخفضات تحتوي على ما يشبه الحفر التي تدعى «هينيكيدات». وعندما يصعد البحر تمتلئ هذه الحفر بالماء، الأمر الذي يجعل المكان عصياً، أضف إلى هذا أن سطح الصخور مغطى بنتوءات حادّة تجعل السير عليها بقدم حافية أمراً متعذراً. ومع ذلك فإن الشطر الداخلي من البلاد، والمنطقة التي تعلو المدينة، تربتهما خصبة وتزيّنهما حقول كثيرة جعلوا منها بساتين، خاصة في ضواحي المدينة. والمدينة نفسها، محصّنة بالأسوار تحصيناً جيّداً، ويزينها جمنازيوم رائع، وميدان تجاري، وأروقة. وعلى الرغم من هذا تمّ الاستيلاء على المدينة مرتين: في المرّة الأولى استولى عليها فارناك عندما هاجمها على حين غرّة، وبعد ذلك استولى

عليها لوكولا والتيران الذي استقرّ في المدينة. لأنّ فاكهيدس الذي عيّنه الملك على رأس الحامية، كان يعيش دائماً هاجس الخوف من الخيانة في داخل المدينة، فأغرق مواطني المدينة بالتعسف وأعمال القتل، الأمر الذي أفضى إلى تدني القدرات الدفاعية لهؤلاء. وهكذا سقطت المدينة. ولكنّ لوكولا أبقى على زينة المدينة، ولم يحمل منها سوى كرة بيلار السماوية، وتمثال أفتوليكوس[21] الذي نحته سثينيدس، وكان السينوبسيون يرون في أفتوليكوس هذا مؤسّس مدينتهم، ويبجلونه كإله. ويقع هنا موْحاه أيضاً. ويهيَّأ لي أن أفتوليكوس كان أحد مرافقي ياسون، وقد استولى على هذا المكان. وفيما بعد عندما أدرك الميلتوسيون أهمية موقع المكان وضعف سكّانه، استولوا عليه وأقاموا فيه مستعمرة، وهكذا بات شطر من المدينة وأراضيها ملكاً للمستعمرين. وتقع المدينة على مسافة 3500 مرحلة من المعبد[22] [الخلكيدي]، و2000 مرحلة من هيراقليا، 700 مرحلة من كارامبيس. لقد كانت سينوبس مسقط رأس كثير من الشخصيات الشهيرة: الفيلسوفان: ديوجينوس الكلبي، وتيموثاوس باتريون والشّاعر ديفيل الذي ألّف كوميديات والمؤرّخ باتون الذي كتب «تاريخ فارس».

12- ويأتي بعد ذلك مصبّ نهر هاليس. وقد أخذ هذا النهر اسمه من مناجم الملح[23] التي تترسب في مجراه. وتقع منابع هاليس في قبدوقيا الكبرى، في كاميسينا على مقربة من منطقة البونتس. وإذ يندفع غرباً بتيار جارف لا يلبث النهر أن ينعطف شمالاً عبر منطقة الغلاطيين والبافلاغونيين، ليفصل بين هؤلاء الأخيرين و«اللوكو-سوريين»[24]. وفي منطقة سينوبس وصولاً إلى بيثينيا، وعلى امتداد البلاد الجبلية كلّها، فوق الساحل المذكور، تقع غابة تعطي أفضل أنواع أخشاب بناء السفن التي يسهل تعويمها لتصل إلى البحر. كما ينمو في منطقة سينوبس نبات القيقب وشجر البندق الذي يصنعون منه الطاولات. وتقع الأراضي المستثمرة في البلاد كلّها، أعلى من مستوى سطح البحر بقليل، وهي مزروعة بشجر الزيتون.

13- وتلي مصبّ هاليس غازيلونتيدا وصولاً إلى سارامينا؛ وهذه المنطقة منطقة خصبة سهلية غنية بشتّى أنواع الغلال. وتسرح فيها أغنام أصوافها دقيقة ناعمة، نادراً ما تلقاها في قبدوقيا كلّها والبونتس؛ كما تسرح فيها الغزلان التي نادراً ما توجد في أي منطقة أخرى. ويشغل الأميسيون شطراً من هذه البلاد، بينما أعطى بومبيوس شطرها الآخر إلى ديوتار، وأعطاه أيضاً المنطقة الواقعة قرب فارناكيا وترابيزوسيا وصولاً إلى كولهيدا وأرمينيا الصغرى. وأعلن بومبيوس ديوتار ملكاً على هذه البلدان

كلّها، إضافة إلى تترارخيا[25] غلاطيا التي ورثها عن والده، وهي على وجه التحديد بلاد التوليستوبوغيين. ولكن بعد وفاته ظهر له كثير من الورثة.

14- تلي غازيلون سارامينا، ومدينة أميس المهمّة التي تقع على مسافة تقارب 900 مرحلة من سينوبس. وبحسب ثيوبومبوس أن الميلتوسيين هم أوّل من أسّس هذه المدينة [....][26]، تلاهم حاكم القبدوقيين، ثمّ أرسل الأثينيون مستعمرة إلى هناك تزعمها أثينوكليس، وتغيّر اسم المدينة فباتت تدعى بيرييوس. وقد أخضع الملوك هذه المدينة أيضاً لسلطتهم. فزيّنها ميتريدات إيفباتور بالمعابد، وبنى جزءاً آخر فيها. وحاصر لوكولا المدينة، كما حاصرها بعد ذلك فارناك الذي عبر من البسبور. ولكن قيصر الإلهي حرّر المدينة، إلاّ أنّ أنطونيو وضعها من جديد تحت سلطة الملوك. وأخيراً، بعد معركة أكسيوم[27]، حرّرها قيصر أغسطس من جديد، وهي تنعم الآن بتنظيم جيّد. وعلاوة على أراضيها الرائعة، تملك المدينة أيضاً ثيميسكيرا، مكان إقامة الأمازونيس، وسيدينا.

15- وثيميسكيرا عبارة عن سهل يشاطئ البحر من جهة، فالبحر لا يبعد عن المدينة أكثر من 60 مرحلة؛ ومن جهة أخرى يقع عند سفوح سلسلة جبلية غنيّة بالغابات وتخترقها الأنهار التي تنبع من هناك. وثمّة نهر هنا يدعى ثيرمودونت يعبّ مياه هذه الأنهار كلّها، ويجري عبر هذا السهل، أمّا النهر الآخر المماثل له والذي ينبع من منطقة تدعى فاناريا، فيجري عبر هذا السهل نفسه، ويدعى نهر إريدا. وتقع منابع هذا النهر على البونتس نفسه وبعد أن يجري النهر في وسط مدينة كومانا على البونتس، وعبر سهل دازيمونتيدا الخصيب نحو الغرب ينعطف شمالاً على مقربة من غازيورا نفسها، وهي العاصمة الملكية القديمة المهجورة الآن، ثمّ ينعطف ثانية نحو الشرق ليستقبل سكيلاك والأنهار الأخرى، ويجري على مقربة مباشرة من أسوار أماسيا مسقط رأسي، وهي مدينة حصّنتها الطبيعة نفسها أحسن تحصين، يخرج النهر إلى فاناريا. ويلتقي معه هناك نهر ليك (الذي تقع منابعه في أرمينيا) ويتحوّل أيضاً إلى إريدا. ثمّ يستقبل ثيميسكيرا وبحر البونتس هذا النهر. ولذلك يبقى هذا السهل دائم الخضرة؛ فهو قادر على إطعام قطعان من البقر، وأسراب من الأفراس. وتزرع في تلك الأراضي كميات كبيرة، بل الأصح أن نقول كميات لا حدود لها من الدخن وقصب السكر. فالري الوفير يضع حدّاً لأي ضرب من الجفاف، ولذلك لا يمكن أن يعرف سكّان هذه المناطق الجوع أبداً. ومن جهة أخرى يعطي منحدر الجبل كثرةً كثيرة من الغلال البرية:

العنب، والإجاص، والتفاح، والمكسرات، بحيث لو زار الناس تلك المنطقة في أيّ وقت من أوقات العام لوجدوا هناك وفرة من الثمار، إمّا على الشجر، أو تحت طبقات الأوراق المتساقطة. وبفضل وفرة الأعلاف يمكن الصيد هنا في كلّ وقت من أوقات السنة.

16- وبعد ثيميسكيرا تأتي سيدينا، وهي سهل خصيب، على الرغم من أنه لا يتمتّع بوفرة من المياه كالتي لثيميسكيرا. ويقع على ساحله حصن يدعى حصن سيدا الذي على اسمه سمّي السهل سهل سيدينا، وحصن خاباكا، ومدينة فابدا. وتمتدّ قبل هذا المكان منطقة أميس. وهذه المدينة هي مسقط رأس أناس مشهورين بعلمهم: عالميّ الرياضيات ديميتريوس بن رافين، وديونيسودوروس سمّي عالم الهندسة الميلوسي، والنحوي تيرانيون الذي قدّر لي أن أستمع إلى محاضراته.

17- وبعد سيدينا تقع مدينة فارناكيا الحصينة، تليها مدينة ترابيزونت الإغريقية، وهي ميناء بحري يبعد عن أميس 2200 مرحلة. ومن هنا إلى فاسيس حوالي 1400 مرحلة، وعليه فإن المسافة الكلّية من المعبد[28] [الخلكيدوني] إلى فاسيس تقارب 8000 مرحلة، أو أقلّ أو أكثر بعض الشيء. وإذا أبحرت إلى هذا الشاطئ من أميس، فتظهر لك رأس الهيراقليين البحرية أوّلاً، ثمّ رأس باسونيوس ونهر جينيت، فمدينة كوتيورا[29] الصغيرة، التي أرسلت منها مستعمرة إلى فارناكيا؛ ثمّ تأتي بعد ذلك إيسخوبوليس المهدّمة، يليها الخليج الذي تقع فيه كيراسونت وهيرموناسّا، وهما مستوطنتان لا أهمية لهما؛ وغير بعيد عن هيرموناسّا تقع ترابيزونت ثمّ كولهيدا. وفي مكان ما هنا تقع قرية تدعى زيغوبوليس. وأنا كنت قد تحدّثت عن كولهيدا والساحل الواقع فوقها[30].

18- إلى الأعلى من ترابيزونت وفارناكيا ينتشر التيباريني، والكالديون، والسانيون الذين كانوا من قبل يدعون ماكرونيين؛ وتقع أرمينيا الصغرى؛ وفي مكان ما على مقربة من هذه الأماكن يقطن الأبيتيون الذين كانوا يدعون من قبل كيركيتيين. ويخترق هذه المناطق جبل صخري شديد الوعورة، هو جبل سكيديس الذي يتّصل بالجبال الموسخية الواقعة إلى الأعلى من كولهيدا (يشغل الهيبتاكوميتيون قممها)، وجبل باريادرس الذي يمتدّ من منطقة سيدينا وثيميسكيرا، حتّى أرمينيا الصغرى ليشكّل الجانب الشرقي من البونتس. وسكّان هذه المناطق كلّهم متوحّشون تماماً، لكنّ الهيبتاكوميتيين يتفوّقون على ما عداهم في هذا الميدان. بل إنّ بعضهم

يعـيش فـوق الأشـجار أو في أبـراج، ولـذلك دعـاهم القـدماء بالموسـينكيين، لأنّ هـذه الأبـراج كانـت تـدعى «موسـينكي». ويسـتهلك هـؤلاء في غـذائهم لحـوم الوحـوش وثمـار الشجر؛ ويهاجمون المارة وعابري السبيل، فيقفزون عليهم مباشرة مـن أكـواخهم المبنيـة فوق الأشجار. وقد أباد الهيبتاكوميتيون ثلاثاً مـن مـانيبولات[31] قـوّات بومبيـوس حينمـا كانـت هـذه تعبر هـذه المنطقـة الجبلية؛ فعلـى الطرقـات كـان البرابـرة يحضّـرون أوانـي مليئـة بالعسـل المسـكر الـذي كـانوا يسـتخرجونه مـن غصـون الأشـجار. وبعـد ذلـك يهاجمون الجنود الرومان الثملين بالعسل حتّـى درجـة فقـدان الـوعي، فيقتلـونهم مـن غـير عناء. وقد دُعي بعض هؤلاء البرابرة بالبيزيريين.

19- لقـد كـان الكالـديون المعاصـرون يـدعون قـديماً هـاليبيين. وفي مقابـل منطقتهم تماماً تقع فارناكيا التي تنتفع من البحر بصيد وافـر مـن البلاميـدا (فقـد بـدأ صيد هذه الأسماك لأوّل مرّة هنا)[32]، ومن البرّ بالمنـاجم، منـاجم الحديـد الآن، لكنّهـا كانـت منـاجم فضّـة مـن قبـل. والسـاحل في هـذه المنطقـة، هـو علـى وجـه العمـوم سـاحل ضيّق؛ ففوقه علـى وجـه التحديـد ترتفـع جبـال فيهـا كـثير مـن المنـاجم، وتغطيهـا غابـات كثيفة، ولا تزرع هنا سوى مساحة صغيرة مـن الأرض. وعلـى هـذا النحـو لا يبقـى لعمـال المناجم أي مصـدر عيش آخـر سـوى العمـل في المنـاجم، كمـا لا يبقـى للعـاملين في المهـن البحرية سوى العمل في صيد الأسماك، خاصة البلاميدا والدلافين. فهذه الأخيرة تطـارد أسـراب أسماك الكورديلا، والتنّة، والبلاميـدا[33]، فتغـدو سمينـة جـدّاً، ولأنهـا سـريعة في مطاردتها للطعم، فإنها تقترب من الشاطئ ويغدو صيدها سـهلاً. ولا يصـيد الـدلافين بـالطعم سـوى سـكّان فارناكيـا، فيقطعونهـا إلى أجـزاء ويسـتخدمون دهنهـا لأغـراض كثيرة.

20- وأنا أظنّ أن هـؤلاء الخـاليبيين، هـم الـذين يـذكرهم هـوميروس في «سـجلّ السفن»، بعد البافلاغونيين، باسم الغاليزونيين:

جحافل الغاليزونيين التي قادها غوديوس وإيبيستروث من أليبا،

بلدان البعيدين، التي لا تنضب فيها مناجم الفضّة؛

(الإلياذا II، 856)

أو، إذا كـان النص قد تغيّر من

...الخاليبيين، بلاد البعيدين،

أو أن هـؤلاء القـوم كـانوا يـدعون في الأزمنـة السـابقة «أليبـيين» بـدلاً مـن «خـاليبيين». فكمـا هـي الحـال اليـوم، إذ لا يصـحّ أن نـدعوهم «كالـديين» كاسـم مشـتقّ مـن «خاليبيين»، كذلك كانت الحال فيما مضى إذ لم يكـن يصـحّ أن يـدعوا «خـاليبيين» بدلاً من «أليبيين»، لاسيما أن أسماء الأقوام، خاصة لـدى البرابـرة، كانـت تتغيّـر تغيّـراً كبيراً. فعلى سبيل المثال كـان بعض التراقيين يـدعون سينتيين، ثمّ سايسـيين، حيـث قال أرخيلوخ إنه رمى ترسه:

يحمل السايسيّ اليوم ترسي النقي فخوراً؛

قدّر لي أن أرميه في الأدغال رغماً عنّي

(*مقطع 6، بيرغك*)

ويدعى هؤلاء القوم أنفسهم الآن بالسابين. وقد عاش هـؤلاء كلهم قرب أبـديرا وعلـى الجـزر المحيطـة بليمنـوس. ويـأتي بعـد ذلـك البريغيـون، والبريغـي، والفريجيـون، وهـؤلاء كلّهـم شـعب واحـد؛ ومثلـهم الميسـيون، والميسـنيون، والميونيـون. ونحـن لا نـرى ضرورة إلى مزيد من الأمثلة. ويرى ديميثري السـكيبيسـي أيضـاً إن اسم هؤلاء قـد تحـوّل من أليبيين إلى خاليبيين؛ ولكن بما أنه لا يعرف ما يترتب عن هـذا ومـا يوافقـه، خاصـة ما الذي دعا هوميروس ليسمّي الخاليبيين بالغاليزونيين، لذلك يرفض قبول هذا الـرأي. وأنا مـن جانبي، بعـد أن قارنـت بـين اعتبـاراتي واعتباراتـه، أمحّـص في مـزاعم الكـتّاب الآخرين.

21- فـبعض الكـتّـاب يكتبـون بعـد أن حرّفـوا نـصّ هـوميروس، «ألالـزونيين» وبعضـهم الآخـر يكتـب «أمـازونيس»، أمّـا قولـه «مـن أليبـا»، فيغيّرونـه إلى «مـن ألوبـا»، ويدعون السـكيثيين الذين يسكنون على البوريسفين، «ألالـزونيين» و«كاليبيـديين» أو بأسمـاء أخـرى (هـرف لنـا بهـا هيلانيكـوس، وهـيرودوت، وإيفـدوكس)، ويوضّـعون الأمازونيس بين ميسيا وكاريا وليديا كما يظنّ إيثـور أيضـاً، علـى مقربـة مـن كيمـا، موطنه. ولعل في هذا مغزى: فإيثور يقصد إلى البلاد التي سيقطنها الإيوليـون والإيونيـون فيما بعد وكانت الأمازونيس قد قطنّها في أوّل الأمر. ويقـال، إن هنـاك عـدداً مـن المـدن الـتي حملـت أسمـاء الأمـازونيس: إفسـس، وسميرنـا، وكيمـا، وميـدينا. ولكـن كيـف يمكـن أن توضّـع أليبـا في هـذا المكـان، أو «ألوبـا» كمـا يـدعوها بعضـهم؟ أو كيـف ينبغي أن نفسّر تعبير «بلدان البعيدين» أو «لا تنضب فيها مناجم الفضّة»؟

22- يتجاوز إيثور هذه الصعوبات بإحداث التغيير الآتي في النص، فيكتب:

جحافل الأمازونيس قادها غوديوس وإيبيسترون من ألوبا

منطلقاً من البلاد التي منها قبيلة الأمازونيس

لكنّه ما إن تجاوز هذه العقبة حتّى واجهه اختلاف آخر، لأنك لن تعثر في هذه المنطقة على أيّ ألوبا، أمّا قراءة هذه الكلمة فقد تبدّلت بشكل يتعارض مع معطيات المخطوطات القديمة إلى درجة التهوّر. ويبدو أن ديميتري السكيبسيسي يستهجن زعم إيثور ولا يوافق الرأي أولئك الذين يظنّون أن الأليزونيين كانوا يقطنون حول باللينا؛ وأنا كنت قد ذكّرت بهم عندما عرضت وصفي لمقدونيا[34]. كما يصعب عليه أيضاً أن يقبل القول، إن تحالف قوات الرحل الذين كانوا يعيشون على البوريسفين، قد جاء لنصرة الطرواديين. ولكنّ ديميتري يستحسن من جهة أخرى رأي هيكاتوس الميلتوسي ومينيكراتوس الإيليبيّ تلميذي كسينوقراط، وكذلك رؤية باليثاتوس. ففي «وصف الأرض» يقول هيكاتوس: «يجري أودريس عند مدينة ألازيا من الغرب عبر سهل ميغدونيا، إذ ينبع من بحيرة داسكيليتيدا ويصبّ في ريندك». وبحسب قوله إن ألازيا خالية من السكّان الآن، لكنّ الألازونيين يعيشون في كثرة من القرى التي يجري أودريس عبرها؛ ويحظى أبوللون في هذه القرى بتبجيل خاص، خاصة في المنطقة الحدودية مع الكيزيكينيين. وينقل مينيكراتوس في «وصف الهلسبونت» شيئاً مغايراً تماماً، إذ يقول: إن سلسلة جبلية متصلة من غير انقطاع تعلو فوق منطقة ميرلييا حيث تقطن قبيلة الغاليزونيين. ثمّ يضيف قائلاً: لكنّ اسمهم يجب أن يكتب بلامين، بيد أن هوميروس يكتبه بلام واحدة. وأخيراً يزعم باليثاتوس أن أوديوس وإيبيستروف انطلقا في حملتهما من منطقة الأمازونيس اللواتي كنّ يقطنّ في ألوبا، والآن في زيليا. ولكن ما الذي يستحقّ الاستحسان في آراء هؤلاء الناس؟ ما عدا أن هؤلاء الكتّاب يحوّرون القراءة القديمة، فإنهم لا يدلّوننا على مناجم الفضّة، ولا على موقع ألوبا في ميرلياتيدا، ولا كيف أضحى أولئك الذين جاؤوا من هناك إلى إيليون، «من بلاد البعيدين»، حتّى إذا ما سلّمنا بوجود ألوباما، أو ألازليا. فهذان المكانان أقرب إلى طروادا أكثر بكثير من أطراف إفسس. ومع ذلك يدعو ديميتري أولئك الذين يوضّعون الأمازونيس عند بيغيلاس بين إفسس ومغنيسيا وبريينا، بالثرثارين الفارغين. وهو يضيف قائلاً، إن تعبير «من بلاد البعيدين» لا يجوز أن يستخدم عند الحديث عن هذا المكان. فإلى أيّ حدّ لا ينطبق هذا التعبير على منطقيّ ميسيا وتيثرانيا؟

23- يقـول ديمـتري، أقسـم بزيـوس أنـه ينبغـي أن نقـرّ بوجـود بعـض الإضـافات الكيفية على نصّ هوميروس. مثلاً:

بعيداً عن أسكانيا

(الإلياذا II، 863)

... اشتهر باسم أرينون (هكذا دعته أمّه)

(الأوذيسا XVIII، 5)

بيدها الربلة قليلاً، أخذت بنيلوبي المفتاح النحاسي المثني بمهارة.

(الأوذيسا XXI، 6)

ولنسلّم بهذا أيضاً. ولكن لا يجوز أن نقبل بما قبل به ديميتري من غير اعتراض مقنع على أولئك الذين يقرّون قراءة التعبير على النحو الآتي:

بعيداً عن خاليبا

ومع أن ديمتري يوافق على أن يقرّ بانه إذا لم يكن في بلاد الخاليبيين مناجم فضّة الآن، فإن هذا لا يعني أنها لم تكن موجودة قديماً، إلاّ أنه يرفض الإقرار بأنه كانت لها الشهرة، وأنها تستحق أن يشار إليها كما يشار إلى مناجم الحديد. ونحن نسأل ديميتري، ما الذي يمنع هذه المناجم أن تكون معروفة وذائعة الصيت كما مناجم الحديد؟ وهل وفرة الحديد تجعل المكان ذائع الصيت، ووفرة الفضّة لا تجعله كذلك، وإذا لم تكن مناجم الفضّة قد نالت شهرتها في الزمن البطولي، بل في زمن هوميروس، فهل يجوز أن يلام تعبير الشّاعر على ذلك؟ وكيف كان يمكن أن ينتهي هذا المجد إلى الشاعر؟ كيف كان يمكن أن تنتهي إليه شهرة مناجم النحاس في تيميسا الإيطالية، أو شهرة ثراء طيبة المصرية[35]، مع أنه عاش بعيداً عن طيبة المصرية مسافة تساوي ضعف المسافة التي كانت تفصله عن الكالديين؟ لكنّ ديميتري لا يتّفق حتّى مع الكتّاب الذين يتبنّى آراءهم. فلدى وصفه للمكان المحيط بسكيبسيس، مسقط رأسه، يتحدّث عن قرية نيا، وأرغيريا، وألازونيا بصفتها مواقع قريبة من سكيبسيس ونهر إيسيب. وإذا كان لهذه الأماكن وجود فعلي، فإنها يجب أن تكون عند منابع إيسيب. وبحسب هيكاتوس إنها تقع وراء مصبّ النهر، أمّا باليثاتوس الذي يزعم أن الأمازونيس كنّ يعشن من قبل في ألوبا، والآن في زيليا، فلا يقول شيئاً يشبه

ما يقوله هؤلاء الكتّاب. وفيما يخصّ مينيكراتوس، فإنه بدوره لا يقول شيئاً عمّا هو وراء ألوبا؛ وحتّى ديميتري نفسه لا يقول شيئاً [عن هذا].

24- وأنا كنت قد دفعت بكثير من الاعتراضات على أبوللودوروس الذي عالج هذا الموضوع في «التشكيل القتالي لدى الطرواديين»، وينبغي عليّ أن أعارضه الآن أيضاً. فهو يظنّ أنه ينبغي ألاّ يوضّع الأليزونيون وراء نهر هاليس. ويقول في هذا السياق، إن أيّ تحالف قوّات لم يأت من الجانب الآخر لهاليس لمساعدة الطرواديين. وعليه فإننا نسأله قبل كلّ شيء، من هؤلاء الغاليزونيون على هذا الجانب من هاليس، و[أولئك الذين]

... بعيداً عن أليبا، حيث لا تنضب مناجم الفضّة.

لكنّه لا يستطيع أن يجيب على هذا السؤال. ومن ثمّ نطرح عليه سؤالاً آخر: ما هو السبب الذي يجعله لا يبيح قدوم أيّ تحالف قوّات من منطقة ما وراء النهر؟ وإذا كان الحلفاء الآخرون كلهم، ما عدا التراقيين، قد عاشوا فعلاً على هذا الجانب من النهر، فإن ذلك لم يكن ليشكل عقبة أمام قدوم قوات تحالف واحد من الجانب الآخر لهاليس، من البلاد الواقعة وراء اللوكو- سوريين[36]. ترى لماذا كان بإمكان الأقوام الذين يحاربون الطرواديين أن يأتوا من هذه المناطق أو من الجانب الآخر للنهر، كما فعلت الأمازونيس، وفعل التريريون والكيميريون على حدّ قولهم، ولم يكن بإمكان حلفاء الطرواديين أن يفعلوا ذلك؟ فالأمازونيس لم يقدّمن العون للطرواديين، لأنّ بريام كان قد حاربهن متحالفاً مع الفريجيين:

يوم جاءت الأمازونيس، ندّات الرجال

(الإلياذا III، 189)

وعلى حدّ قول بريام:

كنت هناك أنا أيضاً، وكنت أعدّ من حلفائهم.

وبما أنّ القبائل المتاخمة للأمازونيس لم تكن تقطن بعيداً لكي يكون من الصعب استدعاؤها، وفي حال عدم وجود أسباب للعداء، فإني على العكس، أرى أنه لم يكن ثمّة ما يمنعها من التحالف مع الطرواديين.

25- ولكنّ أبوللودوروس لا يستطع أن ينسب مثل هذا الرأي للكتّاب القدماء، زاعماً أنّ جميعهم متفق على أن أيّ قبيلة من قبائل الجانب الآخر لهاليس لم تشارك في

حرب طروادا. بيد أن واقع الأمر على الضدّ من هذا تماماً، إذ يمكن العثور على قرائن لصالح الرؤية المغايرة. وعلى أيّ حال فإن الإينيتيين، الذين بحسب مياندرس، جاؤوا من بلاد اللوكو- سوريين، قد حاربوا إلى جانب الطرواديين؛ وأبحروا من هناك مع التراقيين واستوطنوا أقصى أطراف الخليج الأدرياتيكي؛ أمّا أولئك الإينيتيون الذين لم يشاركوا في الحملة، فقد تحوّلوا إلى قبدوقيين. ويخيّل لي أن ما يدعم صحّة هذا الزعم من قرائن هو أنه في شطر قبدوقيا القريب من نهر هاليس والذي يمتدّ على طول بافلاغونيا ثمّة في اللغتين الشائعتين هناك كثير من الأسماء البافلاغونية مثل: باغاس، وبياساس، وأينياتيس، وراتوتيس، وزاردكيس، وتيبيوس، وهاسيس، وأوليغاسيس، ومانيس. فهذه الأسماء شائعة في فازيمونيتيدا[37]، وبيموليسيتيدا[38]، وغازيلونيتيدا، وغازاكينا، وفي أكثر المناطق الأخرى. ويسوق أبوللودوروس نفسه قراءة زينودوت لبيت الشعر الهوميروسي على النحو الآتي:

الذي خرج بهم من إينيتا[39]، حيث تسرح البغال البرية.

(*الإلياذا* II، 852)

وهو يزعم أنّ هيكاتوس الميلتوسي ظنّ هذه الإينيتا أميس. ولكنّ أميس تقع كما ذكرت سابقاً[40]، في منطقة اللوكو- سوريين وعلى ذلك الجانب من هاليس.

26- ويقول أبوللودوروس في مكان ما، إن هوميروس حصل على معلومات عن البافلاغونيين الذين يقطنون في أعماق البلاد من أناس عبروا هذه البلاد سيراً على الأقدام؛ ولكنّ ساحل بافلاغونيا بقي مجهولاً بالنسبة للشاعر، مثله في ذلك مثل باقي ساحل البونتس وإلاّ لكان أشار إليه. لكنّ الأمر على النقيض من هذا إذا انطلقنا من الوصف الذي قدّمته هنا، إذ يمكن أن نؤكّد العكس: لقد اجتاز هوميروس الساحل كله، ولم يترك منه أي قسم كان يستحق الذكر عندئذٍ. وإذا كان لم يذكر هيراقليا، وأماستريا، وسينوبس، فذلك لأنّ هذه المدن لم تكن قد ظهرت بعد؛ ومن جهة أخرى، ليس ثمّة ما هو غريب أيضاً في عدم ذكره للقسم الداخلي من البلاد. وعلى وجه العموم فإن عدم ذكر كثير من الأماكن المعروفة لا يعدّ دليلاً على الجهل بها، وهذا ما كنت قد بيّنته من قبل[41]. وفي غضون ذلك يقول أبوللودوروس، إنّ هوميروس لم يكن على علم بكثير مما كان وجوده على البونتس معروفاً، كالأنهار والقبائل مثلاً، وإلاّ لكان قد ذكرها، كما يؤكّد أبوللودوروس. ويمكن الإقرار

بعدم معرفة هوميروس هذه بما هو شديد الأهمية، كالسكيثيين، وميوتيدا، وإيستر. وفي حال العكس لما كافأ الرحّل بتلك السمات المميّزة مثل «الذين يقتاتون بالحليب»، و«الذين يفتقرون إلى وسائل العيش». و«الأعدل بين الناس»، و«الذين يحلبون المهرات»[42]. بيد أنه لم يكن باستطاعته أن يتجاوز أسماء «السكيثيين»، و«السارماثيين»، أو «السافروماثيين» إذا كان الإغريق قد دعوهم بهذه الأسماء فعلاً؛ وفي حديثه بعد ذلك عن التراقيين والميسيسيين القاطنين على إيستر، لم يكن ليصمت عن ذكر هذا النهر الأعظم بين الأنهار، خاصة أنه كان يميل دائماً إلى تحديد حدود الأماكن بالأنهار. وأخيراً لم يكن ليغفل في حديثه عن الكيميريين ذكر البسبور وميوتيدا.

27- ولكن من ذا الذي يمكن أن يلوم هوميروس لأنه يذكر الأشياء من غير أن يبرز سماتها الهامّة في غير روح عصره أو بما لا يتّفق ومحتوى مؤلّفاته؟ مثلاً، عدم ذكره لنهر تانابيس المعروف بشيء واحد فقط، هو أنه يشكّل الحدّ الفاصل بين آسيا وأوروبا؟ لكنّ الناس لم يكونوا قد بدؤوا يستخدمون عندئذٍ اسم آسيا ولا اسم أوروبا، كما لم تكن المعمورة قد انقسمت بعد إلى ثلاث قارّات كما هي الآن؛ وإلاّ لكان هوميروس قد ذكرها بأسمائها بحكم السمة التي تتميّز بها أجزاء العالم هذه، كما هي الحال مع ليبيا، والريح الليبية التي تهبّ من الأجزاء الغربية لليبيا. ولكن بما أن تقسيم المعمورة إلى قارّات لم يكن قد حصل بعد، لذلك لم تكن هناك ضرورة لذكر تانايس. وهناك كثير مما يستحقّ الذكر بحدّ ذاته، لم يرد بفعل المصادفة البحتة إلى ذهن الشاعر. فنحن نلحظ في أحاديثنا وسلوكنا كثيراً مما هو عرضي. ويتّضح من هذه الوقائع كلّها، أنّ كلّ من يرى في صمت الشّاعر عن شيء ما جهلاً به، فهو مخطئ. وسوف أوضح بعدد من الأمثلة خطأ مثل هذه الأدلّة، لأنّ كثيرين يستخدمونها في غالب الأحيان. ولذلك ينبغي دحض أولئك الذين يوردونها حتّى لو كان في هذا خطر الوقوع في التكرار[43]. فإذا ما زعم أحدهم على سبيل المثال، إن هوميروس لم يذكر هذا النهر أو ذاك لأنه لا يعرف [اسمه]، فإني أصف مثل هذا الدليل بالدليل الغبي؛ فهوميروس لم يذكر حتّى نهر ميلتوس الذي يجري قرب سميرنا (التي يرى أكثر الكتّاب أنها موطنه)، مع أنه يذكر في الوقت نفسه اسميّ نهر جيرم، ونهر هيللوس؛ كما لم يذكر الشّاعر أيضاً نهر باكتول الذي يلتقي في مجرى واحد مع هذين النهرين، وينبع من جبل تمولوس الذي يذكره الشاعر[44]. ولم يأت

هـوميروس علـى ذكـر سميرنـا نفسـها، ولا علـى ذكـر المدن الإيونيـة الأخـرى، ولا علـى ذكـر أكـثر المدن الإيولية، مع أنـه يـذكـر ميلتـوس، وسـاموس، وليسـبوس وتينيـدوس؛ ولم يـذكـر كـذلك نهـر ليثـوس الـذي يجـري علـى مقربـة مـن مغنيسـيا؛ ويصـبّ هـذان النهران كـلاهما في مياندرس الذي يذكـره الشـاعر، إضافة إلى:

ريسوس، وكاريسوس، وهيبتابوراس،

وروديوس ذو الأمواج السريعة

(الإلياذا XII، 20)

وسـوى ذلـك مـن الأنهـار الـتي ليسـت أكـثـر مـن جـداول. وإذ يـذكـر الشّـاعر كـثـرة مـن البلـدان والمـدن، فإنـه يـذكّـر في الآن عينـه بالأنهـار والجبـال، أو لا يـأتي علـى ذكرهـا. وهو على أيّ حال لا يأتي على ذكـر الأنهـار في إيثوليـا وأتيكـا وبعض البلـدان الأخـرى. عـدّاك عـن هـذا أنّـه حينما يذكـر الأنهار البعيدة، لا يـأتي علـى ذكـر القريبـة، لا لأنـه لا يعرفها، بل لأنهـا كـانت معروفـة للآخـرين كلّهـم. وعلـى النحـو نفسـه كـان الشـاعر يعرف القبائل التي كـانت تقطن على مقربة، لكنّه يـذكـر بعضـها ويصـمت عـن ذكـر بعضـها الآخـر. فهـو يـذكـر الليكـيين السـوليميين مـثلاً، لكنّـه لا يـذكـر الميلـيين والبـامفيليين والبيسـيديين؛ كمـا يـذكـر البـافلاغونيين، والفـريجيين، والميسـيسـيين، ولا يذكـر المارياندـيين، والفينـيين، والبيثينـيين، والبيبريكـيين؛ ويـذكـر الأمـازونيس، لكنّه لا يأتي على ذكـر اللوكـو-سـوريين، والسـوريين، والقبـدوقيين، والليكـاونيين، مـع أنـه يـروي الكـثير عـن الفينيقـيين، والمصـريين، والأثيـوبيين. وإذ يتحـدّث عـن سـهل أليـيوس وعـن الأريميين[45]، فإنه يصمت عن القبيلة التي ينتمي إليها هؤلاء. وليس توجيه مثل هذا الانتقاد إلى هوميروس صحيحاً؛ فالانتقاد يكون صحيحاً عنـدما يكشـف عـن زعم ما مزيّف زعمه الشاعر. وقد تبيّن أنّ أبوللـودوروس لم يكـن علـى حق حتّـى حينمـا تجرّأ على أن يزعم، أنّ «الذين يحلبون المهرات» و«الذين يقتاتون بالحليب»، هـم اختـلاق الشـاعر. وهـذه هـي ردودي علـى أبوللـودوروس. أمّـا الآن فـإني أعـود إلى الجـزء التـالي مـن وصفي للبونتس.

28- يقطـن فـوق منطقـة فارناكيـا وترابيزونـت، التيبـارينيون، والكـالـديون، الـذين تصـل حـدود انتشـارهم إلى أرمينيـا الصـغرى. وهـذه الـبلاد الأخـيرة بـلاد خصـيبة. وأرمينيـا الصـغرى، مثلها مثـل سـوفينا، كـان يحكمهـا دائمـاً حكّـام محلّيـون كـانوا

ينسجون علاقات ودّ مع باقي الأرمن تارة، ويخضعون لسلطانهم تارة أخرى. وقد خضع لهم الكالديون والتيبارينيون، أي أنّ حدود دولتهم كانت تمتدّ حتّى ترابيزونت وفارناكيا. وبعد أنّ رسّخ ميتريدات إيفباتور أركان جبروته، أضحى سيّد كولهيدا وهذه البلدان كلّها التي أخلاها له أنتيباتور بن سيسيدس. وقد أولى ميتريدات عناية كبيرة لهذه المناطق، فبنى فيها 75 حصناً خزن فيه الجزء الأعظم من كنوزه. وأهمّ هذه الحصون حصن غيدارا، وحصن باسغيداريزا، وحصن سينوريا. ويقع هذا الحصن الأخير على الحدود مع أرمينيا الكبرى مباشرة، ولذلك بدّل ثيوفانوس اسمه إلى سيونوريا[46]. والحقيقة أنّ في كلّ مكان من سلسلة جبال باريادرس مواقع ملائمة لبناء مثل هذه الحصون، لأنّ في المنطقة وفرة من المياه والأخشاب وتنتشر الانهدامات والمنحدرات الشاقولية في أماكن كثير منها. وعلى أيّ حال فإن أكثر الخزائن المحصّنة بنيت هنا. وفي نهاية المطاف فإن ميتريدات نفسه لجأ إلى أطراف المملكة البونتية هذه عندما هاجم بومبيوس بلاده. فاستولى في أكيليسينا قرب داستيرا على جبل فيه وفرة من المياه (كما كان الفرات يجري على مقربة منه، ويفصل بين أكيليسينا وأرمينيا الصغرى)، وبقي ميتريدات مقيماً هناك إلى أن أرغمه الحصار على أن يهرب عبر الجبال إلى كولهيدا ومنها إلى البسبور. وفي حوالي هذا الوقت أسّس بومبيوس في أرمينيا الصغرى مدينة نيكوبوليس[47] التي لا تزال عامرة حتّى يومنا هذا.

29- ووفق مشيئة الرومان كان يحكم أرمينيا الصغرى مختلف الحكّام في أزمنة مختلفة؛ ومؤخراً كان يحكمها أرخيلايوس؛ أمّا التيباريني، والكالديون حتّى كولهيدا وفارناكيا وترابيزونت فقد كانوا تحت حكم بيثودوريدس، وهي امرأة حكيمة ومؤهلة لقيادة شؤون الدولة. وبيثودوريدس هي ابنة بيثودوريس الترالّي. ولمّا تزوّجت من بوليمون شاركته إدارة شؤون الدولة لبعض الوقت؛ وبعد وفاة زوجها[48] في بلاد الذين يدعون أسبورجيانيين (وهم إحدى القبائل البربرية التي تقطن عند سينديكا)، ورثت عرشه. وكانت قد أنجبت منه ولدين وبنتاً. وقد تزوّجت هذه الأخيرة من كوتيس السبيسي[49]؛ وبعد أن راح كوتيس ضحية مؤامرة غادرة[50]، عاشت زوجته أرملة مع أبنائها منه. ويحكم ابنها الأكبر البلاد الآن[51]. أمّا أبناء بيثودوريدس، فإن أحدهم[52] يعاون والدته في إدارة شؤون البلاد بصفته شخصية خاصة، بينما توّج الآخر[53] منذ بعض الوقت ملكاً على أرمينيا الكبرى. وتزوّجت بيثودوريوس من أرخيلايوس وعاشت معه حتّى وفاته[54]. وهي الآن أرملة تملك المناطق

المشار إليها، إضافة إلى مناطق أخرى أكثر خصوبة وغنى بالمحاصيل، وهأنذا أبدأ وصفها الآن.

30- تتاخم فارناكيا كلّ من سيدينا وثيميسكيرا، وإلى الأعلى من هذه الأماكن تقع فاناريا التي تشغل الشطر الأفضل من البونتس. وهي مزروعة بشجر الزيتون وغنيّة بالنبيذ، وتتميّز بكثير من الميزات الأخرى. ويحمي فاناريا من جهة الشرق جبل باريادرس الذي يمتدّ بموازاتها؛ ويطوّقها من الغرب جبل ليفر وجبل أوفليم. وهي واد طويل وشاسع يجري عبره نهر ليك الذي ينبع من أرمينيا، ونهر إريدا الذي ينبع من ثغر عند أماسيا. ويلتقي هذان النهران في مجرى واحد في نقطة تقع في وسط هذا الوادي تقريباً. وعند نقطة التقائهما هذه تقع مدينة دعاها مؤسّسها الأوّل[55] باسمه: إيفباتوريا. أمّا بومبيوس فعندما رأى أن نصف المدينة مبنيّ فقط مدّ حدودها، وضاعف أعداد ساكنيها، ودعاها مغنوبوليس. وتقع هذه المدينة وسط سهل، أمّا كبيرا فإنها تقع عند سفح باريادرس مباشرة، على بعد 150 مرحلة إلى الجنوب من مغنوبوليس (وعلى البعد نفسه تقع أماسيا إلى الجنوب منها). وبني في كبيرا قصر ميتريدات، وطاحونة مائية، ومعرض وحوش؛ كما تقع على مقربة منها غابات الصيد، ومناجم.

31- وعلى بعد أقلّ من 200 مرحلة عن كبيرا يقع الحصن المسمّى كينون هوريون[56]، وهو عبارة عن صخرة شاقولية حصّنتها الطبيعية نفسها. ويتدفق في أعلى هذه الصخرة ينبوع ماء غزير، وعند سفحها نهر وهاوية سحيقة. وارتفاع هذه الصخرة عند قمّتها عظيم جدّاً، ولذلك فهي عصيّة لا يمكن ارتقاؤها؛ زد إلى هذا أنها محاطة بسور مدهش، ما عدا الشطر الذي هدمه الرومان. وتحيط بهذه البلاد كلّها غابات كثيفة، ولكنّ محيطها هذا صخريّ وخال من الماء، ولا يمكن إقامة معسكر هنا على مسافة 120 مرحلة. وهنا في هذا الحصن خزن ميتريدات كنوزه النفيسة التي قدّمها بومبيوس هدية للكابيتول، ولا تزال محفوظة هناك حتّى اليوم. وتحكم بيثودوريدس كلّ هذه البلاد التي تتاخم إقليم البرابرة الخاضع لسلطتها أيضاً، مثله في هذا كمثل زيليتيدا وميغابوليتيدا. أمّا كبيرا التي حوّلها بومبيوس إلى مدينة دعاها ديوسبوليس[57]، فقد زيّنتها بيثودوريدس حتّى جعلتها أكثر بهاء وغيّرت اسمها إلى سيباستا[58]؛ ثمّ اتخذتها عاصمة لمملكتها. ويقوم في هذه المدينة معبد مين الذي دعوه بالفارناكيّ[59]، وفيها أيضاً المكان الذي يدعى أميريا، وفيه كثرة من العبيد المعبديين وأرض مقدّسة وارداتها للكاهن دائماً. وكان الملوك يبجّلون هذا المعبد

تبجيلاً فاق كلّ معيار، ففيه يؤدّون ما سمّي باليمين الملكية: [أقسم] «بهناء الملك ومين الفارناكي». ويعدّ هذا المعبد معبد سيلينا، وكما المعابد عند الألبان وفي فريجيا، فإن معبد مين على وجه الخصوص يقع في منطقة تحمل الاسم نفسه، ومعبد مين الإسكي[60] على مقربة من أنطاكيا البيسيدية، وكذلك معبد مين الذي في منطقة الأنطاكيين.

32- وإلى الأعلى من فاناريا تقع كومانا على البونتس، وهي سمّية مدينة في قبدوقيا الكبرى؛ والمدينة مكرّسة للإلهة نفسها، ومبنية وفق النمط القبدوقي: الطقوس المقدّسة، والولع بالإله، واحترام الكهنة كانت هي نفسها تقريباً هناك، خاصة في عهود الملوك السابقين، عندما كان الكاهن يحمل التاج لدى ما كان يدعى «ظهور»[61] الإلهة مرتين في العام[62]، فيشغل بذلك المكانة الثانية بعد الملك.

33- لقد أشرت سابقاً[63] إلى دوريلايوس التكتيكيّ الذي كان جدّ والدتي، كما أشرت إلى دوريلايوس آخر، هو حفيد الأوّل وابن فيليتروس؛ وعلى الرغم من أنّ هذا الدوريلايوس نال من ميتريدات إيفباتور أرفع الأوسمة، بل نال أيضاً منصباً كهنوتيا في كومانا، إلاّ أنه تورّط في محاولة تحريض المملكة على العصيان دعماً للرومان. وبعد سقوط دوريلايوس أقامت عائلته معه في المنفى. وبعد زمن طويل، عاد عمّ والدتي مواثيرنوس ليشغل من جديد مكانة مرموقة، بينما كانت المملكة قد بدأت تسير نحو السقوط، فقاسم الملك مصيره مرّة أخرى ومعه أقاربه، باستثناء بعضهم الذين كانوا قد انفصلوا عن الملك قبل ذلك فنجوا بأرواحهم، ومنهم على سبيل المثال جدّي من جهة أمّي. فعندما رأى هذا الأخير أنّ سير حرب ميتريدات ضدّ لوكولاّ يتخذ منحى سيِّئاً، إضافة إلى برود موقفه تجاه الملك بعد أن قتل هذا الأخير ابن عم جدّي تيبيوس وابنه ثيوفيل، أخذ يثأر لهما ولنفسه من الملك. فبعد أن تلقّى مباركة لوكولاّ، نجح في أن يستميل 15 حصناً للانفصال عن الملك. والحقيقة أنهم وعدوه بالكثير لقاء هذه الخدمات. ولكن عندما وصل بومبيوس وحلّ محلّ لوكولاّ في قيادة الجيوش، عدّ كلّ من قدّم خدمة لسلفه عدوّاً شخصياً له، لأنّ العداء بينه وبين لوكولاّ كان قد بلغ أقصى مداه. ولمّا عاد بومبيوس إلى روما نجح في أن يستصدر قراراً من السينات بعدم إقرار الامتيازات التي وعد بها لوكولاّ بعض البونتيين؛ فعلى حدّ قوله إنه ليس من العدل أن يمنح المكافآت والامتيازات قائد عسكري فاشل، بينما جاء النصر على يد قائد آخر غيره.

34- لقد أديرت شؤون كومانا في عهود الملوك على النحو الذي سبق الحديث عنه. ولكنّ بومبيوس الذي مُنح سلطات مطلقة على البلاد، عيّن أرخيلايوس كاهناً، وألحق بأملاكه، إضافة إلى الأرض المقدّسة قطعة أرض أخرى امتداد محيطها سخينان (أي 60 مرحلة) وأمر السكّان بالخضوع له. فكان أرخيلايوس حاكماً عليهم، وسيّداً للعبيد المعبديين الذين كانوا يقيمون في المدينة، بيد أنه لم يكن من حقه بيعهم. وهنا أيضاً[64]، لم يكن عدد العبيد أقلّ من 6000 عبد. وكان أرخيلايوس هو ابن أرخيلايوس الذي كان سولاّ والسينات قد منحاه أوسمة الشرف، كما كان «صديق» القنصل السابق غابينوس. وعندما أُرسل غابينوس إلى سوريا[65]، جاء أرخيلايوس إلى هنا أيضاً آملاً المشاركة في الإعداد للحرب البارثية، ولكن بما أنّ السينات لم يسمح له بذلك، فقد صرف النظر عن الأمر كلّه، لكنّه عثر على أمل آخر أعظم. ففي ذلك الوقت حدث أن طرد المصريون بطليموس والد كليوباترا، واستولت على مقاليد الأمور في المملكة ابنته الكبرى أخت كليوباترا. وبما أنهم كانوا يبحثون لها عن زوج من عائلة ملكية، فقد عرض أرخيلايوس على وسطائها أن يكون هو الزوج المنشود، زاعماً أنه ابن ميتريدات إيفباتور. وقد قُبل عرضه، لكنّه لم يملك سوى 6 أشهر؛ فقد قتله غابينوس عندما أعاد بطليموس إلى العرش.

35- ونال ابنه منصباً كهنوتياً، وفيما بعد صار إلى ليكوميد الذي أضافوا إلى الأرض التي بين يديه أربعة سخينات أخرى[66]. وبعد أن أزيح هذا أيضاً، شغل هذه الوظيفة ديتيفيت بن أدياتوريغ الذي منحه إياها على أغلب الظنّ قيصر أغسطس مكافأة له على بسالته. والحقيقة أن قيصر ساق أدياتوريغ وأبناءه وزوجته بين الأسرى في مهرجان النصر، وعزم على إعدامه هو وابنه الأكبر (وكان ديتيفيت هو الابن الأكبر)؛ ولكن عندما قال الابن الثاني للجنود الذين يسوقونهم، إنه هو الابن الأكبر، دار بين الشقيقين جدال طويل، إلى أن أقنع الوالد ديتيفيت بالتنازل لأخيه لأنه على حدّ قولهم، بصفته الأكبر سنّاً سوف يكون أكثر قدرة على حماية والدته وأخيه الذي سيبقى على قيد الحياة. وعلى هذا النحو، كما يقال، أعدموا الأصغر مع والده ونجا الأكبر الذي نال هذا المنصب التشريفي. وبعد أن عرف قيصر بما جرى، ولكن بعد أن تمّ الإعدام، حزنَ كثيراً وعدّ الذين بقوا على قيد الحياة ممن يستحقّون عطفه ورعايته، فمنحهم هذه الوظيفة التشريفية.

36- وكومانا مدينة عدد سكّانها كبير، وهي مركز تجاري مهمّ بالنسبة

لتجار أرمينيا. وفي أثناء «ظهور»[67] الإلهة يتدفّق الناس إلى هنا رجالاً ونساء من كلّ مكان، من المدن والأرياف للاحتفال بالعيد. بل ثمّة من يقيم هنا إقامة دائمة بمقتضى نذر نذره، ويقدّم الأضاحي للإلهة. ويعيش سكّان المدينة عيشة بزخ، أمّا أراضيهم فهي مزروعة كلّها بالكرمة. وفي المدينة كثرة من النسوة اللواتي يتاجرن بأجسادهن؛ وأكثرهن مكرّسات للإلهة. فهذه المدينة هي بمعنى ما كورينثوس صغيرة. وواقع الأمر، هو أنه بسبب وجود كثير من العاهرات المكرّسات لأفروديت، تفد إلى هنا أعداد كبيرة من الأجانب للاحتفال بالعيد. لقد كان التجار والجنود ينفقون أموالهم كلّها هناك حتّى ضرب بهم المثل القائل:

ليست طريق كورينثوس متاحة لأيّ كان.

إذن، ذلك هو وصفي لكومانا.

37- وتقع البلاد المحيطة كلّها تحت سلطة بيثودوريدس؛ وتتبع لها أيضاً فاناريا، وزيلتيدا، وميغالوبوليتيدا. وأنا كنت قد تحدّثت عن فاناريا. أمّا زيليتيدا، فإنّ فيها مدينة زيلا التي بنيت فوق هضبة سميراميس، وفيها معبد أناهيتا التي يعبدها الأرمن أيضاً[69]. وتؤدّى الطقوس المقدّسة هنا بكثير من الإجلال، ويؤدّي البونتيون كلّهم هنا اليمين حيال أهمّ أحداث حياتهم. وكثير من العبيد المعبديين والأوسمة الكهنوتية الشرفية كانت هنا في عهود الملوك، كما وصفتها تماماً؛ وهذا كلّه بين يديّ بيثودوريدس الآن. وقد تسبّب كثيرون بالأذى للمعبد، فقلّصوا أعداد الذين يخدمون فيه، وسوى ذلك من ثروات المعبد. واقتطعوا من الأراضي المتاخمة له وجعلوها عدّة ملكيات: هي على وجه التحديد زيليتيدا (حيث توجد مدينة زيلا التي بنيت على مزلقان. وفي الزمن القديم لم يحكم الملوك زيلا بصفتها مدينة، إنما معبداً لآلهة الفرس، وكان الكاهن هناك سيّداً على كلّ شيء. لقد كان يعيش في المدينة كثير من الخدم المعبديين، وفيها كان يقيم الكاهن نفسه الذي كان يملك ثروات كبيرة؛ فالأرض المقدّسة، ومثلها أرض الكاهن كانتا تحت تصرّفه وتصرّف أعداد كبيرة من مساعديه. وقد ألحق بومبيوس مقاطعات كثيرة بهذا المكان، ودعا زيلا مدينة، مثلها مثل ميغالوبوليس؛ ووحّد بومبيوس هذه الأخيرة مع منطقتيّ كولبينا وكاميسينا (تقع هاتان المنطقتان على الحدود مع أرمينيا الصغرى ولافيانسينا، وفيهما ملح صخريّ، إضافة إلى قلعة كاميسا القديمة العهد التي باتت الآن ركاماً). وقد منح الولاة الرومان فيما بعد شطراً من هاتين المنطقتين إلى كاهن كومانا، وأعطوا الشطر الآخر

لكاهن زيلاّ، والشطر الثالث لأتيبوريغ، أحد الحكّام الذين ينتمون إلى سلالة تترارخيي غلاطيا. وبعد وفاته آلى هذا الشطر الصغير الآن للرومان تحت مسمّى ولاية (وهو يشكل فعلاً دولة مستقلّة منذ أن ضمّوا إليه مدينة كارانا، فباتت البلاد كلّها تدعى كارانيتيدا نسبة إلى هذه المدينة)، أمّا الشطر المتبقي فيتبع لبيثودوريدس وديتيفيت.

38- ويبقى أمامنا الآن أن نصف شطر البونتس الواقع بين هذه المنطقة ومنطقتي الأميسينيين والسينوبسيين، وهو الشطر الذي يمتدّ نحو قبدوقيا، وغلاطيا، وبافلاغونيا. وبعد منطقة أميسينا وصولاً إلى نهر هاليس تقع فازيمونيتيدا التي غيّر بومبيوس اسمها فدعاها نيابوليتيدا، وأعلن مكاناً يقع عند قرية فازيمون مدينة دعاها نيابوليس[70]. وتشكّل الحدود الشمالية لهذا الشطر كلّ من منطقة غازيلونيتيدا وأمينسينا، بينما يشكل حدودها الغربية نهر هاليس، والشرقية فاناريا، والشطر المتبقي- بلادي أنا- منطقة الأماسيين، هي من غير ريب المنطقة الأكبر والأفضل بين المناطق الأخرى كلّها. وتقع في شطر فازيموليتيدا المتاخم لفاناريا بحيرة بحجم البحر تدعى ستيفانا؛ وهي بحيرة غنية بالأسماك، وتمتدّ في الضواحي مراع خصبة متنوّعة. وتقع على شاطئ البحيرة قلعة إيكيزاري[71] الحصينة، لكنّها الآن مهجورة، وغير بعيد عنها تقع العاصمة المدمَّرة. وما تبقى من هذه البلاد أكثره خال من الغابات، وينتج الأقماح. وتقع فوق منطقة الأماسيين ينابيع الفازيمونيتيين الحارّة التي تتمتّع مياهها بخاصيات علاجية عالية، ويقوم هنا على جبل عال شديد الانحدار ينتهي بقمّة حادّة حصن ساغيليس، وحوض مائي غزير المياه مهمل الآن، لكنّه كان فيما مضى ذا منافع للملوك في ميادين كثيرة. وهنا أخذ أبناء الملك فارناك، أرساك أسيراً وقتلوه، لأنه كان أخذ يؤدّي دور الحاكم من غير إذن أيّ وال روماني ثمّ أعلن العصيان وأثار انتفاضة. فقد وقع هذا أسيراً بعد أن استولى الملكان بوليمون وليكوميد على القلعة تحت وطأة تجويع من كان فيها وليس بالقوة المسلحة، وبعد أن طرد أرساك من السهل لجأ إلى الجبال من غير أيّ احتياطات تموينية، فوجد هناك الأحواض المائية التي تحيط بها صخور عظيمة. وكان هذا قد حصل فعلاً بأمر من بومبيوس الذي أمر بهدم التحصينات، جاعلاً منها عديمة النفع لأولئك الذين كانوا يريدون الفرار إلى الجبال ليمارسوا النهب والسلب انطلاقاً من هناك. وقد أقام بومبيوس مثل هذا النظام في فازيمونيتيدا أيضاً؛ وفيما بعد قسّم الحكّام هذه البلاد أيضاً ووزّعوها على الملوك.

39- تقع مدينتي الأمّ[72] في ثغر كبير عميق يجري عبره نهر إريدا. وهي مدينة منظمة تنظيماً بديعاً ومجهّزة بالمرافق كلّها، سواء التي بناها الإنسان أو التي بنتها الطبيعة نفسها، كما تجمع بين ميزات المدينة وميزات الحصن. فهي صخرة شاهقة تنحدر انحداراً شديداً نحو النهر من جوانبها كلها؛ من إحدى جهاتها يمتدّ سور على أطراف النهر، حيث بنيت المدينة، وعلى الجهة الأخرى يرتفع السور على الجانبين حتّى قمتي الجرف الصخري. وتتّصل القمّتان بعضهما مع بعض اتصالاً طبيعياً، وترتفعان بشكل جميل جدّاً على صورة برجين. وتقع في هذا الحيّز، القصور والأضرحة الملكية. وعلى القمّتين برزخ ضيّق جدّاً يبلغ ارتفاعه 5 أو 6 مراحل من الجانبين، إذا ما صعدت الجبل من ضفّة النهر وضواحي المدينة؛ ومن البرزخ حتّى القمتين يصعد مرتفع شاقوليّ آخر امتداده مرحلة واحدة، ويشكّل عقبة كأداء لا يمكن لأيّ هجوم أن يتجاوزها. وعلى الصخرة من الداخل حوض مائي لا يمكن عزله عن المدينة لأنهم حفروا في الصخر قناتين داخليتين، تصل إحداهما إلى النهر، والأخرى إلى البرزخ. ويمتدّ فوق النهر جسران يصل أحدهما بين المدينة وضاحيتها، والآخر بين الضاحية والأطراف، لأنّ حدود الجبل الذي يرتفع فوق الجرف الصخري تنتهي عند هذا الجسر. ثمّ يأتي بعد ذلك واد يمتدّ من النهر، وهو غير عريض في أوّله، لكنّه لا يلبث أن يتّسع ليشكّل ما يدعى سهل هيليوكومون[73]. ثمّ تلي ذلك منطقتا دياكوبينا، وبيموليسينا، وهما منطقتان خصيبتان تمتدان حتّى هاليس. وتشكلان الأجزاء الشمالية من منطقة الأماسيين؛ ويبلغ طولهما 500 مرحلة تقريباً. ويأتي بعد ذلك الشطر المتبقي من البلاد، وهو أطول بكثير من هذه، إذ يمتدّ حتّى بابانوم وكسمينا (وتمتدّ هذه الأخيرة نفسها حتّى هاليس). وعلى هذا النحو يكون هذا هو طول هذه البلاد، أمّا عرضها فيمتدّ من الشمال إلى الجنوب حتّى زيليتيدا وقبدوقيا الكبرى وصولاً إلى منطقة التروكميين. وتوجد في كسيمينا غلاّيات الملح الصخري التي يظنّون أنّ نهر هاليس أخذ اسمه منها. وفي بلادنا عدّة تحصينات مهدّمة وكثير من الأراضي المهجورة نتيجة لحرب ميتريدات. لكنّ الغابات تغطي البلاد كلّها، وبعضها صالح كمراع للخيل وتربية الحيوانات الأخرى، بيد أنها كلّها ملائمة أحسن الملاءمة لعيش الإنسان فيها. وأعطيت أماسيا للملوك أيضاً، لكنّها الآن ولاية رومانية.

40- ويبقى أيضاً ذلك الشطر من الولاية البونتية الذي يقع وراء نهر هاليس: المنطقة القريبة من جبل أولغاسي الذي يتاخم سينوبيدا. وأولغاسي جبل شاهق جدّاً

يصعب صعوده. وتقع المعابد المبنية عليه كلّها بين أيدي البافلاغونيين وفي ضواحيه منطقتان خصبتان إلى درجة كبيرة، هما بلاينا ودومانيتيدا؛ ويجري عبر هذه الأخيرة نهر أمنيوس. وهنا أباد ميتريدات إيفباتور إبادة كاملة قوّات نيقوميدس البيثيني، ولكنّه لم يفعل ذلك شخصياً، بل بمساعدة قادة قوّاته. ولكنّ نيقوميدس نجح في الفرار مع بعض مرافقيه عائداً إلى دياره؛ وأبحر من هناك إلى إيطاليا؛ فلاحقه ميتريدات واستولى في طريقه على بيثينا وامتلك آسيا وصولاً إلى كاريا وليكيا. وتحوّل هنا أيضاً أحد الأماكن الصغيرة إلى مدينة حملت اسم بومبيبوليس. ويقع في هذه المدينة جبل سانداراكورغي غير بعيد عن بيموليس، وهي حصن ملكيّ مدمّر دعيت باسمه البلاد الواقعة على ضفّتيّ النهر: بيموليسينا وجبل ساندراكورغي[74] جبل مجوّف من الداخل بسبب أعمال حفر المناجم فيه: لقد حفر عمّال المناجم هناك ممرّات كبيرة تحت الأرض. وكان يدير عمليات التعدين في تلك المناجم مستثمرون كانوا يستخدمون للعمل فيها العبيد والمجرمين الذين بيعوا عبيداً. فعدّاك عن أعباء العمل المضني يقولون، إن الهواء في تلك المناجم كان مهلكاً ولا يطاق بسبب رائحة الفلزّات الكريهة، ولذلك كان الناس الذين يعملون هناك محكومين بموت عاجل. ولكنّ استثمار المناجم كان يتوّقف في أحيان كثيرة إذ يغدو غير ذي جدوى، فأعداد العاملين كان يتجاوز المئتي عامل، ولكنّ العدد كان يتناقص باستمرار بسبب الأمراض والموت.

لقد كان هذا ما ينبغي قوله عن البونتس.

41- ويأتي بعد بومبيبولس ما تبقى من بافلاغونيا الداخلية في الاتجاه غرباً وصولاً إلى بيثينا. وقبل زمننا ببعض الوقت كان يوجد في هذه البلاد عدد من الحكّام (مع أنها ليست كبيرة جدّاً)، ولكن، بما أنّ السلالة الملكية اندثرت، فإنّ الرومان هم الذين يملكون البلاد الآن. وتدعى المناطق المجاورة لبيثينا، تيمونيتيدا، و«منطقة الهيزاتوريغيس»، ومارموليتيدا، وسانيسينا، وبوتاميا. كما كانت توجد هنا منطقة ما تدعى كيمياتينا؛ وكان يقوم فيها عند سفوح سلسلةجبال أولغاسي حصن طبيعي منيع يدعى كيمياتا. وقد استخدم ميتريدات الملقّب كتيست[75]، هذا الحصن نقطة استناد حينما غدا سيّداً على البونتس؛ وحافظ حلفاؤه بعده على توارث العرش وصولاً إلى إيفباتور. وكان ديوتار بن كاستور الملقب فيلادلف آخر ملوك بافلاغونيا. وقد استولى هذا على عاصمة مورزيه، غانغارا التي كانت مدينة صغيرة وحصناً في الآن عينه.

42- ويتحدّث إيفدوكس عن أسماك أحفورية في «أماكن جافة» من بافلاغونيا، لكنّه لا يحدّد هذه الأماكن بدّقة. وعلى حدّ قوله إن الأسماك الأحفورية موجودة أيضاً في الأماكن «الرطبة» قرب بحيرة أسكانيا الواقعة تحت كيوس، بيد أنه لا يقول أيّ شيء محدّد في هذا الخصوص. وبما أنني أصف الآن شطر بافلاغونيا الذي يجاور البونتس، بينما يجاور البيثينيون بافلاغونيا من الغرب، لذلك سأحاول أن أصف بلادهم أيضاً. وإذ أبدأ بعد ذلك من جديد من مناطق هذا الشعب ومناطق البافلاغونيين، فإني أصل وصف المناطق التي تليهم نحو الجنوب وصولاً إلى طوروس، أيّ على وجه التحديد، المناطق التي تمتدّ بموازاة البونتس وقبدوقيا. فالشروط الطبيعية في هذه المناطق، هي التي تفرض نظام هذا الوصف.

الفصل الرابع

1- تتجاور بيثينا من الشرق مع البافلاغونيين، والماريانديانيين، وبعض الإيبيكتيتيين[1]؛ ومن الشمال مع بحر البونتس بدءاً من مصبّ سانغاروس حتّى مدخل بحر البونتس عند بيزنطا وخلكيدون؛ وتتجاور من الغرب مع البروبونتيدا؛ ومن الجنوب مع ميسيا وما يدعى فريجيا إيبيكتيت التي تدعى أيضاً فريجيا الهليسبونتية.

2- وتقع في هذه البلاد الأخيرة لدى الدخول إلى البونتس كلّ من خلكيدون التي أسّسها الميغاريون، وقرية كريسوبوليس، والمعبد الخلكيدوني. وعلى أراضي المدينة، إلى الأعلى قليلاً من البحر، يقع ينبوع يدعى أزاريتيا تعيش فيه تماسيح صغيرة. ويتاخم الساحل الخلكيدوني بعد ذلك، الخليج الاستانكي الذي يعدّ جزءاً من البروبونتيدا. وقد بنيت في هذا الخليج مدينة نيقوميديا التي دعيت باسمها هذا تيمناً باسم مؤسّسها وهو أحد ملوك بيثينا[2]. وحمل كثير من الملوك البيثينيين الاسم نفسه (مثلهم في هذا مثل البطالمة)، تخليداً لأمجاد أوّل ملك منهم. وكانت تقوم في الخليج مباشرة مدينة أستاك التي أسّسها الميغاريون والأثينيون، ثمّ تبعهم ديدالس. وقد دعي الخليج نفسه باسم المدينة. لكنّ ليسيماخ دمّر المدينة، أمّا سكّانها فقد أسكنهم مؤسّس نيقوميديا فيها.

3- ويجاور الخليج الأستانكي خليج آخر يمتدّ بعد ذلك نحو مطلع الشمس؛ وفيه تقع بروسيادا التي كانت تحمل قبل ذلك اسم كيوس. وقد دمّر فيليب بن ديميتري ووالد برسيوس، دمّر كيوس. ثمّ منح المدينة المدمّرة لابن زيلا بروسوس الذي

شـاركـه في تـدمير المدينـة ومدينـة ميرلييـا المجـاورة الـتي تقـع قـرب بروسـا. ثـمّ أعـاد بروسوس تعمير المدينتين، ودعا كيوس بروسيادا، على اسمه هو، ودعا ميرلييا باسم زوجته: أفاميا. وهذا البروسوس هو نفسه الذي منح هنيبعل ملجأ عنده (وكان هنيبعل قد اضطر إلى الفرار إلى هناك بعد هزيمة أنطوخ). وغادر بروسوس فريجيا الهليسبونتية عمـلاً بالاتفـاق الـذي عقـده مـع الأثـاليين. وكانـت هـذه الـبلاد تـدعى مـن قبـل فريجيـا الصـغرى، لكـنّ الأثـاليين دعوهـا إيبيكتيـت[3]. ويعلـو فـوق بروسـيدا جبـل يـدعى أرغانثونيوس. وفي هذا المكان، كما تروي الأسطورة، خطفت الحوريات هيل، أحد مرافقي هرقل الذي كان يبحـر معه على السفينة آرغـو ونـزل ليـأتي بمـاء للشـرب. أمّا كيوس (وكان أيضاً من مرافقي هرقل على السفينة آرغو)، فلدى العودة من كولهيدا بقي هنا وأسّس مدينة حملت اسمه. وحتى أيامنا هـذه لا يـزال البروسـيون يحيـون مناسـبة ما تشبه الاحتفال: تيه في الجبال ترافقه مواكب باخوسية ينـادون أثناءهـا هيـل كـأنهم يخرجون إلى الغابات بحثاً عنه. وبما أنّ البروسيين سلكوا سلوكاً ودياً تجاه الرومـان، فقـد نـالوا منهم الحريـة. أمّا الأفـاميين فقـد اتخـذوا مـن الرومـان موقفـاً مغـايراً، لـذلك كـان علـيهم القبـول بمسـتعمرة رومانيـة علـى أراضـيهم. وتقـع بروسـا علـى الأوليمـب الميسيسـي. ولهـذه المدينـة دولـة بناؤهـا بـديع، وهـي تتـاخم الفـريجيين والميسيسـيين. وتأسّست المدينةعلى يديّ بروسيوس الذي حارب قورش[4].

4- ومن الصعب تحديد حدود البيثينـيين، والفـريجيين، والميسيسـيين، وكـذلك الـدوليونيين الـذين يعيشـون حـول كيزيـك، والميغـدونيين، والطـرواديين. ومـن المتعـارف عليه أنه ينبغي أن يعدّ كلّ شعب مـن هـذه الشـعوب، شـعباً «قائمـاً بذاتـه» (بـل شـاع عـن الفريجيين والميسيسيين مثل يقول:

الميسيسيون والفريجيون بلدان منفردة)

ولكـنّ تعـيين الحـدود بينهـا أمـر صـعب. ويكمـن سـبب هـذه الظـاهرة في أنّ الوافدين، أي المستعمرين، كونهم برابـرة ومقـاتلين لم يرسّخوا سيطرتهم علـى الـبلاد التي أخضعوها. وأكثرهم تاه في البلاد، يطردون السكّان تارة، ويُطردون هـم أنفسـهم تـارة أخـرى. ويمكننـا أن نفتـرض أن هـذه الشـعوب كلّهـا كانـت شـعوباً تراقيـة، لأنّ التراقيين كانوا يقطنون على الساحل المقابل[5]، وقلما يختلف بعضهم عن بعض.

5- ولكن، بقـدر مـا نسـتطيع أن نتخيّـل، فـإن ميسـيا تقـع في الوسـط بـين بيثينـا

ومصبّ إيسيب، وتلامس البحر لتمتدّ حتّى الأوليمب كلّه تقريباً. وفي عمق البلاد تتوضّع حول ميسيا، فريجيا إيبيكتيت التي لا تلامس البحر في أيّ مكان، وتمتدّ حتّى الأجزاء الشرقية من بحيرة أسكانيا ومحيطها؛ وقد حملت البحيرة والمنطقة الاسم نفسه. وكان شطر من هذه المنطقة فريجيّ، والشطر الآخر ميسيسيّ. وكان الشطر الفريجي يقع بعد طروادا. وعلى هذا النحو ينبغي أن نفهم كلمات هوميروس حينما يقول:

فوركيس وأسكانيوس المقدام، قادا جحافل

الفريجيين من أسكانيا؛

(الإلياذا II، 862)

ومن أسكانيا على وجه التحديد، لأنّ موقع أسكانيا الأخرى، أسكانيا الميسيسية أقرب، عند نيقيا الحالية؛ وقد أتى هوميروس على ذكرها حين قال:

بالموس، وأسكانيوس ولدا هيبوتيون، قائدان،

وصلا بالأمس من أسكانيا ليأخذا مكانهما في المناوبة.

(الإلياذا XII، 792)

وليس ثمّة ما هو غريب في أن يتحدّث الشّاعر عن أسكانيوس واحد كقائد للفريجيين آت من أسكانيا، وعن آخر قائد للميسيسيين آتٍ من أسكانيا كذلك؛ فغالباً ما نقرأ لدى هوميروس أسماء متماثلة، وألقاباً متطابقة مأخوذة من أسماء الأنهار، والبحيرات، والمناطق.

6- ويرى هوميروس نفسه في إيسيب حدود الميسيسيين. وإذ يذكر الشّاعر منطقة طروادا السفحية الواقعة فوق إيليون والتابعة لإينياس (التي دعاها هو داردانيا)، يوضّع إلى الشمال مباشرة ليكيا، وهي منطقة تابعة لبيندروس، حيث كانت تقع زيليا، ويقول:

والرجال الذين عاشوا عند سفوح إيدا

مواطنون أثرياء يشربون مياه إيسيب القاتمه،

إنهم قبيلة طروادية.

(الإلياذا II، 824)

وتحت زيليا عند البحر، على هذا الجانب من إيسيب، يقع سهل أدراستيا، وجبل تيرييا، وجبل بيتيا (وعلى وجه العموم كيزيكينا الحالية الواقعة قرب برياب)، الذي يذكره الشّاعر بعد زيليا[6] مباشرة. ويعود هوميروس من جديد إلى المناطق الشرقية والمناطق الواقعة وراء إيسيب، مؤكّداً بهذا على أنه يرى في المنطقة الواقعة قبل إيسيب الحدود الشمالية والشرقية لطروادا. وعلى أيّ حال تأتي بعد طروادا، ميسيا، والأوليمب. وتشير الحكاية القديمة إلى أن وضع هذه القبائل كان على هذا النحو تقريباً، ولكنّ التغيرات الراهنة جاءت نتيجة لكثير من المستجدات. ففي أزمنة مختلفة كانت هذه القبائل تحت سلطة مختلف الحكّام، وفي غضون ذلك كان بعض هؤلاء يوحّدها، وبعضهم الآخر يفرّقها إلى أجزاء. فبعد سقوط طروادا ساد على هذه القبائل الفريجيون، والميسيسيون؛ وفيما بعد الليديون، وبعدهم الإيوليون، والإيونيون، وبعد ذلك الفرس، والمقدونيون، وأخيراً الرومان. وفي ظلّ السيطرة الرومانية، فقد الجزء الأكبر منها حتّى لغته الأمّ واسمه، نتيجة لتقسيم البلاد. ويستحسن أن أتوقف عند هذا التقسيم لدى وصفي للوضع الراهن[7]، مولياً في غضون ذلك الاهتمام الواجب لما كان عليه واقع الأشياء قديماً.

7- وفي أعماق بيثينا تقع بيثينوس تحت ثيبي بمنطقة تمتدّ قرب سالون التي تعدّ مرعى خصيباً للقطعان (ومن هنا جبنة سالون)؛ ثمّ تأتي نيقيا عاصمة بيثينا الواقعة على بحيرة أسكانيا (ينبسط حولها سهل شاسع شديد الخصوبة، لكنّه ليس صحّياً في الصيف). وكان أوّل مؤسّس لنيقيا، هو ابن فيليب أنتيغون، وقد دعاها أنتيغونيا، ثمّ تلاه ليسيماخ، الذي غيّر اسمها إلى نيقيا، وهو اسم زوجته التي كانت ابنة أنتيباتر. ويبلغ امتداد محيط المدينة 16 مرحلة، وهي مربّعة الشكل؛ وفيها أربع بوابات، وتقع في سهل، وتقطّعها الشوارع؛ ولذلك يمكن رؤية بوابات المدينة الأربع من على حجر قائم في وسطها، في الجمنازيوم. وإلى الأعلى قليلاً من بحيرة أسكانيا تقع مدينة أوتريبا، على الحدود الشرقية لبيثينا. ويُعتقد أن أوتريبا سميت على اسم أوتريوس.

8- وكان سكيلاك الكاريانديّ أوّل من أخبر أن بيثينا كانت موطن الميسيسيين (بحسب قوله، إن الفريجيين والميسيسيين كانوا يعيشون حول بحيرة أسكانيا). ثمّ ذكر ذلك بعده ديونيسيوس الذي كتب مؤلَّفاً عنوانه «إنشاء المدن». ويقول هذا، إنّ المضيق الذي عند خلكيدون وبيزنطا، الذي يدعى الآن بالبسبور التراقي، كان يدعى من قبل بالبسبور الميسيسي. ويمكن أن يؤخذ هذا الخبر

كشهادة على أنّ الميسيسيين كانوا تراقيين. وعندما يقول يوثوريون:

هناك عند الأمواج الأسكانيّة، عند التيار الميسيسي،

والإسكندر الإيثولي:

أولئك الذين تقوم مساكنهم عند شخابيب أسكانيوس الصافية،

وعلى شواطئ بحيرة أسكانيا، هناك حيث عاش

دوليون بن ميليا الماجد، الذي أنجبه سيلينوس،

فإنهما يشهدان بهذا على الأمر نفسه، لأنه لا يوجد في أيّ مكان آخر بحيرة تحمل اسم بحيرة أسكانيا إلاّ هنا.

9- ومن مواطني بيثينا علماء ذاع صيتهم مثل: الفيلسوف كسينوقراط، والدياليكتيكي ديونيسيوس، وعالما الرياضيات هيبارخ، وثيودوسيوس وأبناؤه، وعالم البلاغة كليوخار، الميرلي، والطبيب أسكليبيدس البروسّي.

10- وإلى الجنوب من البيثينيين يقطن الميسيسيون حول الأوليمب (ويدعو بعضهم هؤلاء بالأوليمبيين، بينما يدعوهم الآخرون هللسبونتيين)، وتقع فريجيا التي على الهللسبونت، وإلى الجنوب من البافلاغونيين يقطن الغلاطيون. وأبعد من هذه الشعوب نحو الجنوب، تقع فريجيا الكبرى وليكاونيا وصولاً إلى طوروس الكيليكي والبيسيدي. وبما أنّ الأراضي التي تتاخم بافلاغونيا تقع على ساحل البونتس، عند قبدوقيا والشعوب التي وصفناها، فقد كان ينبغي عليّ أن أضيف في البداية وصف الأراضي المجاورة لها، وانتقل بعد ذلك للحديث عن البلدان التي تليها.

الفصل الخامس

1- وبعد ذلك إلى الجنوب من البافلاغونيين يعيش الغلاطيون. وهم ثلاث قبائل: اثنتان منها تحملان اسمي زعيمين- التروكميون والتوليستوبوغيون، أمّا القبيلة الثالثة، قبيلة التكتوساغيين فقد دعيت باسم قبيلة من قبائل سيلتيا[1]. وقد شغل الغلاطيون هذه البلاد بعد ترحال استمرّ طويلاً. فقد غزوا البلاد الخاضعة للملوك الأتّاليين والبيثينيين ونهبوها إلى أن تنازل لهم هؤلاء طوعاً عن غلاطيا الحالية، أو غلاطيا اليونان كما يدعونها. وعادة ما يرون في ليونور زعيمهم الرئيس الذي قاد حملتهم وعبورهم إلى آسيا. وتتحدّث قبائل الغلاطيين الثلاث لغة واحدة، ولا تختلف واحدتها عن الأخرى في أيّ شيء؛وانقسمت كلّ قبيلة إلى أربعة أقسام كلّ منها يدعى تيترارخيا،

وكان يقف على رأس كلّ تيترارخيا تيترارخ، كما كان لكلّ منها قاض، وقائد عسكري يخضعان للتيترارخ، إضافة إلى اثنين من صغار القادة العسكريين. وكان مجلس هؤلاء التيترارخ الاثني عشر يتألّف من 300 عضو يجتمعون فيما يدعى درينميت. وكان هذا المجلس يفصل في القضايا التي تتّصل بجرائم قتل التيترارخ والقضاة وباقي الناس الآخرين. إن تلك هي بنية الدولة الغلاطية في الزمن القديم؛ أمّا في زمننا هذا فقد انتقلت السلطة إلى ثلاثة حكّام، ثمّ إلى اثنين، وبعد ذلك إلى حاكم واحد، هو ديوتار، وأخيراً إلى أمينتا الذي ورثه. ويملك الرومان الآن هذه البلاد، كما يملكون أيضاً المنطقة الخاضعة لأمينتا، وقد شكّلوا منهما ولاية واحدة[2].

2- يشغل التروكميون المناطق الواقعة على مقربة من البونتس وقبدوقيا. وهذه المناطق هي المناطق الأفضل بين المناطق التي يقطنها الغلاطيون كلّها. وفيها ثلاثة حصون محاطة بالأسوار: تافيوس، وهو المركز التجاري لسكّان هذا الشطر من البلاد؛ وفيه تمثال برونزي ضخم لزيوس، وأرض مقدّسة مكرّسة له تعدّ ملجأ للأفراد؛ وميثريداتيوس الذي منحه بومبيوس لبوغودياتر بعد أن انتزعه من المملكة البونتية؛ والحصن الثالث، هو حصن دانالا، الذي عقد فيه اللقاء بين بومبيوس ولوكولاّ. وكان بومبيوس قد جاء إلى هنا ليحلّ محلّ لوكولاّ في قيادة الحرب، فسلّمه هذا الأخير قيادة الجيش وغادر البلاد ليحتفل بمهرجان النصر. وعلى هذا النحو يمتلك التروكميون هذه المناطق، أمّا التيكتوساغيون فإن بلادهم تقع قرب فريجيا الكبرى مجاورة بيسينونت ومنطقة الأوركاوركيين. ويمتلك التيكتوساغيون حصن أنكيرا سمّي مدينة فريجية صغيرة تقع على الطريق إلى ليديا بجوار بلافدوس. ويقطن التوليستوبوغيون على الحدود مع البيثينين وما يدعى فريجيا إيبيكتيت. وعندهم حصنان: بلوكي وبيي؛ وقد كان الأوّل منهما عاصمة ديوتار، والثاني مقرّ خزنته.

3- وتعدّ بيسينونت المركز التجاري الأكبر في هذا الشطر من العالم. ويقع هنا معبد لأمّ الآلهة يحظى بإجلال عظيم جداً. ويدعوها السكّان هنا أُغديستيدا. وفي الزمن القديم كان الكهنة هنا بمثابة حكّام، وكانت الوظيفة الكهنوتية تدرّ موارد كبيرة، أمّا الآن فقد تقلّصت إلى حدّ كبير الامتيازات التي ترتبط بهذا اللقب، على الرغم من أن المركز التجاري بقي على حاله من الازدهار. فقد عمّر الملوك الأتّاليون الأرض المقدّسة بما يليق بها كمكان مقدّس: شيّد هناك معبد ورواق من حجر المرمر الأبيض. ونال المعبد شهرة كبيرة بفضل الرومان الذين جاؤوا من هناك بتمثال الإلهة

نزولاً عند إرادة متنبّئي سيبيلاّ، كما جاؤوا أيضاً بتمثال أسكليبوس من إيبيدافروس. ويقع هناك أيضاً جبل ديندیم الذي يرتفع فوق المدينة، والذي حملت منطقة ديندیمینا اسمه، مثلما أخذت كيبيلاّ اسمها من جبل كيبيلي. وغير بعيد من هنا يجري نهر سانغاروس. وتقع على هذا النهر مستوطنتا الفريجيين القديمتان، ميداس وغورديوس (التي كانت موجودة من قبل أيضاً) وبعض المستوطنات الأخرى. ولم تحافظ هذه المستوطنات حتّى على آثار من مدن، بل كانت مجرّد مستوطنات أكبر بقليل من المستوطنات الأخرى، كمستوطنة غورديوس مثلاً، ومستوطنة غوربيونت عاصمة كاستور بن ساوكونداريوس، حيث قتل ديوتار صهره كاستور وزوجته ابنة هذا الأوّل. ثمّ أمر بهدم التحصينات ونهب العدد الأكبر من القرى والمستوطنات.

4- وبعد غلاطيا نحو الجنوب تقع بحيرة تاتّا التي تمتدّ على مقربة من قبدوقيا الكبرى غير بعيد عن الموريمينيين (تعدّ البحيرة جزءاً لا يتجزأ من فريجيا الكبرى)، والمنطقة المتاخمة لهذه البحيرة وصولاً إلى طوروس، التي كان الشطر الأعظم منها خاضعاً لسلطة أمينتا. وتعدّ بحيرة تاتّا غلاّية ملح طبيعية. فماء البحيرة يتحوّل بسهولة فائقة إلى بلورات تتجمّع حول مادّة تسقط فيه، وعندما يرمون إلى هناك حلقات مجدولة من القصب، يستخرجون من البحيرة ضفائر من الملح؛ وبسبب سرعة تحوّل ماء البحيرة إلى بلّورات من الملح سرعان ما تسقط الطيور التي تلامس مياهها بأجنحتها ويغدو التقاطها سهلاً.

الفصل السادس

1- إن هذه هي بحيرة تاتّا. أمّا المناطق المحيطة بالأوركاوركيين، وبيتنيسّا، ومرتفعات الليكاونيين، فهي مناطق باردة وخالية من النباتات؛ وتسرح هناك أسراب من الحمير البرّية، والماء فيها شحيح جدّاً. وحتى هناك حيث يمكن أن تجد ماء، فإنه موجود في أكثر الآبار عمقاً، كما في سواترا على سبيل المثال، حيث يباع الماء فيها (سواترا مكان قرب غارسافرا) ومع أن الماء مفقود في هذه البلاد، إلاّ أنّ الأغنام تربّى فيها بطريقة مدهشة، والحقيقة أنّ صوف هذه الغنام خشن جدّاً. وقد جمع بعضهم من هذا العمل ثروات كبيرة. فامينتا كان له في هذه المنطقة 300 قطيع من الأغنام. وثمّة بحيرة هنا أكبر من بحيرة كوراليدا وأصغر من بحيرة تروجيتيدا. وفي مكان ما هنا تقع مدينة إيكونوس الصغيرة التي تسكن فيها أعداد كبيرة من الناس؛ وأرض هذه

المدينة أكثر خصوبة من أرض المنطقة التي ذكرناها آنفاً، حيث تسرح أسراب الحمير البريّة. والمدينة تحت سلطة بوليمون. وتقترب كثيراً من هذه المناطق جبال طوروس التي تفصل قبدوقيا وليكاونيا عن كيليكيا التراخية الواقعة إلى الأعلى منهما. وتمرّ الحدود بين الليكاونيين والقبدوقيين بين كوروباس- مستوطنة لليكاونيين- ومدينة غارساورا القبدوقية. والمسافة بين هذين الحصنين تقارب 120 مرحلة.

2- وإلى ليكاونيا تنتمي أيضاً إيسافريا الواقعة عند طوروس مباشرة؛ وفيها قريتان تحملان اسم إيسافرا: إيسافرا القديمة، وإيسافرا الجديدة (وهي محصّنة تحصيناً جيّداً). وكانت هاتان القريتان قد فرضتا سلطانهما على كثير من القرى الأخرى؛ وكانت هذه القرى كلّها قرى لقطّاع الطرق. وقد تسببت بكثير من المتاعب حتّى للرومان أنفسهم، خاصة لبوبليوس سرفيليوس الملقّب بالإيسافري، وقد تسنّى لي أن أتعرّف إليه. فقد أخضع هذه القرى للرومان ودمّر أكثر حصون القراصنة على ساحل البحر.

3- وعلى أطراف إيسافريكا تقع ديربا التي تتاخم قبدوقيا، - عاصمة التيران أنتيباتر الديربيتي. وتقع تحت سلطة هذا الأخير لاراندا أيضاً. وفي زمننا هذا امتلك أمينتا كلاً من إيسافرا وديربا. فقد شنّ هجوماً على الديربيتي وقتله، مع أنه كان قد تلقّى إيسافرا من الرومان. وقد بنى لنفسه هنا عاصمة فعلاً، بعد أن دمّر إيسافرا القديمة. وإذ شرع يبني في المكان عينه سوراً جديداً، لم يتسنّ له مع ذلك إتمامه، فقد قتله الكيليكيون عندما اجتاح منطقة الهوموناديين، بعد أن أخذوه من الحصار أسيراً.

4- وبعد أن استولى على منطقة أنطاكيا الواقعة عند بيسيديا، وصولاً إلى أبوللونيادا الواقعة قرب آفاميا كيبوت، وشطر من السفوح الجبلية وليكاونيا، حاول أمينتا أن يدمّر الكيليكيين والبيسيديين الذين فرّوا من طوروس إلى هذه البلاد التي كانت تحت سلطة الفريجيين والليكاونيين[1]. وقد نجح بالاستيلاء على كثير من المواقع التي كانت من قبل عصيّة، لاسيما كريمنا. لكنّه لم يحاول مجرّد محاولة أن يستولي على ساندالوس الواقعة بين كريمنا وساغلاسّ.

5- ويشغل المستعمرون الرومان كريمنا، بينما أُخضعت ساغلاس للحاكم الروماني الذي كان يحكم مملكة أمينتا كلّها. وتقع ساغلاس على مسير يوم واحد من أفاميا، ويبلغ امتداد المنحدر إليها من هذه القلعة حوالي 30 مرحلة. وتدعى هذه المدينة باسم آخر أيضاً هو سيلغيس، وقد استولى عليها الإسكندر. لقد استولى أمينتا

على كريمنا؛ وعندما دخل منطقة الهوموناديين التي كانت تعدّ قبل ذلك عصيّة، بات سيّداً على أكثر الأماكن المحلّية، بل قتل التيران المحلّي، لكنّ زوجة التيران تمكّنت من أن تغدر به وتأخذه أسيراً. لقد سلّم الهوموناديون أمينتا للموت، أمّا هم أنفسهم فقد أرغمهم الجوع على الاستسلام لكويرينوس(2). وأخذ هذا 4000 أسير منهم وأسكنهم في المدن المجاورة، فحرم البلاد بذلك من سكّانها القادرين على حمل السلاح والدفاع عنها. وفي مناطق طوروس المرتفعة، في الوسط بين المنحدرات الشاقولية المريعة التي يتعذّر اجتياز أكثرها، يقع واد عميق وخصيب ينقسم [بدوره] إلى عدد من الوديان. وكان السكّان الذين يحرثون هذا الوادي يقيمون بين الصخور أو في الكهوف التي تعلو فوق الوادي. وكان أكثر هؤلاء من المسلّحين الذين يغيرون على أراضي الغير، وكانت الجبال في غضون ذلك تشكل أسواراً تحمي بلادهم.

الفصل السابع

1- ويجاور البيسيديون هذه الأقوام، خاصة السيلغيين، وهم أكبر قبائل البيسيديين. ويشغل القسم الأعظم منهم قمم طوروس. لكنّ بعضهم يعيش في منطقة المرتفعات المزروعة بشجر الزيتون في كلّ مكان، وفوق المدينتين البامفليتين سيدا وأسبيند. ويشغل المنطقة الواقعة إلى الأعلى من المنطقة الجبلية جيران السيلغيين والهوموناديين: الكاتينيون؛ أمّا الساغالاسيون فلهم المنطقة الواقعة على هذه الناحية من طوروس، قرب ميليادا.

2- وعلى حدّ قول أرتيميدور إن مدن البيسيديين هي الآتية: سيلغا، وساغالاسّ، وبيتنيليس، وأدادا، وتيمبديادا، وكريمنا، وبيتياس، وأمبلادا، وأنابورا، وسيندا، وآراس، وتارباس، وتيرميس. ويعيش فريق من هؤلاء البيسيديين في الجبال فقط، وينتشر فريق آخر منهم حتّى السفوح على جانبي السلسلة الجبلية نحو بامفليا وميليادا؛ ويجاور هؤلاء الفريجيين والليديين، والكاريين، الذين يعدّون كلّهم أقوام مسالمة على الرغم من أنهم يعيشون إلى الشمال [من طوروس]. أمّا البامفليون الذين يجمعهم الكثير مع الكيليكيين، فهم على الضدّ تماماً، إذ لا يتعفّفون عن ممارسة الغزو والنهب ولا يدعون جيرانهم يعيشون بسلام، مع أنهم يشغلون الأجزاء الجنوبية من سفوح طوروس. وعلى الحدود مع الفريجيين وكاريا تقع تابا، وسيندا، وأمبلادا، التي يستورد منها النبيذ الأمبلادي الذي يستخدم للمداواة.

3- ويتوزّع باقي البيسيديين الجبلين المذكورين على عدد من القبائل التي يحكمها التيران، وكان هؤلاء يمارسون الغزو والسلب، مثلهم مثل الكيليكيين. ويقولون، إن بعض الليليغيس- قبيلة رحّل- تخالطوا معهم قديماً وأقاموا هناك بدافع وحدة نمط العيش بين الفريقين. وفي بادئ عهدها تأسّست مدينة سيلغا على أيدي اللاكيديمونين، وقبل ذلك على يديّ كالخانس. وفيما بعد بقيت المدينة مستقلّة وبفضل إدارة شؤونها وفق القانون حقّقت مستوى عالياً من الجبروت، وبلغ عدد سكّانها في زمن مضى 20.000 نسمة. وطبيعة هذه المنطقة مدهشة: تتوضّع بين قمم طوروس أراض تربتها شديدة الخصوبة تكفي لإطعام عشرات آلاف الناس؛ وتنمو في مناطق كثيرة هناك، أشجار الزيتون وكروم العنب، وثمّة علاوة على ذلك مراع شاسعة لشتّى أنواع المواشي. وتكسو قمم الجبال التي ترتفع فوق هذه البلاد، غابات من مختلف أنواع الشجر. فيوجد هنا أكبر كمّ من شجر ستيراكس[1]، وهي شجرة قصيرة مستقيمة يصنعون من خشبها مزاريق الستيراكس التي تشبه مزاريق الزعرور. ويعيش في داخل جذوع هذا الشجر نوع من ديدان الخشب. وتلتهم هذه الدودة الشجرة حتّى أعاليها، وترمي وراءها ذرات خشبية تشبه نشارة الخشب أو النخالة الخشبية، فتتشكّل حول جذور الشجرة أكوام من النشارة، ثمّ لا يلبث أن يرشح من هناك سائل ما سرعان ما يتكثف كالصمغ. فيسيل قسم من هذا السائل على أكوام الطحين الخشبي المتراكم عند جذور الشجرة ويختلط به وبالتراب، وتبقى منه كمية ما تتكثف على السطح وتبقى شفافة صافية؛ ويتجمّد القسم الآخر من السائل الذي يسيل على سطح الجذع ويبقى نقياً أيضاً. فيصنعون من السائل الملوّن غير النقي خليطاً من الطحين الخشبي والتراب، وهو عجينة فوّاحة أكثر من السائل النقي، لكنّها تقصّر عنه من حيث الخاصيات الأخرى (وهذا ما لا يعرفه أكثرهم). ويستخدم التقاة الورعون هذه العجينة بكميات كبيرة كطيب للتبخير. وتشتهر أيضاً زهرة السوسن السيلفية التي يصنعون منها نوعاً من المراهم. ولا يوجد في الأراضي التي تحيط بالمدينة، وكذلك في منطقة السيلغيين سوى عدد قليل من المعابر، لأنّ هذه البلاد الجبلية مليئة بالجروف والانهدامات التي تشكل مع الأنهار الأخرى نهريّ إيفريميدونت وكيستر اللذين يجريان من الجبال السيلغية ويصبّان في البحر البامفلي. وثمّة على الطرقات جسور. وبسبب وعورة طبيعة بلادهم لم يعان السيلفيون من سيطرة أيّ قبائل أخرى على بلادهم، وأفادوا من كلّ ثمار أرضهم وغلالها بسلام وطمأنينة. لكنّهم خاضوا حروباً

مستمرة ضدّ الملوك الذين سعوا إلى السيطرة على شطر بلادهم السفلي في بامفليا وعلى هذا الجانب من طوروس. أمّا فيما يخصّ علاقاتهم مع الرومان، فقد تلقوا منهم هذه الأرض حيازة مشروطة. وأرسلوا إلى الإسكندر سفارات عرضت عليه خضوعهم لإرادته كأصدقاء. وهم الآن خاضعون خضوعاً تاماً للرومان، ويعدّون جزءاً من منطقة كانت فيما مضى تحت سلطة أمينتا.

الفصل الثامن

1- كما ذكرنا آنفاً[1]، يجاور البيثينيين من الجنوب الميسيسيون والفريجيون الذين يعيشون قرب ما يسمّى الأوليمب الميسيسي. وينقسم كلّ من هذه الأقوام إلى فريقين. فيدعى أحد شطري فريجيا باسم فريجيا الكبرى، وهي التي حكمها ميداس، واستولى الغلاطيون على جزء منها. ويدعى شطرها الآخر فريجيا الصغرى، وهي التي تقع عند الهليسبونت وقرب الأوليمب، أي تلك التي تدعى فريجيا إيبيكتيت. وعلى نحو مماثل هناك ميسيا أوليمبينا التي تتاخم بيثينا وفريجيا إيبيكتيت؛ وبحسب أرتيميدور أنّ الميسيسيين الذين كانوا يعيشون على ذلك الجانب من إيستر، قد استولوا عليها؛ وهناك أيضاً ميسيا أخرى عند كايك وبيرغامينا، وهي تمتدّ حتّى تيثرانيا ومصبّ هذا النهر.

2- وقد أشرت مراراً[2] إلى أنّ هذه المناطق قد تداخل بعضها مع بعض إلى درجة لم يعد معروفاً عندها ما إذا كانت المنطقة الواقعة عند جبل سيبيل الذي دعاه القدماء فريجيا، جزءاً من فريجيا الكبرى أو الصغرى، ولذلك يدعى تانتالوس فريجيا وكذلك بيلوبس ونيوبا. ومهما كان الأمر فإن التداخل ظاهر. فبيرغامينا، وإيلايتيدا، حيث يصبّ كايك في البحر، وكذلك تيثرانيا الواقعة بينهما (حيث عاش تيثرانس وتربّى تيليث)، تقع كلّها بين الهليسبونت والمنطقة الواقعة قرب جبل سيبيل ومغنيسيا، والمنطقة الواقعة عند سفوح سيبيل. ولذلك يصعب، كما كنت قد أشرت، أن نحدّد كيف يمكن أن يكون

الميسيسيون والفريجيون منفصلين.

3- كما يختلط الليديون والميونيون (الذي يدعوهم هوميروس ميونيين) إلى حدّ ما مع هذه الأقوام، ومع بعضهم بعض؛ وبعضهم مع بعض لأنّ بعضهم يرى فيهم قوماً واحداً، بينما يرى فيهم آخرون قومين مختلفين، وقد اختلفوا مع الميسيسيين

والفريجيين، لأنّ الميسيسيين، كما يقول بعضهم، كانوا تراقيين، بينما يرى آخرون (على خلفية رواية قديمة) أنهم كانوا ليديين. ويروي هذه الرواية الليديّ كسانثوس ومينيكراتوس الإيليّ، اللذان يردّان أصل اسم الميسيسيين إلى كلمة mysos، وهو الاسم الذي يدعو الليديون به شجرة الزّان. وينمو هذا الشجر بكثرة في محيط الأوليمب. ويروى أنهم كانوا يرسلون كلّ عاشر شخص من أفراد القبيلة إلى هناك تقدمة للإله. وأحفاد هؤلاء هم الميسيسيون المتأخرون الذين دُعوا باسمهم هذا المأخوذ من اسم شجرة الزّان. ويزعمون أن لغتهم تشهد على ذلك، فهي خليط من الليدية والفريجية. لقد عاش الميسيسيون لبعض الوقت في محيط الأوليمب، ولكن بعد أن ترك الفريجيون تراقيا وقتلوا ملك طروادا والبلاد المجاورة واستقرّوا هنا، استوطن الميسيسيون أعالي منابع كايك قرب ليديا.

4- وما يساعد على إنشاء مثل هذه الروايات هو تخالط القبائل التي تعيش هنا بعضها مع بعض، وخصوبة أراضي هذا الجانب من نهر هاليس، خاصة الشريط الساحلي. ولذلك كانت هذه البلاد تتعرّض للغزو من شتّى الجهات، ودائماً من القبائل التي تسكن البرّ المقابل، أو كانت الشعوب المجاورة يهاجم بعضها بعضاً. وكانت الاجتياجات والهجرات تحدث بشكل رئيس في زمن حرب طروادا وبعدها عندما تملّك البرابرة والإغريق شغف الاستيلاء على أراضي الآخرين. وعلى وجه العموم كانت هذه الظاهرات حاضرة حتّى قبل حرب طروادا. فعندئذٍ أيضاً كانت قبيلة البيلاسيغيس موجودة، وكذلك الكافكونيون والليليغيس. وكما قلت من قبل[3]، إنهم في الزمن القديم كانوا يتيهون في كثير من أرجاء أوروبا. ويقدّم لنا هوميروس هذه القبائل حليفة للطرواديين، لكنّها ليست وافدة من البرّ المقابل. إن ما يروى عن الفريجيين والميسيسيين يرقى إلى زمن أقدم من حرب طروادا. فوجود الليكيين منقسمين إلى فريقين يجعلنا نخمّن أنهم كانوا قبيلة واحدة، سواء كانوا الليكيين الطرواديين، أو الليكيين الذين كانوا يعيشون قرب كاريا واستعمروا أراضي القبائل الأخرى[4]، وقد يكون الأمر نفسه صحيحاً بالنسبة للكيليكيين أيضاً، لأنهم ينقسمون إلى مجموعتين[5]. بيد أننا لا نستطيع أن نسوق شواهد من هذا النوع تؤكّد أنّ الكيليكيين المعاصرين كانوا موجودين قبل حرب طروادا. ولعلّنا نستطيع أن نقرّ بأن تيليث جاء مع والدته من أركاديا. وعندما ارتبط مع تيثرانس بآصرة النسب عبر زواج والدته من هذا الأخير، باتوا يعدّونه ابناً للملك، فورث عرش الميسيسيين.

5- لقد كان الكاريون والليليغيس في الأزمنة السابقة سكّان جزر، ثمّ صاروا بمساعدة الكريتيين إلى سكّان برّ. وتجدر الإشارة في هذا السياق إلى أنّ الكريتيين هم الذين أسّسوا ميلتوس (إذ اختاروا ساربيدون الميلتوسي لتأسيس مستعمرة في كريت)، كما سكنوا ثيرميلا الواقعة في ليكيا المعاصرة. فيروى أن ساربيدون شقيق مينوس ورادامانثوس هو الذي قاد هؤلاء المستوطنين، ودعا قبيلة الميليين السابقين، ثيرميليين (بحسب هيرودوت)[6]، وكان هؤلاء يدعون قبل ذلك كلّه سوليميين. ولكن عندما وصل ليكوس بن بانديون إلى هناك دعا القبيلة الليكية باسمه. وعلى هذا النحو فإن هذه الرواية تقدّم السوليميين والليكيين قبيلة واحدة، لكنّ هوميروس يفرّق بينهما. وعلى أيّ حال فإن بيلليروفون عندما توجّه من ليكيا،

مضى بعد ذلك ليحارب السوليميين، الشعب المجيد،

(الإلياذا VI، 184)

ويقول الشاعر، إن ابنه بيساندرس[7]،

أطاح به أريس، عندما كان يحارب السوليمين

(الإلياذا VI، 204)

ويتحدّث هوميروس عن ساربيدون بصفته مواطناً ليكياً[8].

6- لكنّ خصوبة البلاد التي أتحدّث عنها[9]، كانت مكافأة حربية معتادة للأقوياء الذين ينتصرون، وهذه حقيقة يؤكّدها كثير من الأحداث التي وقعت قبل حرب طروادا وبعدها، فحتى الأمازونيس تجرّأن وهاجمن هذه البلاد. ويقال، إن بريام، وكذلك بيلليروفون، شنّا حملات ضدّ الأمازونيس. وهذا ما تؤكّده تسمية المدن القديمة بأسماء الأمازونيس. وثمّة تلّ في سهل إيليون:

يدعوه الناس منذ القدم باتييا،

لكنّ الآلهة الخالدين يدعونه قبر الخفيفة الساقين ميرينا.

(الإلياذا II، 813)

ويقولون، إنّ ميرينا كانت واحدة من الأمازونيس، وقد استنتجوا هذا من صفتها؛ ويقال، إن الجياد كانت تدعى «رمّاحة جيّدة» بسبب سرعة عدوها. ولذلك دعيت «خفيفة الساقين»، لأنها كانت تقود مركبتها بسرعة. وعلى النحو نفسه دعيت

مدينـة ميرينـا باسمهـا. وقاسمتهـا الجـزر المجـاورة المصير عينـه بسـبب خصـوبة أراضيها؛ ومنهـا وفـق شـهادة هـوميروس الدقيقـة، جزيـرة رودوس وجزيـرة كوسـوس اللتـان استوطنهما الإغريق قبل حرب طروادا[10].

7- بعـد حـرب طـروادا أدّت هجـرات الإغريـق والتريـريين، وغـزوات الكيميريين والليديين، ثمّ الفـرس والمقـدونيين، وأخيراً الغلاطيين إلى اختـلال كلّ شـيء واختـلاط كلّ شـيء. ولم ينشـأ هـذا الغمـوض نتيجـة للتغيّـرات الـتي حـدثت، بقـدر مـا جـاء نتيجـة للخلافـات بـين المـؤرّخين الـذين نقلـوا معلومـات متباينـة عـن الحـدث عينـه. فقـد دعـوا الطرواديين فريجيين (كما فعل التراجيديون على سـبيل المثـال)، والليكـيين كـاريين، والأمر نفسه بالنسبة للشعوب الأخرى. وفيما يتعلّق بالطرواديين، فقـد تحـوّلـوا مـن شـعب مغمور لا أهمية له إلى شعب جبّار بات ملوكه ملوك الملوك، وأعطـوا الشّـاعر وشـارحي شـعره أساسـاً ليسـألوا أنفسـهم: مـا الـذي ينبغـي أن يـدعى طـروادا علـى وجـه التحديـد. فهوميروس دعا الذين حاربوا إلى جانب الطرواديين كلّهم طرواديين، وعلى النحـو عينـه دعا خصومهم كلّهم دانائيـدس وآخيين. ولكـن غنيّ عـن البيـان القـول، إننـا لـن نـدعو بافلاغونيا، ولا كاريا وجارتها ليكيا، جدّياً طروادا. وأنا أقصد هنا إلى قول الشاعر:

يندفع أبناء طروادا بصخبهم وصراخهم كالطيور،

(الإلياذا III، 2)

وقوله عن خصومهم:

وكان الآرغوسيون يتقدّمون بصمت، وهم يتنفّسون القتال.

(الإلياذا III، 8)

كما يقـول علـى غير ذلـك أيضـاً مسـتخدماً كـثيراً مـن مختلـف التعـابير. ومـع أنّ الأمر على هذا النحو فعلاً، إلاّ أنه ينبغي أن نناقش كلّ حدث على حدة. وإذا ما أغفلت أيّ شـيء مـن التـاريخ القـديم، فينبغـي تجـاوز هـذا (فمهمّـة الجغرافيـا ليسـت في هـذا)، والالتفات إلى ميدان الحاضر.

8- يرتفـع فـوق البروبونتيـدا جـبلان: الأوليمـب الميسيسـي وإيـدّا. وتقـع أرض البيثينـيين عنـد سـفوح الأوليمـب، بينمـا تقـع طـروادا بـين إيـدّا والبحـر مجـاورة الجبـل. وسأُقدم لاحقاً[11] وصفاً لطروادا التي تجاورها؛ أمّا الآن فسأصف المنطقـة الـتي تحـيط بالأوليمب، والمناطق الـتي تليـه مباشـرة وصـولاً إلى طوروس والمنـاطق الموازيـة الـتي سـبق

وصفها. فالمنطقة التي تحيط بالأوليمب تعجّ بكثافة سكّانية عالية؛ وتغطي قمم الجبل أشجار باسقة جدّاً، وتقع هناك أماكن وهبتها الطبيعة تحصينات منيعة وجد اللصوص وقطاع الطرق ملجأً آمناً فيها. وغالباً ما يبرز من هذه العصابات تيران قادرون على الإمساك بالسلطة لزمن طويل، ومن هؤلاء في زمننا الحاضر، التيران كليون الذي كان زعيم عصابات من قطّاع الطرق.

9- ويتحدّر هذا الأخير من قرية غورديوس التي أعلى شأنها فيما بعد وضاعف حجمها وجعل منها مدينة دعاها يوليوبوليس. وفي الأوّل اتخذ كليون هذا من حصن يدعى كاليديوس ملجأ ونقطة انطلاق لأعماله اللصوصية. وقد تبيّن أن قاطع الطريق هذا كان ذا نفع لأنطونيو، لأنه هاجم جامعي الأموال للابينوس[12] عندما كان هذا يملك آسيا[13]، وأعاق سير استعداداته القتالية. وفي أثناء حرب أكسيوم خان كليون أنطونيو وانتقل إلى جانب القائد قيصر الذي أغرقه بآيات التشريف التي فاقت خدماته، فعلاوة على ما كان قد منحه له أنطونيو نال مِنحاً أخرى من قيصر. وعلى هذا النحو يكون كليون قد تحوّل من قاطع طريق إلى حاكم؛ فقد صار إلى كاهن لزيوس الأبريتيني (إله ميسيسي)، وامتلك شطراً من مورينا (وهي إحدى مناطق ميسيا، مثلها مثل أبريتيا)، ثمّ نال قبيل وفاته منصباً كهنوتياً في كومانا التي على البونتس. فقد توفّي بعد شهر واحد من تسلّمه هذا المنصب. لقد أهلكته أزمة مرضيّة حادّة ألّمت به، وربّما تكون التخمة قد قتلته، أو غضب الإلهة (كما يقول خدم المعبد). لأنّ مسكن الكاهن والكاهنة يقع داخل سياج الأرض المقدّسة؛ وإضافة إلى المحرّمات الدينية الأخرى، كان محرّماً تحريماً قاطعاً هنا استخدام لحم الخنزير في الطعام، وكذلك كانت الحال في المدينة كلّها إذ كان يمنع منعاً باتاً إدخال الخنزير إليها. ولكنّ كليون أظهر من اللحظة الأولى لتسلّمه المنصب الكهنوتي، ديدنه كقاطع طريق وانتهك هذا التحريم كما لو أنه لم يأت إلى هنا كاهناً بل مدنّس مقدَّسات.

10- هذا هو جبل الأوليمب. إلى الشمال منه يعيش البيثينيون، والميغدونيون، والدوليونيون؛ ويملك الميسيسيون والإيبيكتيتيون ما تبقى من المنطقة. ويطلق اسم الدوليونيين أساساً على الشعب الذي يقطن عند كيزيك، من نهر إيسيب حتّى رينداك وبحيرة داسكيليتيدا، أمّا الميغدونيون فهم القبيلة التي تسكن بعدهم مباشرة حتّى منطقة الميرليانيين. وإلى الأعلى من بحيرة داسكيليتيدا تقع بحيرتان كبيرتان أخريان: أبوللونيتيدا وميليتوبوليتيدا. وتقع عند بحيرة داسكيليتيدا مدينة داسكيلوس، وعند

بحيرة ميليتوبوليتيدا مدينة ميليتوبوليس؛ وتقع عند البحيرة الثالثة مدينة تدعى أبوللونيا التي على ريندالك. ويعود أكثر هذه المناطق الآن للكيزيكيين.

11- وكيزيك هي جزيرة في البروبونتيدا تتّصل بالبّر بجسرين. وتتميّز هذه الجزيرة بخصوبة فائقة، ويصل امتداد محيطها إلى ما يقارب 500 مرحلة. وعند الجسرين مباشرة، تقع على الجزيرة مدينة تحمل اسمها نفسه، وميناءان يمكن إغلاقهما، إضافة إلى أكثر من 200 حوض للسفن. ويقوم شطر من المدينة على مكان مستوٍ وشطرها الآخر عند الجبل الذي يسمّى أراكتون- أوروس[14]. ويعلو فوق هذا الجبل جبل آخر له قمّة واحدة هو جبل دينديم؛ ويقوم على هذا الجبل معبد دينديمينا، أُمّ الآلهة الذي بناه الأرغونيون. وتتنافس هذه المدينة مدن آسيا الكبرى بحجمها وتجهيزها الرائع في الشؤون المدنية والشؤون العسكرية على حدّ سواء. ومن الواضح أن مدينة كيزيك قد جهّزت ونظّمت شؤونها وفق نمط مدن الرودوسيين، والماساليين، والقرطاجيين القدماء. ولكني سأتجاهل وصف الشطر الأكبر من هذه المدينة. ففي كيزيك ثلاثة مديرين للمباني العامّة والشؤون العسكرية، وثلاث شخصيات تدير شؤون المخازن: مخزن الأسلحة، ومخزن الآلات القتالية، ومخزن الأقماح. ويحمي خليط «التراب الخلكيدي»[15] الأقماح هنا من التعفن. وقد ظهرت لهم فائدة هذا التدبير أثناء الحرب ضدّ ميتريدات، لأنّ الملك هاجمهم على حين غرّة بجيش قوامه 150.000 من المشاة، وأعداداً كبيرة من الفرسان، فاستولى على الجبل الذي يعلو قبالة المدينة (والذي يدعى أدراستيا)، وعلى ضاحيتها. ثمّ زحف ميتريدات عبر البرزخ الذي يعلو فوق المدينة وبدأ حصار كيزيك من جهة البرّ ومن البحر بأربعمئة سفينة. لكنّ الكيزيكيين صدّوا هجمات ميتريدات كلّها، وحفروا تحت الأرض نفقاً للقاء نفق الملك، وكادوا أن يأخذوه أسيراً. لكنّ ميتريدات استبق هذه الكارثة وغادر مخبأه في الوقت المناسب. وعلى الرغم من أنّ القائد الروماني لوكولاّ تأخّر، إلاّ أنه مع ذلك استغلّ ستار الظلام وأرسل إلى المدينة قوّة دعم. وفي الوقت نفسه هبّت لمساعدة الكيزيكيين أيضاً المجاعة التي ضربت حشود الخصم (وهو ما لم ينجح الملك في أن يتوقّع حصوله مسبقاً)؛ فاضطر إلى الانسحاب متكبّداً خسائر كبيرة. فكافأ الرومان المدينة، وهي لا تزال مدينة حرّة حتّى يومنا هذا، وتملك مساحات شاسعة من الأراضي، بعضها منذ القدم، وبعضها الآخر أهداه لها الرومان. فالكيزيكيون فعلاً يملكون شطراً من طروادا، وعلى وجه التحديد، الشطر الممتدّ وراء نهر إيسيب،

وحول زيليا، إضافة إلى سهل أدراستيا، كما يمتلكون أيضاً جزءاً من بحيرة داسكيليتيدا (ويملك البيزنطيون جزءها الآخر). وعدا عن دوليونيدا وميغدونيدا تخضع لسلطانهم أيضاً منطقة شاسعة تمتدّ حتّى بحيرة ميليتوبوليتيدا وبحيرة أبوللونياتيدا مباشرة. ويجري عبر هذه المنطقة نهر ريندااك الذي تقع منابعه في أزانيتيدا. ويستقبل ريندااك بعد ذلك بين ما يستقبل من الأنهار التي تجري في ميسيا الأبريتينية نهر ماكيستوس (الذي ينبع من أنكيرا الواقعة في أباسيتيدا)، ثمّ يصبّ في البروبونتيدا قبالة جزيرة بيسبيكوس. ويعلو في جزيرة الكيزيكيين هذه جبل أرتاكا الذي تكسوه غابات جيّدة. وتقع أمام الجبل جزيرة تحمل اسمه عينه، وعلى مقربة من هنا تقع رأس بحرية تدعى ميلان، على الطريق إذا أبحرت من كيزيك إلى برياب.

12- ومن مدن فريجيا إيبيكتيت المدن الآتية: أزانا، وناكوليا، وكوتيايوس، ودوريليوس، وكادا (مع أن بعضهم يعيد كادا لميسيا)، وميدايوس. وتمتدّ ميسيا في عمق البلاد من أوليمبينا حتّى بيرغامينا والسهل الذي يدعى كايكا. فهي على هذا النحو، تقع بين جبل إيّدا وكاتاكيكاومينا[16] التي يعيدها بعضهم لميسيا، وبعضهم الآخر لميونيا.

13- وتمتدّ فوق فريجيا إيبيكتيت نحو الجنوب، فريجيا الكبرى التي تترك على يسارها بيسينونت، ومنطقة الأوركاأوركيين، وليكاونيا، وتترك على يمينها الميونيين، والليديين، والكاريين. وتتضمّن فريجيا إيبكتيت أيضاً ما يدعى فريجيا باروريا[17]، وفريجيا التي عند بيسيديا، والمنطقة المتاخمة لأموري، وإيفمينيا، وسينادا، ثمّ آفاميا كيبوت، ولاوديكا. وهذه المدن الثلاث الأخيرة، هي أكبر مدن فريجيا. وتقع على مقربة منها مدن صغيرة أخرى، وأماكن أخرى، [بينها][18] أفروديسيادا، وكولوسّا، وثيميسوني، وساناي، وميتروبوليس، وأبوللونيادا؛ وإلى الأبعد منها تقع بيلتا، وتابا، وإيفكاريبا، وليسيادا.

14- وفي فريجيا باروريا شيء ما يشبه السلسلة الجبلية التي تمتدّ من الشرق إلى الغرب. وعند سفوحها على الجانبين ينبسط سهل شاسع. وعلى مقربة منه تقع مدينتان: إلى الشمال فيلوميلوس، وعلى الجانب الآخر أنطاكيا التي في بيسيدا؛ وتقع الأولى في السهل، بينما تقوم الثانية فوق تلّ (فيها مستعمرة رومانية). أمّا أنطاكيا فقد بناها الماغنيتيون الذين كانوا يسكنون على مياندرس. وحرّر الرومان هذه المدينة من سلطة الملوك حينما منحوا إيفمين[19] ما تبقّى من آسيا على هذا الجانب كلّه. وكان يوجد

هنا كهنوت ما يدعى كهنوت مين أركيوس[20]، ومعه كثرة كثيرة من العبيد المعبديين والأراضي المقدّسة. وبعد وفاة أمينتا قضى على هذا الكهنوت مبعوثون أُرسلوا للإشراف على تركته. أمّا سينادا فهي مدينة صغيرة يمتدّ أمامها سهل مزروع بأشجار الزيتون يصل طوله إلى ما يقارب 60 مرحلة. وتقع وراءه قرية دوكيميا ومقلع لحجارة المرمر السينادي (هكذا يدعوه الرومان، مع أن السكّان المحلّيين يدعونه «دوكيمي» أو «دوكيمبيوسي»). وفي بادئ الأمر كانوا يستخرجون من المقلع فقط كسرات صغيرة من المرمر، أمّا الآن وبسبب شغف الرومان بالبذخ، باتوا يقطعون أعمدة كبيرة قطعة واحدة تشبه من حيث تنوّع ألوانها مرمر الأليباسر. وعلى الرّغم من أنّ نقل مثل هذه الشحنات الثقيلة إلى البحر يمثل صعوبة كبيرة، إلاّ أنهم مع ذلك ينقلون إلى روما أعمدة وصفائح مرمرية فائقة الجمال.

15- وتعدّ أفاميا مركزاً تجارياً كبيراً في آسيا، فهي تشغل المركز الثاني بعد إفسس. وهي فعلاً نقطة مشتركة لإعادة شحن البضائع الآتية من إيطاليا واليونان. وتقع أفاميا على مصبّ نهر مارسيا الذي يجري عبر وسط المدينة؛ وتقع منابع هذا النهر داخل حدود المدينة. ويندفع تياره صاخباً إلى ضواحي المدينة ليلتقي بعد ذلك مع نهر مياندرس الذي كان قد استقبل قبل ذلك رافداً آخر، هو نهر أورغا، ثمّ يجري هادئاً ساكناً عبر السهل. ومن هنا يجري مياندرس بعد أن تحوّل إلى نهر كبير، عبر فريجيا أوّلاً، ثمّ يشكّل حدود كاريا وليديا في السهل الذي يدعى سهل مياندرس. وهنا يتعرّج مجراه كثيراً إلى درجة أنهم يدعونَ كلّ منعرج «مياندرس». وقبيل نهايته يجري مياندرس عبر كاريا نفسها، التي يشغلها الإيونيون الآن، ثمّ يصبّ في البحر بين ميلتوس وبريينا. وينبع هذا النهر من تلّ يدعى كيلينا حيث تقع هناك مدينة تحمل الاسم عينه. وكان أنطوخ سوتير قد هجّر سكّان كيلينا إلى أفاميا المعاصرة التي دعاها الملك على اسم أمّه، أبامي التي كانت ابنة أرتاباز التي تزوّجها سلوقس نيكاتور. وترتبط بهذه الأماكن روايات أسطورية عن أوليمب ومباريات مارسيوس وأبوللون. وتقع إلى الأعلى من كيلينا بحيرة ينمو على ضفافها قصب صالح لصناعة مباسم الناي. ومن هذه البحيرة ينبجس منبعا النهرين: مارسيا ومياندرس.

16- ولم تكن لاوديكا من قبل مدينة لها أهمية تذكر، لكنّها في أيامنا هذه وفي زمن آبائنا اتسعت وتمددت، مع أنها عانت من الحصار الذي ضربه عليها ميتريدات إيفباتور. لكنّ خصوبة تربة البلاد وبعض مواطنيها الأثرياء هيأوا الشروط الملائمة لنموّ

المدينة وازدهارها: في الأوّل هيرون الذي زيّن المدينة بكثير من الأبنية التي بناها تقدمة لها، وترك للشعب تركة تقدّر بأكثر من 2000 تالانت من الفضّة؛ ثمّ تلاه الخطيب زينون وابنه بوليمون الذي نال من أنطونيو ثمّ من قيصر أغسطس مرتبة ملكية لقاء إقدامه وبسالته. وتسرح في ضواحي لاوديكا أغنام تتميّز بنعومة صوفها وروعته (متفوّقة في هذا حتّى على الأغنام الميلتوسية)، ولونه الذي يشبه لون جناح الغراب[21]، ويحقّق السكّان من هذا واردات كبيرة، وكذلك الكولوسيون الذين يعيشون على مقربة ويعملون بصبغ الصوف بلون يحمل اسمهم[22]. ويلتقي بنهر مياندرس هنا نهر كابروس ونهر ليك. وهذا النهر الأخير نهر كبير جدّاً؛ ومنه دعيت المدينة لاوديكا التي على ليك. ويعلو فوق المدينة جبل قدموس، ومنه ينبع نهر ليك، ونهر آخر يحمل اسم الجبل عينه. ويجري القسم الأكبر من نهر ليك تحت الأرض، ثمّ يخرج إلى السطح ليلتقي مع أنهار أخرى ليشير بذلك إلى أن هذه المنطقة مليئة بالأخاديد وعانت من هزّات أرضية قوّية. وتعاني لاوديكا من الهزّات الأرضية أكثر من أيّ منطقة أخرى، وتقع في المنطقة المجاورة مدينة كارورا.

17- وتشكّل كارورا حدود فريجيا وكاريا. وهي قرية فيها نُزُلٌ للإقامة وينابيع مياهها حارّة، يقع بعضها في نهر مياندرس، وبعضها الآخر على ضفافه. ويحكى أن صاحب وكر للموبقات نزل يوماً في هذه النُّزل مع حشد من النساء، فوقعت هزّة أرضية ليلاً أودت به وبالنسوة اللواتي كنّ معه. وحقيقة الأمر أنّ كلّ المنطقة القريبة من مياندرس وصولاً حتّى الشطر الداخلي من البلاد، تعاني من الهزّات الأرضية وحفر الكهوف الجوفية بفعل النار والماء. وبنية الأرض هذه حاضرة في المدى الممتدّ من السهول حتّى «هاردنيوس»[23]، وعلى وجه التحديد «هارونيوس» التي عند هيرابوليس، وعند أهاراكي في نيسايدس، وعند مغنيسيا وميونت. فالتربة هنا رخوة وهشة، ومليئة بالأملاح، وسريعة الاشتعال[24]. وقد يكون هذا هو سبب تعرّج مياندرس، لأنه غالباً ما يغيّر مجراه، ويحمل معه إلى الأسفل كميّات كبيرة من الطمي، فيرميها في هذا المكان من ضفّتيه أو ذاك، أمّا باقي الطمي فيجرفه النهر إلى البحر. وفي واقع الأمر أن مياندرس حوّل بريينا بالطمي الذي كان يحمله من مدينة تقع على البحر مباشرة إلى مدينة تبعد عنه 40 مرحلة.

18- لقد دعيت فريجيا «كاتاكيكاومينا» التي يملكها الليديون والميسيسيون، باسمها هذا على الأساس الآتي: في مدينة فيلاديلفيا المجاورة لها حتّى

جدران المنازل لا يركن إليها لأنها تتعرّض يومياً للاهتزاز وتظهر فيها التشققات. ويراقب السكّان على مدار الساعة اهتزاز التربة، ويبنون منشآتهم آخذين هذه الظاهرات بعين الحسبان. وبين المدن الأخرى التي عانت من الهزّات الأرضية المتواترة قبل حملة ميتريدات، مدينة أفاميا، ولمّا جاء الملك إلى هذه البلاد ورأى أن المدينة مهدّمة، وهبها 100 تالانت لإعادة إعمارها. وبحسب الروايات، أنّ حدثاً مماثلاً كان قد وقع في زمن الإسكندر. ولذلك كان من الطبيعي أن يعبد الناس هنا بوسيدون، مع أنهم يعيشون بعيداً عن البحر، وقد دعيت المدينة كيلينا[25]، إمّا تيمّناً باسم كيلينوس بن بوسيدون وكيلينو، وهي إحدى الدانائيدس، أو أخذت اسمها من الحجر ولون السواد الذي تسبب الحريق به. ولا ينبغي أن نرى في الروايات التي تروى عن جبل سيبيل وانهياره روايات أسطورية، لأنّ الهزّات الأرضية في زمننا هذا دمّرت مغنيسيا الواقعة على سفوح هذا الجبل، وقد عانت منها في مختلف الأماكن ساردا وأهم المدن الأخرى. لكنّ الإمبراطور الحالي[26] أعاد بناءها وقدم الموارد اللازمة لهذه المدينة ولسكّان لاوديكا، وهذا ما فعله والده قبله حينما نزلت الكارثة بسكّان مدينة ترالاّ (عندما انهار الجمنازيوم وأجزاء المدينة الأخرى).

19- كما يمكننا أن نسمع روايات المؤرّخين القدماء عن هذا، منها على سبيل المثال رواية كسانثوس مؤلّف تاريخ ليديا الذي يروي عن صروف القدر التي عانت هذه البلاد منها، وهذا ما أشرنا إليه في مكان ما من وصفنا السابق[27]. وفي واقع الأمر إنهم ينقلون إلى هنا مسرح أحداث أساطير «أهوال» تيفون، وأساطير الأريميين مزامنين إياها مع «كاتاكيكاومينا»[28]. وينسب المؤرّخون مثل هذه الخاصيات من غير تردد إلى كلّ المنطقة الواقعة بين مياندرس والليدين، إن بسبب كثرة البحيرات والأنهار، أو بسبب كثرة الكهوف في الأرض فالبحيرة الواقعة بين لاوديكا وأفاميا، مثلها مثل البحر[29]، تطلق أبخرة ملوّنة رائحتها كرائحة البالوعات[30]. ويروى أنهم يرفعون دعاوى قضائية ضدّ نهر مياندرس في كلّ مرّة يجرف فيها الأراضي ويعبث بمعالم حدود البلاد؛ وبعد أن يدان مياندرس تفرض بحقه غرامة مالية تصرف من أجور النقل عبره.

20- ويقع بين لاوديكا وكارورا معبد يدعى معبد مين الكاري، ويحظى هذا المعبد بتبجيل واحترام استثنائيين. وفي أيامنا هذه نشأت هناك مدرسة كبيرة للأطباء الهيروفيليين[31] أدارها زيوسكيدس، ثمّ الإسكندر بن فيلاليت، وكما كانت الحال

عليه في زمن آبائنا، كذلك الآن أسّس هيكيسيوس في سميرنا مدرسة إراسيستراسية(32). لكنّها لم تعد موجودة الآن بالشكل الذي كانت عليه سابقاً(33).

21- ويأتي الكتّاب على ذكر بعض القبائل الفريجية الأخرى أيضاً، بيد أنه لا يمكن العثور على أيّ منها الآن في أيّ مكان كان: قبيلة البيريكينتيين مثلاً. ويقول ألكمان:

لقد عزف اللحن الفريجيّ، اللحن الكيربيسيّ.

(المقطع 84، كروزيوس)

وثمّة كهف في الأرض معروف بأبخرته المؤذية، يدعى كيربيسيّاً أيضاً. ويمكن فعلاً أن نرى هذا الكهف، لكنّ القبيلة التي تسكن ذلك المكان، لم تعد تدعى بهذا الاسم. وفي «نيوبيا» يخلط إيسخيليوس بين مختلف القبائل والأمكنة. فنيوبيا تقول مثلاً، إنها ستتذكر دوماً منزل تانتالوس:

... الذي على التلّ الإيديّ،

حيث مذبح لزيوس الأب هناك

(المقطع 162، 2، ناؤوك)

وتقول أيضاً:

سيبيل في الأرض الإيديّة؛

(المقطع 163، ناؤوك)

أمّا تانتالوس فيقول:

لقد اجتزت هذا الحقل برحابة عشرة أيام طريقه

في الأرض البيريكينتية، على أطراف أدراستيا،

حيث إيدا يضج بخوار الثيران، وثغاء الغنم

والسهل كلّه مخبول بإريختيوس.

(المقطع 152، 2، ناؤوك)



الكتاب الثالث عشر

الفصل الأول

1- فلينته هنا وصف فريجيا. لكنني بالعودة مرّة أخرى إلى البروبونتيدا والساحل المتاخم لإيسيب، سوف ألتزم الترتيب السابق لوصفي. فأوّل بلاد على هذا الساحل هي طروادا، ومع أنّ هذه البلاد هي الآن أطلال مهجورة، إلاّ أنّ ما يقع على يسارها يتطلّب وصفاً شاملاً ودقيقاً. ولذلك ينبغي عليّ أن أعتذر وأرجو القارئ ألاّ يلقي على عاتقي مسؤولية الإسهاب في الوصف، بل على أولئك الذين تتملّكهم رغبة شديدة بالتعرّف إلى الأماكن القديمة الشهيرة. ويطول الوصف كذلك لأنّ البلاد مسكونة بكثرة من الإغريق والبرابرة، عدّاك عن أن المؤرّخين ينقلون معطيات متباينة عن الأماكن عينها والأشياء عينها، ويكتبون أشياء مبهمة في أحيان كثيرة، الأمر الذي يؤدّي بدوره إلى طول الوصف. وأوّل الكتّاب الذي يرغمك على إنشاء فرضيات بخصوص أكثر أخباره هو هوميروس. وينبغي أن نتأمّل في أخباره هذه كما في المعطيات التي ينقلها الكتّاب الآخرون أيضاً، لنعطي في أوّل الأمر لمحة عامّة عن طبيعة المكان.

2- يمتدّ ساحل بروبونتيدا من منطقة كيزيك والأماكن التي على إيسيب وغرانيكوس وصولاً إلى أبيدوس وسيستوس، بينما تمتدّ من أبيدوس حتّى ليكتوس المناطق الواقعة عند إيليون، وتينيدوس، وإسكندرية طروادا. ويرتفع فوق هذه الأراضي كلّها جبل إيدّا الذي يمتدّ حتّى ليكتوس. ومن ليكتوس حتّى نهر كايك وإلى كانا تأتي المناطق المحيطة بآسوس، وأدراميتوس، وأتارنيوس، وبيتانا، والخليج الإيلايتي. وعلى طول هذه الأماكن كلّها تمتدّ جزيرة الليسبيين التي تقع قبالتها؛ ثمّ تأتي بعد ذلك مباشرة المناطق التي تحيط بكيما حتّى جيرم وثوكيا؛ وهذه الأخيرة هي أوّل إيونيا، ونهاية إيوليدا. وفي توضّع الأماكن هذا، يوحي لنا الشّاعر بأن الطرواديين

امتلكوا المنطقة حتّى نهر كايك؛ وقد انقسمت بلادهم إلى 8 أو 9 ممتلكات مستقلّة. غير أنّ قوى القبيلة الداعمة الأخرى تحسب بين الحلفاء.

3- لكنّ أحدث الكتّاب، على الضدّ من هذا لا يشيرون إلى هذه الحدود، ويعطون المصطلحات مغزى مغايراً، لأنهم يجيزون عدداً أكثر من الأجزاء. وقد شكّلت المستعمرات الإغريقية السبب الرئيس لهذا التباين. غير أنّ مسؤولية المستعمرات الإيونية أقلّ (لأنّ إيونيا تقع بعيداً عن طروادا)، أمّا المستعمرات الإيولية فمسؤوليتها كاملة، لأنها كانت تنتشر على امتداد البلاد كلّها، من كيزيكينا حتّى كايك، وشغلت حتّى المنطقة الواقعة بعد ذلك بين نهريّ كايك وجيرم. وكما يقولون، فإن حركة الاستعمار الإيولية هي فعلاً أقدم من الإيونية بأربعة أجيال، لكنّ بعضهم أجاز وجود فواصل زمنية أطول. فأوريستوس وضع بداية الحملة؛ وبعد أن توفّي البطل ورثه في أركاديا ابنه بينثيلوس الذي وصل حتّى تراقيا بعد مضيّ 60 عاماً على حرب طروادا، تقريباً لدى عودة الهيراقليين إلى البيلوبونيز؛ ثمّ قاد ابنه أرخيلايوس حملة الإيوليين على كيزيك المعاصرة عند داسكيوس؛ ثمّ توغّل ابنه الأصغر غراسوس حتّى نهر غرانيكوس، لأنه كان يمتلك تجهيزات أفضل، وجّه القسم الأكبر من قواته إلى ليسبوس واستولى عليها. وفي الوقت نفسه كان يحذو حذو بينثيلوس كليف بن دوروس، ومالايوس حفيدا آغاممنون ويجمعان القوات أيضاً؛ لكنّ أسطول بينثيلوس كان قد أبحر من تراقيا إلى آسيا، أمّا كليف ومالايوس فقد صرفا وقتاً طويلاً عند لوكريدا وجبل فريكوس، ولم يتسنّ لهما أن يتوجها إلى هناك إلاّ فيما بعد، فأسّسا كيما الفريكوسية، التي دعيت بهذا الاسم تيّمناً بالجبل اللوكري.

4- وبما أنّ الإيوليين انتشروا على امتداد البلاد كلّها، التي كنت قد قلت إن الشّاعر دعاها طروادية، فإن فريقاً آخر من الكتّاب يدعو البلاد كلّها إيوليدا، وفريق آخر يدعو شطراً منها فقط بهذا الاسم، ولا يتّفق أيّ من الفريقين مع الآخر اتّفاقاً تامّاً في أيّ شيء. فهوميروس يرى بداية طروادا في مكان على البروبونتيدا من نهر إيسيب[1] مباشرة، بينما يقلّص إيفدوكس حدودها لتبدأ عنده من برياب وأرتاكا، من موقع على جزيرة الكيزيكيين يقع قبالة برياب؛ ويقلّص داماستوس حدود هذه البلاد أكثر، إذ يجعل بداية حدوها عند باري؛ ولا يسير فيها إلاّ حتّى ليكتوس؛ أمّا الكتّاب الآخرون، فلهم موقف مغاير أيضاً. فكارون اللامبساكي يقلّص امتداد البلاد 300

مرحلة أخرى، إذ يبدؤها من براكتيوس (لأن المسافة من باري إلى براكتيوس 300 مرحلة)؛ ويمضي بحدود البلاد في غضون ذلك حتّى أدراميتوس. ويبدأ سكيلان الكارياندي من أبيدوس. وعلى النحو عينه يؤكّد إيثور أنّ إيوليدا تمتدّ من أبيدوس حتّى كيما، لكنّ آخرين يحدّدون حدودها على نحو مغاير.

5- يتحدّد موقع طروادا، بالمعنى الدقيق للكلمة، على أفضل وجه بموقع إيدّا، وهو جبل عال يتّجه غرباً ونحو البحر الغربي، لكنّه ينعطف قليلاً نحو الشمال والساحل الشمالي. وهذا الساحل هو ساحل البروبونتيدا من مضيق أبيدوس حتّى نهر إيسيب ومنطقة الكيزيكيين، بينما البحر الغربي، هو الهليسبونت الخارجي وبحر إيجة. ولإيدّا ذيول كثيرة، وهو يشبه من حيث الهيأة، السكولوبيندروس[2] ويحدّده موقعان طرفيان: الرأس البحرية التي عند زيليا من جهة، والرأس البحرية التي تدعى ليكتوس من جهة أخرى؛ وتنتهي الأولى في عمق البلاد إلى الأعلى قليلاً من المنطقة الكيزيكية؛ وزيليا تعود الآن فعلاً للكيزيكيين، بينما تمتدّ ليكتوس حتّى بحر إيجة وتقع على الطريق البحرية إذا أبحرت من تينيدوس إلى ليسبوس:

سرعان ما رأوا إيدّا، أمّ الوحوش الغزيرة المياه،

عند ليكتوس التاركة البونتس...

(الإلياذا XII، 19)

وهيبنوس وهيرا على وجه التحديد، ويحدّد الشّاعر موقع ليكتوس في غضون ذلك بما يتوافق وواقع الأشياء، فهو محقّ عندما يرى أنّ ليكتوس جزء من إيدّا، مفترضاً أنها أوّل مكان ينزل فيه من البحر الصاعدون إلى إيدّا؛ وأنّ إيدّا «غزير المياه» لأنّ هذا الجانب من الجبل فيه كثرة كثيرة من الينابيع. وهذا ما تدلّ عليه كثرة الأنهار،

التي تنحدر من جبال إيدا إلى البحر الصاخب،

ريسوس، هيبتابوروس...

(الإلياذا XII، 19)

والأنهار التي تأتي بعدها[3] ويأتي الشّاعر على ذكرها، ويمكن أن نراها الآن في أيامنا هذه. وفي الوقت الذي يسمّي فيه أقصى الذيول على جانبيّ ليكتوس[4] وزيليا[5]، فإنه يميّز كلاً منها عن قمّة جبل غارغاروس التي يدعوها «الشغفة»[6]. وحتى يومنا هذا يرونك مكاناً في أعلى أجزاء إيدّا يدعى غارغاروس، ومنه أخذت اسمها المدينة

الإيولية غارغارا. وعلى هذا النحو تقع بين زيليا وليكتوس ابتداء من البروبونتيدا المناطق التي تمتدّ حتّى مضيق أبيدوس أوّلاً، ثمّ المناطق التي تمتدّ حتّى ليكتوس خارج البروبونتيدا.

6- وإذا ما تجاوزت ليكتوس ينبسط أمامك خليج رحب يشكّله إيدّا (الذي يتراجع نحو البرّ) وكانا، وهي رأس بحرية تقع على جانبيّ ليكتوس. ويدعو بعضهم هذا الخليج خليجاً إيدّياً، ويدعوه آخرون أدرميتينياً. وتقع فيه مدن إيولية، كما كنت قد قلت[7]، تصل حتّى مصبّ جيرم. وأنا كنت قد أشرت في أجزاء عملي هذا السابقة[8] إلى أن الطريق جنوباً بالنسبة للمبحرين من بيزنطا تقع على خطّ مستقيم، في الأوّل إلى سيستوس وأبيدوس عبر وسط البروبونتيدا، ثمّ على طول ساحل آسيا حتّى كاريا. وينبغي أن تؤخذ هذه الفرضية بعين الحسبان، عندما نستمع إلى الوصف الذي يلي؛ فإذا كنت أذكر خلجاناً معروفة على الساحل، فإنه ينبغي أن نفكّر بالرؤوس البحرية التي تشكّلها وتقع على الخطّ نفسه، كما لو كانت على دائرة عرض ما.

7- ويفترض الذين درسوا هذه المادّة[9] دراسة معلّلة وافية استندت إلى معطيات الشاعر، أن هذا الساحل كلّه كان خاضعاً للطرواديين؛ مع أنه كان مقسماً إلى 9 ممتلكات، لكنّه في زمن الحرب الإيليونية كان تحت سلطة بريام وقد دعي طروادا. وهذا واضح من بعض أقوال الشاعر. فعندما رأى أخيليس وقواته بادئ الأمر أن أسواراً حصينة تحيط بسكّان إيليون، بدؤوا العمليات القتالية خارج الأسوار، فشنّوا غزوات على الضواحي ونهبوها:

لقد خرّبت بسفني اثنتي عشرة مدينة كثيرة السكّان،

وأخذت في البرّ إحدى عشرة في الأرض الطروادية الغنية.

(*الإلياذا* IX، 328)

فأخيليس يدعو طروادا بالبلاد التي نهبها؛ لكنّه نهب في الوقت نفسه أماكن أخرى والمناطق الواقعة قبالة ليسبوس بجوار طيبة، وليرنيس، وبيداس، [10] التي تعود لليليغيين، ونهب أيضاً أملاك يفريبيلوس بن تيليث:

هكذا أهلك يفريبيلوس بن تيليث، بالنحاس المهلك.

(*الأوذيسا* XI، 518)

إنّ نيوبتوليموس هو على وجه التحديد الذي قتل يفريبيلوس البطل. فالشّاعر يقول بعد ذلك بوضوح، إنّ هذه المناطق وليسبوس نفسها قد خرّبت ونهبت:

... عندما دمّر ليسبوس المزدهرة،

(الإلياذا IX، 129)

كما نهب أيضاً بيداس وليرنس،

(الإلياذا XX، 92)

دمّر ليرنيس نفسها وأسوار طيبة العالية.

(الإلياذا II، 691)

وفي ليرنيس أُخذت بريسيدا أسيرة:

الفتاة التي أخذها من ليرنيس؛

(الإلياذا II، 690)

ولدى أسرها، كما يقول الشاعر، سقط مينيس وإيبيستروث، وهذا ما قالته بريسيدا بوضوح وهي تندب باتروكليس:

وأنا أبكي، عندما قتل إخيليس الذي يقاتل المدينة،

زوجي ودمّر مأوى مينيس، أخذت تعزّيني...

(الإلياذا XIX، 295)

وإذ يدعو الشّاعر ليرنيس «مأوى مينيس الإلهي»، فإنه يشير إلى أنّ مينيس كان حاكم هذه المدينة، وأنه سقط دفاعاً عنها. أمّا كريسيدا فقد أُخذت أسيرة من طيبة:

هاجمنا طيبة المقدّسة، مدينة الإيتونيين.

(الإلياذا I، 366)

ويقول الشاعر، إن كريسيدا[11] كانت بين الأسرى الذين سيقوا من هناك. ومن هناك كانت أندروماخا:

هناك أندروماخا...

سليلة البيت الثري، ابنة إيثيون الرائعة.

هذا الإيثيون الذي كان يقطن عند سفح بلاكوس

الكثيف الشجر، في طيبة البلاكوسية، سيّد الرجال الكيليكيين.

(الإلياذا VI، 395)

إنّ هذه الملكية الطروادية الثانية بعد ملكية مينيس. وهذا ما تتوافق معه كلمات أندروماخا:

هيكتور، يالفجيعتي بك، أنا التاعسة!

ولدنا ليكون مصيرنا واحداً: أنت في إيليون،

في بيت بريام، وأنا السيّئة الطالع، في طيبة؛

(*الإلياذا* XXII، 477)

لكنّهم يفترضون إنه ينبغي ألاّ نفهم هذا المقطع بمعناه الدقيق المباشر، خاصة قولها: «أنت في طروادا، وأنا في طيبة»، بل بصفته خللاً في ترتيب الكلمات بمعنى: «كلانا ولد في طروادا، أنت في بيت بريام، وأنا في طيبة». وكانت الملكية الثالثة العائدة لليليغيين، ملكية طروادية بالقدر عينه:

ابنة ألتيس العجوز،

ألتيس ملك قبيلة الليليغيين الشجعان،

(*الإلياذا* XXI، 86)

الذي أنجب بريام من ابنته ولديه ليكاون وبوليدوروس. وكذلك الأمر في «سجلّ السفن»، إذ يدعى الذين تحت حكم هيكتور طرواديين:

الطرواديون الشجعان، الذين قادهم ذو الخوذة

اللامعة، هيكتور العظيم.

(*الإلياذا* II، 816)

ويأتي بعد ذلك الخاضعون لسلطة إينياس:

في إثرهم الداردنيين الذين قادهم ابن الأنخيسيين الماجد،

(*الإلياذا* II، 819)

وقد كان هؤلاء طرواديين؛ وفي أقلّ تقدير يقول الشاعر:

إينياس! يا ناصح الطرواديين.

(*الإلياذا* XX، 83)

ويلي ذلك، الليكيون الذين كان يقودهم بانداروس، وقد دعاهم الشّاعر طرواديين أيضاً:

الرجال الذين يعيشون في زيليا، عند سفح إيدّا الكثير التلال،

المواطنون الأثرياء[12]، الشاربون مياه إيسيب السوداء،

قبيلة طروادية، قادهم رامي السهام الأفضل، بانداروس

الليكاوني.

لقد كانت هذه الملكية السادسة. وبعد ذلك كان ثمّة طرواديون أيضاً بين إيسيب وأبيدوس؛ فلم تكن المناطق الواقعة عند أبيدوس وحدها تابعة لآسيوس:

الرجال الذين يعيشون في بيركوتا ويقطنون كلّ مكان من براكتيون،

ومدن سيستوس، وأبيدوس ومواطنو أريسبا المقدّسة

الذين نظّم جحافلهم آسيوس سيّد هيرتاكيدس.

(الإلياذا II، 835)

وكان يعيش في أبيدوس ابن بريام الذي كان يرعى الجياد، ومن الواضح أنها كانت جياد والده:

لقد أصاب ديموكوون بن بريام غير الشرعي

الذي انحدر إلى بيت من أبيدوس تاركاً المهرات العدّاءة

(الإلياذا IV، 499)

وفي بيركوتا كان ابن إيكيتاون يرعى الثيران، ومن البديهي أنها لم تكن ثيران الآخرين[13]:

... وأكثر من جميعهم ابن إيكيتاون

لقد عذل ميلانيبوس الذي من قبل في بيركوتا

يرعى الثيران الملتوية القرون...

(الإلياذا XV، 546)

وهكذا فإن هذه المنطقة كانت لطروادا أيضاً، وكذلك المنطقة التي تليها وصولاً حتّى أدراستيا؛ وكان يحكمها:

ابنا ميروبس البيركوتي

(الإلياذا II، 831)

وعلى هذا النحو كان سكّان المنطقة الممتدة من أبيدوس إلى أدراستيا كلّهم

طروادیين، مع أنهم انقسموا إلى قسمين: قسم تحت حكم آسيوس، والقسم الآخر تحت حكم ولديّ ميروبس؛ وعلى النحو عينه انقسمت بلاد الكيليكيين إلى قسمين: كيليكيا الطيبيّة، وكيليكيا الليرنية؛ بيد أنه يمكن أن نلحق بهذه الأخيرة المنطقة الخاضعة لحكم يوربيلوس، والتي تقع على مقربة من كيليكيا الليرنية. ولكنّ هذه المناطق كلّها كانت تخضع لبريام، وهذا ما تشير إليه بوضوح كلمات أخيليس لبريام:

سمعنا أيها الشيخ أنك تنعّمت من قبل هنا،

بقدر ما ضّم من الشعوب موطن ماكار، وليسبوس.

وفريجيا، الإقليم الوفير الغلال، وهنا الهليسبونت اللامتناهي

(الإلياذا XXIV، 543)

8- لقد كان ذلك هو واقع الأشياء، بيد أن تغيّرات مختلفة وقعت بعد ذلك. فالمناطق المحيطة بكيزيك سكنها الفريجيون وصولاً إلى براكتيوس، وسكن التراقيون المناطق التي عند أبيدوس، وقبلهما معاً سكن هنا البيبريكيون، والدريوبيون. وسكن التريريون وقبيلة تراقية الأراضي الواقعة بعد هذه، وسكن الليديون سهل طيبة، وكانوا يدعونهم حينئذٍ ميونيين، كما سكن هنا أيضاً الذين بقوا على قيد الحياة من الميسيين الذين كانوا قبل ذلك تحت سلطة تيلين وتيثرانس. وبما أن الشّاعر وحّد إيوليدا وطروادا في كلّ واحد، وبما أنّ الإيوليين كانوا يملكون كلّ الأرض من جيرم حتّى ساحل كيزيك، وبنوا هناك مدناً، فإنني على أغلب الظنّ أملك من الأسس ما يكفي لكي أوحّد في وصفي ما يدعى الآن إيوليدا التي تمتدّ من جيرم حتّى ليكتوس، مع المنطقة التي تليها مباشرة، وصولاً حتّى إيسيب. ولكنني سأعود وأفرّق بينهما من جديد لدى وصفي التفصيلي، إذ أقارن شهادة هوميروس وآخرين، مع الواقع الراهن للأشياء.

9- إذن تبدأ طروادا بحسب هوميروس، بعد مدن الكيزيكيين ونهر إيسيب. فالشّاعر يقول عنها:

الرجال الذين يعيشون في زيليا، عند سفح إيدّا الكثير التلال،

المواطنون الأثرياء، الشاربون مياه إيسيب السوداء،

قبيلة طروادية، قادهم رامي السهام الأفضل، بانداروس الليكاوني

(الإلياذا II، 824)

كما يدعونهم ليكيين أيضاً. ويرى بعضهم أنهم يدعون أثيسيين تيمّناً ببحيرة أثيتيدا، وتحمل بحيرة داسكيليتيدا هذا الاسم نفسه أيضاً.

10- إذن تقع زيليا على أقصى منحدرات إيدّا، على بعد 190 مرحلة من كيزيك وما يقارب 80 مرحلة من أقرب بحر، حيث يصبّ إيسيب. ويذكر الشّاعر على التوالي الأماكن الواقعة على طول الساحل بعد نهر إيسيب:

لكنّ رجال أدراستيا، وبيتييا وسائر أنحاء أبيسوس

والشعب القاطن تيرييا، الجبل العالي،

أولئك قادهم أدراستوس وأمفيوس ذو الدرع الكتانية؛

وهما ولدا ميروبس البيركوتي.

وتقع هذه المناطق تحت زيليا، ويسكنها حتّى الساحل سكّان كيزيك وبرياب. ويجري قرب زيليا نهر تارسوس الذي له 20 معبراً على الطريق عينها، مثله مثل نهر هيبتابوروس الذي ذكره الشاعر[14]. وللنهر الذي يجري من نيقوميديا إلى نيقيا 24 معبراً، أمّا النهر الذي يجري من فولويا إلى إيلييا فله معابر كثيرة [....][15]، ولنهر سكافرون 25 معبراً؛ أمّا النهر الذي يجري من منطقة الكوسكينيين إلى ألاباندا، فله معابر كثيرة، وللنهر الذي يجري من تيانا إلى سولا عبر طوروس، له 75 معبراً.

11- وفوق مصبّ إيسيب على مسافة تقارب [....][16] مرحلة، يعلو تلّ يرونك عليه قبر ممنون بن تريفون. وعلى مقربة تقع قرية ممنون. ويجري بين إيسيب وبرياب نهر غرانيكوس الذي يعبر بقسمه الأكبر سهل أدراستيا، حيث هاجم الإسكندر بقواته كلّها ولاة داريوس وألحق الهزيمة بهم، واستولى بذلك على كلّ المنطقة الواقعة على هذا الجانب من طوروس والفرات. وكانت تقوم على نهر غرانيكوس مدينة سيدينا التي كانت تتبع لها ضاحية شاسعة تحمل الاسم عينه؛ لكنّها الآن أطلال مهدّمة. وتقع على حدود منطقتيّ كيزيك وبرياب منطقة هارباغيا[17] حيث اختطف غانميدس، كما يروي بعض الأساطير، مع أن أساطير أخرى تقول، إنه اختطف من عند رأس داردانوس البحرية قرب داردان.

12- وبرياب هي مدينة ساحلية وميناء، أسّسها الميلتوسيون، كما يقول بعض الروايات، وكان هؤلاء قد أرسلوا في الوقت نفسه مستعمرة إلى أبيدوس وبروكونيس؛ لكنّ روايات أخرى تقول، إن سكّان كيزيك هم الذين أسّسوها. وقد دعيت المدينة

على اسم برياب الذي كان يحظى باحترام كبير هناك؛ ثمّ نقلوا عبادته إلى هنا من أورنيوس الواقعة قرب كورينثوس، أو أنّ السكّان أخذوا يعبدون هذا الإله لأنّهم عدّوه ابن ديونيسيوس والحورية؛ فهذه المنطقة والمناطق المجاورة لها غنية جداً بكروم العنب، خاصة منطقتا البارين واللامبساكيين. وعلى أيّ حال فإن كسيراكس أعطى ثيميستوكليس مدينة لامبساك «للنبيذ». وعلى وجه العموم فإن السكّان لم يعلنوا برياب إلهاً إلاّ في زمن متأخر، لأنّ هسيود نفسه لا يعرفه؛ ويشبه برياب آلهة أتيكا: أورفانا، وكونيسالوس، وتيخون، ومن في حكمهم.

13- لقد كانت هذه البلاد تدعى أداراستييا وسهل أدراستيا تبعاً لتقليد ما يقضي بإعطاء اسمين للمكان نفسه، كما هي حال طيبة التي دعيت سهل طيبة أيضاً، ومثلها ميغدونيا وسهل ميغدونيا. وعلى حدّ قول كليسفين أن أدراستييا دعيت على اسم الملك أدراستوس الذي كان أوّل من أسّس معبد نيمسيس. وعلى هذا النحو تقع المدينة بين برياب وباري؛ وينبسط تحتها سهل يحمل اسمها، ويقوم هنا موْحى أبوللون الأكتي وأرطميس[18] [....]. وبعد تهديم المعبد نقلت موجوداته وحجارة بنائه إلى باري حيث بني مذبح بناه المعماري الشهير هيرموكريونت، وقد اشتهر المذبح بأبعاده الكبيرة وجمال بنائه. لكنّ الموْحى دمِّر، مثله في هذا مثل موْحى زيليا. ومع ذلك لا يدلّون هنا على معبد أدراستيا، ولا على معبد نيمسيس، مع أن معبد أدراستيا موجود قرب كيزيك. فأنتيماخ يقول الآتي:

توجد نيمسيس، الإلهة العظيمة التي تلقت هذا كلّه
من المغبوطين[19] تقدمة أدراستوس أوّل من بنى
لها مذبحاً على ضفّة إيسيب المقدّس؛
هناك يرفعون لها آيات التكريم تحت اسم أدراستيا

14- وباري مدينة ساحلية فيها ميناء أكبر من ميناء برياب، بل تضاعفت أبعاده على حساب ميناء برياب. لأنّ سكّان باري نالوا حظوة لدى الأتّاليين الذين كانت منطقة برياب خاضعة لسلطتهم، فاقتطعوا بإذن من الملوك الأتّاليين الشطر الأكبر من هذه الأراضي. ويروون هنا رواية أسطورية عن آصرة نسب تجمع بين الأوثيوجينيين[20] والثعابين؛ فيقولون، إن رجالهم يشفون الذين تلدغهم الثعابين وذلك بملامستهم لهم من غير توقّف، كما يفعل الرقاة؛ وفي الأوّل ينقلون الكدمة التي تسببها لدغة الثعبان إلى

أجسـادهم، ثـمّ يوقفـون الالتهـاب والألم. وبحسـب الأسـطورة أنّ مؤسّـس القبيلـة بطـل مـا كـان قـد تحـوّل مـن ثعبـان إلى إنسـان. وربّمـا كـان هـذا واحـداً مـن السـيليين الليبـيين، انتقلت «قوّته»[21] إلى عشيرته لبعض الوقت. لقد تأسّـست بـاري علـى أيـدي الميلتوسـيين، والإريثريين، والباريين.

15- وتقـع بيتيبـا[22] في بيتيونـت الـتي تقـع في منطقـة بـاري؛ ويرتفـع فوقهـا جبـل تكسوه غابة من شجر الصنوبر؛ وهي تقع بـين بـاري وبريـاب باتجـاه لينـوس، وهـو موقـع ساحلي يصيدون فيه أفضل القواقع في العالم.

16- وعلـى السـاحل لـدى الإبحـار مـن بـاري إلى بريـاب تقـع بروكـونيس القديمـة وبروكونيس الجديدة؛ وفي هذه الأخيرة مدينة ومقالع شهيرة جدّاً لحجر المرمر الأبيض. وعلـى أيّ حـال فـإن أجمـل الأعمـال الفنيـة في مـدن هـذه المنطقـة مـن العـالم، خاصـة في كيزيك، صنعت من هذا المرمر. ومن هنا تحدّر أريستوس، مؤلّف الملحمـة الـتي تـدعى ملحمة الأريماسبيين، والمخاتل الذي لا يجاريه أيّ مخاتل آخر[23].

17- أمّـا جبـل تيريبـا[24] فـإنّ بعضـهم يـرى فيـه سلسـلة جبليـة في بـيروس الـتي يشغلها الكـيزيكيـون قـرب زيليـا، حيـث كـان الليـديون، ثـمّ الفـرس ينظّمـون رحـلات الصيد الملكية؛ بينما يشير آخرون إلى هضبة تقع على بعد 40 مرحلة مـن لامبسـاك، حيث يقوم معبد والدة الآلهة الذي يحمل الاسم الديني «معبد تيريبيا».

18- ولامبسـاك مدينـة سـاحلية فيهـا مينـاء جيّـدة، وهـي مدينـة كـبيرة لا تـزال تحافظ على نفسها بحالـة رائعـة، مثلهـا في هـذا مثـل أبيـدوس. والمسـافة بينهـا وبـين هـذه الأخيرة 170 مرحلة. ويقال إنها كانت تدعى في الماضـي بيتيوسّـا، كمـا كـيوس أيضـاً. وعلـى سـاحل كيرسـونيس الآخـر تقـع مدينـة صـغيرة هـي مدينـة كـاليبوليس وتقـع هـذه الأخيرة على رأس بحرية تغوص عميقاً نحو آسيا إلى مدينـة اللامبسـاكيين، بحيـث لا يشكّل المعبر أكثر من 40 مرحلة.

19- وبين لامبساك وباري كانت ثمّة مدينة ونهـر يحمـلان اسـم بيسـوس؛ لكـنّ المدينـة دمّـرت، ونـزح سـكّانها إلى لامبسـاك، لأنـه مثلـهم مثـل سـكّان هـذه الأخـيرة، كـانوا مسـتعمرين ميلتوسـيين. لكـنّ الشّـاعر يـدعو مكـان إقـامتهم بطـريقتين: تـارة بإضافة المقطع الأوّل:

وسائر أنحاء أبيسوس

(الإلياذا II، 828)

وتارة أخرى من غيره:

... الذي في وسط بيسوس عاش،

مالك الثروات

(الإلياذا V، 612)

وهذا هو اسم النهر الآن. إن كولونا الواقعة فوق لامبساك في أعماق منطقة اللامبساكيين، هي مستعمرة للميلتوسيين؛ وثمّة كولونا أخرى خارج بحر الهليسبونت، على بعد 140 مرحلة من إيليون. ويقال إن كيكنوس يتحدّر من هناك. ويقول أناكسيمين، إن مناطق في إريتريا، وثوكيدا، وتساليا تدعى كولونا أيضاً، وفي منطقة باري توجد إيليوكولونا. ويوجد في منطقة لامبساك مكان يدعى هيرغيثوس غني بكروم العنب؛ وكانت توجد هناك من قبل مدينة تدعى هيرغيث، التي أخذت اسمها هذا عن هيرغيثا التي تقع في منطقة كيما، فهناك أيضاً كانت ثمّة مدينة تدعى هيرغيثا (بصيغة جمع المؤنث)، وهي مسقط رأس كيثالون الهيرغيثي؛ وحتى يومنا هذا يدلّون في منطقة كيما قرب لاريسّا، على مكان يدعى هيرغيثوس. ومن باري خرج نيوبتوليموس الذي لقّب غلوسّوغراف وهو من الذين يستحقون أن يشار إليهم؛ وإلى لامبساك ينتمي كارون المؤرّخ، وأديمانس، وأناكسيمين اللغوي وعالم الأرصاد، تلميذ إيبيقور؛ وحتى إبيقور نفسه بمعنى ما كان من لامبساك لأنه أقام فيها زمناً طويلاً وكانت له علاقات وطيدة مع أشهر رجال هذه المدينة مثل إيدمينييوس، وليونتيوس وأنصارهما. ومن هناك حمل أغريبا منحوتة ليسيبوس «الأسد الصريع» ووضعها في الحديقة بين البحيرة[25] ويفريبوس.

20- وبعد لامبساك تأتي أبيدوس وأماكن فاصلة يقول عنها الشاعر، إذ يجمع منطقة لامبساك مع شطر من أرض باري (لكنّ هاتين المدينتين لم يكن لهما وجود في زمن حرب طروادا):

الرجال الذين يعيشون في بيركوتا، ويقطنون كلّ مكان من براكتيون

ومدن سيستوس، وأبيدوس ومواطنو أريسبا المقدّسة

الذين نظّم جحافلهم آسيوس سيّد هيرتاكيدس،

... الذي خفّ إلى طروادا من أريسبا النائية، من

مياه سيللينس، على صهوات جياد نارية عظيمة.

(الإلياذا II، 835)

ويبدو أنّ الشّاعر يدعو أريسبا (التي يقول إنّ آسيوس جاء منها) بهذه الكلمات، مقرّ آسيوس الملكي:

... على جياد ... خفّ من أريسبا النائية،

... من مياه سيللييس.

(الإلياذا II، 838)

ولكنّ هذه الأماكن[26] مجهولة إلى درجة أنّ العلماء الباحثين يختلفون في آرائهم عنها، ما عدا كونها تقع على مقربة من أبيدوس، ولامبساك، وباري، وكون بيركوتا القديمة بدّلت اسمها.

21- وفيما يخصّ الأنهار يقول الشاعر، إنّ سيللييس يجري قرب أريسبا، هذا إذا كان آسيوس قد جاء «من أريسبا ومن مياه سيللييس». لكنّ نهر براكتيوس موجود فعلاً، بيد أنه لا وجود لمدينة بهذا الاسم، كما زعم بعضهم. وهذا النهر يجري بين أبيدوس ولامبساك. وعلى هذا النحو ينبغي أن نفهم قوله:

... ويقطنون كلّ مكان من براكتيون

(الإلياذا II، 835)

بأنه يتعلّق بالنهر، كأقواله الأخرى:

على طول كيفيس، النهر المقدّس، سكنوا

(الإلياذا II، 522)

و

حول نهر بارثينوس امتلكوا الأملاك الغرّاء

(الإلياذا II، 854)

وفي ليسبوس مدينة أريسبا التي كان سكّان ميفيمنا يملكون أرضها. وهناك نهر أريسب في تراقيا أيضاً، كما كنت قد أشرت[27]، وعلى مقربة منه يقطن الكيبرينيون التراقيون. وعلى وجه العموم يمكن العثور على كثير من الأسماء المشتركة عند التراقيين والطرواديين: مثلاً، تراقيو سكيوس، ونهر سكييوس، وسور سكييوس؛ وعند طروادا بوابات سكييوس؛ وتراقيو كسانثيا، ونهر كسانثوس في طروادا؛ ونهر إريسب الذي يصبّ في جيبر، ومدينة أريسبا في طروادا؛

ونهر ريسوس في طروادا، وريسوس ملك تراقيا. وثمّة عند هوميروس آسيوس آخر أيضاً، سمّي المذكور هنا:

آسيوس الشجاع، مروّض الجياد، خال هيكتور؛

شقيق هيكابي، الابن المقدام لديمانس،

الذي يعيش في الأرض الفريجية الخصبة، عند مياه سانغاروس.

(الإلياذا XVI، 717)

22- لقد أسّس الميلتوسيون أبيدوس بإذن من الملك الليدي هيجيس، لأنّ هذا المكان كان تحت سلطته كما طروادا كلّها؛ وحتى يومنا هذا لا تزال الرأس البحرية الواقعة قرب داردان تحمل اسم هيجاس. وتقع المدينة على ثغر البروبونتيدا والهليسبونت على مسافة واحدة من لامبساك وإيليون، 170 مرحلة تقريباً. ويقع هنا مضيق[28] عرضه سبع مراحل يفصل بين آسيا وأوروبا، وكان كسيراكس قد بنى عليه جسراً. ويدعى طرف أوروبا الذي يشكّل مضيقاً ضيّقاً عند الفاصل كرسونيس[29] تبعاً لهيأته. ويقع مكان الفاصل قبالة أبيدوس. وتعدّ سيستوس أفضل مدن كرسونيس. وبسبب مجاورتها لأبيدوس خضعت هذه المدينة للحاكم عينه، لأنّ الأملاك في تلك الأزمنة لم تكن قد تحدّدت بعد بحسب القارّات. ومع أنّ أبيدوس وسيستوس لا تبعد واحدتهما عن الأخرى أكثر من 30 مرحلة، من الميناء إلى الميناء، إلاّ أنّ اتّجاه الجسر على المضيق يميل قليلاً عن المدينتين، وتحديداً عن أبيدوس نحو البروبونتيدا، وعن سيستوس بالاتجاه المقابل. ويدعى المكان القريب من سيستوس، الذي مدّوا الجسر إليه، أبوباثرا[30]. وتقع سيستوس أبعد من ذلك، في عمق البلاد نحو البروبونتيدا، إلى الأعلى من النهر الذي ينبع منها. ولذلك فإن العبور من سيستوس أسهل، إذ تبحر مسافة قصيرة نحو برج هيرو، ومن هناك تطلق السفن بسهولة لتعبر، لأنّ التيار يساعد على العبور. أمّا الذين يعبرون من أبيدوس، فإنهم على العكس من هذا، إذ ينبغي عليهم أن يبحروا قبل ذلك مسافة 8 مراحل بالاتجاه المقابل نحو البرج المقابل لسيستوس، ومن ثمّ يعبرون منحرفين على خطّ ليس معاكساً للتيار تمام المعاكسة. وبعد حرب طروادا أقام التراقيون في أبيدوس، ثمّ الميلتوسيوس. وعندما أمر داريوس والد كسيراكس بإحراق المدن، خاصة مدن البروبونتيدا قاسمت أبيدوس المدن المعنية مصيرها المحزن. فلدى عودته من حملته ضدّ السكيثيين، أمر داريوس بأن تحرق المدن بعد أنّ علم أن الرحّل

يستعدّون لعبور المضيق والإغارة عليه لكي يثأروا منه بسبب النوائب التي أنزلها بهم؛ فقد خشي من أنّ تمدّ هذه المدن السكيثيين بالسفن لكي يعبروا المضيق. وعلاوة على التغيّرات الأخرى وتأثيرات التغيرات، شكل هذا أيضاً سبباً للإرباك في طبغرافيا هذه الأماكن. وأنا كنت قد تحدّثت عن سيستوس وكرسونيس كلّها أثناء وصفي للمناطق التراقية[31]. وينقل ثيوبومبوس أن سيستوس ليست مدينة كبيرة، لكنّها محصنّة جيّداً، وتتّصل بالميناء بسور امتداده بليفران، ولذلك، وبسبب التيار أيضاً فهي تتحكّم بالمعبر.

23- وإلى الأعلى من منطقة الأبيدوسيين في طروادا، تقع أستيرا. وهذه المدينة المدمّرة الآن هي للأبيدوسيين؛ وقد كانت في الأزمنة السابقة مدينة مستقلّة تملك ترسبات ذهبية، لكنّها شحّت الآن ونضبت مثلها مثل ترسّبات جبل تمولوس عند نهر باكتول. ويرون أنّ المسافة من أبيدوس إلى إيسيب تقارب 700 مرحلة، لكنّها أقلّ على خطّ بحري مباشر.

24- وتقع وراء أبيدوس منطقة إيليون، وساحل البحر حتّى ليكتوس، وأماكن في سهل طروادا، ومنحدرات على جبل إيدّا خاضعة لسلطة إينياس. ويدعو الشّاعر هذه المناطق بتسميتين؛ فمرّة يقول:

... الداردانيون الذين قادهم ابن الأنخيسيين الماجد،

(الإلياذا II، 819)

داعياً السكّان «داردانيين»؛ ومرّة أخرى «دارداني»:

أبناء طروادا والليكيون، وأنتم الدارداني المصارعون...

من الواضح أنّ الشّاعر يذكر داردانيا التي كانت قديماً هنا:

زيوس حامل الرعد، أنجب جدّنا داردانوس،

إنه هو الذي أسّس داردانيا

(الإلياذا XX، 215)

ولم يبق هناك الآن أيّ أثر من المدينة.

25- بحسب زعم أفلاطون[32] أن ثلاثة أشكال من العيش الحضاري ظهرت بعد الطوفان: الأوّل على قمم الجبال، وهو بدائي متوحّش، لأنّ الناس كانت لا تزال تخاف الماء الذي كان لا يزال على سطح السهول؛ وتطوّر الثاني على منحدرات الجبال

إذ بات الناس أكثر جرأة بعد أن بدأت المياه التي تغمر السهول تجفّ؛ ونشأ الشكل الثالث في السهول. ولعلّنا نستطيع أن نتحدّث على نحو مماثل عن شكل رابع وخامس، بل أكثر من ذلك؛ فشكل الحضارة الأخير ظهر على السواحل البحرية، وعلى الجزر، بعد أن تخلّص الناس نهائياً من مثل هذا الخوف. والحقيقة أن درجة أكبر أو أقلّ، من العزم على الاقتراب من البحر، يبدو أنها ترغم على افتراض بعض التباينات في درجات التحضّر والطبائع أيضاً، ومثلها أيضاً في الإقدام والتوحّش اللذين يشكّلان إلى حدّ ما لحظة الانتقال إلى الدرجة الثانية من العيش المتحضّر. ولكنّ هذه الدرجة تعرف أيضاً تباينات بين المتوحّشين وأشباه المتوحّشين، والمتحضّرين. وابتداء من هؤلاء الأخيرين ينتهي التغيّر التدرّجي للتسميات بالتحوّل إلى الطبائع المدينية والرقيقة المتأنّقة بما يتوافق وتبدّل الطبائع نحو الأحسن تبعاً لتغيير مكان الإقامة ونمط العيش. وهذه التبدّلات هي التي يتوقّعها الشّاعر، بحسب قول أفلاطون[33]، عندما يسوق نمط عيش السيكلوب مثالاً على المستوى الأوّل من الحضارة، فقد كان هؤلاء يقتاتون على الثمار البرية ويقيمون في الكهوف فوق قمم الجبال:

... الأرض هناك

خصبة سخية، من غير حراثة وبذار تعطيهم

كلّ شيء...

وليس بينهم اجتماعات شعبية، ولا مجالس مشتركة

في كهوف مظلمة، أو فوق القمم الجبلية الشاهقة

يعيشون أحراراً؛ كلّ يسود على زوجته وأولاده

بلا حسيب ولا رقيب

(*الأوذيسا* IX، 109، 112-114)

ومثال الشّاعر على المستوى الثاني، هو نمط العيش في زمن داردانوس:

هو الذي أسّس داردانيا؛ ولم تكن إيليون الشهيرة

هذه قد قامت بعد كملتقى بين الشعوب.

كانوا لا يزالون يقيمون على منحدرات إيدا الغزيرة المياه.

(*الإلياذا* XX، 216)

ويعدّ نمط العيش في السهول زمن إيلوس[34] نموذج المستوى الثالث؛ فإيلوس هو بحسب الرواية مؤسّس إيليون، التي أخذت اسمها من اسمه. وقد دفنوه في وسط السهل لأنه أوّل من تجرّأ وبنى قرية في السهول:

لقد تفرّقوا حشوداً، وعلى مقربة من قبر إيلوس

الدارداني القديم في وسط الأرض السهلية، عند

شجرة التين البرّية فرّوا هاربين.

(*الإلياذا* XI، 166)

ولكن حتّى إيلوس لم يجرؤ تماماً بعد على هذا؛ فهو لم يؤسس للمدينة في المكان الذي تقع فيه الآن، بل إلى الأعلى بما يقارب 30 مرحلة نحو الشرق ونحو جبل إيدّا ودارداني، في المكان الذي يدعى الآن «قرية الإيليونيين». وكان الإيليونيون المعاصرون الذين دفعهم حبّ الرفعة قد رغبوا في أن تكون قريتهم هي إيليون القديمة، وهذا ما نبّه العلماء الذين يبنون رؤاهم على شعر هوميروس إلى دراسة هذه المسألة؛ لأنه من الواضح أن هذا المكان ليس إيليون الهوميروسية البتّة. وأوضح علماء آخرون استناداً إلى البحث والتقصّي، أنّ المدينة بدّلت موقعها عدّة مرات إلى أن استقرّت أخيراً في المكان الذي تقع فيه الآن، منذ عهد الملك كريز تقريباً. وأنا أرى أنّ حركات النزوح التي كانت تحدث عندئذٍ نحو الأماكن المنخفضة تدلّ أيضاً على درجات متباينة من نمط العيش ومستويات حضارية مختلفة. ولكنّ هذه المسألة ستبحث في وقت آخر.

26- ويقولون، إن مدينة الإيليونيين المعاصرين كانت من قبل قرية فيها معبد لأثينا صغير ولا أهمية له. ولكنْ، عندما جاء الإسكندر إلى هنا بعد النصر الذي حقّقه عند نهر غرانيكوس[35]، زيّن المعبد بتقدمات قدّمها فيه ودعا القرية مدينة، وأمر الذين كان قد عهد إليهم برعاية المدينة أن يعيدوا بناءها ويعلنونها مستقلّة ومعفاة من تأدية الإتاوات؛ وبعد أن دمّر الفرس أرسل إلى هنا رسالة تعاطف وعد فيها ببناء المدينة العظيمة، وجعل معبدها معبداً شهيراً، وتأسيس ألعاب مقدّسة[36] فيها. وبعد وفاة الإسكندر أظهر ليسيماخ عناية خاصة بالمدينة[37]: أعاد بناء المعبد، وأحاط المدينة بسور طوله 40 مرحلة تقريباً، وأسكن فيها سكّان مدن الضواحي القديمة التي كانت قد تهدّمت. وفي ذلك الوقت عهد إليه الاهتمام بالإسكندرية أيضاً، والحقيقة أن أنتيغون هو الذي كان قد أسّس هذه المدينة ودعاها أنتيغونيا، لكنّها بدّلت اسمها

الآن. فقد رأى ليسيماخ أن الواجب المقدّس لخلفاء الإسكندر يقضي بأن يبنوا مدناً تحمل اسمه أوّلاً، ثمّ بعد ذلك مدناً تحمل أسماءهم هم . وقد بقيت الإسكندرية فعلاً واتسعت وازدهرت، وهي تضمّ الآن مستعمرة رومانية وتعدّ واحدة من أبهى مدن العالم.

27- لقد كانت إيليون المعاصرة بدورها بنية ما تشبه المدينة- القرية عندما دخل الرومان آسيا لأوّل مرّة وطردوا أنطوخ الكبير من المناطق التي على هذا الجانب من طوروس. وعلى وجه العموم فإن ديميتري السكيبسيسي الذي زار هذه المدينة حينئذٍ وكان لا يزال في سنّ المراهقة، وجد منازلها مهملة وليس لها حتّى سقوف قرميدية. وبحسب هيجيسياناكس إنّ الغلاطين الذين نزحوا من أوروبا، جاؤوا إلى المدينة وهم في حاجة إلى مكان حصين، ولذلك تركوا المدينة من فورهم لأنها لم تكن تتوفّر على أيّ تحصينات. ولكنّ المدينة عرفت فيما بعد عملية إعادة بناء واسعة. وبعد ذلك دمّرها الرومان الذين كان ثيمبريا يقود قواتهم، فقد حاصر هذا المدينة واستولى عليها في أثناء الحرب ضدّ ميتريدات. وكان ثيمبريا قد أُرسل إلى هنا بصفته قاضياً لدى القنصل فاليريوس فلاكوس الذي عيّن قائداً للقوات في الحرب على ميتريدات[38]. لكنّ ثيمبريا أعلن العصيان، فقتل القنصل في بيثينا وتولّى قيادة القوات بنفسه، ثمّ تحرّك إلى إيليون؛ ولمّا رفض سكّان إيليون قبوله لأنّه متمرّد، لجأ إلى استخدام القوّة واستولى على المدينة بعد أحد عشر يوماً. وعندما أخذ يتباهى بأنه استولى في أحد عشر يوماً على المدينة التي لم يستطع آغاممنون أن يأخذها إلاّ في العام العاشر، ومعه ألف سفينة واليونان كلّها شاركت معه في حملته، لاحظ أحد سكّان إيليون قائلاً: «نعم، هذا صحيح، لأنه لم يكن لدينا مدافع صنديد كهيكتور». وبعد ذلك هاجم سولاّ ثيمبريا ودمّره؛ وعقد مع ميتريدات اتفاقاً وأطلقه إلى بلاده، وهدّأ من روع الإيليونيين بتقديم مساعدة كبيرة لهم في إعادة بناء مدينتهم. ولكنّ قيصر الإلهي أظهر في وقتنا الراهن عناية أعظم بهم، محاكياً في هذا عناية الإسكندر. ولكنّ الإسكندر كان يرمي من وراء الاهتمام البالغ بالإيليونيين إعادة وصل صلة النسب القديمة معهم، فقد كان الرجل من أتباع هوميروس. وعلى وجه العموم فإن بعضهم يتحدّث عن تعديل في نصّ ملحمتي هوميروس ورد في صيغتهما التي تدعى «صيغة السفط»؛ فالإسكندر ومعه كالليسفين وأناكسارخوس أعادوا النظر في نصّي الملحمتين، وأضافوا بعض الملاحظات على جزء منهما، ثمّ وضعوا النسخة في سفط مطعّم بالحجارة الكريمة كان قد عثر عليه بين كنوز الخزنة الفارسية. وعلى هذا النحو يكون الإسكندر قد

أظهـر تعاطفـاً نحـو الإيليـونيين بسـبب إعجابـه بهـوميروس، وبسـبب صـلة النسـب مـع الإياكسيين ملوك المولوسيين، حيث تقـول الروايات، إن أنـدروماخي زوجـة هيكتـور كانت ملكة هناك. أمّا فيما يخصّ قيصر فإنـه لم يكـن معجباً بالإسـكندر وحسـب إنما كان يتوفّر أيضاً على قرائن أكثر واقعية تدّل على صلة نسبه مع الإيليونيين، لذلك اندفع بكل حيوية الشباب لمدّ يد العون لهم. وكانت هذه القرائن أكثر واقعية، أوّلاً لأنه كان رومانياً، وقد عدّ الرومان إينياس جدّهم الأوّل، ثانياً لأنّ اسم يوليوس اشتقّ من يولس، وهو أحد أحفاد إينياس؛ وقد أخذ الأخير لقبه من يولس، أحد أحفاد إينياس. ولذلك أعطاهم قيصر الأرض وأبقى لهم حرّيتهم وأعفاهم من تأدية الإتاوات للدولة؛ ولا يزالون يتمتّعون بهذه الامتيازات حتّى يومنا هذا. ولكنّ إيليون القديمة لم تكن قائمة في هذا المكان، وهذا ما يمكن أن نتبيّنه إذا ما درسنا هذه المسألة وفق معطيات هوميروس. بيد أنه ينبغي أوّلاً أن نعطي وصفاً عامّاً لهذا المكان ابتداء من النقطة الساحلية التي توقّفت عندها.

28- وبعد أبيدوس تأتي رأس داردانوس البحرية التي أتيت على ذكرها منذ قليل[39]، ثمّ مدينة داردان الواقعة على بعد 70 مرحلة عن أبيدوس. وبين هاتين النقطتين يصبّ نهر روديوس في البحر، وتقع قبالته في كرسونيس رأس كينوس- سيما البحرية التي تقول الرواية إنها قبر هيكابي. وكان بعضهم قد زعم أن روديوس يصبّ في إيسيب. وهذا النهر بدوره واحد من الأنهار التي ذكرها الشاعر:

ريسوس، وكاريسوس، وروديوس

ذو الأمواج السريعة.

(*الإلياذا* XII، 20)

وتعدّ دارادان مستوطنة قديمة، لكنّها مهملة إلى درجة أنّ الملوك غالباً ما كانوا يهجّرون سكّانها تارة إلى أبيدوس، ثمّ يعيدونهم تارة أخرى إلى مكان سكناهم القديم. وهنا التقى القائد الروماني كورنيلوس سولاّ مع ميتريدات الملقّب إيفباتور، واتّفقا على إيقاف الحرب.

29- وتقع على مقربة من هنا مدينة أوفرينوس التي يرى فيها من الجهات كلّها المكان الذي يقع فيه دغل هيكتور. ثمّ تقع بعد ذلك بحيرة بتيلييوس.

30- وتأتي بعد ذلك مدينة ريتوس الواقعة على تلّ، يليها ساحل بحريّ منخفض

مجاور لها يقع عليه قبر إيانثوس ومعبده الذي يقوم فيه تمثاله؛ وقد سرق أنطونيو التمثال وحمله معه إلى مصر، لكنّ قيصر أعاده إلى الريتيين، كما أعاد تماثيل أخرى إلى أصحابها أيضاً. فأنطونيو كان قد سرق أروع التقدمات من أشهر المعابد وقدّمها إلى المصرية[40]، أمّا قيصر فقد أعادها إلى آلهتها.

31- وتقع بعد ريتوس مدينة سيغييوس المهدّمة، ومحطة شراعية، وميناء الآخيين، ومعسكر الآخيين، وستوماليمنا[41]، ومصبّ سكاماندرس. وبعد أن يلتقي سيمويس وسكاماندرس في السهل، يحملان معهما كمّيات مهولة من الطمي يسدّان بها الساحل ويشكّلان «مصبّاً أعمى»، وأهواراً. وقبالة رأس سيغييوس البحرية في كرسونيس يقع بروتيسيليوس وإيليوسا[42]، اللذان كنت قد تحدّثت عنهما لدى وصف تراقيا[43].

32- ويبلغ طول هذا الساحل بخطّ بحري مباشر من ريتوس إلى سيغييوس وتمثال أخيليس 60 مرحلة. ويمتدّ الساحل كلّه تحت إيليون: من المدينة المعاصرة عند ميناء الآخيين على مسافة تقارب 12 مرحلة، ومن المدينة القديمة التي تقع على بعد 30 مرحلة إلى الأعلى في داخل البلاد نحو جبل إيدّا. ويقع عند سيغييوس معبد أخيليس وتمثاله، وكذلك تمثال باتروكليس وأنتيلوخوس. ويقدّم الإيلونيون لهؤلاء الأبطال كلّهم، وكذلك لايانثوس ذبائح. ولكنّهم لا يكرّمون هرقل بسبب أعمال التخريب التي أتى بها. ومع أنّ هرقل دمّر المدينة، إلاّ أنه أبقى عليها مدينة للدمار النهائي الذي سيأتي. ولذلك يقول هوميروس:

دمّر مدينة إيليون، وترك أنين الأرامل فيها.

(الإلياذا V، 642)

ولا يعني «الترمّل» هنا سوى النقص في عدد الرجال، وليس إبادتهم تماماً. ولكنّ الأبطال الذين يرى الإيليونيون أنهم يستحقون التقدمات التي تقدّم للأبطال، ويكرّمونهم كآلهة، كانوا قد خرّبوا المدينة تماماً. ولعلّه كان يمكن للإيليونيين أن يبرروا ازدواجية موقفهم هذه بقولهم، إنّ هؤلاء الأبطال خاضوا حرباً عادلة، أمّا حرب هرقل فكانت عدوانية هدفها «انتزاع الجياد من لاوميدون»[44]. مع ذلك يدفعون ضدّ هذا بأسطورة أخرى: لم يخض هرقل الحرب من أجل الجياد، بل طمعاً بالمكافأة التي وعد بها لقاء تحرير هيسيونا وقتل الوحش[45]. ولكنْ لنترك هذه التبريرات كلّها فهي تتحوّل إلى دحض للأساطير. فقد يكون بعض الأسس الأكثر يقينية التي جعلت

الإيليـونيين يكرّمـون بعض الأبطـال ولا يكرّمـون بعضـهم الآخـر مجهـولاً لنـا. ولكـنّ الشّاعر يقدّم المدينة في روايته قصة هرقل مدينة لا أهمّية لها، إذا كان صحيحاً أنّ

لقد دمّر مدينة إيليون وليس معه سوى ست

سفن وثلّة قليلة من المقاتليين...

(الإلياذا V، 641)

ويتّضح من هذه القصّة أن بريام تحوّل من حاكم صغير إلى ملك عظيم، كما كنت قد قلت من قبل[46]. وإذا تقدّمت قليلاً من هذا الساحل إلى الأمام، فستأتي إلى آخيون حيث بداية شطر من البرّ العائد لتينيدوس.

33- هـذه هـي الأمـاكن السـاحلية؛ وإلى الأعلـى منهـا يقـع سـهل طـروادا الـذي ينبسـط علـى امتداد مراحل كثيرة داخل البلاد نحو الشرق، وإلى الأعلى حتّى إيدّا. وقسـم السـهل السـفحي أرض ضيّقة تمتـدّ نحـو الجنـوب حتّـى منطقـة سـكيبسـيس مـن جهة، ونحو الشمال وصولاً إلى الليكيين الزيليين من جهة أخرى. ويصف الشّـاعر هـذا السـهل بأنـه تحـت سـلطة إينيـاس وأبنـاء أنتينـور، ويـدعوه داردانيـا. وإلى الأدنـى منـه وبموازاتـه تقريبـاً تقـع كيبرينيـا الـتي الشـطر الأكـبر منهـا سـهلي. وفي زمـن مـا كانـت هناك مدينة تدعى كيبرينا[47]. ويرى ديميتري أن منطقة إيليون التابعة لسلطة هيكتور كانت تمتدّ في عمق البلاد من المحطة الشراعية وصولاً إلى كيبرينيا؛ لأنـه يقـول إنهـم يدلّونك هناك على قبر الإسكندر[48] وإينونا، التي يروى أنها كانت زوجة الإسكندر قبل أن يخطف يلينا. وبحسب ديميتري أن الشّاعر يذكر

... كيبريون الحوذي،

ابن بريام غير الشرعي،

(الإلياذا XVI، 738)

الذي دعي باسمه هذا تيمناً باسم المكان، وعلى الأرجح باسم المدينة. أمّا كيبيرينيا فهـي تمتـدّ حتّـى منطقـة سـكيبسـيس، ويشـكّل الحـدود سـكاماندرس الـذي يجـري بينهما. وكان ثمّة عداوة دائمة بين سكّان كيبرينا والسكيبسيسيين أفضت في آخر المطاف إلى حرب استمرّت إلى أن أسكنهم أنتيغون معاً في أنتيغونيا ذلك الزمن، التي تـدعى اليـوم الإسـكندرية. وبقـي الكيبريـون مـع الآخـرين في الإسـكندرية، أمّـا السكيبسيسيون فقد أذن لهم ليسيماخ بالعودة إلى وطنهم.

34- ويقول ديميتري، إنّ ذيلين يمتدّان من سلسلة جبال إيدّا في هذه المنطقة إلى البحر: يتّجه أحدهما مباشرة إلى ريتوس، والآخر مباشرة إلى سيغييوس ليشكّلا معاً نصف دائرة ثمّ يتلاشيان في السهل على مسافة واحدة من البحر مثلهما مثل إيليون المعاصرة؛ فهذه الأخيرة تقع تحديداً على أطراف الذيلين المذكورين، أمّا المستوطنة القديمة فهي تقع بين بدايتيهما. ويشمل المدى الداخلي الممتدّ بين الذيلين، سهل سيمويس الذي يجري عبره نهر سيمويس، وسهل سكاماندرس الذي يرويه نهر سكاماندرس. وهذا السهل الأخير هو الذي يُدعى سهل طروادا، وفيه دار لدى الشّاعر العدد الأكبر من المعارك، لأنه شاسع أكثر؛ فنحن نرى هنا الأماكن التي يذكرها الشاعر: شجرة التين[49]، وقبر إيسيتوس[50]، وباتييا[51]، وشاهدة قبر إيلوس[52]. ويلتقي نهرا سكاماندرس وسيمويس (يقترب الأوّل منهما من سيغييوس، والثاني من ريتوس) في نقطة غير بعيدة أمام إيليون المعاصرة؛ ثمّ يصبّان في البحر نحو سيغييوس، مشكّلين ما يدعى ستوماليمنا[53]. وثمّة سلسلة كبيرة تفصل السهلين المذكورين بعضهما عن بعض وتمتدّ مباشرة بين الذيلين المذكورين ابتداء من إيليون المعاصرة التي تتّصل السلسلة بها. وتمتدّ هذه السلسلة حتّى كيبرينيا، وتشكّل مع الذيلين من الجانبين حرف Є.

35- وإلى الأعلى قليلاً من هذا المكان تقع مستوطنة الإيليونيين، حيث يفترضون أنّ إيليون القديمة كانت تقوم هنا على بعد 30 مرحلة من المدينة الحالية. وفوق مستوطنة الإيليونيين بعشر مراحل يعلو كالليكولونا، وهو مرتفع يشبه التلّ، وعلى بعد 5 مراحل منه يجري نهر سيمويس. وعلى هذا النحو يغدو من السهل فهم ما قيل عن أريس:

وصرخ أريس ذو الدرع النحاسية، كأنه إعصار مريع،

يحثّ الطرواديين جهاراً، من علياء إيليون تارة،

وتارة أخرى وهو يتراكض عند مياه سيمويس عبر كالليكولونا.

(*الإلياذا* XX، 51)

وبما أنّ رحى المعركة دارت في سهل سكاماندرس، فمن المؤكد أن أريس كان يوجه نداءاته إلى الطرواديين إمّا من على الأكروبوليس، أو من مواقع ما قريبة من سيمويس وكالليكولونا، حتّى المكان الذي كانت تدور فيه العمليات القتالية.

وبمـا أنّ كالليكولونـا تقـع علـى بعـد 40 مرحلـة مـن إيليـون الحاليـة، فمـا الـذي جعـل الشّاعر يختار أماكن على مسافة لم يبلغها انتشار القوات في أرض المعركة؟ فقوله:

عند ثيمبرا يقف الليكيون ...

(الإلياذا X، 430)

يتلاءم أكثـر مـع المستوطنة القديمـة، لأنّ سـهل ثيمـبرا أقـرب، وعلـى النحـو عينـه نهـر ثيمبروس الذي يجري عبره ويصبّ في سكاماندرس عند معبد أبوللون الثيمبري؛ ولكنّ ثيمبرا يقع على بعد 50 مرحلة من إيليون الحالية. وكذلك «شجرة التين»: مكـان مـا صخري تنمو فيه أشجار التين البرّية يقع عند سفح المستوطنة القديمة، ولذلك كان بإمكان أندروماخي أن تقول:

ضع مقاتلينا عند «شجرة التين»: المدينة هناك خاصة

متاحة للأعداء، والصعود إلى الحصن ملائم.

(الإلياذا VI، 433)

ولكـنّ «شـجرة الـتين» بعيـدة جـدّاً عـن المدينـة المعاصـرة. وإلى الأدنـى قلـيلاً مـن «شجرة التين» يقع «بوك» الذي يقول عنه أخيليس:

... بينما كنت بين الآرغوسيين معتكفاً

لم يجرؤ هيكتور أن يبدأ القتال بعيداً عن الأسوار.

لم يقترب إلاّ من البوابات السكييسية وبوك ...

(الإلياذا IX، 352)

36- بيد أنّ المحطة الشراعية (لا تزال تدعى بهذا الاسم حتّى اليوم) تقع قريباً مـن المدينـة الحاليـة إلى درجـة يبـدو طبيعيـاً عنـدها أن تـثير حماقـة الإغريـق وتخـاذل الطرواديين الدهشة، حماقة الإغريق لأنهم تركوا المحطة الشراعية هذا الوقت الطويل كلّه من غير تحصين عندما كانوا على مقربة من المدينة ومن هذه الأعداد الكثيرة من الأعداء في داخل المدينة نفسها، وحلفائهم الذين يحيطون بهم. فالشّاعر يقول، إن السور لم يبن إلاّ منذ بعض الوقت (أو أنه لم يبن أصلاً، بل اختلقه الشّاعر لتوّه ثمّ دمّره، كما يقول أرسطو)؛ أمّا تخاذل الطرواديين فيثير الاستغراب، لأنهم لم يهاجموا إلاّ بعد أن بنيت الأسوار، وعادوا إلى المحطة الشراعية نفسها، وهاجموا السفن؛ ولكن قبـل أن يحـاط هـذا المكـان بسـور لم يجـرؤوا علـى التوغّـل إلى هنـاك وضـرب طـوق

الحصار، مع أن المسافة لم تكن كبيرة؛ فالمحطة الشراعية تقع عند سيغييوس وبالقرب منها يقع مصبّ سكاماندرس على بعد 20 مرحلة من إيليون. ولكن إذا ما اعترض أحدهم على أنّ ما يدعى اليوم ميناء الآخيين هي نفسها المحطة الشراعية، فإنه سيتحدّث عندئذٍ عن مكان أقرب إلى إيليون بما يقارب 20 مرحلة، حتّى إذا ألحقت بهذا السهل الساحلي، لأنّ هذا السهل كلّه تشكّل من الترسبات النهرية، خاصة السهل الساحلي الواقع أمام المدينة. وإذا كان المدى بين المدينة والبحر يبلغ اليوم 12 مرحلة، فإنه لم يكن يشكّل في الزمن القديم سوى نصف هذه المسافة. وعلى النحو نفسه فإن القصة المختلقة التي رواها أوديسيوس لإيفمييوس، تبيّن أن المسافة كبيرة جدّاً بين المدينة والمحطة الشراعية:

... كما في طروادا، عندما كنّا يوماً تحت الحصار.

(*الأوذيسا* XIV، 469)

ويقول بعد ذلك:

بعيداً جدّاً ابتعدت السفن عنّا.

كما يرسلون الجواسيس أيضاً لكي يستطلعوا إذا كان الطرواديون قد باتوا «بعيدين عند السفن»، وتفصل بينهم وبين سورهم مسافة بعيدة،

... أم سيعودون إلى المدينة

مبتعدين عن السفن

(*الإلياذا* X، 209)

ويقول بوليدامانس:

تفكروا بإمعان أيها الأصدقاء؛ أنصحكم أن

تدخلوا المدينة الآن مع مقاتليكم ...

... إننا نقف بعيداً عن الحصن.

(*الإلياذا* XVIII، 254)

ويسوق ديميتري شهادة هيستييا الإسكندرية التي كتبت مؤلّفاً عن «إلياذا» هوميروس، ودرست مسألة ما إذا كانت رحى الحرب قد دارت عند مدينة إيليون المعاصرة وسهل طروادا الذي يوضّعه الشّاعر بين المدينة والبحر؛ فهي تقول، إنّ السهل الذي نراه اليوم أمام المدينة الحالية، شكلته الترسبات التي حملتها الأنهار مؤخراً.

37- وكذلك بوليتيس،

... الذي

أقام حارساً طروادياً، واثقاً بساقيه السريعتين،

في السهل، على القبر العالي لشيخ الطرواديين إيسيتوس،

(الإلياذة II، 792)

كان غبياً؛ فمع أنه أقام «على القبر العالي»، إلاّ أنه كان يستطيع أن يراقب من فوق الأكروبوليس الأكثر علوّاً بكثير من تلّ القبر، ومن على المسافة نفسها تقريباً من غير أن يكون بحاجة إلى سرعة ساقيه ليضمن سلامته؛ فقبر إيسيتوس الذي يدلّونك عليه الآن يقع بعد 5 مراحل على الطريق إلى الإسكندرية. وفي هذه الحالة يغدو جري هيكتور حول المدينة بعيداً عن الواقع، لأنه لا يمكن الالتفاف حول المدينة المعاصرة بسبب متاخمة السلسلة الجبلية لها؛ لكنّ المعبر حول المدينة القديمة كان مفتوحاً.

38- بيد أنه لم يبق من المدينة القديمة أثر. وهذا طبيعي، لأنّ مدن الضواحي كلّها حلّ بها الخراب، مع أنها لم تدمّر كلياً؛ لكنّ هذه المدينة تحديداً هدمت حتّى أساساتها ونقلت حجارتها لتستخدم في إعادة بناء المدن الأخرى. ويروى أنّ أرخياناكس الميتيليني بنى من الحجارة المنقولة من هناك سوراً حول سيغييوس. وقد استولى الأثينيون على هذه المدينة، فأرسلوا إلى هناك ثرينون بطل الألعاب الأوليمبية، مع أنّ الليسبيين حقّقوا سيطرتهم على طروادا كلّها تقريباً. وواقع الحال أنّ أكثر المستوطنات في طروادا أسّسها الليسبييون (بعضهم لا يزال موجوداً حتّى اليوم، والآخرون اندثروا). فأبحر بيتاكوس الميتيليني، وهو واحد ممّن يسمّونهم الحكماء السبعة، على رأس أسطول ضدّ الستراتيج ثريون وحاربه لبعض الوقت، لكنّه أدار القتال إدارة سيّئة فباء بالفشل. ويقول الشّاعر ألكييوس، إنه في ذلك الوقت ألفى نفسه أثناء إحدى المواجهات في وضع صعب، فاضطر إلى رمي سلاحه والفرار من أرض المعركة. فهو يقول لأحد المراسلين طالباً أن يخبر أهل بيته:

ألكييوس نجا، ولكنْ عبثاً علّقوا سلاحه لأريبوس

أتيكا في معبد أثينا عين البومة.

(المقطع 32، بيرغك)

وفيما بعد عندما طلب ثريون بيتاكوس للمبارزة، حمل هذا الأخير معه شبكة

لصيد الأسماك وهاجم خصمه، فرمى عليه الشبكة وقتله طعناً بالحربة الثلاثية والخنجر. ولكنّ الحرب استمرّت وطالت، فاختار الطرفان بيريياندرس وسيطاً، فوضع هذا حدّاً لها.

39- وعلى حدّ قول ديميتري فإن ما ينقله تيمييوس عن أنّ بيريياندرس بنى من حجارة إيليون حصن أخيللوس ضدّ الأثينيين لكي يساعد قوّات بيتاكوس، غير صحيح، فواقع الأمر على حدّ قوله، هو أنّ الميتيليين هم الذين حصّنوا هذا المكان ضدّ سيغييوس، ولكنْ ليس بهذه الحجارة، بل ولا علاقة لبيريياندرس بالأمر، فكيف كان يمكن اختيار وسيط من بين المشاركين في الحرب؟ إنّ أخيللوس مستوطنة صغيرة فيها شاهدة قبر أخيلليس. وقد دمّر الإيليونيون سيغييوس أيضاً تدميراً تامّاً بسبب عصيانها. ففيما بعد بات الساحل كلّه حتّى داردان تحت سلطتهم، ولا يزال حتّى الآن. أمّا في الزمن القديم فقد امتلك الإيوليون الشطر الأكبر منه، ولذلك يدعو إيثور الساحل كلّه من أبيدوس حتّى كيما باسم إيوليا، من غير أيّ تردد. وبحسب ثوكيديدس أنّ الأثينيين انتزعوا طروادا من الميتيليين أثناء حملة باخيت في أثناء حرب البيلوبونيز[54].

40- ويزعم الإيليونيون المعاصرون أن المدينة لم تدمّر تماماً لدى استيلاء الآخيين عليها، وأنها لم تخلُ من سكّانها في أي وقت من الأوقات. وعلى أيّ حال بعد بعض الوقت من سقوط إيليون، أخذوا يرسلون إلى هناك سنوياً فتيات لوكريات[55]. لكنّ هذا الخبر ليس لهوميروس، لأنّ هوميروس لا يعرف شيئاً عن العنف الذي مورس على كاساندرا، بيد أنه يقول، إنها كانت عندئذٍ فتاة:

قتل أوثرينيوس[56] الكابيسي، الحديث العهد في المدينة،

جذبته مؤخراً إلى طروادا ساحات المجد

وطلب من بريام كاساندرا، أجمل بنات الشيخ،

طلبها بتعال، من غير مهر ...

(الإلياذا XIII، 363)

فهو لا يذكر أيّ شيء من عنف ضدّ كاساندرا، ولا عن إيانثوس في كارثة بحرية تسبب بها غضب أثينا، أو أيّ سبب آخر من هذا القبيل. بل على العكس من هذا يقول الشاعر، إنه على الرغم من أن أثينا[57]، كانت تكره إيانثوس كما

الآخرين كلّهم (فكلّهم دنّس معبدها، ولذلك غضبت منهم جميعاً)، إلاّ أن الذي أهلك البطل هو بوسيدون، والسبب هو تفاخر أيانثوس وغطرسته[58]. ولكنّ إرسال الفتيات اللوكريات لم يبدأ لأوّل مرّة إلاّ في ظلّ السيطرة الفارسية.

41- إنّ هذه هي رواية الإيليونيين. أمّا هوميروس فيقول صراحة، إنّ المدينة دمّرت تدميراً كاملاً:

سيأتي يوم تهلك فيه طروادا المقدّسة،

(الإلياذا VI، 448)

و

ولكن عندما دمّرنا مدينة بريام العظيم

(الأوذيسا III، 150)

بكلمتي ونصيحتي[59]،

و

في الصيف العاشر دمّر مأوى بريام الشيخ.

(الإلياذا XII، 15)

كما يسوقون قرائن أخرى من هذا النوع، على سبيل المثال: يمكن أن نرى تمثال أثينا الخشبي الآن واقفاً باستقامة، بينما يصوّرها هوميروس جالسة، لأنه يأمر أن:

يُلقى بالثوب على ركبتيْ أثينا ذات الشعر الناعم؛

(الإلياذا VI، 92، 273)

ومثل هذا قوله:

لن يحمل على ركبتيه ولداً ينجبه هو.

(الإلياذا IX، 455)

إنّ هذا التأويل أفضل من الذي ساقه الآخرون، وتحديد تأويلهم «يُلقى عند الركبتين»؛ وها نحن نسوق قوله الثاني لغرض المقارنة وحسب

تستوي على الموقد في بريق ناريّ

بدلاً من «عند الموقد». فكيف يمكننا أن نتصوّر إذن إلقاء الثوب «عند الركبتين»؟ وإذْ

يغيّر آخرون مكان النبرة [في كلمة gúnasin] إلى gunásin[60] كما في thyiásin[61] (وكائناً ما كان تأويلهم لهذه الكلمة)، فإنهم يمارسون بهذا ثرثرة عبثية، إذ يفهمون هذه الكلمة بمعنى «توسّل» أو [....][62]. وعلى أيّ يعرضون كثيراً من التماثيل الخشبية لأثينا وهي في وضعية الجلوس، كالتماثيل التي في ثوكيا، وماساليا، وروما، وكيوس وبعض الأماكن الأخرى على سبيل المثال. ويتّفق الكتّاب المتأخّرون على أن المدينة دمّرت تدميراً تامّاً، ومن هؤلاء ليكورغوس[63] الذي يلاحظ لدى تذكيره بمدينة الإيليونيين: «من الذي لم يسمع أنّ الإغريق دمّروا في وقت ما مدينة إيليون حتّى أساساتها، فبقيت خاوية؟».

42- ويزعمون أن الذين عزموا بعد ذلك على إعادة تأسيس المدينة، عدّوا هذا المكان ملعوناً، إمّا بسبب البليّة التي نزلت بالمدينة، أو لأنّ آغاممنون لعنها بحسب التقليد القديم (كما فعل كريز لدى استيلائه على سيدينا التي فرّ إليها التيران غلافكوس طلباً للحماية، فقد لعن كريز كلّ من سيحصّن المكان بعد ذلك). وعلى هذا النحو تراجعوا عن هذا المكان وحصّنوا مكاناً آخر. وهكذا كان الأستيباليون الذين كانوا يملكون ريتوس أوّل من سكنوا بولي (تدعى الآن بوليسما) الواقعة على سيمويس، ولكن ليس في مكان محصّن تحصيناً جيّداً، لذلك سرعان ما دمّر. أمّا المستوطنة المعاصرة[64] ومعبدها، فقد تأسّسا في زمن السيطرة الليدية. بيد أنّ هذه لم تكن قد غدت مدينة بعد، ولم تبدأ تتنامى وتتوسّع إلاّ بعد أن مضى زمن طويل، كما كنت قد قلت. ولكي يبعث الفرحة في قلوب الإيليونيين- «وهذا هو نمط تفكيره»- يوافق هيلانيكوس على إدغام المدينة الحديثة بالمدينة القديمة. ولكنْ بعد تدمير المدينة تقاسم حدودها سكّان سيغييوس وريتوس وبعض القبائل الأخرى المجاورة، لكنّ حدود المدينة استردّت من جديد بعد أن أعيد بناؤها ثانية.

43- وكما يرون، فإنّ إيدّا سميّ «وفير الينابيع» لأنّ كثيراً من الأنهار ينبع منه، خاصة المكان الذي تقع فيه على سفوحه منطقة داردانيا وصولاً إلى سكيبسيس ومنطقة إيليون. وفي بادئ الأمر يقول عنها ديميتري بصفته من سكّان المكان المحلّيين: «إحدى قمم إيدّا تدعى كوتيل. وهي تقع على ما يقارب 120 مرحلة إلى الأعلى من سكيبسيس؛ وينبع منها سكاماندرس، وغرانيكوس، وإيسيب؛ ويجري النهران الأخيران شمالاً وإلى البروبونتيدا بعد أن يتشكّلا من تلاقي عدد من الينابيع، بينما يجري سكاماندرس غرباً، وهو يتشكّل من نبع واحد فقط. وتقع هذه الينابيع كلّها

بعضها قريب من بعض ضمن حيّز لا يتعدّى 20 مرحلة. ومصبّ إيسيب هـو الأبعـد عـن منبعه- تقريباً 500 مرحلة». لكنّ مغزى ما يقوله الشّاعر يحتاج توضيحاً:

وصلا معاً إلى نبعين رقراقين، ينبجسان مندفعين،

سكاماندرس الصاخب، والآخر مياهه دافئة...،

أي «مياهه حارّة»، لكنّ الشّاعر يضيف قائلاً:

... من جوانبه كلّها

يتصاعد البخار دائماً، كما يتصاعد الدخان من بؤرة نار؛

لكنّ النبع الآخر ينحدر في الصيف بارداً كأنه الصقيع،

بارداً كحبّات البرد أو شرائح الثلج...

(الإلياذا XXII، 147)

لكنّك لن تجد اليوم في هذا المكان نبعاً مياهـه حـارّة، كمـا لا وجـود هنـا لنبـع سكاماندرس؛ فهو يقع على الجبل وحيداً لا ثاني له. وعلى هذا النحو ربّما يكون النبع الحارّ قد نضب، أمّا البارد فينبثق من سكاماندرس عبر ممرّ جوفيّ ليخرج من جديد إلى السطح في هذا المكان؛ أو أنّ مياه هذا النبـع لا تعـدّ مصـدر سـكاماندرس إلاّ لأنهـا تقع على مقربة منه؛ وعلى هذا النحو يكون للنهر نفسه أكثر من منبع.

44- ويلتقـي بسـكاماندرس نهـر أنـديرا الـذي يجـري مـن كاريسـينا، الـبلاد الجبلية الكثيرة القرى والمستثمرة جيّداً؛ وهـي تقـع قـرب داردانيـا، وتمتـدّ حتّـى منـاطق زيليا وبيتيا. ويقال إن هـذه الـبلاد دعيت باسمها هـذا المـأخوذ مـن اسـم نهـر كاريسـوس الذي يأتي الشّاعر على ذكره.

ريسوس، وكاريسوس، وهيبتابوروس،

ذو الأمواج السريعة،

(الإلياذا XII، 20)

أمّـا المدينـة سميّـة النهـر فقـد دمّـرت. ويقـول ديمـيتري في مكـان آخـر: «إن نهـر ريسـوس يدعى الآن رييتوس، إذا لم يكـن هـذا هـو ذلـك الريسـوس الـذي يصـبّ في غرانيكـوس. وهيبتابوروس الذي يحمل أيضاً اسم بوليبوروس، ينبغي عبوره سبع مرّات في الطريق من المكان القريب مـن الصنوبرة البديعـة إلى قريـة ميلينـا ومعبـد أسـكليبوس الـذي شـيّده ليسماخ». ويكتب الملك أتّال الأوّل بخصوص الصنوبرة البديعة قائلاً: «حجم الشجرة

24 قدماً وارتفاع جذعها من الجذور يصل 67 قدماً ثمّ ينقسم الجذع إلى ثلاثة فروع المسافة بينها متساوية، وبعد ذلك تتلاقى الجذوع الثلاثة في قمّة واحدة لتبلغ نهاية ارتفاعها الكلّي في 2 بليفر و15 ذراعاً». ويقع هذا الموقع على بعد 180 مرحلة إلى الشمال من أدراميتوس. ويجري كاريسوس من مالونس، وهو مكان ما يقع بين باليسكيبسيس وآخيون، وهي موقع على البرّ المقابل لجهة التيندوسيين. ويجري روديوس من كلياندريا وغوردس على بعد 60 مرحلة عن الصنوبرة البديعة؛ ويصبّ هذا النهر في إينوس.

45- وفي وادي إيسيب، إلى اليسار من مجراه، تأتي بوليخنا أوّلاً، وهي مكان محصّن بسور، ثمّ تأتي باليسكيبسيس، وبعدها ألازونيا. ولا شك في أن هذا الاسم الأخير هو من بنات أفكار ديميتري لكي يعلّل فرضيته عن الغاليزونيين الذين كنت قد تحدّثت عنهم[68]؛ ويأتي بعد ذلك كاريسوس، وهو مكان قاحل، وكاريسينا والنهر الذي يحمل الاسم عينه[69]، وهو يشكّل بدوره وادياً كبيراً مع أنه أصغر من وادي إيسيب؛ ثمّ تمتدّ بعد ذلك وديان مستثمرة جيّداً، تليها منحدرات زيليا. وعلى يمين إيسيب، بين بوليخنا وباليسكيبسيس تقع نياكوما وأرغيريا[70]؛ وهذا الاسم بدوره من بنات أفكار ديميتري أيضاً، اختلقه ليعلّل به فرضيته عينها ويحافظ على قول الشاعر:

... حيث لا تنضب مناجم الفضّة.

(*الإلياذا* II، 856)

ولكن، أين تقع إلييا أو ألوبا أو أي اسم آخر يدعونها به؟ فإذا كان الناس قد تجرؤوا فيما مضى على الاختلاق فإنه ينبغي عليهم الآن، بعد أنّ يدعك كلّ منهم جبينه[71]، أن يتفكّر في هذا الاسم أيضاً وألاّ يبقي المسألة مفتوحة على شتّى الاحتمالات. وهكذا فإن هذا الذي ينقله ديميتري إلينا يثير مثل هذه الاعتراضات. أمّا في النقاط الأخرى، وفي أقلّ تقدير أكثرها، فإني أفترض أنه ينبغي الأخذ بما ينقله ديميتري بصفته عارفاً بالبلاد، وأحد سكّانها الذين اهتّموا كثيراً بهذه المسائل، فقد وضع فيها 30 كتاباً من التعليقات لكي يشرح أكثر بقليل من 60 بيتاً من شعر هوميروس، خاصة «دليل الطرواديين»[72]. فهو يزعم مثلاً، أنّ باليسكيبسيس تقع على بعد 50 مرحلة من إينيبيا و30 مرحلة عن نهر إيسيب؛ ومن هذه الباليسكيبسيس انتقلت التسمية عينها إلى بعض الأماكن الأخرى. ولكنْ دعونا نعود إلى المكان الساحلي الذي توقفت عنده.

46- فبعد رأس سيغييوس البحرية وأخيلليس، تأتي آخيون، وهي موقع على البرّ المقابل لجهة التينيدوسيين، ثمّ تينيدوس نفسها التي تقع على مسافة لا تتجاوز 40 مرحلة عن البرّ. ويبلغ امتداد محيط الجزيرة حوالي 80 مرحلة، وفيها مدينة إيولية، وميناءان ومعبد لأبوللون السمينثيسي، كما يقول الشاعر.

... وتفرض سطوتك على تينيدوس،

وسمينثييوس!

(*الإلياذا* I، 38)

وينتشر حول تينيدوس عدد من الجزر الصغيرة بما فيها اثنتان تحملان اسم كاليدنا؛ وتقع هاتان الجزيرتان على الطريق إلى ليكتوس. وحتى جزيرة تينيدوس نفسها كان بعضهم يدعوها كاليدنا، وبعضهم الآخر لوكوثريس. وكانت الجزيرة هي المكان الذي وقعت فيه أحداث أسطورة تينّوس، ومن هنا جاء اسم الجزيرة، كما كانت المكان الذي وقعت فيه أحداث أساطير كيكنوس، والسلالة التراقية، ووالد تينّوس، وملك كولونا، بحسب بعض الأساطير.

47- لقد كانت لاريسا وكولونا تتاخمان فيما مضى حدود آخيون، وتشكلان جزءاً من البرّ يقع مقابل التينيدوسيين؛ ثمّ تأتي بعد ذلك كريسا المعاصرة الواقعة على مرتفع صخري فوق البحر، تليها هاماكسيتوس التي تقع تحت ليكتوس مباشرة. وفي الوقت الراهن تجاور الإسكندرية آخيون؛ وقد اتحدت هذه المدن الصغيرة، ومثلها بعض المواقع الحصينة مع الإسكندرية؛ ومن بينها كيبرينا ونياندريا؛ ويملك الإسكندريون الأرض. وكان المكان الذي تقع فيه الإسكندرية الآن يدعى سيغيا.

48- ويقع في هذه الكريسا معبد أبوللون السيمنثيسي وشعار يُظهر المغزى الحقيقي لاسم الإله[73]: عند قدمي التمثال تحديداً يستلقي فأر. والتمثال من أعمال سكوباس الباروسي. وترتبط بهذا المكان أسطورة الفئران أو قصتها. فقد تلقّى التيفكريون الذين جاؤوا إلى هنا من كريت (أوّل من روى روايتهم، هو الشّاعر كاللينوس، ثمّ حذا حذوه آخرون كثر)، نبوءة تأمرهم: «أن يسكنوا هناك حيث تهاجم مخلوقات الأرض»؛ وقد وصل لهم هذا بحسب الحكايات، قرب هاماكسيتوس، فقد خرجت إلى سطح الأرض هنا ليلاً آلاف مؤلّفة من فئران الحقول،

وقضمت الجلود التي كانت تغطي أسلحتهم وأدواتهم؛ فتوقف التيفكريون هناك، ودعوا المكان إيدّا على اسم الجبل الذي في كريت. ويروي هيراقليط البونتي أن الفئران التي كانت تسرح بكثرة حول المعبد، عدّت كائنات مقدّسة، ولذلك نُحت التمثال واقفاً على فأر. وبحسب روايات الكتّاب الآخرين، أن واحداً من التيفكريين وصل إلى هنا من أتيكا، من ديموس الطرواديين، الذين يدعون الآن كسيبيتيونيين، وأنّ أيّ تفكريّ من كريت لم يطأ هذه الأرض قط. وفيما يخصّ صلة القرابة بين الطرواديين وسكّان أتيكا، فإنهم يشيرون كدلالة عليها، إلى أنّ أريختونيوس كان أحد الأسلاف المؤسّسين للقبيلتين. هذا ما نقله الكتّاب المتأخّرون؛ ولكنّ أقوال هوميروس أكثر توافقاً بكثير مع بقايا القرى والمستوطنات التي يعرضونها في سهل طيبة، وفي كريسا التي كانت تقع هناك في زمن ما، وهذا ما سآتي على ذكره عاجلاً. وعلى وجه العموم نحن نلقى اسم «سمينثييوس» في أماكن كثيرة. فعند هاماكسيتوس نفسها، ما عدا سمينثييوس في أماكن كثيرة. فعند هاماكسيتوس نفسها، ما عدا سمينثييوس التي عند المعبد، ثمّة مكانان آخران يحملان هذا الاسم، وتوجد أماكن أخرى بجوار منطقة لاريسا تحملان الاسم نفسه أيضاً. وهناك مكان في منطقة باري يدعى سمينثييوس، وفي رودوس، تحديداً في ليندس، وفي أماكن كثيرة أخرى[74]. أمّا اليوم فإن المعبد نفسه يدعى سمينثييوس. وعلى وجه العموم يقع هناك منتحياً قليلاً سهلٌ صغير هو سهل هاليوس، على هذا الجانب من ليكتوس، ومملحة تراغاسيوس قرب هاماكسيتوس، حيث تظهر بلورات الملح بشكل طبيعي عندما تهبّ رياح إيتا. ويعرضون في ليكتوس مذبحاً للآلهة الاثني عشر ويدعونه بناء أغاممنون. وتقع هذه الأماكن على مرآى من إيليون، بما يقارب 200 مرحلة أو أكثر بقليل، ومثلها أيضاً المكان القريب من أبيدوس على الجانب الآخر من المضيق، مع أنّ أبيدوس تقع أقرب بقليل.

49- وما إن نتجاوز ليكتوس حتّى ندنو من أهم مدن الإيوليين والخليج الأدراميتي، حيث يبدو أنّ الشّاعر يوضّع أكثر الليليغيس والكيليكيين الذين ينقسمون إلى فريقين. وتمتدّ هنا منطقة الميتيلينيين الساحلية مع بعض قرى[75] الميثيلينيين الذين يقطنون البرّ. كما يدعى هذا الخليج بالخليج الإيدّي أيضاً؛ فالسلسلة الجبلية التي تمتدّ من ليكتوس إلى إيدّا، تعلو فوق الأجزاء الأمامية من الخليج، حيث يصف الشّاعر أولى قرى الليليغيس.

50- ولكنّ الحديث عن هذا كان قد جرى سابقاً[76]. أمّا الآن فينبغي أن نضيف أنّ الشّاعر يذكر بيداسّا ما، وهي مدينة لليليغيس خاضعة لسلطة ألتيس:

ألتيس الذي يسود على قبيلة الشجعان الليليغيس،

وعلى مدينة بيداس العالية، عند ساتنيونيس

(الإلياذا XXI، 86)

وحتّى يومنا هذا يدلّونك على مكان المدينة الخاوي. ويكتب بعضهم خطأ، «عند سفح ساتنيونيس»[77]، وكأنّ المدينة تقع عند سفح جبل يحمل اسم ساتنيونيس، بيد أنه لا يوجد أيّ جبل هنا يحمل هذا الاسم، إنما الاسم لنهر تقع المدينة عليه؛ والمدينة الآن مهجورة. ويدعو الشّاعر النهر:

طعن ساتنيوس طعنة قاتلة، إذا هاجمه برمح مثقّف،

ساتنيوس بن إينوبس الذي أنجبته الحورية

نييدس لإينوبس، راعي القطعان على ضفاف ساتنيون.

(الإلياذا XIV، 443)

ومرّة أخرى:

كان يسكن ضفاف نهر ساتنيون الرقراق،

في المدينة العالية، بيداس.

(الإلياذا VI، 34)

وقد دعوه فيما بعد ساتنيونيس، بل دعاه بعضهم سافنيونيس، وهذا النهر نهر شتوي كبير، ولم تأت شهرته إلاّ من ذكر الشّاعر له. وتتاخم هذه الأماكن داردانيا وسكيبسيس كأن هذه هي داردانيا أخرى تقع إلى الأسفل.

51- ويمتلك الآسوسيون والغارغاريون الآن كلّ الأراضي حتّى البحر الذي أمام ليسبوس، وتحيط بهذه الأراضي منطقة الأنتاندرين، والكيبرينيين، والنياندريين، والهاماكسيتيين، لأنّ النياندريين يسكنون فوق هاماكسيتوس، وعلى هذا الجانب من ليكتوس أيضاً، لكنّهم لا يظهرون بعد ذلك في داخل البلاد وأقرب إلى إيليون، إلاّ على بعد 130 مرحلة منها. ويقع الليبرينيون إلى الأعلى منهم، وأعلى من هؤلاء يقطن الداردانيون وصولاً حتّى باليسكيبسيس وسكيبسيس نفسها. ويدعو ألكييوس أنتاندرس «مدينة الليليغيس»:



أنتاندرس لأوّل مرّة، مدينة الليليغيس[78]

(مقطع 65. بيرغك)

أمّا ديميتري السكيبسيسي فيوضّح أنتاندرس بين المدن الأخرى المتاخمة لها، بحيث تغدو في منطقة الكيليكيين؛ فحدود الكيليكيين تتاخم حدود الليليغيس، لأنّ الكيليكيين يلامسون المنحدرات الجنوبية لجبل إيدّا أقرب بعض الشيء من الليليغيس. ولكنّ منطقة الكيليكيين بدورها تقع أدنى وتلامس الساحل قرب أدراميتوس[79]، في نقطة أقرب من النقطة التي تلامسه فيها منطقة الليليغيس. فبعد ليكتوس بأربعين مرحلة تأتي نقطة ما تدعى بوليميدس؛ وبعد 80 مرحلة[80] تأتي آسوس، أعلى من البحر بقليل؛ وبعد 140 مرحلة تأتي غارغارا. وتقع غارغارا هذه على رأس بحرية تشكّل الخليج الأدرايتي. فالساحل كلّه من ليكتوس حتّى كانّا يحمل الاسم نفسه، ويُلحق به أيضاً الخليج الإيلايتي. ولا يحمل اسم الخليج الأدرايتي سوى جزئه الذي ينحصر بين الرأس البحرية التي تقع عليها غارغارا والرأس البحرية التي تدعى بيرّا حيث معبد أفروديت. ويبلغ عرض مدخل الخليج من الرأس الأولى إلى الرأس الثانية 120 مرحلة. وتقع في داخل الخليج أنتاندرس وجبل يعلو فوقها يدعى الإسكندرية (يروى أن تحكيم باريس بين الإلهات جرى هناك)، وتقع هناك أيضاً أسبانيا، وهي سوق للخشب الإيدّي، لأنهم يأتون بالأخشاب إلى هنا ليبيعوها لمن يحتاجها. ثمّ تأتي أستيرا، وهي قرية فيها أرض مقدّسة مكرّسة لأرطميس الأستيرية. وعلى مقربة مباشرة من أستيرا تقع أدراميتوس، وهي مدينة يسكنها الأثينيون، وفيها ميناء ومحطة شراعية. وتقع خارج الخليج ورأس بيرّا مدينة كيسفينا المقفرة وميناؤها. وفوق هذه المدينة في داخل البلاد يقع منجم نحاس، وتقع هناك أيضاً بيربيرينا، وتراروس وما شابه من القرى الأخرى. وتقع على الساحل الذي يلي، قرى الميتيلينيين: كوريثانتيس وهيراقليا، وبعدهما أتييا، ثمّ أتارنيوس، وبيتانا، ومصبّ نهر كايك. وتقع هذه المواقع الأخيرة على الخليج الإيلايتي. وتقع على الضفّة الأخرى من النهر مدينة إيلييا وما يتبقّى من الخليج حتّى كانّا. ولكن، لنعد القهقرى ونصف بالتفصيل أماكن بعينها، إذا كان قد سقط سهواً ما يستحقّ الذكر؛ ولنبدأ من سكيبسيس مثلاً.

52- تقع باليسكيبسيس إلى الأعلى من كيبيرينا، في أعلى أجزاء إيدّا، قرب بوليخنا. وكانت هذه تدعى في زمن ما سكيبسيس، ربّما لأنّ هذا المكان ظاهر من

مختلف الجهات[81]، ولكـنّ هـذا لا يصـحّ إلاّ إذا كـان يصـحّ في ذلـك الـزمن اشـتقاق أسماء بربرية من كلمات إغريقيـة، أو لأسـباب أخـرى؛ وفيمـا بعـد هجّـر سـكاماندرس بن هيكتور، وأسكانيوس بن إينياس سكّانها وأسكنوهم على بعد 60 مرحلة نحو الأسـفل، في سكيبسـيس المعاصـرة؛ ويقـال إن هـاتين السـلالتين ملكتـا طـويلاً في سكيبسيس. وبعد ذلك آلت السلطة إلى طغمة فئوية. وسكن الميلتوسيون بعد ذلك بينهم فباتوا يعيشون تحت حكم ديمقراطي. ومع ذلك بقي أحفاد السلالة الملكية يـدعون ملوكـاً ويتمتّعـون بـبعض الحقـوق التشـريفية. وبعـد ذلـك هجّـر أنتيغـون السكيبسيسيين إلى الإسكندرية، لكنّ ليسيماخ حرّرهم فيما بعد وعادوا من جديد إلى ديارهم.

53- ويرى ديميتري السكيبسيسي أنّ سكيبسيس غدت عاصمة إينياس، لأنّ المدينة في الوسط بين منطقة إينياس وليرنيس؛ ثمّ يقول، إن إينياس اضطر للّجوء إلى هنا هرباً من ملاحقة أخيلليس له. وفعلاً يقول أخيلليس:

أم أنك لا تذكر عندما اصطدك وحيداً عند القطيع،

وطاردتك عبر جبال إيدّا، وبأيّ سرعة عدوت أمامي؟

ولم تجرؤ على أن تلتفت إلى الوراء أيها الطريد!

ومن الجبال هربت، واختبأت في أسوار ليرنيس؛

لكني حوّلت هذه المدينة إلى ركام.

(*الإلياذا* XX، 188)

ولكـنّ الخرافات المتداولة اليوم عن إينياس لا تتوافق مع ما قلته عن ظروف تأسيس سكيبسيس. فبحسب هذه الخرافات، أنّ إينياس نجا من ويلات الحرب بفضل عدائه لبريام:

... كان ناقماً على بريام دائماً:

لأنّه الأكثر بسالة، ولم يحظ من الشيخ

بالتكريم الذي يستحقّ،

(*الإلياذا* XIII، 460)

أمّا أبناء أنتينور وأنتينور نفسه، الذين كانوا معه في الحكم، فقد نجوا بفضل حسن الضيافة الذي كان قد استقبل به منيلايوس في بيت أنتينور. ويروي سوفوكليس

فعلاً[82]، إنه لدى تدمير إيليون كان ثمّة رقعة من جلد فهد معلّقة على باب منزل أنتينور علامة على أنه ينبغي عدم مسّ هذا البيت بأذى. وعلى هذا النحو نجا أنتينور وأبناؤه، ووصلوا مع الناجين من الإينيتيين إلى تراقيا، وانتقلوا من هناك إلى جينيتيكا الواقعة على البحر الأدرياتيكي. فجمع إينياس مع والده أنخيس وابنه اسكانيوس عدداً كبيراً من المرافقين وأبحر في البحر. وقد زعم بعض الكتّاب أنه سكن على مقربة من الأوليمب المقدوني، بينما زعم آخرون إنه أسّس مدينة كابي قرب مانتينيا في أركاديا، وأخذ من كابيوس اسم المدينة التي أسّسها؛ وأخيراً يرى فريق ثالث، إنه وصل مع الطروادي إيليموس إلى إيجيستا الصقلية واستولى على مدينتيّ أريكس وليليبيه، ودعا النهرين القريبين من إيجيستا باسم سكاماندرس، وسيمويس. وجاء من هناك إلى لاسيوم حيث استقرّ بعد أن تلقّى أمراً من الموْحى بالبقاء هناك حيث يأكل مائدته. وقد حصل له في بلاد اللاتين قرب لافيني، حيث بسط عدداً كبيراً من أرغفة الخبز على الأرض لأنه لم يكن لديه منضدة، وأكلها مع اللحم الذي عليها. ولكن يبدو أنّ هوميروس يخالف هاتين الروايتين معاً، كما يخالف أيضاً الرواية التي سيقت أعلاه عن مؤسّسي سكيبسيس. فالشّاعر يشير بوضوح إلى أنّ إينياس بقي في طروادا، وبعد هلاك سلالة بريام ورث السلطة الملكية وأورثها لأبناء أبنائه:

سلالة بريام يمقتها كرونيون الرب منذ القدم.

منذ الآن سيملك إيناس على الطرواديين بجبروت،

هو وأبناؤه من أبناء الذين سيولدون من بعد

(*الإلياذا* XX، 306)

وفي هذه الحال حتّى خلفاء سكاماندرس لم يكن باستطاعتهم أن ينجوا. ويفترق هوميروس كثيراً جدّاً عن المؤلّفين الآخرين الذين يزعمون أنّ إينياس جاب الأرجاء حتّى وصل إيطاليا، بل يرغمونه على أنّ يفارق الحياة هناك. فبعضهم يكتب:

من الآن سيحكم إينياس جميعهم[83] بجبروت،

هو وأبناؤه من أبنائه،

وهم يقصدون بهذا الرومان.

54- وخرج من سكيبسيس فلاسفة سقراطيون: إراستوس، وكوريسكوس، ونيليوس بن كوريسكوس؛ ولم يكن هذا الأخير مجرّد تلميذ في حلقات أرسطو

وثيوفراسـت وحسـب، إنمـا ورث عـن هـذا الأخـير مكتبتـه الـتي كانـت تحتـوي علـى مجموعة كتب أرسطو. ومن المعروف أن أرسطو أعطى مكتبته لثيوفراست وترك له مدرسته أيضاً. وعلى حدّ علمي أنّ أرسطو كان أوّل من أخذ يجمع الكتب، وهو الذي علّم ملوك مصر تأسيس المكتبات وتصنيفها. وأعطى ثيوفراست المكتبة إلى نيلييوس، فنقلها هذا إلى سكيبسيس وأورثها لورثته الذين كانوا أشخاصاً عاديين، فاحتفظوا بالكتب تحت الأقفال، ولم يولوها العناية الواجبة. ولمّا علموا أنّ الملوك الذين كانت المدينة عندئذٍ تحت حكمهم يبحثون بشغف عن الكتب لتأسيس مكتبة في بيرغاموس، أخفوا المكتبة في حفرة تحت التراب. وبعد ذلك باع أحفادهم أخيراً كتب أرسطو وثيوفراست التي كانت الرطوبة والديدان قد ألحقت بها أذى كبيراً، باعوها لأبيلليكونت التيوسي لقاء مبلغ كبير. أمّا أبيلليكونت فقد كان على أغلب الظنّ هاوياً للكتب أكثر منه محباً للعلم. ولذلك عندما حاول أن يرمم الأماكن التي أتلفتها الديدان، قارن المخطوط بنسخ جديدة عن النص، وأكملها بطريقة خاطئة ثمّ أصدر كتباً مليئة بالأخطاء. وتبيّن أن الفلاسفة المشّائين لم يكن لديهم كتب البتّة بعد ثيوفراست، ما عدا بعض المؤلّفات التي غلب على أكثرها طابع البساطة والاعتياد، ولذلك لم تتوفّر لهم إمكانيات الاشتغال بالفلسفة، فاقتصر عملهم على عرض النصوص العامّة التي غلب عليها طابع البلاغة اللغوية. أمّا ممثلو المشّائية الذين جاؤوا بعدهم، فقد كانوا في وضع أفضل، إذ بات بإمكانهم بعد أن ظهرت هذه الكتب أن يشتغلوا بالفلسفة ويعرضوا رؤى أرسطو، لكنّ كثرة الأخطاء في نصّ أرسطو غالباً ما أرغمهم على أن يصفوا استنتاجاتهم بأنها ممكنة، أو تحتمل الخطأ والصواب. وكانت لروما مساهمة كبيرة في شيوع هذه الحالة. فبعد وفاة أبيلليكونت مباشرة حمل سولاّ مكتبته إلى روما، لأنّ سولاّ كان قد استولى عندئذٍ على أثينا. وعندما وصلت المكتبة إلى روما وقعت بين يديّ اللغوي تيرانيون الذي كان من أتباع فلسفة أرسطو، فقد أجاد هذا تملّق ناظر المكتبة، وهذا ما كان يفعله بعض تجار الكتب أيضاً؛ لقد كان هؤلاء يستخدمون ناسخين كفاءتهم ضعيفة، ولم يكن هؤلاء يقارنون النسخ بعضها مع بعض، وهذا ما كان يحصل للكتب الأخرى أيضاً التي كانت تنسخ لتباع هنا[84]، وفي الإسكندرية. ولكنّ كثيرين تحدّثوا عن هؤلاء بما يكفي.

55- وينحدر من سكيبسيس أيضاً، ديميتري الذي ذكرته مراراً في عملي هذا، وكان قد كتب بحثاً تناول فيه «التنظيم القتالي عند الطرواديين». وهو لغويّ

أيضاً؛ وقد عاش ديميتري في الزمن الذي عاش فيه كراتيت وأريستارخ. وجاء بعدهم ميترودور الذي تحوّل من الفلسفة إلى العمل السياسي، وعلّم البلاغة في أكثر مؤلّفاته؛ فقد استخدم أسلوباً جديداً فريداً من نوعه بَهر به كثيراً من قرّائه. وبفضل شهرته استطاع على الرغم من ضيق ذات اليد أن يعقد قراناً باهراً في خلكيدون، وكان يعرّف عن نفسه بصفته خلكيدونياً. وبعد أن نجح في أن يشغل مكانة عند ميتريدات إيفباتور، رحل معه إلى البونتس هو وزوجته، وبعد أن شغل منصباً قضائياً حظي بمكانة رفيعة جدّاً؛ فقد كان ممنوعاً الاعتراض على حكمه لدى الملك. ولكنّ هناءه لم يكن وطيداً: لقد أفضت به عداوة الأقلّ منه عدلاً إلى الانفصال عن الملك في أثناء السفارة التي أرسلت إلى تيغران الأرمني. أمّا تيغران فقد أعاده رغماً عنه إلى إيفباتور عندما كان هذا قد طرد من مملكة والده. ولكنّ ميترودور توفي في الطريق: من غير المعروف ما إذا كان قد أعدم بأمر من الملك[85]، أم مات بسبب المرض، فهم يتحدّثون عن الاحتمالين. وأنا بهذا أكون قد قلت ما أعرفه عن السكيبسيسيين.

56- وبعد سكيبسيس يأتي أنديرا، وبيوني، ومنطقة غارغارا. وعلى مقربة من أنديرا يوجد حجر يتحوّل لدى احتراقه إلى حديد، وعندما يصهر بعد ذلك في فرن الصهر مع نوع معيّن من أنواع التربة، يعطي الزنك الذي يتحوّل لدى إضافة النحاس إليه إلى خليط يدعوه بعضهم «نحاساً صخرياً»[86]. كما يستخرجون الزنك أيضاً من موقع قريب من تمولوس. إن هذه هي الأماكن التي شغلها الليليغيس، ومثلها المناطق القريبة من آسّوس.

57- وآسوس مدينة تحظى بحماية الطبيعة، كما أنها محصنة تحصيناً جيّداً، فالصعود إليها من البحر والميناء شاقولي وطويل، ولذلك كان ستراتونيك الكيثاريدي محقاً حينما سحب عليها قول هوميروس:

تعال إلى آسوس[87]، فتبلغ حدود موتك أسرع.

(*الإلياذا* VX، 143)

وميناء آسوس مزوّد بمرطم أمواج كبير. وإليها ينتمي الفيلسوف الرواقي كليانثوس الذي تسلّم قيادة المدرسة من زينون الكيتي وتركها من بعده لكريسيب السومي، وهنا عاش أرسطو بسبب قرابته مع التيران هرميوس. وكان هذا خصياً وعبداً لدى أحد الصرّافين[88]. وإذ وصل إلى أثينا صار إلى تلميذ لأفلاطون وأرسطو.

ولمّا عاد من هناك غدا تيراناً مع سيّده الذي كان قد استولى على منطقتي أتارنيوس وآسوس. وبعد وفاة هذا الأخير ورثه هرميوس، فدعا إليه أرسطو وكسينوقراط وأولاهما كلّ عناية؛ بل أعطى ابنة شقيقه زوجة لأرسطو. وفي تلك الأثناء كان ممنون يعمل ستراتيجاً لدى الفرس، فدعا إليه هرميوس متظاهراً بصداقته ورغبته بعقد تحالف حسن الاستقبال وما شابه من الأمور [الأخرى] المختلفة؛ لكنّه ما لبث أن أمر بإلقاء القبض على التيران، وأرسله إلى الملك حيث أعدم شنقاً. لكنّ الفيلسوفين نجحا في الفرار من المناطق التي سيطر عليها الفرس.

58- ويدعو ميرسيلوس آسوس مستعمرة الميفيمنيين؛ أمّا هيلانيكوس فيرى فيها مدينة إيولية، مثلها مثل غارغارا ولامبونيا. فغارغارا أسّسها الإسوسيّون، لكنّ قلّة سكنتها، لأنّ الملوك أرسلوا إلى هناك مستوطنين من ميليتوبوليس بعد تدمير هذه الأخيرة. ولذلك تحوّل سكّان غارغارا، على حدّ قول ديميتري السكيبسيسي، من إيوليين إلى أشباه برابرة. ولكن، بحسب هوميروس أن هذه الأماكن كلّها كانت لليليغيس الذين يعدّهم بعضهم كاريين، فقد ذكرهم على حدة:

صفوف الكاريين عند البحر، وكذلك البيونيون ذوو

القسيّ المعقوفة، وهناك أيضاً قوات الليليغيس والكافكونيين...

(الإلياذا X، 428)

ولذلك كانت هذه القبيلة قبيلة مختلفة عن الكاريين؛ لقد عاش هؤلاء بين القبائل، تحت حكم إينياس والأقوام الذين يدعوهم هوميروس كيليكيين. وبعد أن خرّب أخيلليس أراضيهم ونهبها، نزحوا إلى كاريا واستولوا على مناطق غاليكارناس المعاصرة.

59- لكنّ مدينة بيداس التي هجروها اندثرت ولم يعد لها وجود. بيد أنه كان ثمّة في الشطر الداخلي من البلاد مدينة دعوها بيداسا؛ ولا تزال هذه المنطقة حتّى الآن تدعى بيداسّا. ويقال، إن الليليغيس بنوا 8 مدن؛ ففي الأزمنة الماضية كانت أعداد الليليغيس كبيرة إلى حدّ لم يكتفوا عنده بالاستيلاء على شطر من كاريا وصولاً إلى ميندس وبارغيليس، بل اقتطعوا أيضاً الشطر الأكبر من بيسيدا. وفيما بعد، عندما أخذوا يشنون حملات مشتركة مع الكاريين، استوطنوا شتّى أرجاء اليونان فتبعثرت قبيلتهم واندثرت تماماً. لقد جمع ماوسولوس ستاً من مدنهم الثماني في مدينة واحدة

هي مدينة غاليكارناس (كما يروي كاليسفين)، لكنّه أبقى سيانغيلا ومينندس على حالهما. ويروي هيرودوت[89]: إنه حينما حاقت بالبيداسيين وجيرانهم بليّة نبتت لكاهنات أثينا لحى؛ وقد حصل لهنّ هذا ثلاث مرّات. وثمّة مدينة صغيرة في منطقة ستراتونيكيا المعاصرة تدعى بيداس أيضاً. وحتى يومنا هذا يُرونك في كاريا كلها، وفي ميلتوس قبور الليليغيس، وتحصيناتهم، وآثار قراهم.

60- وبحسب هوميروس أنّ الكيليكيين سكنوا الساحل بعد الليليغيس: يشغل هذا الساحل الآن الأوراماتيون، والأتارنيتيون، والبيتانيون وصولاً إلى مصب كايك. وكما كنت قد قلت[90]، فقد شكّل الكيليكيون منطقتين: واحدة تحت حكم إيتيون، والأخرى تحت حكم مينيس.

61- ويدعو هوميروس طيبة مدينة إيتيون:

هاجمنا طيبة المقدّسة، مدينة الإيتيونيين؛

(الإلياذا I، 366)

ويشير الشّاعر بوضوح إلى أنّ كريسا ومعبد أبوللون السمينثي كانا له أيضاً، ولكن إذا كانوا قد أسروا كريسيدا في طيبة؛ فهو يقول:

... هاجمنا طيبة،

فدمّرنا المدينة، وحملنا كلّ ما غنمناه إلى المعسكر،

وقسمناه بيننا، حسب ديدن الآخيين.

وأعطينا ابنة كريسوس الجميلة الخدين لابن أتريوس.

(الإلياذا I، 366)

أمّا ليرنيس فهي على حدّ قوله، لمينيس لأنّ أخيلليس

دمّر ليرنيس نفسها، وأسوار طيبة العالية،

(الإلياذا II، 691)

وقتل مينيس وإيبيستروث. ولذلك عندما تقول بريسيدا:

أنت لم تتركني عندما جندل أخيلليس عدوّ المدينة

زوجي، دمّر مأوى مينيس،

(الإلياذا XIX، 295)

فإنهـا لم تكـن تعـني بقولهـا طيبـة (فهـي كانـت لإيتيـون)، بـل ليرنـيس. لقـد كانـت المدينتان تقعان في سهل دُعي فيما بعد سهل طيبة الذي يقال إن خصوبته تسببت قديماً بنزاع بين الميسيسيين والليديين، ثمّ فيما بعد بين إغريق إيوليدا وإغريق ليسبوس الذين استوطنوا المكان. ويشغل الأدراميتيون الآن الشطر الأكبر من هـذا السـهل، لأنّ طيبـة وليرنـيس تقعـان هنـا (وتعـدّ هـذه الأخـيرة حصـناً طبيعيـاً)؛ ولكـنّ المـدينتين مهجورتـان. وتبعـد المدينـة المدينـة الأولى عـن أدراميتـوس 60 مرحلـة، وتبعـد الثانيـة عنهـا 80 مرحلـة بالاتجاه المعاكس.

62- كما تقع كريسا وكيلاّ في منطقة أدراميتوس أيضاً، وحتى يومنا هذا ثمّة مكان قرب طيبة يدعى كيلاّ يقوم فيه معبد أبوللون الكيلّلي. ويجري عند هذا المكان نهر كيلّلوس الذي ينحدر من جبل إيدّا. وتقع هذه الأماكن على مقربة من منطقة أنتاندرس. وحتى نهر كيلّلوس في ليسبوس دُعي باسمه هذا على اسم هذه الكيلاّ؛ كما يوجد بين غارغارا وأنتاندرس جبل يحمل اسم كيلّلوس. ويقول دايسوس الكولوني، إنّ معبد أبوللون الكيلّلي في كولون كان قد تأسّس في بادئ الأمر على أيدي الإيوليين الذين وصلوا من اليونان بحراً. ويقولون، إن معبداً لأبوللون الكيلّلي قد شيّد في كريسا أيضاً، بيد أنه من غير الواضح ما إذا كان هذا أبوللون السمينثي أو أبوللون آخر مختلف عنه.

63- لقد كانت كريسا مدينة ساحلية صغيرة فيها ميناء؛ وإلى الأعلى منها قليلاً تقع طيبة. كما كان يقوم هنا أيضاً معبد أبوللون السمينثي، وفيها عاشت كريسيدا. ولكنّ هذا المكان مهجور الآن تماماً؛ كما نقلوا المعبد إلى كريسا المعاصرة قرب هاماكسيتوس بعد أن نزح الكيليكيون وحدهم وأقاموا في بامفيليا، بينما أقام الآخرون في هاماكسيتوس. ويزعم غير الضليعين في معرفة التاريخ القديم، إن كريسوس وكريسيدا عاشا هنا تحديداً، وإنّ هوميروس يذكر هذا المكان. ولكنْ، أوّلاً، لا يوجد ميناء هنا، بينما يقول هوميروس:

أسرعت السفينة الخفيفة ودخلت المرسى العميق صاخبة،

(الإلياذا I، 432)

وثانياً، لا يقوم المعبد على البحر، بينما يصفه هوميروس بأنه ساحلي:

وبعد ذلك نزلت كريسيدا من ماخرة البحار

وعندئذٍ قاد أوديسيوس الحاذق الفتاة إلى المحراب،

وردّها إلى حضن الشيخ؛

(الإلياذا I، 439)

زد إلى هذا أنّ هذا المكان لا يقع قرب طيبة، مع أن هوميروس يصوّره على مقربة، لأنّ كريسيدا وقعت أسيرة هناك كما يقول. وأيضاً لا يوجد أيّ مكان في منطقة الإسكندريين يدعى كيلاّ، كما لا يوجد هنا معبد لأبوللون الكيلّلي. لكن الشّاعر يجمع كيلا:

... يا أنت الذي يحرس كريسا،

وكيلاّ المقدّسة طائفاً حولهما.

(الإلياذا I، 37)

ولكنّهم يدلّون على كيلاّ في سهل طيبة على مقربة. ويبلغ امتداد الخطّ البحري من كريسا الكيليكية حتّى محطة السفن ما يقارب 700 مرحلة، أي ما يعادل إبحار نهار واحد تقريباً، وهو الوقت الذي استغرقته رحلة أوديسيوس البحرية[91]. لأنّ أوديسيوس إذ نزل من السفينة إلى الشاطئ، قدّم ذبيحته للإله من فوره، وبما أن المساء حلّ فقد قضى ليلته هناك، وفي الصباح الباكر أبحر عائداً. وبالكاد تشكل المسافة من هاماكسيتوس ثلث المسافة المذكورة أعلاه، وعليه فقد كان بإمكان أوديسيوس أن يبحر عائداً إلى محطة السفن فور انتهائه من تأدية طقوس تقديم الذبيحة. وعلى مقربة من معبد أبوللون الكيلّلي يقع قبر كيلّلوس الذي يشكل تلاًّ كبيراً. ويقولون، إنّ كيلّلوس كان حوذيّ بيلوبس، وقد حكم هذه البلاد. وربّما تكون كيليكيا قد أخذت اسمها منه، أو العكس.

64- وفي الأحوال كلّها ينبغي أن ننسب خرافات التيفكريين والفئران (فمن هنا جاء اللقب المقدّس «سيمينثيوس»، لأنّ «سمينثي» تعني «فئران»)، إلى هذه الأماكن. ويبرر الكتاب هذه الصفة المأخوذة من مثل هذه الكائنات الوضيعة، بالأمثلة الشبيهة الآتية. فمن الجراد (Pornopes) الذي يدعوه الإيتيون Kornopes، عبدوا هرقل «الكورنوبيون»، فهو الذي خلّصهم من الجراد؛ ويعبد الإريتريون الذين يعيشون في ميمامانس، هرقل تحت اسم إيبوكتون[92]، لأنه قضى على الديدان (Ipes) التي كانت تتلف عرائش الكرمة. وفعلاً، عند الإريتريين وحدهم لا وجود لهذه

الديـدان. وعنـد الرودوسـيين الـذين يـدعون النـدى العسـلي Erythibē (Erysibē)، معبـد لأبوللون الإريثيبي؛ ويدعو الإيوليون الآسـيون أحـد أشـهر العـام بورنوبيـون، لأنّ البيـوتيين يدعون الجراد بهذا الاسم ويقدمون الذبائح لأبوللون البورنوبيون.

65- ويـدعى المكـان الواقـع قـرب أدراميتـوس ميسـيا. وكـانـت هـذه في زمـن مـا تحت حكم الليديين، ولا تزال بوابات أدراميتوس حتّى الآن تدعى البوابات الليدية، لأنّ الليدين هم الذين أسّسوا المدينة، كما تقول الحكايات. ويلحقون بميسيا قرية أستيرا المجاورة؛ وكانت هـذه في زمـن مـا مدينـة صغيرة فيهـا معبـد لأرطميس الأسـتيرية مبنيّ علـى أرض مقدّسـة، وكـان الأنتانـدريون أقـرب جـيران المعبـد يـديرون شـؤونه بـإجلال وتبجيـل. وتقـع أسـتيرا علـى بعـد 20 مرحلـة مـن قريـة كـريسـا حيـث كـان ثمّـة معبـد لأرطميس أيضاً يقوم على أرض مقدّسة. وكـان يقـع هنـاك «سياج أخيلليس». وفي داخـل البلاد، على بعد 50 مرحلة، تقع طيبة الخاوية على عروشها، التي يقـول الشـاعر، إنهـا تقع «عند سفوح بلاكوس الكثيف الشجر»[93]؛ بيـد أنـه لا يوجد هنـاك مكـان يـدعى «بلاكوس» أو «بلاكس» البتّة، كما لا توجد هنـاك غابـة لتقـع عليـه، بصـرف النظـر عن قـرب إيدًا مـن المكـان. وتبعـد طيبـة عـن أسـتيرا قرابـة 70 مرحلـة، وعـن أنـديرا 60 مرحلة. ولكنّ هـذه كلّهـا أسمـاء أمـاكن مهجـورة أو سـكّانها قلائـل، أو أسمـاء أنهـار شتوية فقط؛ ولم تشتهر إلاّ بفضل الحكايات القديمة.

66- أمّـا آسـوس وأدراميتـوس فهمـا مـدينتان كبيرتـان. لكـنّ بليّـة نزلـت بأدراميتوس في زمن حرب ميتريدات، فقد قتل الإستراتيج ديودور، وهـو أحـد مـواطني أدراميتوس أعضاء مجلس المدينـة إرضـاء للملك؛ وقـدّم ديودور هـذا نفسـه فيلسـوفا مـن فلاسفة الأكاديمة قادراً على إدارة الجدال وتعليم البلاغة والبيان. وسافر مع الملك[94] إلى البونتس؛ لكنّه نال عقابه بعد أن أطيح بالملك؛ فقد وجهت إليـه دفعـة واحـدة جملـة من الاتهامات، وبما أنه كـان عـاجزاً عـن أن يتحمّل وزر العـار الـذي تسـبب بـه لنفسـه، فقد أمات نفسه جوعاً في مدينتي الأم. ومـن أبنـاء أدراميتـوس أيضـاً، الخطيـب الشـهير كسينوكلس الذي كان ينتمي إلى مدرسـة الخطابـة الآسـيوية؛ وكـان هـذا مـاهراً في الجدال مهارة لا يضـاهيه فيهـا أحـد، فقـد ألقـى خطبـة في السـينات دفاعـاً عـن مقاطعـة آسيا عندما اتهمت بمناصرة ميتريدات.

67- وتقع على مقربـة مـن أسـتيرا بحيرة لا قـرار لهـا تـدعى سـابرا، لهـا وقْـب في الشاطئ الصخري للبحر. ويتوضّع تحت أنديرا معبـد بـني تكـريمـاً لأمّ الآلهـة الأنديريـة،

وكهف جوفي يصل حتّى باليبا. وباليبا هذه قرية[95] تقع على بعد 130 مرحلة من أنديرا. أمّا الممرّ الجوفي فقد اكتشفه تيس ماعز وقع في فتحة وعثر عليه في اليوم التالي راعٍ قرب أنديرا كان قد جاء إلى هنا مصادفة ليقدّم ذبيحة. وأتارنيوس، هي مقرّ التيران هرميوس؛ تليها بيتانا، وهي مدينة إيولية فيها ميناءان؛ ويجري بالقرب منها نهر إيفنوس الذي مدّ سكّان أدراميتوس منه أنبوب ماء. وينتمي إلى بيتانا أركسيلايوس الأكاديمي الذي تلقّى تعليمه مع زينون الكيتي لدى بوليمون. وثمّة على البحر في بيتانا مكان يدعى «أتارنيوس الأدنى من بيتانا» مقابل الجزيرة التي تدعى إيلييوسا. وبحسب الروايات أن الآجرّ في بيتانا يطفو على سطح الماء، وهذا ما يحصل لنوع معروف من أنواع التربة[96] في تيرينيا، فالتراب أخف من حجم من الماء مماثل له ولذلك يطفو على السطح. ويروي بوسيدونيوس أنه رأى في إيبيريا آجرّاً طافياً على سطح الماء مصنوعاً من تربة طينية محدّدة ينظّفون بها الآنية الفضيّة. وبعد 30 مرحلة من بيتانا يصبّ نهر كايك في الخليج الإيلايتي. وعلى ضفّة كايك الأخرى، بعد 12 مرحلة من النهر، تقع المدينة الإيولية إيلييا التي يستخدمها البرغاميون ميناء، وهي تقع على بعد 120 مرحلة من برغاموس.

68- وبعد 100 مرحلة تقع رأس كانا البحرية التي ترتفع قبالة ليكتوس مشكّلة الخليج الأدراميتي الذي يعدّ الخليج الإيلايتي جزءاً منه. وكانا هي مدينة صغيرة للوكريي كينوس، تقع في منطقة كانيوس قبالة أقصى الأطراف الجنوبية لليسبوس. ويمتّد هذا المكان حتّى الجزر الأرغينوسية والرأس البحرية الواقعة فوقها والتي تدعى اليوم إيغا، كالحيوان على حدّ سواء[97]؛ وينبغي أن ينطق المقطع الثاني من هذه الكلمة ممدوداً (وAktā مثل Aigā ، Archā)، لأنّ الجبل الذي يدعى الآن كانا أو كاني، دُعي كلّه هكذا. ويحيط البحر بالجبل من الجنوب والغرب، ويمتدّ تحته من جهة الشرق سهل كايك، وتقع إلى الشمال منه منطقة إيلييوس. والجبل بحدّ ذاته مضغوط بشدّة، مع أنه يشكّل منحدراً نحو بحر إيجة، ومن هناك أخذ اسمه[98]. لكنّ الرأس البحرية نفسها دعيت فيما بعد إيغا، كما تقول سابفو[99]، أمّا الجزء الآخر منها فقد دعي كانا أو كاني.

69- وبين إيليا، وبيتانا، وأتارنيوس، وبيرغاموس، تقع تيثرانيا على هذا الجانب من نهر كايك على مسافة لا تزيد على 70 مرحلة عن كلّ مكان من هذه الأماكن. وبحسب الرواية أن تيثرانس كان ملكاً على الكيليكيين والميسيسيين.

ويروي يوريبيدس[100] إن أليبوس والد أفغا عرف بالعار الذي ألحقه بها هرقل، فوضعها مع طفلها تيليث في صندوق ورمى بهما إلى البحر. ولكنّ عناية أثينا ساقت الصندوق عبر البحر إلى مصبّ نهر كايك؛ فاستقبل تيثرانس المنكوبين، ثمّ تزوّج الأم وتبنّى الطفل. وغني عن البيان القول، إن هذه القصة ليست سوى أسطورة؛ بيد أنه كان ينبغي أن يحصل تقاطع ما للظروف يجعل ابنة الأركادي تتزوّج من ملك ميسيا ويرث ابنها عرش المملكة. وعلى أي حال من الثابت تاريخياً أن تيثرانس وتيليث صارا إلى ملكين على البلاد الواقعة على مقربة من تيثرانيا ونهر كايك. ولكنّ هوميروس لا يتذكر هذه القصة إلاّ إلى حدّ معيّن:

هكذا أهلك يفريبيلوس بن تيليث بالنحاس المهلك،

وفي كلّ مكان حول القائد الشاب، تساقط الكيتون

كلهم ضحايا هدايا النساء...

(*الأوذيسا* XI، 521)

وسرعان ما يطرح علينا في غضون ذلك أحجية. فنحن لا نعرف من هم الذين قصد إليهم الشّاعر «بالكيتيين»، ولا ماذا يعني بقوله: «ضحايا هدايا النساء». ولكن حتّى اللغويون الذين يقابلون بين أساطير لا أهمية لها، غالباً ما يظهر أنهم أكثر مهارة في الاختلاق منهم في إيجاد الحلول.

70- ولكن فلندع هذا الآن؛ وإذ نلتفت إلى ما هو أكثر وضوحاً، فإننا نقول، يبدو أن يوريبيلوس بحسب هوميروس، ملك على المنطقة القريبة من كايك، وعليه ربّما يكون فريق ما من الكيليكيين قد خضع لسلطته؛ فقد كان لهؤلاء حينئذٍ ثلاث ملكيات وليس اثنتين. وما يؤكّد هذا الخبر، هو أن في منطقة إيلايت نهر شتوي صغير يدعى كيتيوس؛ ويصبّ هذا النهر في نهر آخر مثله، ويصبّ هذا الأخير في نهر آخر ليصبّوا في نهاية المطاف في كايك. ولكنّ كايك لا ينبع من إيدّا، كما يقول باخوليدس[101]؛ وليس صحيحاً أيضاً ما يقوله يوريبيدس عن أنّ مارسيوس

... في كيلينا المجيدة يعيش،

في البلاد التي يقع إيدّا على أطرافها

(*مقطع 1085، ناؤوك*)

إنّ كيلينا بعيدة جدّاً عن إيدّا، وكذلك منابع كايك، فهي تظهر في السهل.



وتيمنوس جبل يفصل بين هذا السهل وسهل آبيا الواقع داخل البلاد فوق سهل طيبة. ويجري من تيمنوس نهر ميسوس الذي يصبّ في كايك تحت منابعه. وعلى هذا الأساس يؤوّل بعضهم كلمات إيسخيليوس في فاتحة مقدّمة «المرميدونيين»:

إيو! كايك، إيو! نهران ميسيسيان.

(مقطع 143، ناؤوك)

وعلى مقربة من المنابع تقع قرية هيرغيثا التي هجّرا أثّال إليها سكّان هيرغيثا الطروادية بعد دمار ديارهم.

الفصل الثاني

1- بما أنّ ليسبوس جزيرة تستحق أن توصف بالتفصيل، وهي واقعة قبالة الساحل من ليكتوس إلى كانا، كما تتوضّع حولها جزر صغيرة، بعضها خارج المضيق، وبعضها الآخر بين المضيق والبرّ، لذلك حان الوقت لكي نتحدّث عنها كلّها. فهذه الجزر بدورها جزر إيولية، أمّا ليسبوس فهي بشكل ما عاصمة المدن الإيولية كلّها. وينبغي أن نبدأ الوصف من هناك، حيث كنت قد تجاوزت الساحل الواقع مقابل الجزيرة

2- وهكذا إذا أبحرت من ليكتوس إلى آسوس، فإن بداية أرض ليسبوس ستكون عند سيغريوس، وهو الطرف الشمالي للجزيرة. وتقع هنا المدينة الليسبوسية ميفيمنا، على بعد 60 مرحلة من الشاطئ، في مكان ما بين بوليميدس وآسوس. وبما أنّ محيط الجزيرة كلّه 1100 مرحلة فقط، فإن المسافة بين الأماكن كلّ على حدة: من ميفيمنا إلى ماليا، وهي أقصى طرف جنوبي، إذا تركنا الجزيرة على الجانب اليميني في النقطة التي تقع فيها كانا مباشرة قبالة الجزيرة إذ تبدو كأنها تتاخمها، تبلغ 340 مرحلة؛ ومن هناك إلى سيغريوس (وهذه المسافة تساوي طول الجزيرة)، 560 مرحلة؛ ثمّ إلى ميفيمنا 210. وتقع ميتيلينا، وهي أكبر مدن الجزيرة، بين ميفيمنا وماليوس، على بعد 70 مرحلة عن هذه الأخيرة، و120 مرحلة عن كانا، ومثلها عن الجزر الأرغينوسية؛ وهذه الأخيرة ثلاث جزر صغيرة قرب البرّ، قبالة كانا. وأضيق أجزاء الجزيرة يقع بين ميتيلينا وميفيمنا، عند قرية تدعى إيغيروس في منطقة ميتيلينا، فلا يتجاوز طول المعبر إلى يفريبوس البيرّي 20 مرحلة. وتقع بيرّا على الجانب الغربي من

ليسبوس، على بعد 100 مرحلة من ماليا. وفي ميتيلينا ميناءان، الجنوبية منهما مغلقة ويمكنها أن تستقبل 50 سفينة نقل، والشمالية كبيرة ويحميها مرطم أمواج. وتقع أمام الميناءين جزيرة صغيرة تشكّل جزءاً من المدينة التي بنيت هناك. وهذه المدينة مزوّدة بكلّ ما هو ضروري.

3- لقد عاشت في ميتيلينا شخصيات شهيرة مثل بيتاكوس الذي كان واحداً من الحكماء السبعة، والشّاعر ألكييوس وشقيقه أنتيمينيدس. ويقول ألكييوس، إن أنتيمينيدس حارب مع البابليين وفاز في معركة كبيرة وأنقذ البابليين من نكبات كبيرة كانت ستحلّ بهم،

(يقول):

ملوكاً من العمالقة أنت قتلت،

بارزت من قامته خمس أذرع.

(مقطع 33، بيرغك)

واشتهرت معه في الوقت نفسه سابفو، التي تعدّ ظاهرة مذهلة. فعلى حدّ علمي أنه على امتداد كلّ هذا الوقت الذي حفظه الناس في ذاكرتهم، لم تظهر أيّ امرأة يمكن أن تدانيها في ميدان الشعر. وفي تلك الأزمنة حكم المدينة عدد من التيران بسبب النزاعات الأهلية. وإلى هذه النزاعات تنتمي قصائد ألكييوس التي دعيت بالقصائد «المتمرّدة». وكان بيتاكوس واحداً من هؤلاء التيران أيضاً. وقد عدّ ألكييوس بيتاكوس تيرانا كغيره من التيران الآخرين: ميرسيلوس، وميلانكروس، والكليناكتيدس وبعض الآخرين، مع أنّ النزعات الانقلابية لم تكن غريبة عنه هو نفسه. لقد استغل بيتاكوس حيازته لمفاصل السلطة كلّها لكي يقضي على الطغمويين، وبعد أن استأصل شأفتهم، أعاد للمدينة استقلالها. وبعد أن مضى زمن طويل ولد هناك عالم البلاغة ديوفانوس، وعاش هناك في زمننا بوتامون، وليسبوكلس، وكريناغوراس، والمؤرّخ ثيوفانوس. وكان هذا الأخير رجل دولة، فبفضل مواهبه نسج علاقات ودّية مع بومبييوس الأكبر وساعده على تحقيق مشاريعه كلّها بنجاح. وأعلى تبعاً لهذا من شأن وطنه، مرّة عبر بومبييوس، ومرّة بإمكاناته الذاتية؛ فغدا أشهر إغريق زمنه. لقد ترك ثيوفانوس ولداً دعاه باسم مارك بومبييوس، وقد عيّن أغسطس قيصر هذا الأخير في وقت ما وكيلاً على آسيا؛ وهو الآن واحد من

أقرب أصدقاء طيباريوس. وكاد الأثينيون أن يجلّلوا تاريخهم بالعار عندما اتخذوا قراراً بقتل الميتيلينيين كلّهم بدءاً من الفتيان؛ لكنّهم عادوا وألغوا قرارهم، ولم يصل القرار الجديد إلى الستراتيجيين إلاّ قبل يوم واحد من تنفيذ القرار الأوّل[1].

4- لقد دمّرت بيرّا وسوّيت بالأرض، لكنّ ضواحيها لا تزال مسكونة؛ وثمّة ميناء هناك ينطلق منه معبر إلى ميتيلينا امتداده 80 مرحلة. وبعد بيرّا تأتي إريسوس التي تقع على هضبة، وتمتدّ حتّى البحر. ومن هنا إلى سيغريبوس 28 مرحلة. وإريسوس هي مسقط رأس ثيوفراست وفانيوس، الفيلسوفين المشّاءين، تلميذي أرسطو. وفي الأوّل كان اسم ثيوفراست تيترتاموس، لكنّ أرسطو دعاه ثيوفراست ليتحاشى تنافر أصوات النطق بالاسم، ويوحي في الوقت نفسه بشغفه برشاقة الأسلوب. وكان فعلاً يعلّم تلاميذه الفصاحة، لكنّ ثيوفراست كان أكثرهم فصاحة. وبحسب الموقع تأتي بعد سيغريبوس مدينة أنتيسّا بمينائها؛ تليها ميفيمنا، مسقط رأس أريون، الذي وفق الأسطورة التي يرويها هيرودوت ومريدوه، رماه قطاع الطرق في البحر، لكنّه نجا عائماً على ظهر دلفين حمله إلى تينار. وكان أريون من القيثاريدس[2]؛ ويقولون، إن ثيرباندرس كان فناناً في الجنس الموسيقي نفسه، كما أنه ولد على الجزيرة نفسها. وكان ثيرباندرس أوّل من أشاع استخدام القيثارة ذات الأوتار السبعة بدلاً من القيثارة ذات الأوتار الأربعة، كما ورد في أبيات الشعر المنسوبة إليه:

نترك الأغنية التي تألّفت من أربعة أصوات،

وسننشد لك الأناشيد على الثيرمينغ السباعي الأوتار

(مقطع 5، بيرغك)

كما كان المؤرّخ هيلاّنيكوس، وكالليس شارح سابفو وألكييوس، من ليسبوس أيضاً.

5- وتقع في المضيق بين آسيا وليسبوس حوالي 20 أو كما يقول تيموسفين 40 جزيرة صغيرة. وتدعى هذه الجزر كلّها باسم مركّب واحد هو هيكاتونيسّا، كما هي حال البيلوبونيز، وفي مركّبات الكلمات هذه يكون الحرف الثاني نيو حرفاً زائداً عادة، كما في اسم أسماء ميونيس، وبروكونيس، غالونيس؛ ولذلك فإن هيكاتونيسا هي كأنها أبوللونيسّا[3]؛ فهيكاتوس هو أبوللون. فعلى امتداد هذا الساحل كلّه، حتّى تينيدوس تنتشر فعلاً عبادة أبوللون بألقابه: السمينثي،

والكيلّي، والغريني، أو ببعض الألقاب الأخرى. وتقع على مقربة من هذه الجزر جزيرة بوردوسيلينا بمدينتها التي تحمل الاسم عينه؛ وتقع أمام هذه المدينة جزيرة أخرى أكبر منها وتحمل اسمها عينه؛ والجزيرة غير مأهولة، لكنّ فيها معبد مكرّس لأبوللون.

6- ولكي يتفادى بعضهم تنافر النطق بالأسماء يقولون، إنه ينبغي في هذه الحالة أن ينطق اسمها «بوروسيلينا»؛ أمّا أسبوردين، فهو اسم جبل صخري قاحل يقع قرب بيرغاموس- ومثله «أسبورين»؛ أمّا المعبد القائم هناك فينبغي أن يدعى معبد أسبورينا، والدة الآلهة[4]. ولكن ما الذي يمكن قوله عن أسماء مثل Pordalis، Saperdes، Perdikkas[5]، وعن كلمات سيمونيدس:

مغادراً في ملابس بورداكية

(مقطع 21، كروزيوس)

بدلاً من أن يقول «مبللة تماماً»؛ أو عن تعبير ورد في مكان ما في كوميديا قديمة يقول:

مكان بورداكيّ،

أي «مستنقعي»؟ - تقع ليسبوس على مسافة واحدة من تينيدوس، وليمنوس، وكيوس، وتحديداً 500 مرحلة تقريباً.

الفصل الثالث

1- بما أنه كانت تربط بين الليليغيس، والكيليكيين، والطرواديين مثل هذه الصلة من القرابة، فقد أخذوا يبحثون عن سبب عدم إدراجهم في «سجلّ الطرواديين». ربّما يكون عدد قليل من الكيليكيين الذين نجوا بعد هلاك زعمائهم ودمار مدنهم خضع لهيكتور بصفته قائداً عسكرياً. لأنّ إيتيون وأبناءه عدّوا من الهالكين قبل تصنيف «سجلّ الطرواديين»:

لقد أمات أخيلليس الذي لا مثيل له، أبي الشيخ
في اليوم الذي خرّب فيه مدينة الشعوب الكيليكية...
طيبة ذات البوابات العالية...
إخوتي الأشقاء (بقي منهم سبعة في البيت)
انتقلوا في يوم واحد إلى مأوى هاديس،
السيّئو الطالع قتلهم أخيلليس البارع السريع القدمين، كلّهم.

(الإلياذا VI، 414)

وكذلك الذين كانوا خاضعين لسلطة مينيس، فقدوا قادتهم ومدينتهم:

... أطاح بإيبيستروث ومينيس...

... ودمّر مأوى مينيس.

(الإلياذا II، 692، XIX، 296)

ويصوّر هوميروس الليليغيس مشاركين في المعارك، عندما يقول:

صفوف الكاريين عند البحر، والبيونيون ذوو القسيّ

المعقوفة، وهناك أيضاً قوّات الليليغيس والكافكونيين...

(الإلياذا X، 428)

ويقول في مكان آخر:

طعن ساتنيوس طعنة قاتلة، إذ هاجمه برمح مثقّف،

ساتنيوس بن إينوبس الذي أنجبته الحورية نييدس

لإينوبس راعي القطعان، على ضفاف ساتينيون.

(الإلياذا XIV، 443)

فسلالتهم لم تتقلّص إلى حدّ عدم قدرتهم على تشكيل فصيل ما خاص بهم وحدهم، خاصة أنّ ملكهم بقي على قيد الحياة:

ألتيس الذي يملك على الليليغيس الشجعان؛

(الإلياذا XXI، 86)

كما أن مدينتهم لم تدمّر كلّها؛ فالشّاعر يضيف قائلاً:

يمتلك المدينة العالية بيداس التي عند مياه ساتنيون

(الإلياذا XXI، 87)

ومع ذلك أغفلهم هوميروس في «السجل»، ولم يرَ أنهم فصيل له أهمية تذكر لكي يدرجه هناك، أو لأنه أدرجهم في عداد التابعين لهيكتور بسبب صلة القرابة الوثيقة التي تجمع بينهم. فشقيق هيكتور، ليكاون يقول:

... قصير العمر ولدتني أمي لاوثويا،

ابنة ألتيس الشيخ، ألتيس الذي يملك

على الليليغيس الشجعان.

(الإلياذا XXI، 84)

هذا هو قولي في هذه المسألة، مع بعض الترجيح.

2- وإذا بحثنا عن وجود إشارات دقيقة لدى الشّاعر إلى الحدود التي امتدت إليها مناطق الكيليكيين، والبيلاسيغيس، ومن يدعون كيتيين، الخاضعين لسلطة يفريبيلوس، والذين كانوا يعيشون بين هاتين القبيلتين، فإن هذا كلّه لا يمكن الحديث عنه إلاّ افتراضياً. وأنا كنت قد تحدّثت عن الكيليكين قدر إمكاني، وأشرت لدى حديثي عنهم إلى سبب اقتصار منطقتهم على منطقة نهر كايك. أمّا البيلاسيغيس فثمّة أساس فيما قاله هوميروس والتاريخ على وجه العموم لتوضيعهم على مقربة من الكيليكيين. فهوميروس يقول:

لقد قاد هيبوثوي قبائل البيلاسيغيس الرماحة،

أولئك الذين يعيشون في حقول لاريسا الوعرة الخصيبة؛

قادهم هيبوثوي وبيلييوس، سليل أريس،

وكلاهما ابن لليثوس ابن تيوتاميدس.

(الإلياذا II، 840)

ويشير الشّاعر في أبياته هذه بوضوح، إلى أعداد البيلاسيغيس الكبيرة (فهو لا يتحدّث عن قبيلة إنّما عن قبائل)، ويقول، إنهم كانوا يقطنون «في لاريسا». والحقيقة أن هناك كثيراً من اللاريسات، بيد أننا ينبغي أن نعتقد بأن الشّاعر قصد إلى واحدة من اللاريسات القريبة؛ وربّما كان اختيار تلك التي قرب كيما هو الاختيار الأصحّ. فثمّة واحدة من اللاريسات الثلاث، تلك التي عندها ماكسيتوس، تقع في مواجهة إيليون مباشرة، وهي قريبة جدّاً منها، فالمسافة بينهما تقارب 200 مرحلة؛ ولذلك لا يجوز التأكيد يقيناً أن هيبوثوي سقط في المعركة التي دارت من أجل جثمان باتروكليس «بعيداً عن لاريسا موطنه الأمّ»، وتحديداً هذه اللاريسا، بل على أغلب الظنّ بعيداً عن لاريسا التي عند كيما، لأنّ المسافة بينهما حوالي 1000 مرحلة. ولاريسا الثالثة هي قرية في منطقة إفسس في سهل كايسترا، ويقولون، إن هذه كانت من قبل مدينة فيها معبد لأبوللون اللاريسي، وهي تقع أقرب إلى تمولوس من إفسس؛ إذ تبعد عن هذه الأخيرة 1800 مرحلة، لذلك ينبغي أن تعدّ تابعة لسلطة الميونيين. وفيما بعد، عندما بلغ الإفسيسيون درجة عالية من الجبروت، انتزعوا شطراً كبيراً من أراضي الميونيين الذين ندعوهم نحن الآن ليديين، ولذلك لا يمكن أن تكون هذه

اللاريسا لاريسا البيلاسيغيس، بل على أغلب الظنّ أن المقصود، هي لاريسا الثانية الواقعة قرب كيما. والحقيقة أنه ليس لدينا أي قرينة قويّة تؤكّد على أنه كانت هناك عندئذٍ لاريسا في سهل كايسترا، ولا حتّى إفسس نفسها؛ بينما يشهد كلّ التاريخ الإيولي الذي كان قد بدأ غداة حرب طروادا بقليل، على أن لاريسا التي عند كيما كانت موجودة.

3- وبحسب الروايات، أنّ الإيوليين اندفعوا من فريكوس، الجبل اللوكري الذي يرتفع فوق ثرموبل، وجاؤوا إلى المنطقة التي تقع كيما فيها الآن. فوجدوا البيلاسيغيس هنا وقد أنهكتهم حرب طروادا، بيد أنهم مع ذلك كانوا يسيطرون على لاريسا التي تبعد 70 مرحلة عن كيما فبنوا ضدّ البيلاسيغيس ما لا يزال حتّى الآن يدعى «السور الجديد»[1] الذي يبعد 30 مرحلة عن لاريسا، وبعد أن أخذوا لاريسا أسّسوا كيما وهجّروا إليها من بقي على قيد الحياة من سكّان لاريسا. وتيمّناً بالجبل اللوكري يدعون كيما، ومثلها لاريسا باسم فريكونيدس. ولاريسا اليوم مدينة مهجورة. ويقولون، إن السياق العام لمجرى التاريخ يجيز لنا أن نستنتج أنّ البيلاسيغيس كانوا قبيلة عظيمة. ففي مؤلّفه «تأسيس المدن»، يؤكّد مينيكراتوس الإيليي، أنّ الساحل الإيوني المعاصر كلّه، ابتداء من ميكّال، وكذلك الجزر المجاورة، كان مسكوناً بالبيلاسيغيس. ولكن الليسبوسيين يزعمون مع ذلك، أنهم كانوا تحت حكم بيليوس الذي يدعوه الشّاعر حاكم البيلاسيغيس[2]؛ ولا يزال حتّى يومنا هذا يحمل اسمه جبل من جبال بلادهم: جبل بيلييوس. ويقول الكيوسيون، إن بيلاسيغيس جاؤوا من تساليا هم الذين أسّسوا قراهم. لقد كان البيلاسيغيس قبيلة متنقلة دائمة الترحال؛ وقد بلغت درجة عالية من الجبروت، لكنّها انهارت بسرعة، تحديداً أثناء هجرة الإيوليين والإيونيين إلى آسيا.

4- لقد كان مصير اللاريسيين فريداً، خاصة الكايستريين، والفريكونيين، والتساليين. وتكمن المسألة هنا في أنّ هؤلاء كلّهم سكنوا في بلاد تشكلت من الترسبات النهرية: فريق في منطقة نهر كايستروس، وفريق في منطقة نهر جيرم، وفريق ثالث في منطقة نهر بينييوس. - يقال، إن سكّان لاريسا الفريكونية عبدوا بياساً. ويروى أنّ هذا كان حاكم البيلاسيغيس الذي أُغرم بابنته لاريسا واغتصبها، لكنّه عوقب على إذلالها. فمرة لمحته ابنته منحنياً على خابية نبيذ، فأمسكت بقدميه وقلبته إلى داخل الخابية. هكذا تقول الروايات القديمة.

5- وينبغي عليّ أن أضيف إلى المدن الإيولية المعاصرة مدينة إيجي ومدينة تيمنوس، مسقط رأس هيرماغوراس مؤلِّف «فنّ البلاغة». وتقع هاتان المدينتان في بلاد جبلية تعلو حدود كيما، والثوكيين، والسميرنيين، التي يجري على مقربة منها جيرم. وغير بعيد عن هاتين المدينتين تقع مغنيسيا الخاضعة لحكم سيبيلوس، وهي مدينة أعلنها الرومان مدينة حرّة. وكانت هذه المدينة قد تعرّضت لهزّة أرضية منذ بعض الوقت ألحقت بها كثيراً من الأذى. والمسافة بالاتجاه المعاكس (نحو نهر كايك) بعد عبور جيرم، من لاريسا إلى كيما 70 مرحلة، ومن هناك إلى ميرنا 40 مرحلة؛ ومن هناك إلى غرينوس المسافة نفسها، ومثلها من هنا إلى إيلييا. وبحسب أرتيميدور إنك من كيما تأتي إلى آدا، وتقع بعدها على مسافة 40 مرحلة رأس بحرية تحمل اسم هيدرا، وهي تشكل مع رأس هارماتونت الواقعة قبالتها خليج إيلايت. ويصل عرض مدخل الخليج إلى 80 مرحلة، وإذا أضفت ميرينا، المدينة الإيولية وميناءها، فسوف تكون المسافة 60 مرحلة؛ ثمّ تأتي بعد ذلك ميناء الآخيين حيث شيّدت مذابح للآلهة الاثني عشر؛ تليها مدينة غرينوس الصغيرة، ومعبد أبوللون، وموْحى قديم وحرم فخم مبني من المرمر الأبيض، والمسافة إلى هذا الحرم 40 مرحلة. ومن ثمّ 70 مرحلة حتّى إيليا حيث تقع ميناء ومحطة شراعية للملوك الأتّاليين كان قد أسّسها مينيثييوس والأثينيون الذين شاركوا في الحملة على إيليون. أمّا الأماكن التي تأتي بعد ذلك، وعلى وجه التحديد الأماكن الواقعة عند بيتانا وأتارنيون، فقد وصفتها من قبل.

6- وأكبر المدن الإيولية وأكثرها تميّزاً، مدينة كيما؛ فهذه المدينة تعدّ مع ليسبوس بشكل ما ميتروبوليا لما يقارب 30 مدينة أخرى اندثر منها حتّى الآن عدد غير قليل. وسكّان كيما موضع سخرية شائعة بسبب بلاهتهم؛ فيزعم بعضهم أنه بسبب الأقاويل التي شاعت لم يبدأ هؤلاء جباية رسوم الميناء وضرائبه إلاّ بعد مضيّ 300 عام على تأسيس مدينتهم، بينما لم يكن الشعب يفيد من هذه العائدات قبل ذلك. ولذلك شاعت الشائعة التي تزعم أن سكّان كيما قد تأخروا كثيراً حتّى أدركوا أنهم يعيشون في مدينة ساحلية. وهناك حكاية أخرى تزعم أنهم اقترضوا أموالاً باسم المدينة، ورهنوا أروقتها ضمانة لسدادها، وبعد أنّ أعادوا الأموال في المدة المتفق عليها، لم يسمح لهم بالتنزّه تحت الأروقة؛ ولكن في أثناء هطل الأمطار دفع الخجل الدائنين إلى دعوتهم عبر المنادين للاحتماء تحت سقوف الأروقة. وعندما بدأ المنادي ينادي «ادخلوا تحت الأروقة»، سرت شائعة زعمت أنّ سكّان كيما لا يعرفون أنه يجب

الاحتماء بالأروقة من الأمطار إذا لم يعلن المنادون لهم عن ذلك. ومن مواطني هـذه المدينـة إيثور، الذي لا ريب في أنه شخصية فذّة، وهو تلميذ الخطيب إيسوقراط مؤلّف كتاب «التاريخ» وكتاب «الابتكارات»؛ كما كان هسيود قد ولد هناك قبله؛ ويقول هسيود نفسه، إنّ والده ديوس ترك كيما الإيولية واستقرّ في بيوتيا:

قرب هيليكون استقرّ، في قرية آسكرا التاعسة،

المضنية صيفاً، والسيّئة شتاء، وليست مستحبّة في أيّ وقت.

(*الأعمال والأيام* 639)

أمّا فيما يتعلّق بتحدّر هوميروس من هـذه المدينـة، فـإن الآراء حـول هـذه المسألة تتبـاين، لأنّ كـثيرين يتجـادلون فيهـا وفيمـا يتعلّـق باسـم المدينـة، فقـد أخذتـه مـن اسـم واحـدة مـن الأمـازونيس، ومثلـها أيضـاً مدينـة ميرينـا الـتي أخـذت اسمهـا مـن اسـم الأمازونيس ميرينا المدفونة تحت تلّ باتييا:

يدعوه الناس منذ القدم باتييا،

لكنّ الآلهة الخالدين يدعونه قبر السريعة ميرينا.

(*الإلياذا* II، 813)

وعلى وجه العموم حتّى إيثور لم يسلم من السخرية، إذ اتهم بأنـه كـان عـاجزاً عن أن يتحدّث عن مآثر مدينته الأمّ لدى حديثه عن الأحداث التاريخيـة الأخـرى، لكنّـه مع ذلك، ورغبة منه في ألاّ تبقى المدينـة مجهولـة، يعلـن متفـاخراً: «في هـذا الوقـت كـان سـكّان كيمـا يعيشـون بسـلام!». - وبمـا أنـني عـبرت في وصـفي السـاحل الطـروادي والسـاحل الإيـولي، فإنـه ينبغـي أن أعطـي بحسـب الترتيـب، لمحـة متعجّلـة عـن الشـطر الداخلي من البلاد وصولاً إلى طوروس، ملتزماً خطّة الوصف نفسها.

الفصل الرابع

1- تسود برغاموس على هذه الأماكن كلّها سيادة واضحة، وبرغـاموس مدينـة شهيرة ازدهرت زمناً في عهود ملوك السلالة الأتّالية. ولـذلك ينبغـي علـيّ أن أبـدأ وصـفي منها، ومن الضروري أن أبدأ بالحديث عن أصل ملوكها والمصير الذي حلّ بهم. لقد كانت برغاموس كنز ليسيماخ بن أغـاثوكلس أحد خلفاء الإسـكندر ، أمّا سـكّان المدينة فقد كانوا يقيمون على أعلى قمّة الجبل. ولهذا الجبل شـكل مخروطي ينتهي

بقمة حادّة. وقد عهد بحماية هذه القلعة والحفاظ على الكنوز المخزونة فيها (كانت قيمتها تبلغ 9000 تالانت من الفضّة)، إلى فيليتروس الثييّ الذي كان خصياً منذ طفولته. ففي إحدى الجنازات، وأثناء تقديم العرض المسرحي توافد إلى المكان طوفان من البشر، فحدث أن أحاط الحشد بمرضعة فيليتروس الصغير التي كانت تحمله على ذراعيها وزحمها بقوة أدت إلى إعاقة الطفل. وعلى هذا النحو صار فيليتروس إلى خصيّ، لكنّه نال تربية ممتازة جعلت منه أهلاً لمثل هذه الثقة. فبقي لبعض الوقت وفيّاً لليسيماخ، بيد أنه بعد أن اختلف مع أرسينوي زوجة ليسيماخ التي افترت عليه، حرّض برغاموس على العصيان وقاد انتفاضتها مستغلاً معطيات اللحظة، إذ رأى أن المدينة مستعدّة للانفصال. لأنّ النزاعات العائلية أرهقت ليسيماخ، فاضطر لقتل ابنه أغاثوكلس؛ ثمّ هاجم سلوقس نيكاتور البلاد وهزمه، وبعد ذلك لحقت الهزيمة بهذا نفسه وقتل غدراً على يدي بطليموس كيرافنوس. وفي أثناء هذه القلاقل بقي الخصي قائداً للقلعة وحاكماً للمدينة، فقدّم وعوداً سخية، وأبدى كلّ آيات الاهتمام والعناية؛ وعلى وجه العموم، كان هذا دائماً يبدي مثل هذه المجاملات لكلّ من يملك سلطة، أو للمقربين منهم. وعلى أيّ حال بقي الرجل 20 عاماً سيد القلعة وكنوزها.

2- وكان لفيليتروس شقيقان: الأكبر إيفمين، والأصغر أتّال. وكان لإيفيمن ولد حمل اسم والده نفسه، وقد ورث هذا سلطة والده على برغاموس، بل وكان في ذلك الوقت سيّداً على المناطق المحيطة بها؛ فخاض معركة ضدّ أنطوخ بن سلوقس عند ساردا وانتصر عليه. وبعد 22 عاماً من الحكم توفّي إيفمين[1]. فورث العرش أتّال ابن أتّال وأنطوخيدا ابنة آخيوس، وكان هذا أوّل من أُعلن ملكاً بعد انتصاره الكبير على الغلاطيين. ثمّ أقام أتّال علاقات صداقة مع الرومان، بل حارب إلى جانبهم ضدّ فيليب مع أسطول الرودوسيين. وتوفي أتّال شيخاً عجوزاً بعد 43 عاماً من المُلْك[2]؛ وترك وراءه من أبوللونيدا أربعة أبناء: إيفمين، وأتّال، وفيليتروس، وأثينوس. ولم يملك من هؤلاء سوى أكبرهم إيفمين. وقد حارب هذا إلى جانب الرومان ضدّ أنطوخ الأكبر وبرسيوس، فنال كلّ المنطقة الواقعة على هذا الجانب من طوروس التي كانت تحت حكم أنطوخ. وقبل ذلك لم تكن حدود برغاموس تضم مناطق كثيرة تمتدّ حتّى البحر عند الخليج الإيلايتي والخليج الأدراميتي. لقد أعاد هذا الإيفمين بناء المدينة وغرس حديقة في نيكيفوريوس؛ وبنى علاوة على هذا أبنية مقدّسة، ومكتبات وأعلى شان برغاموس إلى المستوى التي هي عليه الآن، وكان دافعه إلى ذلك كلّه، هو حبّ

البذخ والفخامة. وبعد 49 عاماً من الملك[3]، ترك إيفمين عرشه لأتّال، ابنه من ستراتونيكا ابنة الملك القبدوقي في أرياراف. وعيّن شقيقه أتال وصيّاً على ابنه الذي كان لا يزال في مقتبل العمر، وحاكماً على المملكة. وبعد حكم[4] دام 21 عاماً توفّي شقيقه عجوزاً، لكنّه كان قد حقّق نجاحات في مجالات كثيرة. فقد ساعد، على سبيل المثال، ديميتري ابن سلوقس على هزيمة الإسكندر بن أنطوخ في الحرب التي دارت بينهما، وحارب إلى جانب الرومان ضدّ فيليب الدجّال، وفي الحملة على تراقيا ألحق الهزيمة بديجيلوس ملك الكينيين؛ كما قتل بروسيوس بعد أن نجح في تحريض ابنه نيقوديموس عليه، وترك السلطة لأتال الذي كان وصياً عليه. وحكم آتّال 5 أعوام[5]، نال خلالها لقب فيلوميتور، ومات مريضاً، تاركاً العرش للرومان. فجعل هؤلاء من المملكة مقاطعة رومانية باسم آسيا، وهو الاسم نفسه الذي تحمله القارّة. ويجري نهر كايك قرب برغاموس عبر السهل الذي يدعى سهل كايك، مخترقاً منطقة شديدة الخصوبة، لعلّها الأفضل في ميسيا كلّها.

3- وفي زمننا هذا اشتهر من البرغاميين: ميتريدات بن مينودوت وأدوبوغيونا. وينتمي مينودوت إلى سلالة التترارخيين الغلاطيين، أمّا أدوبوغيونا فيروى أنها كانت جارية الملك ميتريدات. ولذلك دعا أقاربها الطفل باسم ميتريدات ونسبوه إلى الأصل الملكي. وعلى أيّ حال صار هذا إلى صديق لقيصر الإلهي، وبلغ شأواً دفع بعائلة والدته إلى إعلانه تترارخاً وملكاً على البسبور وسواها من الأراضي. لكنّ أساندرس أطاح به، ولم يكتف بقتل الملك فارناك بل استولى على البسبور أيضاً. وقد رأوا أن ميتريدات يستحق لقب «عظيم»، مثله مثل البلاغيّ أبوللودوروس مؤلّف كتاب دليل «البلاغة». فهو الذي أسّس مدرسة أبوللودوروس، كائنة ما كانت هذه المدرسة. فكثير من المدارس الفلسفية حقّق نجاحاً، لكنني غير قادر على أن أعطي حكماً بها؛ ومن هذه المدارس مدرسة أبوللودوروس ومدرسة ثيودوروس. وقد علا شأن أبوللودوروس بشكل أساس بفضل صداقته مع قيصر أغسطس، إذ علّمه فنّ البلاغة. وكان لأبوللودوروس تلميذ فذّ، هو ديونيسيوس الأتيكي، ابن بلاده؛ وكان هذا بحق واحداً من معلميّ الحكمة الموهوبين، ومؤرّخاً، وواضع مرافعات قضائية.

4- وإذا ما تركت السهل والمدينة إلى الأجزاء الشرقية من البلاد، فإنك تلاقي مدينة أبوللونيا الواقعة في المرتفعات. وتمتدّ نحو الجنوب سلسلة جبلية؛ وإذ تعبرها على الطريق التي تتّجه إلى ساردا، فإنك تقترب من جهة اليسار إلى مدينة ثياتيرا، وهي

مستوطنة مقدونية رأوا فيها اليوم آخر مدن الميسيسيين. وعلى الجهة اليمنى تقع مدينة أبوللونيدا، على بعد 300 مرحلة من برغاموس، ومثلها من ساردا؛ وحملت هذه المدينة اسم أبوللونيدا الكيزيكية نفسه. ثمّ بعد ذلك مباشرة يأتي سهل جيرم وساردا. ويشغل الميسيسيون الشطر الأكبر من المنطقة الواقعة إلى الشمال من برغاموس، وعلى وجه التحديد، البلاد التي تقع على يمين الذين يسمّونهم الأبيتيين، الذين تتاخمهم حتّى بيثينيا إيبيكتيت[6].

5- وتعدّ ساردا مدينة كبيرة مع أنها ظهرت بعد حرب طروادا، لكنّها مع ذلك مدينة قديمة فيها قلعة تحصيناتها قوّية. فقد كانت هذه المقرّ الملكي لليديين الذين يدعوهم هوميروس ميونيين. كما يدعوهم المؤلّفون الأحدث عهداً ميونيين أيضاً، وفي غضون ذلك فإنّ بعضهم يدغمهم بالليديين، بينما يميّزهم الآخرون عنهم؛ لكنّ الأصحّ أن يعدّوا شعباً واحداً. ويعلو فوق ساردا جبل تمولوس، وهو جبل خصيب تنتشر على قمّته نقاط مراقبة، وتشكّل هذه الأخيرة شرفة مسقوفة بالمرمر الأبيض؛ وهي منشأة بناها الفرس، وتشرف على سهول الضواحي كلّها، خاصة سهل كايسترا. وفي كلّ مكان هنا يقطن ليديون، وميسيسيون، ومقدونيون. ويجري من جبل تمولوس نهر باكتول؛ وفي الأزمنة القديمة كانت ترسبات هذه النهر غنية جدّاً بالذهب، ولذلك يقال، إن هذا كان سبب شهرة ثراء كريز وأسلافه. لكنّ الرمال الذهبية اختفت الآن. ويصبّ باكتول في جيرم الذي يصبّ فيه أيضاً نهر هيللوس الذي يُدعى الآن فريجوس. وعلى حدّ قول هيرودوت[7]، إنّ هذه الأنهار الثلاثة تلتقي في مجرى نهر أقلّ أهمية منها ثمّ تصبّ في البحر قرب ثوكيا. أمّا جيرم فينبع من ميسيا، من الجبل المكرّس لدينديمينا، ثمّ يجري عبر كاتاكيكاومينا[8] في منطقة ساردا والسهول المجاورة، كما أسلفت القول، ومن هناك إلى البحر. وتنبسط تحت المدينة سهول ساردا، وكيرا، وجيرم، وكايسترا، التي يتاخم بعضها بعضاً، وهي أجمل السهول كلّها. وعلى بعد 40 مرحلة من المدينة تقع بحيرة تدعى هوميروس غيغيا[9] بدّلوا اسمها بعد ذلك فباتت تدعى كولويا؛ ويقع هناك معبد أرطميس الكولوينية الذي يعدّ من المقدّسات العظيمة. ويروى أن الفتيات يرقصن هنا أثناء الاحتفال بالعيد رقصة سلال القرابين[10]؛ وأنا لا أعرف حقّاً لماذا يروون شتّى الخزعبلات بدل أن يقولوا الحقيقة.

6- وعادة ما يضيف بعضهم إلى أبيات هوميروس المعتادة:

وفي إثرهم أنتيفوس وميستلس، قائدا الرجال الميونيين،

ولدا تاليمينوس، ابنا البحيرة الغيغية،

قادا جحافل الميونيين، عند تمولوس الشاهق وُلدا،

(الإلياذا II، 864)

بيتاً رابعاً:

قرب تمولوس الثلجي، في قرية جيدا المزدهرة.

بيد أنه ليس في بلاد الليديين أيّ جيدا. وبعضهم يستخرج من هنا تيخوس الذي يذكره الشاعر:

... السراج الأشهر الذي يعيش في ملاذه جيدا

(الإلياذا VII، 220)

ويضيفون في غضون ذلك، إن هذا المكان مكان حراجيّ يتعرّض غالباً لضربات الصواعق، وقد عاش الأريميّون فيه. فإلى بيت هوميروس:

هناك بين الأريميين، حيث مرقد تيفييوس، كما يقولون.

(الإلياذا II، 783)

يضيفون بيتاً يقول:

في الأرض الحراجية وجيدا الطرف الخصيب.

وينقل آخرون مكان أحداث الأسطورة إلى كيليكيا، وهي الآن في سوريا. وينقلها فريق ثالث إلى بيفيكوسا مشيرين في غضون ذلك إلى أن التيرينيين يدعون القرود[11] أريمي. ويدعو الفريق الرابع ساردا باسم جيدا، بينما يرى فريق خامس أن جيدا هي قلعة ساردا. ويرى ديميتري السكيبسيسي أن الكتاب الذين يستحقّون أكبر الثقة، هم الكتّاب الذين يوضّعون الأريميين في كاتاكيكاومينا الميسيسية. أمّا بينداروس فيجمع أساطير بيفيكوسا (الواقعة أمام منطقة كيما) مع الأساطير الليكية والأساطير الصقلية، لأنّ تيفون بحسب قوله، يستلقي تحت إيتنا:

... ذلك الذي أطعمه يوماً

كهف كيليكيا المجيد، والآن فوق شواطئ

كيما التي يغسلها البحر،

وفوق صقليا يضطهده الفرس الشعثاء.

(بيفيكوسا I، 31)

وفي مكان آخر:

وانتشر حول إيتنا كحلقة مهولة

ثمّ بعد ذلك:

روّض أحد الآلهة تيفون الرهيب ذا الخمسين رأساً،

بقوّة زيوس الأب، في زمن ما بين الأريميين.

(*مقطع* 93، *بيرغك*)

ويعتقد بعضهم أنّ السوريين، هم الآريميون الذين يدعون الآن آراميين، ويزعمون أنّ الكيليكيين الذين كانوا يعيشون في طروادا ثمّ طردوا منها، نزحوا إلى سوريا وانتزعوا من السوريين المنطقة التي تدعى الآن كيليكيا. وأخيراً يزعم كاالليسفين أنّ الآريميين عاشوا قرب جبل كاليكادنس ورأس سربيدون البحرية عند كهف كوريكوس مباشرة؛ وأنّ الجبال المجاورة التي تدعى الجبال الآريمية، أخذت اسمها منهم.

7- وتقع حول بحيرة كولويا شواهد قبور ملوك. وعند ساردا نفسها يرتفع على قاعدة عالية تلّ ألياتا الذي يقول هيرودوت[12]، إن سكّان المدينة هم الذين شيّدوه وإنّ القسم الأكبر من الأعمال نهضت به الفتيات. فهو يقول، إن الفتيات كلّهن يمارسن الدعارة، وثمّة من يرى في هذا التلّ تلّ الدعارة. ووفق ما نقله بعض الكتّاب، أنّ بحيرة كولويا بحيرة صناعية جرى حفرها لتخزين فائض مياه فيضانات الأنهار. - لدى الهبوط من جبل تمولوس إلى سهل كايسترا تقع مدينة هيبيبا.

8- ويروي كاالليسفين أنّ الكيميريين أوّل من استولى على ساردا تلاهم التريريون والليكيون (وهذا ما يؤكّده شاعر المراثي كاالينوس)، ثمّ سقطت في آخر مرّة على عهد كلّ من قورش وكريز. وحينما يقول كاالينوس، إن الكيميريين شنّوا غزوة على الإيسيونيين (عندما تمّ الاستيلاء على ساردا أيضاً)، فإن ديميتري السكيبسيسي ومشايعيه يفترضون، أن كاالينوس دعا الأسيونيين بالإيونية إيسيونيين. فعلى حدّ قوله، قد تكون ميونيا دعيت بآسيا، كما يقول هوميروس أيضاً:

في المرج الآسيوي الذهبي، لدى كايستر

الواسع المجرى.

(*الإلياذا* II، 461)

ولكنّ المدينة عادت وازدهرت من جديد بفضل خصوبة المنطقة الواقعة فيها؛ ولم تقصّر عن أيّ من المدن المجاورة؛ ولكنّ منازل كثيرة فيها تهدّمت منذ بعض الوقت بفعل هزّة أرضية. وعلى وجه العموم فإنّ المدينة وكثيراً من المدن الأخرى التي ضربتها هذه الكارثة أُعيد بناؤها الآن بفضل عناية طيباريوس، الإمبراطور الحالي وإحسانه.

9- ومن المشاهير الذين ينتمون إلى عائلة واحدة من عائلات ساردا، خطيبان من عائلة الديودوريين؛ والأكبر منهما، زينون ألقى خطباً كثيرة دافع فيها عن آسيا أثناء المحاكمات؛ وبعد أن اجتاح الملك ميتريدات البلاد اتهم زينون بتحريض المدن على التمرّد على الملك، لكنّه ألقى خطبة برّأ فيها نفسه من هذا الافتراء. أمّا الأخ الأصغر، ديودوروس الذي كان صديقاً لي فقد كتب مؤلّفات تاريخية، وقصائد غنائية وغير ذلك من القصائد التي أظهرت إلى حدّ ما أسلوباً قديماً. أمّا كسانثوس، المؤرّخ القديم فهو يعدّ ليدياً، لكني لا أعرف ما إذا كان ينحدر من ساردا.

10- ويأتي بعد الليديين الميسيسيون ومدينة فيلاديلفيا التي غالباً ما تعاني من الهزّات الأرضية. فجدران منازلها متشققة دائماً، وغالباً يعاني هذا الشطر من المدينة أو ذاك من هذه النائبة. ولذلك لم يبق في المدينة سوى عدد قليل من السكّان، بينما يعيش أكثرهم في القرى، حيث يعملون في الزراعة، لأنّ تربة البلاد خصبة. وعلى وجه العموم فإن من بقي ليعيش في المدينة يثير تعلّقه بهذا المكان وارتباطه به كثيراً من الاستغراب، لأنّ منازلهم فيها ليست راسخة أو متماسكة بما يكفي للإقامة فيها بأمان. كما يثير مؤسّسو المدينة الاستغراب أكثر.

11- وبعد هذه المنطقة تأتي البلاد التي تدعى كاتاكيكاومينا[13]: طولها 500 مرحلة، وعرضها 400 مرحلة؛ ولكننا لا نعرف ما إذا كان ينبغي أن ندعوها ميسيا أم ميونيا، فهي تدعى بالاسمين. وليس في هذه المنطقة كلّها شجر، ما عدا دوالي الكرمة التي تعطي النبيذ الكاتاكيكاوميني، الذي لا يقلّ جودة عن أفخر أنواع النبيذ المعروفة. وتغطي سطح السهول هنا طبقة من الرماد، أمّا شطر البلاد الجبلي والصخري، فلونه أسود كالسواد الذي يتركه الحريق. ولذلك فإن بعضهم ينسب هذه الظاهرة الأخيرة إلى فعل الصواعق والأعاصير النارية الجوفية، ومن غير تردد ينقلون إلى هنا أساطير تيفون. ويقول كسانثوس، إنّ ملك هذه الأماكن يدعى أريموس. بيد أن الفرضية التي تزعم أن هذه البلاد الشاسعة كلّها قد احترقت بسبب هذه الظاهرات، هي فرضية تفتقر إلى الأساس الواقعي؛ فعلى أغلب الظنّ أنها عانت

من النيران التي كان جوف الأرض يقذفها والتي نضبت مصادرها الآن. ويرونك هنا ثلاثة أخاديد تدعى «المنافع»، تقع واحدتها عن الأخرى على مسافة 40 مرحلة. وتقع فوق هذه الأخاديد تلال صخرية تشكلت على أغلب الظنّ من الصخور التي فتتتها النيران التي أطلقها باطن الأرض. ومثل هذه التربة ملائمة أحسن الملاءمة لزراعة الكرمة، وهو ما يؤكّد مثال تربة كاتان التي يغطيها الرماد وتعطي الآن كثيراً من الأعناب البديعة. ولذلك لاحظ بعض الكتّاب بمقتضى الحال في مثل هذه الأماكن، أنّ تسمية ديونيسيوس «بالمولود من النار»[14]، هي تسمية مشروعة.

12- إنّ البلدان الواقعة بعد ذلك نحو الجنوب من هذه المناطق وصولاً إلى طوروس، متداخل بعضها مع بعض تداخلاً يصعب معه التفريق بين أجزاء فريجيا، وكاريا، وليديا، وبلاد الميسيسيين. وقد ساعد على هذا التخالط بدرجة كبيرة، امتناع الرومان عن تقسيم هؤلاء بحسب قبائلهم، بل نظّموهم وفق إدارة مناطق صغيرة كانوا يعقدون فيها اجتماعات مجلس الشعب والجلسات القضائية. إن جبل تمولوس عبارة عن مجموعة ضيّقة من الجبال دائرة امتدادها المعتدل وحدودها تدخل كاملة في إطار المنطقة الليدية؛ أمّا ميسوجيد فيمتدّ بالاتجاه المعاكس حتّى ميكال، بدءاً من كيلينا، كما يقول ثيوبومبوس. وعلى هذا النحو يشغل الفريجيون أجزاء من هذا الجبل (الأجزاء القريبة من كيلينا وأفاميا)، بينما يشغل أجزاء أخرى منه الميسيسيون والليديون، ويشغل الكاريون والإيونيون ما تبقى منه. والأنهار أيضاً، خاصة مياندرس، تارة تفصل بعض القبائل عن بعضها الآخر، وتارة أخرى تجري في وسط المناطق بحيث يصعب تعيين حدود القبائل بدقّة. وهذا نفسه ينسحب على السهول، الواقعة على جانبي المنطقة الجبلية ومنطقة الأنهار. وعلى أيّ حال، ربّما لا يجدر بي أن أخوض في هذه الموضوعات، كما يفعل علماء المساحة، ولذلك يكفي أن أنقل معطيات من سبقونا وحسب.

13- ويجاور سهل كايسترا الواقع بين ميسوجيدا وتمولوس، يجاوره من جهة الشرق السهل الكيلبياني؛ وهو سهل شاسع فيه أعداد كبيرة من السكّان وتربته خصبة. ثمّ يليه السهل الهركاني، هكذا دعاه الفرس وساقوا من هناك مستعمرين. وعلى النحو نفسه أعطى الفرس للسهل اسم قورش. ويلي هذا السهل السهل البيلتيني (في فريجيا)، والسهل الكيلاني، والسهل التابيني، حيث تنتشر مدن صغيرة سكّانها خليط من الفريجيين والعنصر البيسيدي؛ ومن هنا أُطلقت على هذه السهول أسماؤها.

14- وإذا ما تجاوزنا ميسوجيدا بين منطقة الكاريين ونيسايدس، وهي بلاد على هذا الجانب من مياندرس تمتدّ حتّى كيبيراتيدا وكابالِيدا، فإن مدناً تقع هناك قرب ميسوجيدا قبالة لاوديكا: هيرابوليس، حيث توجد ينابيع المياه الحارّة، ومعبد بلوتون؛ وقد شاعت عنها وعنه حكايات خرافية: بعد أن تبرد مياهها تتحوّل بسهولة ويسر إلى طفّ إذ أجريته في قنوات يجعل من جدرانها حجارة كاملة. أمّا معبد بلوتون، فهو عبارة عن فتحة كهف أبعادها صغيرة يقع تحت بروز صغير لمنطقة جبلية؛ ولكنّ هذا الكهف كبير إلى حدّ استيعاب شخص فيه، أمّا في العمق فإنه يتوغل بعيداً. ويقع أمامه حيّز مربّع الشكل يحميه سياج امتداد محيطه قرابة $\frac{1}{2}$ بليفر. ويملأ هذا الحيّز دخان كثيف على شكل غيمة تجعل من الصعب رؤية القاع. والهواء حول الحيّز قرب السياج غير مؤذ، لأنه يكون نقياً من الدخان عندما يكون الطقس هادئاً إذ يبقى هذا الأخير داخل السياج؛ أمّا إذا عبر حيوان إلى داخل السياج فإنه ينفق في اللحظة. وعلى أيّ حال فإن الثيران التي تساق إلى هناك تسقط من فورها ويرفعونها من هناك وقد نفقت. وأنا أطلقت في المكان عصافير الدوري ففارقت الحياة في اللحظة عينها التي دخلت المكان فيها. ولكنّ الخصيان الغاليين[15] يعبرون المكان من غير أن يصابوا بأذى، مع أنهم يدنون من الفتحة مباشرة؛ ثمّ ينحنون ويدخلون إلى داخل الكهف ويتقدّمون في داخله إلى حدّ معيّن وهم يحبسون في أثناء ذلك نَفَسَهم قدر ما يستطيعون. وأنا استطعت أن أرى في تعابير وجوههم علامات نوبة اختناق. ولكن هل لكلّ مشوّه على هذا النحو مثل هذه الحصانة ضدّ الاختناق، أم أنها لكهنة هذا المعبد فقط؛ وهل هي ناجمة عن عناية إلهية، كما يحصل عادة في حالة الولع الإلهي، أم أنها تعدّ نتيجة لفاعلية قوى فيزيائية معيّنة مضادة للدخان؟ أمّا فيما يخصّ تحوّل الماء إلى حجر، فإنهم يقولون، إن هذه الظاهرة تحدث أيضاً في أنهار لاوديكا، مع أنّ مياهها صالحة للشرب. ومياه هيرابوليس مياه ممتازة لصباغة الأصواف؛ فالأصواف المصبوغة بصباغ نبات الفوّة تنافس في جودتها تلك المصبوغة بصباغ الرخويات القرمزية أو القرمز. والماء هناك وفير، وفي المدينة كثير من الحمّامات.

15- وبعد هيرابوليس تأتي المناطق الواقعة على ذلك الجانب من مياندرس؛ وأنا كنت قد قدّمت وصفاً للمناطق الواقعة حول لاوديكا وأفروديسيادا، والتي تمتدّ حتّى كارورا. وتأتي بعد ذلك المناطق التي تقع باتجاه الغرب، وعلى وجه التحديد، مدينة الأنطوخيين الواقعة على مياندرس وتدخل قوام كاريا، ثمّ المناطق التي تقع على الاتجاه

الجنوبي: كيبيرا الكبرى، وسيندا، وكاباليدس، التي تمتدّ كلّها حتّى طوروس وليكيا. أمّا أنطاكيا فهي مدينة متوسطة الحجم وتقع على مياندرس مباشرة في منطقة قريبة من فريجيا، وفيها جسر على نهر مياندرس. وللمدينة أرض شاسعة على جانبيّ النهر، وهي كلّها أراضي خصبة؛ وتنتج كثيراً من التين الذي يدعى التين «الأنطاكي» المجفّف الذي يسمّى أيضاً «ثلاثي الورقات». وتعاني هذه المنطقة بدورها من الهزّات الأرضية. وفي هذه القبيلة ولد الصوفيّ الشهير ديوتريفوس الذي كان يستمع إليه هيبرييوس أعظم خطباء عصرنا.

16- ويقال إن السوليميين هم سكّان كاباليدس؛ فالتلّ الذي يعلو فوق قلعة الترميسيين يدعى سوليم، وكذلك الترميسيون يدعون سوليميين أيضاً. وعلى مقربة من المكان يقع سياج بيلليروفون وقبر ابنه بيساندرس الذي سقط في معركة مع السوليميين. وتتوافق هذه القصة مع ما يقوله هوميروس؛ فالشّاعر يقول عن بيلليروفون:

بعد الحرب هاجم السوليميين، الشعب الماجد.

(الإلياذا VI، 184)

ويقول عن ابنه:

ابنه بيساندرس[16] قتله إينيالوس الذي لا يشبع من القتل،

عندما كان هذا يقاتل السوليميين...

(الإلياذا VI، 203)

أمّا تيرميس فهي مدينة بيسيدية تقع فوق كيبيرا وعلى مقربة مباشرة منها.

17- ويعدّ سكّان كيبيرا أحفاد الليديين الذين كانوا يملكون كاباليديس، وبعد ذلك منطقة جيرانهم البيسيديين؛ وقد سكن هؤلاء الأخيرون هناك ونقلوا المدينة إلى مكان آخر محصّن تحصيناً ممتازاً امتداد محيطه قرابة 100 مرحلة. ونمت المدينة نموّاً سريعاً بفضل قوانينها الجيّدة، فامتدّت قراها من بسيديا وميليادا حتّى ليكيا والساحل الواقع قبالة رودوس. وبعد أن انضّمت إليها المدن الثلاث المجاورة: بوبون، وبالبور، وإينواندس، بات الاتحاد يدعى تترابوليس، وكان لكلّ طرف من أطرافه صوت واحد، ما عدا كيبيرا التي كان لها صوتان. لأنّ كيبيرا وحدها كانت تقدم 300.000 من المشاة، و2000 من الفرسان. وكانت هذه دائماً تحت حكم التيران، لكنّهم كانوا يحكمون باعتدال. ولكن في عهد مواجيتوس انتهى زمن التيرانية،



عندما دمّرها مورينا وضمّ بالبورا وبوبون إلى أراضي الليكيين. ومع ذلك تعدّ منطقة كيبيرا واحدة من أكبر مناطق آسيا. وكان سكّان كيبيرا يتحدّثون بأربع لغات: البسيدية، والسوليمية، والإغريقية، والليدية. ولم يبق أثر للغة الليدية في ليديا. وتتميّز كيبيرا بأن الحديد فيها سهل الجلفطة. أمّا ميليا فهي بلاد جبلية تمتدّ من أخدود تيرميس والمعبر الذي يقود عبر فجّ إلى المنطقة الواقعة على هذا الجانب من طوروس نحو إيسيندا، حتّى ساغالاس وبلاد الأفاميين.



الكتاب الرابع عشر

الفصل الأول

1- بقـي لنـا أن نتحـدّث عـن الإيـونيين، والكـاريين، والسـاحل الواقـع علـى ذلـك الجانب من طوروس الذي يشـغله الليكيـون، والبـامفليون، والكيليكيـون. وعلـى هـذا النحو يمكن أن ننتهي من وصف كلّ شبه الجزيرة التي يعدّ برزخها، كمـا كنـت قـد قلت من قبل[1]، معبراً من بحر البونتس إلى بحر إيسّ.

2- تشـكّل الطريـق البحرية حـول إيونيـا علـى طـول السـواحل، مـا يقـارب 3430 مرحلة بسب الخلجان، وكذلك لأنّ هذه البلاد تشكل الامتداد الأكبر لشبه الجزيرة؛ أمّا المسافة على خطّ مباشر، فليست كبيرة. إذ يبلغ طـول الطريـق المباشـرة مـن إفسـس حتّى سميرنا مثلاً، 320 مرحلة، لأنّ المسافة حتّى الميتروبوليا 120 مرحلـة، والبـاقي حتّـى سميرنا، بينما يبلغ امتداد الطريق البحرية على طـول السـواحل بـين هـاتين المدينتين أقلّ بقليـل مـن 2200 مرحلـة. وعلـى هـذا النحـو فـإنّ نهايـة السـاحل الإيـوني الـذي يبـدأ عنـد بوسيدوس الميلتوسية والحدود الكارية، تقع عند ثوكيا وعلى جيرم.

3- ويزعم ثيريكيدس أن الكـاريين كـانوا يملكـون من قبل علـى هـذا السـاحل ميلتـوس، وميونـت، والمنطقـة المحيطـة بميكـال، أمّـا الشـطر التـالي مـن السـاحل حتّـى ثوكيـا، وكيـوس وسـاموس حيـث كـان يحكـم أنـاكيوس، فقـد شـغله الليليغـيس. وبحسب قوله إن هـاتين القبيلتين تراجعتا تحت ضغط الإيونيين إلى الأجـزاء الأخـرى مـن كاريا. ويواصل ثيريكيدس روايته فيقول، إنّ أندروكلس الابن الشرعي للملك الأثيني كودرس هو الذي قاد النزوح الإيـوني الـذي وقـع بعـد النـزوح الإيـولي؛ وهـو الـذي أسّـس إفسس. ولهذا كانت إفسس عاصـمة المملكـة الإيونيـة، كمـا يقولـون؛ ولا يـزال أحفـاد هذه السلالة يدعون ملوكاً حتّى الآن. وقد منحوهم امتيازات تشـريفية محـدّدة: المكـان

الأوّل في الألعاب، ارتداء ثياب قرمزية بصفتها تدلّ على الأصل الملكي، حمل الصولجان بدلاً من الحربة الثلاثية، و[التصرف] بالأضحية التي تقدم في يوم عيد ديميترا الإيليفسينية. لقد أسّس نيلييوس البيلوسي ميلتوس. ويرى الميسينيون والبيلوسيون أنفسهم أقارب إلى حدّ ما، وهذا ما دفع الشعراء الحديثين إلى عدّ نسطور ميسينياً؛ فهم يقولون، إنّ كثيراً من البيلوسيين نزحوا مع ميلانثوس والد كودرس ومرافقيه إلى أثينا؛ وهذا يعني أنّ هؤلاء جميعهم عمّروا مع الإيونيين هذه المستعمرة. ويعرضون في بوسيدوس محراباً بناه نيلييوس. أمّا مينونت فقد أسّسها كيدريلوس، الابن غير الشرعي لكودرس؛ وأسّس أندروبومبوس مدينة ليبيدوس، بعد أن استولى على مكان ما يدعى أرتيس؛ وأسّس أندريموس البيلوسي مدينة كولوثون، كما ينقل ميمنيرموس في «نانّو»[2]؛ وأسّس بريينا إيبيتوس بن نيلييوس؛ ثمّ بعد ذلك فيلوتا الذي قاد مستعمرين من طيبة؛ وأسّس أثامانتوس في بادئ الأمر تيوس (ولذلك يدعوها أناكريونت أثامانتيدا)، ثمّ في زمن حركة الاستعمار الإيوني، أعاد تأسيسها ناوكلس الابن غير الشرعي لكودرس، وبعده أبيكوس وداماس الأثينيان، وهيريس البيوتي؛ وأسّس إريثرا، كنوبوس، وهو أيضاً ابن غير شرعي لكودرس؛ وأسّس الأثينيون الذين كان يقودهم فيلوجينوس مدينة ثوكيا؛ وأسّس بارال مدينة كلازومينا؛ وأسّس إيجيرتوس الذي جاء بجماعات مختلطة مدينة كيوس؛ وأخيراً أسّس تيمبريون مدينة ساموس، وتابع تأسيسها بعد ذلك بروكلس.

4- لقد كانت تلك هي المدن الإيونية الاثنتي عشرة؛ وأضيفت إليها مؤخراً مدينة سميرنا التي أدخلها الإفسسيون الاتحاد الإيوني. لأنّ الإفسسيين عاشوا في الأزمنة القديمة مع السميرنيين، عندما كانت إفسس نفسها تدعى سميرنا. وفي مكان ما يعطيها كاللينوس أيضاً هذا الاسم، إذ يدعو الإفسسيين في صلاة مرفوعة إلى زيوس، سميرنيين:

ارحم السميرنيين؛

أو في مكان آخر:

اذكر كيف كان السميرنيون يحرقون لك
الثيران المكتنزة ذبائح، في زمن ما.

(مقطع 2، بيرغك)

لقد كانت سميرنا هي الأمازونيس التي تحكم إفسس؛ ومنها أخذت المدينة وسكّانها اسمهم، مثلما دعي فريق من الإفسسيين بالسيسيربيتيين تيّمناً باسم سيسيربا. زد إلى ذلك أنّ مكاناً ما في إفسس كان يدعى سميرنا، كما يلاحظ هيبوناكس:

كان له ملاذ في سميرنا، المدينة التي في الخلف،

بين تراخيا وليبريه آكتا.

(مقطع 44، بيرغك)

لأن اسم ليبريه آكتا أطلق على بريون الذي يعلو فوق المدينة المعاصرة ويشكل دعامة لجزء من سورها. وعلى أيّ حال لا تزال الممتلكات الواقعة وراء بريون، حتّى الآن تدعى ممتلكات «أوبيسفوليبريا»[3]، أمّا البلاد السفحية الواقعة حول كوريسّ، فقد كانت تدعى تراخييا[4]. وفي العصر القديم كانت المدينة تتوضّع حول معبد أثينا الذي بات الآن خارج المدينة قرب ما يدعى هيبيليوس. إذن، كانت سميرنا تقع قرب الجمنازيوم المعاصرة، أي وراء المدينة الحالية، ولكن بين تراخييا وليبريه آكتا. وبعد أن انفصل السميرنيون عن الإفسسيين، شنّوا حملة على المكان الذي تقع فيه الآن سميرنا التي استولى عليها الليليغيس. وبعد أن طردوا الليليغيس، أسّسوا سميرنا القديمة، في مكان يبعد قرابة 20 مرحلة عن سميرنا المعاصرة. وفيما بعد أرغمهم ضغط الإيوليين على أن يبحثوا عن ملاذ في كولوثون، ثمّ عادوا مع الكولوثونيين واستولوا على مدينتهم من جديد. وهذا ما يقوله ميمنيرموس في «نانّو»، إذ يذكر سميرنا كمدينة كانت دائماً موضع نزاعات.

وهكذا تركنا بيلوس العالية، حصن نيليوس،

ووصلت سفننا إلى آسيا، إلى السواحل الودودة.

وهناك في كولوثون المرغوبة، التي تفوّقت بقوّتها الجبّارة،

وجدنا ملاذاً من جديد، ودحرنا غدر كلّ الغدّارين.

وانطلقنا من جديد مندفعين من أمواج استينت السريعة،

وأستولينا بإرادة الآلهة على سميرنا، مدينة إيوليا.

(مقطع 9، بيرغك)

لقد كانت هذه معطياتنا عن هذا الموضوع. بيد أنه ينبغي أن نعطي مرّة أخرى

وصفاً مفصّلاً لكلّ جزء على حدة، ابتداء من الأماكن الرئيسة التي تأسّست المستوطنات فيها، أي من الأماكن الواقعة قرب ميلتوس وإفسس؛ فهاتان المدينتان هما الأفضل والأكثر شهرة.

5- بعد بوسيدوس، الرأس البحرية الميلتوسية، إذا صعدنا 18 مرحلة في عمق البلاد، يأتي مباشرة موْحى أبوللون الديديمي لدى البرانهيدس[5]. وقد أحرق كسيراكس هذا المكان المقدّس، كما أحرق المعابد الأخرى ما عدا معبد إفسس. أمّا البرانهيدس فقد سلّموا كنوز الإله للملك الفارسي وولّوا الأدبار مع الفرس خوفاً من العقاب الذي كان ينتظرهم جرّاء خيانتهم وتدنيسهم المعبد. وفيما بعد شيّد الميلتوسيون معبداً هو الأكبر بين المعابد كلّها، وبسبب حجمه الضخم هذا بقي من غير سقف؛ فامتداد محيط حرمه المقدّس يتسع لقرية كاملة؛ وفي داخل الحرم المقدّس وخارجه حديقة بديعة؛ وفي المحارم المقدّسة الأخرى مواحي ومعابد. وقد جعلت الأسطورة أحداث قصة برانك، وغرام أبوللون تدور هنا. والمحرم مزدان بأبهى أعمال الفنّ القديم وأعظمها قيمة. والطريق من هنا إلى المدينة برّاً وبحراً، قريبة.

6- وبحسب إيثور أن الكريتيين هم أوّل من أسّس هذا المكان وحصّنه على البحر هناك حيث تقع مدينة ميلتوس الآن. فقد قاد ساربيدون مستوطنين إلى هناك من ميلتوس الكريتية ودعا المدينة باسم المدينة الكريتية؛ وكان الليليغيس هم الذين يملكون هذا المكان من قبل. وفيما بعد حصّن نيلييوس ومرافقوه المدينة المعاصرة بسور. وفي المدينة الآن أربع موانئ، يمكن لواحدة منها أن تستوعب أسطولاً كاملاً. لقد حققّت المدينة كثيراً من المآثر المجيدة، لكنّ أعظمها كثرة المستعمرات التي أسّستها، فالميلتوسيون استعمروا سواحل البونتس الإيفيكسيني والبروبونتيدا كلّها، وأماكن كثيرة أخرى. وعلى أيّ حال فإن أناكسيمين اللامبساكي يزعم أنّ الميلتوسيين سكنوا جزر إيكاروس، وليروس في الهليسبونت، وليمنا في كرسونيس، وأبيدوس وأريسبا وبيوس في آسيا؛ واستوطنوا أرتاكا وكيزيك في جزيرة الكيزيكيين؛ وسكيبسيس في الأجزاء الداخلية من طروادا. وعلى أيّ حال سأتحدّث عن المدن الأخرى التي أغفلها أناكسمين، عندما أشرع في عرض وصفي التفصيلي. ويدعو الميلتوسيون والديلوسيون أبوللون Úlios، وكأنه إله الصحّة والمداواة، فالفعل ūlein يعني «يتمتّع بالصحّة»، ومن هنا جاءت كلمة ūlē[6]، والتحية «انعم بالصحّة (ūlē)، ابتهج». فأبوللون إله مداو، ومثله مثل أرطميس أخذ اسمه من كونه يجعل

النـاس أصحّاء وسليمين[7]. ويتحـد هيليـوس وسيلينا اتحـاداً وثيقـاً بهـذا المفهـوم، لأنهمـا سبب خليط الهواء الصحّي. وعلى وجه العموم يتهمون هـذين الإلهين بالتسبب بـالأمراض المميتة والموت المفاجئ.

7- ومـن السـلالات الميلتوسـية الباقيـة في ذاكـرة النـاس، سـلالة فـاليس أحـد الحكمـاء السـبعة، وأوّل إغريقـي اشـتغل بـالعلوم الطبيعيـة والرياضـيات، ومـن تلاميـذه أناكسيماندرس وتلميـذ هـذا الأخير أناكسـيمين؛ وسـلالة هيكـاتوس مؤلِّـف كتـاب «التاريخ»، والخطيب إيسخين الـذي يعيش في أيامنـا هـذه منفيـاً بسـبب جرأتـه في القـول أمام بومبيوس الأكبر. ولكـنّ بليّة حلّت بالمدينة لأنها أغلقت أبوابها في وجـه الإسـكندر فاستولى عليهـا عنـوة، ومثلها غاليكارنـاس الـتي كانـت قـد وقعـت مـن قبـل في أيـدي الفـرس. ويـزعم كالليسـفين أن الأثينـيين فرضـوا غرامـة علـى الشّـاعر التراجيـدي فـرينيكس لأنـه ألّـف درامـا «اسـتيلاء داريـوس علـى ميلتـوس». - وتقـع جزيـرة لادا أمـام ميلتوس، ومثلها الجزر الصغيرة الواقعة على مقربة من تراجيا التي يستخدمها القراصنة محطة لسفنهم.

8- ثمّ يأتي خليج لاتموس الـذي تقـع فيـه هيراقليـا الـتي تـدعى «تحـت لاتمـوس»، وهـي مدينـة صغيرة فيهـا محطـة شـراعية. وكانـت هـذه تـدعى مـن قبـل لاتمـوس، وهـو الاسم عينه الذي يحمله الجبل الذي يعلو فوقها، وبحسب هيكاتوس أن هذا الأخير هـو نفسه الذي يدعوه هوميروس «جبل الفتيريين الحراجي»[8] (لأنه يقول، إن جبـل الفـتيريين يقع فوق لاتموس)؛ لكنّ بعضهم يزعم أنّ هذا الجبل هو جبل غريوس الذي يمتدّ تقريباً بموازاة لاتموس من منطقة ميلتوس شرقاً عبر كاريا إلى يفـروم وخـالكيتور. ويقـع هـذا الجبـل فـوق هيراقلييـا مواجهـاً لهـا. وغير بعيـد عـن غيريـوس، إذ تعبر نهـراً صـغيراً قـرب لاتمـوس، يـدلّون علـى قـبر إينـديميون في أحـد الكهـوف. ومـن هيراقليـا إلى مدينـة بـيرّا الصغيرة 100 مرحلة عن طريق البحر.

9- وأبعـد مـن ذلـك بقليـل تمتـدّ الطريـق مـن ميلتـوس إلى هيراقليـا، بمـا في ذلـك ثنيات الخلجان، أمّا الطريق البحرية المباشرة من ميلتوس إلى بيرّا، فطولها 100 مرحلة، وتمتدّ بالقدر نفسه طريق الشاطئ. ولكنْ حينمـا يتعلّـق الأمـر بالأمـاكن الشـهيرة، فـإن على القارئ أن يتحمّل جفاف الوصف.

10- مـن بـيرّا إلى مصـبّ ميانـدرس 50 مرحلـة؛ وتغطـي المكـان سـبخات ومستنقعات. وعلـى بعـد 30 مرحلـة إبحـاراً نحـو الأعلـى بقـوارب تـدفع بالمجـاديف، تقـع

مدينة مينونت، وهي إحدى مدن الإيونيين الاثنتي عشرة التي أتحدت الآن مع ميلتوس بسبب قلّة عدد سكّانها وحالة الفقر التي وصلت إليها. ويقال، إنّ كسيراكس أنعم على ثيميستوكلس بهذه المدينة «للتوابل»، وبمغنيسيا «للخبز»، وبلامبساك «للنبيذ».

11- وعلى بعد 4 مراحل من هنا قرية فيمبريا الكارية؛ وعلى مقربة منها يقع كهف آورنيوس الذي يدعى «هارونيوس»، لأنه مليء بالأبخرة المميتة. وإلى الأعلى من القرية تقع مغنيسيا التي على مياندرس، وهي مستعمرة الماغنيتيين التساليين، والكريتيين، التي سأتحدّثُ عنها قريباً(9).

12- ويمتدّ وراء مصبّ مياندرس ساحل بريينا الذي تقع فوقه بريينا وجبل ميكال الذي تسرح فيه قطعان من الوحوش وتنمو عليه غابة كثيفة. ويقع هذا الجبل على مقربة من جزيرة ساموس ليشكل معها مضيقاً على ذلك الجانب من الرأس البحرية التي تدعى رأس تروغيليوس عرضه قرابة 70 مرحلة. ويدعو بعض الكتّاب بريينا باسم قدموسيا، لأنّ مؤسّسها فيلوتا كان بيوتياً. وبريينا مسقط رأس بيانس، أحد الحكماء السبعة؛ وقد قال هيبوناكس عنه:

في شؤون القضاء، يشبه بيانس البرييني، إنه الأحذق

(*مقطع 79، ببرغك*)

13- وتقع أمام رأس تروغيليوس البحرية جزيرة صغيرة تحمل الاسم نفسه. ومن هنا أقصر معبر إلى سونيوس: 1600 مرحلة، وفي غضون ذلك ستكون ساموس، وإيكاريا، وكورسي أوّلاً على الجهة اليمنى، وستكون صخور ميلانثوس على الجهة اليسرى. ويجري الجزء الباقي من الإبحار عبر وسط الجزر الكيكلادية. ورأس تروغيليوس البحرية نفسها ليست سوى ذيل من ذيول جبل ميكال. ويتاخم ميكال جبل آخر هو جبل باكتوس الواقع في منطقة إفسس التي يصل إليها امتداد ميسوجيدا.

14- ومن تروغيليوس إلى ساموس 40 مرحلة؛ وتتّجه ساموس وميناؤها ومحطتها الشراعية جنوباً. والشطر الأكبر من المدينة يشاطئ البحر ويقع على مكان مستو، لكنّ جزءاً منها يصعد في الجبل الذي يرتفع فوقها. وإذا ما اقتربت إلى المدينة من الجهة اليمنى، فإنك ترى رأس بوسيدوس البحرية التي تشكّل مع جبل ميكال مضيقاً عرضه 7 مراحل. ويقع على هذه الرأس معبد لبوسيدون؛ وأمامه جزيرة صغيرة هي جزيرة نارثيكيدا؛ وعلى الجهة اليسرى ضاحية قرب حرم هيرا، ويجري هنا نهر

إيمبراس ويقوم حرم قديم لهيرا ومعبد كبير تحوّل الآن إلى مخزن للوحات. وعلاوة على كثير من اللوحات المحفوظة هنا، ثمّة مخازن أخرى للوحات، وعدد من المعابد الصغيرة المليئة بالأعمال الفنيّة القديمة. وفناء المعبد مفتوح مليء بدوره بأروع التماثيل؛ ثلاثة منها أبعادها كبيرة جداً، وهي التماثيل الثلاثية التي نحتها ميرون، وقد وضعت ثلاثتها على قاعدة واحدة؛ وحدث أن رفعها أنطونيو من هناك، لكنّ قيصر أغسطس أمر بإعادة اثنين منها إلى مكانهما، وهما تمثال أثينا وتمثال هرقل، أمّا تمثال زيوس فقد نقله أُغسطس إلى الكابيتول وبنى له معبداً صغيراً هناك.

15- ويبلغ طول الطريق حول جزيرة الساموسيين 600 مرحلة. وفي الأزمنة القديمة عندما كان الكاريون يعيشون على الجزيرة، كانت هذه تدعى بارثينيا، ثمّ دعيت أنفيمونس وميلامفيللوس، ودعيت أخيراً سلموس، على اسم بطل محلّيّ ما، أو وافد من إيثاكا أو كيثالينيا. وفي ساموس رأس بحرية تدعى آمبيل تتّجه تقريباً نحو دريبان في إيكاريا؛ وعلى وجه العموم فإنّ الجبل كلّه الذي يضفي على الجزيرة كلّها الطابع الجبلي، يحمل الاسم عينه. وساموس ليست غنية بالنبيذ، مع أنّ الجزر المحيطة بها كلّها تنتج كثيراً منه، أمّا الشطر الأكبر من البرّ المجاور لها، فإنه يشتهر كلّه بأجود أنواع النبيذ: كيوس، وليسبوس، وكوسوس، على سبيل المثال لا الحصر. وفعلاً فإن خمر إفسس والميتروبوليا خمور جيّدة؛ كما تنتج ميسوجيدا، وتمولوس، وكاتاكيكاومينا، وكنيدس، وسميرنا، وسواها من الأماكن الأقلّ أهمية أنواعاً جيّدة من النبيذ لذيذة المذاق أو صالحة للمداواة. وعلى هذا النحو لم تكن ساموس سعيدة الحظ على وجه الخصوص فيما يتعلّق بالنبيذ؛ أمّا فيما عدا ذلك فهي بلاد مباركة، كما يبدو هذا واضحاً من الصراع على امتلاك الجزيرة الذي كان يفضي دائماً إلى حروب؛ زد إلى هذا أنّ الذين يشيدون بالجزيرة لم يترددوا في أن يسحبوا عليها المثل القائل: يوجد في ساموس «حتّى لبن العصفور»، كما قال ميناندرس في مكان ما. وكانت حالة البحبوحة التي تعيشها الجزيرة سبباً لقيام نظام حكم التيرانية فيها بالتالي معاداتها لأثينا.

16- وازدهرت التيرانية خاصة في عهد بوليكراتوس وشقيقه سيلوسونس. فكان بوليكراتوس مشهوراً بهناءته وجبروته إلى حدّ أنه حقّق سيطرته على البحر. وللبرهان على هناءته يسوقون الحدث الآتي(10): لقد رمى عن سابق قصد خاتماً مرصعاً بالحجارة الكريمة في البحر، وبعد مضيّ بعض الوقت جاءه صياد بالسمكة التي

ابتلعت الخاتم (عندما فتحوا بطن السمكة وجدوا الخاتم هناك). ويقولون، إنه عندما علم ملك مصر بالحدث أطلق ما يشبه نبوءة قال فيها، إن الإنسان الذي بلغ هذه القمة من النجاح سرعان ما تنتهي حياته بمأساة. وهذا ما حصل فعلاً، إذ سرعان ما راح التيران ضحية مؤامرة غادرة فوقع أسيراً لدى أحد ولاة الفرس الذي أعدمه شنقاً. ومن معاصريّ بوليكراتوس، الشّاعر الميلتوسي أناكريونت؛ فأشعار هذا الشّاعر مليئة بمدائح هذا التيران. ويقولون أيضاً، إن فيثاغورس عاش في زمن حكم بوليكراتوس لكنّه غادر المدينة عندما رأى تزايد قوّة حكم التيران وسافر إلى مصر وبابل حبّاً بالتعلّم؛ ولمّا عاد ووجد أنّ التيرانية لا تزال على قوّتها أبحر إلى إيطاليا وبقي فيها حتّى توفي. وهذه هي معلوماتي عن بوليكراتوس.

17- أمّا سيلوسونس فقد تركه أخوه وحيداً. وقد قدّم هذا ثيابه هدية لداريوس بن غستاب الذي رآها عليه (عندما لم يكن قد صار إلى ملك بعد) وعبّر عن رغبته بأن تكون له. ولمّا اعتلى داريوس العرش الفارسي تلقّى سيلوسونس منه منصب تيران ساموس هدية ردّاً على هديته السابقة. لكنّه حكم بجور وظلم أدّيا إلى خلوّ المدينة من سكّانها. ومن هنا جاء المثل القائل:

مرتع من الأرض ببركة سيلوسونس.

18- وفي أوّل الأمر أرسل الأثينيون ضدّ ساموس القائد بيريكلس ومعه الشّاعر سوفوكليس اللذين ضربا الحصار حول ساموس المتمرّدة ووضعا سكّانها في حالة مضنية؛ وفيما بعد أرسلوا إلى الجزيرة 2000 مستعمر أثيني اختيروا بالقرعة، وكان بين هؤلاء نيوكلس، والد الفيلسوف إيبيقور الذي كان لا يزال تلميذاً في المدرسة. ويزعمون أن إيبيقور نشأ وتربّى فعلاً في ساموس وتيوس، أمّا في أثينا فقد جرى قبوله في عداد الإيثيبيين[11]. وفي تلك الأثناء كان الشّاعر الكوميدي مياندرس زميلاً له بين الإيثيبيين. كما كان كريوفيل ساموسياً أيضاً، ويروى إنّ هذا استضاف في زمن ما هوميروس على الرحب والسعة، فمنحه الشّاعر حقّ كتابة اسمه الشخصي على مؤلّفه «الاستيلاء على إيخاليا». ولكنّ كاليماخ على الضدّ من هذا يشير في إحدى قصائده الهجائية بوضوح، إلى أنّ القصيدة من شعر كريوفيل نفسه، لكنّ قصة الضيافة جعلتهم ينسبونها إلى هوميروس:

روى لي ساكن في ساموس، أنه استضاف

هوميروس يوماً؛ وأنا الآن أندب مرارة مصير
إيفريتوس، مع إيوليا الحورية. أستغيث بما كتبه
هوميروس، لكنّ كريوفيل حقّق هذه المأثرة.

ويرى بعضهم أن كريوفيل هو معلّم هوميروس، بينما يرى آخرون أن معلّمه هو أريستوس البروكونيسي.

19- وإلى جانب ساموس تقع جزيرة إيكاريا التي دعي البحر الكاريّ باسمها. وقد أخذت الجزيرة اسمها من إيكاروس ابن ديدالوس، الذي تقول الروايات إنه سقط هناك بينما كان فارّاً مع والده (عندما حلّقا بأجنحتهما من كريت)، لأنه عجز عن الالتزام بالطريق الصحيح؛ فقد حلّق عالياً جدّاً نحو الشمس، فذاب الشمع وسقط جناحاه. -ويشغل محيط الجزيرة 300 مرحلة، وهو خال من المراسي، ما عدا بعض المحطات الشراعية؛ وتدعى الأفضل بينها باسم هيستا. وتمتدّ هذه الرأس البحرية غرباً. وثمّة على الجزيرة حرم لأرطميس يدعى تافروبولوس، ومدينة إينويا الصغيرة، إضافة إلى مدينة صغيرة أخرى تدعى دراكان، سميّة الرأس البحرية التي تقوم عليها، وتوجد هناك محطة شراعية أيضاً. وتقع هذه الرأس البحرية على بعد 80 مرحلة عن الرأس البحرية الساموسية التي تدعى كانفاريوس، وهو ما يشكّل أقصر مسافة بحرية بين هاتين الرأسين. لكنّ عدد سكّان الجزيرة قليل جدّاً الآن، وأكثر الساموسيين يعيشون هنا فقط من أجل قطعانهم.

20- وبعد مضيق ساموس قرب ميكال، إذا أبحرت إلى إفسوس ينكشف على الجهة اليمنى ساحل الإفسسيين؛ ويشغل الساموسيون شطراً من هذا الساحل. وأوّل نقطة على الساحل، هي بانيونيوس التي تقع على ارتفاع 3 مراحل فوق البحر، حيث يحتفل بالبانيونيوس، وهو عيد إيونيّ مشترك يقدّمون فيه الأضاحي لبوسيدون الهيليكوني. ويؤدّي البريينيون دور الكهنة في هذا الاحتفال؛ وأنا كنت قد تحدّثت عنهم لدى وصفي للبيلوبونيز[12]. ثمّ تأتي نابولي التي كانت تابعة للإفسسيين في الأزمنة الغابرة، أمّا الآن فهي تابعة للساموسيين الذين بادلوا بها مارافيسوس: مدينة قريبة بمدينة بعيدة. وتأتي بعد ذلك مدينة صغيرة تدعى بيغيلاس فيها حرم لأرطميس المونيخية أسّسه آغاممنون وأسكن فيه فريقاً من مقاتليه؛ ويروى أنّ بعض هؤلاء الجنود عانى من مرض في الأجزاء الخلفية من أجسادهم، فدعوهم «مرضى الأجزاء

الخلفية»[13]؛ وإذ وقع هؤلاء فريسة هذا المرض اضطروا للبقاء هناك؛ وهكذا أخذ المكان اسماً يلائمه. ثمّ تأتي بعد ذلك ميناء تدعى بانورم فيها حرم لأرطميس الإفسسية، ومدينة إفسس. وعلى هذا الساحل نفسه، إلى الأعلى قليلاً، تقع أورتيغيا، وهي حديقة شهيرة أشجارها متنوّعة وأكثرها من السرو. ويجري عبر الحديقة نهر كنكريوس، الذي يقولون إن لاتونا اغتسلت فيه بعد الوضع. فالأسطورة تنقل إلى هنا المكان الذي وضعت حملها فيه، ومشهد المرضعة أورتيغيا، والمكان المقدّس الذي حصل فيه الوضع، وشجرة الزيتون التي يقال، إنّ الإلهة ارتاحت تحتها لأوّل مرّة بعد آلام المخاض. ويعلو فوق الدغل جبل سولميس الذي يروى إنّ الكوريتيين أخافوا هيرا بصليل أسلحتهم، لأنّ الغيرة دفعت بهذه إلى أن تترصّد الوالدة، فساعدوا لاتونا على أن تخفي ولادة أطفالها. ويوجد في هذا المكان عدد من المعابد: بعضها قديم، وبعضها الآخر بنوه مؤخّراً؛ وفي المعابد القديمة تماثيل خشبية، أمّا المعابد الحديثة ففيها منحوتات سكوباس: لاتونا والحربة الثلاثية، وتقف إلى جانبها أورتغيا حاملة طفلاً على كلّ يد. ويقام هنا كلّ عام احتفال شعبي صاخب. والتزاماً بعادة ما يتنافس الشباب بحميّة هناك لتقديم أفخر أنواع الضيافة. وفي الوقت نفسه تقيم أخوية الكوريتيين مأدبة وتقدم أضحيات صوفية ما.

21- في أوّل الأمر عاش الكاريون والليليغيس في إفسس؛ لكنّ أندروكلس طردهم وأسكن أكثر المستعمرين الذين جاؤوا معه حول أثينوس ونبع هيبيليوس، واستولى إضافة إلى ذلك على المنطقة الواقعة على منحدرات جبل كوريسّ. لقد كان هؤلاء هم سكّان إفسس قبل زمن كريز، لكنّ السكّان نزلوا فيما بعد من منحدرات الجبل، وعاشوا حتّى زمن الإسكندر حول المعبد المعاصر. وأحاط ليسيماخ المدينة المعاصرة بسور، ولكن بما أن السكّان لم يشاؤوا أن يتركوا الأماكن القديمة التي اعتادوا عليها إلاّ مرغمين، فقد انتظر موسم الأمطار الغزيرة وأمر بإغلاق قنوات تصريف المياه ليزيد من فاعلية غزارة الأمطار وجعل المدينة تغرق في الفيضان. وعندئذٍ وافق السكّان على الانتقال برضا. لقد دعا ليسماخ المدينة أرسينويا، على اسم زوجته؛ لكنّ الاسم القديم بقي هو الغالب. وكان للمدينة مجلس شيوخ معيّن تعييناً؛ وأُلحق بهم أشخاص يدعون إيبيكليتس الذين كانوا مسؤولين عن إدارة شؤون المدينة كلّها.

22- وكان خيرسيفون أوّل من بنى معبداً لأرطميس، ثمّ وسّعه شخص آخر. وبعد أن أحرق المدعو هيروسترات المعبد، بنى المواطنون معبداً آخر أكثر بهاء، فقد

جمعوا حليّ النساء لهذا الغرض وتبرّعوا بأملاك لهم، وباعوا أعمدة المعبد القديمة. وهذا ما تؤكّده التعليمات التي صدرت عندئذٍ. ويقول أرتيميدور، إن تيمييوس التافروميني، الذي لم يكن على علم بهذه التعليمات، والذي كان حسوداً بطبعه، وواشياً (ولذلك لقّب بإيبيتيميوس)[14]، يزعم أنّ الإفسسيين أعادوا بناء المعبد بالأموال التي وضعها الفرس أمانة لديهم. بيد أنه لم يكن عندهم حينئذٍ أيّ أموال موضوعة أمانة، وحتى لو كانت هذه عندهم فعلاً، لالتهمتها النيران التي التهمت المعبد. وبعد الحريق الذي دمّر سقف المعبد أيضاً، من الذي يمكن أن يخزن أموالاً في حرم سقفه مفتوح على السماء؟ ويواصل أرتيميدور قائلاً، إنّ الإسكندر تعهّد للإفسسيين بأن يسدّد كلّ ما يلزم شريطة أن يذكر اسمه في نصب التكريس التذكاري، لكنّهم رفضوا؛ فلم يشاؤوا أن يوصموا بالكفر أو يتهموا بنهب المعبد. ويعلّق أرتيميدور مادحاً إفسس التي قالت للملك[15]، لا يليق بالإله أن يبني معابد لآلهة.

23- وبحسب أرتيميدور أنه بعد الانتهاء من بناء المعبد، الذي كان من إبداعات هيروكراتوس[16] (هو نفسه الذي بنى الإسكندرية؛ وهو نفسه الذي اقترح على الإسكندر تحويل جبل أفون إلى لوحة تحمل صورته وهو يؤدّي طقس سكب الزيت من إناء ما في كأس، كما اقترح أيضاً بناء مدينتين: واحدة على الجانب اليميني للجبل، والأخرى على جانبه اليساري، وإطلاق نهر يجري من إحدى المدينتين إلى الأخرى)، أكرّر، أنه بعد الانتهاء من بناء المعبد، جاء أكثر التقدمات الأخرى لتزيين المعبد وزخرفته من الرساميين المحلّيين تعبيراً منهم عن إجلالهم لقدسية المعبد، بينما كانت زخرفة المحراب وزينته كلّها تقريباً، من أعمال براكسيتل. وعلى أيّ حال أروني عدداً من أعمال فراسون الذي نحت تمثال هيكاتي، وصنع تمثال بنيلوبي الشمعي، وتمثال «العجوز إيفريكلييا». وكان كهنة المعبد من الخصيان الذين دعوهم ميغابيزيين. وكان الإفسسيون دائماً يدعون أفراداً من أماكن أخرى ممن يستحقّون أن يشغلوا هذا المنصب السامي ويقدّمون لهم أرفع آيات الإجلال؛ وكان ينبغي أن يكون مع هؤلاء كاهنات فتيات بالضرورة. ولكنّ قليلاً من مثل هذه العادات يراعى الآن، أمّا العادات الأخرى فقد خرجت من ميدان الاستخدام نهائياً. ويبقى المعبد حتّى اليوم ملاذاً[17] آمناً، مع أنّ حدود اللجوء غالباً ما كانت تتغيّر. فالإسكندر على سبيل المثال زادها بمقدار مرحلة كاملة، أمّا ميتريدات فقد أطلق سهماً من زاوية السقف، وظنّ أن مداه يتجاوز المرحلة بقليل؛ ثمّ جاء أنطونيو أخيراً وضاعف هذه المسافة، وأدخل شطراً من

المدينة داخل هذه الحدود. ولكن تبيّن أن زيادة مدى حدود الملاذ كان عملاً مؤذياً، لأنها وضعت المدينة تحت سلطة العناصر الإجرامية؛ لذلك عاد أغسطس قيصر فألغاها.

24- وفي المدينة ترسانة لإصلاح السفن، وميناء. وقد جعل البنّاؤون مدخل الميناء أكثر ضيقاً، لكنّهم أخطؤوا وأخطأ معهم الملك الذي أمرهم أن يفعلوا ذلك (وكان هذا على وجه التحديد، الملك أتّال فيلادلف). فقد اعتقد هذا الملك أن المدخل سيكون عميقاً بما يكفي لاستقبال سفن الشحن الكبيرة (وعلى النحو عينه الميناء نفسها أيضاً، إذ كانت من قبل ضحلة بسبب الرواسب التي كان يحملها نهر كايستروس)، إذا ما تمّ طمر المياه الضحلة عند المدخل الذي كان واسعاً جدّاً عندئذٍ، ولذلك أمر ببناء سدّ. بيد أنّ ما حدث هو العكس: لقد جعلت الترسبات المحتجزة داخل الميناء من هذه الأخيرة ضحلة حتّى مدخلها. وقبل ذلك كان المدّ والجزر يقلّصان كمية الترسبات كثيراً، إذ كانا يحملانها إلى عمق البحر. وعلى أيّ حال، هذه هي خاصيات الميناء. أمّا المدينة فإن موقعها الملائم، إضافة إلى السمات المماثلة الأخرى، جعلها تتنامى يوماً بعد يوم حتّى غدت أكبر موانئ آسيا على هذا الجانب من طوروس.

25- لقد كانت هذه المدينة مسقط رأس شخصيات شهيرة مثل: هيراقليط الملقب بالغامض، وهيرمودور الذي قال عنه هيراقليط نفسه: «ينبغي أن يعدم كلّ الإفسسيين الذين نفوا هيرمودور، الشخص الأكثر نفعاً بينهم قائلين: فليطرد من بيننا الشخص الأكثر نفعاً؛ وإذا كان هناك مثل هذا الشخص فليمض وليقم في مكان آخر وبين أناس آخرين». ويهيّأ لي أنّ هذا الشخص وضع للرومان بعض القوانين. ومن إفسس خرج أيضاً الشّاعر هيبوناكس، والرسامان بارسيوس وأبيلليس؛ ومن شخصيات الزمن الحديث خرج من إفسس الخطيب الإسكندر الذي لقّب بالليخنوس[18]، وكان هذا رجل دولة كتب في التاريخ وترك قصائد تربوية صوّر فيها أوضاع الأجرام السماوية، وأعطى وصفاً جغرافياً للقارّات، فكرّس قصيدة لوصف كلّ قارّة.

26- وتقع بعد مصبّ كايستروس بحيرة شكّلها فيضان البحر، تدعى سيلينوسيا؛ وتقع بالقرب منها بحيرة أخرى تتّصل بالأولى؛ وتدّر البحيرتان موارد كبيرة. ومع أنّ هاتين البحيرتين بحيرتان مقدّستان، إلاّ أن الملوك انتزعوهما من الإلهة، بيد أنّ الرومان أعادوهما إليها. لكنّ المتعهدين الحكوميين انتزعوا حق جباية الضرائب من جديد عنوة، إلاّ أن سفارة أرتيميدور إلى روما أسفرت كما يقول هو نفسه، عن إعادة

البحيرتين إلى الإلهة واستعادة هيراقليوتيدا بحكم قضائي، بعد أن كانت قد سُلخت عن إفسس. وعرفاناً بهذا الجميل أقامت المدينة تمثالاً ذهبياً له في المعبد. وفي أقصى أطراف البحيرة يقع حرم الملك الذي يقال، إنّ أغاممنون هو الذي بناه.

27- ثمّ يأتي جبل هاليسوس ومدينة كولوثون الإيونية؛ وتقع أمامها أرض مقدّسة لأبوللون الكلاريسي حيث كان يوجد هنا في زمن ما موْحى. وتقول الحكاية، إنّ كالخانس وصل إلى هنا مع أمفيلوخ ابن أمفيارايوس في طريق عودته من تحت أسوار طروادا سيراً على الأقدام، لكنّه قضى كمداً إذ قابل على مقربة من كلارس متنبّئاً أقوى منه هو نفسه، وكان هذا على وجه التحديد موبسوس ابن مانتو ابنة تيريسيوس. ويعرض هسيود الأسطورة على هذا النحو تقريباً، إذ يطرح على موبسوس السؤال الآتي:

يا للعجب كم من الثمار على شجرة التين البرية هذه،

مع أنها لا تزال صغيرة؛ فهل تستطيع أن تعرف عددها؟

فأجابه موبسوس:

عددها عشرة آلاف، لكنّ مقدارها يساوي الميدمن.

هكذا قال: تبيّن أن عدد الثمار ومقدارها كانا دقيقين.

عندئذٍ أطبقت عيني كالخانس غفوة الموت.

(مقطع 160، رجاغ)

ولكن كالخانس، كما يقول ثيريكيدس، طرح سؤالاً عن خنزيرة عاشر: كم فرخاً تحمل؟ فأجاب موبسوس أنها تحمل ثلاثة، بينها أنثى واحدة؛ وعندما ظهر أنّ التخمين دقيق، مات كالخانس غمّاً. غير أنّ آخرين يزعمون العكس، فيقولون إن كالخانس سأل سؤال الخنزيرة، وإن موبسوس سأل سؤال التينة وإنّ الأخير هو الذي أجاب الإجابة الصحيحة؛ والثاني أخطأ فمات غمّاً وفق نبوءة المتنبّئ. كما يذكر سوفوكليس الموحى بدوره، في «طلب إعادة يلينا»، وإنه كان مقدّراً لكالخانس أن يموت لدى لقائه متنبّئ أقوى منه. ولكنّ سوفوكليس ينقل مشهد المباراة وموت كالخانس إلى كيليكيا. إن هذا ما تقوله الحكايات القديمة.

28- وفي زمن ما كان الكولوثونيون يمتلكون قوات بحرية يحسب لها حساب، وقوّة مهمّة من سلاح الفرسان، فقد تفوّقوا في هذا السلاح الأخير على سواهم

إلى درجة أنّ كلّ معركة كان النصر فيها صعباً، كان يكفي أن يتدخّل الفرسان الكولوثونيون حتّى يحسم الأمر؛ ومن هنا شاع المثل القائل: «لقد أخذ كولوثون عوناً له»، عندما كان يوضع للأمر حدّ نهائي راسخ. وعاش في ذاكرة الكولوثونيين الشّاعر ميمنيدموس عازف المزمار وشاعر المراثي، وكسينوفونت الفيلسوف وعالم الطبيعيات الذي ألّف «السيلات»[19]؛ كما يذكر بينداروس شخصاً آخر يدعى بوليمناست بصفته موسيقياً شهيراً:

تعرف صوتاً مألوفاً، صوت

بوليمناست الكولوثوني

(*مقطع* 66، *بيويش*)

بل يزعم بعضهم أن كولوثون مسقط رأس هوميروس أيضاً. ومن إفسس إلى كولوثون 70 مرحلة خطاً مباشراً، و120 مرحلة طريقاً متعرّجة.

29- ويأتي بعد كولوثون جبل كوراكي وجزيرة صغيرة مكرّسة لأرطميس تعوم إليها إناث الأيائل لتضع مواليدها عليها، كما يفترضون. ثمّ تلي ليبيدوس، على بعد 120 مرحلة من كولوثون. ويقع هنا مكان اجتماعات، وقرية «لرسّاميّ ديونيسيوس»[20] كلّهم في بيوتيا وصولاً إلى الهليسبونت؛ وتقام على هذه الجزيرة الاحتفالات والألعاب السنوية التي تنظّم على شرف ديونيسيوس. وكان هؤلاء يعيشون قبل ذلك في تيوس، المدينة الإيونية التي تأتي مباشرة بعد كولوثون، ولكن بعد أن اشتعلت انتفاضة هناك فرّوا إلى إفسس بحثاً عن ملجأ. وحينما نقلهم أتال للعيش في ميونيس، بين تيوس وليبيدوس، أرسل التيوسيون سفارة إلى الرومان يطلبون منهم عدم السماح للميونيين ببناء تحصينات ضدهم. عندئذٍ انتقل الميونيون إلى ليسبوس، فاستقبلهم سكّان هذه المدينة على الرحب والسعة، لأنهم كانوا يعانون نقصاً في عدد السكّان. وتبعد تيوس 120 مرحلة عن ليبيدوس؛ وتقع بينهما جزيرة أسبيدا، التي يدعوها آخرون أوكونيس. وقد بنيت ميونس على مرتفع له شكل شبه جزيرة.

30- وتيوس بدورها تقع على شبه جزيرة، وفيها ميناء. ويتحدّر من هناك الشّاعر الماجن أناكريونت؛ وفي زمنه ترك التيوسيون مدينتهم وانتقلوا للعيش في مدينة أبديرا التراقية، لأنهم لم يطيقوا إهانات الفرس لهم، ومن هنا جاء المثل القائل:

أبديرا مستعمرة التيوسيين المجيدة

لكـنّ بعضـهم عـاد إلى المدينـة الأمّ بعـد وقـت. وأنـا كنـت قـد قلـت[21]، إنّ أبيلليكونت كان تيوسياً، وإن المؤرّخ هيكاتوس ينتمي إلى المدينة عينها. وهناك ميناء أخرى هي ميناء هيريدس الواقعة على بعد 30 مرحلة من المدينة.

31- يلي ذلك منطقة الخلكيديين وبرزخ كرسونيس الذي يملكه التيوسييون والإرثريون. ويقطن هؤلاء الأخيرون على هذا الجانب من البرزخ، ويعيش التيوسيون والكلازومينيون على البرزخ نفسه. أمّا الجهة الجنوبية من البرزخ، أي منطقة الخلكيديين، فيشغلها التيوسيون، ويشغل الكلازومينيون جهته الشمالية حيث تتاخم منطقتهم المنطقة الإرثرية. ويقع في أوّل البرزخ مكان يدعى هيبوكريمنوس الذي يفصل المنطقة الإرثرية من الجهة الداخلية للبرزخ، ويفصل من جهته الخارجية منطقة الكلازومينيين. وإلى الأعلى من منطقة الخلكيديين تقع أرض مقدّسة مكرّسة للإسكندر بن فيليب. ويقيمون في هذا المكان ألعاباً تدعى الألعاب الإسكندرية التي ينظمها اللقاء العام المشترك للإيونيين. ويبلغ طول المعبر عبر البرزخ، من أرض الإسكندر المقدّسة ومنطقة الخلكيديين، حتّى هيبوكريمنوس 50 مرحلة، بينما يبلغ امتداد خطّ الإبحار حول المكان 1000 مرحلة. وفي منتصف الطريق الدائرية تقريباً، تقع مدينة إريثرا الإيونية وميناؤها؛ وتقع أمامها 4 جزر صغيرة تدعى جزر هيبّا[22].

32- وقبل الوصول إلى إريثرا بقليل تقع أوّلاً مدينة صغيرة تدعى إرّا عائدة للتيوسيين؛ ويأتي بعد ذلك جبل شاهق يدعى كوريك تقوم عند سفوحه ميناء تسمّى كاسيست، وميناء أخرى تدعى إريثرا؛ يلي ذلك عدد من الموانئ التي تلي واحدتها الأخرى. ويقولون، إن الساحل القريب من كوريك كلّه كان وكراً لمن يدعون القراصنة الكوريكيين الذين ابتكروا طريقة جديدة لمهاجمة البحارة: يتوزّع القراصنة على الموانئ ويسترقون السمع إلى أحاديث التجار هناك ليعلموا أيّ بضائع يحملون وإلى أين يبحرون؛ ثمّ يجتمعون معاً ويغيرون على التجار في عرض البحر؛ ولذلك فإنّ كلّ من يتطفّل على شؤون الآخرين ويحاول أن يسترق السمع إلى الأحاديث السّرّية، يدعى كوريكياً، بل يستخدم المثل التالي أيضاً عندما يكون شخص ما واثقاً من أنّ تصرّفاته أو أقواله طيّ الكتمان، بينما حقيقة الأمر أنها بمتناول الآخرين الذين يراقبونه خلسة ويسعون لمعرفة ما لا يخصّهم. يقول المثل:

حتى الكوريكي كان يمكنه أن يعرف عن هذا.

33- وبعد جبل كوريك تأتي جزيرة صغيرة تدعى هالونيس. تليها أرغينوس، وهي رأس بحرية في المنطقة الإرثرية، ولا تبعد كثيراً عن بوسيديوس الكيوسيين. وتشكل بوسيديوس مضيقاً عرضه حوالي 60 مرحلة. وبين إريثرا وهيبوكريمنوس يرتفع جبل عال يدعى ميمانس غنيّ بالوحوش ومكسوّ بغابة كثيفة. ثمّ تأتي قرية كيبيليا، ورأس بحرية تدعى ميلينا(22)، فيها مقلع لحجارة الطواحين.

34- ومن إريثرا خرجت سيفيلاّ، وهي امرأة ملهمة ومتنبّئة معروفة في العالم القديم. ومن زمن الإسكندر تنتمي إلى هذه المدينة نفسها متنبّئة أخرى تدعى أثينايدس. وفي زمننا نحن ولد هناك هيراقليدس، طبيب مدرسة هيروفيل، وزميل دراسة لأبوللونيوس موسا.

35- أمّا كيّوس فإن امتداد محيطها إذا تنقلت برّاً، 900 مرحلة. وفي الجزيرة مدينة فيها ميناء جيّدة ومحطة سفن شراعية تستوعب 80 سفينة. وإذا ما طفت حول الجزيرة انطلاقاً من المدينة وكانت الجزيرة على يمينك، فإنك تقترب من بوسيدونيا أوّلاً؛ يلي ذلك فانا، وهي ميناء عميقة، ثمّ معبد أبوللون فدغل من النخيل. وبعد ذلك تأتي نوتيوس، وهي محطة سفن شراعية على ساحل البحر، ثمّ لاينوت، وهي أيضاً محطة شراعية على ساحل البحر؛ ويمتدّ من هناك إلى المدينة برزخ طوله 60 مرحلة، لكنّ الطريق الملتفة التي كنت قد سلكتها للتوّ، تشكّل 360 مرحلة. وتأتي بعد ذلك رأس ميلينا التي تقع في مواجهتها على بعد 50 مرحلة جزيرة بسيرا، وهي جزيرة عالية فيها مدينة تحمل الاسم عينه. ويبلغ امتداد محيط الجزيرة 40 مرحلة. وأبعد منها تقع إريوسيا، وهي موقع صخري وعر ليس فيه أيّ مراس، ويمتدّ على ما يقارب 30 مرحلة، ولكنّه ينتج أفخر أنواع النبيذ الإغريقي. ويعلو وراءها جبل بيلينيوس، وهو أعلى قمة جبلية في الجزيرة. كما يوجد في الجزيرة مقلع لحجارة المرمر. ومن الشخصيات الكيوسية، الشّاعر الدرامي إيون، والمؤرّخ ثيوبومبوس، والصوفي ثيوكريتيس. وكان هذان الأخيران معارضَيْن سياسييْن. كما يدّعي الكيوسيون انتماء هوميروس إليهم، وأقوى قرائنهم في هذا السياق، هي انتماء من يدعون بالهوميروسيين إلى سلالته؛ ويأتي بينداروس على ذكر هؤلاء:

ومن هنا غالباً ما كان الهوميروسيون

البارعون في غناء القصائد [يبدؤون]...

(*الحوريات* II، 1)

وفي زمن ما كان الكيوسيون يملكون أسطولاً، ويسعون لنيل حريتهم والسيادة على البحر. والمسافة من كيوس إلى ليسبوس، إذا أبحرنا مع الريح الجنوبية، حوالي 400 مرحلة.

36- وبعد هيبوكرين يأتي هيتروس، وهو مكان كانت تقع فيه في زمن ما كلازومينا. وتأتي بعد ذلك مدينة معاصرة مع 8 جزر صغير واقعة أمامها يمارس سكّانها العمل الزراعي. ومن أشهر الكلازومينيين الفيلسوف وعالم الطبيعيات الشهير أناكساغوراس، تلميذ الميلتوسي أناكسيمين. وكان من مستمعيّ أناكساغوراس كلّ من الفيلسوف وعالم الطبيعيات أرخيلايوس، والشّاعر يوريبيدس. ثمّ يأتي بعدها حرم لأبوللون، وينابيع مياه حارّة وخليج ومدينة السميرنيين.

37- ويأتي بعد ذلك خليج آخر كانت تقع فيه سميرنا القديمة على مسافة 20 مرحلة من المدينة المعاصرة. وبعد أن دمّر الليديون سميرنا، بقيت على قيد الحياة قرابة 400 سنة، ولكن على شكل قرية بسيطة. ثمّ أعاد أنتيغون بناءها، وتابع العمل على ذلك بعده ليسيماخ، أمّا الآن فالمدينة من أبهى المدن الإيونية كلّها. وقد بني جزء من المدينة على الجبل، ويقع الشطر الأعظم منها في سهل قرب ميناء، وغير بعيد عن معبد الأمّ العظمى وقرب الجمنازيوم. ومخطط بناء المدينة بحسب الأحياء، مخطط بديع جدّاً؛ فالأحياء تمتدّ بحسب الإمكان على خطوط مستقيمة؛ والشوارع مرصوفة بالحجارة، وتنتشر في المدينة أروقة كبيرة مربّعة الشكل بطابقين، علوي وسفلي. كما توجد في المدينة مكتبة وهوميريوس، وهذا الأخير عبارة عن رواق مربّع الشكل فيه معبد لهوميروس وتمثال خشبيّ له. لأنّ السميرنيين أيضاً كانت لهم أسّس خاصة للادعاء بانتماء هوميروس إليهم؛ فقد كانت متداولة عندهم فعلاً مسكوكة نقدية تسمّى هوميروس. ويجري نهر ميليت غير بعيد عن أسوار المدينة. ومن منشآت المدينة الأخرى ميناء مغلقة. لكنّ المدينة تعاني عيباً له أهميته تسبب به البنّاؤون: عندما رصفوا شوارع المدينة بالحجارة، لم يمدّوا تحتها قنوات لتصريف المياه، لذلك ترى القاذورات تغطي سطحها، خاصة أثناء هطل الأمطار، عندما تفيض البالوعات. وهنا ألقى دولابيلا القبض على تريبونيوس بعد حصار المدينة وأخذه أسيراً، فتريبونيوس هذا كان أحد المتآمرين الذين غدروا بقيصر الإلهي وقتلوه، وفي غضون ذلك دمّر دولابيلا أجزاء كثيرة من المدينة.

38- وتأتي بعد سميرنا مدينة صغيرة، هي مدينة ليفكي. وبعد وفاة أتّال

فيلوميتور حرّض أريستونيك هذه المدينة على العصيان. فقد عدّ أريستونيك نفسه من أحفاد السلالة الملكية وسعى للاستيلاء على العرش. ولكن بعد أن ألحق الإفسسيون الهزيمة به في معركة بحرية وقعت عند شواطئ كيما، ترك أريستونيك سميرنا وفرّ هارباً؛ ثمّ توغّل بعد ذلك في عمق البلاد ونجح أن يجمع حوله بسرعة قياسية، حشوداً من الفقراء والعبيد الذين أغرتهم وعوده بمنحهم الحرية، إذ كان يناديهم: «بمواطني مدينة الشمس». فاجتاح في الأوّل ثياتيرا، ثمّ نجح في الاستيلاء على أبوللونيدا والتفت إلى الحصون الأخرى. لكنّه لم يصمد طويلاً، فقد أسرعت المدن وأرسلت ضده قوّات كبيرة قدّم لها نيقوديموس البيثيني وملوك قبدوقيا عوناً مهمّاً ثمّ وصل خمسة سفراء رومان، وبعد ذلك قوات رومانية بقيادة القنصل[24] بوليبيوس كراسوس، ثمّ مارك بيربيرنا؛ وقد نجح هذا الأخير بإنهاء الحرب وإلقاء القبض على أريستونيك حياً وإرساله إلى روما. وعلى هذا النحو يكون أريستونيك قد أنهى ما تبقى له من العمر في السجن، أمّا بيربيرنا فقد قتله المرض، وسقط كراسوس قتيلاً في مواجهة مع جماعات ما، هاجمته قرب ليفكي. فوصل إلى هنا القنصل مانيوس أكويليوس[25] ومعه 10 موفدين، وأعطى الولاية بنية تنظيمية لا تزال قائمة حتّى يومنا هذا. - وبعد ليفكي تأتي ثوكيا الواقعة في الخليج؛ وأنا كنت قد تحدّثت عنها لدى وصفي لمساليا. وتأتي بعد ذلك حدود الإيونيين والإيوليين، وهو ما أتيت على ذكره من قبل. وفي داخل البلاد الإيونية الساحلية، بقيت الأماكن الواقعة على طول الطريق من إفسس إلى أنطاكيا مياندرس من غير وصف. ويسكن هذه المناطق خليط من الليديين، والكاريين، والإغريق.

39- إنّ أوّل مدينة تأتي بعد إفسس، هي مغنيسيا الإيولية التي تسمّى مغنيسيا التي على مياندرس، لأنها تقع على مقربة من هذا النهر؛ ويجري أقرب إلى المدينة نهر آخر هو نهر ليثيوس، أحد روافد مياندرس الذي ينبع من جبل باكتوس الواقع في منطقة إفسس. ويجري ليثيوس آخر عن غورتينا، وليثيوس ثالث عند تريكّا، حيث يقولون، إنّ إسكليبوس ولد هناك، وثمّة ليثيوس رابع يجري في بلاد الهسبيريتيس الليبيين[26]. وتقع مدينة مغنيسيا في سهل ينبسط قرب جبل يدعى فوراكس حيث يقال إنّ اللغوي دافيتس علّق على صليب لأنه أهان الملوك في قوله:

قرمز كروشكم من آلام الناس، وخزائن ليسيماخ

جعلتموها هباء، الليديون، والفريجيون أصحاب

العنفوان خضعوا لكم.

ويقال إنّ دافيتس تلقّى نبوءة أشارت عليه أن يحذر فوراكس.

40- ويبدو على أغلب الظنّ أن المغنيسيين أحفاد الدلفيين الذين كانوا يعيشون في الجبال الديديمية في تساليا ، وعنهم يقول هسيود :

أو كالذين يعيشون على هضاب ديديم المقدّسة،

هناك في السهل الدوتي، على طول أميروس الوفير العناقيد

حيث العذراء غسلت قدميها بأمواج بحيرة بيبيدا.

(مقطع 122. رجاخ)

وكان يقع هنا أيضاً حرم ديندمينا والدة الآلهة. وتقول الحكاية ، إن زوجة ثيميستوكلس (ويقول آخرون ابنته) ، كانت فيه كاهنة. ولكنّ الحرم لم يعد موجوداً الآن لأنّ المدينة انتقلت إلى مكان آخر. وفي المدينة المعاصرة حرم لأرطميس لوكوثرينا ، وهو أصغر من حرم إفسس حجماً ، وتقدماته أقلّ، لكنّه يتفوّق عليه كثيراً من حيث تناسق البنية الفنية للسور المقدّس. فهذا الأخير هو أكبر أسوار معابد آسيا كلّها ما عدا سور معبد إفسس وسور معبد ديديم. وكانت قد حلّت بالمغنيسيين قديماً بليّة محزنة: لقد استأصل التريريون والشعب الكيميري شأفتهم، مع أنهم عاشوا سعداء لزمن طويل؛ وفي العام التالي استولى الميلتوسيون على هذا المكان. والحقيقة أنّ كاللينوس يذكر المغنيسيين كشعب لا يزال مزدهراً وحقّق انتصاراً على الإفسسيين، بينما كان أرخيلوخ على علم، كما يهيّأ لي، بالبلية التي حلّت بهم:

لهفي على الفاسوسيين، أعظم منه على بليّة المغنيسيين...

(مقطع 20. بيرغك)

ومن هنا يمكننا أن نستنتج أنّ أرخيلوخ عاش بعد كاللينوس. فكاللينوس يذكر اجتياحاً كيميرياً ما وقع في زمن أقدم:

هكذا يهاجم الكيميريون الآن، جحافل مخيفة...

(مقطع 3. بيرغك)

مشيراً بهذا بوضوح إلى الاستيلاء على ساردا.

41- ومن أشهر من أنجبتهم مغنيسيا، هيجيسيوس الخطيب الذي كان أكثر من جميعهم حماسة لإدخال ما يسمّى الأسلوب الآسيوي، ما أدّى إلى إفساد النمط الأتيكي المستقرّ؛ ومنهم أيضاً الشّاعر الماجن سيموس الذي أفسد بدوره أسلوب شعراء المجون السابقين بإدخاله السيموديا(27) (وهذا ما فعله الليسيودس والماغودس بدرجة أكبر)(28)؛ والمصارع كليوماخ الذي أُغرم بأحد الكينيدس(29)، وبفتاة كانت لدى الأخير يعيلها، فغدا يقلّد أسلوب الكنيدس وطريقة حديثهم. وكان سوتادس أوّل من دوّن حديث الكينيدس تلاه في هذا الإسكندر الإيتولي. فقد كان هذان يقلّدان الأحاديث نثراً، ويرافقهما ليسيوس بالموسيقا، وهذا ما كان يفعله سيموس قبله. وأبرز المسرح عازف القيثارة أناكسينور، وأعلى أنطونيو من شأنه قدر ما استطاع، فعيّنه على جباية الإتاوات من أربع مدن، وعيّن له جنوداً لحراسته. كما أضفت عليه مدينته الأمّ آيات التبجيل، وألبسته الرداء القرمزي بصفته مكرّساً لزيوس مخلّص المدينة، وهذا ما يشير إليه تمثاله المزخرف في وسط ساحة السوق. وثمّة تمثال له في المسرح يحمل نصاً يقول:

عذوبة أسماعنا راحت إلى هذا المغنّي الذي

أسرها بإلهامٍ يسمو، إلهامٍ شبه إلهام الآلهة.

(الأوذيسا IX، 3)

لكنّ الحفّار لم يحسب مساحة المكان بدقّة، فاضطر إلى إسقاط الحرف الأخير من البيت الثاني، لأنّ عرض أسفل القاعدة لم يكن كافياً. لذلك وضع الحفار المدينة موضع الاتهام بالجهل بسبب ازدواجية مغزى النصّ: هل ينبغي فهم كلمة شبه هنا بصيغتها الاسمية أم بصيغة المضاف إليه؟(30) فكثيرون يكتبون صيغة المضاف إليه من غير حرف الإيوتا، بل يرفضون رفضاً قاطعاً مشروعية هذا الديدن، لأنه يفتقر إلى أيّ أساس طبيعي.

42- وبعد مغنيسيا تأتي الطريق التي تقود إلى ترالاّ، ويقع على يسارها جبل ميسوجيدا، وعلى الطريق نفسها من جهة اليمين يقع سهل مياندرس الذي يشغله الليديون، والكاريون والإيونيون (الميلتوسيون منهم و المييسيسيون)، وإيوليوّ مغنيسيا. ومثل هذه الطريقة في وصف الأماكن تستخدم حتّى نيسّا وأنطاكيا. فمدينة التراليين تقع في مكان له شكل المعيّن؛ قمته حصّنتها الطبيعة نفسها؛ وأطرافه محصّنة بدورها

تحصيناً جيّداً. وفي المدينة كثافة سكّانية عالية (لا تجاريها في هذا أيّ مدينة آسيوية أخرى) تتألّف من أناس أثرياء، فبعض سكّانها يشغلون بشكل دائم المناصب الأولى من حيث أهميتها في المقاطعة، ويدعونهم أسيارخ[31]. وكان منهم بيثودوروس النيسّي الذي انتقل للإقامة في ترالاّ بسبب شهرة هذه المدينة؛ وقد تميّز وبعض الآخرين بأواصر الصداقة مع بومبييوس. وحظي بمكانة ملكية لقاء 2000 تالانت؛ لكنّ قيصر الإلهي باع أملاك بيثودوروس بسبب صداقة هذا الأخير مع بومبيوس، فاشتراها بيثودوروس نفسه وترك لأبنائه تركة ليست بالقليلة. وابنته بيثودوريدس التي كنت قد تحدّثت عنها[32]، هي الآن ملكة البونتس. وبرز إلى جانب بيثودوروس في أيامنا هذه، العالم مينودوروس الذي علاوة على كونه عالماً يعدّ شخصية مرموقة ورصينة، فقد شغل منصب كاهن زيوس اللاريسي. بيد أنه راح ضحية دسائس أصدقاء دوميسيان آينوباربوس؛ فقد صدّق هذا الأخير الوشاة وأمر بإعدام مينودوروس بتهمة التحريض على العصيان في الأسطول. ومن هذه المدينة أيضاً، الخطيب الشهير ديونيسوكليس، وخليفته في هذا الفنّ داماس سكومبروس. وبحسب الحكاية إن الآرغوسيين وتراليين تراقيين ما هم الذين أسّسوا ترالاّ التي أخذت اسمها من هؤلاء الأخيرين. وفي زمن الحرب مع ميتريدات كانت المدينة تحت سلطة تيرانية أبناء كراتيب لبعض الوقت.

43- وتقع نيسّا عند ميسوجيدا، ويتوضّع الشطر الأكبر منها على منحدرات هذا الجبل؛ وهذه المدينة مدينة مزدوجة، إذا جاز التعبير، لأنّ نهراً جبلياً يشطرها إلى شطرين ويشكل أخدوداً على أحد جانبيه جسر يصل بين شطري المدينة، ويزيّن الجانب الآخر منه مدرّج بقناة جوفية مسقوفة لتصريف مياه النهر. وتعلو على مقربة من المسرح هضبتان: عند سفح إحداهما جمنازيوم للشباب، وعند سفح الأخرى ساحة السوق وجمنازيوم لكبار السنّ. ويجاور المدينة من جهة الجنوب سهل، كما ترالاّ.

44- وعلى الطريق بين ترالاّ ونيسّا، غير بعيد عن المدينة، تقع قرية أهاراكي النيسيسيّة؛ وثمّة حرم لبلوتون تتبع له أرض مقدّسة غنية، ومعبد لبلوتون وكورا، ويقع هناك أيضاً هارونيوس، وهو كهف يقع فوق أرض مقدّسة، سماته الطبيعية تثير الدهشة. فيروى أنّ المرضى الذين يؤمنون بالقدرات الشفائية لهذين الإلهين يأتون إلى هنا ويقيمون في القرية القريبة من الكهف لدى كهنة أصحاب خبرات وتجارب؛ ويقضي هؤلاء الأخيرون الليلة معهم في الكهف، ثمّ يصفون لهم طريقة العلاج على أساس الأحلام التي يحلمونها. وهم من يرفع إلى الإلهين توسلات الشفاء. وفي أحيان كثيرة

يقود الكهنة المرضى أنفسهم إلى الكهف ويتركونهم هناك مستلقين بهدوء وسكينة من غير طعام، كما لو كانوا في وجْر وحش. وفي بعض الأحيان يصدّق المرضى أحلامهم، إلاّ أنهم في الأحوال كلّها يتوجّهون إلى أولئك الأشخاص ليشرحوا المغزى المكنون لأحلامهم، ويطلبوا النصح. وهذا المكان هو بالنسبة للآخرين كلّهم مكان محرّم ومهلك. وفي كلّ عام يقيمون في أهاراكي احتفالاً، وفي أثناء ذلك على وجه الخصوص، يمكن للمشاركين فيه أن يروا هذا كلّه ويسمعوه. وفي هذا الاحتفال يصيد غلمان الجمنازيوم وشبّانه وهم عراة وأجسادهم مدهونة بالزيت ثوراً ويسوقونه إلى الكهف مسرعين؛ وهناك يطلقون الثور الذي ما إن يتقدّم إلى الأمام قليلاً حتّى يسقط مختنقاً.

45- وعلى بعد 30 مرحلة من نيسّا (بعد أن تتجاوز تمولوس وجبل ميسوجيدا)، إلى الجنوب منها يقع مكان يدعى ليمون[33] يأتي إليه النيسيون وسكّان الضواحي ليحتفلوا معاً بالعيد. وغير بعيد عن هذا المكان يوجد مدخل كهف مكرّس للإلهين نفسيهما، ويقولون إن الكهف يمتدّ تحت الأرض حتّى أهاراكي. ويظنّون أن هذا المرج هو المرج الذي عناه هوميروس بقوله:

في المرج الآسوسي الذهبي...

(*الإلياذا* II، 461)

ويشيرون في غضون ذلك إلى معبد مكرّس لبطلين: كايسترس، والمدعو آسيوس، كما يشيرون أيضاً إلى كايستروس الذي يجري على مقربة.

46- ويروون عن ثلاثة أخوة: أثيمبروس، وأثيمبرادس، وهيدريليس، الذين جاؤوا من لاكيديمون وأسّسوا مدناً حملت أسماءهم نفسها، ولكن بما أنّه تبيّن فيما بعد أن عدد السكّان في هذه المدن لا يكفي، لذلك وحّدوا سكّانها وأسّسوا مدينة واحدة هي نيسّا. ولا يزال سكّان نيسّا حتّى يومنا هذا يعدّون أثيمبروس مؤسّس مدينتهم.

47- وتقع في ضواحي نيسّا على الجانب الآخر من مياندرس، قرى مهمّة مثل كوسكينيا، وأورفوسيا؛ وتقع على هذا الجانب منه: بريولا، وماستاورا، وأهاراكي؛ وإلى الأعلى من المدينة، على الجبل، تقع أروما (يتقلّص حرف الأوميغا في هذه الكلمة إلى أوميكرون)[34]؛ ومن هنا يخرج النبيذ الميسوجيدي الفاخر: الأرومي.

48- ومن أشهر الشخصيات التي أنجبتها نيسّا، الفيلسوف الرواقي أبوللونيوس الـذي يعـدّ أفضـل تلاميـذ بانيسـيوس؛ ومينيكراتـوس تلميـذ أريسـتارخ، وابنـه أريستوديموس الذي قيّض لي أن أستمع إلى فصل كامل من محاضراته في نيسّا عندما كـان قـد غـدا شـيخاً مسنّاً، بينمـا كنـت أنـا لا أزال في مقتبـل العمـر؛ ومنهم أيضـاً سوسـتراتوس شـقيق أريسـتوديموس، وأريسـتوديموس آخـر هـو ابـن عـمّ أريسـتوديموس الأوّل مربّي بومبييوس الأكبر، وكان هؤلاء من كبار علماء اللغة. وفيما يخصّ معلمي أنا فقد علّم البلاغـة أيضـاً، وكانـت لـه فيهـا مدرسـتان: واحـدة في رودوس والأخـرى في مدينتـه الأمّ؛ وكـان يقـرأ محاضـرات صـباحية في علـم البلاغـة، ومسـائية في علـم اللغـة. وعلى أيّ حال اقتصرت محاضراته في روما التي كـان يعلّم بومبييـوس فيهـا، علـى علم اللغة فقط.

الفصل الثاني

1- إنّ المنـاطق الواقعـة وراء ميانـدرس، والـتي بقـي لـي أن أصـفها، هـي كلّهـا مناطق كـارية، لأنّ الليديين لم يختلطوا مع الكاريين هنا؛ ولـذلك شـغل هـؤلاء وحـدهم هذه البلاد كلّها ما عدا الشطر الساحلي الذي استولى عليـه الميلتوسـيون والميسيسـيون. ويبـدأ السـاحل هنـا بالمنطقـة السـاحلية الواقعـة قبالـة رودوس، وينتهـي ببوسـيديوس الميلتوسـيين؛ وتقـع في أعمـاق الـبلاد أطـراف طـوروس الـتي تمتـدّ حتّـى نهـر ميانـدرس. ويقولون إن بداية طوروس تشكلها جبال تعلو فوق ما يسمّى الجزر الخيليدونية التي تقع في شريط حدودي أمام بامفيليا وليكيا؛ فمـن هنـا يبـدأ ارتفـاع طـوروس نحـو الأعـالي. ولكـنّ حقيقـة الأمـر هـي أنّ سلسـلة جبـال طـوروس تفصـل ليكيـا كلّهـا نحـو الأجـزاء الخارجية ونحو الجهة الجنوبية من البلاد الكيبيرية حتّى المنطقة الواقعـة قبالـة رودوس. ومن هنا تواصل السلسـلة الجبليـة امتـدادها، لكنّهـا أكثـر انخفاضـاً بكـثير، ولا تعـدّ جزءاً من طوروس؛ ولا تقسم الأرض هنا إلى أرض تقع هذا الجانـب مـن طـوروس وأخـرى تقع على ذلك الجانب منه، لأنّ المرتفعات والوديـان تنتشـر في هـذه الـبلاد كلّهـا بـالطول والعـرض انتشـاراً متمـاثلاً، وهـي لا تشـبه الحـواجز في شـيء، ويبلـغ امتـداد الطريـق الدائريـة كلّهـا علـى طـول السـواحل، بمـا فيهـا التـواءات الخلجـان 4900 مرحلـة، أمّـا الطريق التي تلتفّ حول المنطقـة السـاحلية الواقعـة قبالـة رودوس فقـط، فيبلـغ امتـدادها 1500 مرحلة تقريباً.

2- وتبدأ المنطقة الساحلية الواقعة قبالة رودوس من ديدالا، وهو موقع في منطقة رودوس، وتنتهي عند الجبل الذي يدعى جبل فينيكس الذي بدوره يقع في منطقة رودوس. وإلى الأمام تقع جزيرة إيليوسا على بعد 120 مرحلة من رودوس. وإذا أبحرت من ديدالا غرباً على خطّ مباشر مع ساحل كيليكيا وبامفليا وليكيا ففي الفاصل يقع خليج يدعى غلاوكوس فيه موانئ جيّدة؛ ثمّ تأتي أرتيميسوس، وهي رأس بحرية وحرم مقدّس؛ وبعدها أرض مقدّسة مكرّسة للاتونا؛ وفوق البحر بستين مرحلة تقوم مدينة كاليندا؛ ونصل أخيراً إلى كاونوس التي يجري على مقربة منها نهر عميق هو نهر كاليبوس الذي تستطيع أن تدخل فيه السفن، ويقع بينهما بيسيلوس.

3- وفي كاونوس ترسانات لإصلاح السفن وميناء. وفوق المدينة على مرتفع تقع قلعة إيمبروس. ومع أن البلاد المحيطة تتميّز بالخصوبة، إلاّ أن جميعهم يقرّ بأنّ طقس المدينة غير صحّي صيفاً، وكذلك في الخريف بسبب الحرّ الشديد ووفرة الثمار. ولذلك صمّت الآذان من سماع طُرَف من نمط طرفة عازف القيثارة ستراتونيك الذي صاح إذ رأى أنّ سكّان كاونوس يتميّزون بشحوب خاص مخضرّ اللون: «هذا هو الشحوب الذي عناه هوميروس بقوله:

أبناء البشر يشبهون ورق شجر البلوط».

(الإلياذا VI، 146)

وحينما أخذوا يلومونه لأنه يهزأ بالمدينة كأنه يهزأ بمريض أجابهم ستراتونيك قائلاً: «أيعقل أن أجرؤ على أن أدعو المدينة التي حتّى الأموات فيها يتجوّلون مدينة مريضة؟». ومرّة أعلن الكاوتوسيون انفصالهم عن الرودوسيين، لكنّ قراراً اتخذته لجنة تحكيم رومانية ألزمتهم بالخضوع من جديد. وهناك خطبة لمولون «ضدّ الكاونوسيين». ويقال إنّ لغتهم لغة مشتركة مع الكاريين، وإنهم جاؤوا من جزيرة كريت ويعيشون بحسب عاداتهم.

4- بعد كاونوس تأتي مدينة صغيرة، هي مدينة فيسك التي فيها ميناء وأرض مقدّسة مكرّسة للاتونا؛ ثمّ يليها لوريما، وهو ساحل صخريّ وأعلى جبل في هذه البلاد. وعلى قمّة هذا الجبل يقع فينيكس، وهو حصن يحمل اسم الجبل نفسه. وأمام الجبل، على بعد 4 مراحل منه، تقع جزيرة إيليوسا التي يبلغ امتداد محيطها 8 مراحل تقريباً.

5- وتقع مدينة الرودوسيين في الطرف الشرقي لرودوس؛ أمّا فيما يخصّ الموانئ والطرق والأسوار وما شابه من المنشآت الأخرى، فإن هذه المدينة ملائمة لها إلى درجة أنني لا أستطيع أن أسمّي أي مدينة أخرى تناظرها في هذا أو يمكن أن تكون أفضل منها بعض الشيء. كما يثير الدهشة أيضاً تنظيم مدينة الرودوسيين القائم على القوانين، وذلك الاهتمام الذي يولونه لشؤون الدولة ومؤسّساتها على وجه العموم، وللأسطول على وجه الخصوص، فبفضله سادوا على البحر زمناً طويلاً، وقضوا على أعمال القرصنة وصاروا إلى «أصدقاء» للرومان وكلّ الملوك الموالين للرومان والإغريق. ونتيجة لهذا بقيت رودوس مستقلّة، بل زينتها أيضاً كثرة من التقدمات التي كرّس أكثرها لمعبد ديونيسيوس والجمنازيوم، وبعض الأماكن الأخرى أحياناً. وأفضل التقدمات التي كرّست هنا، تمثال مهول لهيليوس قال عنه الشّاعر[1] اليانبي:

هاريس، الرجل الليندسي بنى لي تمثالاً

ارتفاعه سبعة أضعاف العشرة أذرع.

لكنّ هذا التمثال يستلقي الآن على الأرض، فقد أطاحت به هزّة أرضية وكسرته عند الركبتين؛ ونزولاً عند إرادة الموحى لم يعيدوا بناءه من جديد. ويعدّ هذا التمثال التقدمة الأفضل بين التقدّمات الأخرى كلّها (وعلى أيّ حال فإن هذا التمثال يعدّ باعتراف جميعهم إحدى عجائب الدنيا السبع)؛ تليه لوحات بروتوجينوس، خاصة إياليس والساتير الواقف عند عمود يجلس على رأسه حجل. وما إن عرضت اللوحة حتّى نظر الشعب إلى طائر الحجل بدهشة صادقة كأنه يرى حجلاً حيّاً ولم يعجب إلاّ به متجاهلاً الساتير، مع أنّ الرسام أبدع في رسم هذه اللوحة الأخيرة أيضاً. وأثار دهشة الناس أكثر، أولئك الذين كانوا يربّون طيور الحجل وجاؤوا بها إلى المكان ووضعوها أمام اللوحة: لقد أخذت الطيور تطلق صيحات تنادي بها الحجل المرسوم على اللوحة، فاجتمع في المكان حشد كبير من الناس. ولمّا رأى بروتوجينوس أنّ لوحته الرئيسة تحوّلت إلى لوحة من الدرجة الثانية، جاء إلى القائمين على الحرم وطلب منهم السماح له أن يزيل صورة الطير، وهو ما فعله. ويولي الرودوسيون اهتماماً لمصالح الشعب، مع أنّ نظام الحكم عندهم ليس ديمقراطياً، إلاّ أنهم يعملون مع ذلك على دعم الشرائح الفقيرة. فيقدمون الأقماح للشعب، أو يمدّ الأثرياء يد العون للفقراء، على عادة الأسلاف؛ وعندهم التزامات اجتماعية معروفة تقضي بتقديم المؤن، فيحصل الفقير

على قوته، وتدرأ المدينة بذلك عن نفسها النقص إلى من هم ذوو نفع، خاصة لتعبئة قوات الأسطول. أمّا المحطات الشراعية، فقد كان بعضها مغلقاً يمنع الشعب من دخوله؛ وكان الموت عقاب كلّ من يحاول رصد أيّ من هذه المحطات أو التسلل إلى داخلها. فهنا، كما في ماساليا وكيزيك، كلّ ماله علاقة بالمعماريين، وتصنيع الأسلحة، ومخازن الأسلحة وما شابه، هو محلّ عناية فائقة لم يعرف لها مثيل في أيّ مكان آخر.

6- ومثلهم مثل سكّان غاليكارناس، وكيندس، وكوسوس ينتمي الرودوسيون إلى الدوريين أيضاً. فبعد وفاة كودر بقي فريق من الدوريين الذين أسّسوا ميغارا ليقيم هناك، وشارك آخرون مع الآرغوسي ألثيمين في حملة استيطان كريت، وانتشر الفريق الثالث منهم في رودوس والمدن المذكورة هنا. لكنّ هذه الأحداث وقعت بعد الأحداث التي ذكرها هوميروس؛ فكيندس وغاليكارناس لم تكونا قد ظهرتا بعد إلى الوجود، مع أن رودوس وكوسوس كانتا موجودتين، لكنّ سكّانهما كانوا من الهيراقليين. فعندما بلغ تليبوليموس سنّ الرشد:

سارع كالأحمق إلى قتل ليكيمنوس الشيخ الأشيب

عمّ أبيه الذي كان يجلّه...

وجمع السفن على عجل، وحشد جحافل عظيمة

وهرب متخفياً...

(الإلياذا II، 662)

ثمّ يضيف الشّاعر بعد ذلك:

ووصل التائه أخيراً إلى رودوس...

واستقرّ الوافدون هناك ثلاث قبائل.

ودعا مدن ذلك الزمن:

ليندس، وييليس، وكاميروس ذات الحجارة البيضاء،

(الإلياذا II، 656)

لأنّ مدينة الرودوسيين لم تكن قد تأسّست بعد. وعلى هذا النحو فإن هوميروس لا يأتي على ذكر الدوريين بالاسم في أيّ مكان هنا، بيد أنه على أيّ حال، يشير إلى الإيوليين والبيوتيين، إذا صحّ أنّ هرقل وليكيمنوس استوطنا هناك. ولكن إذا كان

تليبوليموس قد جاء من آرغوس وتيرينث، كما يزعم آخرون، فإن الاستيطان حتّى في هذه الحال لم يكن دورياً، لأنه خرج قبل عودة الهيراقليين. وعن سكّان كوسوس يقول هوميروس:

قاد الجموع قائدان، ثيديبوس، وأنتيفوس المحارب

وأنجب الاثنين تسالوس، الابن الملكي لهرقل؛

(الإلياذا II، 678)

ولا تشير هذه الأسماء إلى منشأ دوريّ بقدر ما تشير إلى منشأ إيولي.

7- في الأزمنة الماضية كانت رودوس تسمّى أوفيوسا وستاديا، ثمّ سمّيت تيلخينيدا نسبة إلى التيلخينيين الذين استوطنوها. ويرى بعضهم في هؤلاء الأخيرين سحرة ومشعوذين ملؤوا ستيكس[2] بمياه مخلوطة بالكبريت[3] لكي يميتوا الحيوانات والنباتات؛ بينما يرى آخرون أنهم كانوا على الضدّ من هذا، ولكن بما أنهم كانوا حرفيين ذوي مهارات عالية، فقد أثاروا حسد الآخرين من ذوي المهن نفسها، ولذلك نالوا هذه الشهرة السيّئة. وفي الأوّل جاء التيلخينيون من كريت إلى قبرص، ثمّ إلى رودوس؛ وكانوا أوّل من عدّن الحديد والنحاس، فمنجل كرونوس من صناعتهم. وأنا كنت قد تحدّثت في عرضي السابق[4] عن التيلخينيين، لكنّ العدد الكبير من الأساطير التي تتحدّث عنهم، يرغمني على أن أُعيد وصفهم من جديد لكي أغطّي النقص فيه.

8- فالأساطير تقول، إنّ الهيليادس سكنوا الجزيرة بعد التيلخينيين؛ وكان لأحدهم - كركاثوس - وزوجته كيديبا أبناء أسّسوا مدناً حملت أسماءَهم:

ليندس، وييليس، وكاميروس ذات الحجارة البيضاء.

(الإلياذا II، 656)

لكنّ آخرين يرون أنّ تليبوليموس هو الذي أسّس هذه المدن وأطلق عليها أسماء بعض بنات دانائي.

9- لقد بنيت المدينة الحديثة في زمن حرب البيلوبونيز، وقد بناها المعماري نفسه الذي بنى بيرييا، على حدّ قولهم. بيد أنّ بيرييا لم تعد موجودة، لأنّ اللاكيديمونيين تسبّبوا لها بأذى كبير بعد أن دمّروا أسوارها ثمّ جاء القائد الروماني سولاّ وهدم المدينة كلّها.

10- كما يروى عن الرودوسيين ما يلي: لم يحقّقوا نجاحاً في البحر منذ زمن تأسيس المدينة الحديثة فقط، بل قبل سنين طويلة من تأسيس الألعاب الأوليمبية كانوا قد أبحروا بعيداً عن وطنهم الأم لكي يضمنوا أمن ناسهم. فمنذ هذا الوقت أبحروا حتّى إيبيريا وأسّسوا هناك رودوس[5] التي استولى عليها الماساليون؛ ثمّ أسّسوا في بلاد الأوبيكيين مدينة بارثينوبا، وفي بلاد الدافنيين أسّسوا مع الكوسوسيين مدينة إيلبي. وبحسب بعض المؤلّفين أنهم استوطنوا الجزر الهيمنيسية بعد عودتهم من حرب طروادا؛ ويقول تيمييوس إن أكبرها هي الأكبر بعد الجزر السبع: سردينيا، صقليا، قبرص، كريت، إيبيوس، كيرن، وليسبوس؛ بيد أنّ هذا ليس صحيحاً، لأنّ هناك جزراً أكبر بكثير. فيقال، إن الفينيقيين يدعون «الهيمنيتيين»[6] بلياريديين، ولذلك دعيت الجزر الهيمنيسية جزر البليار. وعاش فريق من الرودوسيين في ضواحي سيباريس في هونيا. ويبدو على أغلب الظنّ أن هوميروس أيضاً يشهد على ازدهار الرودوسيين منذ أقدم الأزمنة، مباشرة بعد تأسيس المدن الثلاث:

هناك سكن الوافدون ثلاث قبائل، وكانوا

أحبّاء زيوس، ملك الآلهة، وأب الناس:

وهبهم الأوليمبي من عليائه ثروات لا تفنى.

(*الإلياذا* II، 668)

ولكنّ كتّاباً آخرون نسبوا هذه الأبيات إلى ميدان الأسطورة وقالوا: إنه لدى مولد أثينا من رأس زيوس هطل على الجزيرة بحسب بينداروس[7]، مطر ذهبي. ويبلغ امتداد محيط الجزيرة 920 مرحلة.

11- إذا أبحرت من مدينة الرودوسيين تاركاً الجزيرة على يمينك، فإن بيندس هي التي تظهر لك أوّلاً، وقد بنيت هذه المدينة على جبل، وتمتدّ بعيداً نحو الجنوب باتجاه الإسكندرية[8]. وفي ليندس حرم شهير لأثينا الليندية أسّسته بنات دانائي. وفي الأزمنة السابقة كان الليديون يتمتّعون بإدارة ذاتية تدير شؤونهم، مثلهم في هذا مثل الكاميروسيين والإياليسيين، لكنّهم اتّحدوا مع رودوس فيما بعد. وليندس هي مسقط رأس كليوبولس أحد الحكماء السبعة.

12- وبعد ليندس تأتي منطقتا إيكسيا ومناسيريس. ثمّ يأتي أتابيرس، وهو أعلى جبل بين الجبال المحلّية، والجبل مكرّس لزيوس الأتابيرسي؛ وبعد ذلك تأتي كاميروس، ثمّ قرية إياليس التي يقع فوقها أكروبوليس يسمّى أوهيروما؛ وتأتي بعده

مدينة الرودوسيين على مسافة تقارب 80 مرحلة. ويقع بينهما فوانتيس: موقع ما يشبه الرأس البحرية؛ وأمام فوانتيس تقع السبورادا حول خالكيا التي ذكرتها من قبل[9].

13- لقد أنجبت رودوس كثيراً من الشخصيات التي تستحقّ الذكر: قادة عسكريين ورياضيين؛ وكان منهم أسلاف الفيلسوف بانيسيوس؛ ونذكر من رجال الدولة والخطباء والفلاسفة بانيسيوس نفسه، وستراتوكلس وأندرونيكوس المشّائي وليونيد الرواقي؛ ومن الذين عاشوا قبل ذلك براكسيفانوس وهيرونيموس ويفديموس. وشغل بوسيدونيوس مناصب حكومية في رودوس، وعلّم فيها الفلسفة، مع أنه كان أصلاً من أفاميا السورية، مثله مثل أبوللونيوس مالاكوس ومولون اللذين كانا من ألاباندا، وهما من تلاميذ مينيكلس. وكان أبوللونيوس قد وصل إلى هناك قبل مولون؛ وبعد ذلك بزمن طويل جاء مولون، وهذا ما جعل أبوللونيوس يقول له: «Molōn متأخراً»[10]، بدلاً من Eltōn. كما كان بيساندرس الشاعر، مؤلِّف «الهيراقليا»، رودوسياً بدوره، وكذلك العالم اللغوي سيمّوس، وفي زمني هذا، أريستوكلس. أمّا فيما يخصّ ديونيسيوس التراقي وأبوللونيوس مؤلّف «الأرغونيكا»، فعلى الرغم من أنهما كانا من الإسكندرية، إلاّ أنهما دعيا رودوسيين. وهأنذا قلت عن رودوس ما يكفي.

14- وبعد ذلك يشكّل شطر من الساحل الكاري بعد رودوس بدءاً من إيليونت ولوريما، ما يشبه المنحنى نحو الشمال، ويسير الإبحار بعده حتّى البروبونتيدا على خطّ مباشر يبدو كأنه دائرة طول يبلغ امتدادها قرابة 5000 مرحلة أو أقلّ بقليل. وعلى امتداد هذا الخطّ يقع ما تبقّى من كاريا ومناطق الإيونيين والإيوليين ومنطقة طروادا والأماكن المحيطة بكيزيك وبيزنطا. وبعد لوريما يأتي كينوس- سيما[11] أوّلاً، ثمّ جزيرة سيما.

15- ونصل بعد ذلك إلى كيندس وميناءيها (إحداهما يمكن أن تغلق، وهي معدّة لفرازات الحبوب)، ومحطتها الشراعية التي تتّسع 20 سفينة. وتقع أمام كيندس جزيرة يقارب امتداد محيطها 7 مراحل؛ وهذه الجزيرة مرتفعة ولها شكل المسرح، وهي تتّصل بالبرّ عبر جسور تجعل من كيندس مدينة مزدوجة بمعنى ما، لأنّ العدد الأكبر من سكّانها يعيش على الجزيرة التي يحميها الميناءان. وقبالتها في عرض البحر تقع نيسيروس. ومن الشخصيات الفذّة التي أنجبتها كيندس، عالم الرياضيات إفدوكس الذي كان واحداً من أقرب تلاميذ أفلاطون إلى قلبه، والمشّائي

آغاثارهيدس المؤرّخ؛ ومنهم في زمننا هذا ثيوبومبوس صديق قيصر الإلهي والرجل الواسع النفوذ؛ وابنه إرتيميدور. كما خرج من هنا أيضاً كتيسيوس طبيب أرتاكسيراكس ومؤلّف «تاريخ آشور» و«تاريخ فارس». - ثمّ تأتي بعد كيندس مدينتان صغيرتان، هما كيرام وبارغاس الواقعتان فوق البحر.

16- وبعدهما تأتي غاليكارناس، وهي المقرّ الملكي للحكّام الكاريين، وكانت هذه تدعى من قبل زيفيرا. وهنا يقع ضريح ماوسولوس[12] الذي يعدّ إحدى عجائب الدنيا السبع، والتمثال الذي أقامته أرطميسيا على شرف زوجها؛ كما يقع هنا أيضاً ينبوع سالماكيدا الذي ذاع له صيت سيّئ، إذ زعموا أنّ من يشرب من مائه يصبح مخنّثاً، فعادة ما يتهم الهواء أو الماء بالتسبب بتخنّث الناس؛ ولكنّ أسباب التخنّث ليست هنا، بل على أغلب الظنّ في الثراء، ونمط العيش المستهتر. - وفي غاليكارناس أكروبوليس؛ وتقع أمام المدينة جزيرة أركونّيس. ومن بين الذين أسّسوا المدينة أنفيس والتريزينيون، ومن هناك يتحدّر المؤرّخ هيرودوت الذي دعوه فيما بعد فورياً، لأنه ساهم في استعمار فوري؛ والشّاعر هيراقليط صديق كاليماخ، وفي أيامنا هذه خرج من هناك أيضاً المؤرّخ ديونيسيوس.

17- وقد أُضعفت قوّة هذه المدينة أيضاً، بعد أن استولى الإسكندر عليها عنوة. وكان للملك الكاري هيكاتومنوس ثلاثة أبناء هم: ماوسولوس، وهيدرييوس، وبيكسوداروس؛ وابنتان؛ تزوّج الكبرى منهما أرطميسيا شقيقها الأكبر ماوسولوس، وتزوج الابن الثاني، هيدرييوس أخته الصغرى آدا. وغدا ماوسولوس ملكاً؛ ولمّا مات ولم يترك ذرية، اعتلت عرشه زوجته التي بنت له ضريحه الشهير. وبعد أن توفّت أرطميسيا بسبب إصابتها بالسلّ الرئوي حزناً على زوجها، استوى هيدرييوس على العرش. وبعد وفاته ورثت العرش زوجته آدا، لكنّ بيكسوداروس، آخر أبناء هيكاتومنوس طردها. ولمّا كان هذا قد مال نحو الفرس، فقد دعا الوالي الفارسي لمشاركته السلطة على غاليكارناس. وبعد أن توفى بيكسوداروس استولى الوالي الفارسي على غاليكارناس. وحينما اقترب الإسكندر من المدينة صمد الوالي للحصار. وكان هذا قد تزوّج آدا ابنة بيكسوداروس وأثنييدس القبدوقية. ولكنّ آدا ابنة هيكاتومنوس التي عزلها بيكسوداروس أخذت تتوسل الإسكندر، ونجحت في إقناعه بأن يعيد لها العرش الذي اغتصب منها. وتعهدت له بأن تساعده على استرداد المدن التي انفصلت عنه، لأنّ حكّامها هم من أقاربها، كما قالت. كما أعطت

الإسكندر مدينة أليندا التي كانت تقيم فيها عندئذٍ. فقبل الإسكندر عرض آدا وأعلنها ملكة. وبعد أن سقطت المدينة كلها، ما عدا الأكروبوليس، (وكان في المدينة أكروبوليسان)، ترك لآدا أن تنهي الحصار. وبعد وقت قصير سقط الأكروبوليسان، وقد أدير الحصار في غضون ذلك بحقد وقسوة.

18- تلي ذلك مباشرة رأس تيرميروس البحرية التي يشغلها المينديسيون وتقع قبالتها رأس كوسوس: سكانداروس على بعد 40 مرحلة عن البرّ. وإلى الأعلى من رأس كوسوس يقع مكان يدعى تيرميروس.

19- لقد كانت مدينة الكوسوسيين تدعى قديماً أستيباليا، وكانت تقع على البحر أيضاً، ولكن في مكان آخر. وبسبب حركة العصيان التي حدثت فيما بعد، نزح سكّانها وسكنوا في المدينة الجديدة قرب سكانداروس وغيروا اسمها إلى كوسوس، وهو اسم الجزيرة نفسه. والحقيقة أن المدينة ليست كبيرة، لكنّها مبنية بناء أجمل من بناء المدن الأخرى كلّها، ومظهرها يثير إعجاب كلّ مبحر إليها من عرض البحر. ويبلغ حجم الجزيرة 550 مرحلة. والغلال وفيرة في كلّ مكان على الجزيرة، ومثلها مثل كيوس وليسبوس، تنتج كوسوس أفخر أنواع النبيذ أيضاً. وإلى الجنوب منها تقع رأس لاكيتيروس البحرية، ومن هناك إلى نيسيروس 60 مرحلة (وغير بعيد عن لاكيتيروس يقع مكان يدعى غاليسارنا)، وتقع غربيها رأس دريكان البحرية وقرية تدعى ستوماليمنا. وتقع دريكان على ما يقارب 200 مرحلة عن المدينة، أمّا طول الطريق إلى لاكيتيروس فيزداد 35 مرحلة أخرى. ويقع في ضواحي المدينة حرم أسكليبوس، وهو معبد شهير جدّاً ومليء بالتقدمات التي من بينها لوحة أنتيغون التي رسمها أبيلليس. كما كانت هناك أيضاً لوحة أفروديت أناديومينا[13]، التي قدّمت الآن تقدمة لقيصر الإلهي في روما، لأنّ أغسطس كرّس لوالده صورة جدّته الأولى. ويقولون إن الإتاوات التي كانت مفروضة على الكوسوسيين قلّصت بمقدار 100 تالانت لقاء هذه اللوحة. ويروى أنّ هيبوقراط تعلّم مداواة المرضى بشكل رئيس على أساس الألواح التكريسية التي كانت موجودة في المعبد، فقد كانت تلك الألواح تحمل قصصاً سريرية عن مداواة كلّ حالة. ويعدّ هيبوقراط من أشهر مواطني جزيرة كوسوس، ومثله أيضاً الطبيب سيموس، والشّاعر الناقد فيليتوس، وفي زمننا هذا نيكوس الذي كان تيراناً في كوسوس، وأريستوس تلميذ المشائي وخليفته[14]؛ ومن كوسوس أيضاً عازف القيثارة الشهير ثيومنيستوس الخصم السياسي لنيكوس.

20- وعلـى سـاحل القـارّة قـرب مينـدس تقـع رأسـان بحريتـان همـا أسـتيباليا، وزيفيريس. ثمّ تأتي بعدهما مباشرة مينـدس وميناؤهـا، تليهـا بـارغيليس الـتي تعدّ مدينـة أيضـاً؛ وفي الفاصل بينها تقـع مينـاء كاريانـدا وجزيـرة تحمـل الاسـم عينـه يعيش عليها الكاريانديون. وإلى هنا ينتمي المؤرّخ القديم سكيلاك. وغير بعيد عن بـارغيليس يقـع حرم أرطميس كينديادا الذي تؤكّد الخرافة أن المطر لا يرويه قط. وفي زمن مـا كـان يقع هنا مكان يدعى كينديا. وبارغيليس هـي مسقط رأس الإبيقـوري الشهير بروتـارخ معلّم ديميتري، بحسب مؤلّف لاكونس.

21- وتـأتي بعـد ذلـك إيـاس الواقعـة علـى جزيـرة تتـاخم الـبرّ. وللمدينـة مينـاء يستخرج سـكّانها القسـم الأعظـم مـن غـذائهم مـن البحـر، لأنّ في البحـر كـثير مـن الأسماك، أمّا التربة فعقيمة لا تثمر. وقد شـاعت عـن إيـاس قصـص بهـذا المعنـى: عنـدما كان يعزف يوماً هنـاك عـازف قيثـارة، كـان كلّهـم يصـغي إلى عزفـه باهتمـام، إلى أن قرع الجرس الذي يعلن بدء بيع الأسماك؛ عندئذٍ ترك جميعهم العازف ومضـوا إلى سـوق السمك، ما عدا شخصاً واحداً تبيّن أنـه أصـمّ تمامـاً. عندئـذٍ اقـترب العـازف منـه وقـال: «أشكرك الشكر كلّه أيها السيّد اللطيف المتأدّب على الشرف الذي منحته لي بحبك للموسيقا؛ فالآخرون كلّهم ما إن سمعوا الجـرس حتّـى ذهبـوا». - فأجابـه الأصـمّ: «مـاذا تقول؟ هل قرعوا الجرس حقّاً؟». وعنـدما أجـاب العـازف بالإيجـاب، نهـض الأصـمّ وقـال: «وداعاً!»، ومضى. - وإياس هي مسقط رأس الدياليكتيكي الشهير ديودوروس الملّقب كرونوس[15]، مع أنه لقّب في أوّل الأمـر بهـذا اللقـب خطـأ، لأنّ معلّمـه أبوللونيـوس هـو الذي كـان يـدعى كرونـوس، لكـنّهم حوّلـوا اللقـب إليـه، لأنّ كرونـوس الحقيقـي لم يكن شهيراً.

22- بعد إياس تـأتي بوسيدوس الميلتوسـيين. وتقـوم في أعمـاق الـبلاد ثـلاث مـدن كبيرة: ميلاسا، ستراتونيكييـا، وألابانـدا. أمّا الأُخـر فليسـت سـوى مـدن تابعـة لهـذه أو للمـدن السـاحلية، كـأميزون، وهيراقلييـا، ويفـروم، وخـالكيتون ولـذلك سـأتحدّث عنها أقلّ.

23- تقع ميلاسـا في سهل شديد الخصوبة. ويرتفع فوق السهل ارتفاعاً حاداً جبـل فيه مقلع نوع رائع من أنواع حجر المرمر الأبيض. ويحصل السكّان على منفعة غير قليلة من هذا المقلع لأنّ فيـه كـثيراً مـن الحجـارة الصـالحة للبنـاء، خاصـة بنـاء المعابـد وسـوى ذلك من الأبنية العامّة، أضف إلى ذلك أنـه يقـع علـى مقربـة. ولـذلك فـإن المدينـة مزدانـة

بشكل ملفت (زينتها تفوق زينة أيّ مدينة أخرى): بالأروقة، والمعابد، وما شابه. ولا يمكن إلاّ أن تثير استغرابنا لا عقلانية أولئك الناس الذي بنوا مدينتهم على سفح صخرة شاقولية معلّقة فوقها. ويقال، إنّ أحد حكّام المنطقة عبّر فعلاً عن استغرابه ذلك فقال: «إذا كان باني هذه المدينة لم يَخَفْ، أيعقل أنه لم يخجل؟». وعند الميلاسيين معبدان لزيوس: أحدهما يدعى زيوس أوسوغو؛ والآخر زيوس اللابرانديني. ويقوم الأوّل في المدينة، أمّا لابراندا فهي قرية بعيدة عن المدينة تقوم على جبل قريب من المعبر الذي يقود من ألاباندا إلى ميلاسا. وفي لابراندا معبد قديم وتمثال خشبي لزيوس ستراتيوس يتعبّده سكّان الضواحي والميلاسيّون. وتمتدّ من المعبد إلى المدينة طريق مرصوفة يبلغ طولها 60 مرحلة تقريباً، وتدعى طريقاً مقدّسة؛ وتسير على هذه الطريق المواكب الاحتفالية المقدّسة. ويشغل كبار الوجهاء هنا المناصب الكهنوتية مدى الحياة. ويعود هذان المعبدان للمدينة نفسها؛ أمّا المعبد الثالث، معبد زيوس الكاريّ، فيعدّ حرماً مشتركاً للكاريين كلّهم؛ وللأخوة الليدين والمسيسيين نصيب فيه. ويروى أنّ ميلاسّا كانت في الزمن القديم قرية بسيطة وموطناً ومقرّ إقامة للملوك الكارين من سلالة هيكاتومنوس. وأقرب نقاط المدينة إلى البحر، عند فيسك التي تعدّ محطة شراعية للميلاسيين.

24- وفي زمننا هذا عاش في ميلاسّا أشخاص بارزون: الخطيبان والقائدان الشعبيان يوثيديموس وهيبرييوس. وكان يوثيديموس قد ورث عن أسلافه ثروة طائلة ومجداً ذائعاً؛ وأضاف هو إلى هذا كلّه فنّ الفصاحة، ولم يكن عظيماً في وطنه فقط، بل حظي باحترام كبير في آسيا كلها. أمّا هيبرييوس، فلم يترك له والده، كما كان يحب أن يكرر هو نفسه في مدرسته، سوى بغل لنقل الأخشاب وسائقاً له، وهذا ما أكّده أبناء مدينته أيضاً. ولمّا كان يحصل على قوّته بهذه الطريقة تحوّل في وقت قصير إلى تلميذ عند ديوتريفوس الأنطاكي؛ ثمّ عاد من هناك إلى مدينته الأم وشغل فيها وظيفة ناظر السوق. وبعد أن دار في هذه الدائرة لبعض الوقت، نجح في جمع ثروة صغيرة فالتفت إلى العمل الحكومي، ثمّ صار إلى واحد من خطباء مجلس الشعب المعروفين. وسرعان ما ارتقى شأنه ويوثيديموس لا يزال على قيد الحياة، وتحوّل بعد وفاة هذا الأخير إلى شخصية قوية جدّاً، ثمّ ما لبث أن غدا حاكم المدينة. ولكن لـمّا كان يوثيديموس على قيد الحياة، كان تفوّقه عليه حاسماً، لأنه كان شخصاً قوياً وأكثر منفعة للمدينة؛ وحتى لو كان فيه شيء من تيران، فإن منافعه كانت تغفر له

هذا. ولذلك يحبّذون قول هيبرييوس الذي أعلنه في خاتمة إحدى خطبه إلى الشعب: «يايوثيديموس، أنت للمدينة شرّ لا بدّ منه، لأننا لا نستطيع أن نتعايش معك، ولا نستطيع أن نعيش من دونك!». والحقيقة، هي أنه على الرغم من أن هيبرييوس علا شأنه كثيراً، واشتهر كمواطن صالح وخطيب مفوّه، إلاّ أنه هزم في سياسته المعادية للابينوس. فعندما جاء لابينوس على رأس قوّاته والقوات البارثية المساندة له (وفي ذلك الوقت كان البارثيون سادة آسيا)، خضع الآخرون كلّهم له (لأنه لم يكن بين أيديهم أسلحة، فنحوا إلى السلام)، لكنّ زينون اللاوديكي وهيبرييوس، والاثنان خطيبان، رفضا الانصياع وحرّضا مدينتيهما على العصيان. وعلاوة على ذلك أثار هيبرييوس بواحد من تعليقاته سخط لابينوس الشاب الأحمق السريع الغضب. فعندما أعلن لابينوس نفسه إمبراطوراً بارثياً قال هيبرييوس: «حسناً، وأنا أيضاً أعلن نفسي إمبراطوراً كارياً!». بعد هذا الإعلان هاجم لابينوس المدينة على رأس وحدات مقاتلة جنّدها من الرومان المقيمين في آسيا. لكنّه لم ينجح في إلقاء القبض على هيبرييوس، لأنه فرّ إلى رودوس، فنهب محتويات منزله الفخم؛ كما نهب المدينة كلّها. وبعد إبعاد لابينوس من آسيا، عاد هيبرييوس إلى ميلاسا واستعاد وضعه السابق في المدينة، وأعاد بناءها من جديد. وهذا هو وصفي لميلاسا.

25- أمّا ستراتونيكيا، فهي قرية للمقدونيين، زيّنها الملوك بأبنية ومنشآت فخمة. وفي منطقة الستراتونيكيين حرمان: حرم هيكاتي الشهير في لاغينا، الذي يجتمع فيه حشد كبير من الناس كلّ عام للاحتفال بالعيد؛ وعلى مقربة من المدينة يقع معبد زيوس كريساوريوس، وهو حرم مشترك للكاريين كلّهم، حيث يجتمعون لتقديم الأضاحي، وبحث شؤونهم العامّة. ويتألّف اتحادهم من القرى فقط، وهو يدعى كريساوريس. ويحظى الذين يمثلون أكثرية القرى بالأفضلية عند التصويت، كما سكّان كيرام على سبيل المثال. ويشارك الستراتونيكيون أيضاً في هذا الاتحاد، مع أنهم ليسوا كاريي المنشأ، إنما لأنهم يملكون قرى تدخل قوام الاتحاد الكريساوريسي. ومن هنا خرج الخطيب الفذّ مينيبوس الذي لقّب كاتوكا، وعاش في زمن آبائنا. وقد مدح سيتسيرون مينيبوس أكثر من أيّ خطيب آسيوي آخر تسنّى له أن يسمعه (على حدّ قوله في واحد من مؤلّفاته)[16]، وقارنه مع كسينوكلس وغيره من الخطباء المعروفين في زمنه. - وثمّة ستراتونيكيا أخرى تدعى «ستراتونيكيا طوروس»، وهي مدينة صغيرة تقع على مقربة من الجبل.

26- وتقع ألاباندا عند سفوح هضبتين قريبة واحدتها من الأخرى حتّى يخيّل للناظر أنه يرى حماراً على ظهره حمولة. وكان أبوللونيوس مالاكوس قد قال في معرض سخريته من المدينة لهذا السبب، وبسبب كثرة العقارب في هذا المكان: إنها حمار نقل حمولته عقارب. لكنّ هذه الكائنات لا تسعى بكثرة في هذه المدينة وفي ميلاسا فقط، بل في كلّ المنطقة الواقعة بينهما. إن ألاباندا مدينة الذين يعيشون في بذخ وسكر؛ وفيها كثير من الفتيات العازفات على القيثارة. وهي مسقط رأس اثنين من ألمع الخطباء: مينيكلس (الذي ذكرته قبل قليل)[17]، وهيروكلس، إضافة إلى أبوللونيوس ومولون اللذين انتقلا للعيش في رودوس.

27- من الروايات الكثيرة التي شاعت عن الكاريين يتّفق على الرواية التي تقول، إن الكاريين كانوا تحت سلطة مينوس (كانوا يدعون عندئذٍ ليليغيس)، وكانوا يعيشون عندها في الجزر؛ ثمّ انتقلوا إلى البرّ فاستولوا على شطر كبير من الساحل والمناطق الداخلية من البلاد، إذ انتزعوها من أصحابها السابقين، الليليغيس والبيلاسيغيس بشكل رئيس. ولكنّ الإغريق الإيونيين والدوريين انتزعوا منهم جزءاً من هذه الأراضي. ومن قرائن ولعهم بالحرب، مقابض تروسهم والصور المحفورة عليها والريش الذي على خوذهم التي تدعى كلّها «كاريّة». وفي أقل تقدير يقول كريونت:

إلى هنا أدخلت يدك عبر

مقبض الترس الكاريّ

(مقطع 87، كروزيوس)

ويقول ألكييوس:

هازّاً الريش الكاري...

(مقطع 22، بيرغك)

28- وعندما يقول هوميروس:

ماسفليس قاد الكاريين الذين يتحدّثون اللهجة البربرية،

(الإلياذا II، 867)

فليس ثمّة أساس لكي نسأل لماذا لم يذكر سوى الكاريين «الذين يتحدّثون اللهجة البربرية»، مع أنه يعرف كثيراً من الشعوب البربرية، ولم يتحدّث عن البرابرة في أيّ

مكان. ولذلك ليس ثوكيديدس[18] محقاً عندما يزعم أنّ هوميروس يستخدم مصطلح «برابرة»، لأنّ «الهللينيين لم يكونوا قد انفردوا» بعد تحت اسم واحد نقيض. فقول ثوكيديدس «الهللينيون لم يكونوا قد انفردوا بعد»، يدحضده هوميروس نفسه إذ عدّه خطأ فقال:

عندما أفقد مثل هذا الرجل، أُقيم حزينة على الهالك،

الذي ملأ بمجده هلاّدا وآرغوس.

(الأوذيسا I، 344)

وقال في مكان آخر:

إذا أردت أن تزور آرغوس وتجوب هلاّدا.

(الأوذيسا XV، 80)

ولو لم يكن هؤلاء يدعون برابرة، فكيف كان يمكن تسميتهم «الذين يتحدّثون لهجة بربرية»؟ وعلى هذا النحو يكون كلّ من ثوكيديدس وأبوللودوروس اللغوي على خطأ؛ فالأخير أخطأ إذ زعم أن الهللينيين لم يستخدموا هذه التسمية العامّة إلاّ ككلمة قدح ضدّ الكاريين، وينسحب هذا خاصة على الإيونيين الذين كانوا يبغضون الكاريين بسبب العداوة والصدامات المسلّحة التي كانت تقع بين الطرفين دائماً، وبهذا المعنى كان على هوميروس أن يدعوهم برابرة. ولكنني أتساءل: لماذا إذن يدعوهم الشّاعر «بالذين يتحدّثون لهجة بربرية» ولم يدعهم برابرة مباشرة؟ يجيب أبوللودوروس قائلاً: «لأنّ صيغة الجمع لا تتوافق والميزان الشعري، ولذلك لم يدعهم هوميروس برابرة». ومع أنّ صيغة هذه الحالة الإعرابية[19] لا تتوافق والميزان الشعري، لكنّ صيغة الحالة الاسمية[20] لا تختلف عروضياً عن حالة كلمة «داردانيين»[21] في قوله:

أبناء طروادا والليكيون وأنتم الدردانيون أبطال عراك.

(الإلياذا XI، 286)

ومثلها أيضاً كلمة «طروادي» في قوله:

وهكذا هي الجياد الطروادية.

(الإلياذا V، 222)

وليس أبوللودوروس محقّاً في زعمه أن لغة الداريين لغة فظّة؛ فهي ليست غير فظة وحسب، بل فيها كثير من الكلمات الإغريقية، كما يزعم فيليب مؤلّف كتاب «تاريخ الكاريين». أمّا فيما يخصّني، فإني أظنّ أن كلمة «بربري» تشكلت بادئ ذي بدء محاكاة لنطق الذين ينطقون الكلمات بصعوبة، وقسوة، وفظاظة؛ كما ننطق نحن الآن كلمات مثل Battarizein، وTraulizein، وPsellízein[22]. فنحن نميل بطبيعتنا إلى رسم الأصوات بالكلمات المتماثلة النطق بسبب تجانسها. ولذلك تحتوي لغتنا على كثير من الكلمات التي تحاكي الأصوات مثل Kelaryzein، وKlangé، وPosóphos وBoé، وKrótos[23]، التي يستخدم أكثرها بمغزاه الدقيق. وعلى هذا النحو إذا كان كلّ الذين لديهم مثل هذه الفظاظة بالنطق يدعون برابرة، فهذا يعني أن لغات القبائل الغريبة كلّها، أي لغات غير الإغريق هي لغات فظة. ولذلك دعوهم برابرة بالمعنى الدقيق للكلمة، في أوّل الأمر من باب السخرية، وكأنّي بهم أرادوا أن يبرزوا نطقهم الفظ القاسي؛ ثمّ أسأنا نحن استخدام هذه الكلمة كتسمية مشتركة للقبيلة التي وضعناها نقيض الإغريق. وقد بيّن التواصل الطويل والعلاقات المتواصلة مع البرابرة أنّ هذا العيب ليس ناجماً البتّة عن فظاظة النطق أو عن أيّ عيب آخر في طبيعة أجهزة النطق، بل هو نتاج خاصيات اللغات نفسها. ففي لغتنا ظهر بالمقابل عيب ما، كأنه نطق على الطريقة البربرية، فعندما يتحدّث أحدهم بالإغريقية يقترف أخطاء بالنطق، أيّ ينطق الكلمات كما ينطقها البرابرة الذين بدؤوا لتوهم يتعلّمون الإغريقية ولا يعرفون بعد كيف يعبّرون بها عمّا يريدون قوله تعبيراً صحيحاً، وهذا ما يحصل لنا أيضاً عندما نتحدّث بلغاتهم. وهذا تحديداً ما حصل للكاريين، ففي ذلك الوقت لم تكن الشعوب الأخرى قد أقامت علاقات متواترة مع الإغريق بعد، كما لم تحاول اقتباس نمط العيش الإغريقي أو تتعلّم اللغة الإغريقية (ما عدا قلّة نادرة من الذين تواصلوا مصادفة مع بعض الإغريق)، أمّا الكاريون فعلى العكس، إذ كانوا يجوبون شتّى أرجاء اليونان بصفتهم مقاتلين مأجورين. وعلى هذا النحو، ونتيجة لحملاتهم على اليونان غالباً ما نجد في لغتهم كلمات بربرية، ثمّ اتسع انتشار هذه الأخيرة بعد أن سكن الكاريون مع الإغريق في الجزر؛ وحتى بعد أن طردوهم من الجزر إلى آسيا، لم يكن باستطاعتهم أن يعيشوا منفصلين عن الإغريق، أي عندما هاجر الإيونيون والدوريون إلى آسيا. وإلى الأصل نفسه ترجع كلمة Barbarizein، لأننا نستخدم هذا

التعبير عادة لمن لا يحسن التحدّث بالإغريقية، وليس لمن يتحدّث بالكارية. وعلى هذا النحو ينبغي أن نفهم تعبير «يتحدّث بالبربرية» وتعبير «الذين يتحدّثون البربرية» كتعبيرين يخصان أولئك الذين لا يحسنون التحدّث بالإغريقية. وعلى نمط تعبير Karizein[24]، دخل دليل اللغة الإغريقية بالمغزى المجازي مصطلح Soloikizein[25]؛ سواء اشتق من سول أو تشكّل بأيّ طريقة أخرى.

29- وعلى حدّ قول أرتيميدور، إذا ذهبت من فيسك الواقعة على الساحل قبالة رودوس إلى إفسس فإن المسافة حتّى لاغينا 850 مرحلة؛ ومن هنا إلى ألاباندا 250 مرحلة أخرى، وإلى ترالاّ 160 مرحلة. وتمتدّ الطريق إلى ترالاّ (بعد عبور مياندرس منتصف الرحلة تقريباً)، هناك حيث حدود كاريا. ومجمل المسافة من فيسك حتّى مياندرس على طريق إفسس 1180 مرحلة. وإذا عبرت بالاتجاه المعاكس على الطريق نفسها من نهر مياندرس حتّى ترالاّ عبر إيونيا مباشرة بالطول، فإن المسافة من النهر إلى ترالاّ 80 مرحلة، ثمّ إلى مغنيسيا 140 مرحلة، وحتى إفسس 120 مرحلة، وحتى سميرنا 320 مرحلة، وأخيراً حتّى ثوكيا وحدود إيونيا أقلّ من 200 مرحلة. وعلى هذا النحو يكون طول إيونيا على خطّ مستقيم، وفق أرتيميدور، قرابة 800 مرحلة. ولكن بما أنّ كلّ من يتّجه من إفسس شرقاً يختار طريقاً عامّة محدّدة، فقد اتّبع أرتيميدور هذه الطريق أيضاً: من إفسس إلى كارورا - حدود كاريا- باتجاه فريجيا عبر مغنيسيا، وترالاّ، ونيسا وأنطاكيا 740 مرحلة. ومن كارورا تبدأ فريجيا، وتسير الطريق عبر لاوديكا، وأفاميا، وميتروبوليس، وخيليدوني. وعلى هذا النحو تكون المسافة من كارورا إلى غولما، عند أوّل بارووريا[26]، 920 مرحلة، وإلى تيرييوس الواقعة عند آخر بارووريا، قرب ليكاونيا، عبر فيلوميلوس، أكثر من 500 مرحلة بقليل. ثمّ تأتي ليكاونيا، وطول الطريق إلى كوروباس عبر لاوديكا كاتاكيكاومينا[27] 840 مرحلة؛ ومن كوروباس إلى ليكاونيا حتّى غارساورا، وهي مدينة صغيرة في قبدوقيا تقع على حدودها، 120 مرحلة؛ ومن هنا إلى مازاكي، المدينة الرئيسة في قبدوقيا، عبر سواند وساداكورا 680 مرحلة؛ ومن هناك إلى نهر الفرات وحتى توميسا، وهي موقع في سوفينا، عبر مدينة صغيرة تدعى غيرفا 1440 مرحلة. والأماكن الواقعة على الطريق المباشرة مع هذه الأماكن وصولاً إلى الهند، هي نفسها لدى أرتيميدور وإيراتوسفين. ولكنّ بوليبيوس يرى أنه ينبغي أن نثق أكثر بمعطيات أرتيميدور عن

هذه الأماكن. فهو يبدأ من ساموساتا في كومّاجينا التي تقع عند معابر النهر، وعند زيغما؛ وهو يحسب المسافة حتّى ساموساتا من حدود قبدوقيا قرب توميسا عبر طوروس 450 مرحلة.

الفصل الثالث

1- بعد الساحل الواقع قبالة رودوس والذي تعدّ ديدالا حدوده (إذا أبحرت نحو مطلع الشمس)، تأتي ليكيا مباشرة، وهي تمتدّ حتّى بامفيليا؛ ثمّ تأتي بامفيليا التي تمتدّ حتّى كيليكيا التراخية؛ وبعدها تأتي منطقة هؤلاء الأخيرين وصولاً إلى منطقة الكيليكيين الآخرين الذين يعيشون حول خليج إيس. وتعدّ هذه البلدان أجزاء من شبه الجزيرة التي دعونا برزخها بالطريق التي تمتدّ من إيس حتّى أميس أو (بحسب آخرين) حتّى سينوبا؛ لكنّها تقع على ذلك الجانب من طوروس، على ساحل ضيّق يمتدّ من ليكيا وصولاً إلى منطقة سولا وتارس حيث يتسع ليتحوّل إلى سهل. وعلى هذا النحو فإنّ روايتي عن شبه الجزيرة كلّها تصل إلى خاتمتها بعد وصفي لهذا الساحل. فانتقل بعد ذلك إلى أجزاء آسيا الأخرى الواقعة على ذلك الجانب من طوروس، ثمّ أختم بوصف ليبيا.

2- وبعد ديدالا، مدينة الرودوسيين، يأتي جبل في ليكيا يحمل الاسم نفسه: ديدالا؛ ومن هنا تبدأ الطريق كلّها على طول الساحل الليكي الذي يمتدّ 1720 مرحلة؛ وهذا الساحل وعر وغير مستو، لكنّه غنيّ بالموانئ والمراسي، ويسكنه أناس فطنون متبصّرون. ومع أنّ طبيعة هذه البلاد تشبه طبيعة بامفيليا وكيليكيا التراخية، إلاّ سكّان بامفيليا استغلّوا موانئهم نقاط استناد لأعمال القرصنة؛ كما مارسوا القرصنة بأنفسهم أو قدّموا موانئهم للقراصنة كمحطات شراعية يبيعون فيها غنائمهم. وعلى أيّ حال بنيت في مدينة سيدا ترسانات لإصلاح سفن الكيليكيين الذين كانوا يبيعون هناك أسراهم في مزادات علنية، مع أنهم عدّوهم أحراراً. أمّا الليكيون فعلى الضدّ من ذلك، إذ اتبعوا نمط عيش حضاري متعقّل، ولذلك في الوقت الذي نشر فيه الكيليكيون سيادتهم البحرية حتّى إيطاليا، بفضل النجاحات التي حقّقوقها، لم تغر الليكيين أيّ منافع دنيئة، ولّما لم يرغبوا في توسيع حدودهم، بقوا داخل الحدود الوطنية للاتحاد الليكي.

3- 23 مدينة في الاتحاد الليكي لها حقّ التصويت. ويجتمع سكّان كلّ مدينة

في مجالس عامّة لكي يختاروا بأنفسهم المدينة الملائمة لالتئام مجلسهم العام. ولكلّ من أكبر المدن 3 أصوات، وللمدينة المتوسّطة الحجم صوتان، ولكلّ من باقي المدن صوت واحد. وبحسب المبدأ عينه يؤدّون مساهماتهم والإتاوات الحكومية الأخرى. وبحسب أرتيميدور أن المدن الكبرى ست مدن: كسانثوس، وباتارا، وبينارا، وأوليمبوس، وميرا، وتلوس؛ وتقع هذه الأخيرة عند معبر جبلي يؤدّي إلى كيبيرا. وأوّل ما يفعلونه في اجتماع المجلس، هو انتخاب «الليكيارخ»[1]، ثمّ كبار موظفي الاتحاد الآخرين. كما يعيّنون القضاة معاً. وفي الأزمنة السابقة كانوا يبحثون شؤون الحرب والسلام، والاتحادات، أمّا الآن فمن البدهي أن هذا لم يعد جائزاً (لأنّ هذه المسائل بأيدي الرومان بالضرورة)، ما عدا بعض الحالات التي قد يسمح الرومان ببحثها، أو قد تكون لهم فيها منفعة. وعلى هذا المنوال يختارون القضاة وكبار الموظفين من كلّ مدينة بحسب عدد الأصوات. وفي ظل هذا البناء الرائع لدولتهم استطاعوا على الرغم من السيطرة الرومانية، أن يحافظوا على حريتهم وإرث آبائهم؛ لكنّهم بالمقابل رأوا أن القراصنة قضي عليهم تماماً، في الأوّل قضى عليهم سرفيليوس الإيسافري عندما دمّر إيسافرا، وبعده بومبييوس الأكبر الذي أحرق أكثر من 1300 من سفنهم ودمّر منازلهم؛ ومن بقي منهم على قيد الحياة أسكن بومبييوس فريقاً منهم في سولاّ (التي دعاها بومبييوسبوليس)، وأسكن الباقي في ديما قليلة السكّان، حيث توجد الآن قرية رومانية. وعلى وجه العموم يخلط الشعراء، والتراجيديون منهم على وجه الخصوص، بين هذه الشعوب: الطروادبين، والميسيسيين، والليديين، فيدعونهم فريجيين؛ ويدعون الليكيين، كاريين.

4- وهكذا، غير بعيد بعد ديدالا، وهي جبال في ليكيا، تقع مدينة ليكية صغيرة تدعى تيلميس، ورأس بحرية تدعى تيلميسيدا فيها ميناء. وقد نال إيفمين هذا المكان من الرومان في أثناء الحرب ضدّ أنطوخ، لكنّه أعيد إلى الليكيين بعد دمار مملكته.

5- وبعد ذلك مباشرة يأتي جبل أنتيكراغ الشديد الانحدار، حيث يقع في أخدود عميق مكان مأهول يدعى كارميليس؛ يليه جبل كراغ ذي القمم الثماني، ومدينة تحمل الاسم نفسه. وقد جعلوا من هذه الأطراف الجبلية المكان الذي دارت فيه أحداث أسطورة الخيميرا؛ فعلى مقربة من هنا يقع فعلاً أخدود عميق يدعى خيميرا يمتدّ من شاطئ البحر. وعند سفح كراغ في أعماق البلاد تقع بينارا التي تعدّ واحدة من

أكبر مدن ليكيا. ويعبدون هنا بانداروس، وقد يكون تطابق اسمه مع اسم البطل الطروادي مجرّد مصادفة، على حدّ قول هوميروس أيضاً:

ابنة بانداروس، العندليب الذي يعيش في الغابة الخضراء.

(*الأوذيسا* XIX، 518)

بل حتّى بانداروس خرج من ليكيا، كما يقولون.

6- ثمّ يأتي نهر كسانثوس الذي كان يدعوه القدماء سيربيبوس. وإذا ما صعدت على مراكب في هذا النهر مسافة 10 مراحل، يلاقيك حرم للاتونا. وعلى بعد 60 مرحلة إلى الأعلى من الحرم، تقع مدينة الكسانثوسيين، وهي أكبر مدينة في ليكيا. وبعد كسانثوس تأتي باتارا، وهي مدينة كبيرة أيضاً، فيها ميناء وحرم لأبوللون بناه باتاروس. وقد أعاد بطليموس فيلاديلف بناء هذه المدينة ودعاها أرسينويا الليكية، لكنّ الاسم القديم هو الغالب.

7- وعلى مسافة 20 مرحلة عنها، فوق البحر تقع ميرا على هضبة عالية، يليها مصبّ نهر ليمير، وبعد مسير 20 مرحلة في داخل البلاد [نقترب من] مدينة صغيرة تدعى ليميرا. وبين هذه الأماكن، على الطريق المذكورة الممتدّة على طول الساحل يقع كثير من الجزر الصغيرة والمراسي بينها جزيرة ميجيستا ومدينتها التي تحمل اسمها نفسه، ثمّ جزيرة كيسفينا. وتقع في أعماق البلاد مواقع معروفة مثل فيللوس وأنتيفيللوس وخيميرا التي أتيت على ذكرها من قبل[2].

8- وتأتي بعد ذلك رأس بحرية مقدّسة وخيليدونيوس وهي ثلاث جزر صخرية أحجامها متقاربة تبعد واحدتها عن الأخرى ما يقارب 5 مراحل. أمّا عن البرّ فهي تبعد 6 مراحل، وفي واحدة منها محطة شراعية. ويرى أكثر المؤلّفين أن طوروس تبدأ من هنا، أوّلاً، لأنّ الرأس تتميّز بارتفاعها وتنحدر من الجبال البيسيدية التي ترتفع فوق بامفيليا، ثانياً، بسبب الجزر الواقعة أمامها والتي تشكّل في البحر ما يشبه نقطة رؤية تشبه المنحدر الجبلي. وواقع الحال أن السلسلة الجبلية تمتدّ من غير انقطاع، من الساحل الواقع قبالة رودوس حتّى الأجزاء القريبة من بيسيديا؛ وتدعى هذه السلسلة الجبلية بدورها، طوروس. وعلى أيّ حال فإنّ خيليدونيوس تقع على أغلب الظنّ قبالة كانوب[3]. ويقولون إنّ خطّ العبور من هنا إلى كانوب[4]، يشكّل 4000 مرحلة. ومن الرأس البحرية المقدّسة إلى أولبيا 367 مرحلة؛ وتقع في هذا الحيّز كرامبوسا،

وأوليمبوس، وهي مدينة كبيرة تحمل اسم الجبل عينه، وتدعى أيضاً فينيكونت. ويأتي بعد ذلك كوريكس، وهو ساحل بحري.

9- تلي ذلك فاسيليدا التي فيها ثلاث موانئ، وهي مدينة كبيرة، ثمّ تأتي بعدها بحيرة. ويعلو فوقها جبل سوليما، ومدينة تيرميس البيسيدية الواقعة على مقربة من المضائق الجبليّة؛ ويوجد هنا معبر جبلي إلى ميليادا. وكان الإسكندر قد دمّر ميليادا لأنه عزم على جعل المضائق مفتوحة. وعند فاسيلدا قرب البحر، يقع فجّ قاد الإسكندر قواته عبره. وثمّة جبل هناك يدعى كليماكس يقع على مقربة من البحر البامفيلي ويترك على الشاطئ معبراً ضيّقاً. وعندما يكون الطقس صافياً هادئاً يكون المعبر صالحاً لعبور المشاة، ولكنّ الأمواج تغمره لمسافة طويلة في أثناء المدّ البحري. والمعبر عبر الجبل شديد الانحدار ويرسم شكل الخطّاف، ولذلك يستخدم المشاة طريق الشاطئ عندما يكون الطقس هادئاً. وقد صادف مرور الإسكندر هنا في أثناء العواصف الشتوية، وكعادته تقدّم على رأس قواته معوّلاً على أنه صاحب حظّ سعيد، وسار على طريق الشاطئ قبل أن تكون الأمواج قد تراجعت، فاضطر جنوده أن يخوضوا يوماً كاملاً في مياه تغمر أجسادهم حتّى الخصر. وفاسيليدا مدينة ليكية، ومع أنها على الحدود نحو بامفيليا إلاّ أنها ليست تابعة للاتحاد الليكي، بل هي مدينة مستقلّة.

10- ويفرّق هوميروس بين السوليميين والليكيين، فعندما أرسل ملك الليكيين بيلليروفون في المأثرة الثانية، فإنه

بعد ذلك شنّ حرباً على السوليميين، الشعب الماجد.

(الإلياذا VI، 184)

ولكنّ الكتّاب الذين يزعمون أنّ الليكيين كانوا يدعون سوليميين في الأوّل، ثمّ دعيوا تيرميليين (على اسم التيرميليين الذين جاؤوا من كريت وعلى رأسهم سربيدون)، وبعد ذلك ليكيين (من ليكوس بن بانديون الذي استقبله سربيدون بعد أن نُفي من بلاده، ومنحه شطراً من مملكته)، يختلفون مع هوميروس. ويحظى بمشروعية أكبر رأي آخر يرى أصحابه أن من يدعون الآن ميليين (الذين تحدّثنا عنهم سابقاً)[5]، هم الذين يدعوهم الشّاعر سوليميين.

الفصل الرابع

1- بعد فاسيليدا تأتي أولبيا، وهي بداية بامفيليا، وحصن كبير؛ ويليها ما يدعى كاتاركات، وهو نهر يشبه السيل المائي الصاخب الذي يهوي من أعلى صخرة شاهقة، ويسمع صوت صخبه من مسافة بعيدة. تليه مدينة أتّاليا التي سميّت باسم مؤسّسها أثال فيلاديلف الذي أنشأ مستعمرة أخرى في مدينة كوريكس الصغيرة المجاورة، وأحاطها بسور أطول منها. وبين ماسيليدا وأتّاليا تظهر كما يقولون، طيبة وليرنيسّ، لأنّ كاالليسفين يقول، إن فريقاً من الطروادبين الكيليكيين فرّ هارباً من سهل طيبة إلى بامفيليا.

2- ويأتي بعد ذلك نهر كيستروس، وعلى بعد 60 مرحلة صعوداً مع مجراه، تقع مدينة بيرغا؛ وعلى مقربة من بيرغا، فوق مرتفع يقع حرم أرطميس البيرغية الذي يحتفلون فيه بعيد شعبي مشترك. وبعد ذلك بأربعين مرحلة فوق سطح البحر، تقع في مكان مرتفع مدينة سيللوس التي ترى من بيرغا. وتأتي بعد ذلك بحيرة كبيرة تدعى كابريا، يليها نهر إيفريميدونت، وعلى بعد 60 مرحلة صعوداً مع مجراه، تقع مدينة أسبيند التي يعيش فيها عدد كبير من السكّان، وكان الأرغيفيانيون هم الذين بنوا هذه المدينة. وإلى الأعلى من هذه المدينة تقع بيتنيليس. يليها نهر آخر يقع أمامه عدد كبير من الجزر الصغيرة. وتأتي بعد ذلك سيدا، وهي مستعمرة للكيميين فيها معبد لأثينا. وعلى مقربة يمتدّ شاطئ الكيبيرات الصغيرات. وبعده نهر ميلان وعليه مرسا للسفن. وتأتي بعد ذلك مدينة بطليموسيا، وبعدها حدود بامفيليا وكوراكيسوس، أي بداية كيليكيا التراخية. ويبلغ طول خطّ الإبحار على طول سواحل بامفيليا 640 مرحلة.

3- ووفق ما ينقله هيرودوت[1] إن البامفيلين يرجعون بأصولهم إلى الأقوام الذين كان يقودهم أمفيلوخ وكالخانت، وقد كان هؤلاء خليطاً من القبائل التي تبعتهما من تحت أسوار طروادا. وبقي أكثرهم هنا، بينما انتشر بعضهم في شتّى أرجاء الأرض. ويزعم كاللينوس أن كالخانت مات في كلارس، فعبر ناسه طوروس بزعامة موبسوس، وبقي فريق منهم في بامفيليا، وتوزّع فريق آخر في كيليكيا، وسوريا، بل وصلوا حتّى فينيقيا.

الفصل الخامس

1- فيما يخصّ كيليكيا التي وراء طوروس، فإنّ جزءاً منها يدعى تراخييا، ويدعى الجزء الآخر منها بيديادا[1]. وعن تراخييا نقول، إن ساحلها يفتقر إلى الأراضي المستوية أو ليس فيه سوى قليل منها؛ زد إلى هذا أنها تقع عند سفوح طوروس، وإن سكّانها قلّة وصولاً حتّى المنحدرات الشمالية في منطقة الإيسافريين، والهومونادیین وصولاً إلى بيسيديا. وتدعى هذه البلاد تراخيوتيدا أيضاً، ويدعى سكّانها تراخيوتيين. أمّا كيليكيا بيديادا فتمتدّ من سولا وتارس حتّى إيس، وعلاوة على ذلك تصل إلى تلك الأجزاء التي يقطن القبدوقيون إلى الأعلى منها على منحدر طوروس الشمالي. وأكثر أجزاء هذه البلاد سهول وأراض خصبة. وبما أنّ جزءاً منها يقع على هذا الجانب من طوروس، والجزء الآخر وراء طوروس، وبما أننا تحدّثنا سابقاً عن الجزء الأوّل، فسأتحدّث الآن عن الجزء الواقع وراء طوروس، وسأبدأ من التراخيوتيين.

2- إن أوّل نقطة في كيليكيا، هي حصن الحراسة كوراكيسوس الذي يقوم على صخرة شديدة الانحدار. وقد اتخذه ديودوت الملّقب تريفون نقطة استناد عندما قاد انتفاضة في سوريا ضدّ ملوكها، وحاربهم فانتصر عليهم تارة وهزم أمامهم تارة أخرى. وأخيراً نجح أنطوخ بن ديميتري أن يحشره في مكان ما، ويرغمه على أن ينهي حياته بيده. وكانت انتفاضة تريفون مع ضعف الملوك الذين حكموا سوريا وراثياً ومعها كيليكيا، الدافع الأوّل الذي حرّض الكيليكيين على تنظيم عصابات من القراصنة. لأنّ انتفاضة تريفون تبعتها انتفاضات أخرى؛ وعلى هذا النحو جعلت خلافات الاخوة من البلاد ضحية العدوان الخارجي. وما كان له دور خاصة في التحريض على العنف، هو تصدير العبيد الذي كان يدرّ أرباحاً خرافية؛ لأنّ اصطياد العبيد كان يجري بسهولة، كما كانت سوق النخاسة كبيرة وغنية وغير بعيدة، إذ توضّعت تحديداً في ديلوس، التي كانت قادرة على أن تستقبل في اليوم الواحد عشرات آلاف العبيد وتبيعهم. ومن هنا شاع المثل القائل: «أيها التاجر، أرس وأفرغ السفينة، فقد بيع كلّ ما فيها». ويكمن سبب هذا في أنه بعد تدمير قرطاجا وكورينثوس، بات الرومان أثرياء، وأصبحوا بحاجة إلى أعداد كبيرة من العبيد. وتبعاً لمثل هذه السهولة في التسويق، ظهر القراصنة بأعداد كبيرة، وغدوا يصطادون الغنائم بأنفسهم ويبيعون العبيد. وساعدهم في هذا ملوك قبرص ومصر، الذين كان العداء مستفحلاً بينهم وبين السوريين. كما

لم يكن الرودوسيون أصدقاء للسوريين، ولذلك لم يمدّوا يد العون لهم. وفي غضون ذلك واصل القراصنة أعمالهم الشريرة تحت مسمّى تجار العبيد. ولم يكن الرومان قد أولوا عندئذٍ اهتماماً يذكر لقبائل ما وراء طوروس. ولكنّهم أرسلوا سيبيون إيمليان ثمّ بعض القادة الآخرين لكي يدرسوا على أرض الواقع أحوال القبائل والمدن. وقد قرّر هؤلاء أن القرصنة ليست سوى نتيجة لفساد الحكّام، مع أنهم عفّوا عن إزاحة هؤلاء الأخيرين، لأنّهم هم أنفسهم رسّخوا نظام وراثة الحكم وفق نمط سلوقس نيكاتور. فأفضت حال البلاد هذه إلى سيطرة البارثيين الذين امتلكوا المنطقة الواقعة وراء الفرات، ثمّ أرمينيا. ولم يكتف البارثيون بإخضاع البلاد الممتدة وراء طوروس وصولاً إلى فينيقيا، إنما حطموا الملوك أيضاً وقضوا حسب الممكن، على السلالة الملكية كلّها، ووضعوا البحر تحت تصرّف الكيليكيين. ولكن بعد أن تنامى جبروت البارثيين، اضطر الرومان إلى تقليصه بالحرب، مع أنهم قبل ذلك لم يعوقوا تنامي قوتهم. وعلى وجه العموم، من الصعب اتهام الرومان بالإهمال، فقد كانوا مشغولين بأمور أكثر إلحاحاً ولا تحتمل أيّ تأجيل، ولذلك لم يكن بمقدورهم أن يأخذوا بالحسبان ما يجري في الأطراف النائية. وهذا ما قررت أن أقوله باختصار تاركاً موضوع وصفي لحين.

3- بعد كوراكيسوس تأتي مدينة أرسينويا[2]، ثمّ هاماكسيا، وهي قرية قائمة على هضبة وفيها محطة شراعية يشحنون إليها أخشاب الغابات، خاصة خشب الأرز؛ ويبدو أنّ هذه المنطقة تتفوّق على سواها بالأخشاب الصالحة لبناء السفن. ولذلك أعطاها أنطونيو لكليوباترا، لأنها صالحة لإعادة بناء أسطولها. وبعدها ماكسيا تأتي لايرس، وهي حصن مراقبة فيه محطة شراعية، ويقع الحصن فوق هضبة على شكل صدر امرأة. وتأتي بعد ذلك سيلينونت، وهي مدينة ونهر، تليهما كراغ، وهي صخرة شاقولية شديدة الانحدار تقع على البحر تليها قلعة كارادرونت ومحطتها الشراعية (يعلو فوقها جبل أندريكلس)، وساحل صخري يدعى بلاتانيست. ثمّ تأتي رأس أنيموروس البحرية حيث البرّ أقرب ما يكون إلى قبرص قبالة رأس كروميس البحرية، على مسافة 350 مرحلة. والطريق البحرية على طول ساحل كيليكيا من حدود بامفيليا إلى أنيموروس 820 مرحلة؛ أمّا ما تبقّى من الساحل، حتّى سولا، فيبلغ طوله 500 مرحلة. وأوّل مدينة على هذا الساحل بعد أنيموروس، هي ناجيدس، تليها أرسينويا ومحطتها الشراعية، وبعدها موقع يدعى ميلانيا، ثمّ مدينة كيليندريدس

وميناؤها. وبحسب بعض المؤلّفين (ومنهم أرتيميدور)، إن كيليكيا تبدأ من كيليندريدس، وليس من كوراكيسوس. ويزعم أرتيميدور أن المسافة من المصب البيلوسي حتّى أورفوسيا 3900 مرحلة، وحتى نهر العاصي 1130 مرحلة، وحتى البوابات السورية 525 مرحلة، وأخيراً حتّى حدود[3] كيليكيا 1260 مرحلة.

4- وتأتي بعد ذلك غولما حيث كان يقطن من قبل سلوقيو اليوم، ولكنّهم بعد بناء سلوقيا على كاليكادنس، انتقلوا ليسكنوا هناك؛ وإذ نتجاوز الضفّة التي تشكل الرأس البحرية التي تدعى سربيدون، نقترب مباشرة إلى مصبّ كاليكادنس. وعلى مقربة من كاليكادنس تقع زيغيرس، وهي رأس بحرية أيضاً. والنهر صالح للملاحة صعوداً حتّى سلوقيا، وهي مدينة يسكنها عدد كبير من الناس، وتتمايز بعاداتها تمايزاً كبيراً عن المدن الكيليكية والبامفيلية. وسلوقيا مسقط رأس اثنين من ألمع شخصيات عصرنا: فيلسوفي المدرسة المشائية أثينوس وكسينارخس. وقد عمل الأوّل منهما رجل دولة في مدينته الأم، فكان زعيم الشعب فيها لبعض الوقت. ثمّ أقام علاقات ودّية مع مورينا، وبعد الكشف عن المؤامرة التي حيكت ضدّ قيصر، أُلقي القبض على الرجلين بينما كانا هاربين. وعندما ثبتت براءة أثينوس، أطلق قيصر سراحه. ولدى عودته من روما[4] أجاب الفيلسوف على تساؤلات الذين جاؤوا لتحيته، ببيت الشعر التالي ليوريبيدس:

أنا هنا، لقد تركت قناطر وبوابات ظلام هاديس...

(هيكابي، 1)

ثمّ عاش بعد ذلك بعض الوقت وهلك ليلاً عندما انهار البيت الذي كان يسكنه. أمّا كسيارخس الذي كنت أنا تلميذه، فقد بقي بعض الوقت في دياره، ثمّ عاش بعد ذلك في الإسكندرية، وأثينا، وأخيراً في روما، إذ اختار مهنة معلّم. ولمّا كان صديقاً لآريوس وقيصر أغسطس، فقد وفّرت له هذه الصداقة مكانة مرموقة في شيخوخته. وقبل وفاته بقليل فقد كسينارخس بصره، ومات بمرضه.

5- وبعد كاليكادنس صخرة تدعى بيكيلا[5] حفر فيها سلّم يقود إلى سلوقيا. ثمّ تلي ذلك رأس أنيموروس البحرية، سميّة الرأس التي ذكرناها من قبل[6]، وبعدها جزيرة كرامبوسا، ورأس كوريكس البحرية؛ وإلى الأعلى منها بعشرين مرحلة يقع الكهف الكوريكسي حيث ينمو أجود أنواع الزعفران[7]. والكهف عبارة

عن وهدة بيضوية الشكل أبعادها كبيرة، تحيط بها من شتّى الجهات جروف صخرية عالية. ولدى هبوطنا إلى هناك يلقانا قاع غير مستو جزؤه الأكبر صخري، تغطيه شجيرات دائمة الخضرة. وتتوزّع قطع القاع بين خمائل الشجيرات، وهناك في تلك القطع ينمو الزعفران. وهناك أيضاً كهف فيه ينبوع كبير يشكل نهراً صغيراً ماؤه صاف؛ وهنا في المكان عينه يغور النهر في أعماق الأرض، ثمّ يجري مختفياً تحت الأرض ليصبّ بعد ذلك في البحر. ويدعى النهر «بالمياه المرّة»[8].

6- وبعد كوريكس تقع جزيرة إيليوسا على مقربة من البرّ، وقد سكنها أرخيلايوس وجعل منها مقرّه الملكي بعد أن نال ملكية[9] له كلّ كيليكيا التراخية ما عدا سلوقيا، وفق الأسس عينها التي قامت عليها سابقاً ملكية أمينتا، وقبله كليوبترا للمنطقة. فالرومان إذ أخذوا بعين الحسبان أن هذا المكان ملائم بطبيعته لنشاط قطاع الطرق والقراصنة (لقطاع الطرق بسبب الجبال والقبائل التي تستوطن سفوحها وسهولها الشاسعة، وحقولها المفتوحة لغزوات الأعداء؛ والقراصنة بسبب وفرة الأخشاب الصالحة لصناعة السفن، والمراسي، والحصون، والملاجئ الخفية)، آثروا أن تبقى هذه البلاد تحت سلطة الملوك، ولا توضع تحت حكم ولاة رومان يرسلون إلى هناك للنهوض بالمهام القضائية من غير أن تتوفّر لهم دائماً إمكانية الإقامة الدائمة أو تكون تحت تصرّفهم قوّات عسكرية. وعلى هذا النحو تلقى أرخيلايوس كيليكيا التراخية إضافة إلى قبدوقيا. ويشكّل حدود الأولى نهر لام وقرية تحمل الاسم نفسه وتقع بين سولامي وإيليوسا.

7- ويقع في أعالي قمم طوروس حصن للقراصنة يدعى زينيكيس، والأوليمب، وهو جبل يحمل اسم القلعة عينه، ويمكن أن ترى من هناك ليكيا كلّها، وبامفيليا، وبيسيليا، وميليادا. وبعد أن استولى سرفيليوس الإيسافري على الجبل، أحرق زينيكيس نفسه ومنزله كلّه. وكانت تخضع له كوريكس، وفاسيليدا وأماكن أخرى كثيرة في بامفيليا، لكن سرفيليوس الإيسافري استولى على هذا كلّه.

8- وتأتي بعد لام سولا، وهي مدينة كبيرة تشكّل بداية كيليكيا الأخرى التي تحيط بإيّس. وكان الآخيون والرودوسيون الليندسيون هم الذين أسّسوا هذه المدينة. ونظراً لقلّة عدد سكّانها، أسكن بومبييوس الأكبر فيها ما تبقى من القراصنة على قيد الحياة، وهم الذين عدّهم الأكثر جدارة بأن يبقوا على قيد الحياة، ويحظوا ببعض العناية. وقد تغيّر اسم المدينة إلى بومبييوبوليس. ومن الشخصيات

الشهيرة التي تنتمي إلى هـذه المدينـة: كـريسيب، وهـو فيلسـوف رواقـي كـان والـده مـن تـارس، ثـمّ انتقـل للإقامـة هنـاك؛ وفيلمـون الشّـاعـر الكـوميـدي، وأراتـوس الـذي كـتب بحثاً عنوانه «الظاهرات» شعراً.

9- وتأتي بعد ذلك زيفيريس سميّة مكان يقع قرب كاليكادنس. وإلى الأعلى قليلاً فوق البحر تقع ألخيالا التي أسّسها، على حدّ قول أريستوبول، ساردانابال. وهنا يقع قبر هذا الأخير وتمثاله الحجري (الذي تضغط أصابع اليد اليمنى فيه، وكأنه يطقطقها) الذي يحمل النص التالي المكتوب بالأحرف الآشورية: «ساردانابال ابن أناكينداراكس، بنى أنخيلا وتارس قي يوم واحد. كلْ، واشرب، وافرح، لأنّ ما عدا ذلك كلّه لا يستحقّ»- طقطقة أصابع وحسب. وقد أتى كيريلوس على ذكر هذا النقش؛ وفعلاً شاع بيتا الشعر الآتيان في كلّ مكان:

أشهى المأكولات، ولهو الحب- كلّه لي- استمتعت به

وليس بالحنق والغضب، لقد تركت كلّ هذا منذ زمن

بعيد، بعد أن شربت كأس الثروة مترعة.

10- وفوق أنخيالا إلى الأعلى تقع كييندا، وهي قلعة كانت تحفظ فيها في زمن ما خزنة المقدونيين. ولكن إيفيمين استولى على الثروات بعد أن أثار عصياناً ضدّ أنتيغون. وإلى الأعلى من كييندا وسولا تقع بلاد جبلية تقع فيها مدينة أولبا وفيها معبد لزيوس أسّسه إيانثوس بن تيفكروس. وقد صار كاهن المعبد إلى حاكم تراخيوتيدا؛ ثمّ سعى كثير من التيران بعد ذلك للسيطرة على البلاد، وظهرت هناك عصابات من قطاع الطرق. وبعد أن تمّ القضاء على هذه الأخيرة، في زمننا الحاضر، باتت هذه البلاد وكهنوتها يدعيان ملكية تيفكروس، وحمل أكثر الكهنة اسم تيفكروس وإيانثوس. وعندما انتمت آبا ابنة زينوفانوس، أحد التيران إلى هذه العائلة عن طريق الزواج، استولت هي نفسها على السلطة التي كانت من قبل لأبيها بصفته وصيّاً. وفيما بعد استجاب أنطونيو وكليوبترا لتوسلاتها وقدّما لها العون، ومع ذلك أُطيح بها بعدئذٍ، لكنّ السلطة بقيت في سلالتها. - ويأتي بعد أنخيالا مصبّ كيدنس، على مقربة مما يدعى زيغما. وهو مكان مستنقعي فيه ترسانات قديمة العهد لإصلاح السفن؛ ويصبّ هنا نهر كيدنس الذي يجري مخترقاً وسط تارس؛ وتقع منابع هذا النهر في مدينة تافروس التي تقع إلى الأعلى. والبحيرة بدورها محطة شراعية لتارس.

11- وحتّى هذه النقطة يمتدّ الساحل كلّه؛ ولكنّه ابتداء من المنطقة الواقعة قبالة رودوس يتّجه نحو الاعتدال الشرقي من الاعتدال الغربي[10]، ثمّ ينعطف نحو المشرق الشتوي[11] وصولاً إلى إيسّ، ومن هناك ينثني نحو الجنوب وصولاً إلى فينيقيا؛ ويمتدّ جزؤه الباقي غرباً حتّى الأعمدة حيث ينتهي. والحقيقة أن برزخ شبه الجزيرة الذي وصفته هنا، هو البرزخ الذي يمتدّ من تارس ومصبّ كيدنس حتّى أميس، لأنها أقصر مسافة من أميس إلى حدود كيليكيا. فمن هنا حتّى تارس 120 مرحلة فقط، ومن تارس حتّى مصبّ كيدنس ليس أكثر من ذلك. بيد أنه حتّى إيس وحتى البحر القريب لا توجد طريق أقصر انطلاقاً من أميس كتلك التي تمرّ عبر تارس، ومن تارس حتّى إيس ليست المسافة أقرب منها إلى كيدنس[12]. ولذلك فإنه من الواضح أن هذا برزخ فعلاً، مع أنهم يرون أن البرزخ الحقيقي هو الخطّ الذي يمتدّ حتّى خليج إيس، فيحرّفون بذلك الوقائع من أجل أهمية الخليج. ولهذا السبب، أنا أرى أن الخطّ الذي يبدأ من رودوس (والذي أصل به إلى كيدنس)، يساوي الخطّ الذي ينطلق إلى إيسّ، ولا أجد أيّ فرق بينهما، كما أزعم أيضاً أن طوروس تمتدّ على هذا الخطّ مباشرة إلى الهند.

12- تقع تارس في سهل؛ وقد أسّسها الارغيفيانيون الذين تشرّدوا وجابوا الآفاق مع تريبتوليموس بحثاً عن إيو. ويجري نهر كيدنس وسط المدينة على مقربة مباشرة من جمنازيوم الفتيان. وتقع منابع النهر على مقربة، ويمرّ مجراه عبر فجّ عميق، ثمّ يندفع بعد ذلك إلى المدينة مباشرة، شغابه باردة وسريعة، ولذلك فالنهر نافع للحيوانات المنزلية والناس الذين يعانون من الروماتيزم وانتفاخ العروق.

13- ولم يكن سكّان تارس شغوفين بالفلسفة فقط، بل بمواد الثقافة العامّة أيضاً، وقد تفوّقوا في هذا على أثينا، والإسكندرية، وأيّ مكان آخر فيه مدارس لتعليم الفلسفة وتعلّمها. وتتميّز هذه المدينة عن مثيلاتها الأخريات في أنّ كلّ من يشتغل بالعلم هنا من السكّان المحلّيين، أمّا الغرباء فلا ينتقلون للإقامة هنا برغبتهم. وحتّى السكّان المحلّيون أنفسهم لا يبقون هنا، بل يغادرون إلى الخارج لإتمام تعليمهم؛ وبعد أن يكملوه، يفضّلون الإقامة هناك حيث هم، ولا يعود منهم إلى تارس سوى قلّة. أمّا في المدن الأخرى كما أشرت قبل قليل، ما عدا الإسكندرية، فإننا نقف على ظاهرة معاكسة: يأتي إلى هناك كثير من الأجانب، فيقضون وقتهم برضا وسرور؛ أمّا السكّان المحلّيون، فإن قلّة منهم رأت الخارج، أي أولئك الذين سافروا طلباً للعلم، أو كرّسوا أنفسهم للعمل العلمي في الوطن. أمّا سكّان الإسكندرية فإنهم يجمعون بين

الظاهرتين: يستقبلون في مدارسهم كثيراً من الأجانب، ويرسلون أعداداً غير قليلة من مواطنيهم إلى الخارج. وفي تارس كثرة من مختلف مدارس علم البلاغة والبيان. وعلى وجه العموم توجد في تارس أعداد كبيرة من السكّان، وبين هؤلاء كثير من المواطنين الأثرياء. فتارس تشغل مكانة المدينة الرئيسة.

14- وتارس مسقط رأس الفلاسفة الرواقيين أنتيباتر، وأرخيديموس، ونسطور، إضافة إلى اثنين باسم أثينودوروس: أحدهما يحمل لقب كورديليون، وقد عاش في منزل مارك كاتون، ومات فيه؛ والآخر ابن ساندون، الذي نسب إلى قرية ما تدعى كانانيت، وكان هذا معلّم قيصر الذي منحه قدراً كبيراً من الاحترام. ولدى عودته إلى دياره شيخاً متقدّماً في السن، عزل الحكومة التي كانت قائمة هناك. وكان قد برز بين رجال تلك الحكومة الرعناء، المدعو بويفوس، وهو شاعر رديء، ومواطن فاسد لم يكتسب نفوذه إلاّ بالتزلّف إلى الشعب وتملّقه. وكان مديناً بصعوده سلّم السلطة لأنطونيو (الذي أعجب منذ البداية بالقصيدة التي كتبها بويفوس ويمدح فيها الانتصار الذي تحقّق في فيليبا)، وبدرجة أكبر لموهبته (التي شاعت في أوساط التارسيين) في التحدّث من غير انقطاع بأيّ موضوع كان من دون تحضير مسبق. زد إلى هذا أن أنطونيو وعد التارسيين بإحداث وظيفة الجمنازي(13)، وعيّن بويفوس بدلاً من الجمنازيّ، وعهد إليه بتحصيل النفقات المرتبطة بهذا العمل. ولكنّ بويفوس اتّهم باختلاس زيت الزيتون (إضافة إلى أشياء أخرى). ولمّا أثبت المدعون عليه صحّة اتهامهم له بحضور أنطونيو، نجح في تهدئة غضب هذا الأخير بالكلمات الآتية: «كما تغنّى هوميروس بمدح أخيليس وآغاممنون، وأوديسيوس، كذلك تغنيت أنا بمآثرك. ولذلك لا يجوز أن أُرمى أمامك بمثل هذه الافتراءات». فتلقف المدّعي كلماته هذه وقال معترضاً: «هذا صحيح، لكنّ هوميروس لم يختلس زيت الزيتون لا من آغاممنون، ولا من أخيليس، أمّا أنت فقد اختلست؛ لذلك ستعاقب». ومع ذلك نجح بويفوس في تفادي غضب أنطونيو متملقاً، وواصل نهب المدينة حتّى سقوط أنطونيو. على هذه الحال وجد أثينودوروس المدينة، فحاول إقناع بويفوس وشركائه أن يغيّروا سلوكهم بالحسنى. ولكن بما أنه لم يكن يخطر لهؤلاء مجرّد خاطر أن يتخلّوا عن تصرّفاتهم الوقحة، لذلك لجأ أثينودوروس إلى استخدام السلطة التي منحها له قيصر، وحكم عليهم بالنفي، وأرغمهم على مغادرة المدينة. أمّا هم ففي بادئ الأمر كتبوا على السور بيت الشعر الآتي:

مآثر الشبّان، ونصائح الرجال، عصف ريح لدى الشيوخ.

ولمّا كان أثينودوروس قد أخذ النقش كطرفة وحسب، أمر أن يكتب بدلاً من هذا «عصف الشيوخ»، لكنّ أحدهم، ويبدو أنه لم يكن يقيم وزناً لأيّ لباقة، كما كان يعاني من تلبّك معوي، لطّخ ليلاً باب بيت أثينودوروس وجداره. فألقى أثينودوروس خطبة في مجلس الشعب أدان فيها هذا السلوك، وقال غاضباً: «ثمّة أساليب كثيرة لمعرفة المرض الذي تعاني منه مدينتنا، وإدراك حالتها الصعبة خاصة مؤشر برازها». وكان الذين سلكوا هذا السلوك القبيح، أشخاص رواقيون. وفي زمني أنا كان نسطور أكاديمياً، ومعلّم مارسيللوس ابن أوكتافيا شقيقة قيصر. وكان هذا رئيس حكومة تارس بصفته خليفة أثينودوروس، وكان له مكانته الراسخة لدى الولاة في المدينة.

15- ومن فلاسفة تارس الآخرين الذين

أعرف جميعهم بسهولة، وأستطيع أن أذكر لك اسم كلّ منهم،

(الإلياذا II، 235)

كان بلوتيادس وديوجينوس ينتميان إلى عداد أولئك الذين كانوا ينتقلون من مدينة لأخرى، وأسّسوا مدارس رائعة. وكان ديوجينوس يرتجل من وحي الموضوع المطروح شعراً ذا طابع تراجيدي. ومن لغويّ تارس الذين بقيت أعمالهم حيّة، أرتيميدور، وديودوروس. وكان ديونيسيدس أفضل الشعراء التراجيديين، وواحداً من الذين يصنّفونهم في عداد البليادا[14]. وروما بالمناسبة، مدينة على هذا المنوال، إذ يمكن أن تعطينا تصوّراً عن كثير من علماء تارس؛ وهي فعلاً تعجّ بالتارسيين والإسكندريين. هذه هي تارس.

16- وبعد كيدنس يأتي نهر بيرياموس الذي يجري من كاتاونيا، وهو ما كنت قد ذكرته من قبل[15]. وبحسب أرتيميدور أن طول الطريق البحرية من هنا حتّى سولا 500 مرحلة. وعلى مقربة تقع ماللوس فوق مرتفع؛ وكان أمفيلوخ وموبسوس بن أبوللون ومانتو اللذين أُنشئ بهما كثير من الأساطير، قد أسّسا هذه المدينة. وأنا كنت قد ذكّرت بهما في قصة كالخانت[16]، في سياق نزاع هذا الأخير مع موبسوس على موهبة التنبّؤ. فثمّة مؤلّفون، كسوفوكليس على سبيل المثال، ينقلون هذا النزاع إلى كيليكيا التي يدعونها كدأب الشعراء التراجيديين بامفيليا (على منوال تسميته

ليكيا، كاريا، وطروادا وليديا، فريجيا). ومثله كمثل الآخرين يتحدّث سوفوكليس أيضاً عن موت كالخانت هنا. وكان الجدال قد دار، وفق ما تنقل الأساطير، لا عن موهبة التنبّؤ فقط، إنما بصدد السلطة أيضاً. فبحسب الأسطورة أن موبسوس وأمفيلوخ أسّسا ماللوس؛ ثمّ رحل أمفيلوخ إلى آرغوس ولكن، لمّا لم تعجبه الحال هناك عاد إلى ماللوس فأبعدوه هنا عن المشاركة في شؤون الحكم، عندئذٍ دعا أمفيلوخ موبسوس إلى المبارزة التي أسفرت عن مقتل الرجلين، فدفنا بحيث لا يمكن أن يقع أحدهما في دائرة رؤية الآخر. وحتى يومنا هذا يرونك قبريهما قرب ماغاريسا عند نهر بيرام. وماللوس مسقط رأس اللغوي كراتيت الذي يقال، إنّ بانيسيوس كان تلميذه.

17- وإلى الأعلى من هذا الساحل يقع سهل أليوس الذي قاد فيلوتوس فرسان الإسكندر عبره، وفي الوقت نفسه كان الإسكندر يخرج بكتائبه من سولا عبر الساحل ومنطقة ماللوس ليهاجم إيسّ وجحافل داريوس. ويقال، إن الإسكندر قدّم هنا ذبيحة لأمفيلوخ احتراماً لقرابته مع الأرغيفيانيين. وعلى حدّ قول هسيود، إن أبوللون قتل أمفيلوخ في سولا، لكنّ كتّاباً آخرين يقولون، إنه قتله قرب سهل أليوس، ويقول فريق ثالث، إنه قتله في سوريا بعد أن غادر ذاك سهل أليوس إثر نزاع.

18- وبعد ماللوس تأتي مدينة صغيرة تدعى إيجي ومحطتها الشراعية، تليها البوابات الأمانية ومحطتها الشراعية، وهنا ينتهي جبل أمانوس الذي يعدّ من ذيول طوروس التي ترتفع فوق كيليكيا شرقاً. وكان هذا الجبل دائماً تحت سلطة التيران الذين كانت لهم هناك عدة حصون. وحاكم تلك الأرجاء كلّها الآن، هو تاركونديموت، الرجل الفذّ الذي أعلنه الرومان ملكاً بسبب بسالته؛ وورّث هذا العرش لسلالته.

19- وبعد إيجي تأتي مدينة إيس الصغيرة وفيها محطة شراعية، ثمّ يأتي نهر بينار. وهنا وقعت معركة الإسكندر مع داريوس. ويدعى الخليج خليج إيسّ؛ وتقع عليه مدن روس، وميرياندرس، والإسكندرية، ونيكوبوليس، وموبسويستيا، وما يدعى البوابات السورية، ثمّ الحدود بين كيليكيا وسوريا. ويقع في كيليكيا أيضاً حرم وموْحى لأرطميس السربيدونية؛ وينطق بالنبوءات هنا متنبّئون يوحى إليهم.

20- وأوّل مدينة سورية بعد كيليكيا، هي سلوقية بيرييا، وعلى مقربة مصبّ العاصي. والطريق البحرية من سلوقيا إلى سولا مباشرة أقلّ من 1000 مرحلة بقليل.

21- وبما أنّ كيليكيي طروادا الذين يذكرهم هوميروس، يقيمون بعيداً عن

الكيليكيين الذين يسكنون وراء طوروس، فقد رأى بعض الكتّاب أن كيليكيي طروادا هم الأصل، ويشيرون في غضون ذلك إلى تطابق أسماء بعض الأماكن مثل طيبة، وليرنيس في بامفيليا؛ بينما يزعم آخرون العكس، فيشيرون هناك إلى سهل أليوس. ولدى وصف أجزاء شبه الجزيرة المذكورة، الواقعة على ذلك الجانب من طوروس، ينبغي عليّ أن أضيف الآتي.

22- يؤكّد أبوللودوروس في كتابه «سجلّ السفن»، على ما يلي: لقد كان حلفاء طروادا الآسيويين الذين ذكرهم هوميروس كلهم، من سكّان شبه الجزيرة التي يقع أضيق برازخها بين أقصى تجويف عند سينوبا، وإيسّ. ثمّ يضيف أبوللودوروس قائلاً: «إنّ الأضلاع الخارجية لهذه الشبه الجزيرة المثلّثة الشكل ليست مستوية. فإحدى الأضلاع تمتدّ من كيليكيا حتّى الخيليدونيين، وتمتدّ الأخرى من هنا حتّى مدخل البونتس الإيفكسيني، وتمتدّ الثالثة من هنا أيضاً حتّى سينوبا». وعلى هذا النحو يتّضح أن الزعم القائل، إن كلّ حلفاء طروادا الذين ذكرهم هوميروس كانوا «سكّان شبه الجزيرة فقط»، هو زعم باطل على أغلب الظنّ، لأنّ حلفاء الطرواديين، كما بيّنت سابقاً، لم يكونوا سكّان المناطق الواقعة على ذلك الجانب من هاليس فقط. فالمناطق القريبة من فارناكيا، حيث يقطن الغاليزونيون، تقع على هذا الجانب من هاليس(19)، وعلى ذلك الجانب من البرزخ، حتّى لو في أضيق مكان بين سينوبا وإيسّ، وتحديداً، ليس فقط على ذلك الجانب منه، بل أيضاً على ذلك الجانب من المضائق الحالية بين أميس وإيسّ. فأبوللودوروس يخطئ في تحديد البرزخ ومضائقه، لأنه يخلط بين المضائق الأولى الواقعة بين سينوبا وإيسّ، والمضائق الثانية الواقعة بين أميس وإيس. - لكنّ الأمر الأكثر سخافة، هو وصف أبوللودوروس لشبه الجزيرة بالمثلثة الشكل، وتحديده لأضلاعها الخارجية الثلاث. فمن يتحدّث عن «الأضلاع الخارجية»، يبدو على أغلب الظن أنه يستبعد الضلع التي تمتدّ على طول المضائق كأنها ضلع أيضاً، لكنّها ليست خارجية وليست على البحر. وعليه، لو كانت هذه المضائق ضيّقة إلى حدّ تكاد تتلاقى عنده «الأضلاع الخارجية» التي تنتهي عند سينوبا وإيسّ، لأمكن عندئذٍ، على الأرجح، أن نصف هذه الشبه الجزيرة بأنها مثلّثة الشكل. ولكن، بما أنّ المضائق التي يذكرها بين إيسّ وسينوبا، يقع واحدها على مسافة 3000 مرحلة عن الآخر، فإن وصف هذا الشكل ذا الأضلاع الأربع بأنه مثلّث، هو الجهل بعينه، هو الجهل الكامل بالكوروغرافيا. ولكنّ أبوللودوروس نشر بحثاً في

الكوروغرافيا كتبه على وزن الكوميديا[18]، وأعطاه عنواناً هو «وصف الأرض». ويبقى الجهل حاضراً أيضاً في حال إذا ما اختزل طول شبه الجزيرة إلى أقصر مسافة، أي إلى نصف المسافة، وتحديداً إلى 1500 مرحلة، وهذا ما يأخذ به كبار مزوّري الحقائق (ومنهم أرتيميدور)، ولكنّ هذا أيضاً لا يقلّص ضلع المضائق إلى الحدّ الذي يجعل شبه الجزيرة مثلّثة الشكل. ويخطئ أرتيميدور في تحديد الأضلاع الخارجية عندما يتحدّث عن «الضلع التي تمتدّ من إيسّ إلى الجزر الخيليدونية»؛ إذ يبقى الساحل الليكي كله، الذي يمتدّ على خطّ مباشر من الضلع التي ذكرها هو، كما يبقى أيضاً الساحل الواقع قبالة رودوس وصولاً إلى فيسك. ومن هنا ينعطف البرّ ويبدأ بتشكيل الضلع الثانية، أو الضلع الغربية وصولاً إلى البروبونتيدا وبزنطا.

23- وقد أكّد إيثور أن في هذه الشبه الجزيرة كانت تعيش 16 قبيلة، ثلاث منها هللينية، وما تبقى بربرية، باستثناء القبائل المختلطة؛ فعلى البحر يقطن الكيليكيون، والبامفيليون، والليكيون، والبيثينيون، والبافلاغونيون، والماريانديون، والطروايون، والكاريون؛ ويعيش في داخل البلاد البيسيديون، والميسيون، والخاليبيون، والفريجيون، والميليون. وفي معرض مناقشته لهذه المعطيات يلاحظ أبوللودوروس، أن قبيلة الغلاطيين، أي القبيلة السابعة عشرة، أصغر سناً من زمن إيثور، وإن القبائل الهللينية المذكورة بين هذه القبائل لم تكن قد سكنت هنا بعد، في زمن حرب طروادا، أمّا القبائل البربرية فقد عاشت مع الزمن عملية تخالط عميقة. وفي «سجلّ» القبائل يذكر هوميروس قبائل الطرواديين، والقبائل التي تدعى الآن، قبائل البافلاغونيين، والميسيين، وشعوباً أخرى غير معروفة، كالغاليزونيين والكافكونيين على سبيل المثال. وعلاوة على الوارد ذكرهم في «السجلّ»، يذكر أيضاً الكيتيون، والسوليميون، والكيليكيون الذين من سهل طيبة، والليليغيس. أمّا البامفيليون، والبيثينيون، والماريانديون، والبيسيديون، والخاليبيون، والميليون، والقبدوقيون، فإنّ الشاعر لا يأتي على ذكرهم البتّة، لأنّ بعضهم لم يكن قد سكن في هذه المناطق بعد، وبعضهم الآخر لا يزال ضمن شعوب أخرى، كالهيدريين، والتيرميليين مثلاً، الذين كانوا خليطاً مع الكاريين، والدوليونيين والبريكيين الذين كانوا خليطاً مع الفريجيين.

24- بيد أنه من الواضح أن أبوللودوروس لم يفقه بما يكفي معطيات إيثور، كما اختلطت عليه كلمات هوميروس فحرّفها. فقد كان عليه بادئ ذي بدءٍ أن يسأل

إيثور: لماذا يوضّع الحاليبيين داخل شبه الجزيرة، بينما هم يسكنون بعيداً نحو الشرق من سينوبا وأميس؟ أمّا الذين يأخذون الخطّ الممتدّ من إيسّ إلى البونتس الإيفكسيني على أنه برزخ هذه الشبه الجزيرة، فهم يعدّون هذا الخطّ بمثابة دائرة الطول التي تمتدّ بحسب بعضهم، إلى سينوبا، وبحسب بعضهم الآخر، إلى أميس. ومع ذلك فإن أحداً لا يعتقد أن دائرة الطول هذه تصل إلى منطقة الحاليبيين، لأنها متقوّسة تماماً. والحقيقة أنّ دائرة الطول التي تعبر بلاد الحاليبيين لا يمكن مدّها إلاّ عبر أرمينيا الصغرى والفرات، تاركين على هذا الجانب منها كلّ قبدوقيا، وكومّاجين، وجبل أمانوس، وخليج إيسّ. وإذا ما سلّمنا بأن هذا البرزخ يتاخم هذا الخطّ المتقوّس، فإن أكثر هذه المناطق، خاصة قبدوقيا، تبقى على هذا الجانب، ومثلها أيضاً ما يدعى الآن البونتس بالمغزى الخاص للكلمة، والذي يعدّ جزءاً من قبدوقيا قرب البونتس الإيفكسيني. وإذا كان من الضروري أن تعدّ بلاد الحاليبيين جزءاً من شبه الجزيرة، فإنه يحق لنا أكثر عندئذٍ أن نلحق بها أيضاً كاتاونيا، والقبدوقيتين، وكذلك ليكاونيا، وقد أغفل إيثور هذا كلّه. فلماذا إذن وضّع إيثور الحاليبيين الذين دعاهم هوميروس غاليزونيين، بين شعوب الأجزاء الداخلية من البلاد، كما بيّنت سابقاً؟[19] لقد كان من الأفضل أن يوزّعوا على فريقين يوضّع أحدهما على البحر، والآخر في داخل البلاد، وهذا كان يجب فعله تجاه قبدوقيا وكيليكيا. بيد أنّ إيثور لم يات على ذكر قبدوقيا البتّة، إنما تحدّث عن كيليكيّ الساحل فقط. أمّا الشعوب التي تخضع لسلطة أنتيباتر ديربيت: الهوموناديون، وبعض الشعوب الأخرى التي تجاور البيسيديين:

... ولا تعرف البحر

ولم تتذوّق طعاماً يخالطه الملح.

(*الأوذيسا* XVIII، 122)

فأين يوضّع هؤلاء إذن؟ وهو لم يذكر الليديين، ولا الميونيين؛ وهل هؤلاء شعبان أم شعب واحد، هل يعيشان مستقلّيْن أم يشكلان جزأين من قبيلة أخرى؟ فلا يجوز إخفاء مثل هذا الشعب ذي الشأن؟ وإذا كان إيثور لم يقل عنه كلمة واحدة، أفلا يعني هذا بوضوح أنه أغفل شيئاً مهماً جدّاً؟

25- والآن، ماذا تعني هذه الشعوب «الخليط»؟ إضافة إلى الأماكن التي ذكرتها سابقاً، فإني لا أستطيع القول، ما إذا كان قد ذكر الأماكن الأخرى التي ننسبها للشعوب «الخليط»، أم أغفلها؛ وعلى النحو نفسه لا نستطيع أن ندعو بعضاً من

تلك الشعوب التي أغفلها أو ذكرها، شعوباً «خليطة». وواقع الحال، حتّى لو كان هؤلاء «خليطاً»، فإن الأرجحية بهذا الاتجاه أو ذاك، كانت ستجعل منهم هللينيين أو برابرة. فانا لا أعرف قبيلة «خليطاً» من نوع آخر.

26- ولكن كيف استطاعت ثلاث قبائل هللينية أن تعيش في شبه الجزيرة؟ إذا كان الأمر يتعلّق فقط بكون الإيونيين والأثينيين قد شكلوا في الزمن القديم شعباً واحداً، فإنه ينبغي أن نقرّ أيضاً بأن الدوريين والإيوليين قد شكلوا بدورهم قبيلة واحدة، وسيكون عدد القبائل عندئذٍ قبيلتين. أمّا إذا أخذنا تقسيمهم بما يتوافق وعاداتهم في الأزمنة المتأخرة، ولهجاتهم، فإن عدد القبائل واللهجات سيكون أربع قبائل وأربع لهجات. ولكنّ شبه الجزيرة ليست مسكونة بالإيونيين وحدهم (بحسب تقسيم إيثور)، بل يسكنها الأثينيون أيضاً، كما ذكرت لدى تعدادي للشعوب القائمة بذاتها[20]. وفي مثل هذه المسائل كلّها يمكن أن يؤخذ رأي إيثور بعين الحسبان، لكنّ أبوللودوروس لم يلق لهذا بالاً البتّة؛ بل على الضدّ من هذا، يضيف إلى القبائل 16 قبيلة أخرى، هي قبيلة الغلاطيين، ويسجلّ في أثناء ذلك ملاحظة مفيدة، لكنّها ليست ضرورية أبداً للحكم على ما يفصح عنه إيثور أو يصمت عنه. فأبوللودوروس نفسه يعرض سبب هذا، وهو أن هذا كلّه وقع بعد زمن إيثور.

27- ومع انتقاله إلى هوميروس يطرح أبوللودوروس فكرة صحيحة تماماً مفادها انه منذ زمن حرب طروادا حتّى الوقت الراهن، وبفعل مختلف التغيرات، وقع تخالط ذو شأن طال القبائل البربرية: بعض القبائل انضمّ إلى أخرى، وبعضها الآخر اندثر، وبعضها الثالث تشتت، والرابع اتحد في قبيلة واحدة. لكنّ أبوللودوروس يخطئ إذ يورد سبباً مزدوجاً يقف وراء عدم ذكر الشّاعر لبعض هذه القبائل: لأنذ هذه القبائل لم تكن تعيش عندئذٍ في هذه البلاد أو أنها كانت ضمن قبيلة أخرى؛ فالشّاعر، على سبيل المثال، لا يذكر قبدوقيا، وكاتاونيا، وكذلك ليكاونيا، ولكن ليس لأيّ سبب من هذه الأسباب؛ وفي أقلّ تقدير ليس لدينا مثل هذه المعطيات عن هذه البلدان. أضف إلى هذا أنه من المضحك البحث عن الأسباب التي دعت هوميروس إلى إغفال القبدوقيين والليكاونيين، والعثور على مبرر لهذا الإغفال؛ ولكنّ أبوللودوروس نفسه لا يتساءل لماذا يفعل إيثور الأمر عينه، ويسوق في غضون ذلك رأي إيثور بغرض دراسته وبحثه. ومن المضحك أيضاً أن يعظنا أحد متسائلاً، لماذا يذكر هوميروس الميونيين بدلاً من الليديين، ولا يلاحظ في الوقت نفسه أن إيثور لا يذكر الليديين ولا الميونيين.

28- وإذ يقول بعد ذلك إنّ هوميروس يأتي على ذكر بعض القبائل المجهولة، يصيب أبوللودوروس إذ يذكر الكافكونيين، والسوليميين، والكيتيين، والليليغيس، والكيليكيين وسهل طيبة؛ أمّا فيما يخصّ الغاليزونيين، فهو نفسه يختلقهم أو على أغلب تقدير اختلقهم أولئك الذين لا يعرفون من هم الغاليزونيون، فغيّروا اسمهم إلى نمط مختلف[21] واختلقوا «منجم الفضّة»[22] وكثيراً من المناجم الأخرى التي كانت قد اختفت تماماً. وبسبب رغبتهم الجامحة في تكوين رأي خاص بهم، جمع هؤلاء الروايات التي كان قد أخذها ديميتري السكيبسيسي عن كاالليسفين وبعض المؤلّفين الآخرين الذين لم يتحرّروا من التصوّرات الباطلة التي شاعت عن الغاليزونيين؛ ومنها على سبيل المثال، الرواية التي تقول، إن مصدر ثراء تانتالوس والبيلوبيدس، هو مناجم في فريجيا وسيبيلوس؛ ومصدر ثروات قدموس مناجم في تراقيا وبانغييوس؛ ومصدر ثراء بريام الترسبات الذهبية في استيرا قرب أبيدوس (لا تزال بقاياها موجودة حتّى يومنا هذا؛ وتشكّل أكداسها الكبيرة ومناجمها قرائن على عمليات التعدين التي كانت تجري هنا)؛ ومصدر ثراء ميداس مناجم قرب جبل بيرموس؛ ومصدر ثروات هيجيس، وأليات، وكريز مناجم في ليديا وفي منطقة تقع بين أتارنييوس وبرغاموس، حيث تقع مدينة مهجورة على أراضيها مناجم ناضبة.

29- كما يمكننا أن نتهم أبوللودوروس أيضاً في أنه (في الوقت الذي يدفع فيه المؤلّفون المعاصرون بكثير مما هو جديد ضدّ مقولات هوميروس) كان يدفع عادة باعتراضات أكثر رصانة ضدّ البدع الجديدة، أمّا في هذه المرّة فلا يعيرها سوى اهتمام ضئيل، بل ويجمع مقولات متباينة في كلّ واحد. فكسانثوس الليدي على سبيل المثال يقول، إن الفريجيين جاؤوا من أوروبا بعد حرب طروادا، ومن الجهة اليسرى للبونتس، وإن سكاماندروس قادهم من منطقة البيريكينتيين ومن أسكانيا. فيضيف أبوللودوروس إلى هذا، إن هوميروس يأتي على ذكر هذه الأسكانيا التي يتحدّث عنها كسانثوس:

فوركيس وأسكانيوس المقدام، قاد جحافل
الفريجيين من أسكانيا.

(*الإلياذة* II، 862)

ولكن إذا كان الأمر على هذا النحو، فإن انتقالهم ينبغي أن يكون قد حصل

بعد حرب طروادا، وما يذكر في هذا السياق، أن القوات المساندة التي يذكرها هوميروس كانت قد جاءت أثناء حرب طروادا من منطقة البيريكينتيين ومن أسكانيا. ولكن من كان أولئك الفريجيون عندما

اصطفّت قوّاتهم على طول ضفاف سانغاروس،

(الإلياذا III، 187)

أمّا بريام فيقول عن نفسه:

وهناك كنت أنا أيضاً، حليفاً لهم عدّوني.

(الإلياذا II، 188)

فكيف استدعى بريام الفريجيين من منطقة البيريكينتيين ولم يكن بينه وبينهم أي علاقات تحالف، وتجاوز جيرانه الذين كان قد مدّ يد العون لهم من قبل؟ وبعد مثل هذه المحاكمة الذهنية عن الفريجيين، يضيف أبوللودوروس إخباراً عن الميسيسيين غير متوافق مع السياق. فعلى حدّ قوله أن أسكانيا اسم تدعى به قرية في ميسيا تقع قرب بحيرة تحمل الاسم عينه، ينبع منها نهر أسكانيوس الذي يذكره يوثوريون:

في ميسيا، هناك حيث تتدفّق مياه أسكانيوس...

وعنه يقول الإسكندر الإيثولي:

أولئك الذين تقوم مساكنهم عند شغاب أسكانيوس الرقراقة.

وعلى شواطئ البحيرة الأسكانية، هناك حيث عاش

دوليون، ابن ميليا الماجد، ذلك الذي أنجبته لسيلينوس.

وعلى حدّ قوله، إن المنطقة الواقعة قرب كيزيك على الطريق إلى ميليتوبوليس، تدعى دوليونيدا وميسيبيا. وإذا كان الأمر على هذا النحو فعلاً، وتؤكّده الأماكن التي يرونك إياها حتّى اليوم، إضافة إلى شهادات الشعراء، فما الذي أعاق هوميروس إذن عن ذكر هذه الأسكانيا، وليس تلك التي يتحدّث عنها كسانثوس؟ ولكني كنت قد تحدّثت عن هذا من قبل في روايتي عن الميسيسيين والفريجيين[23]. ولذلك يكفي ما قلناه في هذه المادّة حتّى الآن.

الفصل السادس

1- بقـي لنـا الآن أن نصـف جزيـرة قـبرص الـتي تقـع إلى الجنـوب مـن هـذه الشـبه الجزيـرة. وكمـا كنـت قـد قلـت، إن البحـر الـذي تحيـط بـه مصـر، وفينيقيـا، وسـوريا وبـاقي السـاحل حتّـى رودوس، يبـدو كـأنـّه يتـألّف مـن البحـرين المصـري والبـامفيلي، والبحـر الـذي عنـد خلـيج إيّـس. وفي هـذا البحـر الأخـير تقـع قـبرص؛ وتتـاخم الأجـزاء الشـمالية مـن هـذه الجزيـرة، وهـي الأقـرب إلى الـبرّ، تتـاخم كيليكيـا التراخيـة، أمّـا أجزاؤهـا الشـرقية، فهـي تشـاطئ ميـاه خلـيج إيـس، وتشـاطئ أجزاؤهـا الغربيـة البحـر البـامفيلي، والجنوبيـة البحـر المصـري. ويتـداخل هـذا الأخـير مـن جهـة الغـرب مـع البحـر الليبـي والبحـر الكـارباثي، ومـن جهـة الجنـوب والشـرق يتـاخم مصـر والسـاحل الـذي يلـي مباشـرة حتّـى سـلوقيا وإيّـس؛ ويتـاخم مـن جهـة الشـمال قـبرص والبحـر البـامفيلي. ويتـزنّـر البحـر البامفيلي من جهة الشمال بأطراف كيليكيا التراخية، وبامفيليا وليكيـا حتّـى منطقـة رودوس، ومـن الغـرب بجزيـرة الـرودوسيين، ومـن الشـرق بجـزء قـبرص القريـب مـن بافوس وأكامانث، ويتداخل من الجنوب مع البحر المصري.

2- يشـغل محـيط قـبرص 3420 مرحلـة، بمـا في ذلـك ثنيـات الخلجـان. وطـول الجزيـرة مـن كليدا حتّـى أكامانث، إذا اتّجهنا برّاً مـن الشـرق إلى الغـرب 1400 مرحلـة. وكليدا جزيرتان واقعتان أمام قبرص، قبالة الشطر الشـرقي مـن الجزيـرة، علـى مسـافة 700 مرحلـة مـن بيرامـوس. أمّـا أكامانـث فهـي رأس بحريـة لهـا قمتّـان شـبه دائريتـان، وعليها غابة كبيرة. وتقع هذه الرأس عند الأطراف الغربية للجزيرة، وتمتدّ شمالاً؛ وهـي أقـرب مـا تكـون إلى سـيلينونت في كيليكيـا التراخيـة، إذ تبلـغ المسـافة بينهمـا 1000 مرحلـة، بينمـا يشـكّل المعبر إلى سـيدا في بامفيليـا 1600 مرحلـة، وحتـى الخيليـدونيين 1900 مرحلـة. وتتخـذ الجزيـرة شـكلاً مستطيلاً؛ وهـي تشـكل في بعـض أماكنهـا بـرازخ: على الأضلاع التي تحـدّد عرضهـا. وتنقسـم الجزيـرة إلى أجـزاء منفصـلة سـأعطي لكـلّ منها وصفاً موجزاً، بدءاً من أقرب نقطة فيها إلى البرّ.

3- لقـد قلـت في مكـان سـابق[1]، إنـه ثمّـة قبالـة أنيموريـوس- رأس بحريـة في كيليكيـا التراخيـة - رأس بحرية للقبارصـة، وهـي تحديـداً رأس كـرميوس الواقعـة علـى مسافة 350 مرحلة. ومن هنا تتّجه الطريق البحرية إلى كليدا (على يمينها جزيـرة وعلـى يسارها بـرّ) مباشـرة نحـو الشـمال الشـرقي لتشـكّل 700 مرحلـة. وفي هـذا الفاصـل تقـع

مدينة لاباث وفيها محطة شراعية وتراسانات لإصلاح السفن وبنائها؛ وقد تأسّست هذه المدينة على أيدي اللاكونيين وبراكساندرس؛ وتقع قبالتها ناجيدس. وتأتي بعد ذلك أفروديسوس حيث تضيق الجزيرة، لأنّ المعبر إلى سلامين يبلغ 70 مرحلة. يلي ذلك ساحل الآخيين، حيث نزل تيفكروس مؤسّس سلامين في قبرص لأوّل مرّة بعد أن حكم عليه والده تيلامون بالنفي، كما يروى. وتأتي بعد ذلك مدينة كارباسيا وميناؤها، وتقع هذه المدينة قبالة رأس سربيدون البحرية. ويمتدّ المعبر من كارباسيا عبر البرزخ إلى الجزر الكارباسية والبحر الجنوبي على 30 مرحلة. ثمّ تأتي بعد ذلك رأس بحرية وجبل تدعى قمّته أوليمبوس؛ ويقوم على هذه القمّة معبد لأفروديت الأكريسية يمنع على النساء دخوله، بل يمنع عليهن النظر إليه. وقبالة الرأس على مقربة تقع كليدا وبعض الجزر الأخرى. ثمّ تأتي الجزر الكارباسية، وبعدها سلامين، مسقط رأس أريستوس المؤرّخ. وبعد ذلك تقع مدينة أرسينويا وميناء. ثمّ ميناء أخرى تدعى ليفكولا. تليها رأس بيداليس البحرية التي تعلو فوقها هضبة صخرية شاهقة لها شكل المعيّن، مكرّسة لأفروديت؛ ومن كليدا إلى هذه الهضبة 680 مرحلة. ويمتدّ بعد ذلك معبر بحري يقود إلى كيتيس، امتداده الأعظم مُلتو وصخري. وفي كيتيس ميناء مغلقة. وهذه المدينة هي مسقط رأس زينون مؤسّس المدرسة الرواقية، وأبوللونيوس الطبيب. ومن هنا إلى بيريت 1500 مرحلة. وأبعد إلى الأمام تقع مدينة أماثونس، وفي الفاصل تقع مدينة تدعى باليا وجبل الأوليمب الذي له شكل شبه دائري. وبعد ذلك تأتي رأس كوريادا البحرية التي لها مظهر شبه جزيرة، والمسافة من فرونا إلى هذه الرأس 700 مرحلة. ثمّ مدينة كوريوس ومحطتها الشراعية التي بناها الأرغيفيانيون. - ويمكننا أن نلاحظ هنا تهاون مؤلّف المرثاة التي مطلعها:

أيائل ثيبا المقدّسة التي شقّت طريقها عبر الأمواج الصاخبة،

وأسرعنا نحن لكي نتفادى السهام القاتلة؛

ومن غير المعروف ما إذا كان مؤلّفها هو جيديلوس أو شخص آخر؟ فهو يقول، إن الأيائل جاءت من سلسلة كوريكيا الجبلية وعامت من الشاطئ الكيليكي إلى الشاطئ الكوريادي، ثمّ يضيف:

معجزة عظيمة بالنسبة للناس: حملتنا زفيروس

على جناحيها إلى البعيد البعيد، من غير دروب،

عبر المجرى.

ولكن في حقيقة الأمر أنه يمكن الإبحار حول الجزيرة من كوريكيا حتّى الساحل الكوريادي، ولكن ليس مع زفيروس ومن غير أن تكون ثمّة جزيرة على يمينك أو على يسارك، لأنه ليس عبر البحر معابر بين هاتين النقطتين. وعلى أيّ حال فإن كوريوس هي بداية الطريق البحرية الغربية إلى رودوس؛ ثمّ نصل مباشرة إلى الرأس البحرية التي يرمون من فوقها الذين يدنّسون مذبح أبوللون. ثمّ تأتي تريتا، وبووسورا، وباليباثوس؛ وترتفع هذه الأخيرة قرابة 10 مراحل عن البحر، وفيها محطة شراعية وحرم قديم لأفروديت البافية. تلي ذلك رأس زيفيريا البحرية بمحطتها الشراعية، وأرسينويا أخرى مع محطتها الشراعية، وحرم وأرض مقدّسة. وغير بعيد عن البحر تقع هيروكيبيدا. ثمّ تأتي بافوس التي أسّسها آغابينور، وفيها ميناء وحرم مبنيّ بناء فخماً. وتقع المدينة على مسافة 60 مرحلة برّاً عن باليباثوس؛ وعلى هذه الطريق يجتمع الرجال والنساء من المدن الأخرى سنوياً في مواكب احتفالية تسير إلى باليباثوس؛ ويرى بعضهم أن المسافة من بافوس إلى الإسكندرية 3600 مرحلة. وبعد بافوس تأتي أكامانث. وبعدها نحو الشرق تأتي طريق بحرية تقود إلى مدينة أرسينويا وأرض مقدّسة لزيوس. وبعد ذلك تأتي مدينة سولا وميناؤها، ثمّ نهر وحرم لأفروديت وإيزيس. وقد أسّس المدينة الأثينيان فاليروس وأكامانثوس؛ ويدعى سكّان هذه المدينة سوليين. وينتمي إليها ستاسانور، أحد هيتيريس[2] الإسكندر الذي ارتقى إلى مرتبة قائد. وفوق سولا، في عمق البلاد تقع مدينة ليمينيا. ثمّ تأتي رأس كروميوس.

4- ما الذي يثير استغرابنا لدى الشعراء، خاصة الكتّاب الذين يولون الاهتمام الرئيس للأسلوب، إذا ما قارنّا بهم الأخبار التي ساقها داماستوس؟ فهو قاس طول الجزيرة من الشمال إلى الجنوب، من هيروكيبيا، كما يقول، حتّى كليدا. كما أن رأي إيراتوسفين ليس صحيحاً بدوره. فهو إذ ينتقد داماستوس يزعم أن هيروبيبيا[3] لا تقع في الشمال، إنما في الجنوب؛ بيد أنها في واقع الأمر لا تقع في الجنوب، بل في الجهة الغربية من الجزيرة، هناك حيث تقع أيضاً بافوس، وأكامانث. هذا هو موقع قبرص الجغرافي.

5- وفيما يخصّ خصوبة أرضها، لا تقصّر قبرص عن أيّ جزيرة أخرى. هي غنية حقّاً بالنبيذ، وزيت الزيتون، ولديها ما يكفي حاجة الاستهلاك المحلّي من الأقماح. وفي الجزيرة مناجم نحاس غنية تقع عند تاماس يستخرجون منها الزاج الأزرق والزنجار الذي له منافع طبية. وبحسب إيراتوسفين أن سهول الجزيرة كانت تغطيها في الزمن

القديم غابات كثيفة إلى حدّ جعلها غير صالحة للعمل الزراعي؛ ويمكن القول، إن تعدين المناجم قدّم مساعدة ما في هذا الأمر، لأنّ السكّان كانوا يقطعون الأشجار لأفران صهر النحاس والفضّة؛ والتحقت بهذه العملية بعد ذلك عملية بناء الأساطيل، لأنّ الإبحار كان قد بات آمناً بعد أن ظهرت السفن الحربية. ولكنّ القبارصة عجزوا عن وضع حدّ للغابات، فاضطروا للسماح لمن يشاء أو يستطيع قطعها، وجعلوا من المساحات النظيفة أراضي معفاة من الضرائب.

6- في الأزمنة الماضية كان يحكم في كلّ مدينة من مدن القبارصة تيران، ولكن منذ أن صار ملوك سلالة البطالمة إلى سادة مصر، وقعت قبرص تحت حكمهم بمساعدة متواترة من الرومان. وبما أن آخر بطليموس ملك هناك وهو عمّ الملكة كليوباترا المعاصرة لنا كان رجلاً سيّئ الطباع، وناكر جميل من أحسن إليه، فقد أطاحوا به عن العرش، واستولى الرومان على الجزيرة التي تحوّلت إلى مقاطعة رومانية خاصة يحكمها قاض. وكان المتسبب الرئيس في عملية الإطاحة بالملك المصري، هو بوبليوس كلاوديوس بولخر. فقد وقع هذا الأخير في أيدي عصابات القراصنة (لأن الكيليكيين كانوا عندئذ في أوج جبروتهم) وحينما طلب هؤلاء منه فدية، أرسل إلى الملك يطلب منه أن يدفعها ليطلق سراحه. ولكنّ الملك أرسل فدية هزيلة جداً، ولذلك عفّ القراصنة عن تسلّمها فردّوها إلى الملك واطلقوا الأسير مجاناً. وبعد أن نجح في تجاوز محنته بسلام، أضمر كلاوديوس ضغينة وقرر أن يردّ الصفعة للطرفين؛ ولمّا انتخب منبراً شعبياً، باتت بين يديه قوة مكّنته من إرسال مارك كاتون لانتزاع قبرص من مالكها الملك المصري. بيد أن الملك انتحر؛ ولمّا وصل كاتون إلى الجزيرة استولى عليها وأمر أن تباع أملاك الملك ثمّ أرسل ثمنها إلى خزانة روما. ومنذ ذلك الوقت تحوّلت قبرص إلى ولاية يحكمها قاض. وبقيت على حالها هذه دائماً، ما عدا فترة قصيرة منحها فيها أنطونيو ملكية خاصة لكليوباترا وأختها أرسينويا. ولكن بعد سقوط أنطونيو، سقطت معه أوامره وتعليماته كلها.



الكتاب الخامس عشر

الفصل الأول

1- إن الباقي من بلدان آسيا هو الأراضي الواقعة على ذلك الجانب من طوروس ما عدا كيليكيا، وبامفيليا، وليكيا، كلّ المناطق من الهند حتّى النيل بين طوروس والبحر الخارجي جنوباً[1]. وبعد آسيا تأتي ليبيا التي سأتحدّث عنها فيما بعد. أمّا الآن فيجب أن أبدأ من الهند، لأنها أوّل البلاد الواقعة في الشرق وأكبرها.

2- وينبغي على القارئ أن يتعامل بتسامح مع المعطيات التي سنسوقها عن هذه البلاد، لأنها أبعد البلدان عنّا، ولم يتح إلاّ لقلة من معاصرينا أن يروها. ولكن حتّى الذين رأوها، لم يروا فعلاً سوى أجزاء ما من هذه البلاد، أمّا أخبارهم عنها فأكثرها منقول عن روايات آخرين. وعلاوة على هذا، حتّى ما رأوه بأمّ العين كان على عجل في أثناء الحملة العسكرية. ولذلك نقلوا إلينا معلومات متضاربة عن المادّة عينها، لكنّهم دوّنوا الوقائع كلّها كأنها حقّقت بدقّة. وبعضهم كتب حتّى بعد مشاركة جماعية في الحملة ومكوث في هذه البلاد، ومثل هؤلاء على سبيل المثال، رفاق الإسكندر الذين ساعدوه في إخضاع آسيا. ومع ذلك غالباً ما يناقض هؤلاء الكتّاب بعضهم بعضاً. ولكن إذا كان هؤلاء يختلفون إلى هذه الدرجة في وصف ما رأوه بأمّ العين، فكيف ينبغي أن يكون موقفنا مما نقلوه سماعاً مما رواه الآخرون؟

3- إنّ أكثر الذين كتبوا شيئاً ما عن هذه البلدان في الأزمنة المتأخرة، وكذلك الذين أبحروا إلى هناك في زمننا الراهن، لا يقدّمون أيّ معطيات دقيقة. فأبوللودوروس الذي كتب «التاريخ البارثي» يذكر الإغريق الذين أعلنوا انتفاضة في باكتريانا ضدّ الملوك السوريين خلفاء سلوقس نيكاتور. ثمّ ينقل بعد ذلك، أن هؤلاء الملوك هاجموا حتّى الهند بعد أن اشتدّت شوكتهم وعلا شأنهم؛ ولم يكشف في غضون ذلك عن أيّ وقائع جديدة غير الوقائع المعروفة، بل يناقض هذه الوقائع نفسها.

فيزعم مثلاً ، أنهم استولوا على شطر من الهند أكبر من الشطر الذي كان قد استولى عليه المقدونيون. وعلى حدّ قوله إن إيثيكراتيس مثلاً، أخضع لسلطته 1000 مدينة. أمّا الكتّاب الآخرون فيزعمون أن تسع قبائل و5000 مدينة بين هيداسب وهيبانيس كانت خاضعة له، وأنّ أيّ مدينة من هذه المدن لم تكن أصغر من كوسوس الميروبية، وأن الإسكندر أخضع هذه البلاد كلّها ومنحها لبور.

4- إن التجار المعاصرين الذين يبحرون من مصر عبر النيل والخليج العربي إلى الهند، نادراً ما كانوا يصلون إلى الغانج، لكنّ هؤلاء أناس غير متعلّمين وغير مؤهلين البتّة لدراسة البلاد. ولم يأت من هناك سوى سفراء جاؤوا من منطقة واحدة ومن ملك واحد فقط هو بانديون (أو بور آخر)، حاملين الهدايا إلى قيصر أغسطس، إضافة إلى الحكيم الهندي الذي أحرق نفسه في أثينا(2) على غرار ما كان قد فعل كالان لكي يعرض مشهداً أمام الإسكندر.

5- وإذا ما أغفلنا مثل هذه القصص، وألقينا نظرة على وصف البلاد قبل حملة الإسكندر،فلعلّنا نجدها أقلّ عقلانية بكثير. ولكن من البدهي أن يكون الإسكندر المفعم بنشوة ذلك النصر كلّه، وهذا أمر طبيعي، قد صدّق مثل هذه القصص. وقد قال نيارخس في هذا السياق، إن الإسكندر الذي كان حبّ الذات يحرّكه، قد سعى بعزم وعناد وقاد قواته عبر هدروسيا، بعد أن علم أن سميراميس وقورش قادا حملة ضدّ الهنود، لكنّ الأولى عادت من هناك مهزومة وليس معها سوى 20 شخصاً، بينما عاد الأخير وليس معه سوى 7 أشخاص. وعليه فقد كان الإسكندر يفكر بالمجد الذي ينتظره فيما لو نجح بقيادة جيوشه ظافراً عبر تلك القبائل والأراضي ووصل بها سليمة كاملة، بينما لحقت بالذين سبقوه هزائم مأساوية هنا. وعليه فقد صدّق الإسكندر تلك القصص.

6- ولكن ما هو الأساس الذي يمكن أن يشكّل لدينا يقيناً بالقصص الهندية التي مصدرها حملة كحملة قورش وسميراميس؟ وعلى أيّ حال حتّى ميغاسفين يوافقنا الرأي إلى حدّ ما، فهو يقترح ألاّ نصدّق القصص القديمة التي تتحدّث عن الهنود. فعلى حدّ قوله إن الهنود لم يرسلوا يوماً جنودهم إلى خارج حدود بلادهم، كما لم تهاجمهم [قوات] من الخارج في أي وقت ولم تخضعهم، ما عدا القوات التي قادها هرقل وديونيسيوس، ثمّ القوات المقدونية مؤخراً. ولكنّ سيسوستريس المصري وتياركون الأثيوبي وصلا إلى أوروبا. أمّا نبوخذنصّر الذي نال لدى الكلدانيين مجداً أعظم من

مجد هرقل، فقد وصل حتّى الأعمدة؛ وبحسب ميغاسفين أن تياركون أيضاً وصل إلى هذه الأماكن، أمّا سيسوستريس فقد قاد حملة من إيبيريا إلى تراقيا والبونتس. وأخيراً، اجتاز إيدانفيرس السكيثي آسيا وصولاً إلى مصر. ولكنّ أيّاً من هؤلاء، على حدّ قول هذا الكاتب، لم يصل إلى الهند، وقد ماتت سميراميس قبل أن تحقّق حملتها. والحقيقة أن الفرس استجرّوا مرتزقة من الهند- الغيدراكيين، لكنّهم لم يشنّوا حرباً على تلك البلاد، وأقصى ما فعلوه، هو أنهم اقتربوا منها كثيراً في أثناء حملة قورش على الماساجيتيين.

7- وفيما يتعلّق بقصص هرقل وديونيسيوس، فإن ميغاسفين وبعض الكتّاب الآخرين يقرّون بصحّتها، لكنّ الأكثرية، ومنهم إيراتوسفين، ترى فيها روايات خيالية لا أساس لها من الصحّة، مثلها مثل الخرافات الأخرى الشائعة لدى الإغريق؛ ففي «باخوسيات» يوريبيدس مثلاً، يتفاخر ديونيسيوس على عادة الشبان قائلاً،

غادرت حقول ليديا الذهبية

و حقول فريجيا وبلاد الفرس

التي تحرقها أشعة الظهيرة،

وأسوار باكتريا والميديين،

واختبرت برد الشتاء، وزرت العرب،

وبلاد الآسيويين كلّها.

(الباخوسيات، مقطع 13)

ولدى سوفوكليس من يتغنّى بنيسا كجبل مكرّس لديونيسيوس:

من هنا بغيظ البشر الحمقى

رأى نيسا الماجد محاطاً.

أخذه ياكوس ذو القرنين مطعماً له،

فلا تسمع هناك شقشقة الطيور الصاخبة.

(مقطع 874، ناؤوك)

وهكذا دواليك. كما يدعونه «ميروترافيس»[3] أيضاً. وعلى النحو نفسه يتحدّث هوميروس عن ليكورغوس الإيدوني:

مرّة هاجم مرضعات باخوس العنيف غدراً؛



وطاردهن في نيسا الإلهي.

(الإلياذا VI، 132)

هــذه هي القصص التي تـروى عن ديونيسيوس. أمّـا هـرقـل فـإنّ بعـض الكتّـاب لا يتحـدّثون إلاّ عـن حملاتـه الـتي شـنّها بالاتجـاه المعـاكس، ووصـل فيهـا حتّـى أطـراف الأرض غرباً، بينما ينقل آخرون أنه وصل حتّى أطراف الأرض بالاتجاهين.

8- وقد أخذ الكتّاب من هذه القصص قبيلة ما ودعوها قبيلة النيسيين، ودعـوا مدينة هؤلاء نيسا، وزعموا أن مؤسّسها هو ديونيسيوس؛ ولسوء الطالع أنهم دعوا الجبل الذي يعلو فـوق المدينـة باسـم ميروس، متـذرّعين بـأن سـبب هـذه التسـمية، هـي عـرائش العنب واللبلاب التي تنمو هناك، علماً بأن عنبها لا تنضـج ثمـاره أبـداً. فالأمطـار الغزيـرة التي تهطل هنا تسقط عناقيد العنب عن عرائشها قبل أن تسـودّ وتنضـج. ويـرى هـؤلاء في السـيدراكيين أحفـاد ديونيسـيوس لأنّ عـرائش العنــب تنمـو في بلادهــم، ولأن فيهـا مواكـب زاخـرة، فملوكهم لا يكتفـون بشـنّ حمـلات خارجيـة، علـى منـوال المواكـب الباخوسـية، بـل تسـير المواكـب الأخـرى عنـدهم علـى وقـع دقّ الـدفوف، ويرتـدون فيهـا ملابس ملوّنة، وهو واحد من تقاليد الميديين الآخرين. وحينما استولى الإسـكندر بغـارة واحـدة علـى صـخرة آورن الـتي يجـري عنـد أسـفلها نهـر الهنـدوس، قـرب منابعـه، أعلـن مدّاحوه أن هرقـل نفسـه هـاجم هـذه الصـخرة ثـلاث مـرّات وفي كـلّ مـرّة كـان هجومـه يصدّ. وكان السيبيون أحفاد المشاركين في حملة هرقل، وعلى حدّ قولهم إنهم حافظوا على تقليد هـرقل بارتداء جلود الكـواسر، وحمل العصـيّ، ووشـم الـثيران والبغـال بالنـار وشماً علـى شـكل عصـا، كـدلالـة علـى منشـئهم الأصـل. ويحـاولون أن يرسـخوا هـذه الأسطورة بقصص عن القفقـاس وبروميثيـوس. وهـم فعـلاً ينقلـون إلى هنـا مـن البـونتس، مسرح أحداث هذه الأساطير على أساس ضعيف جدّاً: لقد اكتشـفوا في مكـان مـا مـن منطقة الباروباميسادس كهفاً مقدّساً. وادعوا أن هـذا الكهـف هـو سـجن بروميثيـوس؛ وإلى هنا على حدّ زعمهم، جاء هـرقل ليحرّر بروميثيوس، وأن هذا المكان هو القفقاس الذي أعلنه الإغريق سجن بروميثيوس.

9- وما يـدلّ علـى أنّ هـذه القصـص ليسـت سـوى اختـلاق أبدعتـه مخيّلـة متملقـيّ الإسكندر، هو أنّ المؤرّخين لا يتّفقون حيالها. فبعضهم يرويها، وبعضـهم الآخـر لا يـأتي على ذكرها أصـلاً. فـلا يعقـل ألاّ يكـون المؤرّخـون علـى علـم بمثـل هـذه المـآثر الشـهيرة

المليئـة بالاختلاقـات، وإذا كـانو علـى علـم بهـا، فمعنـى هـذا أنهـم رأوا أنهـا لا تسـتحقّ الـذكـر، ومـن هـؤلاء مـنْ يسـتحقون أكـبر الثقـة. وهـذا واضـح مـن عجـز الشـعوب الـتي تقطـن بـين الإغريـق والهنـود (وهـي الشـعوب الـتي كـان ينبغـي علـى ديونيسـيوس وهـرقـل ومرافقيهما، أن يعبروا أراضيها في حملتهم على الهند) عن أن تقدّم أيّ برهان يؤكّد أنهم مرّوا عبر أراضيها. وأخيراً، إنّ زيّ هرقل هذا يرقى إلى عهد أحدث بكثير من روايات طروادا، وهو ليس سوى اختلاق جاء به مؤلّفو «مآثر هرقل»، سواء كان هذا بيساندرس أو أي مؤلّف آخر. فتماثيل هرقل القديمة لا تقدّمه في هذا الزيّ.

10- وفي مثل هذه الأحوال يتأتّى لنا أن نأخذ بالروايات الأقرب إلى التصديق. وأنا كنت قد تحريت هذه المسألة في الأقسام الأولى من عملي هذا[4]، ولكن في حدود الإمكانيات المتاحة. وأريد الآن أن أعتمد المبادئ التي قررتها هناك بصفتها مبادئ مثبتة وأضيف إليها أخرى، بقدر ما هو ضروري لإيضاح الأمر. واستناداً إلى دراستنا السالفة نرى أن رواية إيراتوسفين الموجزة عن الأرض التي عدّوها في زمنه بلاد الهند، أي حينما هاجم الإسكندر هذه البلاد، هي الرواية الأقرب إلى التصديق؛ فنهر الهندوس كان عندئذٍ الحدّ الفاصل بين الهند وأريانا التي تقع أبعد نحو الغرب، وكانت هذه تابعة للفرس. وفيما بعد امتلك الهنود فعلاً شطراً كبيراً من أريانا منحهم إياه المقدونيون. وهاكم رواية إيراتوسفين عن الهند.

11- من الشمال تفصل الهند إلى حيّز يمتدّ من أريانا إلى البحر الشرقي آخر ذيول طوروس[5] التي يدعو السكّان المحلّيون كلّ جزء منها باسم خاص به: باروباميس، وإيمود، وإيماي وما إلى ذلك؛ ويدعوها المقدونيون بالقفقاس. ويشكل نهر الهندوس حدود الهند الغربية. أمّا جهتاها الجنوبية والشرقية فإنهما أكبر بكثير من جهتيها الأخريين، وتبرزان داخل البحر الأطلسي. وعلى هذا النحو يغدو شكل هذه البلاد شبيهاً بالمعيّن، ولكنّ كلّ ضلع من الضلعين الكبيرتين أكبر من الضلع الصغيرة التي تواجهها بـ 3000 مرحلة؛ وعلى هذا القدر من المراحل نفسه تمتدّ الرأس البحرية المشتركة بين الساحلين الشرقي والغربي، وهي تبرز لمسافة واحدة في الاتجاهين مقارنة بما تبقى من الساحل. ووفق ما هو متعارف عليه، أن طول الضلع الغربية من جبال القفقاس حتّى البحر الجنوبي 13.000 مرحلة، على طول نهر الهندوس حتّى مصبّه بحيث يصل طول الضلع الشرقية المواجهة، التي ينبغي أن نضيف إليها 3000 مرحلة أخرى، هي طول الرأس البحرية، إلى 16.000 مرحلة. وهذا هو طول البلاد

الأكبر وعرضها الأكبر أيضاً. ويحسب طول البلاد من غربيها إلى شرقيها. ويمكن تحديد جزء من هذا الطول حتّى باليبوفرا، بقدر أكبر من الدقّة، لأنه قيس بحبل للقياس وتُعدُّ الطريق الملكية التي تبلغ مسافتها 10.000 مرحلة. أمّا طول الأجزاء الممتدّة بعد باليبوفرا فهو يحسب بطريقة تقريبية أثناء الإبحار من البحر صعوداً في نهر الغانج حتّى باليبوفرا. وقد يشكل هذا الطول ما يقارب 6000 مرحلة. وعلى هذا النحو فإنّ طول البلاد، تحديداً طولها الأصغر، سيكون 16.000 مرحلة؛ وبحسب إيراتوسفين أن هذا الرقم مأخوذ من «سجلّ محطات الطرق»[6]، وهو عادة المصدر الأكثر دقّة. ويوافق إيراتوسفين في هذا ميغاسفين أيضاً، بينما يجعل باتروكلس الرقم أقلّ بألف مرحلة. وإذا ما أضفنا إلى هذه المسافة طول الرأس البحرية التي تبرز أبعد نحو الشرق، فإن هذه المراحل 3000 تشكل الطول الأعظم[7]. وهذا الأخير هو المسافة من مصبّ نهر الهندوس على طول الساحل الذي يليه وصولاً إلى الرأس البحرية المذكورة والأطراف الشرقية للهند حيث يقطن الكونياكيون.

12- ويتّضح من هذا مدى تباين ما نقله الكتّاب الآخرون. فكتيسيوس يزعم أن الهند ليست أصغر مما تبقى من آسيا؛ وبحسب أونيسيكريتيس أنها تشكّل ثلث المعمورة، أمّا نيارخس فيرى أن الرحلة في السهل فقط تستغرق أربعة أشهر. ولكنّ ميغاسفين وديماخ أكثر اعتدالاً في حساباتهما، لأنهما يفترضان أن المسافة من البحر الجنوبي حتّى القفقاس «أكثر من 20.000 مرحلة»، ويقول ديماخ، إنّ «المسافة في بعض المواقع أكثر من 30.000 مرحلة». وأنا كنت قد قدّمت اعتراضاتي على هؤلاء الكتّاب في الفصول الأولى من عملي هذا[8]. ويكفي الآن أن أشير إلى أنّ وجهة نظري تتوافق مع وجهة نظر الكتّاب الذين يتوسلون التساهل، وعندما يتحدّثون عن الهند لا يؤكّدون على أي شيء محدّد.

13- إن الأنهار تروي أراضي الهند كلّها، بعضها يلتقي بأكبر أنهار البلاد: نهر الهندوس ونهر الغانج، وبعضها الآخر يصبّ في البحر عبر مصبّه الخاص. وتتبع هذه الأنهار كلّها من القفقاس، فتجري بادئ ذي بدء جنوباً، ثمّ يواصل بعضها مجراه بعد ذلك في الاتجاه نفسه (روافد نهر الهندوس على وجه الخصوص)، بينما ينعطف بعضها الآخر شرقاً، كما يفعل نهر الغانج. فهذا الأخير ينبع من البلاد الجبلية، وإذ يصل إلى السهول ينعطف نحو الشرق ويجري قرب باليبوفرا، أكبر مدن الهند؛ ثمّ يصبّ بعد ذلك في البحر في هذه المنطقة وفي مصبّ واحد، وهو أكبر أنهار الهند. أمّا نهر

الهندوس فهو يصبّ في البحر الجنوبي عبر مصبّين، مطوّقاً في أثناء ذلك منطقة تدعى باتالينا تشبه الدلتا المصرية. وعلى حدّ قول إيراتوسفين، إنه نتيجة لأبخرة مثل هذه الأنهار الكبيرة، وتأثير الرياح الموسمية الاتجاه تروي أراضي الهند أمطار صيفية، وتتحوّل السهول إلى مستنقعات. وفي موسم الأمطار يبذرون الكتان والدخن؛ وإضافة إلى ذلك السيسام، والرزّ، والبوسمور[9]؛ ويرزرعون في فصل الشتاء القمح، والشعير، والبقول، وسوى ذلك من المحاصيل التموينية التي ليست معروفة عندنا. وفي إثيوبيا ومصر يربّون الحيوانات نفسها تقريباً التي يربّونها في الهند؛ فنلقى في أنهار الهند من الحيوانات النهرية كلّ الحيوانات الأخرى، ما عدا الجاموس النهري؛ ولكّن أونيسيكريتيس يقول، إن الجواميس النهرية أيضاً موجودة هناك. وفيما يتّصل بالسكّان، فإن الهنود الجنوبيون يشبهون الإثيوبيين من حيث لون البشرة، ويشبهون الناس الآخرين من حيث ملامح الوجه والشعر (شعرهم مسترسل بسبب رطوبة الهواء)، بينما يشبه الهنود الشماليون المصريين.

14- ويقولون إن تابروبانا جزيرة في عرض البحر تبعد عن أقصى الأجزاء الجنوبية من الهند، وعن أرض الكونياكيين سبعة أيام من الإبحار باتجاه الجنوب. والجزيرة تمتدّ باتجاه إثيوبيا بطول يقارب 800 مرحلة؛ وفيها تسرح الفيلة أيضاً. لقد كانت هذه هي أخبار إيراتوسفين عن الهند. وتضفي أخبار الكتّاب الآخرين المضافة إليها، والتي تدققها بهذا الشكل أو ذاك، تُضفي على وصفي لها طابعاً خاصاً.

15- فاونيسيكريتيس مثلاً يقول عن تابروبانا، إنّ حجمها 5000 مرحلة، من غير أن يميّز طول الجزيرة عن عرضها، ويقول إنها تبعد عن البرّ 20 يوماً من الإبحار؛ فالسفن تبحر هنا بصعوبة لأنها مزوّدة بأشرعة ضعيفة ومبنيّة من جهتيها من حوافّ في العنابر. وتوجد جزر أخرى بين تابروبانا والهند، لكنّ تابروبانا هي الأقصى جنوباً. وتسرح في ضواحي تابروبانا وحوش برمائية، بعضها يشبه الثيران، وبعضها الآخر يشبه الأفراس، وبعضها الثالث يشبه الحيوانات البرية الأخرى.

16- ويسوق نيارخس الأمثلة الآتية على الترسبات النهرية: لقد أخذت سهول جيرم، وكايستر، وميادرس، وكايك أسماءها هذه لأنّ الترسبات النهرية كانت تزيد من هذه السهول، بل الأرجح كانت تشكلّها، لأنّ الترسبات كلّها التي كانت تحملها الأنهار من الجبال (على شكل طمي)، كانت تربة خفيفة خصبة. ومن المعروف أنّ الأنهار تحمل الطمي نزولاً مع مجراها، ولذلك فإن هذه السهول تعدّ بمثابة نتاج لها،

وقد صدق تماماً قول القائل، إن السهول ملك الأنهار. ويتطابق قول نيارخس هذا مع ما قاله هيرودوت عن النيل والمنطقة المتاخمة له: إنها هبة النيل[10]. وعلى هذا الأساس يلاحظ نيارخس بحقّ أنهم دعوا النيل بالاسم عينه الذي حملته بلاد مصر.

17- ويقول أريستوبول، إن جبال الهند ومرتفعاتها فقط ترويها الأمطار وتغطيها الثلوج؛ أمّا السهول فإنها على الضدّ محرومة من الأمطار والثلوج، ولا يأتيها الماء إلاّ من فيضان الأنهار. ففي الشتاء تغطي الثلوج الجبال؛ ومع حلول الربيع يبدأ هطل الأمطار الذي يتزايد شيئاً فشيئاً، وفي موسم الرياح الموسمية يبدأ فيضانها الذي يتواصل ليل نهار من غير انقطاع وبقوة كبيرة حتّى بزوغ أركتور (نجم السِّماك الرامح. - ح. إ.)؛ فتروي الأنهار المملوءة بمياه الثلوج والأمطار السهول كلها. وعلى حدّ قوله إنه تسنّى له هو نفسه ولآخرين غيره رصد هذه الظاهرة حينما وصلوا إلى الهند آتين من أرض الباروباميسادس بعد غروب الثريا، وقضوا الشتاء على مقربة من منطقة جبلية في أرض الهيباسيين وأسّاكان، وفي أوّل الربيع نزلوا إلى السهول وإلى مدينة تاكسيلا الكبيرة، ومن هناك إلى نهر هيداسب، وإلى بلاد بور. ويواصل أريستوبول رواياته فيقول: إنهم لم يروا الماء في الشتاء، بل الثلج فقط؛ وقد هطل المطر أوّل ما هطل في تاكسيلا. وبعد أن نزلوا إلى هيداسب، وانتصروا على بور (لقد امتدّت طريقهم إلى نهر هيبانيس شرقاً، ومن هناك رجوعاً إلى هيداسب) هطلت أمطار متواصلة، خاصة في وقت الرياح الموسمية؛ لكنّ هطل الأمطار توقف مع بزوغ أركتور. وإذ تأخروا على نهر هيداسب بسبب بناء السفن، وبدؤوا إبحارهم قبل أيام من غروب الثريا، قضوا في الطريق الخريف كلّه، والشتاء، والربيع ووصلوا صيفاً إلى باتالينا حوالي وقت بزوغ الكلب[11]. وعلى هذا النحو، مع أنّ الإبحار تواصل 10 أشهر، إلاّ أنهم لم يروا الأمطار في أيّ مكان، حتّى حينما هبّت الرياح الموسمية بأقصى شدتها؛ أمّا السهول فقد كانت غارقة في مياه الأنهار الفائضة، ولم يكن الإبحار في البحر ممكناً، لأنّ الوقت كان وقت الرياح المعاكسة، ولم تهبّ من البرّ حتّى رياح خفيفة.

18- والرواية نفسها يرويها نيارخس؛ لكنّه لا يوافق أريستوبول بخصوص الأمطار الصيفية، إذ يؤكّد أن مياه الأمطار تروي الحقول صيفاً، وأنّ الأمطار لا تهطل في الشتاء. ويتحدّث الكاتبان عن فيضان الأنهار. وبحسب ما يقوله نيارخس، إنهم عند ما كانوا معسكرين قرب نهر أكيسين أرغموا على الانتقال إلى مكان آخر أعلى؛ وقد وقع هذا الحدث وقت الانقلاب الشمسي الصيفي. بل ويسوق أريستوبول قياس

مستوى ارتفاع المياه: 40 ذراعاً ملأت العشرون الأولى منها مجرى النهر إلى مستوى أعلى من مستوى العمق الأصل، حتّى الحوافّ، وشكّلت العشرون الثانية مستوى ارتفاع المياه في السهول. وبعد ذلك يتّفق الكاتبان على أن المدن الواقعة على قمم تلال صناعية تشكّل جزراً (على النحو الذي يحصل فيه هذا الأمر في مصر وإثيوبيا) ويقولان، إنهم على الرغم من أنهم يزرعون الأرض نصف جافة، إلاّ أنها مع ذلك تتفتت مع أوّل ضربة أداة، وتعطي غلالاً ناضجة ورائعة. وعلى حدّ قول أريستوبول، إنّ سنابل الرزّ تنتصب في الماء مباشرة داخل أحواض مسيّجة يبذر فيها. ويصل ارتفاع النبات إلى 4 أذرع، وهو يعطي سنابل كثيرة مليئة بالحبوب. ويُجنى محصول الرزّ وقت أفول الثريا، أمّا حبوبه فتدق كحبوب الحنطة. وينمو هذا النبات في باكتريانا، وبابل، وسوسيدا، كما في سوريا السفلى. وبحسب ميغيل أن الرزّ يبذر قبيل هطول المطر، لكنّ النبات يحتاج إلى ريّ وإعادة زراعة؛ وهم يروونه من أحواض مائية. ويقول أونيسيكريتيس، إن البوسمور نوع من الأقماح أصغر من الحنطة. وهو ينمو بين الأنهار. وبعد درس الحبوب يشوونها بعد أن يقسموا يميناً أنهم لن يخرجوا الحبوب من الجرن غير مشوية، لكي لا يتركونها بذاراً.

19- ويشير أريستوبول إلى أنّ هذه البلاد تشبه مصر وإثيوبيا، لكنّه يبرز بينها فرقاً يتمثّل في أن فيضان النيل يحدث بسبب الأمطار الجنوبية، بينما يحدث فيضان الأنهار الهندية بسبب الأمطار الشمالية. ويطرح بعد ذلك السؤال الآتي: لماذا لا تهطل الأمطار في البلدان الواقعة بينهما؟ والأمطار فعلاً لا تهطل في طيبايدا وصولاً إلى سيينا والأراضي الواقعة عند ميرويه، ولا في الهند على المدى الممتدّ من باتالينا حتّى هيداسب. ولكنّ المنطقة الواقعة فوق هذه الأجزاء، حيث تهطل الأمطار وتتساقط الثلوج، تحرث على حدّ قوله، كما تحرث البلدان الأخرى خارج الهند، لأنّ الأمطار والثلوج تروي الأرض هناك. ونحن نستطيع استناداً إلى ما ينقله أن نفترض بقدر من الشك، أن هذه البلاد تعرّضت لهزّات أرضية قوية، لأنّ غزارة المياه تجعل الأرض هشّة وتحدث فيها أخاديد، بحيث حتّى الأنهار تبدّل مجاريها. وهو على أيّ حال يقول، إنه لمّا أرسل في مهمّة ما، رأى بلاداً فيها أكثر من ألف مدينة وقرية وبلدة هجرها سكّانها، لأنّ نهر الهندوس ترك مجراه السابق وانعطف نحو اليسار في مجرى آخر أكثر عمقاً بكثير، واندفع هاوياً كالكاتاراكتيس[12]؛ ولذلك لم يعد الفيضان يغمر المنطقة التي تركها

النهر على يمينه، لأنها باتت الآن أعلى من مجراه الجديد، وأعلى من مستوى المياه وقت الفيضان.

20- وتلتقي معطيات أونيسيكريتيس مع هذه الأخبار عن فيضانات الأنهار وعدم وجود الرياح التي تهبّ من البرّ. فهذا الأخير يؤكّد أن شاطئ البحر ضحل، خاصة عند مصبات الأنهار، بسبب الترسبات النهرية والمضائق وغلبة فاعلية الرياح التي تهبّ من عرض البحر. وبعد أن يؤكّد ميغاسفين على خصوبة أرض الهند، يشير إلى أنّ الأرض تعطي هناك محصولين مضاعفين في كلّ عام. وهذا ما يؤكّده أيضاً إيراتوسفين الذي يدعو أحد البذارين شتوياً والآخر صيفياً (وكذلك موسميِّ الأمطار). فيقول، حقّاً لا يمرّ أيّ عام من غير هطول الأمطار في هذين الفصلين. ومن هنا تأتي سنون الوفرة، لأنّ الأرض لا تبقى قاحلة أبداً. كما تعطي الأشجار المثمرة بدورها وفرة كبيرة من الثمار؛ وتوجد أيضاً وفرة عظيمة من جذور النباتات، خاصة القصب الكبير؛ وهي حلوة المذاق سواء كانت مطبوخة أو غير مطبوخة، لأنّ الشمس تسخّن ماء المطر وماء الأنهار. ولذلك يريد إيراتوسفين أن يقول بمعنى ما، إن العملية التي تدعى لدى الآخرين «نضوج الثمار أو العصائر»، يدعوها الهنود «طبخ» الثمار، ويحصلون لدى «نضج» الغلال على طعم لذيذ كما لو كانت هذه قد أعدّت على النار. ويقول أيضاً: لهذا السبب فإنّ غصون الشجر مرنة طيّعة إلى درجة أنهم يصنعون منها أطراً للعجلات، ولهذا السبب عينه يظهر «الوبر»[13] على بعض الأشجار. ومن هذا «الوبر» يصنعون بحسب نيارخس، منسوجات دقيقة محوكة حياكة متقنة؛ وقد استخدمها المقدونيون بدلاً من الوسائد، وحشو بها سروج خيولهم. ومن النوع نفسه منسوجات «الأطواق» من «الفيسّون»[14] الذي يسحجونه من لحاء ذي نوعية معروفة. وهو يتحدّث عن قصب يعطي عسلاً من غير نحل[15]؛ والحقيقة أن هذه الشجرة شجرة مثمرة يستخرجون العسل من ثمارها، لكنّ ثمارها تسكر من يأكلها نيئة.

21- وثمّة في الهند كثير من الأشجار الغريبة بينها واحدة أغصانها تنحني إلى الأرض، وأوراقها ليست أصغر من الترس. وبشيء من التفصيل الزائد يصف أونيسيكريتيس بلاد موسيكان عاداً إياها أقصى أجزاء جنوبي الهند. ويروي أنّ هناك أشجاراً ما كبيرة يصل طول أغصانها إلى 12 ذراعاً؛ وهي تواصل بعد ذلك نموها نحو الأسفل حتّى تبدو وكأنها تنحني حتّى تلامس الأرض. وبعد ذلك تفترش الأرض ثمّ تغرس فيها جذوراً؛ ومن ثمّ تصعد ثانية لتشكل جذعاً؛ وتعيد الأغصان التي تنبت على

هذا الجذع الدورة نفسها فتنحني لدى نموّها، وتغرس جذوراً جديدة، تشكل جذعاً جديداً، وهكذا دواليك حتّى تتشكّل من شجرة واحدة مظلّة كبيرة كالخيمة لها كثرة من الدعائم(16). ويقول عن حجم هذا الشجر، إنه يصعب على خمسة أشخاص أن يحيطوا بجذع واحدة منها. ويذكّر أريستوبول، بأنه على مقربة من أكيسين وقراه مع هياروتيدا، توجد أشجار غصونها تنحني حتّى تلامس الأرض، وأنها كبيرة بما يكفي ليتفيأ في ظلها خمسون فارساً طول وقت الهاجرة (بل 400 فارس، بحسب أونيسيكريتيس). ويروي أريستوبول عن شجرة ليست كبيرة الحجم تحمل قروناً كالفول طول الواحد منها 5 أصابع، وهي مليئة بالعسل؛ لكنّ الذين حاولوا أن يتذوّقوا هذه القرون، نجوا من الموت بصعوبة. وعلى أيّ حال فإن المبالغة في قصص أحجام الشجر تجاوزها كلّها الكتّاب الذين يقولون، إنهم رأوا شجرة وراء هياروتيدا ترمي وقت الظهيرة ظلاً طوله 5 مراحل. وفيما يخصّ الأشجار التي تعطي «وبراً»، يلاحظ أريستوبول، أن في زهرتها بذرة إذا ما انتزعت يمكن سحج ما يتبقّى كما يسحج الوبر.

22- ويقول أريستوبول، إنّ الحبوب في بلاد موسيكان تشبه القمح، فهي تنمو برية، وكذالك عرائش العنب التي تعطي النبيذ، مع أن روايات الكتّاب الآخرين تقول، إنه ليس في الهند نبيذ. ولذلك لا تلقى هناك بحسب أناخارسيس، لا مزامير ولا أي آلة موسيقية أخرى ما عدا الصنوج، والدفوف، والخشخيشات التي يستخدمها المشعوذون. ويتحدّث هو وكتّاب آخرون عن كثير من العقاقير، والجذور الدوائية والمؤذية، كذلك عن كثيرات الأزهار. ويضيف أريستوبول إلى ذلك، أنّ لدى الهنود قانوناً يقضي بإعدام كلّ من يبتكر عقاراً قاتلاً إذا لم يبتكر في الوقت نفسه ترياقاً له؛ أمّا من ابتكر الترياق فيحصل على مكافأة من الملوك. وفي جنوبي الهند تلقى القرفة، والنرد(17) وسوى ذلك من المواد العطرية، كما هي الحال في العربية وإثيوبيا؛ لأنّ جنوبي الهند يشبه هذين البلدين من حيث قيظ الشمس، لكنّه يختلف عنهما بوفرة المياه؛ فالهواء هناك رطب وأكثر تغذية وأكثر ملاءمة للإخصاب، مثله مثل الأرض والماء. ولهذا تبدو الحيوانات المائية والحيوانات البرّية في الهند أكبر حجماً من مثيلاتها في البلدان الأخرى. كما أنّ النيل أكثر قدرة من غيره من الأنهار الأخرى على إنجاب الكائنات الحية، ومن بين الحيوانات الكبيرة، ينجب البرمائية خاصة. وفي بعض الأحيان تضع النسوة المصريات أربعة توائم مرّة واحدة؛ بل يروي أرسطو أن

إحداهن وضعت سبعة توائم، ويصف النيل بأنه كثير الإنجاب ومغذّياً بسبب اعتدال قيظ الشمس الذي يبقي على العناصر الغذائية كلّها، ويرغم الفائض منها على التبخّر.

23- وبحسب أرسطو أنه ربّما تكون الواقعة الآتية مرتبطة بهذا: مقارنة بماء الأنهار الأخرى يمكن أن يعدّ الطعام بماء النيل على نصف نار. ويواصل قائلاً، فمياه النيل تجري على خطّ مباشر عبر حيّز من الأرض ضيّق وطويل، وتغيّر في طريقها كثيراً من مناطق العرض والطول، بينما أنهار الهند على الضدّ من هذا، تفيض في سهول أكبر وأكثر اتساعاً، وتبقى طويلاً في دوائر العرض عينها لذلك فإن أنهار الهند أكثر تغذية من النيل. والحيونات المائية في الهند أكبر وأكثر عدداً، وتهطل من الغيوم هنا مياه مسخّنة.

24- وما كان أريستوبول وأنصاره ليوافقوا على هذه الموضوعات، فهم يزعمون أن الأمطار لا تروي السهول. وبحسب أونيسيكريتيس أنّ مياه الأمطار تحديداً، هي سبب خصوصية الحيوانات وفرادتها هنا؛ ويسوق تبدّل لون الحيوانات غير المحلّية التي تشرب من هذه المياه، ليصبح كلون الحيوانات المحلّية، برهاناً على صحّة استنتاجه. وهو في هذا محقّ، لكنّه ليس، محقاً البتّة إذ يرى أن سبب اللون الأسود والشعر الأجعد لدى الإثيوبيين، هو الماء فقط، وينتقد ثيوديكتوس الذي يعيد سبب هاتين الخاصتين إلى الشمس. فثيوديكتوس يقول:

قرب حدودهم تنهي الشمس طريقها،

وتلوّن باللون الأسود الجليّ

أجساد الرجال، وتعقد شعرهم خواتم،

لتصوغ شكلهم بنار لا تخبو.

(مقطع 17، ناؤوك)

ولكن مع ذلك قد يكون أونيسيكريتيس محقاً في زعمه. فبحسب رأيه أن الشمس ليست أقرب إلى الإثيوبيين منها إلى الشعوب الأخرى، لكنّها تقف فوقهم عمودية، بالتالي حرارتها أقوى. ولذلك ليس صحيحاً القول، إنّ الشمس «جار قريب» لهم، لأنها تقع على مسافة واحدة من الشعوب كلّها. كما لا تعدّ الحرارة سبب مثل هذه الظاهرة؛ فالحرارة لا تؤثّر على الأجنّة في أرحام الأمهات، لأنّ أشعّة الشمس

لا تتسرّب إلى هناك. والأكثر صحّة ما يقوله الذين يردّون سبب اللون الأسود إلى تأثير الشمس ولفحها في ظل وجود نقص كبير في رطوبة سطح الجلد. ولذلك فإني أزعم أن شعر الهنود لا يتجعّد وبشرتهم ليست ملفوحة بشدّة لأنّ الهواء المحيط بهم محمّل بالرطوبة. أمّا فيما يخصّ رحم الأم، فإن نقل البذرة إلى هناك يؤدّي إلى تشكّل جنين يشبه الوالدين. وعلى هذا النحو يفسّرون الأمراض الولادية وسوى ذلك من أنواع الشبه. فالزعم بأنّ «الشمس تقع على مسافة واحدة من الشعوب كلّها»، لا يقوم إلاّ على أساس الإدراك الحسي، وليس على أساس الاستنتاج العقلي. وحتى انطلاقاً من الإدراك الحسي لم يأت الأمر مصادفة، بل على غرار قولنا، إن الأرض ليست أكبر من نقطة إذا ما قورنت بكرة الشمس. ووفق هذا النوع من الإدراك الحسّي الذي نشعر عبره بتفاوت درجات الحرارة (عن قرب- الحرارة أشد، وعن بعد، أضعف)، فإن بعد الشمس عن الجميع ليس واحداً. وعليه، بهذا المعنى فقط يمكن أن نتحدّث عن الشمس «كجار قريب» للإثيوبيين، وليس بالمعنى الذي افترضه أونيسيكريتيس.

25- وتنتمي الواقعة التالية بدورها إلى عداد الظاهرات المعترف بها التي تؤكّد على التشابه بين الهند من جهة، ومصر وإثيوبيا من جهة أخرى: كلّ السهول التي لا يغمرها الفيضان عقيمة بسبب نقص الرطوبة. وبحسب نيارخس أن الإجابة على السؤال الذي طرح من قبل بالنسبة للنيل، وتحديداً السؤال عن منشأ فيضانه، تقدمها أنهار الهند، لأنّ فيضانها تحدثه الأمطار الصيفية. ويواصل هذا الكاتب حديثة فيقول: لمّا رأى الإسكندر التماسيح في هيداسب، وكلاب الماء المصرية في أكيسين، قرر أنه وجد منابع النيل، وشرع يعدّ أسطولاً للإبحار إلى مصر، ظنّاً منه أنه يمكن أن يصل إلى مصر عبر هذا النهر. لكن؛ سرعان ما اقتنع بأن آماله لن تتحقّق. لأنّ

الأنهار مريعة، والتيارات عظيمة، ومياه المحيط

هنا لا قرار لها،

(*الأوذيسا* XI، 157)

ولا تصبّ فيه الأنهار الهندية كلّها. وتأتي بعد ذلك أريانا، والخليج الفارسي، والخليج العربي، ثمّ العربية نفسها وبلاد التروغلوديتيين. إن تلك كانت قصص الرياح، والأمطار، وفيضانات الأنهار على السهول.

26- وإذ أتحدّث عن الأنهار ينبغي عليّ أن أدخل في بعض التفاصيل، بقدر ما

يكون هذا مجدياً بالنسبة للجغرافيا، وبقدر ما حصلت عليه من معلومات عنها. فالأنهار كشكل من أشكال الحدود الطبيعية التي تحدّد شكل البلدان وحجمها، صالحة جدّاً لأغراض وصفنا الراهن. وللنيل وأنهار الهند ميزة معيّنة أمام الأنهار الأخرى، فهذان البلدان لولا هذه الأنهار لما كانا صالحين للملاحة والعمل الزراعي، ولما كانا بالتالي مسكونَيْن بالبشر كما هما الآن؛ ولكان الانتقال فيهما غير ممكن. ومن أشهر الأنهار نهر الهندوس؛ والبلدان التي تتدحرج فيها أمواجها معروفة لنا؛ أمّا فيما يخصّ الأنهار الأخرى، فما نعرفه عنها أقلّ مما لا نعرفه. وكان الإسكندر قد عمل أكثر من جميعهم لاكتشاف هذه الأصقاع. ففي أوّل الأمر، عندما عزم قتلة داريوس (الذين قتلوه غدراً) على إعلان الانتفاضة في باكتريانا، قرر الإسكندر أنه من الأفضل ملاحقتهم والقضاء عليهم. ولهذا السبب اقترب من الهند عبر أريانا؛ وإذ ترك الهند على يمينه، عبر باروباميس إلى المناطق الشمالية ومنها إلى باكتريانا. وبعد أن أخضع كلّ الأراضي التابعة للفرس هناك (بل أكثر منها)، عزم لأوّل مرّة على الاستيلاء على الهند، لأنّ كثيراً من مرافقيه[18] كانوا قد وصفوا له هذه البلاد، وإن لم يكن وصفهم لها واضحاً. وعلى هذا النحو رجع عبر الجبال نفسها، ولكن في طريق أقصر، جاعلاً الهند على يساره في هذه المرّة؛ وانعطف بعد ذلك مباشرة نحو الهند، إلى حدودها الغربية، إلى نهر كوفا، ونهر هواسب الذي يصبّ في نهر كوفا قرب مدينة بليميري، ثمّ يمرّ بعد ذلك قرب مدينة غوريدا ماراً بعدها عبر باندوبينا وغانداريتيدا. وقد علم الإسكندر أن المنطقة الجبلية والمنطقة الشمالية هما الأكثر سكّاناً وخصوبة، أمّا المنطقة الجنوبية فعلى العكس، لأنّ جزءاً منها ليس فيه ماء، والجزء الآخر يتعرّض للفيضانات وتحرقه أشعة الشمس تماماً، ولذلك فهو أكثر ملاءمة لعيش الوحوش منه لعيش البشر. ومهما كان الأمر، إلاّ أن الإسكندر بدأ حملته بهدف الاستيلاء على هذه البلاد الشهيرة أوّلاً، آملاً في الوقت نفسه أن يكون عبور الأنهار التي كان قد اجتازها أفضل عند منابعها، لأنها كانت تجري بشكل عرضانيّ لتقطع البلاد التي أراد هو أن يخترقها. وقد سمع في الوقت نفسه أن بعض الأنهار يلتقي في مجرى واحد، فتصبح أكبر وتجري أبعد بحيث يغدو عبور البلاد أكثر صعوبة، خاصة في ظلّ نقص أعداد السفن. وخشية ذلك عبر الإسكندر نهر كوفا وشرع بإخضاع المنطقة الجبلية التي تتّجه شرقاً.

27- ويأتي بعد كوفا الهندوس، وهيداسب، وأكيسين، وهياروتيدا، وأخيراً

هيبانيس. وقد أعاق الإسكندر عن التقدم أكثر أوّلاً، احترامه لبعض المتنبّئين، ثانياً، كان مرغماً على إيقاف زحف قواته التي ما عادت قادرة على تحمّل صعوبات الحملة. وأكثر ما أرهق الجنود، هو الرطوبة وتواصل هطول الأمطار الشديدة الغزارة. وعلى هذا النحو تكون قد باتت معروفة لنا من أصقاع شرقي الهند كلّ المناطق الواقعة على هذا الجانب من هيبانيس، بل وبعض الأراضي الواقعة وراءه، وقد أضاف معلومات عنها أولئك الذين توغلوا إلى هناك بعد الإسكندر، فتجاوزوا هيبانيس ووصلوا حتّى الهندوس، وباليبوفرا. وبعد كوفا يجري الهندوس. ويشغل الأستانكينيون، والماسيانيون، والنيسيون، والهيباسيون المناطق الواقعة بين هذين النهرين. وتأتي بعد ذلك بلاد أسّاكان حيث تقع مدينة ماسوها عاصمة هذه البلاد. وتلي ذلك عند الهندوس مباشرة مدينة أخرى، بيوكولايتيدا التي بنوا جسراً على مقربة منها، وعَبْر هذا الجسر عَبَر الإسكندر بقوّاته.

28- وبين الهندوس وهيداسب تقع تاكسيلا، وهي مدينة كبيرة لها قوانين رائعة، وتحيط بها ضاحية شاسعة تربتها خصبة وتتّصل مباشرة بالسهول. لقد استقبل السكّان وملكهم هنا الإسكندر استقبالاً ودّياً، فتلقوا منه لقاء ذلك الودّ هدايا أكثر من التي قدموها له، فأثار ذلك غيرة المقدونيين حتّى أنهم قالوا: يبدو أنه لم يكن لدى الإسكندر من يحسن إليه قبل عبوره الهندوس. وقد زعم بعض الكتّاب إنّ هذه البلاد أكبر من مصر. وفوق هذه البلاد، في الجبال، تقع بلاد أبيسار، الذي قال الشعراء الذين جاؤوا من عنده، إنه يقتني ثعبانين طول أحدهما 80 ذراعاً، وطول الآخر 140 ذراعاً، كما يقول أونيسيكريتيس. وعلى الأغلب إنه ينبغي أن يدعى هذا الأخير الربّان الرئيس للخزعبلات، وليس الربّان الرئيس لدى الإسكندر. فمع أنّ مرافقيّ الإسكندر كلهم كانوا يفضلون فعلاً الاستماع إلى القصص الخرافية بدلاً من الروايات الحقيقية، إلاّ أنه يبدو أنّ أونيسيكريتيس قد فاق جميعهم في ميدان الخرافات. بيد أنه على وجه العموم ينقل أشياء يمكن أن تكون معقولة، وتستحقّ الذكر، ولذلك حتّى الذي لا يصدّقه لا يستطيع أن يتجاهل رواياته. وعلى أيّ حال فإنّ كتّاباً آخرين تحدّثوا عن الثعابين، وقالوا إن الهنود يصيدونها في الجبال الإيمودية ويحتجزونها في الكهوف.

29- وبين هيداسب وأكيسين تقع بلاد بور، وهي بلاد شاسعة وخصبة؛ فيها ما يقارب 300 مدينة، وعلى مقربة من الجبال الإيمودية تمتدّ الغابة التي أمر الإسكندر أن

تُقطع منها كمّية كبيرة من الشوح، والصنوبر، والأرز وسوى ذلك من مختلف أنواع الأخشاب الصالحة لبناء السفن، وتعويمها إلى هيداسب؛ وبنى من هذه الأخشاب أسطولاً على نهر هيداسب قرب المدن التي كان قد بناها على ضفّتي النهر، وحيث هزم بور فور عبوره إياه. وقد دعا واحدة من تلك المدن بوكيفاليا، على اسم حصانه الذي سقط في المعركة مع بور (لقد كان الحصان يدعى بوكيفالوس[19]، لأنّ مقدّمة رأسه كانت عريضة؛ وكان هذا جواداً حربياً ممتازاً كان الإسكندر يخرج عليه إلى المعارك دائماً)؛ ودعا المدينة الثانية نيقيا، على شرف النصر الذي حقّقه. وبحسب الحكايات، أن الغابة المذكورة فيها أعداد كبيرة من القردة المهولة الحجم التي لها ذيل[20]، ولذلك عندما رآها المقدونيون يوماً مصطفّة في أنساق قتالية على تلال عارية (لأن هذه الحيوانات تمتلك عقلاً بشرياً لا يقل عن ذلك الذي تملكه الفيلة)، هُيِّئ لهم أن أمامهم قوات من البشر. فاندفعوا ضدّ القردة كاندفاعهم لمهاجمة الأعداء، ولكن ما إن عرفوا الحقيقة من تاكسيل (الذي كان حينئذٍ عند الإسكندر)، حتّى توقفوا. وعادة ما يصيدون هذه الحيوانات بطريقتين. فهذا القرد يهوى المحاكاة ويلجأ هارباً من الأخطار إلى أعالي الشجر. وإذ يراها الصيادون جالسة هناك، يضعون على مرآى منها وعاء فيه ماء ويغسلون أعينهم به. ثمّ يستبدلون بالماء كأساً من الصمغ ويبتعدون قليلاً ليراقبوا القردة عن بعد. وما أن تقفز هذه من فوق الشجرة وتطلي أعينها بالصمغ ثمّ ترمش كالمعتاد حتّى تلتصق أجفانها، عندئذٍ يأتي الصيادون ويصيدونها حيّة. وهذه هي إحدى طريقتي صيد القردة، ولكن هناك طريقة أخرى يرتدي فيها الصيادون أكياساً تشبه السراويل، ويأخذون ناحية جانبية تاركين أكياساً أخرى مطلية من الداخل بالصمغ. وعندما ترتدي القردة هذه الأكياس، يغدو اصطيادها سهلاً.

30- ويوضّع بعضهم بين هذين النهرين كافيا وبلاد سوبيف، أحد الحكّام المحلّيين، بينما يوضّع آخرون هنا المنطقة الممتدة على ذلك الجانب من نهر أكيسين ونهر هياروتيدا والمجاورة لبلاد بور آخر هو ابن عم بور الذي أخذه الإسكندر أسيراً. وتدعى البلاد الخاضعة لحكمه هانداريدا. ويروى عن كافيا أن سكّانها يقدّرون عالياً جمال الخيل والكلاب. ويقول أونيسيكريتيس، إنهم يختارون أجمل شخص ملكاً، ويصدرون أحكاماً علنية بحق كلّ مولود يبلغ الشهر الثاني من عمره يحدّدون فيها ما إذا كان يتمتّع بمستوى الجمال الذي يحدّده القانون وهل يستحقّ العيش أم لا.

ووفق الحكم الصادر عن الموظف المكلّف بهذا الأمر، يبقى الطفل على قيد الحياه أو يقتل. ويلوّن رجال هذه البلاد لحاهم بألوان متنوّعة لكي يظهروا أكثر جمالاً. ويلتزم هذه العادة التزاماً دقيقاً كثير من الهنود الآخرين (لأن بلادهم تنتج ألواناً بديعة)، فيلوّنون شعرهم وثيابهم. وعلى الرغم من أنّ السكّان يتميّزون على وجه العموم بالبساطة، إلاّ أنّهم يحبون التزيّن إلى حدّ الولع. ويروى عن عادة شائعة لدى الكافيين هي الآتية: يختار العريس والعروس بعضهما بعضاً، وتحرق الزوجة مع الزوج المتوفّى، لأنهم يزعمون أن الزوجات وبسبب عشقهن شباباً، كنّ يهجرن أزواجهن أو يدسسن لهم السم فيقتلنهم. وقد أقرّ الكافييون هذا القانون سعياً منهم لوضع حدّ لسلوك الزوجات هذا. وعلى أيّ حال فإن مثل هذه الحكايات، سواء عن القانون نفسه أو عن سبب إقراره، ليست سوى حكايات لا تستحقّ الثقة. ويروى أنّ في بلاد سوبيف جبل يحتوي على كميات من الملح الصخري تكفي الهند كلّها. وليس بعيداً عنه، في جبال أخرى، مناجم ذهب وفضّة ذائعة الصيت، كما يؤكّد المعدّن الشهير هورغ. وبما أنّ خبرة الهنود في التعدين وصهر المعادن ضعيفة، لذلك فهم يديرون العمل في هذا الميدان بإسراف؛ كما أنهم لا يعرفون الكثير عن ثروات بلادهم.

31- ويتحدّثون عن شجاعة كلاب بلاد سوبيف الفائقة. فيروى أن الإسكندر تلقّى 150 كلباً هدية من سوبيف، وفي إطار اختبار شجاعتها أثاروا اثنين منها على أسد؛ ولمّا هزمهما الأسد أثاروا اثنين آخرين ضده، عندئذٍ تعادلت قوى الخصوم فأمر سوبيف بإخراج أحد الكلبين من المعركة بسحبه من قدمه، وإذا عاند، تقطع رجله. وفي بادئ الأمر تعاطف الإسكندر مع الكلب ولم يوافق على قطع رجله؛ ولكن بعد أن قال له سوبيف أنه سيعطيه بدلاً منه أربعة كلاب وافق الملك وأجاز أن تقطع رجله ببطء قبل أن يهاجم ضحيته وينهشها.

32- لقد كان القسم الأكبر من الطريق إلى هيداسب يتّجه جنوباً، ومن هناك إلى هيبانيس تتّجه أكثر نحو الشرق؛ وعلى وجه العموم كانت الطريق تمتدّ على سفوح المرتفعات أكثر منها عبر السهول. ومهما كان الأمر، إلاّ أنّ الإسكندر قفل عائداً إلى هيداسب وإلى المحطة الشراعية التي بنى فيها أسطوله، ثمّ أبحر في هيداسب. إن الأنهار التي ذكرناها تصبّ كلّها في نهر واحد هو نهر الهندوس، وهيبانيس آخرها. ويقولون، إنّ مجموع روافد الهندوس 15 رافداً لها أهميتها. وبعد أن يستقبل النهر مياه هذه الروافد كلّها، يتسع في بعض المواقع ليبلغ عرضه بحسب

الكتّاب الذين لا يتقيّدون بالمعايير 100 مرحلة، وبحسب الكتّاب الأكثر حرصاً 15 مرحلة، والتقدير الأقلّ 7 مراحل (يعيش قرب هذا النهر كثير من الأقوام، ويقع عليه كثير من المدن)، ثمّ يصبّ النهر بعد ذلك في البحر الجنوبي عبر مصبّين، مشكلاً جزيرة تدعى باتالينا. لقد اتخذ الإسكندر قراره[21] وامتنع عن التوغل في المناطق الشرقية، أوّلاً، لأنّ عقبات واجهته في عبور هيبانيس، ثانياً، لأنّ تجربته أقنعته بعدم صحّة الشائعات التي كان فيما مضى يوليها أهمية، من قبيل الشائعة التي تقول، إنّ الشمس تحرق المناطق السهلية وإنّ هذه تلائم أكثر ما تلائم عيش الوحوش وليس عيش البشر. ولهذا دخل الإسكندر المناطق السهلية عازفاً عن المناطق الشرقية، فغدت الأولى معروفة لنا أكثر من الثانية.

33- وبحسب الروايات أن الأراضي الواقعة بين هيبانيس وهيداسب تشغلها تسع قبائل، وأن فيها 5000 مدينة، وكلّها ليست أصغر من كوسوس التي في ميروبيدا؛ ولكن من الواضح أن هذا الرقم مبالغ فيه. وأنا كنت قد تحدّثت عن البلاد الواقعة بين الهندوس وهيداسب[22]، وأشرت إلى ما يستحقّ الذكر من الشعوب التي تسكن هناك. وبعدها نحو الأسفل يعيش الذين يدعونهم سيبيين (وكنت قد ذكرتهم أيضاً)[23]، وماليّين، وسيدراكيين، وهؤلاء قبائل كبيرة. وفي أرض الماليّين تعرّض الإسكندر لخطر قاتل بينما كان يعاني من جرح تلقّاه لدى الاستيلاء على إحدى المدن الصغيرة. وأنا كنت قد قلت عن السيدراكيين[24] إنّ الأساطير تقدّمهم أقارب ديونيسيوس. ويقولون، إن بلاديّ موسيكان وساب تقعان على مقربة من باتالينا نفسها، وتقع هناك أيضاً بلاد السيندومانيين، وكذلك بلاد بورتيكان وسواها من بلدان الذين يعيشون على امتداد منطقة الهندوس (وقد هزمهم الإسكندر كلهم). والمنطقة الأخيرة، هي باتالينا التي يشكلها الهندوس الذي ينقسم إلى مصبّين. وبحسب أريستوبول، أن هذين المصبّين يبعد واحدهما عن الآخر 1000 مرحلة. ويزيد نيارخس على هذا الرقم 800 مرحلة أخرى. ويحدّد أونيسيكريتيس كلّ ضلع من أضلاع الجزيرة المثلثة الشكل المحصورة بينهما بألفي مرحلة، وعرض النهر في النقطة التي يتفرّع فيها إلى مصبّين بما يقارب 200 مرحلة. وهو يدعو الجزيرة دلتا، لكنّه يخطئ إذ يعدّها كالدلتا المصرية من حيث الحجم. ففي واقع الأمر يعتقدون أن قاعدة الدلتا المصرية 1300 مرحلة، وأن كلّ ضلع من أضلاعها أصغر من القاعدة. وفي باتالينا مدينة كبيرة، هي باتالا التي دعيت الجزيرة باسمها.

34- وبحسب أونيسيكريتيس أن القسم الأكبر من شاطئ هذا الجزء من العالم مياهه ضحلة، خاصة عند مصب الأنهار، بسبب الترسبات التي تحملها، وبسبب وجود المضائق، وعدم وجود الرياح التي تهبّ من اليابسة؛ ففي أكثر هذه المناطق تغلب الرياح التي تهبّ من عرض البحر. ويتحدّث أونيسيكريتيس بالتفصيل عن بلاد موسيكان مادحاً ميزاتها الكثيرة التي تنسب الآن إلى مناطق هندية أخرى؛ فهو يتحدّث مثلاً، عن طول عمر السكّان هنا، لأنهم يعيشون 30 عاماً فوق 100 عام (وعلى أيّ حال فإنّ بعضهم يزعم أن السيريين أطول عمراً من هؤلاء)، كما يتحدّث عن بساطة العيش، وعافية الناس، مع أن البلاد تتميّز بوجود وفرة من شتّى الغلال. ويتميّز السكّان هنا بإقامة موائد مشتركة على غرار الموائد اللاكونية، وتقام هذه الموائد على نفقة المجتمع، أمّا اللحوم فتوفرها لهم طرائد الصيد. ولا وجود للذهب والفضّة في ميدان التداول عندهم، مع أن مناجم هذين المعدنين موجودة في البلاد. وبدلاً من العبيد يخدمهم فتيان في ريعان الشباب، على غرار الأثاميوتيس عند الكريتيين، والإيللوت عند اللاكونيين[25]. ولا يعملون بالعلوم بإسهاب، ما عدا الطّب، لأنهم يرون أنّ الاستغراق في ممارسة بعض العلوم جريمة، كما هي الحال في العسكرية وما في حكمها. ولا وجود للمحاكمات القضائية عندهم إلاّ تلك المتصلة بجرائم القتل، وتوجيه الإهانات، لأنّ التعرّض لمثل هذه المحن أمر خارج عن إرادة الإنسان؛ أمّا الأذى الذي يلحق بالآخر في ميدان علاقات العمل، فهو مرتبط بالشريك مباشرة، ولذلك ينبغي إحلال الصلح عندما يسيء أحدهم استغلال ثقة الآخر، وأخذ الحذر والحيطة لدى اختيار ذلك الذي يمكن الوثوق به، وعدم إغراق المدينة بالدعاوى القضائية. تلك هي قصص الذين شاركوا في حملة الإسكندر.

35- وكانت قد ذاعت رسالة ما أرسلها كراتير إلى والدته أريستوباترا، وقد تضمّنت الرسالة من بين الأخبار المستحيلة الكثيرة الأخرى التي لا تتوافق مع أيّ مصدر آخر، قصة مفادها أن الإسكندر وصل إلى الغانج. ويزعم كراتير أنه رأى هذا النهر بأمّ عينه، وشاهد الحيوانات النهرية الضخمة عليه؛ وأبعاد النهر من حيث العرض والعمق بعيدة عن الواقع أكثر مما هي قريبة منه. فكلّهم متفق فعلاً على أنّ الغانج هو أكبر الأنهار المعروفة لنا في أجزاء الكون الثلاثة، بعده الهندوس، ويأتي في المكانين الثالث والرابع، نهر الإيستر ونهر النيل. أمّا فيما يخصّ التفاصيل فإن مختلف الكتّاب ينقلون روايات مختلفة عنه. فمنهم من يرى أنّ أقلّ عرض له هو 30 مرحلة، ومنهم من

يقول 3 مراحل فقط؛ وبحسب ميغاسفين أن متوسّط عرضه يصل إلى 100 مرحلة، وأن أقلّ عمق له 20 أورغيا.

36- ولدى التقاء الهندوس بنهر آخر[26]، تقع كما يقولون، باليبوفرا: طولها 80 مرحلة وعرضها 15 مرحلة، وهي على شكل متوازي الأضلاع؛ ويحيط بالمدينة سياج من العوارض الخشبية فيه فتحات يمكن رمي السهام عبرها. ويمتدّ أمام السياج خندق يستخدم لأغراض الدفاع عن المدينة، كما يستخدم أيضاً مجرى للقاذورات التي تخرج منها. وتدعى القبيلة التي تقع هذه المدينة في منطقتها، قبيلة براسي؛ وهي القبيلة الألمع بين القبائل الأخرى كلّها. وينبغي على الملك هنا أن يحمل إضافة إلى الاسم الذي دعي به لدى ولادته، اسماً آخر، هو اسم المدينة نفسه: باليبوفرا، كساندروكوت مثلاً، الذي أرسل إليه ميغاسفين[27] سفيراً. ويسود مثل هذا التقليد لدى البارثيين أيضاً؛ فملوك هؤلاء كلّهم يدعون أرساك، مع أن اسم أحدهم، هو أورود، واسم الآخر فرآت، واسم الثالث فلان، و...

37- والرأي السائد هو أن كلّ البلاد الواقعة على هذا الجانب من هيبانيس، هي الأفضل، لكننا نفتقر إلى أيّ وصف دقيق لها. أمّا المعلومات التي نقلها الكتّاب، فهي مبالغ فيها وتحمل طابعاً خيالياً سببه عدم معرفة البلاد وبعدها النائي عنّا. ومن هذا النمط مثلاً، قصص النمل[28] الذي يحفر الذهب، وسوى ذلك من المخلوقات- حيوانات وبشر - الفريدة من حيث شكلها الخارجي، والغريبة تماماً من حيث بعض معطياتها الطبيعية. فيروون مثلاً، عن عمر السيريين المديد، ويقولون إن هؤلاء يمدّون زمن حياتهم إلى ما بعد 200 عام. ويتحدّثون عن البناء الأرستقراطي لدولة محلّية إلى حدّ ما، لكنّ المجلس الحاكم فيها يتألّف من 5000 مستشار؛ يقدّم كلّ منهم فيلاً للدولة. وعلى حدّ قول ميغاسفين، إنّ أكبر النمور تسرح في بلاد البراسيين، إذ يبلغ حجم واحدها ضعف حجم الأسد؛ وهذه النمور قوية إلى درجة أن أحد النّمور المنزلية المروّضة، وعلى الرغم من أن أربعة رجال كانوا يقودونه، إلاّ أنه قبض على بغل من أحد أطرافه الخلفية وشدّه إليه عنوة. والقردة ذوات الذيل[29] هناك أكبر من أكبر الكلاب؛ لونها أبيض ما عدا خطمها أسود (عند القردة الأخرى على العكس). طول ذيل واحدها أكثر من ذراعين؛ وهذه القردة قردة داجنة تماماً وليست خطرة، بمعنى أنها ليست عدوانية. ويقتلعون من الأرض هناك حصى بلون البخور، طعمها أكثر حلاوة من طعم التين والعسل. وتسعى في أماكن أخرى ثعابين طول واحدها ذراعان ولها

أجنحة غشائية كأجنحة الخفافيش؛ وتطير هذه ليلاً فتتساقط قطرات بولها ، أو حتّى قطرات عرقها ، الأمر الذي يتسبب بتقرّحات جلدية لكلّ من لا يحذر ذلك. كما تلقى هناك أيضاً عقارب مجنّحة كبيرة الحجم؛وكذلك تنمو في تلك الأصقاع شجرة الأبنوس، وتعيش فيها كلاب جبّارة تمسك فريستها بأنيابها ولا تتركها حتّى يسكبون في أنوفها ماء؛ وبعضهم، بسبب السعار لدى عضّ الكلب له تنقلب عيناه، بل قد تسقطان أحياناً من محجريهما. ومرّة أمسك كلب بأسد وثور، أمّا الثور الذي كان الكلب قد أمسك به من خطمه، فقد فارق الحياة قبل أن يتسنّى له التخلّص من أنياب الكلب.

38- ويواصل ميغاسفين روايته فيقول، إنّ في البلاد الجبلية نهر يدعى سيلا لا يطفو على سطح مياهه أيّ شيء. ولكنّ ديموقريط لم يصدّق هذا (وكان هذا قد جاب الشطر الأكبر من آسيا). وكذلك أرسطو لم يقبل هذا؛ على الرغم من أن الهواء يحتوي على طبقات دقيقة إلى درجة يعجز عندها أيّ كائن مجنّح أن يثبت عليها. وبعض [المواد] التي تطلق أبخرة، تملك أيضاً خاصية جذب أيّ مواد تحلّق فوقها وابتلاعها: كالكهرمان الذي يجذب العصافة، والمغناطيس الذي يجذب الحديد. وقد تكون مثل هذه الخاصيات الطبيعية للماء أيضاً. وعلى وجه العموم ينتمي هذا كلّه إلى حدّ ما، للفلسفة الطبيعية، وللتعاليم التي تدرس الأجسام العائمة، وينبغي أن يعالج هناك. أمّا فيما يخصّ وصفنا فيجب أن نغنيه بكلّ ما ينتمي إلى ميدان الجغرافيا أو يقترب منه.

39- وبحسب ميغاسفين أنّ سكّان الهند كلّهم ينقسمون إلى 7 أقسام. القسم الأوّل بحسب الأهلية، لكنّه الأقلّ عدداً، وهو كاستا الفلاسفة. ويتعاملون معهم بطريقتين: مع كلّ منهم بشكل خاص، ويتوجه إلى هؤلاء كلّ من يريد أن يقدّم ذبيحة للآلهة أو الأموات؛ ومع الكاستا كلّها على وجه العموم، وإليها يتوجه الملوك فيما يدعى المجلس العظيم؛ فيجتمع هنا عند بوابات القصر الملكي الفلاسفة كلّهم في بداية كلّ عام جديد. فيقدّم كلّ منهم علانية، مؤلّفه أو مطالعته التي تفيد مضاعفة محصول الغلال، أو إخصاب الحيوانات، أو إذا كانت تتعلّق بتحسين إدارة الدولة. ومن يثبت عليه الكذب ثلاث مرّات، ينبغي أن يصمت طول عمره؛ ومن يظهر أنه صادق، يعفى من الإتاوات والضرائب.

40- والقسم الثاني، كما يقول ميغاسفين، هو كاستا الفلاحين. وهي الفئة الأكثر عدداً، والمرئية أكثر بين باقي فئات السكّان الأخرى، لأنّ أفرادها معفيون من الخدمة العسكرية، ويتمتّعون بحرية العمل بسلام في الحقول. ولا يأتي هؤلاء إلى

المدينة معاً أبداً، لا من أجل المسائل العامّة، ولا من أجل أيّ مسائل أخرى. وبحسب قوله إنه ليس نادراً أن يصطفّ الجنود في مكان واحد، وفي وقت واحد متخذين الوضع القتالي مخاطرين بحياتهم في قتال الأعداء، بينما يحرث الفلاحون الأرض ويحفرون فيها بأمان تحت حراسة الجنود. والأرض كلّها هناك ملك للملك. أمّا الفلاحون فيعملون فيها لقاء ريع يساوي ربع المحصول[30].

41- والقسم الثالث، هو كاستا الرعاة والصيادين الذين يجوز لهم وحدهم أن يصيدوا ويربّوا المواشي، ويبيعوا حيوانات النقل أو يؤجّروها. ويتلقى هؤلاء من الملك جعالة سنوية من الأقماح لقاء حماية الأرض من الكواسر والطيور التي تلتهم البذار، ويعيش هؤلاء متنقلين يقيمون في الخيام. ولا يسمح لأيّ فرد كان أن يقتني جواداً أو فيلاً بشكل شخصي، فالجياد والفيلة ملكية خاصة للملك، إذ يوكل لمتخصصين العناية بها.

42- وتصاد الفيلة على النحو الآتي: يحيطون مكاناً خالياً من النباتات محيطه 4 أو 5 مراحل، بخندق عميق، ويجعلون مدخله ضيقاً جدّاً. ثمّ يسوقون ثلاثاً أو أربعاً من أكثر الإناث وداعة، أمّا الصيادون أنفسهم فيربضون في مكمن، في أكواخ مخفية. ولا تقترب الفيلة البرية من الحظيرة نهاراً، لكنّها تدخلها ليلاً فرادى. وبعد أن تدخل الفيلة الحظيرة يتسلل الصيادون خلسة ويغلقون مدخلها، ثمّ يطلقون إلى هناك أقوى الفيلة المقاتلة المروّضة، ويرغمونها على مقاتلة الفيلة البرّية، وفي الوقت نفسه ينهكونها جوعاً. وعندما يدبّ الضعف في الفيلة، يدخل الحظيرة خلسة أكثر صيادي الفيلة شجاعة، ويدبّ كلّ منهم تحت بطن الفيل الذي يمتطيه، ويدبّ من هناك إلى تحت بطن الفيل البري ويقيّد أرجله. ثمّ يدفع الصيادون الفيلة المروّضة لضرب الفيلة المقيّدة إلى أن تسقط هذه الأخيرة على الأرض. عندئذٍ يربط الصيادون رقاب الفيلة البرية إلى رقاب الفيلة المروّضة بأحزمة مصنوعة من جلد الثيران. ولكي يأمن الصيادون جانب الفيلة كي لا تقذف بهم عندما يحاولون امتطاءها، كانوا يجرحون رقابها ويضعون أحزمة الربط على الجراح مباشرة فيرغم الألم الفيلة على تحمّل الأغلال والبقاء ساكنة. ومن بين الفيلة التي يصيدونها يستبعد الصيادون تلك التي لا تصلح للعمل بسبب كبر سنّها أو صغر سنّها، ويقودون الباقي إلى المرابط. وهنا يعقلونها، ويربطونها من رقابها إلى أعمدة مغروزة في الأرض بقوة ويروّضونها بتجويعها. ويجددون بعد ذلك قوى هذه الحيوانات بتغذيتها بالقصب الأخضر والعشب. ثمّ يعلّمون الفيلة

الخضوع لأوامرهم: بعضها بأوامر منطوقة كلمات، وبعضها الآخر غناء موقّعاً على أصوات دقّ الدفوف. وقليل من الفيلة فقط لا يستجيب لعملية الترويض؛ والحقيقة أن هذه الحيوانات وديعة ولطيفة بطبيعتها، وهي في هذا تشبه المخلوقات العاقلة. فثمّة فيلة تنقذ حوذييها الجرحى وتخرج بهم من أرض المعركة بعد أن يكون نزف دمائهم قد أفقدهم الوعي، وفيلة أخرى تنقذ المقاتلين الذين يدبّون بين أطرافهم الأمامية وتحميهم. وإذ صادف وقتل الفيل مطعمه أو مروّضه نتيجة ثورة غضب تلمّ به، فإنه سرعان ما يدخل في حالة حزن شديد، ويمتنع عن تناول أيّ طعام، بل وأحياناً يموت جوعاً.

43- وتتزاوج الفيلة وتضع مواليدها في غالب الأحيان في الربيع، مثلها مثل الخيل. فعندما يحين موعد زواج الذكر، يغدو شديد العدوانية مسعوراً. ويطلق حينئذٍ عبر فتحاته التنفسية الموجودة قرب صدغيه، مادّة دهنية. والأمر عينه يحصل لدى الإناث، فتنفتح عندئذٍ الفتحة إياها. وتحمل الإناث أجنّتها 18 شهراً كحدّ أقصى، و16 شهراً كحدّ أدنى، وترضع الأمّ مولودها 6 سنوات. ويعيش أكثر الفيلة بقدر ما يعيش أكثر المعمّرين من البشر، بل قد يصل عمر بعض الفيلة إلى 200 عام. لكنّ الفيلة تصاب بأمراض كثيرة بالكاد يمكن علاجها. فعلاج أمراض العين غسيلها بحليب البقر؛ ويفيد شرب النبيذ الأسود في معالجة الأمراض الأخرى كلّها؛ وتستخدم الزبدة البقرية المدفّأة لمعالجة الجروح (لأنها تخرج الشظايا الحديدية من الجسم)، أمّا الدمامل فيطرّونها بقطع من لحم الخنزير. وبحسب أونيسيكريتيس أن الفيلة تعيش 300 عام، وفي حالات نادرة 500 عام. وهي تبلغ أوج قوّتها في حوالي عامها 200؛ والإناث تستطيع أن تنجب طول عقد كامل. كما يزعم آخرون، وليس أونيسيكريتيس وحده، أنّ الفيلة الهندية أكبر من الليبية وأقوى. فهي إذ تقف على طرفيها الخلفيين، تقلب بخرطومها تروس الأبراج، وتقتلع الأشجار من جذورها. ويروي نيارخس أنهم لدى صيد الفيلة يضعون أفخاخاً على عدد من تقاطعات الطرق، ويسوقون الفيلة البرية إلى هناك بالفيلة المروّضة، لأنّ هذه الأخيرة أكثر قوة ويوجهها حوذيون. عدّاك عن هذا إنّ الفيلة تروّض بسهولة، حتّى أنهم يعلّمونها أن ترمي الحجارة على هدف معيّن، وتستخدم السلاح؛ وهي تجيد السباحة إجادة تامّة. ويرى الهنود في المركبة التي تجرّها الفيلة أعظم ثروة. والفيلة كالجمال تحمل على متونها هوادج، وتشعر المرأة بالعزّة إذا تلقت من الرجل الذي يحبها فيلاً هدية. ولكنّ هذه الرواية لا تتوافق مع ما ينقله الكاتب الذي يقول، إن الفيلة والأفراس كانت ملكية للملك وحده[31].

44- ويزعم نيارخس أنه رأى جلود النمل الذي يحفر الذهب، وهي تشبه جلود النمور. أمّا ميغاسفين فيروي عن هذا النمل ما يلي: في بلاد الديرديين، وهم قبيلة هندية كبيرة تعيش في الجبال الشرقية، منطقة مرتفعات يقارب محيطها 3000 مرحلة. وتحت هذه المرتفعات مناجم ذهب حفّاروها نمال، وهؤلاء حيوانات لا يقل حجم واحدها عن حجم الثعلب؛ وتتميّز بسرعة حركة غير عادية، وتعيش على صيد الوحوش. وفي فصل الشتاء تحفر هذه الحيوانات الأرض وتجمع التراب أكواماً عند مداخل جحورها، كما يفعل الخلد. وهذه الأتربة هي رمال ذهبية لا يلزمها سوى بعض الصهر. ويأتي سكّان الجوار وراء هذا الرمل خلسة على حيوانات النقل؛ لأنهم إذا فعلوا ذلك علانية، فإن النمّال ستقاتلهم بعناد وتلاحق الفارّين؛ وإذا ما أدركتهم، فانها تقتلهم مع حيوانات النقل. ولكي لا تلاحظ النمّال وجودهم، ينثر المختلسون قطعاً من لحوم الحيوانات البرية في أماكن مختلفة، وعندما يتفرّق النّمل متراكضاً وراء هذه الغنيمة، يحمل هؤلاء الرمال الذهبية ويغادرون المكان. ولمّا كانوا لا يعرفون أن يصهروا الذهب، فقد كانوا يبيعون رماله للتجار بأيّ ثمن كان.

45- وبما أنني سقت في قصة الصيادين والوحوش البرية، رواية ميغاسفين وروايات الآخرين، فإنه ينبغي عليّ أن أضيف ما يلي أيضاً. يستغرب نيارخس كثرة الزواحف في الهند وشدّة الأذى الذي تتسبب به. فيقول، إن الحيوانات تترك الوديان هاربة وقت الفيضان وتلجأ إلى القرى التي لا يطالها الفيضان، حيث تملأ المساكن هنا. ولهذا السبب يتأتّى للسكّان أن يبنوا مساكنهم على المرتفعات لكنّهم كانوا يتركونها أحياناً عندما يصل طوفان الزواحف حدّاً لا يحتمل. وإذا لم يهلك الفيضان أكثرهم، فإن البلاد تتحوّل إلى قفار خاوية. وعلى أيّ حال فإن بعض أنواع الزواحف الصغيرة شديدة الأذى كتلك العظيمة الحجم؛ لأنّ تفادي الأولى أمر صعب، والثانية قوية جدّاً، خاصة هناك حيث الثعابين التي يصل طول واحدها إلى 16 ذراعاً. ولذلك يجوب رقاة الثعابين في مختلف أرجاء البلاد، والناس تؤمن بقدرتهم على مداواة لدغاتها؛ وتبقى هذه الوسيلة هي وسيلة المداواة الوحيدة تقريباً. فالشعب لا يعاني من كثرة الأمراض؛ بسبب بساطة عيشه وامتناعه عن استهلاك النبيذ. وإذ ما ظهرت الأمراض فإن الحكماء يعالجونها. فاريستوبول يقول العكس، إنه لم ير حيواناً واحداً بهذا الحجم المهول غدا مادّة للأقاويل، ما عدا ثعباناً واحداً طوله 9 أذرع وشبر واحد. وأنا نفسي رأيت في مصر بأمّ عيني ثعباناً بالحجم نفسه تقريباً، كانوا قد جاؤوا به من

الهند. ويقول أريستوبول، إنّ هناك كثيراً من الحيات والأحناش أصغر حجماً بكثير، وهناك عقارب كبيرة. لكنّ أياً من هذه الزواحف ليس مزعجاً كالثعابين الرفيعة التي لا يتجاوز طول واحدها شبراً واحداً. فيعثرون عليها مختبئة في الخيام بين الأشياء، وفي الجدران. ويعاني الذين تلدغهم هذه الثعابين معناة مضنية من نزيف الدم الذي يسيل من المسامّ كلّها، ثمّ يموت الملدوغ إذا لم يحظ بمساعدة فورية. والمساعدة سهلة توفّرها الخاصيات الدوائية للجذور والنباتات الهندية. ويواصل أريستوبول روايته فيقول، إن التماسيح في الهند قليلة، ولا تمثّل خطراً بالنسبة للإنسان؛ وباقي الحيوانات هناك أكثرها هو الموجود على نهر النيل نفسه، ما عدا فرس النهر. وعلى أيّ حال فإن أونيسيكريتيس يزعم، أنّ هذا الحيوان أيضاً، موجود هناك. وبحسب أريستوبول أن أي سمك بحريّ لا يدخل النيل بسبب وجود الحيتان فيه، ما عدا الفريسّي[32]، والكيستيري[33]، والدلفين[34]، أمّا الهندوس ففيه كثير من أنواع الأسماك البحرية. وتصعد صغار الكاريدس[35] في الهندوس حتّى منطقة الجبال[36]، بينما تصل كبارها إلى نقطة التقاء الهندوس وأكيسين. بهذا المقدار قصص حيوانات الهند. والآن إذ أعود إلى ميغاسفين، فإني سأواصل رواية القصة من حيث توقفت.

46- يقول ميغاسفين، بعد الصيادين والرعاة تأتي الكاستا الرابعة، كاستا الحرفيين والتجار وكلّ الذين يمارسون عملاً فيزيائياً. وبعض هؤلاء يؤدّي الإتاوة وأعمال السخرة المفروضة عليهم؛ أمّا صانعو الأسلحة وبنّاؤو السفن، فإنهم يتلقون من الملك الأجر المقرر والمؤونة، لأنهم يعملون عنده فقط. والقائد العسكري هو الذي يسلّح الجنود، أمّا السفن، فقائد الأسطول هو الذي يؤجّرها للبحارة والتجار.

47- وتتألّف الكاستا الخامسة من كاستا الجنود الذي يقضون وقتهم كلّه إذا كانوا في الحرب، باللهو والسُّكْر على نفقة الخزنة الملكية. ولذلك فهم مستعدون في أي لحظة للانطلاق في الحملة المقرّرة، ولا يحملون معهم عندئذٍ أي شيء.

48- ويشكّل المراقبون الكاستا السادسة. ويعهد إلى هؤلاء بمراقبة كلّ ما يحصل؛ وواجبهم أن ينقلوا إلى الملك ما يعرفونه عن كلّ شيء. وتساعدهم العاهرات في عملهم هذا، فالمراقبون المدينيون تعاونهم عاهرات المدينة، ومراقبو المعسكرات تعاونهم عاهرات المعسكرات. ولا يشغل هذه الوظيفة إلاّ أفضل الناس وأكثرهم إخلاصاً.

49- وتتألّف الكاستا السابعة من مستشاري الملك ومعاونيه الذين يشغلون أعلى

المناصب: التشريع، وإدارة شؤون البلاد كلها. ولا يسمح لهؤلاء أن يتزوّجوا فتيات من كاستا أخرى، ولا أن يغيّروا عملهم إلى عمل آخر، كما لا يسمح لهم أن يجمعوا بين عدد من الوظائف، إلاّ إذا كانوا من الفلاسفة؛ فهؤلاء الأخيرون بحسب ميغاسفين، كانوا معفيين من هذه المحظورات كلّها بسبب كفاءاتهم وأهليتهم العالية.

50- ومن الشخصيات التي تشغل المناصب: مراقبو السوق، والساهرون على استتباب الأمن في المدينة[37]، وقادة القوّات المسلّحة. فيُجري مراقبو السوق مسحاً جديداً للأراضي[38]، وينظمون مجاري الأنهار، كما في مصر، ويراقبون القنوات المغلقة التي يجري منها توزيع المياه على الأنابيب لكي توزّع بالتساوي على الناس. ويخضع الصيادون لهؤلاء الموظفين الذين يحق لهم أن يكافؤوهم على حسن عملهم، أو يعاقبوهم على تقصيرهم وإهمالهم. كما يجبي هؤلاء الموظفون أنفسهم الضرائب، ويراقبون كلّ الحرفيين الذين لعملهم الحرفي صلة بالأرض كالنجارين، وقطّاعي الشجر، والحدادين، والمعدّنين. وهم الذين يشقون الطرقات ويضعون بعد كلّ 10 مراحل عموداً يحمل إشارات المنعطفات والمسافات.

51- وينقسم المشرفون على الأمن وحسن سير النظام في المدينة إلى 6 مجموعات في كلّ مجموعة 5 أفراد. ويشرف أفراد المجموعة الأولى على النشاط الحرفي وعمل الحرفيين. ويدير آخرون شؤون استقبال الأجانب: يؤمّنون لهم الإقامة في الفنادق، ويراقبون سلوكهم عبر مرافقين ملحقين بهم؛ فهؤلاء يرافقون الغرباء أنفسهم، وفي حال وفاة أيّ منهم يهتمّون بإرسال أملاكه وما يخصه إلى بلاده[39]، كما يعتنون بالمرضى منهم ويدفنون من يتوفى. ويتقصّى فريق ثالث منهم حالات الولادة والوفاة: كيف حدثت، وما هي ظروف حدوثها؛ والغرض من ذلك هو فرض الضرائب، وعدم بقاء الولادات والوفيات مجهولة، سواء ولادات ووفيات الأخيار أو الحثالات. ويهتمّ فريق رابع بشؤون تجارة المفرّق والتبادل السلعي. فيراقب هؤلاء المعايير والمكاييل، وغلال الموسم لكي تباع هذه الأخيرة بمعايير موسومة. فلا يستطيع الشخص نفسه أن يبيع أكثر من مادّة إلاّ إذا أدّى ضريبة مزدوجة. ويعيّن فريق خامس لمراقبة المصنوعات الحرفية، لكي تباع هذه موسومة ومستقلّة عن القديمة. وتفرض غرامة معينة على من يخلط المصنوعات الحديثة مع القديمة. ويجمع الفريق السادس والأخير العشر المفروض على السلع المبيعة. وعقوبة التهرّب الضريبي عندهم الموت. ويعهد بهذه الالتزامات إلى كلّ مجموعة من مجموعات المشرفين على الأمن وحسن سير النظام في المدينة على

حـدة، وتشـرف المجموعـات كلّهـا معـاً علـى الشـؤون الخاصـة وشـؤون الدولـة، وتعتني بإصلاح المباني العامّة، وضبط أسعار بيع السلع وشرائها، وتنظيم شؤون الأسواق، والموانئ، والمعابد.

52- وبعد المشرفين على الأمن وحسن سير النظام في المدينة، تأتي الفئة الثالثة من الموظفين المتحدين الذين يديرون الشؤون العسكرية؛ وتتقسم هذه الفئة بدورها إلى 6 مجموعات في كلّ مجموعة 5 أفراد. ويلحق أفراد المجموعة الأولى بالنافارخ[40]. أمّا الآخرون فيلحقون بقائد مركبات الثيران التي تنقل العتاد الحربي، والمؤن للناس ولمواشي النقل، وباقي ضروريات القوّات. وهؤلاء أيضاً هم المسؤولون عن نقل كادر الخدمة: الطبالين، وحاملي الأجراس، وسائسي الخيل، ومعلّميّ الآلات القتالية ومساعديهم؛ وهم الذين يرسلون تحت أصوات قرع الأجراس معديّ علف المواشي، محقّقين بذلك أمان إيصال المكافآت والعقوبات بالسرعة المطلوبة. ويعمل تحت إشراف المجموعة الثالثة رجال سلاح المشاة؛ وتشرف المجموعة الرابعة على إدارة شؤون الخيل؛ وتشرف الخامسة على المركبات، والسادسة على الفيلة. وتعدّ مرابط الخيل والفيلة ملكاً للملك؛ والترسانة أيضاً[41]، لأنّ على كلّ جندي أن يعيد إلى الترسانة عدته، وإلى الإسطبل جواده، والأمر عينه ينسحب على الفيلة. وهذه الأخيرة لا تُلجم. وفي الحملات تنقل الحمولات على الثيران. وتُقاد الخيل بالرسن كي لا تتأذى قوائمها فتفقد رشاقتها عندما تقرن إلى المركبات القتالية. وعادة ما يكون في كلّ مركبة مقاتلان ما عدا الحوذي، أمّا الفيل فيحمل ثلاثة من رماة السهام إضافة إلى الحوذي.

53- ويتميّز الهنود كلّهم ببساطة نمط عيشهم خاصة في أوقات الحملات العسكرية؛ وهم لا يستحسنون أيّ صخب أو فوضى، لذلك يحافظون دائماً على الانضباط. ولكنّهم يلتزمون أكثر ما يلتزمون التعفّف عن اللصوصية. وبحسب رواية ميغاسفين، أنه خلال الوقت الذي مكثه في معسكر ساندروكوتّ حيث كان فيه 400 ألف مقاتل، لم ير إعلاناً واحداً عن أشياء مسروقة ثمنها أكثر من 200 دراخما؛ وهذا الواقع لدى أناس ليس لهم قوانين مكتوبة! وواقع الحال على حدّ قوله، هو أنّ الهنود لا يعرفون القراءة والكتابة، لكنّهم يعالجون أمورهم كلّها اعتماداً على الذاكرة. ومع ذلك يعيش الهنود سعداء بفضل بساطتهم وحرصهم ، فهم بحسب قول هذا الكاتب، فعلاً لا يشربون النبيذ إلاّ أثناء تقديم الذبائح، وحتى نبيذهم هذا مصنوع من الرزّ وليس من الشعير. وأكثر قوتهم من حساء الرزّ. وتتجلّى بساطتهم في

قوانينهم واتفاقياتهم العملية التي تبيّن أنهم لا يميلون إلى الدعاوى والمقاضاة. فليس في هذه البلاد دعاوى قضائية تعالج مسائل الرهن والائتمان على أشياء ثمينة؛ فهم لا يحتاجون شهوداً وأختاماً، لكنّ كلّهم يثق بمن يأتمن على أشيائه الثمينة. وحتى الموجودات المنزلية لا رقابة عليها عادة. ومن البدهي أن هذا كلّه منظّم بشكل عقلاني منطقي. ولكن لعلّ أحداً لا يستحسن تقليدهم الآخر الذي يقضي بأن يعيش المرء لنفسه فقط من غير ساعة غداء أو عشاء يقضيها مع الآخر، أو يستشيره في أمر ما؛ فطريقة الطعام الأخرى أكثر ملاءمة للحياة الاجتماعية والمدنية.

54- ومن أنواع العناية بالجسد يفضّل الهنود أكثر ما يفضّلون تدليك الجسد بمختلف الطرائق، وهم في غضون ذلك يدلكون أجسادهم بعصاة تدليك مصنوعة من خشب الأبنوس. ومراسم الدفن عندهم متواضعة، وتبّات القبور ليست مرتفعة. ولكنّهم على الضدّ من بساطة عيشهم في كلّ شيء، إلاّ أنهم يحبون التزيّن. فهم يرتدون أردية موشاة بالذهب، ويتزيّنون بحليّ مصنوعة من الحجارة الكريمة، ويرتدون ثياباً مزركشة مصنوعة من الكتان الناعم، وعندهم مرافقون يحملون لهم المظلاّت التي يتّقون بها أشعة الشمس. وبما أنهم يقدّرون الجمال تقديراً عالياً، لذلك يفعلون كلّ ما من شأنه أن يجمل الوجه. بيد أنهم يجلّون الحقيقة والبسالة. ولذلك لا يقيمون وزناً لكبار السن إن لم يكن هؤلاء يتفوّقون في الحكمة. وهم يقتنون كثيراً من الفتيات زوجات لهم يشتروهنّ من والديهنّ؛ ويحصل هذان عن كلّ ابنة على زوج من الثيران. وتستخدم بعض هؤلاء الزوجات للخدمة، وأخريات للمتعة وإنجاب أكبر عدد من الأبناء. وإذا لم يرغموهنّ على حياة العفّة، فإنهنّ يمكن أن يتحوّلن إلى حياة التهتك والدعارة. ولا يقدّم أيّ هندي ذبيحة ،أو يحرق بخوراً، أو يسكب زيتاً وعلى رأسه إكليل. أمّا حيوان الذبيحة فلا ينحر، بل يخنق خنقاً كي يبقى تاماً من غير أذى. ومن تثبت عليه تهمة تأدية شهادة الزور، تبتر يداه ورجلاه، أمّا من يشوّه أحداً ما، فينزل به التشوّه نفسه، وتقطع يده أضافة إلى ذلك. وإذا ما سلب أحدهم حرفياً يديه أو عينيه، فعقابه الموت. وبحسب ميغاسفين، إنه ليس لدى أيّ هندي عبيد؛ ولكنّ أونيسيكريتيس يعلن العكس، فالعبودية كما يؤكّد، سمة من سمات الهنود في بلاد موسيكان، ويرى فيها إنجازاً إيجابياً، كالإنجازات الأخرى الكثيرة التي حققّتها هذه البلاد التي تمتلك أفضل قوانين.

55- وأُلقيت مهمّة العناية بشخص الملك على عاتق النسوة المشريّات بدورهنّ من

والـديهنّ. وكـان حـراس شـخص الملـك وبـاقي القـوات يقيمـون خـارج البوابـات. وكانـت المرأة التي تقتل الملك الثّمل تكافأ بالزواج من خليفته، ويرث أولادهما السلطة الملكية. ولم يكـن الملك ينام في النهار، كمـا كـان يبـدّل مكـان نومـه في الليـل مـن وقـت لآخـر خوفاً من النوايا الشريرة. ومن حالات ظهور الملك الاحتفالية غير العسـكرية، ظهـوره في المحكمة حيث يصرف يومـه كـاملاً يستمع إلى الـدعاوى، وظهـوره حينمـا يحـلّ موعـد العناية بشخصه. والعناية بشـخص الملـك تعـني تـدليك جسـمه بعصـي التـدليك، لأنّ الملـك يسـتمع في الوقـت نفسـه إلى القضـايا المعروضـة أمامـه، ويـدلّك جسـده بمسـاعدة أربعـة مـدلّكين آخـرين يتوزّعـون حولـه. والظهـور الاحتفـالي الثـاني للملـك هـو خروجـه لتقـديم الـذبائح. أمّـا ظهـوره الاحتفـالي الثالـث فهـو خروجـه إلى الصـيد الـذي يتخـذ الطـابع الباخوسـي إلى حـدّ مـا؛ ففـي غضـون ذلـك يظهـر الملـك محاطـاً بالنسـاء، ويسـير حـاملو الرمـاح خـارج دائـرة النسـوة. وتحـاط طريـق الموكـب بالحبـال مـن جانبيهـا. ومـن يتجـاوز الحبل إلى النساء يتهدده خطـر المـوت. ويسـير أمـام الموكـب الطبّـالون وحـاملو الأجـراس ويصيد الملك عادة في مكـان مسيّج، فيرمي سـهامه مـن مكـان مرتفـع (تقـف إلى جانبـه امرأتان أو ثلاث بالسلاح الكامـل)، أمّـا في الأمـاكن غير المسيّجة، فيصيد الملك مـن فوق ظهر فيل. وتتبعه النسوة بعضهنّ في المركبات، وبعضهنّ الآخر علـى ظهـور الخيـل، وبعضهنّ الثالث على متون الفيلة مسلّحات بشتّى أنواع الأسلحة، كمـا لـو كـنّ يرافقنـه في حملة عسكرية.

56- ومن الواضـح أن هـذه العـادات تعدّ عـادات غريبـة مقارنـة بعاداتنـا، لكـن مـا يـثير الاسـتغراب مـن العـادات حقّـاً هـي العـادات التاليـة. فميغاسـفين يـروي أنّ سـكّان القفقاس يعاشرون النساء علانية ويلتهمون أجساد أقاربهم. وتعيش هنـاك قـردة لهـا ذيـول تقذف الحجارة؛ فهي تعتلي الجـروف وترمـي الحجـارة مـن هنـاك علـى الـذين يطاردونهـا. وأكثـر حيواناتنـا المنزليـة لا تـزال عنـدهم بريّـة. ويتحـدّث ميغاسـفين عـن أفـراس وحيـدة القرن لها رؤوس أيائل وقصب يقف عمودياً يصل طول واحدته إلى 30 أورغيا، ونـوع آخـر منه يفترش الأرض ويصل طول واحدتـه إلى 50 أورغيـا، وهـي ثخينـة يصـل قطرهـا إلى 3 أذرع، وبعضها أكبر بمرّتين.

57- وبعـد أن يعبر ميغاسـفين إلى منطقـة الخيـال الصـرف، يتحـدّث عـن أنـاس يـتراوح طـول الواحـد مـنهم بـين 5 وثـلاث أشـبار، وبـين هـؤلاء مـن لا أنـف لـه، لكـن لـه فتحتان تنفسيتان فوق الفم. وبحسب قوله إنّ الغرانيق والحجال تحارب قبيلة الذين طول

واحدهم 3 أشبار، إذ يبلغ حجم هذه الطيور هنا حجم الأوزّ (عن هذه الحرب يتحدّث هوميروس أيضاً)[42]. فهذه القبيلة تجمع بيوض الغرانيق التي تضعها هناك وتتلفها؛ ولذلك لا وجود لبيض الغرانيق، بالتالي لفراخها في أيّ مكان آخر. وليس نادراً أن يتفادى الغرنوق ضربة سهم حربة برونزية يطلقه أحد أفراد هذه القبيلة على جسده. كما يروون قصصاً مشابهة عن أناس «يفترشون آذانهم وينامون عليها»، وقصصاً أخرى عن متوحّشين همج، ونوادر غريبة أخرى. فبحسب هذا الكاتب إنّهم لم يستطيعوا أن يأتوا إلى ساندروكوتّ بمتوحّشين، لأن هؤلاء كانوا يميتون أنفسهم جوعاً. وكعب القدم لدى هؤلاء إلى الأمام، وباطن القدم والأصابع إلى الخلف. ومع ذلك نجحوا في أن يأتوا إليه ببعض الأفراد الذين لا أفواه لهم؛ وقد كان هؤلاء أناساً ودعاء يقطنون عند منابع الغانج. ولا يقتاتون إلاّ على رائحة اللحم المشوي، وروائح الثمار والزهور، لأنّ لهم بدل الأفواه فتحات تنفسية فقط: تضنيهم الروائح الكريهة، لذلك يعانون من العيش في المعسكرات الحربية على وجه الخصوص. أمّا بخصوص باقي مثل هؤلاء الناس العجيبين، فإنّ ميغاسفين يقول، إنّ الفلاسفة حدّثوه عنهم؛ فقد وصفوا الأوكيبوديين[43]، الذين يعدون أسرع من الخيل؛ والإينوتوكيتيين[44] الذين تتدلّى آذانهم حتّى أرجلهم بحيث يفترشونها وينامون عليها، ويمتلك هؤلاء قوّة عضلية تمكّنهم من اقتلاع الشجر من جذوره، وانتزاع الوتر من القوس؛ وتذكر بعد ذلك قبيلة أخرى أفرادها بعين واحدة في وسط الجبين، ولهم آذان كلاب؛ وشعر هؤلاء الناس أشعث منتصب، وصدورهم مكسوّة بوبر كثّ؛ ثمّ وصفوا الأميكتوريين[45] آكلي كلّ شيء طرياً من غير أيّ معالجة، والذين لا يعيشون طويلاً، إذ يُتوفّى واحدهم قبل أن يبلغ سنّ الشيخوخة؛ وتتدلّى الشفة العليا لهؤلاء أبعد كثيراً من الشفة السفلى. ويروي ميغاسفين عن الهيبربورياس الذين يعيشون ألف عام الشيء نفسه الذي يرويه سيمونيدس، وبيندراوس ورواة الأساطير الآخرون. كما تعدّ رواية تيماجين عن تساقط النحاس هناك مطراً نحاسياً من السماء جرفته [الأنهار]، أسطورة بدورها؛ لكنّ قصة ميغاسفين عن الأنهار التي تحمل معها الرمال الذهبية إلى الأسفل هي أقرب إلى الحقيقة؛ فقسم من الرمل المستخرج يؤدّى إتاوة للملك. والظاهرة عينها يمكن أن نراها في إيبيريا أيضاً.

58- ويقول ميغاسفين في سياق حديثه عن الفلاسفة، إنّ منهم من يمجّد ديونيسيوس، وهم سكّان الجبال؛ فهؤلاء الفلاسفة يسوقون وجود عرائش العنب البري

التي لا تنمو إلاّ في بلادهم برهاناً [على مكوث الإله عندهم]، ومثلها وجود اللبلاب، والغار، والزّان وسواها من النباتات الدائمة الخضرة؛ فلا وجود لأيّ من هذه النباتات على الجانب الآخر من الفرات، إلاّ في الحدائق حيث تلقى عناية فائقة. ومن التقاليد الديونيسية أيضاً، ارتداء الفلاسفة ثياباً كتّانية، وبراطل، وتطيبهم بالعطور، وتزينهم بألوان متنوّعة، ومرافقتهم للملك لدى خروجه الاحتفالي تحت أصوات قرع الأجراس ودقّ الطبول؛ أمّا الفلاسفة الذين يقطنون المناطق السهلية، فهم يمجّدون هرقل. وغنيّ عن البيان القول، إنّ روايات ميغاسفين هذه تحمل طابعاً أسطورياً ويرفضها كثير من الكتّاب خاصة روايته عن دالية العنب والنبيذ؛ فالشطر الأكبر من أرمينيا، ووادي الرافدين كلّه، وشطر ميديا الذي يليه مباشرة، حتّى بيرسيدا وكارمانيا، هذه كلّها تقع على ذلك الجانب من الفرات؛ وفي مساحات واسعة من كلّ منطقة من مناطق هذه الشعوب تنمو عرائش عنب جيّدة، ويصنع منها نبيذ فاخر.

59- وعلى أيّ حال فإن ميغاسفين في معالجته لموضوع الفلاسفة، يقدّم تقسيماً آخر، فيؤكّد على وجه التحديد، أن هناك عشيرتين منهم . فيدعو إحداهما براهمن، والأخرى هارمان[46]. ويحظى البراهمن بقدر أكبر من الاحترام والتبجيل، لأنّ في تعاليمهم قدراً أكبر من الوفاق. فمنذ أن يكون الجنين في رحم أمّه يخضع، كما يقولون، لوصاية العلماء الذين يترددون إلى الأمّ والطفل قبل أن يولد ويرقونهما بزعم أنهم يهيئون لمخاض موفّق؛ أمّا واقع الأمر فإنهم يقدّمون نصائح وتعليمات حكيمة. ويزعمون أنّ النساء اللواتي يستمعن لهم برضا ورحابة صدر أكثر، سوف يكنّ الأكثر سعادة بذريتهنّ، وبعد أن يولد الطفل يأخذ مختلف الأشخاص واحدهم تلو الآخر على عاتقه مهمّة تربيته، وفي غضون ذلك ينال الطفل مع تقدّم نموّه، معلّمين أغنى معرفة وثقافة. ويقيم الفلاسفة في حديقة أمام المدينة داخل سياج متواضع بسيط، وهم يعيشون حياة بسيطة، فينامون على مراقد من القش، وجلود الوحوش؛ ولا يستهلكون لحوم الحيوانات في غذائهم، كما يعزفون عن معاشرة النساء، ولا يستمعون إلاّ إلى الأحاديث التي تتناول مسائل جدّية، ولا يتواصلون إلاّ مع الذين يرغبون الاستماع إلى تعاليمهم. ولا يسمح للمستمع أن يتحدّث، أو يسعل، أو يتفل؛ وإذا ما أجاز لنفسه أيّ سلوك من هذا القبيل، يطرد من المجلس طول اليوم بصفته شخصاً مستهتراً. وبعد أن يقضي واحدهم 37 عاماً على هذا النحو، يعود إلى دياره ويعيش حياة أكثر هدوءاً وتحرّراً، فيرتدي ملابس كتّانية، ويتزيّن بحليّ ذهبية متواضعة يضعها في أذنيه

وعلى يديه، ويستهلك في طعامه لحوم الحيوانات التي تساعد الإنسان في عمله، ويمتنع عن استخدام الحرّ والتوابل في غذائه. ويتزوّج هؤلاء أكبر عدد ممكن من النساء لكي ينجبوا أكبر عدد ممكن من الأبناء، فمن كثير من النساء يمكن أن ينجب المرء عدداً أكبر من الأبناء الذين يستحقّون الإعجاب. وبسبب عدم وجود العبيد يجدون أنفسهم مضطرين للاعتماد على أبنائهم في ضمان أفضل الخدمات التي يقدّمها أقرب الناس. ولا يكرّس البراهمن زوجاتهم الشرعيات في الفلسفة خشية أن تفشي الزوجات الحمقاوات منهن أسراراً ما لغير المكرّسين فيها، ولم يكن البراهمن يتخلّون عن الزوجات الصالحات مدى الحياة. والحقيقة إن الزاهد بالمتع واللامبالي بالآلام، ومثلهما بالحياة والموت، لا يرغب البتّة في أن يكون تحت سلطة أيّ شخص آخر. وعلى هذا النحو يجب أن يكون الرجل الصالح والمرأة الصالحة. وأكثر ما يتحدّث الفلاسفة عنه هو الموت. فهم يرون في هذه الحياة مجرّد طفل في رحم أمّه، أمّا الموت فهو ولادة جديدة نحو الحياة الحقيقية والنعيم بالنسبة للفلاسفة. ولذلك فإنهم يألفون أكثر ما يألفون فكرة الاستعداد الدائم للموت. وبحسب معتقدهم إنّ أيّ شيء يحصل للإنسان هو بحدّ ذاته ليس جيّداً، وليس سيّئاً، وإلاّ لما كان الحدث نفسه يجعل بعضهم يحزن، وبعض الآخر يفرح، فكأن هؤلاء وأولئك يعيشون حلماً؛ ولما كان هؤلاء أنفسهم في الأحوال عينها يحزنون تارة، ثمّ يتبدّل مزاجهم فيفرحون من جديد. وفيما يخصّ تعاليم البراهمن عن الطبيعة، فإنّ ميغاسفين يقول، إن بعض أفكارهم تظهر سذاجة في التفكير. وهم على وجه العموم أقوياء في العمل أكثر من الكلام، لأنّ أكثرهم يجهد لإثبات صحّة قناعاته عبر الأساطير. ولهم في الكثير رأي واحد مع الإغريق. فهم يظنّون مثلاً، أن الكون مخلوق(47) ومحكوم بالهلاك، تماماً كما يزعم الإغريق؛ ويرون أن الكون كروي الشكل، وإنّ الإله(48) الذي خلق هذا الكون ويدير شؤونه ينتشر في شتّى أرجائه. وقد رأوا أنّ العناصر الأولى للأشياء كلّها، مختلفة، وإنّ الماء هو العنصر الأول في تشكّل العالم. وعلاوة على العناصر الأربعة، هناك عنصر خامس، هو العنصر الطبيعي الذي تتشكل منه السماء والنجوم. ورأوا أن الأرض تقع في مركز الكون. ويذكرون أيضاً مثل هذه الرؤى للبراهمن عن البذرة، والروح وبعض الموضوعات الأخرى. وفي غضون ذلك يشبك البراهمن في قصصهم الأساطير التي تتحدّث عن خلود الروح، ومحكمة هاديس، وما شابه ذلك، وهذا كان يفعله أفلاطون أيضاً. إنّ هذا هو ما رواه ميغاسفين عن البراهمن.

60- ويقـول عـن الهارمـان، إن الأكثـر وقـاراً وهيبـة منهم يدعون هيلوبيين[49]، لأنهم يعيشون في الغابات، ويقتاتون على ورق الشجر والثمار البرية، ويرتدون الألياف اللبّية، ويمتنعون عن معاشرة النساء وشرب النبيذ. ويتواصل هؤلاء مع الملوك بوساطة مبعوثين يسألونهم عن أسباب الأحداث؛ وبوساطة الهيلوبيين يعبد الملوك الإله ويرفعون له الصلوات. ويشغل الأطباء مكانة الشرف الثانية بعد الهيلوبيين؛ فيعدّ الأطباء بمثابة الفلاسفة الذين يدرسون المسائل البشرية؛ ويعيش هؤلاء عيشة بسيطة، لكنّهم لا يقيمون في العراء؛ يقتاتون بالرزّ، وطحين الشعير الذي يقدّمه لهم أيّ كان بناء على طلبهم، أو كلّ من يستضيفهم. وعن طريق السحر يمكنهم أن يجعلوا النساء يلدن كثيراً من الأبناء، أولاداً أو بناتاً بحسب رغبة الوالدين. ويداوي هؤلاء الأمراض معتمدين بشكل رئيس على الحمية الغذائية، وليس على الأدوية. ويقدّرون من الأدوية أكثر ما يقدّرون المراهم واللصاقات، لكنّ وسائل المداواة الأخرى التي يستخدمونها تحتوي على كثير مما هو مؤذي. ويتمرّن هؤلاء الهارمان وأؤلئك على الإصرار والمثابرة ليعتادوا على تحمّل المعاناة والألم، كما يتمرّنون على الجلد والصبر، فواحدهم يستطيع أن يقضي نهاراً كاملاً ساكناً في وضعية واحدة لا يتحرّك. وهناك المتنبّئون والرقاة الذين يعرفون الخرافات والأساطير والعادات المرتبطة بالأموات؛ فيجوبون القرى والمدن يطلبون العطاءات. وهناك آخرون أيضاً، والحقيقة إنّ هؤلاء أكثر علماً وثقافة وتأنّقاً من أولئك، لكنّهم مع ذلك لا يتعففون عن استخدام القصص المعتادة عن هاديس، لأنهم يرون إنّ هذه القصص تساعد على النقاء والطهارة. وعند بعضهم تمارس النساء الفلسفة إضافة إلى الرجال، وهؤلاء أيضاً يمنعن عن معاشرة الرجال.

61- ويروي أريستوبول أنه رأى في تاكسيلا صوفييْن كلاهما من البراهمن. وكان أكبرهما حليق الرأس، بينما حمل الآخر شعراً طويلاً؛ وكان يرافق كلاً منهما تلاميذه. وكان هذان يصرفان ما يتبقى لديهما من الوقت بعد الأشغال الأخرى، يتجوّلان في السوق؛ وبما أن الناس كانوا يرون فيهما مستشاريْن مبجّليْن، فقد كان هذان يحصلان مجاناً على أيّ سلعة يريدان. وإذا ما جاءا أيّ شخص فإنه يدهنهما بزيت السمسم حتّى يسيل على أعينهما. وبما أنه كان يعرض للبيع هناك كثير من العسل والسمسم، فقد كانا يصنعان منه مجاناً أرغفة ويأكلانها. وجاء هذان مرّة إلى مائدة الإسكندر فتناولا طعامهما وقوفاً، وعلّما الملك الصبر وتحمّل المشاق. فانتحى الأكبر

منهما مكاناً على مقربة، واستلقى على ظهره يتحمّل لهيب الشمس وهطل الأمطار (لقد كان المطر يهطل لأنّ الوقت كان أوّل فصل الربيع)، بينما وقف الأكبر على قدم واحدة رافعاً بيديه إلى أعلى ما يستطيع صارياً طوله 3 أذرع؛ وعندما كانت قدمه تتعب كان يحوّل المسند إلى القدم الثانية، وهكذا دواليك طول نهار كامل. وقد ظهر أن الأصغر منهما كان أكثر قدرة على الصبر والتحّمل من الأكبر؛ وبعد أن سار مع الملك مسافة قصيرة، قفل عائداً إلى بيته على عجل، وأوعز إلى رسول الإسكندر إليه أن يقول للملك، إنه إذا أراد منه شيئاً فيمكنه أن يأتي إليه بنفسه. أمّا الأكبر فقد رافق الملك حتّى النهاية، وأقام معه، وغيّر ملابسه ونمط عيشه. ورداً على لوم بعضهم أجاب إنه أمضى 40 عاماً زاهداً ناسكاً ووفّى نذره. فكافأ الإسكندر أولاده.

62- ويذكر أريستوبول بعض العادات الغريبة التي لا مثيل لها، والشائعة في تاكسيلا. فالذين يحول الفقر بينهم وبين تزويج بناتهم على سبيل المثال، يقودونهن إلى السوق وهنّ في زهرة عمرهن؛ ثمّ يدعون الناس بأبواق مصنوعة من القواقع، وبقرع طبول الحرب (وهو نداء الدعوة إلى القتال)؛ ثمّ يكشفون عن جسد الفتاة من الخلف أوّلاً، وبعد ذلك من الأمام، أمام كلّ من يقترب؛ وإذا ما نالت الفتاة إعجاب أحدهم ووافقت هي على الشروط المعروضة، يأخذها زوجة له. وترمى الجثث عندهم لتلتهمها الحدآت. وعادة اقتناء عدد من الزوجات عادة شائعة عندهم كما هي الحال لدى القبائل الأخرى. وسمع أيضاً أن الزوجات لدى بعض القبائل يُحرقن برضاهن مع أزواجهن المتوفين، واللواتي لا يجرؤن على فعل ذلك يلاحقهن العار مدى الحياة. ويتحدّث عن هذه العادة كتّاب آخرون أيضاً.

63- ويروي أونيسيكريتيس إنه أُرسل شخصياً ليتحدّث مع هؤلاء الصوفيين. فقد وصلت إلى مسامع الإسكندر أقاويل تزعم أن هؤلاء الناس يتجوّلون عراة، ويتمرّنون على الجلد والصبر ويحظون بتبجيل عظيم؛ وهم لا يلبّون دعوات الآخرين لهم كي يزوروهم، بل يطلبون أن يأتي هؤلاء إليهم إذا كانوا يرغبون برؤيتهم وسماع أقوالهم ورؤية أفعالهم. وبما أنه لم يكن يليق بالملك أن يمضي بنفسه إليهم، أو يرغمهم على أيّ فعل يخالف التقاليد الموروثة، تقرر أن يمضي أونيسيكريتيس إليهم. وعلى بعد 20 مرحلة عن المدينة قابل أونيسيكريتيس 15 رجلاً منهم؛ وكان هؤلاء عراة يتخذون وضعيات مختلفة تجمع بينها حالة السكون: بعضهم كان واقفاً، وآخرون جالسين، أو مستلقين حتّى المساء، ثمّ يعودون بعد ذلك إلى المدينة. وكان الأمر الأصعب، هو تحمّل

قيظ الشمس الذي كان شديداً إلى درجة أنه كان من المتعذر على أيّ كان غير هؤلاء أن يخطو على الأرض حافياً.

64- لقد تحدّث أونيسيكريتيس إلى أحد هؤلاء الصوفيين، وكان يدعى كالان، وقد رافق هذا الإسكندر إلى بيرسيدا ومات هناك وفق التقليد الموروث: صعد ناراً. وكان أونيسيكريتيس قد وجد كالان مستلقياً على حجارة. فدنا منه محيياً وقال، إنه مرسل من الملك ليتعلم حكمة الصوفيين وينقلها إليه. وأضاف، إنه مستعدّ لسماع تعاليمه إذا لم يكن لديه مانع. وإذ رأى كالان إن أونيسيكريتيس يرتدي معطفاً، وقبعة من اللبّاد، وجزمة، ابتسم وقال: «في الزمن القديم كان دقيق الشعير والقمح يملأ كلّ شيء، كالغبار الآن. وكان بعض الينابيع يجري ماء، وبعضها الآخر لبناً وعسلاً، وبعضها الثالث نبيذاً، والرابع حلاوة. فجعلت التخمة والبذخ الناس متغطرسين. ولمّا لم يعد زيوس يطيق تلك الحال، دمّر ذلك كلّه وحكم على الإنسان أن يعيش من عمله. ولمّا ظهر الاعتدال ثانية على الأرض، وظهرت معه الفضائل الأخرى، عادت وفرة الخيرات من جديد. وها هي شؤون الناس تقترب ثانية من التخمة والتعالي، وثمّة خطر إبادة كلّ شيء». ويروي أونيسيكريتيس، أن الصوفي طلب منه بعد هذه الكلمات، أن يخلع ثيابه ويستلقى عارياً على الحجارة نفسها ويستمع إلى تعاليمه إذا كان يريد ذلك. ولمّا ارتبك أونيسيكريتيس واحتار كيف يتصرّف، وجّه ماندانيوس[50]، وهو الأكبر بين الصوفيين والأكثر حكمة، لوماً إلى كالان لأنه في الوقت الذي يتهم فيه الناس بالعجرفة، يبدو هو نفسه متعجرفاً؛ ثمّ دعا ماندانيوس أونيسيكريتيس وقال له، إنه يوجّه المديح إلى الملك لأنه في الوقت الذي يدير فيه شؤون مثل هذه الدولة العظمى، يتعطش للحكمة؛ فهذا الملك، هو الشخص الوحيد الذي رآه يشتغل بالفلسفة حاملاً السلاح بيده. فأكثر الأشياء فائدة فعلاً، لو امتلك الحكمة أناس قادرون على جعل فريق من الناس أعفاء محتشمين برضاهم، وإرغام الآخرين على فعل ذلك عنوة. وتابع ماندانيوس قائلاً، إنه مدين بالاعتذار، إذا كان وهو يتحدّث عبر ثلاثة مترجمين (الذين ما عدا اللغة، لا تتجاوز معارفهم معارف الدهماء)، لم ينجح في أن ينقل إلى أونيسيكريتيس برهاناً يؤكّد فائدة تعاليمه. فهذا كمن يطلب أن يجري الماء الصافي عبر الوحل.

65- ويقول أونيسيكريتيس، إن حديث الصوفيّ يتلخص في إظهار أنّ أفضل التعاليم هي التعاليم التي تدرأ عن الروح السعادة والحزن. فالحزن والمعاناة مختلفان،

لأنّ الأوّل يؤذي الإنسان، بينما الثانية تنفعه. والناس يعوّدون أجسادهم على العمل لكي يرسّخوا قواهم الروحية ويجعلوها أكثر صلابة؛ ويمكنهم بهذا أن يضعوا حدّاً للعصيان، ويصبحوا مستعدّين لتقديم نصائح طبّية لأيّ كان؛ للدولة كما للأفراد كلّ على حدة. وهو فعلاً نصح تاكسيل أن يستقبل الإسكندر [إذ قال له]، إذا استقبل شخصاً أفضل منه، ينال الخير، وإذا استقبل شخصاً أسوأ منه فإنه يجعله أفضل. ويقول أونيسيكريتيس، إن ماندانيوس سأل بعد ذلك عمّا إذا كان لدى الإغريق مثل هذه التعاليم. فأجاب أونيسيكريتيس: لم يكن فيثاغورس وحده من علّم بهذه الروح ودعا إلى الامتناع عن أكل لحوم الحيوانات، بل هذا ما علّم به أيضاً سقراط وديوجينوس، وإنه هو نفسه كان تلميذاً لهذا الأخير. فاعترض ماندانيوس على هذا وقال، إنه على وجه العموم يرى أن الإغريق ذوو تفكير عقلاني، لكنّهم مخطئون في أمر، هو أنهم يضعون التقليد موضعاً أسمى من موضع الطبيعة؛ وإلاّ لما خجلوا من السير عراة كما يفعل هو، والعيش في ضنك. وأضاف ماندانيوس قائلاً، إن أفضل المنازل هو المنزل الذي أقلّ ما يحتاج إليه هو الموجودات المنزلية. ثمّ يواصل أونيسيكريتيس روايته فيقول، إن الصوفيين يشتغلون أيضاً في تقصّي الظاهرات الفيزيائية، ويدرسون الإمارات، وأسباب هطول الأمطار، وحدوث الجفاف، والأمراض. وأوّل ما يظهرون في المدينة يتوزّعون على الأسواق، وأوّل من يلقونه حاملاً تيناً أو عنباً، يأخذون هذا منه كتقدمة طوعية. وإذا كان هناك زيت زيتون فإنهم يدهنونهم به بغزارة، ثمّ يدلّكون هم أنفسهم أجسادهم به بعد ذلك. وكلّ بيت ثري أبوابه مفتوحة لهم، بما في ذلك قسم النساء. وإذ يدخل الصوفيون المنزل، يجلسون إلى المائدة، ويشاركون أهله الحديث. ويرون في العلّة الجسدية أعظم عار. وإذ يشتبه أحدهم بتسرّب مرض إلى جسده يحرق نفسه فوراً: يجمع الحطب ويأمر باشعال النار ليحرق ساكناً من غير حراك.

66- ويروي نيارخس عن الصوفيين ما يلي. يمارس فريق من البراهمن الأعمال الحكومية، فيرافقون الملك بصفتهم مستشارين. ويشتغل الفريق الآخر منهم في دراسة الظاهرات الفيزيائية؛ وإلى هؤلاء ينتمي كالان. وتشاركهم زوجاتهم العمل في الفلسفة. ويعيش هؤلاء كلهم نمط عيش صارم. ويقول عن عادات باقي الهنود ما يلي. القوانين عندهم غير مدوّنة، سواء القوانين العامّة أو الخاصّة، وهي تتميّز بفرادتها، مقارنة بقوانين الشعوب الأخرى. فعند بعض القبائل مثلاً، يمنحون الفتيات مكافأت لمن يفوز

في مباريات العراك بالأيدي، فتصبح هؤلاء زوجات من غير مهر. وعند آخرين لزاماً أن تحرث الحمولة كلّها الأرض معاً، وبعد جني المحصول ينال كلّ منهم حصة من الغلال تكفيه لعام كامل؛ ثمّ يحرق الباقي لكي يبقى كلّ منهم متأكّداً من أنه لا مفرّ له من العمل في المرّة القادمة فيبتعد عن تبذير وقته باللهو. ويتألّف تسليحهم من قوس وسهام طول الواحد منها 3 أذرع، وترس وسيف عريض طوله 3 أذرع . ويستخدمون بدلاً من اللجام حلقة في الأنف، ولا تختلف هذه كثيراً عن الكمّامة، ويغرسون في شفاه الخيل مسامير.

67- ويقول نيارخس في معرض برهانه على إنّ الهنود حرفيون مهرة، إن هؤلاء رأوا الليف لدى المقدونيين فصنعوا مثله؛ لقد شبكوا الصوف مع الشعر في خيوط وأشرطة دقيقة، ثمّ صنعوا من هذا لبّاداً وسحبوا الخيوط، أمّا الصوف فقد صبغوه. وعلاوة على ذلك، سرعان ما ظهر كثير من صانعي مقاشط الحمّام، وآنية الزيت. ويكتب هؤلاء رسائلهم على قطع قماشية رقيقة منسوجة بإحكام، مع أن الكتّاب الآخرين يزعمون إنّ الهنود لا يعرفون الرموز الكتابية. ويستخدمون النحاس مصبوباً وليس مطروقاً. بيد أنه لم يوضح أسباب هذا، مع أنه أشار إلى الإرباك الذي ينتج عن ذلك، فالآنية المصنوعة من مثل هذا النحاس تتكسر عندما تسقط، مثلها مثل الآنية الطينية. ومن أخبار الهند أيضاً، أنهم يخاطبون الملوك، وأصحاب النفوذ، والوجهاء وهم في وضعية الصلاة بدلاً من الركوع. وفي هذه البلاد حجارة كريمة ذات ياقوتات متنوّعة كالجمانه تماماً.

68- وهأنذا أسوق قصّة كالان كمثال على تضارب ما نقله الكتّاب عن الهند. فالكتّاب كلّهم متفقون على أنّ كالان رافق الإسكندر، وبحضوره أنهى حياته حرقاً بكامل إرادته. بيد أنه فيما يتعلّق بطريقة الحرق نفسها ودوافعها، فإن الكتّاب يوردون روايات مختلفة. فهم يروون أن كالان تبع الملك بصفته من مدّاحي مآثره خارج حدود الهند، على الضدّ من التقليد العام السائد لدى الفلاسفة المحلّيين. فالفلاسفة الهنود يتواصلون مع الملوك ليرشدوهم إلى عبادة الآلهة وتبجيلهم، مثلما يفعل كهنة الملوك الفرس. وفي باسارهاد اعتلّ كالان؛ ولأوّل مرّة هاجمه المرض، وكان في 73 من عمره، فتجاهل كلّ توسلات الملك ووضع حدّاً لحياته. لقد جمعوا كوماً من الحطب ووضعوا فوقه مرقداً ذهبياً. واستلقى كالان على المرقد، ولفّ في غطاء وأُحرق. لكنّ آخرين يروون، أنهم بنوا منزلاً خشبياً ملؤوه بأوراق النباتات؛ وجمعوا على سطح المنزل

كوماً من الحطب وأضرموا النار فيه. وبعد موكب احتفالي شارك فيه كالان نفسه، دخل هذا إلى المنزل وأمر أن يغلق عليه الباب. ثمّ رمى الفيلسوف بنفسه إلى النار وأحرق مع البيت كجذع من الحطب. وعلى حدّ قول ميغاسفين، إنّ تعاليم الفلاسفة لا تلزم أنصارهم بوضع حدّ لحياتهم، ومن يفعل ذلك يعدّونهم كالفتى الطائش. ويقول هذا الكاتب، إن أصحاب الإرادة الصلبة يهوون بأنفسهم فوق سيف، أو يرمون بأنفسهم إلى هاوية سحيقة؛ ومن يرغب في تفادي الآلام، يقذف نفسه في لجّة بحرية، أمّا الذين اعتادوا على المعاناة فيشنقون أنفسهم، لا يرمي بنفسه إلى النار سوى ذوي الطباع الحادّة. وهكذا كان كالان أيضاً، الرجل المتهوّر الذي صار إلى عبد على مائدة الإسكندر. ولذلك لاموه ومدحوا ماندانيوس. فقد دعا رسل الإسكندر ماندانيوس ليأتي إلى ابن زيوس، ووعدوه إذا فعل بعطاءات ملكية، وأنذروه بالعقاب إذا رفض. لكنّ الصوفيّ أجابهم قائلاً، ليس الإسكندر ابن زيوس، لأنه لا يمتلك حتّى قبضة تراب؛ وأنا لست بحاجة إلى عطاءات عاجز عن إشباع نهمه هو نفسه؛ ولا أخاف وعيده، ففي حياتي تكفيني الهند مطعمة، وفي موتي خلاص لنفسي من أهواء جسدي، وانتقالي إلى حياة أفضل وأكثر نقاء. فأعجب الإسكندر بماندانيوس ووافقه رأيه.

69- ويروي المؤرّخون ما يلي أيضاً. يعبد الهنود زيوس اومبريوس، ونهر الغانج، وآلهة محلّية، وفي كلّ مرّة يغسل الملك فيها شعره يقيمون احتفالاً كبيراً ويرسلون هدايا كبيرة، ويسعى كلّ منهم خلال الاستراحات إلى إظهار مدى ثرائه. ويروون أيضاً، أن بعض النمل الحافر الذهب[51] له أجنحة. ويحملون الرمال الذهبية نزولاً مع مجرى النهر، كما هي الحال في أنهار إيبيريا. وفي أوقات المواكب الاحتفالية، يقودون كثيراً من الفيلة المزيّنة. بحليّ ذهبية وفضيّة، وتشارك في المواكب أيضاً كثرة من المركبات التي تجرها أربعة جياد، وأخرى تجرها الثيران. وتسير بعد ذلك القوّات في زيّها الاستعراضي؛ ثمّ يحملون الآنية الذهبية وفيها مراجل كبيرة، وأكواب سعة الواحد منها أورغيا، يلي ذلك الطاولات، والكراسي، والكؤوس، والمغاطس المصنوعة من النحاس الهندي، وأكثر هذه الأشياء مطعّم بالحجارة الكريمة، والزمرّد، والياقوت الهندي؛ كما أنّ ملابس المشاركين في الموكب ملوّنة ومطعمة بالذهب؛ ووراء هذا كلّه تسير الجواميس، والفهود، والأسود المروّضة، وكثرة كثيرة من شتّى أنواع الطيور التي تشدو. ويذكر كليتارخ مركبات بأربع عجلات تحمل أشجاراً أوراقها كبيرة تقف عليها أنواع شتّى من الطيور الداجنة. ويقول كليتارخ إن

غناء الأوريون[52]، كان الأعذب بين هذه الطيور كلها، بينما كان الكاتريه[53] أروعها شكلاً وأكثرها تلوّناً. فهذا الطائر هو الأكثر شبهاً بالطاوس. ومن يرغب بمزيد من الوصف يمكنه الرجوع إلى كليتارخ.

70- ويعاكس الكتّاب البراهمن بالبرامنيين كفئة خاصة من الفلاسفة الذين ينزعون نحو السجال والدحض. ويهزأ هؤلاء الفلاسفة بالبراهمن الذين يشتغلون بدراسة ظاهرات الطبيعة، وعلم الفلك، ويرون فيهم متشدّقين وحمقى. ويدعى فريق من البرامنيين «جبليين» ويدعى آخرون منهم «عراة»، ويدعى فريق ثالث «مدينيين»، ورابع «جيراناً». ويرتدي البرامنيون الجبليون جلود الأيائل، ويحملون أجربة مليئة بالجذور والعقاقير الدوائية، فهم يرون أنفسهم ضليعين في شؤون المداواة باستخدام الشعوذة، والرّقى، والتمائم. أمّا البرامنيون العراة، فهم كما تدل تسميتهم، يتجوّلون عراة، ويقضون أكثر أيامهم في العراء، ويتدرّبون على الصبر حتّى سن 37، كما كنت قد أسلفت القول[54]. وتعيش معهم زوجاتهم، لكنّهم لا يعاشروهن. ويكنّ الهنود احتراماً خاصاً لهؤلاء الفلاسفة.

71- أمّا البرامنيون المدينيون، فإنهم يرتدون الملابس الكتانية، ويعيشون في المدينة أو في القرى، حيث يرتدون هنا جلود الأيائل أو جلود الغزلان. والهنود على وجه العموم يرتدون الثياب البيضاء سواء البيضاء الكتانية، أو تلك التي تصنع من المنسوجات الورقية، لكنّ هذا يتعارض مع ما يرويه الكتّاب الذين يزعمون أنّ الهنود يرتدون ملابس زاهية مزركشة. ويطلق الهنود كلّهم لحاهم وشعر رؤوسهم، ويعقدون على رؤسهم عصابات من القماش.

72- ووفق رواية أرتيميدور أنّ الغانج يجري من الجبال الإمودية جنوباً؛ وعندما يصل النهر إلى مدينة غانج ينعطف شرقاً حتّى باليبوفرا والمكان الذي يدخل فيه البحر. ويذكر أرتيميدور واحداً من روافد الغانج، هو نهر إيدانا الذي يقول الكاتب، إنه يعجّ بالتماسيح والدلافين. كما ينقل أيضاً بعض الأخبار الأخرى، لكنّه ينقلها بكثير من الغموض والإرباك، الأمر الذي يجعلنا نهملها. ويمكننا أن نضيف إلى القصص التي سيقت هنا، رواية نيقولا الدمشقي.

73- يروي هذا الكاتب، إنه قيّض له أن يلتقي يوماً في أنطاكيا، قرب دافنا، سفراء هنود كانوا متوجهين إلى قيصر أغسطس. وكانت الرسالة المرفقة تحمل أسماء عدد أكبر من المبعوثين، بيد أنه لم يبق منهم على قيد الحياة سوى ثلاثة (وهم السفراء

الذين يقول إنه قابلهم)؛ وكان أكثر الآخرين قد قضى بسبب مشاقّ الطريق الطويلة. وكانت الرسالة مكتوبة باللغة الإغريقية على رقّ من الجلد وعليها اسم مؤلّفها بور. ومع أنّ هذا الأخير كان يسود على ستمئة ملك، إلاّ أنه قدّر عالياً جداً أن يحظى بشرف صداقة قيصر، وعبّر عن استعداده للسماح بعبور بلاده إلى حيث يشاء قيصر أن يعبر، كما وعد أن يقدّم العون في كلّ التدابير العادلة. على هذا النحو كان محتوى الرسالة، بحسب رواية نيقولا الدمشقي. وكان يحمل الهدايا المرسلة ثمانية عبيد عراة لا يرتدون سوى مآزر أمامية، وتفوح منهم رائحة العطر. وكانت تلك الهدايا تتألّف من: هرمس[55]، وهو إنسان مولود من غير يدين (وقد رأيته أنا بعيني)، وحيّات كبيرة طول الواحدة منها 10 أذرع، وسلحفاة نهرية طولها 3 أذرع، وحجل حجمه أكبر من حجم الحدأة. وكان مع السفراء على حدّ قوله، ذلك الشخص الذي أحرق نفسه في أثينا. ويقول أيضاً: وعلى هذا النحو فإن بعضهم يضع حدّاً لحياته من فرط اليأس وبحثاً عن الخلاص من مآسي الحاضر، وآخرون يضعون حدّاً لحياتهم من فرط السعادة، كما فعل هذا الأخير. ويواصل نيقولا روايته فيقول، فعلاً، لقد سار كلّ شيء حسب رغبة هذا الشخص؛ لكنّه رأى أنه من الضروري أن يرحل عن الحياة لكي لا يقع شيء ما يتسبب بالكدر، إذا ما بقي على قيد الحياة. ولذلك قفز إلى النار وهو مبتسم وعار إلاّ من مئزر أمامي، بعد أن دهن نفسه بالزيت. وقد كتبت الكلمات التالية على قبره: «يرقد هنا زارمانوهيغ[56]، هندي من بارغوسا أمات نفسه وفق التقليد الهندي القديم».

الفصل الثاني

1- وتأتي بعد الهند أريانا، وهي الشطر الأوّل من المنطقة الخاضعة للفرس وراء نهر الهندوس، والولايات العليا الواقعة وراء طوروس. ويحدّ أريانا من الجنوب والشمال، البحر نفسه، والجبال نفسها التي تحدّ الهند، والنهر عينه، نهر الهندوس الذي يجري بينها وبين الهند. ومن نهر الهندوس تمتدّ أريانا نحو الغرب حتّى الخطّ الذي يمتدّ من البوابات القزوينية إلى كارمانيا، وعليه، فإنها تبدو بأربع أضلاع. فتبدأ ضلعها الجنوبية من مصبّي الهندوس وباتالينا لتنتهي عند كارمانيا وعند مدخل الخليج الفارسي حيث تشكّل هناك رأساً بحرية تبرز بعيداً نحو الجنوب. ثمّ تنحني في الخليج نحو بيرسيدا. ويسكن في أريانا، أوّلاً، الأربيون الذين يحملون اسم نهر أربيس الذي يفصلهم عن الأوريتيين الذين يلونهم مباشرة. وبحسب قول نيارخس إن الأربيين يشغلون

ساحلاً يمتدّ 1000 مرحلة. ويعدّ هذا الساحل جزءاً من الهند أيضاً. ويأتي الأوريتيون بعد ذلك، وهم شعب قائم بذاته. ويبلغ امتداد الطريق البحرية على طول شواطئ هذه البلاد التي يسكنها هذا الشعب 1800 مرحلة، وعلى طول ساحل منطقة الإيختيوفاغيين التالية مباشرة، 7400 مرحلة، أمّا على طول منطقة الكارمانيين حتّى بيرسيدا فيبلغ طول هذه الطريق 3700 مرحلة. وعلى هذا النحو يكون الامتداد الكلّي لهذه الطريق 13900 مرحلة[1].

2- وساحل الإيختيوفاغيين[2] منبسط، شطره الأكبر خال من الشجر، ماعدا شجر النخيل، ونوع ما من أنواع العضاهة، والأثل. وتعاني هذه المنطقة من نقص في الماء والغلال. ويقتات الناس والحيوانات فيها على الأسماك، ويشربون مياه المطر والآبار، ولذلك فإن رائحة السمك تفوح من لحوم حيواناتهم المنزلية. ويبني الإيختيوفاغيون أكثر مساكنهم من عظام الحيتان وصدفات المحار، فيستخدمون أضلاع الحيتان عوارض، وفكوكها أبواباً؛ ويصنعون من عظام عمودها الفقري أجراناً يهرسون فيها الأسماك، بعد أن يجففوها تحت أشعة الشمس؛ ثمّ يضيفون إليها قليلاً من الدقيق ويخبزون من هذا الخليط خبزاً. ومع أنهم لا يعرفون الحديد، لكنّ عندهم مطاحن يدوية. وعلى وجه العموم ليس هذا مستغرباً، فقد كان بإمكانهم أن يأتوا بالمطاحن من أماكن أخرى. ولكن كيف يصلحون أجزاء المطحنة التي تفلّ من كثرة الاستعمال؟ إنهم يزعمون أنّهم يفعلون ذلك باستخدام الحجارة نفسها التي يسنّون عليها السهام والمزاريق المحمّاة على النار. أمّا الأسماك فهم يشوونها في أفران، لكنّهم يأكلون الكمَّ الأكبر منها نيئاً. ويصيدون الأسماك بشباك مصنوعة من ألياف النخيل.

3- وتقع فوق منطقة الإيختيوفاغيين بلاد تدعى هدروسيا، وهي أقلّ قيظاً من الهند، لكنّها أكثر حرّاً من باقي آسيا. وتعاني هذه البلاد من نقص في الغلال والماء (ما عدا فصل الصيف)، وهي على وجه العموم أفضل بعض الشيء من بلاد الإيختيوفاغيين. لكنّ هدروسيا غنية بالجذور العطرية، خاصة المرّ والناردين، فقد استخدمت قوات الإسكندر هذين النباتين أغطية لخيامها ومفارش فيها، فاستمتعت بأريجها، واستنشقت هواء نقياً. وعن سابق قصد جرت عودة القوات من الهند صيفاً، لأنّ الأمطار تهطل في هدروسيا في هذا الفصل، فتمتلئ الأنهار والأحواض المائية بالماء؛ بينما تجف في فصل الشتاء. فالأمطار تهطل في الأجزاء الشمالية العليا من البلاد، وعلى مقربة من الجبال. وعندما تمتلئ الأنهار بالماء، تروي السهول القريبة من البحر، ويظهر

في الأحواض المائية فيض من المياه. وكان الملك قد أرسل أمامه فريقاً لحفر الآبار في الصحراء، وإعداد أماكن لاستراحته واستراحة الأسطول.

4- وبعد أن قسم الإسكندر قواته إلى ثلاثة أقسام، عبر هدروسيا على رأس واحد منها. واتخذ في غضون ذلك طريقاً لا تبعد عن البحر أكثر من 500 مرحلة، وكان هدفه من ذلك، هو ترك فرصة للأسطول لكي يستخدم الساحل. وفي بعض الأحيان كان الإسكندر يقترب من البحر مباشرة، مع أن الشواطئ كانت وعرة وصخرية. وقبل أن ينطلق، كان الإسكندر قد أرسل عبر المنطقة الداخلية القسم الثاني من قواته وعلى رأسها كراتر الذي كان عليه أن يخضع أريانا أيضاً، ويصل قبله إلى المكان نفسه الذي توجه إليه الإسكندر. وعهد الإسكندر بقيادة الأسطول إلى نيارخس وأونيسيكريتيس الذي كان الرّبان الأكبر، وأمرهما باختيار الأمكنة الملائمة للاستراحات، والإبحار وراء القوات على طول الشاطئ بموازاة طريق مسيرها.

5- وبحسب نيارخس أن الملك نفسه بدأ إبحاره في الخريف لدى ظهور الثريا في الغرب، حيث كان قد اجتاز هدروسيا. ولم تكن الرياح باتت مواتية بعد، كما هاجم البرابرة المقدونيين في محاولة لطردهم. ويتابع نيارخس قائلاً، إنه مع رحيل الملك نشط البرابرة وباتوا يتحرّكون بحرّية. أمّا كراتر فبعد أن أقلع من هيداسب تحرّك عبر منطقة الأراخوتيين والدرانغيين إلى كارمانيا. وكان على الإسكندر أن يتحمل نكبات كثيرة على طول طريق عبوره، لأنه كان يسير عبر منطقة شحيحة خاوية. وكانت المؤن تأتي إليه من أماكن بعيدة وبكميات محدودة جداً، وعلى فترات متباعدة، لذلك كانت القوات تعاني من الجوع. كما كانت حيوانات النقل تنفق، فيضطرون إلى رمي أحمالها على الطرقات، أو أبقائها في المعسكر. ولم ينقذ القوات من الجوع سوى شجر النخيل: لم تأكل القوات ثمره فقط، بل «كرنبه»[3] أيضاً. وعلى أيّ حال كان الإسكندر، على حدّ قولهم، يدرك صعوبات الحملة قبل انطلاقه بها. لكنّه كان يضمر مقصداً ذاتياً كان فيه كثير من الغطرسة وحب الذات (فقد كان شائعاً أن سميراميس فرّت هاربة من الهند ومعها حوالي 20 نفراً، أمّا قورش فلم يصل معه سوى 7 أنفار فقط): أفلا ينجح هو في تجاوز هذه الصعوبات ويقود هذا الجيش الجرار عبر تلك البلاد نفسها[4]، ويخرج منها سليماً مع قواته.

6- وعلاوة على فقر البلاد، نالته معاناة شديدة من قيظها الحارق ورمالها العميقة الملتهبة، ففي بعض الأماكن كانت تواجهه كثبان رملية عالية إلى حدّ بدا

فيـه أن القـوات تواجـه صـعوبة في الحركـة كمـا لـو كـان واحـدهم ينتـزع قدميـه مـن حفرة، لكنّهم كانوا يصعدون تارة وينحدرون تارة أخرى. ونزولاً عند ضرورة [البحث] عن آبار، اضطروا إلى عبور مراحل بطول 200 أو 300، وأحياناً 600 مرحلة، كانوا يتحرّكون أثناءها ليلاً بشكل أساس. ولكنّهم كانوا يقيمون معسكراتهم على مسافة 30 مرحلة من البئر، كي لا يشرب الجنود كثيراً من الماء. وفعلاً كان كثير من الجنود يرمي بنفسه إلى البئر وهو في سلاح الميدان الكامل، ويعبّ الماء كما لو كان يغرق. ثمّ لا يلبث هؤلاء أن يفارقوا الحياة، فتنتفخ جثثهم وتطفوا على سطح الماء، وبذلك تغدو مثل هذه الآبار على قلّتها، غير صالحة للاستخدام. وكان جنود آخرون أضناهم الظمأ يستلقون وسط الطريق تحت أشعة الشمس الحارقة يحتضرون وهم في حالة اختلاج، أيديهم وأرجلهم ترتجف كما لو كان قد أصابهم وباء. وكان بعضهم ممن ضلّ طريقه مصادفة، يغفو مستسلماً للنوم والإرهاق. كما كان ثمّة من يتخلّف عن المسير فيضل بين الدروب ويهلك بسبب نقص كلّ ما هو ضروري، كما بسبب القيظ أيضاً؛ أمّا ما تبقى فقد كانوا ينجحون في تخطّي الصعوبات كلّها وينجون بحياتهم. وهلك كثير من المعدات والناس في أمواج السيول الجبلية التي كانت تنهال ليلاً على حين غرّة، وهلك في غضون ذلك كثير من المعدات والمقتنيات الملكية. ومرّة عندما ضلّ الأدلاّء الطريق بسبب عدم معرفتهم بها، وتوغلوا عميقاً في داخل البلاد، وغاب البحر من دائرة رؤياهم، لاحظ الملك هذا الخطأ فوراً وأرسل من يبحث عن الشاطئ. وحينما عثروا عليه، وحفروا بئراً، ورأى المياه العذبة، أرسل يستدعي القوات، ثمّ سار 7 أيام على مقربة من الشاطئ الذي كانت فيه وفرة من مياه الشرب. وانعطف بعد ذلك إلى الأجزاء الداخلية من البلاد.

7- وكانت هناك نبتة ما أن تأكلها حيوانات النقل حتّى تنفق وعلى أفواهها زبد بعد أن تعاني حالة صرع. كما كانت هناك أيضاً نبتة شوكية تستلقي ثمارها على الأرض كالخيار، وكانت الثمار مليئة بالعصير الذي إذا ما مسّ عينيّ الكائن الحيّ، يفقد بصره. وهلك كثير من الناس الذين أكلوا ثمار النخيل قبل أن تنضج. كما كان الخطر يتمثل في الثعابين أيضاً. فقد كانت تنمو على الكثبان الرملية عشبة تختبئ فيها هذه الأخيرة؛ وكلّ من تلدغه كان يموت. ووفق الروايات أن السكّان في بلاد الأوريتيين يشبعون السهام الخشبية المقسّاة على النار، سمّاً زعافاً. ولـمّا أصيب بطليموس بواحد من هذه السهام وبات قاب قوسين أو أدنى من خطر

الموت، جاء أحدهم الإسكندر في الحلم، ودلّه على جذر بساقه، وأمره أن يهرسه ويضعه على الجرح. وحينما صحا الإسكندر تذكّر الرؤيا، فأخذ يبحث عن الجذر الذي ينمو في المكان بكثرة، فوجده؛ وبعد ذلك أخذ الآخرون أيضاً يستخدمون هذا الجذر. ولمّا رأى البرابرة أن الملك عثر على الترياق، خضعوا له. ولا شك في أنّ أحداً ما كان على معرفة بوجود هذا الترياق فأخبر الملك به، أمّا التفاصيل الخرافية فقد أنشئت تدلّساً للملك. ولمّا وصل الإسكندر إلى المقرّ الملكي الهدروسي في اليوم السادس عشر بعد انطلاقه من بلاد الأورو[5]، منح قواته استراحة قصيرة ثمّ تحرّك إلى كارمانيا.

8- على وجه التقريب، هذه هي الحالة الجغرافية للجانب الجنوبي من أريانا على الساحل، وفي مناطق الهدروسيين، والأوريتيين الواقعة فوق الساحل مباشرة. إنّ أريانا بلاد شاسعة، وحتى هدروسيا تتوغّل في عمق البلاد لتصل إلى أرض الدرانغيين، والأراخوتيين، والباروباميسادس الذين يروي عنهم إيراتوسفين الآتي (فأنا لا أستطيع أن أقدّم أفضل وصف لهذه البلدان مهما كان الأمر). يقول إيراتوسفين: يحدّ أريانا من الشرق نهر الهندوس، ومن الغرب البحر العظيم، ومن الشمال جبل باروميس والجبال التي تليه وصولاً إلى البوابات القزوينية وحدود أجزائها الغربية، هي الجبال نفسها التي تفصل بارثيا عن الهند، وكارمانيا عن باريتاكينا وبيرسيدا. وعرض البلاد، هو نفسه طول نهر الهندوس من باروباميس حتّى مصبّيه، أي 12000 مرحلة (وبحسب آخرين 13000 مرحلة)؛ ويشار إلى طولها من البوابات القزوينية، كما ورد في «سجلّ محطات الطرق الآسيوية»[6]، بطريقتين: حتّى الإسكندرية التي في بلاد الآريين، من البوابات القزوينية عبر منطقة البارثيين، تمتدّ الطريق نفسها؛ ومن هنا تمرّ بعد ذلك طريق مباشرة عبر باكتريانا والممرّ الجبلي إلى أورتوسبانا حتّى تقاطع ثلاث طرقات من باكترا، وهي المدينة التي تقع في منطقة الباروباميسادس؛ وتنعطف الطريق الأخرى قليلاً إلى الجنوب من آريا نحو بروفتاسيا إلى درانغيانا؛ ويقود القسم المتبقي منها رجوعاً حتّى حدود الهند، ونهر الهندوس. وعلى هذا النحو فإن هذه الطريق عبر منطقة الدرانغيين والأرخوتيين أطول؛ ويبلغ كامل طولها 15300 مرحلة. وإذا ما أخذنا من هذا الرقم 1300 مرحلة، فإن الباقي هو طول البلاد على خطّ مستقيم: 14000 مرحلة. ويبلغ طول الخطّ الساحلي أقلّ بقليل[7] من هذا، مع أنّ بعض الكتّاب يبالغون في طوله الكلي، فيزيدون إلى 10000 مرحلة كارمانيا التي تمتدّ

على 6000 مرحلة. ومن الواضح أن هؤلاء يحسبون هذا الطول بعد إضافة الخلجان، أو مع قسم الساحل الكارماني الممتدّ داخل الخليج الفارسي. وعلى وجه العموم، فإنّ تسمية أريانا تنسحب على شطر من فارس وميديا، كما على الأجزاء الشمالية من بلاد الباكتريين والسوغديين. فهذه الشعوب تتحدّث لغة واحدة تقريباً، مع بعض الشذوذ الذي لا أهمية له.

9- أمّا التوزّع الجغرافي للشعوب فهو على النحو الآتي: على مجرى الهندوس يعيش الباروباميسادس، ويعلو فوقهم جبل باروباميس؛ وأبعد نحو الجنوب يسكن الأراخوتيون، وأبعد منهم جنوباً يقطن الهدروسينيون مع القبائل الأخرى التي تشغل الساحل. ويجري الهندوس على طول مناطق هذه القبائل كلّها، على دائرة عرض هذه الأماكن. وبعض هذه المناطق الواقعة جزئياً على طول نهر الهندوس والتي كانت سابقاً للفرس، يملكها الهنود الآن. وقد انتزع الإسكندر هذه الأراضي من الأريانيين، وبنى هناك مستوطناته الخاصة، لكن سلوقس نيكاتور أعادها إلى ساندروكوت؛ فقد وقع اتفاقاً مع هذا الأخير قضى بالتزاوج الشرعي بين الفريقين الهندي والإغريقي المقدوني، وحصل لقاء ذلك على 500 فيل. وفي غربي بلاد الباروباميسادس يسكن الآريون، وعلى امتداد أراضي الأراخونيين، أو الهدروسيين يسكن الدرانغيون. ويعيش الآريون على طول بلاد الدرانغيين في الشمال والغرب، كما لو أنهم يطوّقون شطراً من منطقتهم. أمّا باكتريانا فهي تقع إلى الشمال على طول آريا وبلاد الباروباميسادس؛ وفي هذه المنطقة انحدر الإسكندر عبر القفقاس متّجهاً نحو الباكتريين. وفي الغرب وراء الآريين مباشرة يعيش البارثيون، وتقع المنطقة القريبة من البوابات القزوينية. وإلى الجنوب من هذه المناطق تقع صحراء كارمانيا، ثمّ يلي ذلك باقي أجزاء كارمانيا وهدروسيا.

10- وسيغدو ما روي عن البلاد الجبلية المذكورة أكثر وضوحاً لو تتبّعنا بالتفصيل الطريق التي قطعها الإسكندر إلى باكتريانا انطلاقاً من منطقة بارثيا وهو يطارد بيّس. فقد وصل أولاً إلى أريانا، ثمّ إلى أرض الدرانغيين، حيث أمر بإعدام فيلوتوس بن بارمنيون الذي كان ضالعاً في المؤامرة. كما أرسل الإسكندر عدداً من الأشخاص الآخرين إلى إيكباتانا بمهمّة قتل والد فيلوتوس بصفته شريكاً في المؤامرة. ويروى أنّ هؤلاء اجتازوا على ظهور الهجن في 11 يوماً طريقاً يحتاج اجتيازها في الأحوال العادية إلى 30 أو 40 يوماً، ونفّذوا المهمّة. وعلى وجه العموم، يحاكي الدرانغيون

الفرس في نمط عيشهم، لكنّهم يعانون نقصاً في النبيذ؛ ويوجد القصدير في بلادهم. ومن منطقة الدرانغيين وصل الإسكندر بعد ذلك إلى اليفريجيتيين[8] (الذين أطلق قورش هذا الاسم عليهم)، والأراخوتيين. وبعد ذلك عبر بلاد الباروباميسادس لدى غروب الثريا. وهذه الأخيرة بلاد جبلية كان الثلج يغطيها في هذا الوقت، ولذلك كانت الطريق صعبة جدّاً. ومع ذلك كان هناك كثير من القرى الغنية بشتّى أصناف السلع التموينية، ما عدا زيت الزيتون؛ وقد استقبل سكّانها الجنود وخففوا من معاناتهم. وكانت ترتفع من جهة اليسار قمم جبلية. فالأجزاء الجنوبية من جبل باروباميس تعود للهند وأريانا، أمّا أجزاؤه الشمالية فالغربية منها للباكتريين، والشرقية للبرابرة [جيران] الباكتريين. وهنا قضى الإسكندر فصل الشتاء، حيث الهند على يمينه من فوق، وبنى المدينة في المكان؛ ثمّ عبر القمة إلى باكتريانا عبر الطرقات التي تمرّ في المكان الخالي من أي نباتات، ما عدا شجيرات نادرة صغيرة تشكل نجيمات متباعدة. وكان الشحّ في المؤن قاسياً إلى درجة اضطروا عندها إلى استهلاك لحوم حيوانات النقل نيئة بسبب عدم وجود أيّ حطب. ولدى استخدام اللحوم النيئة في الطعام، كان نبات السلفيوم الذي ينمو [هناك] بكثرة وسيلة ساعدتهم على سلقه. وبعد 15 يوماً من بناء المدينة، ترك الإسكندر معسكره الشتوي وجاء إلى أدرابسا[9]، وهي مدينة تقع في باكتريانا.

11- وفي مكان ما من أجزاء البلاد هذه، المجاورة للهند، تقع هآرينا. ومن بين كلّ المناطق الخاضعة للبارثيين، هذا المكان هو الأقرب إلى الهند. فهو يبعد عن أريانا[10] (عبر بلاد الأراخوتيين والبلاد الجبلية التي ذكرناها) 9 أو 10 آلاف مرحلة[11]. وقد اجتاز كراتر هذه المنطقة وأخضع سكّانها العصاة المتمرّدين، مسرعاً عبر أقصر الطرق للالتحاق بالملك؛ وفي وقت واحد تقريباً التقى قسما القوات فعلاً في كارمانيا. وبعد بعض الوقت وصل نيارخس على رأس أسطوله إلى الخليج الفارسي، بعد أن نزلت به نكبات كثيرة خلال تيهه، وعانى من الحرمان والأخطار التي مثلتها الوحوش البحرية العملاقة.

12- وعلى وجه العموم قد يكون هؤلاء البحارة بالغوا في أشياء كثيرة، ومع ذلك فإن قصص هؤلاء الناس تبيّن بوضوح المعاناة التي كابدوها، لأنّ فيها من الخوف من البلوى أكثر مما فيها من المعاناة من خطر البلية الحقيقية. فقد كان رعبهم الأكبر من حيتان العنابر المهولة التي كانت تقذف من فتحات رؤوسها شخبات مائية

شديدة، وسحباً من رذاذ الماء تجعل من الصعب على البحارة أن يميّزوا حتّى الأشياء التي تحت أقدامهم. وكان ربابنة السفن يخبرون الجنود الذين أخذ بهم الخوف كلّ مأخذ، لأنهم كانوا يجهلون سبب هذه الظاهرة، إن حيوانات بحرية هي التي تحدثها، وسرعان ما كانت هذه الأخيرة تتفرّق، بحسب رواياتهم، فور سماعهم أصوات الأبواق والصخب. ولذلك كان نيارخس يخيف هذه الحيوانات بصخب المجاديف، إذ يوجّه عمارته إلى المكان الذي كانت الحيوانات تعوق فيه عبور السفن، وفي الوقت نفسه كان يستخدم أصوات الأبواق أيضاً لطردها. وفي أوّل الأمر كانت حيتان العنابر تغوص في عمق الماء، لكنّها كانت لا تلبث أن تظهر من جديد بحثاً عن القوت، وعلى هذا النحو كانت ترتسم لوحة معركة بحرية. لكنّها على وجه العموم سرعان ما كانت تتفرّق.

13- وكلّ من أبحر إلى الهند في زمننا هذا يتحدّث عن الأحجام العظيمة لهذه الحيوانات، وعن ظهورها من وقت لآخر؛ ولكنّهم يقولون، إن حيتان العنابر لا تهاجم بقطعان كبيرة، وإن الصخب وأصوات الأبواق تطردها وترغمها على أن تتفرّق. وعلى حدّ قولهم إن حيتان العنابر لا تقترب من الشاطئ كثيراً، لكنّ الأمواج تقذف عظام الحيوانات الميتة التي تساقط لحمها إلى الشاطئ بسهولة حاملة بذلك للإختيوفاغيين المادّة الأولية اللازمة لبناء أكواخهم، كما أشرنا سابقاً. ووفق نيارخس إن حجم الواحد من هذه الحيتان 23 أورغيا. ويقول، إنه بيّن خطأ القصة التي كانت شائعة في أوساط بحارة أسطوله: لقد كان البحارة على يقين بأن جزيرة ما تقع على طريقهم، وأن كلّ من يرسو عندها يختفي. ثمّ يتابع نيارخس روايته قائلاً، ثمّة سفينة صغيرة دنت فعلاً من هذه الجزيرة، ولم يرها أحد بعد ذلك؛ فأرسل عدد من الرجال للبحث عنها، لكنّهم داروا حولها ولم يجرؤوا على الرسوّ عندها، ونادوا على الرجال الذين اختفوا هناك من بعيد، ولمّا لم يجبهم أحد، عادوا أدراجهم. ومع أن جميعهم عدّ الجزيرة سبب اختفاء هؤلاء الناس، إلاّ أن نيارخس، على حدّ قوله هو نفسه، أبحر إلى هناك ورسا عند الجزيرة، ونزل عليها مع عدد من مرافقيه وجال عليها. وبما أنه لم يعثر حتّى على أثر للمفقودين، عزف عن متابعة البحث. ولدى عودته أعلن أمام البحارة، أنه من العبث اتهام الجزيرة بأنها سبب اختفاء الناس (وإلاّ لجرى له ومن كانوا معه على الجزيرة الشيء نفسه الذي جرى للآخرين)، وإن السفينة هلكت لسبب آخر، فثمّة آلاف الأسباب لذلك.

14- إنّ كارمانيا هي آخر بلاد على الساحل إذا أنطلقنا من نهر الهندوس، على الرغم من أنها تقع بعيداً إلى الشمال من مصبّه. وتبرز أولى رؤوسها البحرية نحو الجنوب في عرض البحر الكبير؛ وبعد أن تشكل مدخلاً إلى الخليج الفارسي مع الرأس التي تمتدّ من العربية السعيدة وتظهر للعيان، تتعطف كارمانيا نحو الخليج الفارسي إلى أن تصل إلى بيرسيدا. وكارمانيا منطقة شاسعة، وفي الشطر الداخلي من البلاد تمتدّ بين هدروسيا وبيرسيدا، ثمّ تحيد بعد هدروسيا شمالاً. وهذا ما تؤكّده خصوبتها أيضاً. فكارمانيا غنية بشتَّى أصناف الثمار، ويكثر فيها الشجر الكبير، ما عدا شجر الزيتون؛ وتروي الأنهار هذه المنطقة. أمّا هدروسيا فهي على العكس، إذ قلّما تختلف في شيء عن بلاد الإيختيوفاغيين، ولذلك غالباً ما تعاني من شح المحاصيل. وهذا ما دفع السكّان إلى تخزين الفائض من محاصيلهم لسنوات عدة. وبحسب أونيسيكريتيس إنّ نهراً ما في كارمانيا يحمل تياره رمالاً ذهبية مع مجراه؛ وهناك أيضاً مناجم يستخرجون منها الذهب، والفضّة، والزّنجفْر، كما يوجد في المكان جبلان: أحدهما يحتوي على الآورو[12]، والآخر على الملح. وفي كارمانيا صحراء تتاخم[13] بارثيا وباريتاكينا. والسلع الزراعية فيها كتلك التي في بيرسيدا: عرائش العنب مثلاً. فمن هذه الأخيرة تخرج ما يدعى عندنا عرائش كارمانيا، التي يصل طول عناقيدها في أحيان كثيرة إلى ذراعين، وهي تحمل كثيراً من حبّات العنب الكبيرة. وقد يكون نموّ هذه العرائش في كارمانيا أكثر كثافة ونضارة مما عندنا. وبسبب نقص الخيل يستخدم أكثر سكّان كارمانيا الحمير حتّى في الحرب، كما يقدّمون الحمار ذبيحة لأريس، الإله الوحيد الذي يعبدون؛ إنها قبيلة محاربة. فلا يتزوّج أيّ من أفرادها إلاّ بعد أن يأتي برأس عدوّ إلى الملك. ويضع الملك الجمجمة في المقرّ الملكي، بعد أن يقطّع لسانها إلى قطع صغيرة يخلطها مع الدقيق ويتذوّق الخليط بنفسه ثمّ يدفع بالباقي إلى من أتى بالرأس ليأكله مع باقي أفراد بيته. ويعدّ الملك الذي يحملون إليه أكبر عدد من الرؤوس الملك الأكثر عظمة. ويرى نيارخس أن أكثر تقاليد الكارمانيين ولغتهم فارسية وميدية. ولا يستغرق اجتياز المدخل إلى الخليج الفارسي أكثر من يوم واحد.

الفصل الثالث

1- بعد كارمانيا تقع بيرسيدا. ويقع شطر كبير من هذه المنطقة على ساحل

الخليج الذي دعي باسمها. لكنّ شطراً أكبر بكثير يقع في داخل البلاد، أكثره بالطول، من الجنوب ومن كارمانيا نحو الشمال وإلى القبائل الميدية. وتنقسم بيرسيدا من حيث خاصياتها الطبيعية، وتبعاً لشروطها المناخية، إلى ثلاثة أقسام. والقسم الأوّل منها - الساحل - قائظ رمليّ وفقير تماماً بالغلال، ما عدا البلح والتمر. ويبلغ طول الساحل كما يحدّدونه، 4400 أو 4300 مرحلة تقريباً؛ وهو ينتهي عند أكبر أنهار هذه البلاد، الذي يدعى أوروانتيدا. أمّا القسم الثاني الذي يقع فوق الساحل، فهو عبارة عن سهل غني بالغلال، ومعلف لا مثيل له للمواشي، وفيه كثير من الأنهار والبحيرات. ويقع القسم الثالث في الشمال، وهو أرض باردة وجبلية؛ ويعيش على حدودها رعاة الإبل. وبحسب إيراتوسفين إنّ طول هذه البلاد باتجاه الشمال والبوابات القزوينية، قرابة 8000 مرحلة، بما في ذلك من بعض الرؤوس البحرية البارزة[1]؛ أمّا طول الشطر الباقي باتجاه البوابات القزوينية، فهو لا يتعدّى 2000 مرحلة[2]. وفيما يخصّ عرض بيرسيدا، فإنه في الشطر الداخلي من سوزا إلى برسيبوليس يبلغ 4200 مرحلة، ومن هناك إلى أطراف كارمانيا 1600 مرحلة أخرى. وتعيش في هذه البلاد القبائل التي تدعى الباتيسهوري، والأخمينية، والماغية. ويسعى الماغيون إلى بلوغ النقاء في حياتهم؛ أمّا الكيرتيون والمارديون فيمارسون السلب والنهب، ويعمل الآخرون بالزراعة.

2- وتعدّ سوسيدا بمثابة جزء من بيرسيدا، وهي تقع بين بيرسيدا وبابل؛ وأهم مدينة فيها هي مدينة سوزا. وإذ رأى الفرس وقورش بعد إخضاع الميديين، أنّ بلادهم تقع إلى حدّ ما على أطراف دولة عظمى، بينما تقع سوسيدا بعيداً في أعماق البلاد، وأقرب إلى بابل والقبائل الأخرى، أسّسوا هناك المقرّ الملكي لدولتهم. وفي الوقت نفسه قدّر الفرس أهمية الموقع الحدودي لهذه البلاد حق قدره، والأهمية الكبيرة للمدينة، ورأوا حقيقة أن سوسيدا نفسها لم تنخرط يوماً في أيّ أعمال كبيرة، وهذا ما كان له أهمية خاصة بالنسبة إليهم، بل كانت دوماً خاضعة للغرباء، كما كانت تعدّ جزءاً من بنية دولة أكبر (ربّما ما عدا حقبة الزمن البطولي). والحقيقة كما يروى، أن تيفون بن ممنون هو الذي أسّس سوزا؛ ويبلغ امتداد محيط المدينة 120 مرحلة بشكلها المتطاول. وكان أكربوليس سوزا يدعى ممنونيوس، كما حمل سكّان المدينة أيضاً اسم كيسيين؛ ويدعو إيسخيليوس[3] والدة ممنون كيسيا. ويقال، إن ممنون مدفون قرب بالس (مسكنة الآن) في سوريا عند نهر بادا، كما يقول سيمونيدس في أمدوحة عنوانها «ممنون»، وهي واحدة من ملاحمه الديلوسية. وبحسب بعضهم أن أسوار سوزا،

وحرمها، وقصر الملك فيها بنيت كلّها على غرار منشآت بابل من الآجرّ المشوي والإسفلت. ويقول باليكليتيس، إن محيط المدينة كان يبلغ 200 مرحلة، ولم يكن محاطاً بالأسوار.

3- لقد زيّن الفرس قصر سوزا وزخرفوه أكثر من القصور الأخرى، لكنّ تقديرهم واهتمامهم بالقصور الأخرى في برسيبوليس وباسارهادا لم يكن أقلّ. وعلى أيّ حال كانت الخزنة، والكنوز، والمقابر الفارسية كلّها هناك، لأنّ هاتين المدينتين كانتا مدينتين حصينيتين ومكرّستين بأمجاد الأسلاف. وكانت هناك قصور أخرى أيضاً: في غابي الواقعة في مكان ما في الأجزاء الشمالية من بيرسيدا وعلى الساحل قرب تاوكا. لقد كانت هذه القصور تنتمي إلى زمن السيطرة الفارسية. أمّا ملوك الأزمنة الأحدث فقد كانت عندهم قصور أخرى أقل فخامة، وهذا أمر طبيعي، لأنّ بيرسيدا كانت قد دخلت طور الانهيار، لا في زمن السيطرة المقدونية فقط، بل زاد الأمر سوءاً في زمن السيطرة البارثية كذلك. ومع أن الملوك الفرس لا يزالون يملكون على فارس حتّى يومنا هذا، إلاّ أن هؤلاء فقدوا قدراً كبيراً من نفوذهم ويخضعون للملك البارثي.

4- تقع سوزا في الشطر الداخلي من البلاد على نهر خواسب، وبعد الجسر تمتدّ منطقة سوسيدا حتّى البحر. أمّا ساحل سوسيدا فيمتدّ حتّى مصب دجلة تقريباً، من حدود الساحل الفارسي ما يقارب 3000 مرحلة. ويجري نهر خواسب عبر سوسيدا ليصل إلى الساحل نفسه، انطلاقاً من منطقة الأوكسيين. وتخترق الحيّز الفاصل بين سوسيدا وبيرسيدا بلاد قاسية انهدامية جبلية فيها كثير من الأخاديد العصيّة؛ ويعيش فيها قطّاع الطرق الذين يفرضون المال [4] حتّى على الملوك عندما يعبر هؤلاء من سوزا إلى بيرسيدا. وبحسب بوليكليتيس إنّ خواسب، ويوليه، ودجلة نفسه تصبّ كلّها في بحيرة ما، ثمّ تخرج من هذه البحيرة لتصبّ في البحر. ويقول، إن ميناء تجارية تقع قرب هذه البحيرة وبما أن الأنهار لا تستطيع بسبب الأحواض المائية [الاصطناعية] أن تستقبل الشحنات من البحر وتعوم بها، فإن الشحنات كلّها تسلك الطريق البرّية. ويقال، إن المسافة إلى سوزا 800 مرحلة[5]. لكنّ آخرين يقولون، إن الأنهار التي تجري عبر سوسيدا تجتمع في مجرى واحد، هو على وجه التحديد مجرى دجلة، قبالة قنوات الفرات الوسطانية. ولذلك يدعى دجلة عند مصبّاته باسيدجلة[6].

5- وبحسب نيارخس إن مياه ساحل سوسيدا ضحلة، وتنتهي عند مصبّ الفرات.

وتقع على مصبّ الفرات قرية تستقبل البضائع الواردة من العربية، لأنّ الساحل العربي يتاخم مصبّ الفرات وباسيدجلة مباشرة. وتشغل الحيّز الفاصل كلّه بحيرة هي البحيرة التي يصبّ فيها دجلة. وإذا ما ركبت دجلة 150 مرحلة صعوداً، يلقاك جسر عائم يقود من بيرسيدا إلى سوزا؛ ويقع الجسر على بعد 60[7] مرحلة عن سوزا؛ أمّا باسيدجلة فيبعد عن أورواتيدا ما يقارب 2000 مرحلة. ويبلغ طول الطريق صعوداً عبر البحيرة حتّى مصبّ دجلة 600 مرحلة. وقرب المصبّ على بعد 500 مرحلة من سوزا تقع قرية سوزيانية؛ ويبلغ امتداد الطريق المائية داخل البلاد من مصبّ الفرات حتّى بابل عبر منطقة كثافتها السكّانية عالية، أكثر من 3000 مرحلة. ووفق رواية أونيسيكريتيس، إن الأنهار كلّها، بما فيها الفرات ودجلة، تصبّ في البحيرة؛ لكنّ الفرات يخرج منها بعد ذلك ويصبّ في البحر عبر مصبّ خاص به.

6- وإذا ما سرنا عبر منطقة الأوكسيين بجوار بيرسيدا نفسها، فسنلقى عدداً من الأخاديد الأخرى. وقد شقّ الإسكندر لنفسه طريقاً بالقوة أيضاً عبر هذه الأخاديد عند البوابات الفارسية والأماكن الأخرى؛ فاجتاز هذه البلاد على عجل، لكي يجمع معلومات عن أهمّ مواقعها، وخزائنها التي امتلأت بالكنوز خلال هذا الزمن الطويل كلّه الذي كان الفرس يجمعون فيه الإتاوات من آسيا. وعدا عن ذلك تأتّى للإسكندر أن يعبر عدداً من الأنهار التي تجري عبر هذه البلاد لتصبّ بعد ذلك في الخليج الفارسي. وفعلاً، بعد خواسب يقع نهر كوبرات ونهر باسيدجلة؛ ويجري هذا الأخير من منطقة الأوكسيين. وثمّة آخر أيضاً هو نهر قورش الذي يجري عبر ما يسمّى كيليبيرسيدا[8]، قرب باسارهادا. وكان ملك الفرس قد اتخذ لنفسه اسم هذا النهر، فبدّل اسمه من أهرادات إلى قورش. لقد اجتاز الإسكندر أراكس عند برسيبوليس مباشرة. وبعد سوزا تميّزت برسيبوليس أكثر ما تميّزت بجمال بنيانها وكبر حجمها؛ وكان فيها قصر اشتهر أكثر ما اشتهر بالكنوز التي كانت مخزونة فيه. ويجري أراكس من منطقة الباريتاكيين، ويلتقي معه في مجرى واحد نهر ميد الذي ينبع من ميديا. وتجري هذه الأنهار كلّها في واد شديد الخصوبة يتاخم كارمانيا والأجزاء الشرقية من البلاد، مثله في هذا مثل برسيبوليس نفسها. لقد أضرم الإسكندر النار في قصر برسيبوليس ثأراً للإغريق، الذين دمّر الفرس معابدهم ومدنهم بالنار والسيف.

7- وحلّ الإسكندر بعد ذلك في باسارهادا التي كانت بدورها عاصمة قديمة. وهنا في الحديقة رأى الملك ضريح قورش عبارة عن برج صغير يخفيه دغل شجره

كثيف؛ وفي الأسفل كانت قاعدة البرج جسيمة، وفي الأعلى تحت السقف كان هناك ديماس مدخله ضيّق جداً. وبحسب رواية أريستوبول، أن الملك أمره أن يدخل عبر هذا المدخل ويزيّن الضريح، ففعل. وقد رأى هناك مرقداً ذهبياً، وطاولة عليها كؤوس، وناووساً ذهبياً، وكثيراً من الملابس والحليّ المطعّمة بالحجارة الكريمة. لقد رأى أريستوبول هذا كلّه لدى دخوله إلى هناك أوّل مرّة؛ ولكنّ الضريح نهب بعد ذلك وسرقت محتوياته كلّها، ما عدا المرقد والناووس اللذين اكتفى اللصوص بتقطيعهما إلى كسرات، لكنّ اللصوص حملوا الرفات إلى مكان آخر، وهو الأمر الذي أكّد أن ما جرى للضريح هو من فعل لصوص، وليس من فعل والي، لأنّ هؤلاء لم يتركوا في الضريح إلاّ الأشياء التي يصعب حملها. لقد نهب الضريح على الرغم من حراسة الماغي له، وكان هؤلاء يتلقون لقاء ذلك كلّ يوم نعجة وكلّ عام فرس[9]. ومثلما كان إرسال قوات الإسكندر في حملة بعيدة إلى باكترا والهند قد أثار على وجه العموم كثيراً من الأحداث غير العادية، كذلك تدنيس ضريح قورش كان سابقة لا مثيل لها. إنّ هذه هي رواية أريستوبول الذي ساق النقش التالي أيضاً: «امرؤ! أنا - قورش باني دولة الفرس العظمى، وأنا كنت ملك آسيا. ولذلك لا تحسدني على هذا النصب». وعلى وجه العموم يروي أونيسيكريتيس أن البرج مكان يتألّف من عشرة طوابق، وفي الطابق الأخير كان يستلقي قورش؛ وكان هناك نقش محفور بأحرف فارسية باللغة الإغريقية:

هنا أرقد أنا، قورش، الملك العظيم على الملوك؛

ونقش آخر باللغة الفارسية له المحتوى عينه.

8- ولدى أونيسيكريتيس تذكير بالنقش التالي على ضريح داريوس: «لقد كنت صديقاً لأصدقائي؛ لقد كنت الخيّال الأكثر مهارة، ورامي السهام الأكثر مهارة، والصياد الأفضل؛ لقد كان يمكنني أن أحقّق كلّ شيء!» ويروي أريستوس السلاميني، وهو كاتب أحدث عهداً من هؤلاء بكثير، أنّ البرج كان كبيراً، ولم يكن يتألّف إلاّ من طابقين؛ وأنّه بني عندما انتقلت السلطة إلى الفرس؛ وقد كان تحت الحراسة؛ وورد هناك ذكر النقش الذي أشرنا إلى أنه كان مكتوباً باللغة الإغريقية، واللغة الفارسية، وأنّ محتواه واحد. لقد أسبغ قورش آيات التشريف كلّها على باسارهادا، لأنه حقّق هناك النصر في آخر معركة ضدّ أستياغ الميدي، وادّعى السيطرة على آسيا، وأسّس المدينة وبنى قصراً فيها تخليداً لذكرى انتصاره.

9- لقد أمر الإسكندر أن تنقل الكنوز التي عثر عليها في بيرسيدا إلى سوزا، التي كانت مليئة بدورها بالكنوز والمعدّات. ومع ذلك لم يجعل الإسكندر سوزا عاصمة له، بل بابل التي عزم على زيادة بنائها؛ وكانت في هذه المدينة كنوز كثيرة أيضاً. ويروى أنه ما عدا كنوز بابل، والكنوز التي كانت في المعسكر ولم تحسب مع هذه، بلغت قيمة كنوز سوزا وبيرسيدا وحدها 40000 تالانت؛ وبعضهم يقول 50000 تالانت. ويروي آخرون إنّ الكنوز كلّها نقلت إلى إيكباتانا وقدّرت بـ 180000 تالانت. أمّا الكنوز التي حملها داريوس معه لدى فراره من ميديا فقد بلغ مجموعها 8000 تالانت، استولى عليها كلّها رجاله الذين قتلوه غدراً.

10- لقد فضّل الإسكندر بابل لأنها كانت تتفوّق كثيراً على غيرها من المدن ليس بحجمها فقط، إنما في المجالات الأخرى أيضاً. والحقيقة أن سوزا بلاد شديدة الخصوبة، لكنّ هواءها حارق خانق، خاصة حول المدينة، كما يقول هذا الكاتب[10]. وعلى أيّ حال، في الصيف عندما تبلغ حرارة الشمس ذروتها في منتصف النهار، لا يتسنّى للعظاءات والثعابين أن تجتاز الشوارع في المدينة، فتحترق في عرض الطريق. ولا ترصد مثل هذه الظاهرة في أيّ مكان من بيرسيدا، مع أنها تقع أبعد نحو الجنوب. فإذا وضع الماء البارد تحت أشعة الشمس هنا للحظات، يغدو ساخناً إلى حدّ يمكن الاغتسال به، أمّا حبات الشعير التي تنثر في أي مكان مفتوح للشمس، فإنها لا تلبث أن تبدأ بالقفز كما يحصل للحبوب التي توضع في أفران التجفيف. ولذلك يغطي السكّان سقوف منازلهم هنا، بطبقة من التراب سماكتها ذراعان، وبسبب ثقل مثل هذا السقف، يضطرون إلى بناء منازلهم ضيّقة؛ وعلى الرغم من توفّر العوارض الطويلة، إلاّ أنّ الحر الخانق يرغمهم على بناء منازل فسيحة رحبة. فعارضة النخيل تتميّز بخاصية فريدة؛ على الرغم من أنها صلبة، إلاّ أنها عندما تشيخ لا تنحني في جزئها السفلي، بل يجعلها ثقل حملها تنحني في جزئها العلوي، فتغدو بذلك صالحة أكثر لتسند السقف. ويقال إن سبب ذلك القيظ الخانق، هو الجبال العالية الواقعة في شمالي البلاد التي تصدّ الرياح الشمالية. فهذه الرياح إذ تتسرّب عبر الجبال، تهبّ من قممها نحو طبقات الجوّ العليا في سماء السهول، من غير أن تمّس هذه الاخيرة؛ ولكنّ الرياح تندفع مع ذلك نحو الأجزاء الجنوبية من سوسيدا. ولا تعرف هذه البلاد الرياح، خاصة عندما تبرِّد الرياح الموسمية باقي أنحاء البلاد التي يلفحها القيظ.

11- ومع ذلك فإن سوسيدا غنية جدّاً بالأقماح، إذ تعطي محصولاً من الشعير والقمح قدره مئة، وأحياناً مئتي ضعف بذاره وسطياً. ولذلك لا يمدّ السكّان ثلوماً متكرّرة كثيرة، لأنّ تراكم الجذور يعيق نموّ الشتول. ولم تكن عرائش العنب تنمو في هذه البلاد، فغرسها المقدونيون في أرضها وأرض بابل؛ ولم يحفروا لغرسها حفراً، بل اكتفوا بغرس أوتاد من الحديد في الأرض، ثمّ انتزاعها وإدخال فروع من الدوالي في مكانها مباشرة. على هذا النحو كان الشطر الداخلي من البلاد، أمّا ساحلها فمياهه ضحلة، وليس فيه موانئ. ولذلك لم يكن في البلاد، كما يقول نيارخس، مرشدون بحريون من السكّان المحلّيين عندما كان يبحر مع أسطوله من الهند إلى بابل؛ ولم يكن على الساحل محطات شرعية، ولم يستطع أن يجد أناساً ذوي خبرة يرشدون الأسطول.

12- وتجاور سوسيدا بلاد هي جزء من بابل كان يدعى سيتاكينا، ثمّ دعوه بعد ذلك أبوللونياتيدس. ويعيش إلى الأعلى من هاتين البلادين، من الشمال إلى الشرق، كلّ من العيلاميين والباريتاكينيين، وهؤلاء الأخيرون قبائل من قطّاع الطرق يتكلون على الطابع الجبلي الوعر للبلاد. ويعيش الباريتاكينيون أقرب إلى الأبوللونياتيين، ولذلك فإن تعاملهم معهم أسوأ. أمّا العيلاميون فيخوضون حرباً ضدّ هذين الشعبين كليهما وضدّ السوسيين أيضاً، لكنّ الأوكسيين يحاربون العيلاميين. بيد أنّ الحروب الآن على وجه العموم أقل، وهو أمر طبيعي نظراً لقوّة البارثيين الذين تخضع لهم شعوب هذه المنطقة من العالم كلّها. ولذلك عندما يكون البارثيون بخير تكون الشعوب التابعة لهم بخير أيضاً. أمّا عندما تبدأ الاضطرابات عند هؤلاء (وهو ما يتكرر حدوثه في أيامنا هذه)، فإن آثارها على التابعين تتباين بين وقت وآخر. فبعضهم يستفيد من الاضطرابات والقلال، بينما تنزل ببعضهم الآخر مفاجآت مؤلمة. إن تلكم هي سمات بيرسيدا وسوسيدا وخاصياتهما.

13- إنّ التقاليد والعادات الفارسية واحدة لدى هذه الشعوب، ولدى الميديانيين وكثير من القبائل الأخرى. ومع أن بعضهم كان قد نقل معطيات عن هذا، لكنّه ينبغي عليّ أنا أيضاً أن أتحدّث عمّا يخصّ موضوعي. فالفرس لا يقيمون تماثيل أو مذابح، لكنّهم يقدّمون الذبائح والقرابين في مكان مرتفع، ويعبدون السماء بصفتها زيوس. ويبجلون هيليوس الذي يدعونه ميترا، كما يجلّون سيلينا وأفروديت ثمّ النار،

والتراب، والرياح، والماء[11]؛ ويقدّمون ذبائحهم في مكان يطهّر وفق الطقوس ثمّ تقام فيه الصلوات، ويؤتى بعد ذلك بحيوان الذبيحة مضفوراً بإكليل. وعندما يقطع الماغ الذي يؤدّي الطقس المقدّس لحم الذبيحة إلى قطع، يحمل المؤمنون القطع ويمضون من غير أن يتركوا أيّ قطع للآلهة؛ فبحسب قولهم إن الإله لا يريد سوى روح الذبيحة فقط. لكنّ بعضهم يقول، إنهم يرمون في النار قطعة صغيرة من الدهن.

14- ويقدّم أكثر الذبائح عندهم للنار والماء. وتقدّم الذبائح للنار على النحو التالي: يضيفون أخشاباً جافة نظيفة من اللحاء، ويضعون الدهن فوقها؛ ثمّ يسكبون زيت الزيتون ويشعلون النار من تحت من غير أن ينفخوا فيها، لكنّهم يستخدمون مهواة كبيرة. ومن ينفخ في النار، أو يلقي فيها جثة ميتة، أو يلطخها بما هو قذر، يكون عقابه الموت. أمّا ذبائح الماء فيقدمونها على النحو التالي: يأتون إلى البحيرة، أو النهر، أو الينبوع فيحفرون حفرة وينحرون حيوان الذبيحة فوق الحفرة ليسيل دمه فيها؛ ويحاذرون في أثناء ذلك أن تلطخ الدماء الماء الموجود على مقربة، لأنهم يعتقدون إن هذا يدنّس الماء. وبعد ذلك يرمي الماغي قطع اللحم على غصن من الآس أو الغار ويلمسونها بقضبان رفيعة وهم يتلون التعاويذ والرّقى، ويسكبون زيت الزيتون الممزوج بالحليب والعسل، لا على النار أو في الماء، بل على الأرض. وتتلى التعاويذ طويلاً، وفي أثناء تلاوتها يمسك الذين يتلونها حزماً من قضبان الأثل الرفيعة.

15- وفي قبدوقيا (توجد هنا عشيرة كبيرة من الماغي الذين يدعونهم بيريفيين[12]، وعدد كبير من معابد الآلهة الفارسية)، لا يستخدمون السكين لدى نحر الذبائح، بل يستخدمون شيئاً ما يشبه قرمة الحطب يقتلون به الحيوان ضرباً. ولدى الفرس بيريفيات أيضاً، وهي هنا قطع كبيرة من الأرض المقدّسة المحاطة بأسيجة. وتقوم في وسط هذه الأراضي مذابح فيها كميات كبيرة من الرماد، فالماغي يبقون على النار مشتعلة دائماً في المذبح. ويدخل الماغي إلى هذه البيريفيات يومياً، فيتلون فيها طول ساعة تقريباً تعاويذ ورقى بينما يمسكون بحزم من الأغصان أمام النار؛ ويضعون على رؤوسهم في أثناء ذلك قبعات من اللبّاد يتدلّى طرفاها من الجانبين على وجنتيّ من يرتديها ليغطيا شفتيه. وتؤدى الطقوس والشعائر نفسها في معابد أناهيت وأومان. وثمّة في هذه المعابد قطع مسيّجة من الأرض المقدّسة، ويحملون هنا تمثالاً خشبياً لأومان يسيرون به في مواكب احتفالية. وقد قدر لي أن أشاهد هذه الشعائر بنفسي. أمّا الأخرى، وكذلك التالية بعدها، فالحديث عنها يجري في المؤلّفات التاريخية.

16- ويحاذر الفرس التبوّل في الماء، ولا يغتسلون في النهر ولا يعومون فيه؛ وهم لا يرمون المتوفّين في مائه، ولا أي شيء آخر يعدّونه دنساً. وعندما يقدّمون ذبيحة لأيّ إله كان، يرفعون صلواتهم قبل ذلك إلى النار.

17- ويحكم الفرس ملوك يتوارثون السلطة الملكية. والمتمرّد العاصي يقطعون له رأسه ويديه ويرمون جثّته. وعادة الفرس أن يتزوّج واحدهم عدة نساء ويقتني في الوقت نفسه عدة خليلات لكي ينجب كثيراً من الأبناء. وفي كلّ عام يمنح الملوك مكافآت لكلّ من لديه عدد كبير من الأولاد. ولكنّ الوالدين لا يريان أبنائهما قبل أن يبلغ واحدهم عامه الرابع. وتعقد الزيجات مع بدء الاعتدال الربيعي. ولا يدخل العريس على عروسه إلاّ بعد أن يأكل تفاحة ونخاع جمل، ثمّ يمتنع بعد ذلك عن أكل أيّ شيء في ذلك النهار كله.

18- ومن سن الخامسة حتّى الرابعة والعشرين يتدرّب الفتيان على رمي السهام من القوس، وقذف المزاريق، وركوب الخيل، وفنون العراك[13]. ولا يأخذون لتدريس العلوم إلاّ أكثر الناس حكمة، وهم الذين يشبكون معارفهم مع القصص الميثولوجية (فيسخّرون هذه لمنفعة الطلاّب)، ويروون عن مآثر الآلهة والرجال البواسل روايات مغنّاة أو من غير غناء. فقبيل الفجر يوقظ المعلمون الفتيان على أصوات الآلات النحاسية، ويجمعونهم في مكان واحد كما لو كانوا يقودونهم إلى عرض عسكري، أو في رحلة صيد. وبعد أن يوزعوهم على فرق في كلّ منها 50 نفراً، ويضعوا على رأس كلّ فرقة واحداً من أبناء الملك أو أحد أبناء الوجهاء، يأمر المعلمون التلاميذ أن يجروا وراء رئيس الفرقة بعد أن يحدّدوا مسافة للجري تتراوح بين 30 إلى 40 مرحلة. وعلاوة على ذلك يطلب المعلمون من التلاميذ أن يقدموا تقارير عن كلّ درس، ويرغموهم في الوقت نفسه على أن يتحدّثوا بصوت عال، ويمرّنوا التنفّس والرئتين، كما يعوّدونهم على تحمّل الحرّ، والبرد، والمطر، وعبور التيارات المائية الشديدة، مع المحافظة على أسلحتهم وملابسهم جافة. ويدرّبون الشبان الفرس علاوة على هذا، على رعي القطعان، وقضاء الليالي تحت السماء في العراء لا يقتاتون إلاّ على الثمار البرية، كالفستق[14] على سبيل المثال، وثمار البلوط، والإجاص البري. ويدعى هؤلاء الفتيان كارداكيين، لأنهم يعيشون عيشة بربرية (كلمة carda تعني «الرجولة» و«الروح القتالية»). لقد كان طعامهم بعد التمارين الرياضية يتألّف من الخبز، وأرغفة من الشعير، وحبّ الهال[15]، وحفنة صغيرة من الملح، وقطعة لحم مشويّ أو مسلوق؛

وشـرابهم الوحيـد هـو المـاء. ويصـيد الفتيـان علـى ظهـور الخيـل، فيرمـون المزاريـق مـن الحركـة، وكـذلك السهام، كـما يصـيدون بـالمقلاع أيضـاً. ويتمـرّن الفتيـان مسـاء علـى غـرس الأشـجار، ويجمعـون الجـذور الطبيـة، ويصـنعون الأسـلحة، ويضـفرون الشـباك والشـراك. ولا يجـوز أن يلمـس الأولاد الطريـدة المصـادة، مـع أنهـم يـأتون بهـا إلى البيـت. والملـك هـو الـذي يحـدّد مكافـآت الفـائزين في مسـابقات الجـري، وسـواه مـن أنـواع الخماسـيات[16]. ويـزيّن الفتيـان أنفسـهم بـالحليّ الذهبيـة، لأنّ الفـرس يثمّنـون بريقـه الناري. وبسبب احترامهم لهذا البريق النـاري للذهـب، يمتنعـون عـن وضعـه مـع الميت، ولا يحرقونه بالنار.

19- ويشارك الفرس في الحملات العسكرية مقاتلين عاديين أو قـادة، مـن سـنّ 20 حتّى سنّ 50، في سلاح المشاة أو سلاح الفرسان على حدّ سواء. ولا يتردد الفـرس إلى الأسـواق، لأنهـم لا يبيعـون ولا يشـترون. ويتـألّف تسـليح الفارسـيّ مـن تـرس مجـدول علـى شـكل المعيّن؛ ومـا عـدا الكنانـة، يحملـون أيضـاً الفـؤوس الحربيـة والنصـال الطويلـة؛ ويعتمرون على رؤوسهم قبعات من اللبّاد على شكل برج؛ ودروعهم حرشفية. ويتألّف زيّ القـادة مـن بـزّة ثلاثيـة، وجلبـاب مـزدوج يصـل إلى الـركبتين، ولـه كمّـان طـويلان؛ ملابسهم الداخلية بيضاء والخارجية مختلفة الألوان؛ وتيجانهم تشبه تلك التي يرتـديها الماغي، أحذيتهم غائرة ومزدوجة. ويتـألّف زيّ أكثـر النـاس مـن جلبـاب ثنـائي يصـل إلى وسـط السـاق، وقطعـة مـن اللبّـاد تعقـد علـى الـرأس. ولـدى كـلّ فارسـي قـوس ومقـلاع. وتتميّز وجبة الغداء لدى الفرس بالفخامة والبذخ: يقدّمون إلى المائدة ذبائح بكاملها، وكميـات كـبيرة مـن شـتّى الأصـناف الأخـرى. وزخرفـة مراقـدهم، وكـؤوسـهم وسـوى ذلك من الأشياء زاهية إلى درجة أنها تبرق ذهباً وفضّة.

20- يعقـد الفـرس مجالسـهم لمناقشـة أهـمّ القضـايا وهـم يشـربون النبيـذ، فهـم يرون إنّ القرارات التي تتخذ حينئذٍ أكثر صوابية من تلك التي يتخذونها وهـم في حالـة حضور ذهني. ولدى لقاء الفارسيّ أحد معارفه أو شخصاً في منزلته الاجتماعيـة نفسـها مصـادفة في الشـارع، يقـترب منـه فيسـلّم عليـه ويقبّلـه؛ أمّـا إذا كـان الآخـر أقـلّ منزلـة فيقـدم لـه الأعلـى منزلـة خـدّه ليقبّلـه؛ ويلقـي الأشـخاص الـذين ينتمـون إلى الفئـات الاجتماعية الدنيا التحية وهم ينحنون. ويدفنون جثامين الموتى بعد طلائها بالشـمع. أمّا الماغي فلا يدفنون في الأرض، بل تلقى جثامينهم لتأكلها الطيور. وبحسب التقليد يباح لهؤلاء الماغي معاشرة أمهاتهم. هذه هي تقاليد الفرس وعاداتهم.

21- وقد تكون العادات الآتية التي جاء بوليكريتيس[17] على ذكرها من عادات الفرس كذلك. فهو يقول، في سوزا يبنون على الأكروبوليس لكلّ ملك نصباً تذكارياً لعهده، على شكل مسكن خاص به، ومخزن لكنوزه، ومخازن للإتاوات التي تلقّاها. ويجمع الملوك الإتاوات فضّة من سكّان الساحل، وغلالاً من سكّان الداخل وفق ما تنتجه كلّ بلاد: أصبغة، وعقاقير طبية، وأوبار أو أصواف، أو أيّ شيء آخر من هذا القبيل، وعلى النحو نفسه المواشي أيضاً. وكان قد أقرّ هذه الإتاوات داريوس الطويل اليدين، وهو الأكثر وسامة بين الناس كلهم، ما عدا يديه اللتين كان يصل طولهما حتّى ركبتيه[18]. لقد كان أكثر الذهب والفضّة على شكل أدوات ولوازم منزلية، وكمية قليلة على شكل مسكوكات نقدية. وكان الفرس يرون إن هذين المعدنين الثمينين أكثر ملاءمة لتقديم الهدايا والخزن في المخازن. أمّا النقد فقد رأوا أنه كاف تماماً إذا غطى حركة التبادل فقط، ولذلك كانوا دائماً يصدرون مسكوكات جديدة بكمية تكفي لتغطية النفقات فقط.

22- وطباع الفرس على وجه العموم متواضعة. لكنّ الثراء الفاحش جعل ملوكهم يرسلون بعثات تجارية من آسوس إلى إيوليدا لتأتيهم بالحنطة من هناك، وأخرى إلى سوريا لتأتيهم بالنبيذ الحلموني، ومثلها إلى يوليه لتأتيهم بالماء، فمياه هذا النهر خفيفة أكثر من أيّ ماء آخر.

23- لقد صار الفرس عند الإغريق إلى أكثر البرابرة شهرة، لأنّ أيّاً من الشعوب البربرية الأخرى التي امتلكت آسيا، لم تسد عليهم. وعلى وجه العموم لم تعرف هذه الشعوب الإغريق أصلاً، والإغريق بدورهم لم يتعرّفوا إلى هؤلاء البرابرة إلاّ لماماً، وحتى في هذه الحالة عبر شائعات نائية. وعلى أيّ حال فإنّ هوميروس لم يكن على علم بوجود الدولة السورية، ولا بوجود الدولة الليدية. فهو يذكر طيبة المصرية، ويشير إلى ثروات فينيقيا، لكنّه لا يأتي على ذكر ثراء بابل، ونينوى، وإيكباتانا، ولو كان على علم بها لفعل. لقد كان الفرس أوّل من ساد على الإغريق. والحقيقة أن الليديين حكموهم أيضاً، لكنّ هؤلاء لم يسودوا على آسيا كلّها، بل على شطر صغير منها يقع على هذا الجانب من هاليس، ولوقت قصير اقتصر على عهديّ كريز وأليات. لقد أخضع الفرس الليديين، وإذا كان هؤلاء الأخيرين قد حقّقوا مجداً ما، فإنّ الفرس سلبوه منهم. فما أن حطّم الفرس سيطرة الميديين حتّى هزموا الليديين وأخضعوا إغريق آسيا لسلطانهم؛ بل وتوجهوا فيما بعد إلى اليونان نفسها، ومع أنهم



منيوا بكثير من الهزائم هناك، إلاّ أنّ سيطرتهم على آسيا بقيت قائمة هناك حتّى المناطق الساحلية، إلى أن أخضعهم المقدونيون.

24- لقد كان قورش هو الذي أقام سيطرة الفرس. وقد ورث ابنه قمبيز العرش بعده، لكنّ الماغي أطاحوا به. ولكنّ الفرس السبعة قتلوا الماغي ونقلوا السلطة إلى داريوس بن غستاب. وانتهت سلالة داريوس عند آرسي. فقد قتل هذا الأخير على يد الخصيّ باغوي الذي وضع على العرش داريوس الذي لم يكن ينتمي إلى السلالة الملكية. وقد أطاح الإسكندر بهذا الملك وملك هو نفسه 10 أو 11 عاماً. ثمّ تقاسم السلطة على آسيا عدد من خلفاء الإسكندر وورثتهم. ولكنّ سيطرة هؤلاء انهارت وقضي عليها. لقد استمرّت سيطرة الفرس على آسيا قرابة 250 عاماً. وفي الزمن الحالي أنشأ الفرس دولتهم الخاصة بهم، لكنّ ملوكهم تابعين لملوك آخرين: سابقاً للمقدونيين، والآن للبارثيين.



الكتاب السادس عشر

الفصل الأول

1- تجاور برسيا وسوسيانا بلاد الآشوريين، وهي التسمية التي يطلقونها على بابل وشطر كبير من المنطقة المحيطة بها، والتي تضمّ جزئياً، آثوريا حيث تقع نينوى، وأبوللونياتيدس، والعيلاميون، والباريتاكيون، وهالونيتيدا التي تقع حول جبل زاغروس، والسهول التي تحيط بنينوى، ودولومينا، وكالاهينا، وخازينا، وأديابينا، وقبائل ما بين النهرين القريبة من الغورديين والميغدونيين الذين حول نيسيبيدس وصولاً إلى زيغما[1] على الفرات؛ كما تضمّ أخيراً شطراً كبيراً من المنطقة الواقعة وراء الفرات والتي يشغلها العرب ومن يسمّيهم معاصرون بالسوريين [الذين أراضيهم] تمتدّ حتّى الكيليكيين، والفينيقيين، واليهود والبحر المواجه للبحر المصري وخليج إيّس.

2- ويهيّأ لي أن اسم سوريا لم ينسحب على المناطق التي تمتدّ من بابل حتّى خليج إيّس فقط، بل انسحب في الأزمنة القديمة على المناطق التي تمتدّ من هذا الخليج حتّى البحر الايفكسيني أيضاً. وعلى أيّ حال لا يزال الشعبان القبدوقيان (الذين على طوروس والذين على البونتس) يدعيان حتّى يومنا هذا «بالسوريين البيض»، كما لو كان هناك سوريون سوداً أيضاً. ويعيش هؤلاء السوريون وراء طوروس. وعندما أقول «طوروس»، فإني أمدّ هذه التسمية حتّى الأمانوس. وعندما يقول مؤرّخو الدولة السورية، إن الفرس أخضعوا الميديين، والميديون أخضعوا السوريين، فإنهم لا يقصدون بهذا إلى أيّ سوريين آخرين سوى السوريين الذين بنوا عاصمتهم في بابل ونينوى. وكان نينوس واحداً من هؤلاء السوريين، الذي أسّس مدينة نين[2] في آثوريا. وكانت زوجة نينوس هي سميراميس التي ورثت عرش زوجها؛ وقد أسّست هذه بابل. وامتلك كلاهما آسيا كلّها. أمّا فيما يتعلّق بسميراميس، فإنها علاوة على ما بنته في بابل من منشآت،

يدلّون على كثير من آثارها الأخرى الموزّعة في شتَّى أنحاء الأرض، لأنها تدخل في هذه البرّ: التلال التي تدعى تلال سميراميس، والأسوار، والقلاع المزوّدة بأنابيب المياه، والأحواض المائية، والأدراج، والقنوات المحفورة في الصخور على الأنهار والبحيرات، والطرقات، والجسور. وقد ترك نينوس وسميراميس مملكتهما الكبرى لخلفائهما وصولاً إلى ساردانابال وأرباك. وفيما بعد انتقل العرش إلى الميديين.

3- وبعد سقوط المملكة السورية[3] مباشرة دمّرت نين. وقد كانت هذه المدينة أكبر من بابل، وكانت تقوم في سهل آثوريا. وتتاخم آثوريا هذه منطقة أربيل؛ وبين هاتين المنطقتين يجري نهر ليك. وتقع أربيل قبالة بابل، وهي تنتمي إلى هذه البلاد. وعلى ضفّة ليك الأخرى، حول نين، تقع سهول آثوريا. وفي آثوريا هذه تقع قرية غاوغاميلا، حيث هزم داريوس وخسر مملكته كلّها. وهذا المكان مكان شهير كاسمه، فترجمته تعني «مسكن الجمل». وكان داريوس ابن غستاب هو الذي أطلق عليها هذا الاسم؛ وقد منح داريوس هذه القرية ملكية خاصة للإنفاق على الجمل الذي ساعده على اجتياز طريقه المضنية عبر الصحراء السكيثية حاملاً على ظهره حملاً من المؤن للملك. ومع ذلك عندما رأى المقدونيون أن غاوغاميلا مجرّد قرية بائسة، وأن أربيل بلدة كبيرة (أسّسها كما يروى ، أربيلوس بن أثمونيوس)، أطلقوا روايتهم عن أن المعركة الظافرة وقعت على مقربة من أربيل، ونقلوا إلى المؤرّخين قصتهم على هذا النحو.

4- وبعد أربيل وجبل نيكاتوريوس[4] (هذا هو الاسم الذي أطلقه الإسكندر على هذا الجبل بعد النصر الذي تحقّق في معركة أربيل)، يقع نهر كابر الذي يجري بعيداً عن أربيل المسافة نفسها التي يبعد عنها نهر ليك. وتدعى هذه المنطقة أرتاكينا[5]. وتقع عند أربيل مدينة ديميتريادا؛ ثمّ يلي ذلك نبع نفطي، والنيران الجوفية، وحرم أنيا[6]، والساندراكي، وهو قصر داريوس بن غستاب، وكيباريسون ومعبر على نهر كابر، قرب بابل وسلوقيا.

5- وتقع بابل بدورها في سهل: يبلغ امتداد محيط أسوارها 385 مرحلة، وسماكتها 32 قدماً، وارتفاعها بين الأبراج 50 ذراعاً[7]، وارتفاع الأبراج نفسها 60 ذراعاً؛ والممرّ الذي فوق السور عريض إلى حدّ يكفي لسير مركبة تجرها أربعة جياد بسهولة ويسر. ولهذا يعدّ هذا السور والحديقة المعلّقة من عجائب الدنيا السبع. والحديقة المعلّقة لها شكل مربّع طول كلّ ضلع من أضلاعه الأربع 4 بليفرات؛ وتحمله أقواس

مقنطـرة يتوضّـع واحـدها فـوق الآخـر وتحملـها كلّهـا قواعـد وطيـدة مكعبـة الشـكل. والقواعـد مجوّفـة مـن الـداخل ومحشـوّة بـالتراب بحيـث تسـتوعب أشـجاراً كـبيرة؛ وقـد بنيت القواعد نفسها والقناطر مع الأقواس من الآجرّ المشوي والإسفلت. ويسير الصعود إلى الشرفات العليا على سلالم مدرّجة تتوضّع على امتدادها مضخات حلزونية يضخ الماء من الفرات عبرها إلى الحديقة من غير انقطاع أناس أسند هذا العمل إليهم. فهناك نهر عرضه مرحلة يجري عبر وسط المدينة، والحديقة تقع على ضفّة النهر. وهنا يقع أيضاً ضريح بل الذي تحوّل الآن إلى ركام؛ ويقولون إن كسيراكس أزاله. لقد كان ضريح بل هذا هرماً مربع الشكل مبنياً من الآجر المشوي، ارتفاعه مرحلة واحدة، وكذلك كان طول كلّ ضلع من أضلاعه مرحلة واحدة أيضاً. وقد عزم الإسكندر في حينه على إعادة بناء هذا الهرم، لكنّ هذا كان يتطلّب جهداً كبيراً ووقتاً طويلاً (كان تنظيف المكان من الركام فقط، يحتاج إلى 10.000 عامل يعملون طول شهرين)، ولذلك لم يتسنّ للملك أن يكمل مشروعه هذا، إذ سرعان ما وقع فريسة المرض ومات. ولم يول أيّ من خلفائه اهتماماً لهذا المشروع. بل حتّى ما بقي من المدينة أُهمل تماماً، فهدم الفرس جزءاً منه، وهدم الزمن جزءه الآخر، أضف إلى هذا استهتار المقدونيين بمثل هذه المنشآت، خاصة بعد أن حصّن سلوقس نيكاتور سلوقيا دجلة الواقعة على بعد 300 مرحلة من بابل تقريباً. فسلوقس هذا نفسه، وكذلك خلفاؤه كلّهم أولوا اهتماماً كبيراً لسلوقيا ونقلوا مقرّ المملكة إليها. وباتت سلوقيا الآن أكبر من بابل، وخلت هذه الأخيرة الآن من أكثر سكّانها، ولذلك نستطيع أن نسحب عليها من غير تردد ما قاله أحد الشعراء الهزليين عن ميغالوبوليس[8] التي في أركاديا:

لقد صارت المدينة العظيمة الآن إلى صحراء عظيمة.

ويرغمهم نقص أخشاب البناء هنا على استخدام ألواح شجر النخيل وعوارضه. فيطوّقون العوارض بحبال مجدولة من القصب، ثمّ يبيّضونها بعد ذلك ويلوّنونها بشتّى الألوان، أمّا الأبواب فيطلونها بالإسفلت. ويبنون أبواب منازلهم عالية، ومثلها منازلهم نفسها أيضاً، وهذه الأخيرة كلّها مقببة بسبب نقص الأخشاب. فالشطر الأكبر من هذه البلاد خال من النباتات، ما عدا النخيل والأدغال الصغيرة المبعثرة. ففي بابل ينمو النخيل بكثرة، وكثير منه في سوزا أيضاً، وعلى ساحل بيرسيدا، وفي كارمانيا. ولا يستخدمون القرميد هنا، لأنّ الأمطار نادرة. فمثل هذه الأبنية موجودة في سوزا وسيتاكينا.

6- لقد كرّسوا في بابل قرى خاصة لإقامة الفلاسفة المحلّيين الذين دعوهم كلدانيين، ويشتغل هؤلاء أكثر ما يشتغلون في علم الفلك. ويقدّم بعض هؤلاء أنفسهم منجّمين، مع أن الآخرين لا يعترفون لهم بهذا. وتوجد هناك قبيلة ما تدعى قبيلة الكلدانيين، ومثلها منطقة في بابل حيث يقطن هؤلاء، وهي تقع على مقربة مما يدعى عرب البحر الفارسي. وهناك عدد من سلالات الكلدانيين الفلكيين: واحدة منها تدعى الأورهينيين، والأخرى البورسيبيين، وعدد من السلالات الأخرى التي تحمل أسماء مختلفة؛ ويبدو هؤلاء كأنهم يتوزّعون على عدد من الفرق التي لها تعاليم مختلفة حيال المسائل عينها. ويأتي علماء الرياضيات على ذكر بعض هؤلاء الناس مثل كيدين، ونابوريان، وسودين. وسلوقس الذي من سلوقيا كلداني أيضاً، مثله كمثل عدد من الشخصيات الفذّة الأخرى.

7- وتعدّ بورسيبا مدينة أرطميس وأبوللون المقدّسة، وفيها ورش كبيرة لتصنيع الكتّان. وتعجّ هذه المدينة بأعداد لا حصر لها من الخفافيش، وخفافيش بورسيبا أكبر حجماً بكثير من خفافيش الأماكن الأخرى؛ ويصيد السكّان هذه الحيوانات ويستخدمونها في طعامهم، كما يملّحونها ويخزنونها.

8- ويحيط ببلاد البابليين من جهة الشرق السوسيون، والعيلاميون، والباريتاكيّون؛ ومن الجنوب، الخليج الفارسي والكلدانيون وصولاً إلى العرب الميسانيين؛ ومن الغرب عرب الخيام[9] حتّى أديابينا وغورديا؛ ومن الشمال الأرمن والميديون حتّى نهر زاغروس والقبائل التي تعيش بالقرب منه.

9- ويجري عبر هذه البلاد عدد من الأنهار؛ أكبرها نهرا الفرات ودجلة. ويقال إنّ هذين النهر يشغلان المكانة الثانية في منطقة جنوبي آسيا من حيث الحجم، بعد أنهار الهند. والنهران صالحان للملاحة صعوداً مع مجرييهما: دجلة صالح للملاحة حتّى أوبيس وسلوقيا المعاصرة (تعدّ مستوطنة أبيس مركزاً تجارياً لمنطقة الضواحي)؛ والفرات حتّى بابل على مسافة تزيد على 300 مرحلة. ولكنّ خوف الفرس من الاعتداءات الخارجية، ورغبتهم في إعاقة الملاحة صعوداً في هذين النهرين، دفعاهم إلى بناء شلالات صناعية هناك. ولّما جاء الإسكندر عمل على هدم تلك الشلالات حيث كان ذلك ممكناً، خاصة على الطريق إلى أوبيس. كما اهتمّ الإسكندر بالقنوات. وتكمن المسألة هنا في أن الفرات يفيض صيفاً، وفي غضون ذلك تبدأ المياه تتدّفق منذ

فصل الربيع مع ذوبان الثلوج في أرمينيا، ولذلك يكوّن النهر بالضرورة مستنقعات ويغمر الأراضي الزراعية، إذا لم تسق المياه التي تخرج من ضفتي النهر إلى السطح عبر خنادق وقنوات، تماماً كما يفعلون مع مياه النيل في مصر. ولهذا الغرض ظهرت القنوات. ولكنّ الحفاظ على القنوات والعناية بها يتطلّبان جهوداً كبيرة. ويكمن الأمر هنا في أنّ التربة هنا عميقة ورخوة وهشّة إلى درجة تمكّن النهر من جرفها بسهولة، فتتعرّى السهول، وتمتلئ القنوات بالطمي الذي يغلق المصبّات بسهولة. وهذا ما يعيد فيضان الماء ثانية في السهول الساحلية، ويشكل البحيرات، والمستنقعات، وينبت أدغال القصب الذي يضفرون منه شتّى الأواني. وفي هذه الأواني التي يطلون بعضها بالإسفلت يمكن أن يسكب الماء، أمّا الأواني الأخرى فيستخدمونها غير مطلية. ويصنعون من القصب أيضاً، الأشرعة التي تشبه الحصر وما شابه من الأشياء.

10- وقد يكون تفادي مثل هكذا فيضانات أمراً غير ممكن، إلاّ أن واجب الحكّام الصالحين تقديم كلّ مساعدة ممكنة. وتتلخص هذه المساعدة في بناء سدود قوية تحجز الفيضان القوي، وتمنع امتلاء القنوات بالطمي عن طريق تنظيفها وفتح فوهاتها. والحقيقة إن تنظيف القنوات ليس عملاً صعباً، لكنّ بناء السدود يتطلب حشداً كبيراً من الأيدي العاملة. ولكن، بما أن التربة هنا رخوة وهشة، فهي عاجزة عن مقاومة ضغط الطمي المتراكم، فتجذبه إليها لتجعل إغلاق الفوّهات أمراً صعباً للغاية. وهذا يقتضي العمل بسرعة وعلى عجل لإغلاق القنوات حتّى لا يتسرّب الماء كلّه منها. فإذا جفّت مياه القنوات صيفاً، فإنها تجفف النهر أيضاً؛ إذ عندما ينخفض مستوى الماء في النهر، يغدو من الصعب جدّاً رفد القنوات بمياه الري في الوقت المناسب، بل وفي الصيف حينما يحرق القيظ التربة، تغدو هذه أحوج ما تكون إلى الري. ولكن الأمر سيان، سواء هلك المحصول بسبب كثرة المياه أو بسبب شحّها وقت الجفاف. وفي الوقت نفسه يغدو من غير الممكن تنظيم الملاحة الصاعدة مع النهر، والتي تدرّ منافع جمّى، إذ يدبّ فيها الإرباك دوماً للسببين المذكورين: إذا لم تغلق فوهات القنوات وتفتح في الوقت المناسب، وإذا لم يكن مستوى الماء في القنوات دائماً عند الحدّ الوسطي المطلوب، أي لا يتدفّق الماء [إليها] عبر الحواف، ولا يتسرّب منها كلياً.

11- وكما يروي أريستوبول، فإن الإسكندر صعد إلى الأعلى مع مجرى النهر وبرفقته حاشية كبيرة، وكان يقود السفينة بنفسه ويتفحّص القنوات ويأمر بتنظيفها؛

وعلى النحو نفسه أغلق فوهات وفتح أخرى. وإذ لاحظ أن فوهة إحدى القنوات يصعب الوصول إليها (وهي الفوّهة التي تتّجه أساساً نحو المستنقعات والبحيرات التي أمام العربية)، وليس من السهل إغلاقها، أمر بفتح فوهة أخرى جديدة عرضها 30 مرحلة؛ وقد اختار مكاناً تربته صخرية ساق المياه إليه. ولكنّه اتّخذ هذه الإجراءات لكي لا تغدو العربية حصينة منيعة على مهاجمتها عبر البحيرات والمستنقعات، لأنّ غزارة المياه تجعل من هذه البلاد جزيرة. وبحسب ما يقوله أريستوبول، إن الإسكندر كان ينوي الاستيلاء على العربية، وكان قد أعدّ الأسطول ونقاط الاستناد لحملته عليها، فبنى عدداً من السفن في فينيقيا وقبرص؛ وكانت هذه السفن مفككة إلى أجزاء ومجمّعة في حزم خشبية نقلت في سبعة أيام إلى فابساك، ومنها عبر النهر إلى بابل؛ أمّا باقي سفن الحملة فقد بناها في بابل من خشب السرو الذي ينمو أدغالاً في الحدائق: هذه البلاد تعاني من نقص في الأخشاب الصالحة لبناء السفن، مع أنّ منطقة الكوسيين وبعض المناطق الأخرى فيها ما يكفي من موارد الغابات. ويزعم أريستوبول، إن الإسكندر أعلن أنّ سبب الحرب هو أن العرب هم الشعب الوحيد على وجه الأرض الذي لم يرسل إليه سفارة، بيد أن السبب الحقيقي هو سعي الملك المقدوني للسيطرة على العالم. وعندما علم أن العرب لا يعبدون سوى الإلهين زيوس وديونيسيوس اللذين يهبان البشر ضرورات العيش كلّها، أمل أنه في حال ظفر بالنصر فإن العرب سيعبدونه إلهاً ثالثاً إذا ما منحهم استقلالية الأسلاف التي كانوا يتمتّعون بها من قبل. ويضيف هذا الكاتب قائلاً، على هذا النحو كانت اهتمامات الإسكندر حيال تجهيز القنوات، وعلاوة على ذلك كان يتقصّى بدقّة أضرحة الملوك والحكّام؛ فأكثر الأضرحة كانت تقع وسط البحيرات.

12- ويقول إيراتوسفين في سياق ذكر البحيرات الواقعة على مقربة من العربية، إن مياهها لمّا لم تجد مخرجاً لها، شقّت لنفسها معابر جوفية وجرت فيها حتّى كيليسوريا؛ وهناك تخرج إلى سطح الأرض في مكان قرب رينوكولورا وجبل كاسيوس لتشكل بحيرة وهاوية. بيد أنني لا أعرف على وجه اليقين ما إذا كان ما يقوله إيراتوسفين صحيحاً أم لا. فالحقيقة أن فيضانات الفرات تشكل بحيرات على مقربة من العربية، وثمّة مستنقعات قرب البحر الفارسي، لكنّ البرزخ الذي يفصل بينها ليس فسيحاً، وليس صخرياً، ولذلك فإن الظنّ بأن المياه هنا على وجه التحديد تندفع نحو البحر بقوّة (سواء تحت الأرض أو فوقها)، هو أمر أكثر معقولية من

الاعتقاد بأنها كانت تجتاز في مثل هذه الأرض الجافة الخالية من أيّ ماء، أكثر من 6000 مرحلة، عدّاك أنّ جبالاً تقع على طريقها هذه، خاصة جبال لبنان، وشرقي لبنان، وجبل كاسيوس. إنّ هذه هي أخبار أريستوبول وإيراتوسفين.

13- ولكنّ بوليكليتيس يزعم أنّ الفرات لا يفيض لأنه يجري عبر سهول شاسعة؛ بعض الجبال يبعد عنه 2000 مرحلة، بينما لا تبعد عنه الجبال الكوسية أكثر من 1000 مرحلة؛ وهذه الأخيرة ليست عالية، ولا تغطيها ثلوج عميقة، ولا تحدث فيها انهيارات ثلجية مفاجئة. وبحسب قوله، إن قمم هذه الجبال تقع في منطقة فوق إيكباتانا باتجاه الشمال، أمّا في المنطقة التي تتّجه جنوباً فإنها تتقسم ومع زيادة اتساعها تغدو أكثر انخفاضاً؛ وفي الوقت نفسه فإن الكمّ الأعظم من المياه يصبّ في دجلة، فتخرج المياه إلى خارج مجراه. ومن الواضح أن هذا الزعم الأخير زعم سخيف، لأنّ دجلة ينحدر من الجبال إلى السهول نفسها التي يجري الفرات فيها، وقمم الجبال المعنية ذات ارتفاعات متباينة: القمم الشمالية أعلى في بعض الأماكن، أمّا الجنوبية فإنها على العكس، إذ تمتدّ في أماكن ما عرضاً. أمّا الثلوج فلا تحدّد كمياتها القمم وحدها، بل عرضها أيضاً: على الجهة الشمالية للقمة عينها ثلوج أكثر مما على جهتها الجنوبية، وتبقى الأولى تحت الثلوج فترة أطول من الثانية. ودجلة يعبّ مياهه من ثلوج الأطراف الجنوبية من أرمينيا، وهي لا تبعد كثيراً عن بابل؛ وليست هذه الثلوج عميقة، لأنها تنحدر من الجهة الجنوبية ولذلك يفيض دجلة أقلّ. أمّا الفرات فيستقبل المياه من الجانبين وليس من جانب واحد، ومن جبال كثيرة، كما كنت قد بيّنت في وصف أرمينيا[10]. وقد أضفت في أثناء ذلك طول الفرات: في الأول، طول مجراه في أرمينيا الكبرى وأرمينيا الصغرى، ومن ثمّ طول مجراه من أرمينيا الصغرى وقبدوقيا عبر طوروس حتّى فابساك، حيث يفصل النهر سوريا الدنيا عن بلاد ما بين النهرين، وأخيراً، ما تبقّى من طوله حتّى بابل ومصبّه، ويشكل هذا كلّه 36000 مرحلة. وهذه هي معلوماتي عن قنوات بابل.

14- والشعير في هذه البلاد كثير أكثر من أيّ منطقة أخرى (يقال إن الشعير هنا يعطي ثلاثمئة ضعف بذاره)؛ والحاجيات الأخرى كلّها تلبيها شجرة النخيل، فهي تعطي الخبز، والنبيذ، والخلّ، والعسل، والدقيق؛ كما يصنعون من هذه الشجرة شتّى أنواع المصنوعات المجدولة؛ ويستخدم الحدادون نوى ثمار النخيل بدلاً من الفحم؛ كما تدخل هذه النوى بعد طحنها في علف الثيران والغنم. ويقولون، إن هناك أغنية فارسية

يعدّدون فيها 360 طريقة لاستخدام النخيل. ويستخدم السكّان في غالب الأحيان زيت السمسم؛ ولكن وجود هذا النبات نادر في المناطق الأخرى.

15- وتتوفّر بابل على كميات ضخمة من الإسفلت. ويروي إيراتوسفين عن الإسفلت ما يلي: الإسفلت السائل يدعى نفطاً، وهو موجود في سوسيدا، والإسفلت الجاف الذي له خاصية التصلّب، موجود في بابل. ويقع منبع الإسفلت الجاف قرب الفرات. ولدى فيضان هذا النهر حينما تذوب الثلوج، يفيض منبع الإسفلت بدوره ويصبّ في النهر. فتتشكّل هنا كتل إسفلتية كبيرة يمكن استخدامها في إنشاء المساكن المبنية من الآجر المشوي. وعلى حدّ قول آخرين، إن في بابل إسفلت سائل أيضاً. ونحن كنا قد قلنا، إن الإسفلت الجاف يستخدم أكثر ما يستخدم في إنشاء المساكن، بيد أنهم يقولون، إن القوارب المضفورة من القصب والمطلية بالإسفلت لا يتسرّب إليها الماء. ويتميّز الإسفلت السائل الذي يدعى نفطاً بخاصيات طبيعية غريبة: إذا قرّبت النفط من النار فإنها تزداد اشتعالاً، وإذا ما دفعت بشيء ما مطلي بالنفط إلى النار فإنه يلتهب. ولا يمكن إطفاء النفط المشتعل بالماء (لأنه يزداد اشتعالاً)، إلاّ إذا سكبت عليه كميّة كبيرة منه، لكنّ إطفاءه ممكن إذا أخمد بالطين، أو الخلّ، أو الشبّ، أو زرق الطيور. ويقولون إنّ الإسكندر أمر بسكب النفط على أحد العبيد بهدف التجربة فقط، والاقتراب منه بمشعل ملتهب. وفي اللحظة عينها غطى اللهب جسد العبد وكاد أن يهلك لولا أن سكب الحاضرون عليه كميّة كبيرة من الماء. ويقول بوسيدونيوس، إنّ في بابل ينابيع من النفط، الأبيض منه والأسود. ويحتوي بعض هذه الينابيع، وأنا أعني هنا ينابيع النفط الأبيض، على كبريت سائل (فهذه الينابيع تجذب اللهب)، بينما تحتوي ينابيع النفط الأسود على الإسفلت السائل الذي يشعلونه في المشاعل بدل الزيت.

16- في الأزمنة القديمة كانت بابل عاصمة آشور؛ أمّا اليوم فعاصمتها هي سلوقيا، التي تدعى سلوقية دجلة. وعلى مقربة منها تقع مستوطنة كبيرة تدعى طيسفون. وقد جعل الملوك البارثيون من هذه المستوطنة عاصمتهم الشتوية لأنهم رأفوا بالسلوقيين خشية أن يتأذّوا من إقامة القبيلة السكيثية أو الجنود. لكنّ جبروت البارثيين حوّل طيسفون من مستوطنة إلى مدينة؛ وباتت هذه الأخيرة مدينة كبيرة فيها أعداد كبيرة من السكّان، وبنى فيها الملوك أنفسهم أبنية، وزوّدوها بالبضائع، واعتنوا بالعمل الحرفي والمواد الأولية اللازمة له. وفعلا، يقضي الملوك البارثيون فصل الشتاء هناك لأنّ مناخ المدينة لطيف ملائم؛ أمّا الصيف فيقضونه في إيكباتانا

وهركانيا إذ يؤثرون المجد الغابر الذي كان لهاتين الأخيرتين. وعلى النحو الذي ندعو نحن فيه هذه البلاد بابل، ندعو سكّانها أيضاً بابليين، ولكن لا على اسم المدينة، إنّما على اسم البلاد. لكننا نادراً ما ندعو سكّان سلوقيا على اسمها، حتّى لو كانوا من سكّانها الأصليين، كما هي حال الفيلسوف ديوجينوس الرواقي (11).

17- وتعدّ أرتيميتا مدينة مهمّة، وهي تقع على مسافة 500 مرحلة عن سلوقيا نحو الشرق مباشرة تقريباً، كما هي حال سيتاكينا. وهذه الأخيرة منطقة شاسعة خصبة تقع بين بابل وسوسيدا، بحيث تمتدّ كلّ طريق المسافرين من بابل إلى سوزا شرقاً عبر سيتاكينا. وباتجاه الشرق تمتدّ أيضاً طريق المسافرين من سوزا إلى المناطق الداخلية من بيرسيدا عبر أوكيسيا، ومن بيرسيدا إلى كارمانيا الداخلية. ومن الشمال تحيط بيرسيدا الشاسعة بكارمانيا. وتتاخم باريتاكينا بيرسيدا، كما تتاخمها أيضاً كوسيا حتّى البوابات القزوينية حيث تقطن قبائل جبلية من قطاع الطرق، وأخيراً تجاور عيلام منطقة زاغروس وميديا.

18- والكوسيّون، مثلهم مثل القبائل الجبلية المجاورة الأخرى، أكثرهم رماة سهام، ولا يمارسون سوى أعمال السلب والنهب. وبما أنهم يسكنون بلاداً صغيرة وفقيرة، كانوا مرغمين أن يعيشوا على أرزاق الآخرين. كما ينبغي عليهم أن يمتلكوا القوّة، لأنهم كانوا عن بكرة أبيهم مقاتلين. وعلى أيّ حال هبّوا لمساعدة العيلاميين في حربهم ضدّ البابليين والسوسيين، ومعهم جيش قوامه 13 ألف مقاتل. والحقيقة أن الباريتاكينيين يمارسون العمل الزراعي أكثر من الكوسيين، بيد أنهم لا يتعففون عن أعمال السلب والنهب. ويمتلك العيلاميون منطقة شاسعة ومتنوّعة أكثر من تلك التي يملكها الباريتاكينيون. ويسكن الفلاحون شطرها الخصيب كلّه، ويزرع المقاتلون شطرها الجبلي، وأكثر هؤلاء رماة سهام. ونظراً لامتداده الشاسع فإن هذا الشطر الجبلي يقدّم أعداداً كبيرة من الجنود تسمح لملكه الذي يتحكم بمثل هذه القوات الكبيرة ألاّ يرى أنه ملزم أن يخضع للملك البارثي بالدرجة نفسها التي يخضع بها له الملوك الآخرون. وقد كان هذا هو موقفه نفسه تجاه المقدونيين الذين كانوا فيما مضى يمتلكون سوريا. وفي أقلّ تقدير، عندما حاول أنطوخ الكبير أن ينهب معبد بل، قام البرابرة المجاورون بمبادرة منهم فهاجموه وقتلوه. وفيما بعد استخلص الملك البارثي العبرة مما حصل لأنطوخ، وكان قد سمع عن ثراء معبدهم ونزوعهم إلى الاستقلال، فاجتاح بلادهم بقوّات كبيرة. واستولى على معبد أثينا ومعبد أرطميس (وهذا الأخير

يدعى آزارا)، وسرق من هناك كنوزاً قدرها 10.000 تالانت. كما استولى على مدينة سلوقيا الكبيرة الواقعة على نهر جيديفون الذي كان يدعى من قبل سولوكا. وثمّة ثلاثة منافذ للوصول إلى هذه البلاد: من ميديا ومنطقة زاغروس عبر ماساباتيكا؛ ثمّ من سوسيدا عبر غابيانا (ماساباتيكا وغابيانا ولايتان من ولايات عيلام)، والثالث من بيرسيدا. وكوربيانا بدورها ولاية عيلامية. وعلى مقربة من هذه المناطق تقع أراضي الساغابينيين والسيلاكينيين، وهي أملاك صغيرة. ومثل هذا العدد من القبائل التي لها الطابع نفسه، ينتشر إلى الأعلى من بابل أيضاً، نحو الشرق؛ وإلى الشمال، كما كنت قد قلت، تقع ميديا وأرمينيا، أمّا غرباً فتقع أديابينا وبلاد ما بين النهرين.

19- والشطر الأكبر من أديابينا أرض سهلية. ومع أنّ هذه المنطقة تعدّ جزءاً من بابل، إلاّ أنّ لها حاكمها الخاص؛ وفي بعض الأماكن تتاخم أرمينيا. ويعدّ الميديون، والأرمن، والبابليون أكبر القبائل في هذا الجزء من العالم، ومنذ البداية كانت العلاقات بينهم على النحو التالي: عندما كان يتسنّى لأيّ طرف أن يهاجم الآخر، لم يكن يتردد في فعل ذلك، ثمّ يتصالحون. وقد استمرّت هذه الحالة حتّى حلول السيطرة البارثية. والحقيقة أن البارثيين يسودون على الميديين والبابليين، لكنّ الأرمن لم يخضعوا لهم يوماً. ومن المعروف أن الأرمن عانوا من هجمات البارثيين مراراً، لكنّ هؤلاء كانوا يفشلون دائماً في الانتصار عليهم بالقوّة؛ بل قاومهم تيغيران مقاومة فعّالة، كما كنت قد تحدّثت لدى وصفي لأرمينيا[12]. إنّ هذه السمات التي تتميّز بها أديابينا. ويدعى سكّان أديابينا ساكوبوديين أيضاً[13]. وسوف أصف بلاد ما بين النهرين والقبائل الجنوبية الآن مباشرة بعد أن أقدّم عرضاً موجزاً لتقاليد الآشوريين.

20- إنّ تقاليد الآشوريين وعاداتهم تشبه على وجه العموم تقاليد الفرس وعاداتهم؛ لكنّ ما يتميّزون به هو تقليدهم بوضع ثلاثة حكماء على رأس كلّ قبيلة، فيُخرج هؤلاء إلى الشعب، البنات اللواتي بلغن سنّ الزواج، ويبيعونهنّ في صفقات تجارية تعقد مع الخاطبين، وأوّل ما يبدأ البازار ببنات العائلات الأرستقراطية. وعلى هذا النحو تبرم عقود القران هناك. وبعد المعاشرة الجنسية، يقف الزوج والزوجة بعد كلّ مرّة، كلّ على حدة، ويخرج ليحرق البخور. وفي الصباح قبل لمس أي إناء يغتسلان. ولديهم فعلاً عادة الاغتسال بعد كلّ تواصل جنسي، كما بعد لمس الميت. ونزولاً عند قول أحد المتنبّئين، ساد لدى الفتيات البابليات تقليد يقضي بممارستهنّ الجنس مع الغرباء إذا جئن إلى أي معبد من معابد أفروديت برفقة حشد كبير من

الخدم والناس. فتعقد كلّ امرأة حول رأسها ضفيرة من حبل. ثمّ يقود الرجل المهتمّ المرأة بعيداً عن حرم المعبد، ويضع على ركبتيها من المال ما يرى أنه كاف لها. وتعدّ هذه النقود مكرّسة لأفروديت. وعندهم ثلاث مؤسّسات قضائية عليا، ما عدا التي يعيّنها الملك. وتتألّف واحدة منها من أفراد كان قد تمّ إعفاؤهم من الخدمة العسكرية، وتتألّف الثانية من أفراد ينتمون إلى أعرق العائلات، وتتألّف الثالثة من الشيوخ. وواجب هذه [الهيئة] الأخيرة تزويج الفتيات والبتّ في شكاوى الزنى؛ وتعالج الأخرى دعاوى السرقة، والثالثة دعاوى العنف. لقد كانوا يخرجون بالمرضى إلى تقاطعات الطرق ويسألون عابريّ السبيل عمّا إذا كانوا يعرفون وسيلة ما لمداواة المرض المعني؛ ولن تجد بين عابريّ السبيل من يمتنع عن إبداء النصح إذا كان على علم بأيّ وسيلة مداواة. وتتألّف ملابس البابليين من رداء كتانيّ طويل يصل إلى القدمين، ورداء خارجي مصنوع من الصوف، ووشاح أبيض، ويطلقون شعرهم طويلاً، وينتعلون أحذية تشبه الخفّ. ويحملون خواتم عليها أختام، كما يحملون عصيّاً، لكنّها غير مصقولة وعليها من فوق رسم تفاحة أو وردة، أو سوسنة، أو شيء من هذا القبيل. ويتدّهن البابليون بزيت السمسم. ويبكون الأموات، كما يفعل المصريون وكثير من الشعوب الأخرى؛ ويدفنونهم في العسل بعد طلائهم بالشمع. وعندهم ثلاث قبائل لا أقماح عندها. وهم سكّان المستنقعات الذين يقتاتون على الأسماك، ويشبه نمط عيشهم نمط عيش سكّان هدروسيا.

21- لقد أخذت بلاد ميزوبوتاميا[14] اسمها من موقعها. وأنا كنت قد قلت، إن هذه المنطقة تقع بين دجلة والفرات؛ ولا يشاطئ دجلة سوى جهتها الشرقية، بينما يشاطئ الفرات جهتها الغربية وجهتها الجنوبية؛ وفي الشمال يعلو طوروس الذي يفصل أرمينيا عن ما بين النهرين. وأكبر مسافة تفصل بين هذين النهرين تقع عند الجبال. وقد تكون هذه المسافة هي المسافة نفسها التي حدّدها إيراتوسفين من فابساك (قديماً كان هناك جسر على الفرات) حتّى معابر دجلة التي اجتاز الإسكندر النهر عبرها - 2400 مرحلة. أمّا أقصر مسافة بين هذين النهرين فهي تقع في مكان ما قرب سلوقيا وبابل، وتشكّل أكثر من 200 مرحلة بقليل. ويجري دجلة نحو اتّساعه وسط بحيرة تدعى ثوبيتيدا. وإذ يبلغ الشاطئ المقابل من البحيرة، يغور النهر تحت الأرض بصخب مريع نافثاً الزبد والغبار المائي؛ وبعد أن يجتاز تحت الأرض مسافة طويلة، يظهر دجلة من جديد إلى سطح الأرض في مكان غير بعيد عن الغورديين. ويقول إيراتوسفين، إن

النهر يجتاز البحيرة باندفاع يجعل مياهها في مكان عبوره عذبة جارية كمياه النهر، وتملؤها الأسماك، بينما تبقى مياه البحيرة في الأماكن الأخرى مالحة وخالية من الأسماك.

22- وإذ تأخذ منطقة ما بين النهرين شكلاً متضيّقاً يشبه شكل السفينة، فإنها تبرز إلى الأمام على امتداد كبير. ويشكّل الفرات الشطر الأكبر من محيطها. وبحسب إيراتوسفين أنّ المسافة من فابساك إلى بابل تبلغ 4800 مرحلة، أمّا المسافة من زيغما في كوماجينا (عند بداية ما بين النهرين) إلى فابساك، لا تقلّ عن 2000 مرحلة.

23- والمنطقة التي تمتدّ على طول الجبال منطقة خصبة. ويشغل أجزاء هذه المنطقة التي تقع على مقربة من الفرات والجسر (عند الجسر المعاصر في كوماجينا وعند الجسر القديم عند فابساك)، الميغدونيون الذين دعاهم المقدونيون باسمهم هذا. وفي بلادهم تقع نيسيبيدا التي يدعونها أيضاً أنطاكيا التي في ميغدونيا. وتقع هذه المدينة على سفح جبل ماسوس، وكذلك أيضاً تيغرانوكيرتا، ومناطق كارّا، ونيسيفوريا، وهورديراز، وسينّاك، حيث قتل كراسوس[15]، الذي وقع أسيراً لدى القائد البارثي سورينا، إثر مؤامرة دنيئة حيكت ضدّه.

24- وتقع على مقربة من الفرات مناطق الغورديين الذين دعاهم الإغريق كاردوخي؛ وكانت مدنهم هي: ساريسا، وساتالكا، وبيناكا، وهي قلعة قوية فيها ثلاثة أكروبوليسات يحيط بكلّ منها سور، فتبدو كأنها تشكّل مدينة ثلاثية. ولكنّ هذه المدينة الأخيرة لم يخضعها الملك الأرميني فقط، بل استولى عليها الرومان عنوة أيضاً، غير عابئين بكون الغورديين من أكثر الشعوب مهارة في بناء التحصينات وأكثر خبرة في صناعة آليات الحصار، ولذلك هم الذين كانوا يؤدّون هذه الأعمال لدى تيغران. كما سقط الشطر المتبقي من منطقة ما بين النهرين تحت سيطرة الرومان أيضاً. وقد أعطى بومبييوس الشطر الأكبر منها لتيغران، وتحديد الأماكن التي كانت لها أهمية تذكر. وهذه البلاد غنية بالمراعي والنباتات إلى درجة أن الشجر الدائم الخضرة ونبات الآموم[16] العطري ينموان فيها. كما تسرح الأسود هناك أيضاً، ويستخرج النفط، وحجر الفانهيتيد[17]، الذي تهرب منه الزواحف.

25- ويروى أنّ غورديوس ابن تريبتوليموس استوطن غوردبينا؛ وفيما بعد جاء الإرتريون الذين أسرهم الفرس وسكنوا هنا أيضاً. وسوف أتحدّث عن تريبتوليموس عندما سأصف سوريا[18].

26- إنّ أجـزاء مـا بـين النهـرين الـتي تتّجـه نحـو الجنـوب والبعيـدة أكثـر عـن الجبال، هـي مناطق قاحلة لا ماء فيها، ويشغلها العـرب سـكّان الخيـام، وهـم قبيلـة مـن قطّـاع الطـرق والرعـاة الـذين ينتقلـون بسـهولة ويسـر مـن مكـان إلى آخـر عنـدما تشـحّ المراعي أو الطرائد. وعلى هذا النحو لا يعاني سكّان المناطق الممتدة على طول الجبال من الأذى الذي يتسبب لهم به سكّان الخيام فقط، بل يعانون أيضاً من الأرمن الذين يقطنـون إلى الأعلـى مـنهم ويضـيّقون علـيهم بقـوتهم الجبّـارة. وفي نهايـة المطـاف خضـع أكثرهم للأرمن أو للبارثيين، لأنّ البـارثيين أيضـاً يعيشـون علـى أطـراف هـذه الـبلاد إذ يمتلكون ميديا وبابل.

27- ويجري بين الفرات ودجلة نهر آخر، هو نهر باسيليبيوس، وعلى مقربة من أنفيموسـيا يجـري نهـر آخـر هـو نهـر آبـورّا. وبالنسـبة لمـن يتوجّـه مـن سـوريا إلى سـلوقيا وبابل، تمرّ طريقـه عبر منطقـة سـاكني الخيـام (الـذين يـدعوهم بعضـهم الآن مـاليين)، وعبر صحرائهم. ويتوجه عبر الفرات عابرو السبيل على مقربـة مـن أنفيموسـيا، ومنـاطق في منطقـة مـا بـين النهـرين. وعلـى بعـد 4 سـخينات فـوق النهـر تقـع بامبيكـا الـتي تـدعى أيضاً أديسا وهيرابوليس[19]؛ وهنا يتعبّدون الإلهة السورية أتارغاتيس. وبعد المعبر تمتدّ الطريق عبر الصحراء حتّى سكينا، وهي مدينة كبيرة تقع على قناة تتّجه نحو حدود بابل. والمسافة من المعبر إلى سـكينا 25 يومـاً علـى طريق القوافل. وعلـى هـذه الطريق جمّالون أصحاب نزل صغيرة تحتوي أحياناً على أحواض مائية كبيرة، هـي عـادة عبـارة عـن صـهاريج، مـع أن الجمـالين يلجـؤون أحيانـاً إلى نقـل المـاء. وسـكّان سـكينا أنـاس مسالمون ولا يجبون سوى إتاوات معتدلة، وهذا ما يجعل التجار يتفادون المنطقـة الممتدّة على طول النهر ويغامرون باجتياز الصحراء تاركين النهر على يمينهم مسافة ثلاثة أيام. فزعماء القبائل التي تقطن على جانبي النهـر يملكـون أراض فقـيرة، لكـنّها أقلّ فقـراً من أراضي الآخرين؛ زد إلى هذا أنّ كـلاً منهم يتمتّـع بسلطة مستقلّة ولـه نقطـة خاصـة لجباية الإتاوات التي لا تعدّ إتاوات متهاودة. والحقيقة أنه يبدو من الصعب تحديد معيـار إتاوة عام ملائم للتجار يأخذ به هؤلاء الطامعون كلّهم، الذين يتسـمون إضـافة إلى هـذا بالتعسف والاستبداد. وتقع سكينا على بعد 18 مرحلة عن سلوقيا.

28- ويشـكل الفـرات والمنـاطق الواقعـة علـى الجانـب الآخـر منـه، حـدود الدولـة البارثيـة. أمّـا الأراضـي الواقعـة علـى هـذا الجانـب منـه، فهـي للرومـان ولزعمـاء القبائـل العربية وصولاً إلى بابل؛ وبعض هؤلاء الزعماء أكثر ميلاً إلى البـارثيين، بينمـا بعضـهم

الآخر أكثر ميلاً إلى الرومان الذين يجاورونهم؛ ويتخذ الرحّل سكّان الخيام الذين يقيمون على مقربة من النهر موقفاً أقلّ وداً تجاه الرومان، لكنّ الذين يعيشون بعيداً عن النهر وعلى مقربة من العربية السعيدة، أكثر ميلاً نحوهم. أمّا البارثيون فقد سعوا من قبل إلى إقامة علاقات «صداقة»[20] مع الرومان، بيد أنهم أرغموا على الدفاع عن أنفسهم ضدّ كراسوس الذي بدأ حرباً معهم[21]. وعلى أيّ حال فقد حلّ بهم المصير نفسه حينما بدأوا الحرب هم أنفسهم وأرسلوا باكور[22] ضدّ آسيا. لكنّ أنطونيو الذي أخذ بمشورة الملك الأرميني[23]، وقع ضحية خيانة هذا الأخير له وخسر الحرب. أمّا فرآت خليفة باكور، فقد بلغ حماسه لنيل «صداقة» قيصر أغسطس حداً دفعه إلى أن يرسل له النصب التذكاري الذي أقامه البارثيون تخليداً لذكرى انتصارهم على الرومان. ولمّا دعا فرآت حاكم سوريا الروماني، تيتوس عندئذٍ، لإجراء مفاوضات معه، سلّمه أبناءه الشرعيين الأربعة رهائن: سيراسباداان، وروداسب، وفرآت، وبونون، ومعهم زوجتاه وأبناؤهما الأربعة؛ [وقد فعل هذا] خشية القلاقل والاغتيال. لقد كان الملك البارثي يدرك تماماً أنّ أحداً لا يستطيع محاربته من غير عون أحد من سلالة الأرساكيديين، لأنّ البارثيين مخلصون إخلاصاً فريداً لهذه السلالة. ولذلك أبعد أبناءه لكي يضع حداً لآمال الذين يضمرون الشرّ له. وكان أبناؤه الذي بقوا على قيد الحياة يعيشون في روما على نفقة الدولة محاطين بالتشريفات الملكية. كما كان الملوك البارثيون[24] الآخرون يسرعون لإرسال سفارات إلى روما، ويأتون لإجراء مفاوضات [مع الحكّام المحلّيين].

الفصل الثاني

1- تتاخم سوريا في الشمال كيليكيا وجبل الأمانوس. والمسافة من البحر إلى جسر الفرات (من خليج إيسّ إلى الجسر الذي في كوماجينا)، الذي يشكّل حدّ الجهة المذكورة، ليست أقلّ من 1400 مرحلة. وفي الشرق يشكل الفرات ومنطقة عرب الخيام على هذا الجانب من الفرات، حدود سوريا؛ وتشكّل العربية السعيدة، ومصر حدودها الجنوبية؛ والبحر المصري، والسوري حتّى إيسّ، حدودها الغربية.

2- وأنا آخذ أجزاء سورية ابتداء من كيليكيا وجبل الأمانوس: وهي كوماجينا، وما يدعى «سلوقيا السورية»، وكيليسوريا، وأخيراً على الساحل، فينيقيا، وفي داخل البلاد- اليهودية. ويقسم بعضهم سوريا كلّها إلى بلاد

الكيليسـوريين، والسـوريين، والفينيقـيين ويزعمـون، أنّ أربـع قبائـل أخـرى تختلط مـع هذه القبائل، هـي: اليهود، والإيدوميون، والغزّيون، والآزوتيون؛ وبعض هـؤلاء فلاّحـون: السوريون والكيليسوريين، وبعضهم الآخر تجار: الفينيقيون.

3- هذه هي معلوماتنا عن سوريا على وجه العموم. أمّا فيما يخصّ أجزاءها كلاًّ على حدة، فإنّ كوماجينا ليست منطقة كبيرة جدّاً؛ وفيها مدينة ساموساتا التي حصّنتها الشروط الطبيعية نفسها، وهنا في هذه المدينة كانت العاصمة الملكية. ولكنّ كومّاجينا تحوّلت الآن إلى ولاية رومانية. والأرض التي تحيط بالمدينة شديدة الخصوبة، لكنّها ليست كافية. ويقع هنا الآن جسر على الفرات؛ وعلى مقربة من الجسر تقع سلوقيا التي تعدّ قلعة بلاد ما بين النهرين التي ضمّها بومبييوس إلى كومّاجينا. وهنا أعدم تيغران سيلينا الملقبة كليوباترا، بعد أن سجنها لبعض الوقت إثر طردها من سوريا.

4- وتعدّ سلوقيا أفضل أجزاء سورية، وليس هذا وحسب، بل تدعى (وهي فعلاً) تيترابوليس[1] تبعاً لعدد المدن الموجودة فيها. والحقيقة أن مدنها معدودة لكنّها كبيرة وعددها 4: أنطاكيا التي قرب دافنا، وسلوقيا التي في بيرييا، وأفاميا، ولاوديكييا. وقد دعيت هذه المدن بالأخوات، بسبب الوفاق الذي كان سائداً بينها؛ وكان سلوقس نيكاتور هو من بنى هذه المدن الأربع. ودعا أكبرها[2] باسم والده، والأكثر تحصيناً دعاها باسمه هو، ودعا أفاميا باسم زوجته أباما، ولاوديكييا باسم والدته. وبحسب بوسيدونيوس أنّ سلوقيا قسمت تبعاً لمدنها الأربع إلى أربع ولايات، كما قسمت كيليسوريا إلى العدد نفسه من الولايات مع أن منطقة ما بين النهرين كلّها كانت ولاية واحدة[3]. وكانت أنطاكيا بدورها تيترابوليس، لأنها تتألّف من أربعة أجزاء؛ فهي محاطة بسور واحد مشترك، كما كانت كلّ مستوطنة من هذه المستوطنات محاطة بسور خاص بها. وكان نيكاتور هو الذي أسّس المستوطنة الأولى وجاءها بالسكّان من أنتيغونيا التي كان أنتيغون بن فيليب قد أسّسها على مقربة منذ بعض الوقت؛ وأسّست المستوطنة الثانية جماعة من المستوطنين، وأسّس المستوطنة الثالثة سلوقس كالّلينيكوس، والرابعة أنطوخ أبيفانوس.

5- وعلاوة على هذا فإن أنطاكيا هي عاصمة سوريا، فقد استقرّت هنا عاصمة مملكة حكّام البلاد. ولا تقلّ أنطاكيا من حيث القوة والحجم عن سلوقية دجلة أو إسكندرية مصر. لقد أسكن نيكاتور هنا أحفاد تريبتوليموس الذي كنت

قد أتيت على ذكره منذ بعض الوقت[4]. ولهذا يبجّل الأنطاكيون تريبتوليموس كبطل ويقيمون احتفالاً على شرفه فوق كاسيوس (جبل الأقرع - ح. إ.) قرب سلوقيا. ويروى أنّ الآرغوسيين أرسلوه ليبحث عن إيو التي اختفت أوّلاً في صور، وتاه هو في كيليكيا. وهنا أسّس بعض مرافقيه الذين تركوه مدينة تارس. وتبعه الباقي حتّى أقرب شاطئ، ولمّا فقدوا الأمل في العثور على إيو استقرّوا معه في منطقة تقع عند نهر العاصي. فاستوطن غورديوس بن تريبتوليموس وبعض مرافقي والده في غورديا، وعاش أحفاد الباقين مع الأنطاكيين.

6- وعلى بعد 40 مرحلة فوق أنطاكيا تقع دافنا، وهي مستوطنة متوسطة الحجم فيها دغل كبير وارف الظلال تجري فيه ينابيع؛ وفي وسط الدغل أرض مقدّسة فيها ملجأ وحرم لأبوللون وأرطميس. وجرت العادة أن يحتفل الأنطاكيون وجيرانهم هنا بعيد شعبي. امتداد محيط الدغل 80 مرحلة.

7- وعلى مقربة من المدينة يجري نهر العاصي. وينبع هذا النهر من كيليسوريا، ثمّ يغور تحت الأرض ويظهر على سطحها من جديد، ويجتاز بعد ذلك أرض الآفاميين ليصل من ثمّ إلى منطقة أنطاكيا ليقترب من المدينة مباشرة ويصبّ في البحر على مقربة من سلوقيا. وكان هذا النهر يدعى من قبل تيفون، لكنّه أُعطي بعد ذلك اسم أورونت الذي بنى عليه جسراً. وفي مكان على مقربة من هنا دارت احداث قصص ميثولوجية ترتبط بهزيمة تيفون بضربة صاعقة، وأخرى ترتبط بالأريميين الذين أتيت على ذكرهم من قبل[5]. فقد رووا إنّ تيفون (وكان هذا تنيناً) الذي أصيب بصاعقة بحث عن ملجأ له هنا تحت الأرض؛ ولم يكتف في أثناء ذلك بتخديد الأرض وشقّ مجرى النهر، بل غار تحت الأرض وأرغم الينابيع على أن تتفجّر فوق سطحها، ومن هذا أخذ النهر اسمه. وغرباً تحت أنطاكيا، قبالة سلوقيا يقع البحر؛ وعلى مقربة من سلوقيا يشكل العاصي مصبّاته. وعلى بعد 40 مرحلة من مصبات النهر، و20 مرحلة من أنطاكيا، تقع سلوقيا. وتستغرق الرحلة من البحر صعوداً مع النهر إلى أنطاكيا يوماً واحداً. وإلى الشرق من أنطاكيا يجري الفرات، وتقع بامبيكا، وبيرييا، وهيراقليا، وهي مدن صغيرة كان يحكمها في زمن ما التيران ديونيسيوس بن هيراكليون. وتقع هيراقليا على مسافة 20 مرحلة من حرم أثيناكيرايستيدس.

8- ثمّ تمتدّ بعد ذلك كيريستيكا حتّى حدود منطقة أنطاكيا مباشرة. وفي الشمال، على مقربة منها يعلو جبل الأمانوس وتقع كومّاجينا. وتتاخم كيّريستيكا

هـذه المنـاطق إذ يصـل امتـدادها حتّـى حـدودها مباشـرة. وتقـع هنـا هينـدار الـتي تعـدّ أكروبوليس كيّريستيكا، ومأوى لقطاع الطرق محصناً تحصيناً طبيعياً؛ وغير بعيد من هنا يقـع مكـان مـا يـدعى هيراقليا. وعنـد هـذه الأمـاكن قتل وينتيـديوس بـاكور، الابن الأكبر للملك البارثي، عندما شنّ هذا حملة على سوريا[6]. وتتاخم هينـدار حصـن باغرا الذي يعود لمنطقة أنطاكيا؛ ويقـع هـذا الحصـن الـذي حصّنته الطبيعـة عنـد معبر جبل الأمانوس الذي يقود من البوابات الأمانوسية إلى سوريا. وينبسـط تحـت بـاغرا سـهل الأنطاكيين الذي يجري فيه نهر أركيفث، ونهـر العاصـي، ونهـر لابوتـا. ويقـع في هـذا السهل أيضاً حصن ملياغروس الذي يحيط بـه سياج مـن الأوتـاد المروّسـة، كمـا يجـري فيه نهر إينوبـارا، حيـث انتصـر بطليمـوس فيلوميتـور في معركتـه مـع الإسـكندر بـالا، لكنّه مات متأثراً بجراحه[7]. وتعلو فـوق هـذه الأمـاكن هضبـة ترابيزونـت (الـتي دعيـت بهـذا الاسـم لأنّ شـكلها يشـبه الطاولـة)، حيـث قاتـل وينتيـديوس، القائـد البـارثي فرانيكـات[8]. وهنـا غير بعيد عـن البحـر تقـع سـلوقيا، ويرتفـع بييريـا، وهـو جبـل متـاخم للأمانوس، وتقع مدينة روس بين إيس وسلوقيا. وكانت سلوقيا تـدعى في الـزمن القـديم هيداتوس- بوتاما[9]. وتعدّ المدينة قلعـة كـبيرة قويـة إلى درجـة تستعصـي علـى كـلّ قـوّة؛ ولذلك فصل بومبييوس بينها وبين تيغـران وأعلنهـا مدينـة حـرّة. وإلى الجنـوب مـن منطقـة الأنطاكيين تقع أفاميا في داخل البلاد، وإلى الجنوب من المنطقـة السـلوقية يرتفـع جبـل كاسيوس وجبل أنتيكاسيوس. وتقع إلى الأبعد من سلوقيا مصبّات نهـر العاصـي؛ يليهـا نيمفييوس، وهـو مكـان مـا يشـبه الكهـف المقدّس، وبعده كـاسيوس، ثـمّ بعـده مباشـرة مدينة صغيرة تدعى بوسيديوس، ومدينة هيراقليا.

9- وتأتي بعد ذلك لاوديكييا، وهـي مدينة ساحلية مبنية بنـاء فنّيـاً ملفتـاً، وفيهـا مينـــاء بديعـــة؛ ومنطقـــة المدينـــة غنيـــة بـــالغلال، وغنيـــة جـــدّاً بالنبيـــذ. فهـــي تصـــدّر للإسـكندريين الكـمّ الأكـبر مـن النبيـذ الـذي يحتاجونـه، لأنّ سـكّانها زرعـوا كـلّ الجبـل الـذي يرتفـع فـوق المدينـة وصـولاً إلى قممـه بالكرمـة. وهـذه القمـم تبعـد عـن لاوديكييا مسافة بعيدة، وهي تصعد ببطء وشيئاً فشيئاً نحو الأعلى، بينمـا ترتفـع فـوق أفاميا بشكل شاقولي. وقد تسبب دولابيلا للاوديكييا بكـثير مـن الأذى عنـدما هـرب إليها باحثاً عن ملجأ. فحاصر كاسيوس دولابيلا هنا حتّى لقي هذا الأخير حتفـه، وقـد دمّرت مع دولابيلا في أثناء الحصاره أجزاء عديدة من المدينة[10].

10- ويوجـد في أفاميـا أكروبـوليس[11] أيضـاً، وهـو علـى وجـه العمـوم مسـيّج

جيّداً. إنه هضبة محصنة تحصيناً رائعاً، وتعلو فوق سهل مجوّف. وقد جعل نهر العاصي والبحيرة الكبيرة التي تحيط بالسهل، جعلا منه شبه جزيرة؛ وحينما تفيض البحيرة تتحوّل إلى مستنقعات شاسعة، ومروج عظيمة الأبعاد تشكل مراعياً للمواشي والخيول. وعلى هذا النحو تستقرّ المدينة آمنة (لقد دعوها كيرسونيس[12] تبعاً لطابع المكان). وتتوفّر على أراض شاسعة وخصبة يجري عبرها نهر العاصي، ويتبع لها كثير من المدن الصغيرة. وهنا كان سلوقس نيكاتور يأوي 500 فيل وينشر الجزء الأكبر من قوّاته، وهذا ما فعله الملوك الذين جاؤوا بعده أيضاً. وفي زمن ما، دعا المستوطنون الأوائل- المقدونيون- هذه المنطقة بيلاّ، لأنّ أكثر المقدونيين الذين شاركوا في الحملة استقرّوا هنا، ولأن بيلاّ، وهي مسقط رأس فيليب والإسكندر، غدت بمثابة متروبوليا المقدونيين. وتوضّعت هنا أيضاً، الإدارة العسكرية وإدارة تربية الخيول، حيث كانت تسرح هنا أكثر من 30.000 مهرة و300 مهر تابعة كلّها للقصر الملكي. كما كان يقيم هنا مروّضو الخيول أيضاً، والمقاتلون الذين تدرّبوا على التعامل مع الأسلحة الثقيلة، وكلّ مدرّبي شتّى الفنون القتالية المأجورين. وليس أدلّ على قوّة أفاميا من علوّ شأن تريفون الملّقب ديودوت، ومحاولته الاستيلاء على عرش سوريا، لقد حوّل هذا أفاميا إلى نقطة استناد. والحقيقة أنّ تريفون ولد في كاسيانا، في أحد حصون منطقة أفاميا، ونشأ وتربّى في أفاميا ثمّ قدم إلى الملك والحاشية الملكية. ولمّا عزم على إعلان الانتفاضة تلقى موارده من هذه المدينة والمدن الصغيرة التابعة لها - من لاريسا، وكاسيانا، وميغارا، وأبوللونيا وسواها من الأماكن الأخرى؛ فهذه كلّها كانت تؤدّي الإتاوة لأفاميا. وعلى هذا النحو أُعلن تريفون ملكاً على هذه البلاد، وقد نجح في الحفاظ على سلطته عليها طويلاً. وأعلن سيسيلييوس باسوس على رأس اثنتين من الكوغورتات القتالية انتفاضة في أفاميا؛ فحاصرته بعد ذلك وحدتان قتاليتان رومانيتان كبيرتان، لكنّه أبدى مقاومة صلبة ومديدة، ولم يضع نفسه تحت سلطة الرومان إلاّ مختاراً ووفق الشروط التي وضعها هو نفسه. ويكمن سرّ المسألة هنا في أنّ هذه البلاد كانت تزوّد قوات باسوس بالمؤن، كما كان عنده كثير من الحلفاء بين زعماء القبائل المجاورة، الذين كانوا يملكون مواقع محصّنة تحصيناً جيّداً. ومن هذه الأخيرة، ليسيادا الواقعة فوق البحيرة على مقربة من أفاميا، وأريفوسا التي استولى عليها سامبسكيرام وابنه يامبليخ زعيما قبيلة الإيميسينيين؛ وعلى مقربة كانت تقع أيضاً هيليوبوليس وخلكيدا التي كانت تحت سلطة بطليموس بن مينّييوس الذي

استولى على ماسيوس ومنطقة الإيتوريين الجبلية. وكان بين حلفاء باسوس ألحيدامن، ملك الرامبيين، وهم رحّل يتنقلون على هذا الجانب من الفرات. وكان هذا من قبل «صديقاً»[13] للرومان، لكنّه رأى أن الحكّام الرومان لا يعدلون في التعامل معه، فاعتزل في وادي الرافدين، ثمّ عمل مقاتلاً مأجوراً لدى باسوس. ومن أفاميا خرج الرواقي بوسيدونيوس، وهو الفيلسوف الأكثر علماً في زمننا هذا.

11- وتجاور أفاميا من جهة الشرق بلاد تدعى بارابوتاميا، وهي منطقة لزعماء القبائل العربية، كما تجاورها هنا أيضاً خلكيس، وهي موقع يمتدّ من ماسيوس، والشطر الأعظم من كلّ البلاد الواقعة إلى الجنوب من الأفاميين هو لسكّان الخيام. ويشبه هؤلاء رحّل بلاد ما بين النهرين. ودائماً تعدّ الأقوام التي تعيش قريباً من السوريين أقواماً أكثر ثقافة، أمّا العرب وسكّان الخيام فهم أقلّ تحضّراً. فبناء الدولة عند أولئك أفضل منه في أريفوسا مثلاً، التي يحكمها سامبسيكيرام؛ وفي أملاك غامبار وفيميلا وسواهما من الزعماء القبليين الآخرين.

12- إن هذا هو الجزء الداخلي من المملكة السلوقية. أمّا ما تبقى فهو الساحل، بدءاً من لاوديكيا، وهو على النحو الآتي: غير بعيد عن لاوديكيا تقع مدن صغيرة، هي بوسيديوس، وهيراقليا، وجبالا؛ ويلي بعد ذلك ساحل الأراديين حيث تقع بالت، وبالانيا، وكارن؛ وهذه الأخيرة هي محطة أراد الشراعية وفيها ميناء. ويلي ذلك إينيدرا، ومارات، وهي مدينة فينيقية قديمة، صارت الآن إلى أطلال. فاقتسم منطقتها الأراديون وسيميرا بالتساوي. وتجاور هذه الأماكن أورفوسيا وإيليثير، وهو نهر يجري على مقربة، ويرى فيه بعضهم حدود المملكة السلوقية مع فينيقيا وكيليسوريا*.

13- وتقع أراد أمام شاطئ صخري خال من الموانئ، تماماً في الوسط بين محطتها الشراعية ومارات على بعد 20 مرحلة من البرّ. وهي صخرة يحيط بها البحر، امتداد محيطها 7 مراحل؛ وعليها كثير من المساكن. ولا تزال أعداد سكّان أراد كثيرة حتّى يومنا هذا، ولكثرة أعدادهم يقيم هؤلاء في منازل متعددة الطوابق. ويروى أن منفيين من صور هم الذين أسّسوا المدينة. ويحصل سكّان أراد على الماء جزئياً من مياه المطر والخزانات المائية، وجزئياً من الشاطئ المقابل. وفي زمن الحرب يأتون بالماء من مضيق يقع أمام المدينة على مقربة؛ ففي هذا المضيق ينبوع ماء عذب وغزير. فيرمون

---

* أي سوريا المجوّفة، وهي المنطقة الممتدة بين سلسلة جبال لبنان الغربية والشرقية؛ أي سهل البقاع الآن. - ح. إ.

في هذا الينبوع من على القارب الذي يبحرون فيه طلباً للماء قمعاً واسع العنق مصنوعاً من الرصاص؛ ويتضيّق القمع في قسمه الأعلى حتّى قاعدته، حيث فيه فتحة متوسطة الحجم. وفي قاعدة القمع أنبوب جلديّ (أو إذا صحّ القول منفاخ) يستقبل الماء المدفوع من الينبوع إلى الأعلى عبر القمع. ويُدفع في الأوّل ماء البحر؛ فينتظر المستقون حتّى يصل ماء الينبوع ليسكبوا منه ما يملأ الأواني التي حملوها معهم، ثمّ يعودون إلى المدينة.

14- لقد كان يحكم الأراديين في الزمن القديم ملوك مستقلّون، كما كانت الحال عليه في المدن الفينيقية الأخرى. وفيما بعد قادهم الفرس، ثمّ المقدونيون، والآن الرومان، إلى بناء دولة حديثة. ولكن في الأحوال كلّها كان الأراديون ومعهم الفينيقيون الآخرون يخضعون للملوك السوريين ويدخلون معهم في صداقات. وبعد ذلك، حينما وقع النزاع بين الشقيقين كالّلينيكوس سلوقس، وأنطوخ هيراكس، أخذ الأراديون جانب كالّلينيكوس وعقدوا معه اتفاقاً حصلوا منه بموجبه على حق إيواء المطرودين من مملكته وعدم تسليمهم إلاّ إذا أرادوا هم ذلك. بيد أنه لم يكن يسمح لهؤلاء بمغادرة الجزيرة إلاّ بإذن الملك. وقد منحهم هذا الاتفاق منافع كثيرة. فالمنفيون الباحثون عن ملجأ آمن لم يكونوا أشخاصاً عاديين، بل كانوا قبل نفيهم، من كبار رجال الدولة، ولذلك كانوا يخشون التداعيات الخطيرة. وإذ لاقى هؤلاء استقبالاً وديّاً من قبل الأراديين، عدّوهم محسنين إليهم ومنقذين، وكانوا دائماً يتذكّرون هذا لدى عودتهم إلى وطنهم. وبهذه الطريقة اكتسب الأراديون كثيراً من الأراضي في البرّ، ولا يزالون حتّى الآن يملكون الشطر الأكبر منه، حتّى بلغوا عموماً درجة الرخاء. وقد قرن الأراديون هذه الظروف الملائمة ببعد نظر وعلوّ همة في الأعمال البحرية. فعندما رأوا على سبيل المثال، أنّ جيرانهم الكيليكيين قد أخذوا يشكلون عصابات من القراصنة، لم يشاركوا قط في مثل هذه النشاطات.

15- بعد أورفوسيا ونهر إيليثيرا تأتي تريبوليس[14]، التي أخذت اسمها من وضعها الفعلي، وعلى وجه التحديد لأنها نشأت من ثلاث مدن: صور، وصيدون، وأراد. وتجاور تريبوليس ثيوبروسوبون[15]، حيث ينتهي جبل لبنان. ويقع بينهما مكان حصين يدعى ترييريست.

16- وهناك جبلان يرتفعان متوازيين تقريباً، هما جبل لبنان وأنتيلبنان*، اللذان

* أي سلسلة جبال لبنان الشرقية والغربية. ح. إ.

يشكلان ما يسمّى كيليسوريا. ويبدأ الجبلان معاً من فوق البحر بمسافة قليلة: يبدأ جبل لبنان من على مقربة من تريبوليس، غير بعيد عن ثيوبروسوبون، ويبدأ جبل أنتيلبنان من على مقربة من صيدون. وينتهي الجبلان معاً في مكان ما غير بعيد عن جبال العربية التي ترتفع فوق داماسكينا* وما يدعى تراخونا(16)، إذ ينتهيان إلى جبلين آخرين: هضاب رملية وهضاب خصبة. ويبقى بينهما سهل عميق عرضه 200 مرحلة على مقربة من البحر، وطوله من البحر إلى أجزاء البلاد الداخلية ما يقارب ضعف هذا الرقم. وتعبر السهل أنهار تروي المنطقة المعطاءة التي تنتج شتّى أنواع الغلال؛ وأكبر الأنهار هنا هو نهر الأردن. وثمّة في هذا السهل بحيرة حيث كما هي الحال في المستنقعات، تنمو أدغال القصب الفوّاح. وتدعى البحيرة جينيساريتيس. وينتج السهل البلسم أيضاً. ويعطي أحد الأنهار، وهو النهر الذي يدعى كريسورواس ويبدأ من مدينة الداماسكينيين ومنطقتهم، يعطي ماءه كلّه تقريباً للقنوات، لأنه يروي البلاد الشاسعة التي تغطيها طبقة سميكة من التربة. أمّا ليكسوس والأردن فهما نهران صالحان للملاحة صعوداً مع مجرييهما، وتبحر فيهما سفن الشحن التي يملك الأراديون أكثرها.

17- وفيما يتعلّق بالسهول، فإن أوّلها، وهو الذي ينبسط من البحر، يدعى ماكراس أو سهل ماكرا. وبحسب رواية بوسيدونيوس أنهم وجدوا هنا تنيناً ميتاً طوله بليفر وعرضه بليفر، وأنّ فارسين وقفا على جانبيه لم يستطع أيّ منهما أن يرى الآخر؛ كما كان بلعومه عظيماً إلى حدّ سمح لفارس أن يدخل فيه وهو على صهوة جواده، وكانت كلّ حرشفة من حراشفه أطول من الترس.

18- وبعد ماكرا يأتي سهل ماسيوس حيث هناك عدة أجزاء جبلية بينها خلكيس التي تعدّ بمثابة أكروبوليس ماسيوس. ويبدأ هذا السهل في لاوديكية لبنان. ويشغل الإيتوريون والعرب المناطق الجبلية كلها، وهؤلاء كلّهم قطّاع طرق ولصوص؛ أمّا سكّان السهول فهم على الضدّ، فلاحون. ويعتدي قطّاع الطرق على الفلاحين ويضطهدونهم، الأمر الذي يدفع هؤلاء إلى طلب العون من مختلف الجهات. وتعدّ التحصينات هي نقاط الاستناد التي يقيم اللصوص فيها، ومنها يشنّون غزواتهم. فسكّان لبنان مثلاً، يشغلون على قمة جبل حصن سينّا وحصن بوراما وسواهما من

---

* أي منطقة دمشق. ح. إ.

الحصون الأخرى، أمّا في الأسفل فيشغلون الكهفين الساحليين بوتريس وجيجارت، والحصن الذي بني على ثيوبروسوبون. وقد هدم بومبييوس هذه الحصون كلّها. ومن هنا كان قطّاع الطرق يشنّون غزواتهم على جبيل ومدينة بيريت التي تليها. وتقع هاتان المدينتان بين صيدون وثيوبروسوبون. وجبيل هي العاصمة الملكية للملك كينير، وهي مدينة مكرّسة لأدونيس. لقد حرّر بومبييوس المدينة من نظام التيرانية، واحتزّ رأس التيران. وتقع المدينة على مرتفع قريب من البحر.

19- ويأتي بعد جبيل نهر أدونيس، وجبل كليماكس وباليبيل. ثمّ يأتي نهر ليكوس ومدينة بيريت. وكان تريفون قد هدم هذه الأخيرة، إلاّ أن الرومان أعادوا الآن بناءها. وقد قيّض لمدينة بيريت أن تستقبل فيلقين نشرهما أغريبا هنا، وضمّ إلى أملاك المدينة شطراً كبيراً من منطقة ماسيوس وصولاً حتّى منابع العاصي. وتقع هذه المنابع قرب لبنان، وباراديس، والتحصينات المصرية التي تقع على مقربة من منطقة أفاميا. إنّ هذه هي معلوماتي عن المناطق الساحلية.

20- ويمتدّ إلى الأعلى من ماسيوس واد يدعى الوادي الملكي، ومنطقة دمشق الذائعة الصيت. ودمشق مدينة كبيرة، بل يمكن القول إنها المدينة الأكثر شهرة في هذا الجزء من العالم إبّان السيطرة الفارسية. ويعلو فوقها تراخونان[17] اثنان. ونحو المنطقة التي يسكنها العرب والإيتوريون بالتناوب، تعلو جبال وعرة عصية فيها كهوف مداخلها عميقة؛ فأحد هذه الكهوف يتّسع لـ 4000 شخص في حال وقوع هجوم معاد من تلك التي كان الدمشقيون يتعرضون لها من شتّى الجهات. وفي واقع الحال إنّ البرابرة كانوا يهاجمون تجار العربية السعيدة ويسلبونهم، الأمر الذي نادراً ما يحصل الآن، بعد أن قضي على عصابات قطّاع الطرق التي كان يتزعمها زينودور، إثر فرض الرومان النظام القانوني والأمن الذي أعاده الجنود الرومان المعسكرون في سوريا.

21- إن كلّ البلاد الواقعة فوق سلوقيا، والتي تمتدّ باتجاه مصر والعربية تقريباً تدعى كيليسوريا. ولكن بالمعنى الدقيق لا يحمل هذا الاسم سوى جزء منها وهو الجزء الذي يقتصر على لبنان وأنتيلبنان. وممّا تبقى من الجزء الآخر[18]، ثمّة شريط ساحلي ضيّق يمتدّ من أورفوسيا إلى بيلوسي، يدعى فينيقيا؛ أمّا الجزء الداخلي الذي يمتدّ فوق فينيقيا حتّى منطقة العرب، بين غزّة وأنتيلبنان، فيحمل اسم اليهودية.

22- وبما أنني كنت قد وصفت كيليسوريا بالذات، فإني أدلف الآن إلى فينيقيا، مع أني وصفت سابقاً جزءها من أورفوسيا حتّى بيريت. وبعد بيريت بـ 400

مرحلة تقريباً، تقع صيدون. ويجري بين هاتين المدينتين نهر تاميرا، كما تقع أدغال أسكليبوس وليونتوبوليس. وتلي صيدون مدينة صور، أكبر مدن الفينيقيين وأقدمها، التي كانت تنافس صيدون بالحجم، والشهرة، والتي تحدّث لنا عنها كثير من الأساطير. وعلى الرغم من أن الشعراء أشهروا صيدون أكثر (بل لم يأت هوميروس على ذكر صور قط)، إلاّ أنّ المستعمرات التي أرسلت إلى ليبيا وإيبيريا، بل حتّى تلك التي اتّجهت نحو الأعمدة، تتغنّى بصور أكثر. لقد كانت المدينتان شهيرتين وماجدتين، قديماً وفي أيامنا هذه. ولكن أيّ مدينة منهما ينبغي أن تعدّ متروبوليا الفينيقيين؟ لا يزال الأمر موضع خلاف. وتقع صيدون على مقربة من ميناء ملائمة من حيث طبيعة موقعها.

23- إنّ صور كلّها عبارة عن جزيرة؛ وكانت قد بنيت على غرار أراد تقريباً؛ ولكنّ المدينة تتّصل مع البرّ بممرّ ترابي مدّه الإسكندر عندما حاصرها. وفي المدينة ميناءان؛ إحداهما مغلقة، والأخرى، التي تدعى «المصرية»، مفتوحة. ويقال، إن المنازل هنا متعدّدة الطوابق، حتّى أنها أعلى من منازل روما. ولذلك عندما كانت تقع الهزّات الأرضية، بالكاد كانت المدينة تنجو من الدمار التام. ولسوء حظ صور أنّ الإسكندر استولى عليها بعد حصار طويل. ومع ذلك نجحت المدينة في تجاوز مثل هذه المحن واستعادت مجدها بفضل كفاءة أعمال الملاحة (وقد تفوّق الفينيقيون فيها على كلّ الشعوب الأخرى)، وكفاءة مصابغها التي كانت تنتج الصباغ الأرجواني. فالأرجوان الصوري يعدّ حقّاً الأرجوان الأجمل من كلّ ما عداه من الأرجوان. ويجري استخراج المحار القرمزي هنا على مقربة، وكلّ ما يلزم وضروري لأعمال الصباغة هنا بمتناول اليد. ولكنّ كثرة المصابغ تجعل العيش في المدينة غير مريح، بيد أن مهاراتهم العالية تجعلهم أثرياء جدّاً. ولم يكن الملوك وحدهم من اعترف باستقلال صور وأقرّ به، بل الرومان بدورهم أقرّوا المراسيم الصادرة بهذا الخصوص، ولم تتحمل المدينة من جراء ذلك سوى قليل من النفقات. وقد شاعت هنا شيوعاً واسعاً عبادة هرقل[19]. والبرهان على أهمية حملاتهم البحرية، هو وجود عدد كبير من مدنهم- مستعمراتهم الكبيرة. هؤلاء هم الصوريون.

24- وتصف الروايات الصوريين بأنهم حرفيون حاذقون في كثير من الفنون الجميلة، وهذا ما يتحدّث عنه بوضوح هوميروس[20] أيضاً. وكانوا يمارسون عدا عن هذا البحث العلمي في ميدان الفلك، وعلم الحساب، بدءاً من فنّ الإحصاء والإبحار

الليلي. فكلّ مجال من مجالات المعرفة هذه كان ضرورياً للتجار ولأصحاب السفن. إذ يقال مثلاً، إنّ المصريين هم الذين ابتكروا علم الهندسة، وإن هذا العلم نشأ عن قياس قطع الأرض الذي كان أمراً ضرورياً بعد أن تختلط الحدود إثر كلّ فيضان لنهر النيل. وعلى هذا النحو فإنّ هذا العلم، كما يظنّون، انتقل من المصريين إلى الإغريق، أمّا علم الفلك وعلم الحساب فقد انتقل إليهم من الفينيقيين. بيد أننا نستطيع في الوقت الراهن أن ننهل من هذه المدن ذخيرة من المعارف أكثر رحابة في كلّ ميدان من ميادين العلم. وإذا صدّقنا بوسيدونيوس، فإن الصيدوني موخ، الذي عاش قبل حرب طروادا، هو الذي وضع التعاليم القديمة عن الذرّة. ولكن، لنترك ما هو قديم الآن. ففي زمننا هذا ينتمي إلى صيدون الفلاسفة المعروفون: بويثوس الذي اشتغلت معه على فلسفة أرسطو، وديودوت، وشقيقه. ومن صور، الفيلسوف أنتيباتر، وقبل زمني بقليل، الفيلسوف أبوللونيوس الذي أصدر دليل فلاسفة مدرسة زينون مع لائحة بأسماء كتبهم.

- وتقع صور على مسافة لا تزيد على 200 مرحلة عن صيدون؛ وتقع بينهما مدينة صغيرة تدعى أورنيفوبوليس[21]. ويقع بعد ذلك نهر يصبّ في البحر غير بعيد عن صور، وبعد صور تقع باليتير[22] على بعد 30 مرحلة منها.

25- وتأتي بعد ذلك بطليموسيا التي تحمل اسم عكّا. وهذه المدينة هي نقطة استناد الفرس لعملياتهم ضدّ مصر. ويمتدّ بين عكّا وصور شاطئ رمليّ يستخدم رمله لصناعة الزجاج. ويقال إنهم لا يصهرون الرمل هنا، بل يحملونه إلى صيدا حيث يصهر فيها. ويزعم بعضهم أنه لدى الصيدونيين رمل صواني صالح لصهر الزجاج، مع أنه بحسب آخرين، يمكن صهر أيّ رمل كان في كلّ مكان. فقد سمعت من صانعي الزجاج في الإسكندرية، أنّ في مصر تربة صوانية لا يمكن من غيرها صناعة آنية ملّونة ثمينة، كما هي الحال في شتّى البلدان حيث يتطلّب هذا إعداد مختلف الخلطات. وفي روما أيضاً، كما يقال، ابتكروا مختلف الخلطات لتلوين المصنوعات، كما لتسهيل عملية صناعتها، مثلما هي الحال لدى صناعة الزجاج الشفاف، كالكريستال مثلاً، حيث يمكن اقتناء كأس زجاجية وكوب للشرب لقاء خالك واحد.

26- وتقول الروايات، إنّ ظاهرة فريدة وغريبة حدثت على هذا الشاطئ بين صور وبطليموسيا. ففي هذا المكان خاض البطالمة معركة مع القائد سربيدون وهزموا فيها[23]. وفي اللحظة نفسها انقضّت على الفارّين موجة بحرية تشبه المدّ البحري؛ فجرفت بعضهم معها إلى البحر، واستقرّت جثث الآخرين في أمكنة عميقة. وما إن

وقع الجزر بعد ذلك حتّى عرّى الشاطئ، فظهرت جثث الغرقى مبعثرة بين الأسماك النافقة. ويحدث مثل هذه الظاهرات أيضاً قرب جبل كاسيوس في مصر. فالأرض هناك، لدى تقلّبها الحاد المفاجئ تغيّر وضعها بالاتجاهين في لحظة (إلى أعلى مستوى وإلى أدنى مستوى). ولذلك فإن قسمها الذي يرتفع، يدفع البحر؛ أمّا قسمها الذي ينخفض فيستقبله. ولكنّ الاندفاع المعاكس يعيد المكان إلى وضعه السابق، بيد أنه يحدث أحياناً أن تختلط المستويات اختلاطاً كاملاً، ولكنّ هذا قد لا يحدث أيضاً[24]. وقد تكون مثل هذه الظاهرات مرتبطة ببعض القانونيات الدورية التي نجهلها، مثلما يزعمون بالنسبة لفيضانات النيل: مع أن هذه الأخيرة متنوّعة، إلاّ أنها خاضعة لحتمية ما نجهلها نحن.

27- ويقع بعد عكّا برج ستراتون[25] وفيه مرسى للسفن. وبين هذين الموقعين يقع جبل الكرمل ومدن صغيرة لا نعرف عنها شيئاً سوى أسمائها: سيكامينوبوليس، وبوكولوبوليس، ومدينة التمساح، وسواها. وتأتي بعد ذلك غابة كبيرة.

28- بعد ذلك تأتي جوبا، حيث خطّ الساحل الممتدّ قبل ذلك من مصر باتجاه الشرق ينعطف بوضوح نحو الشمال. ووفق روايات بعض مؤلّفي الأساطير، إنّ أندروميدا رميت هنا ليفترسها الوحش البحري. ويقع هذا المكان على مرتفع عال، ويقال، إن أورشليم، عاصمة اليهود، تظهر من هنا. ويستخدم اليهود هذا المكان ميناء عندما ينزلون إلى البحر؛ ولكنّ موانئ القراصنة تعدّ في الوقت نفسه أوكاراً للقراصنة وقطاع الطرق[26]. ولم يستول اليهود على الكرمل وحده من قبل، إنما استولوا على الغابة أيضاً؛ وكان هذا المكان مسكوناً بكثافة مكّنت سكّانه من تجنيد 40.000 مقاتل من مستوطنة جامنيا المجاورة وضواحيها. والمسافة من هنا إلى جبل كاسيوس الواقع قرب بيلوسي، أكثر بقليل من 1000 مرحلة، إضافة إلى 300 مرحلة أخرى إلى بيلوسي نفسها.

29- وفي المنطقة الفاصلة تقع هداريدس التي استولى اليهود عليها أيضاً، ثمّ تأتي بعدئذٍ آزوت وعسقلون. ومن جامنيا حتّى آزوت وعسقلون 200 مرحلة تقريباً. ومنطقة العسقلونيين صالحة جدّاً لزراعة البصل، أمّا المدينة نفسها فليست مدينة مهمّة. منها خرج الفيلسوف أنطوخ الذي عاش قبل زمننا بقليل. وخرج من هيداريدس فيلوديم الإيبيقوري، وملياغروس، ومينيبوس الشّاعر الهجائي، والبلاغيّ ثيودوروس الذي عاصرني.

30- وعلى مقربة من عسقلون يقع ميناء سكّان غزّة، ثمّ مدينة غزّة التي تقع على بعد 7 مراحل من الميناء في داخل البلاد. وفي زمن ما كانت هذه المدينة مدينة شهيرة، لكنّها هجرت بعد أن دمّرها الإسكندر. ويقولون إن الطريق البرية من هنا إلى إيلا* 1260 مرحلة. وإيلا هذه مدينة تقع في تجويف الخليج العربي. ويتألّف هذا التجويف من قسمين. أحدهما يمتدّ إلى المنطقة الواقعة عند العربية وغزّة (يدعونه إيلانيتا على اسم المدينة الواقعة فيه)، ويمتدّ القسم الآخر حتّى المنطقة القريبة من مصر عند هيرونبوليس؛ والطريق البرية إليه من بيلوسي أقصر. ويقطعون هذه المسافات على ظهور الإبل عبر الصحراء والرمال؛ ويصادفهم في الطريق كثير من الزواحف.

31- وتأتي بعد غزّة رفح، حيث دارت رحى معركة بين بطليموس الرابع وأنطوخ الكبير. وبعدها تأتي رينوكولورا[27]، التي حملت هذا الاسم لأنّ سكّانها القدماء كانت أنوفهم مقطوعة. والذي حصل فعلاً أنّ أحد ملوك إثيوبيا شنّ حملة على مصر، وبدلاً من أن يقتل المجرمين، قطع لهم أنوفهم وأسكنهم في هذا المكان؛ فقد اعتقد الملك أن الخجل الذي سيشعر به هؤلاء جراء هذا التشويه، سيدفعهم إلى الامتناع عن ارتكاب المعاصي.

32- وهذه المنطقة كلّها، ابتداء من غزة، منطقة رملية قاحلة؛ وتتميّز أكثر بمثل هذه الخاصيات أيضاً، البلاد التي تقع فوقها مباشرة. ففي هذه البلاد بحيرة تدعى سربونيدس، تقع على موازرة البحر تقريباً، وهي تترك في الفاصل معبراً صغيراً يصل حتّى ما يدعى الإيكريغما[28]. ويبلغ طول سربونيدس ما يقارب 100 مرحلة، وأكبر نقطة عرض لها 50 مرحلة. لكنّ الإيكريغما مليء بالتراب الآن. وبعد ذلك يأتي مكان آخر من هذا النوع نفسه، يصل حتّى كاسيوس، ومن هناك إلى بيلوسي.

33- وكاسيوس هضبة رملية لا ماء فيها، تشكّل رأساً بحرية. هنا دفن جثمان بومبييوس الأكبر، وهنا يقوم معبد لزيوس كاسيوس. فغير بعيد عن هذا المكان قتل المصريون بومبييوس الأكبر غدراً. ثمّ تمتدّ بعد ذلك طريق إلى بيلوسي؛ وتقع عليها هيرّا، والحصن الذي يدعى خابريا، وحفر عميقة بجانب بيلوسي أحدثتها فيضانات النيل، لأنّ هذه المنطقة مجوّفة ومستنقعية بطبيعتها. على هذا النحو هي فينيقيا. وبحسب أرتيميدور أنّ المسافة من أورفوسيا إلى بيلوسي 3650 مرحلة، بما فيها

* إيلات المعاصرة. - ح. إ.

تجويفات الخلجان؛ وأنّ المسافة من ميلينا أو ميلانيس التي في كيليكيا قرب كيليندريدس، حتّى حدود كيليكيا وسوريا، هي 1900 مرحلة؛ ومن هنا حتّى نهر العاصي 520 مرحلة، وحتى أورفوسيا 1130 مرحلة.

34- أمّا فيما يخصّ اليهودية، فعند حدودها الغربية نحو كاسيوس تقع منطقة اليهود وبحيرة. والإيدوميون هم النبط الذين طردوا من هناك[29] في أعقاب انتفاضة؛ فالتحقوا باليهود وأخذوا عاداتهم. وتشغل بحيرة سربونيدس والبلاد المجاورة لها حتّى أورشليم، الشطر الأكبر من المنطقة الساحلية، فالمدينة لا تبعد عن البحر كثيراً. وأنا كنت قد قلت[30] إن المدينة تُرى من ميناء جوبا. وتقع هذه المنطقة نحو الشمال. وكما هي الحال في هذه البلاد على وجه العموم، كذلك في كلّ مكان على حدة، فإنّ السكّان خليط من القبائل المصرية، والعربية، والفينيقية. فعلى هذا النحو هم سكّان الجليل، وهيريكونت، وفيلاديلفيا، وساماريا (التي دعاها هيرودوس[الأكبر]سيباستا). ومع أنّ السكّان هنا على هذا النحو من التنوّع، إلاّ أنّ الغالب من الآراء [التي تستحق الاهتمام] عن معبد أورشليم يصف أسلاف من يدعون الآن يهوداً بأنهم مصريون.

35- فموسى[31] هو واحد من الكهنة المصريين، الذي كان يملك شطراً مما يسمّى مصر السفلى. ولمّا لم يكن هذا راضياً عن الأوضاع التي كانت سائدة هناك انتقل إلى اليهودية مع جمع كثير من عابدي معبود واحد. وقد رسّخ موسى وعلّم فعلاً، أنه لدى المصريين والليبيين تصوّر خاطئ عن الإله لأنهم يمثّلونه في صور وحوش وحيوانات منزلية[32]؛ كما يخطئ الإغريق أيضاً إذ يمثّلون الآلهة في صورة بشرية. فبحسب رأيه، أنّ الإله كائن واحد أوحد يحتوينا كلّنا، ويحتوي الأرض والبحر، وكلّ ما ندعوه نحن السماء أو الكون، أو طبيعة كلّ ما هو موجود. وهل من عاقل يجرؤ على صنع صورة لمثل هذا الإله تشبه مادّة من المواد التي تحيط بنا؟ إن الأمر على الضدّ من هذا، إذ ينبغي العزوف عن وضع أيّ رسم للإله، بل ينبغي تكريس أرض مقدّسة له وبناء معبد عليها يليق به، وعبادته من غير أي رسم أو تمثيل. وينبغي على من يرى في نومه رؤى أن ينام في المعبد، ليس من أجل أنفسهم فقط، إنما من أجل الآخرين أيضاً. ومن يعش عيشة زهد، وحياة صالحة، يمكنه دائماً أن ينتظر من الإله خيراً ما، هبة، عطاء، أو آية، لكنّ الآخرين يجب ألاّ ينتظروا شيئاً من هذا.

36- وبعد أن عرض موسى هذا النوع من التعاليم، أقنع أعداداً غير قليلة من أصحاب التفكير السليم، وقادهم ليستقرّ معهم في المكان الذي تقوم عليه مستوطنة

أورشليم الآن. ولم يجد موسى صعوبة تذكر في الاستيلاء على هذه الأرض، لأنها لم تكن أرضاً تستحقّ الصراع عليها، أو يمكن لأحد أن يخوض قتالاً جدياً من أجلها. وواقع الأمر إنّ هذه البلاد بلاد صخرية، والحقيقة أن مياهها غزيرة، إلاّ أن المناطق المحيطة فقيرة ولا ماء فيها، أمّا القسم الداخلي من البلاد، وعلى امتداد 60 مرحلة، فأرضه مغطاة بطبقة صخرية تحت سطح التربة. وفي الوقت نفسه لم يدفع موسى بالسلاح إلى الواجهة، بل دفع بالمقدّس والإله، الذي كان يرغب في أن يجد له مكاناً يقيم فيه طقوس عبادته[33]، فوعد الشعب بأن يقيم عبادة وطقوساً مقدّسة من النوع الذي لا يرتّب على من يعتنقها نفقات ثقيلة، أو تزمّتاً دينياً، أو ما شابه من الشعائر السخيفة. وبمثل هذه الوسائل حظي موسى باحترام واسع وأقام سلطة فريدة من نوعها، لأنّ الأقوام المحيطة كلّها التحقت به من أجل تلك التعاليم والوعود.

37- لقد أقام خلفاء موسى على وفائهم لتعاليمه لبعض الوقت، بعد أن رأوا فيها حياة صالحة طاهرة حقيقية. لكنّ وظيفة الكهنوت استقرّت بعد ذلك في أيدي شخصيات متزمتة، ثمّ مستبدّة. وقد أنتج هذا التزمت تحريم عدد من أنواع الطعام التي لا تزال محرّمة حتّى يومنا هذا؛ كما فرض أيضاً طقس الختان، ختان الذكور والإناث، إضافة إلى الطقوس الأخرى التي من هذا النوع، والتي كرّست شرعياً. وقد نشأت عن التيرانية عصابات من قطاع الطرق[34]. ونهب المتمرّدون البلاد، بلادهم والبلاد المجاورة؛ أمّا الآخرون الذين كان يعملون بالتنسيق مع الحكّام، فقد كانوا ينهبون أرزاق الآخرين، وأخضعوا لسلطانهم شطراً كبيراً من سوريا وفينيقيا. ومع ذلك حافظوا على درجة من الاحترام لمدينتهم الرئيسة؛ فلم ينفروا منها بصفتها مقرّاً للتيران، بل بجلّوها واحترموها بصفتها مدينة مقدّسة.

38- وعلى هذا النحو كان واقع الأشياء والديدن المشترك بين الإغريق والبرابرة. فبعد أن اتحد هؤلاء في مشاعات مدنية، عاشوا وفق قانون عام مشترك. فبطريقة أخرى فعلاً لم يكن بمقدور الكتلة الشعبية في أيّ بلد أن تفعل الأمر عينه بتوافق أفرادها بعضهم مع بعض (وفي هذا تحديداً يكمن الاتحاد المدني) أو أن تعيش حياة مشتركة أصلاً. لكنّ لهذا القانون طبيعة مزدوجة، لأنه صادر إمّا عن الآلهة أو عن البشر. وفي أقلّ تقدير كان القدماء يرون في القانون الإلهي القانون الأسمى والأقدس، ولذلك كانوا يكنّون كلّ الاحترام لمن كان يسأل الموْحى؛ لقد جاء إلى دودونا لكي

يسمع إرادة زيوس من شجرة البلوط العالية المورقة،

(الأوذيسا، XIV، 328)

فتوجّه إلى زيوس بصفته مرشداً؛ أمّا إلى دلفي، فقد جاء

باحثاً عن ابنه المهجور،

أو الذي لم يعد له على الأرض وجود

(يوريبيدس، 34)

ومينوس الذي من الكريتيين

... ملَكَ، وكان

كلّ تاسع عام يحادث كرونيون الحكيم،

(الأوذيسا X، 19)

والذي يقول أفلاطون إنه كان يصعد كلّ تسعة أعوام إلى كهف زيوس فيتلقى منه الأوامر ثمّ ينقلها إلى الناس. والشيء نفسه كان يفعله ليكورغوس[35]، الذي كان يحاكي ما كان يفعله مينوس؛ فليكورغوس غالباً ما كان يسافر من بلاده لكي يسأل البيثيا عن التعليمات والأوامر التي ينبغي أن ينقلها إلى اللاكيديمونيين.

39- ولكن مهما كان نصيب هذه الأقوال من الحقيقة، إلاّ أنهم آمنوا بها واتخذوها كقانون. ولذلك كان المتنبّؤون يحظون بكل ذلك الاحترام، حتّى أنهم عدّوهم أهلاً للسلطة الملكية، لأنهم يظهرون لنا إرادة الآلهة في الحياة وبعد الموت. فتيريسيوس مثلاً:

حفظت له بيرسيفوني عقله وهو ميت؛ في هاديس

كان وحده بكامل وعيه؛ وكانت الأشباح الأخرى تهيم عامهة.

(الأوذيسا X، 494)

وعلى هذا النحو كان أمفيارايوس، وتروفونيوس، وأورفيوس، وموسيوس وإله الجيتيين الذي كان يتمثّل عندهم قديماً في فيثاغورسي ما يدعى زامولسكي[36]، أمّا في زمننا هذا، فهو ديكينوس[37] المتنبّئ عند بيريبيست؛ وعند البوسبوريين: أهايكار، وعند الهنود: الصوفيون العراة؛ وعند الآشوريين: الكلدان؛ وعند الفرس: الماغي والنيكرومانت، وكذلك الليكانومانت والهيدرومانت؛ وعند الرومان: التيرينيون

قارئوا الطالع[38]. وعلى غرار هؤلاء كان موسى وخلفاؤه الذين حرّفوا بعد ذلك مبدأ لم يكن سيّئاً.

40- وهكذا، عندما أخذ التيران يحكمون اليهود علانية ومن غير مواربة، كان الإسكندر أوّل من أعلن نفسه ملكاً بدلاً من الكاهن. وكان للإسكندر ولدان، هما هيركان وأريستوبول. وفي أثناء النزاع بينهما على السلطة، جاء بومبييوس وأطاح بهما معاً، وهدم القلعة واستولى على أورشليم عنوة. وكانت هذه المدينة عبارة عن قلعة مبنية على صخرة ومحصّنة تحصيناً جيّداً؛ وكان في داخل القلعة ماء غزير، لكنّ المنطقة الممتدّة وراء أسوار القلعة كانت خالية منه. لقد كان سور القلعة محاطاً بخندق محفور في الصخر عمقه 60 قدماً وعرضه 250 قدماً. ومن الصخر المقتلع [من الصخرة]، بنوا سور المعبد وأبراجه. ويروى أنّ بومبييوس استولى على المدينة مستغلاً يوم الصوم[39]، وهو اليوم الذي يمتنع اليهود فيه عن تأدية أيّ عمل كان؛ فأمر بطمر الخندق ورمي سلالم الهجوم من الأعلى. ثمّ أمر بهدم الأسوار كلّها وتدمير ما يمكن تدميره من أوكار اللصوص وخزائن التيران. وكان اثنان من مثل هذه الأوكار عبارة عن قلعتين واقعتين على الممرات الجبلية التي تؤدّي إلى هيريكونت،- فريسك وطور؛ وما تبقّى - الإسكندرية، وهيركاني، ومخيروس وليسيادا، وتلك التي تقع قرب فيلاديلفيا، وكذلك سكيتوبوليس قرب الجليل.

41- وهيريكونت هو سهل يحيط به ما يشبه المنطقة الجبلية التي تلامسه في صورة تشبه المشهد المسرحي. ويقع هنا دغل من شجر النخيل تنمو بين شجره هذا أنواع أخرى من أشجار البساتين والأشجار المثمرة، لكنّ الغلبة فيه لشجر النخيل. ويبلغ طول هذا الدغل 100 مرحلة؛ والدغل كلّه مرويّ بمياه الينابيع والجداول، ومليء بالمساكن. وهنا يقع القصر الملكي[40] أيضاً، وحديقة فيها نجمات من شجيرات البلسم. والبلسم نبات عطري على شكل شجيرات تشبه الكيتيس[41] والتيرميث[42]. فيشرطون لحاءها ويجمعون عصيرها الذي كالحليب المكثف في أواني؛ ويتصلّب البلسم عندما تكون كميته قليلة. ولهذا العصير فاعليه مذهلة في التخلّص من الصداع، والمياه الزرقاء عندما تكون في مراحلها الأولى، وكذلك حسر البصر. ومهما كان الأمر فإن عصير البلسم يحظى بتقدير عال جدّاً، خاصة أنه لا يستخرج إلاّ هنا. وعلى النحو نفسه دغل النخيل، حيث لا تنمو إلاّ هنا شجرة النخيل التي تعطي ثمراً على شكل عين الجمل (ما

عدا الدغل البابلي والأدغال الواقعة خارج حدود بابل نحو الشرق). ولذلك فإن هذه النباتات تعطي مورداً كبيراً. وتستخدم شجرة البلسم كتوابل عطرية.

42- وتعدّ بحيرة سربونيدس بحيرة كبيرة[43]. فبعضهم يزعم فعلاً أن امتداد محيطها يبلغ 1000 مرحلة. لكنّها تمتدّ طولاً على شاطئ لا يزيد كثيراً عن 200 مرحلة؛ والبحيرة عميقة قرب شواطئها؛ ومياهها ثقيلة إلى درجة لا تتطلب من المرء أن يحسن العوم: ما إن يدخل الشخص فيها ويغمره ماؤها حتّى السرّة حتّى يرتفع رويداً رويداً. والبحيرة مليئة بالإسفلت. ومن وقت لآخر ينفجر الإسفلت على سطح الماء صاعداً من الأعماق على شكل فقاعات، حيث يبدو الأمر كأن الماء يغلي. وإذ ينتفخ سطح الماء يتخذ شكل التلّ. وتصعد مع الإسفلت إلى السطح كمية كبيرة من السخام الذي يشبه الدخان، لكنّ العين لا تراه. ومن هذا السخّام يصدأ النحاس، والفضّة، وكلّ المواد التي تبرق، بما فيها الذهب. وما إن يغطي هذا الصدأ أواني سكّان الضواحي، حتّى يعرف هؤلاء إن قذف الإسفلت قد بدأ؛ فيستعدّون بعد ذلك لاستخراجه باستخدام أطواف مصنوعة من القصب. والإسفلت هنا عبارة عن كتلة ترابية تتحوّل بتأثير الحرارة إلى كتلة سائلة، ثمّ تُقذف إلى الخارج وتنتشر على السطح. وبعد ذلك تتحوّل من جديد بتأثير برودة الماء (لأن مياه البحيرة باردة) إلى كتلة صلبة ينبغي تقطيعها وتفتيتها. ويطفو الإسفلت على السطح بفضل الخاصية الطبيعية لمياه البحيرة التي أشرت قبل قليل إلى أن وجودها يغني عن معرفة العوم. فلا يمكن أن يغرق هنا في هذه المياه أحد، لأنّ الماء يصعد به إلى السطح[44]. ويعوم السكّان هنا على أطواف، فيقطّعون الإسفلت ويحملون منه قدر ما يستطيع كلّ منهم أن يحمل.

43- هذه هي خاصية هذه الظاهرة. ولكنّ بوسيدونيوس يخبر أنّ السكّان المحلّيين، لأنّهم سحرة، يعتمدون الرقى ويستخدمون البول وما شابه من السوائل الكريهة الرائحة التي يسكبونها على الإسفلت، ثمّ يعصرونه ويتركونه ليتصلّب، ويقطعونه إلى قطع. وربّما تكون في البول نفسه خاصية ما من هذا النوع، فالذين يعانون من حصى في المثانة، يتشكّل عندهم فيها كريسوكول[45]، كما يظهر أيضاً في بول الأطفال. وحدوث هذه الظاهرة في وسط البحيرة، أمر مفهوم، لأنّ مصدر النار والإسفلت يقع في وسطها. لكنّ خروج الحمم ليس منتظماً، لأنّ حركة النار، مثلها مثل كثير من الأشياء الأخرى، ومنها الهواء لا تخضع لنظام معروف لنا. ويمكننا أن نرصد وجود ظاهرات مماثلة لدى أبوللونيوس في الإيبيروتيدس[46].

44- ويسوقونَ كثيراً من البراهين التي تؤكّد أن هذه الأرض مليئة بالنار. فعند مواسادا يعرضون صخوراً مشوية ساقطة، وفي كثير من الأماكن أخاديد وتربة تشبه الرماد: تسيل من الصخور الملساء خيوط من قطر القطران تنشر رائحتها الكريهة على مسافات بعيدة؛ وترى هنا وهناك منازل مهدّمة. ولذلك ينبغي أن نصدّق الروايات الشائعة بين السكّان المحلّيين عن وجود 13 مدينة هنا كانت مسكونة، وإنّ المدينة الرئيسة بينها كانت مدينة سودوما التي كان امتداد محيطها 60 مرحلة. وبسبب الهزّات الأرضية، والحمم النارية، ومياه البحيرة الكبريتية والإسفلتية الحارّة، خرجت مياه البحيرة على حين غرّة من ضفافها، وأخذت النار من الصخرة كلّ مأخذ؛ أمّا المدن فقد ابتلعت الأرض بعضها، وفرّ من بعضها الآخر من تسنّى له الفرار من السكّان. وبحسب قول إيراتوسفين الذي يزعم العكس، إنّ هذه الأرض لم تكن بحيرة في أي يوم من الأيام، وإن الشطر الأعظم منها تعرّى، وصعد فوق الماء نتيجة الثورات البركانية، كما كان قد حصل في تساليا(47) أيضاً.

45- وفي هيداريدس أيضاً مياه بحيرة مؤذية؛ فإذا ما شربت منها المواشي، تساقط وبرها وأظلافها وقرونها. وفي بحيرة ما يسمّى تارحيا أسماك من أفضل أنواع السمك الصالح للتمليح؛ وتنمو في هذا المكان أشجار مثمرة تشبه أشجار التفاح. ويستخدم المصريون الإسفلت لتحنيط الموتى.

46- لقد فصل بومبييوس عن اليهودية عدداً من المناطق كان اليهود قد استولوا عليها عنوة، وأعطاها لهركان(48) الكهنوت الأعلى. وفيما بعد نجح هيرودوس، أحد أحفاده، وهو من منشأ محلّي، بالتسلل إلى منصب الكاهن الأكبر. وقد كان هيرودوس متميّزاً عن أسلافه تميّز كبيراً، خاصة بفضل علاقاته مع الرومان، وحكمته في إدارة شؤون الدولة، ما جعل الرومان يعلنونه ملكاً، وكان أنطونيو أوّل من منحه هذه السلطة، ثمّ منحه إياها بعد ذلك قيصر أغسطس. لقد قتل هيرودوس بعضاً من أبنائه بدعوى أنهم كانوا يتآمرون عليه، وعيّن بعضهم الآخر ورثة له بعد موته، ثمّ منحهم أجزاء من مملكته. وقد كرّم قيصر أبناء هيرودوس، وأخته سالومي وابنتها برينيكي. لكنّ أبناءه كانوا تاعسيّ الحظ. فقد وجّهت إليهم الاتهامات، فقضى بعضهم(49) حياته كلّها منفياً لاجئاً عند الغلاطيين - الألّلوبروغيين، بينما أظهر بعضهم الآخر(50) قدراً فريداً من المحاباة ونال (لكن بصعوبة) حق العودة في عهد التيترارخيا.

الفصل الثالث

1- تمتـدّ العربيـة كلّهـا ، مـا عـدا منطقـة سـكّان الخيـام في منطقـة مـا بـين النهـرين، فـوق اليهوديـة وكيليسـوريا وصـولاً إلى بابـل ومنطقـة الفـرات النهريـة نحـو الجنوب. وأنا كنت قد تحدّثت[1] عمّا بين النهرين والقبائل التي تعيش فيها. أمّا المناطق الواقعة على الجانب الآخر من الفرات، فإن البابليين يشغلون الأراضي الواقعة عند مصبّاته ومعهم فيها قبيلة الكلدانيين الذين كنت قد أتيت على ذكرهم أيضاً[2]؛ أمّا الأراضي التي تمتدّ مباشرة بعد ما بين النهرين حتّى كيليسوريا، خاصة الشطر القريب من النهر، وكذلك ما بين النهرين نفسها، فإن العرب سكّان الخيام هم الذين يملكونها، ويتوزّع هؤلاء على إمارات صغيرة مستقلّة؛ ويعيش العرب في أماكن قاحلة عقيمة بسبب فقرها إلى الماء؛ ولذلك لا يمارس هؤلاء العمل الزراعي البتّة، أو يمارسون قليلاً جدّاً منه، لكنّهم يربّون مختلف أنواع الماشية، خاصة الإبل. وتمتدّ إلى الأعلى من العرب سكّان الخيام، صحراء شاسعة؛ ويشغل سكّان ما يسمّى العربية السعيدة، المناطق الواقعة أبعد إلى الجنوب من العرب. وتشكّل الجهة الشمالية من العربية السعيدة الصحراء التي أتينا على ذكرها هنا، ويشكّل الخليج الفارسي جهتها الشرقية، والخليج العربي جهتها الغربية، والبحر الكبير (خارج هذين الخليجين) جهتها الجنوبية، ويدعى هذا البحر كلّه، البحر الأحمر.

2- ويدعى الخليج الفارسي بدوره، البحر الفارسي. ويصفه إيراتوسفين على النحو الآتي. يقول: مدخل الخليج ضيّق إلى درجة تمكننا من رؤية رأس مكّة البحرية في العربية من هرمز رأس كارمانيا البحرية. والساحل الذي على يمين مدخل الخليج مستدير الشكل يميل في الأوّل عن كارمانيا قليلاً نحو الشرق، ثمّ نحو الشمال، وبعدها نحو الغرب وصولاً إلى تيريدون ومصبّات الفرات. ويشمل الساحل شاطئ الكارمانيين، وجزئياً شاطئ الفرس، والسوسيين، والبابليين على امتداد يقارب 10.000 مرحلة. وأنا كنت قد تحدّثت عن هذه الأقوام[3]. ومن هنا حتّى ثغور الساحل 10.000 مرحلة أخرى، على حدّ قول أندروسفين الفاسوسي كما ينقل عنه إيراتوسفين، فاندروسفين رافق نيارخس في إبحاره، كما أبحر لوحده على طول ساحل العربية. ويتّضح من هنا أن هذا البحر لا يقل حجماً عن البحر الإيفيكسيني. وينقل إيراتوسفين عن أندروسفين الذي أبحر مع الأسطول حول الخليج قوله، إنه إذا أبحرت

على طول الساحل والبرّ على يمينك، فإنك ستلقى بعد تيريدون مباشرة جزيرة إيكار الواقعة أمام الشاطئ، وفيها معبد مكرّس لأبوللون، ومُوحى تافروبولا[4].

3- وبعد أن تبحر على طول شواطئ العربية 2400 مرحلة، تلقاك في عمق الخليج مدينة الحيرة، وهي مستوطنة الكلدانيين المنفيين من بابل والذين يعيشون هنا في مكان تربته مالحة، وفي منازل مبنية من الحجر الملحي. ولكن بما أن صفائح الملح تتساقط دائماً بسبب شدّة حرارة الشمس، فقد لجأ السكّان إلى سقي الجدران بالماء كي يحافظوا عليها متينة محكمة. وتقع المدينة على مسافة 200 مرحلة عن البحر. ويعمل الحيريون بالتجارة، فينقلون برّاً بضائع العربية وعطورها. ولكنّ أريستوبول يزعم العكس إذ يقول، إن الحيريين ينقلون الجزء الأعظم من بضائعهم إلى بابل على أطواف؛ فهم يبحرون من هنا مع بضائعهم صعوداً في نهر الفرات حتّى فابساك، ثمّ ينقلونها من هناك برّاً إلى شتّى أرجاء البلاد.

4- وإذا واصلنا الإبحار فسوف تلقانا جزر أخرى: صور، وأراد حيث تقع هناك معابد تشبه المعابد الفينيقية. وفي أقلّ تقدير، إن سكّان الجزيرتين يزعمون أن الجزر والمدن الفينيقية التي تدعى بالأسماء عينها، مستعمراتهم. وتقع هاتان الجزيرتان على بعد عشرة أيام من تيريدون، ويوم واحد من الرأس البحرية الواقعة قرب ثغر الخليج الذي عند مكّة.

5- ويروي نيارخس وأورفاغور إنه على بعد 2000 مرحلة إلى الجنوب من كارمانيا، في عرض البحر تقع جزيرة أوجيريس التي يعرضون فيها قبر إريثرا، وهي عبارة عن تلّ كبير مزروع بالنخيل البرّي. وقد كان إريثرا ملك على هذه البلاد، ومن اسمه أخذ البحر الإريثري اسمه[5]. ويقول نيارخس، إن ميثروباست بن أريستوس والي فريجيا، هو من أخبره بهذا؛ وكان ميثروباست الذي نفاه داريوس، قد عاش في هذه الجزيرة وانضمّ إلى المقدونيين عندما رسا هؤلاء في الخليج الفارسي باحثاً عن فرصة تمكّنه من العودة إلى وطنه.

6- وعلى طول ساحل البحر الأحمر تنمو في عمق البحر أشجار تشبه الغار وشجر الزيتون؛ وفي أثناء الجزر تظهر هذه الأشجار تماماً من الماء؛ لكنّ المدّ يغمرها تماماً في بعض الأحيان[6]، أمّا الأراضي الواقعة فوق سطح البحر، فهي خالية من أيّ شجر؛ وعلى هذا النحو تغدو هذه الظاهرة ظاهرة غريبة. لقد كانت هذه هي أخبار إيراتوسفين عن البحر الفارسي الذي يشكل كما قلت، الجانب الشرقي من العربية السعيدة.

7- ويقـول نيـارخس إنهـم التقـوا ميثروباسـت ومـازن. وكـان هـذا المـازن حاكمـاً على جزيـرة مـا في الخليج الفارسـي. وكـانـت هـذه الجزيـرة تـدعـى وراكـتـا. وعلـى هـذه الجزيـرة وجـد ميثروباسـت ملجـأ واسـتقبالاً وديّـاً بعـد فـراره مـن أوجيريس. كمـا اتّفـق ميثروباست مع مازن علـى أن يزكيـه هـذا الأخير لـدى المقـدونيين ليعمـل في أسـطولهم، فقد غدا مازن مرشداً لهم في إبحارهم. ويروي نيارخس أيضاً، إنّ في بدايـة الإبحـار علـى طـول شـواطئ الخليـج الفارسـي جزيـرة فيهـا كـمّ كـبير مـن اللؤلـؤ الـثمين، وفي الجـزر الأخرى حجارة ثمينة شفافة لامعة. وينمـو في الجـزر الواقعـة أمـام مصبّات الفـرات شـجر يفوح منـه عطـر البخـور؛ وعنـدما تكسـر جـذور هـذا الشـجر يسـيل منهـا عصـير. ويشـير نيـارخس كـذلك إلى كـبر حجـم السـرطانات والقنافـذ البحريـة هنـا، وهـي علـى وجـه العموم ظاهرة عامّة في أنحاء البحر الخـارجي كلّهـا. فالقنافـذ البحريـة هنـاك علـى حـدّ قوله، أكبر من الكافسوس[(7)]، والسرطانات وزن واحـدها كـوتيلان. كمـا رأى حوتـاً مرمياً على الشاطئ طوله 50 ذراعاً.

الفصل الرابع

1- تبـدأ العربيـة مـن جهـة بابـل مـن ميكينـا[1]. وعلـى أحـد جوانـب ميكينـا تقـع الصــحراء العربيــة، وتقـع علــى جانبهــا الآخــر المســتنقعات الــتي تقــع قبالــة [منطقــة] الكلـدانيين، وهــي المســتنقعات الــتي تشــكلها فيضــانات ميـاه الفـرات؛ ويقـع البحـر الفارسـي علـى جانبهـا الثالـث. وهـواء هـذه الـبلاد فاسـد وغـير صـحّي، ويغطّيهـا ضـباب دائم، وتهطل فيهـا أمطـار غزيـرة، لكـنّ القـيظ يلفحهـا في الوقـت نفسـه، بيـد أنهـا مـع ذلك تنتج غلالاً رائعة. فـداليات العنـب تنمـو هنـاك في المسـتنقعات إذا فرشـت في أقفـاص مجدولـة مـن القصـب كميـة كافيـة مـن الـتراب. ولـذلك لـيس نـادراً أن يسـحب المـاء الدالية، فيعمدون عندئذٍ إلى تحميلها على أوتاد لتعود ثانية إلى مكانها.

2- ولكـن فلنعد إلى المعطيات الأخرى التي أوردها إيراتوسفين عـن العربيـة. فهـو يقول عن شطرها الشمالي، أو الصحراوي (الممتدّ بين العربية السعيدة، وكيليسـوريا، واليهودية وصولاً إلى تجويف الخليج العربي)، إنّ المسافة من هيرونبوليس، التي تشـكل منخفض الخليج العربـي عنـد النيـل باتجـاه بيترا الـتي في أرض النـبط، حتّـى بابـل 5600

---

[1] ميسان المعاصرة. - ح. إ.

مرحلة؛ وتمتدّ هذه الطريق باتجاه الشروق الصيفي للشمس[(1)] عبر أراضي القبائل العربية المجاورة، خاصة النبط، والحولوتيين، والأغريين. وإلى الأعلى من هذه الأراضي تقع العربية السعيدة التي تمتدّ على 12000 مرحلة جنوباً حتّى المحيط الأطلسي. وأوّل من سكن هذه البلاد بعد السوريين واليهود، هم الفلاّحون[(2)]. وتمتدّ بعد هؤلاء أرض رملية قاحلة نادراً ما ينمو فيها النخيل، والأشواك[(3)]، وتستخرج فيها المياه من الآبار، كما هي الحال في هدروسيا. ويقطن هذه الأرض العرب ساكنو الخيام ورعاة الإبل. أمّا أقصى المناطق الجنوبية الواقعة قبالة إثيوبيا، فترويها مياه الأمطار الصيفية؛ ويبذرون البذار هنا كما في الهند، مرّتين في العام، وتغور أنهارهم في السهول والبحيرات. وعلى وجه العموم، تتميّز هذه البلاد بالخصوبة، وهي غنية بالمناحل على وجه الخصوص؛ وفيها كثير من المواشي، ما عدا الأفراس والبغال والخنازير، وأعداد كبيرة من الطيور، ما عدا الأوزّ والدجاج. وتسكن الطرف الأقصى من هذه البلاد أكبر أربع قبائل: المينيون[1] في القسم الواقع على البحر الأحمر، وأكبر مدنهم مدينة قرن أو قرنان؛ ثمّ يجاورهم السبئيون وعاصمتهم ماريبا[2]؛ والقبيلة الثالثة هي قبيلة القتبانيين التي تمتدّ منطقتهم حتّى المضيق والمعبر الذي يمرّ عبر الخليج العربي؛ وتدعى عاصمة مملكتهم تمنع. وأخيراً في أقصى الشرق يقطن الحضرموتيون؛ ومدينتهم تدعى ساباتا[3].

3- ويدير شؤون هذه المدن كلّها حكم فردي، لكنّها تزدهر فهي تزهو بمعابد وقصور ملكية فخمة. ومنازلها السكنية تشبه المنازل السكنية المصرية من حيث طريقة ضمّ العوارض. وتضمّ كلّ دائرة من هذه الدوائر الأربع أراضي مساحتها أكبر من مساحة الدلتا المصرية. ولا يرث العرش عندهم الابن عن أبيه، بل يرثه أوّل مولود في أيّ عائلة أرستقراطية يولد بعد انتخاب الملك. ولذلك ينظمون بعد انتخاب الملك الجديد مباشرة سجلاً بأسماء النسوة الحوامل في العائلات الأرستقراطية، ويضعون عليهن مراقبة دائمة للتحقّق من منهنّ وضعت أوّلاً؛ وبحسب القانون، ينبغي على الملك أن يتبنّى المولود المعني لكي يربّى تربية ملكية بصفته الوريث المقبل للعرش.

4- تنتج قتبانيا البخور، وتنتج حضرموتيتيدا المرّ. ويبادل السكّان بهذه العطور

---

[1] المعينيون. - ح. إ.

[2] مأرب. - ح. إ.

[3] شبورة. - ح. إ.

وسواها بضائع التجار. ويأتي هؤلاء إليهم من إيلانا إلى مينيبيا في 70 يوماً (إيلانا مدينة تقع في الزاوية الأخرى من الخليج العربي، قرب غزّة التي تدعى إيلانية، كما أشرت من قبل)[4]. ومما يذكر أنّ طريق الحيريين إلى حضرموتيتيدا تستغرق 40 يوماً. ويشغل شطر الخليج العربي الذي يمتدّ على طول العربية ابتداء من منخفض إيلانا، حيّزاً قدره 14000 مرحلة، كما كتب مرافقو الإسكندر وأناكسيكرات. بيد أنّ هذا الرقم مبالغ فيه كثيراً. فشطر هذا الخليج مقابل التروغلوديتي (الذين يقيمون على الجهة اليمنى إذا أبحرت من هيرونبوليس) حتّى بتوليميادا وأماكن صيد الفيلة، يشغل 9000 مرحلة نحو الجنوب مع انحراف بسيط نحو الشرق. ومن هنا شرقاً حتّى المضيق 4500 مرحلة تقريباً. ويشكّل هذا الخليج باتجاه إثيوبيا رأساً بحرية تدعى ديرا عليها مدينة تحمل الاسم عينه يعيش فيها الإيختيوفاغيون. ويقال إن نصب سيسوستريس المصري يقوم هنا؛ وتفيد الهيروغليفات المرسومة عليه بأن الملك عبر الخليج. ويبدو على أرجح تقدير أنّ هذا الملك كان أوّل من أخضع إثيوبيا وترغلوديتي؛ ثمّ توجّه بعد ذلك إلى العربية وعبر من هناك آسيا كلها. ولذلك تجد في كلّ مكان هنا حصوناً تدعى حصون سيوستريس ومعابد هي نموذج طبق الأصل لمعابد الآلهة المصرية. وعند ديرا يتضيّق المضيق حتّى 60 مرحلة. وعلى أيّ حال فإنّ هذا المكان يدعى الآن مضيقاً، بل [مكاناً] واقعاً على الطريق إلى الأمام حيث المسافة بين البرّين تشكّل ما يقارب 200 مرحلة؛ وتقع هناك 6 جزر تلي واحدتها الأخرى مباشرة فتملأ المضيق ولا تترك سوى ممرّ ضيّق ينقلون البضائع عبره من برّ إلى برّ على أطواف. وهذا المعبر هو الذي يدعى الآن مضيقاً. وبعد هذه الجزر يسير الإبحار مع تجويفات الخلجان على طول البلاد التي تنتج المرّ، نحو الجنوب والشرق حتّى بلاد القرفة مسافة 5000 مرحلة. ويقولون، إنّ أحداً لم يتوغل إلى أبعد من هذه البلاد حتّى الآن. ومع أن المدن على هذا الساحل قليلة، إلاّ أن في داخل البلاد مدناً كثيرة وذات كثافة سكّانية عالية. إن هذه هي معلومات إيراتوسفين عن العربية. وينبغي أن تضاف إليها معطيات الكتّاب الآخرين.

5- فبحسب أرتيميدور أن الرأس البحرية على جانب العربية قبالة ديرا، تدعى العقلية. والأعضاء الذكرية لدى سكّان ضواحي ديرا من الرجال مشوّهة، مجدوعة. وإذا أبحرت من هيرونبوليس على طول تروغلوديتي، فإنك تلقى مدينة فيلوتيرا التي دعيت باسم شقيقة بطليموس الثاني. وقد بنى المدينة ساتير الذي أرسل لتقصّي صيد الفيلة، وتروغلوديتيا؛ ثمّ تأتي بعدها مدينة أخرى هي ارسينويا ،ثمّ ينبوع مياهه حارّة

ومالحة ومرّة ينبثق من صخرة عالية وينهال في البحر. ويعلو في السهل على مقربة جبل أحمر كالسوريك تليه ميناء تدعى ميناء الفئران[5]، كما تدعى أيضاً ميناء أفروديت، وهي ميناء كبيرة مدخلها مقوّس. وتقع أمامها 3 جزر؛ اثنتان منها يغطيهما شجر زيتون وارف، والثالثة أقلّ تظليلاً، لكنّها مليئة بطيور الغرغر[6]. وبعد ذلك بقليل يقع خليج أكافارت[7] الذي يقع كما خليج الفئران، قبالة طيبايدا، وهو فعلاً ليس خليجاً « نظيفاً» لأنّ الصخور والأرياف الصخرية التي تحت الماء، إضافة إلى الرياح العاصفة أبداً، تجعله في حالة هيجان وحشي. وهنا في عمق هذا الخليج تقع مدينة بيرينيقي.

6- وتقع بعد هذا الخليج جزيرة أوفيودا[8] التي دعيت بهذا الاسم تبعاً لحدث حقيقي: لقد طهّر الملك الجزيرة من الثعابين لأنها كانت تتسبب بموت من يرسو على شواطئها، ولأنه كان في الجزيرة كثير من التوباز. والتوباز حجر شفاف يلمع لمعاناً ذهبياً؛ وليس من السهل أن يُرى نهاراً، لأنه يعكس أشعة الشمس، لكنّ جامعيه يرونه ليلاً. فهؤلاء يضعون إناء في مكان وجود الحجر، ثمّ يأتون نهاراً ويقتلعونه. لقد كانت تقيم في الجزيرة وحدة من الحراس مكلّفة من ملوك مصر بحراسة هذا الحجر الكريم وجمعه؛ وكان الملوك يزوّدون هؤلاء بالمؤن.

7- وتنتشر بعد هذه الجزيرة كثرة من قبائل الإيختيوفاغيين والرحّل. ثمّ تأتي بعد ذلك ميناء سوتيرا[9] التي دعاها باسمها هذا بعض ربابنة السفن الذين نجوا من خطر حقيقي أحدق بهم. وبعد ذلك يتغيّر طابع الساحل تغيّراً شديداً. فلا تعود الطريق على طول الساحل صخرية، وتجاور إلى حدّ ما العربية؛ ويغدو البحر ضحلاً حتّى لا يكاد عمقه يتجاوز 2 أورغيا. وتغطّي سطح البحر أعشاب وطحالب بحرية ترى تحت الماء، وهي ظاهرة غالباً ما تتكرر في هذا المضيق حيث تنمو الأشجار تحت الماء بين النباتات. وفي المضيق كثير من كلاب البحر. ويأتي بعد ذلك الثوران وهما جبلان يظهران من بعيد على شكل هذه الحيوانات. ويليهما بعد قليل جبل آخر عليها معبد لإيزيس، هو نسخة طبق الأصل عن المعبد المصري الذي بناه سيسوستريس، وتأتي بعد ذلك جزيرة مسيّجة بشجر الزيتون وتسيل إليها مياه البحر. وبعد هذه الجزيرة تقع بطليموسيا على مقربة مباشرة من مكان صيد الفيلة؛ وقد أسّس هذه المدينة يفميدس الذي كان فيلاديلف[10] قد أرسله إلى هناك لصيد الفيلة. فأحاط شبه الجزيرة سرّاً، بخندق وسور، ونجح بعد ذلك في كسب ودّ السكّان (الذي كانوا يحاولون إعاقة العمل) وتحويلهم من خصوم إلى أصدقاء.

8- ويصبّ في البحر داخل هذا الفاصل نهر يدعى نهر إستابورا ينبع من بحيرة، ويصبّ بعضاً من مياهه في الخليج، لكنّ الجزء الأعظم منها يلتحق بنهر النيل. ثمّ تأتي بعد ذلك 6 جزر تسمّى لاتومي[11]. يليها ما يدعى الثغر السبئي وقلعة في داخل البلاد بناها توسوح. ثمّ ميناء سبأ ومكان لصيد الفيلة يحمل الاسم عينه. وتدعى المنطقة الواقعة في داخل البلاد بين هذين المكانين تينيسيس؛ يسكنها المصريون المنفيون الذين ثاروا ضدّ بساميتيخ. ويدعى هؤلاء سيمبريتيون, أي الوافدون. وتملك على هؤلاء امرأة تفرض سيطرتها على ميرويه أيضاً - جزيرة في نهر النيل قرب هذه الأماكن. وإلى الأعلى من هذه الجزيرة, على مسافة غير بعيدة, تقع جزيرة أخرى في النهر, وهي مستوطنة لهؤلاء المنفيين أيضاً. وتستغرق الطريق من ميرويه إلى هذا البحر[12], بالنسبة للرحالة المتحزّم جيّداً، 15 يوماً. وتقع قرب ميرويه نقطة التقاء إستابورا وإستاب وإستاسوب مع نهر النيل.

9- ويعيش على امتداد هذه الأنهار، الريزوفاغيون[13] والجيليون[14]. وقد دعوهم بأسمائهم هذه لأنهم يقتلعون الجذور من المستنقع المجاور، ويدقونها بالحجارة ويصنعون منها أرغفة، ثمّ يجففونها تحت أشعة الشمس ويستخدمونها في غذائهم. وتسرح الأسود في هذا المكان. ولكن مع بزوغ مجموعة الكلب، يطرد البعوض الكبير الحجم الكواسر وسواها من الوحوش من هذه الأماكن. كما يقطن على مقربة من هنا، السبيرموفاغيون[15] الذين يستهلكون المكسرات في غذائهم في حال حصول نقص في حبوب الأقماح، فيعدّونها بالطريقة عينها التي يعدّ فيها الريزوفاغيون الجذور. وبعد إيلييا تقع أبراج الحراسة التي بناها ديميتري، ثمّ مذبح كونونا. وينمو في الجزء الداخلي من البلاد كثير من القصب الهندي. ويحمل هذا المكان اسم أرض كوراكي. وكان في أعماق البلاد مكان يدعى إينديرا، وهي مستوطنة يقطنها العراة المسلّحون بأقواس وسهام مصنوعة من القصب ومقسّاة على النار. ويرمي هؤلاء الحيوانات البرية بسهامهم من فوق الشجر في غالب الأحيان، وأحياناً قليلة عن الأرض. وتسرح هنا في هذه الأماكن قطعان كثيرة من الثيران البرية التي يقتات هؤلاء العراة بلحمها ولحوم سواها من الحيوانات البرّية الأخرى. وحينما تشحّ الطرائد تماماً، يشوون الجلود على النار ويكتفون بما شابه من الطعام. وجرياً على عادتهم ينظّمون مباريات برمي السهام للفتيان الذين لم يبلغوا سنّ الرجولة بعد. وتأتي بعد مذبح كونونا ميناء ميلينا. وفوقها تقع قلعة تدعى قلعة كوراي، ومكان صيد كوراي، ثمّ قلعة أخرى،

وبعض أماكن الصيد الأخرى. وتقع بعد ذلك ميناء أنتيفيل، وفوقها الكريوفاغيون[16] الذين يشوّه رجالهم[17] أعضاءهم الذكرية، وتختن نساؤهم وفق التقليد اليهودي.

10- وإلى الأعلى منهم، نحو الجنوب قليلاً، يسكن الكينامولغيّون[18] الذين يدعوهم السكّان المحلّيون «أغريين»[19]. ويطلق هؤلاء شعر رؤوسهم ولحاهم طويلاً، ويقتنون كلاباً كبيرة جداً. وبهذه الكلاب يصيد الكينامولغيون الثيران الهندية التي تتسرّب إليهم من الأراضي المجاورة هرباً من ملاحقة الكواسر أو لقلّة الكلأ. وتظهر هذه الثيران هنا في الفترة الواقعة بين الانقلاب الشمسي الصيفي ومنتصف الشتاء. وتقع بعد ميناء أنتيفيل ميناء أخرى تدعى دغل الكولوبيين، وبرينيقي - مدينة سبئية وسبأ- وهي مدينة مهمّة جداً. ثمّ يأتي دغل يفمين. وتقع فوق هذا الدغل مدينة دارابا ومكان لصيد الفيلة يدعى «عند البئر». ويعيش هنا الإليفانتوفاعيون[20] الذين يصيدون الفيلة على هذا المنوال: إذ يرون وهم فوق الشجر، قطيع الفيلة يشق طريقه عبر الأكمة، لا يهاجمونه، إنما يقتربون منه خلسة من الخلف، ويقطعون عروق الحيوانات الضالّة. ومع ذلك فإن بعض الصيادين يجندل الفيلة بسهام مسمومة بصفراء الأفاعي. ويطلق السهم عادة ثلاثة رماة: اثنان من الأمام يمسكون بالقوس، والثالث من الخلف يشدّ الوتر. وثمّة من يلاحظ أن الفيلة تختار أشجاراً محدّدة لترتاح في ظلّها، يأتونها من الجهة الأخرى ويقطعونها من تحت إلى حدّ معيّن. وعندما يأتي الفيل إلى الشجرة ليتكئ عليها، تسقط الشجرة على الأرض ويسقط الفيل معها. وبما أنّ الفيل لا يستطيع أن ينهض لأنّ أطرافه من غير مفاصل ولا تنثني، يقفز الصيادون من على الأشجار ويقطّعون الفيل إلى أشلاء. ويدعو الرحّل هؤلاء الصيادين أكافارتيين[21].

11- وإلى الأعلى من هؤلاء الإليفانتوفاغيين تستوطن قبيلة صغيرة تدعى قبيلة الستروتوفاغيين[22]. ففي بلاد هؤلاء تعيش طيور بحجم الأيل لا تستطيع الطيران، لكنّها تعدو بسرعة كالنعام. ويصيدونها إمّا بالسهام، أو بارتداء جلود النعام: يخفون اليد اليمنى في جلد عنق النعامة ويؤدّون حركة تشبه التفاتات عنق هذا الطير؛ وباليد اليسرى ينثرون أمامهم حبوب القمح من كيس يحملونه معلّقاً على الخصر؛ وبهذه الحبوب يغرون الطيور ويسوقونها إلى واد ضيّق ينتظرها فيه على أهبة الاستعداد فريق آخر من الصيادين الحاملين هراوات ينهالون بها ضرباً على الطيور حتّى يقتلوها. وتستخدم هذه الجلود عندهم ملابس ومفارش. ويحارب هؤلاء الستروتوفاغيين، الإثيوبيون الذين يدعون سيميين، وسلاح هؤلاء، قرون الظباء.

12- ويقطن في جوار هذه القبائل، الأكريدوفاعيون[23]، وهم أكثر سواداً من الآخرين، وأقصر منهم قامة ويعيشون حياة أقصر. فنادراً ما يعيش واحدهم حتّى سنّ الأربعين، لأنّ الديدان تلتهم أجسادهم وهم أحياء، ويقتات هؤلاء على الجراد الذي تسوقه إلى هنا الرياح الجنوبية الغربية والغربية التي تهبّ على هذه المناطق في الربيع. فيرمي الإكريدوفاغيون في الوادي الضيّق قطعاً من الحطب يتصاعد الدخان منها، ثمّ يشعلونها شيئاً فشيئاً (وهكذا يصيدون الجراد)، لأنّ هذه الحشرات عندما تطير فوق الدخان تفقد بصرها وتسقط على الأرض؛ فيجمعونها ويدقونها مع الملح ويصنعون منها أرغفة يستخدمونها في غذائهم.وتمتدّ إلى الأعلى من مناطق سكنى هذه القبائل، منطقة شاسعة غير مأهولة، وغنية بالمراعي والمروج. وكان سكّانها قد هجروها بسبب كثرة العقارب وأبي الشبث فيها, وكان هؤلاء يدعون تيتراغنافيين[24]. ويبدو أن هذه الحيوانات قد تكاثرت في زمن ما تكاثراً دبّ الذعر في أوساط سكّان المكان فولّوا الأدبار.

13- وبعد ميناء يفمين تمتدّ حتّى ديرا والمضيق الذي قبالة الجزر الست, بلاد يقطن فيها الإيختيوفاغيون, والكريوفاغيون, والكولوبيون[25]، وهي تمتدّ حتّى المنطقة الداخلية. ويقع هنا عدد من أماكن صيد الفيلة، ومدن صغيرة، وجزر تقع أمام الساحل. وأكثر السكّان هنا رحّل, ولا يعمل في الزراعة سوى قليل منهم. وفي بعض أجزاء هذه البلاد ينمو كثير من الستيراكس[26]. ويجمع الإيختيوفاغيون الأسماك في وقت الجزر, فيرمونها على الصخور[27] ويحمّرونها تحت أشعة الشمس؛ وبعد أن تشوى الأسماك جيّداً يجمعون عظامها أكواماً ويعجنون لحمها دعساً بأقدامهم ويصنعون منه أرغفة؛ ثمّ يشوون هذه ثانية تحت أشعة الشمس ويستخدمونها في طعامهم. وعندما يكون الطقس عاصفاً ويتعذّر جمع الأسماك, يدقّون أكوام عظام الأسماك ويصنعون منها أرغفة يأكلونها. أمّا العظام الطرية فيلحسونها في حينه. ويأكل بعضهم لحوم القواقع: يضعون القواقع في أحواض ضيّقة يملؤونها بماء البحر, ويرمون لها الأسماك الصغيرة طعاماً, ولدى حصول نقص في الأسماك يستخدمون [لحم القواقع] في طعامهم. وعندهم أيضاً شتّى أنواع الأحواض السمكية التي يأخذون الأسماك منها حسب الحاجة. وبعض سكّان الساحل الخالي من المياه, يتّجهون كلّ 5 أيام إلى داخل البلاد عائلات بكاملها نحو الأحواض المائية وهم ينشدون, وهناك يتمددون على ظهورهم ويعبّون الماء كالثيران إلى أن تنتفخ بطونهم كالطبول؛ ثمّ يعودون ثانية إلى البحر. ويعيش هؤلاء في كهوف أو أكواخ مغطاة بعوارض وألواح من عظام الحيتان والأسماك

أو أغصان شجر الزيتون.

14- ويقيم الهيلونوفاغيون[28] تحت سقوف من دروع السلاحف الضخمة الأحجام إلى درجة أنهم يعومون فيها كما المراكب. ويطرح البحر كثيراً من النباتات التي تشكّل أكواماً عالية تشبه الهضاب، فيحفرها بعضهم ويسكن فيها. ويرمي الهيلونوفاغيون أمواتهم طعاماً للأسماك؛ فالمدّ البحري يلتقط الجثامين ويحملها معه. وثمّة من الجزر ثلاث تقع واحدتها وراء الأخرى مباشرة، وهي تدعى: جزيرة السلاحف، وجزيرة الفقمات، وجزيرة الرخاخ. وعلى امتداد الساحل كلّه ينمو شجر النخيل، وأدغال الزيتون والغار على ذلك الجانب من المضيق، كما على الشطر الأكبر من أراضي الجانب الآخر منه. وثمّة جزيرة هنا تدعى جزيرة فيليب، التي يقع قبالتها فوق الساحل مكان لصيد الفيلة يدعى بيفانغيل. ويلي ذلك مدينة أرسينوي وميناؤها، وبعدها ديرا. ويقع فوقها مكان لصيد الفيلة. وتمتدّ وراء ديرا منطقة تنتج العطور، وهي الأولى باستخراج المرّ (وفيها يعيش الإيخيتوفاغيون والكريوفاغيون)، وينمو هنا البيرسيوس[29]، وشجر التين المصري[30]. وفوق هذه المنطقة يقع مكان لصيد الفيلة يدعى ليخي. ويوجد هنا في كثير من الأماكن برك تتجمّع فيها مياه الأمطار؛ وحينما تجفّ هذه البرك تحفر الفيلة بخراطيمها وأنيابها الأماكن التي يوجد فيها ماء وتعثر عليه. وتقع على هذا الساحل حتّى رأس بيثولايا البحرية، بحيرتان كبيرتان؛ إحداهما تدعى بحراً، ومياهها مالحة، والأخرى مياهها عذبة؛ وتعيش في هذه الأخيرة أفراس البحر والتماسيح، وينمو نبات البردى على شواطئها. كما يمكن أن ترى في الضواحي طيور أبي منجل. ولا يختن أفراد القبائل التي تعيش هنا أعضاءهم التناسلية. وتأتي بعد هذه القبائل منطقة ينمو فيها البخور. ويقع هنا أيضاً مكان ما يشبه الحوض المائي الذي تملؤه المياه التي تنحدر من الجبال. ويلي ذلك برج حراسة يدعى برج الأسد، تليه ميناء بيفانغيل. وتقع بعد ذلك بلاد تنمو فيها القرفة الصينية الكاذبة. يليها مباشرة عدد من وديان الأنهار التي ينمو البخور على طول ضفافها، وأنهار تصل حتّى المنطقة التي تنتج القرفة. ويعطي النهر الذي يشكّل حدود هذه المنطقة كثيراً من القصب. ويجري بعدئذٍ نهر آخر وتقع ميناء دافنونت وواد نهري يسمّى وادي أبوللون، ينتج القرفة إضافة إلى البخور والمرّ. وعلى وجه العموم توجد القرفة على مقربة من الأماكن التي تقع في أعماق البلاد. ويقع بعد ذلك جبل إيليفانت الذي يبرز في عرض البحر، تليه مباشرة قناة؛ ثمّ ميناء كبيرة تدعى ميناء بسيغاما، وما يدعى بئر

الكينوكيثاليين[31]، وأخيراً نوتو - كيراس[32]، وهـي آخـر رأس بحرية علـى هـذا الساحل، وإذا ما طفنا حول هذه الرأس واتّجهنا جنوباً، فإنه ليس لدينا بعد ذلك، كما يقول أرتيميدور، أوصافاً لأيّ موانئ أو أماكن، بسبب غياب المعطيات. وهذا نفسه ينسحب على الساحل الذي يلي مباشرة.

15- وتقع على الساحل الشهير من ديرا حتّى نوتو-كيراس، أعمدة ومذابح بيثولاي، وليخي، وبيفانغيل، والأسد، وهاريمورتا، لكنّ المسافة غير معروفة. ويوجد في هذه البلاد كثير هن الفيلة والأسود التي تدعى نملاً[33]. وتتّجه الأعضاء التناسلية لهذه الأخيرة نحو الخلف؛ ولون وبرها ذهبي لكنّه أقلّ كثافة من وبر الأسود العربية. وتسرح هنا أيضاً نمور عدوانية ضارية، ومثلها حيوانات وحيد القرن. وهذه الأخيرة أصغر حجماً بقليل من الفيلة، ولكن ليس كما يقول أرتيميدور: «من حيث الطول من العنق حتّى الذيل» (مع أنه يزعم أنه رأى هذا الحيوان في الإسكندرية)، إنما تقريباً [....][34] من حيث الارتفاع، في أقلّ تقدير وفق النموذج الذي قدّر لي أن أراه بأمّ عيني. ولا يشبه لون جلد وحيد القرن لون شجيرة البقس، بل هو أقرب إلى لون الفيل. أمّا حجمه فهو كحجم الثور، ويذكّرنا مظهره بمظهر الخنزير البري، خاصة سحنته، ما عدا الأنف، الذي يحمل قرناً معقوفاً نحو الأعلى وأكثر صلابة من أيّ عظم كان. وهذا القرن هو سلاح هذا الوحش، تماماً مثلما الأنياب لدى الخنزير البري. ومن المتن حتّى البطن تطوّق جسم هذا الحيوان ثنيتان من الجلد كأنهما حلقتان أفعوانيتان: واحدة على الغارب، والأخرى على الحقو. وأنا أعطي هذا الوصف بحسب النموذج الذي رأيته لهذا الحيوان بأمّ عيني. ويروي أرتيميدور علاوة على ذلك أن هذا الحيوان يميل خاصة نحو مقارعة الفيلة على المراعي؛ فهو يلطم بطن الفيل ببوزه فيبقره بقرنه، إذا لم يبادره الفيل بخرطومه ونابيه.

16- وتسرح في هذه الأماكن أيضاً، الكاميلوبارد[35] التي لا تشبه النمور البتّة، لأنها بلون جلدها المبرقش تذكّرنا على الأصحّ بالأيائل الفتية المنقّطة المخططة. والأجزاء الخلفية من هذه الحيوانات أقصر بكثير من الأجزاء الأمامية، ولذلك تبدو كأنها تجلس على مؤخراتها التي يقارب علوها علوّ مؤخرات الثيران، مع أن طرفيها الأمامين ليسا أقصر من الطرفين الأماميين للجمل. وتتطاول أعناقها مستقيمة نحو الأعلى، ورؤوسها مرتفعة أكثر من رؤوس الجمال. وأنا أرى أن هذه البنية غير المتناسقة لجسد هذا الحيوان تجعله بطيء الحركة وغير قادر على أن يتحرّك بسرعة

كما يزعم أرتيميدور، الذي يرى أنّ أيّ حيوان آخر لا يفوقه سرعة. عدّاك عن هذا إنّ هذا الحيوان ليس حيواناً برّياً بل على أغلب الظّن أنه حيوان منزلي، لأنّ سمات الوحشية غير ظاهرة عليه. وبحسب أرتيميدور إن السفينكس[36] يسرح هنا كذلك، والكينوكيثال[37]. والكيب[38] الذي له سحنة تشبه سحنة الأسد، وجسد يشبه جسد الفهد، وحجمه كحجم الظبي. كما توجد في هذه البلاد ثيران برّية لاحمة حجمها أكبر من حجم ثيراننا المعروفة، وهي أسرع منها بكثير، ولونها أحمر. ونلقى هنا على حدّ قول أرتيميدور، الكروكوتّ[39] أيضاً، وهو حيوان خليط من الذئب والكلب. وعلى وجه العموم فإنّ قصص ميترودور السكيبسيسي التي وردت في كتابه: «الاعتياد»، تشبه الحكايات الخرافية، ولذلك ينبغي أن تهمل. ويذكر أرتيميدور أيضاً ثعابين يبلغ طول واحدها 30 ذراعاً، تقتل الفيلة والثيران؛ بيد أنه يظهر حذراً، في أقلّ تقدير، لدى تحديد أحجام الثعابين في هذا الجزء من العالم، لأنّ الثعابين الهندية أكثر خرافية[40]، ومثلها الليبية التي يروى أن الأعشاب تنمو عليها[41].

17- ويعيش التروغلوديتي حياة البدو الرحّل. ويقف على رأس كلّ قبيلة من قبائلهم زعيم حاكم مطلق الصلاحيات. والنساء والأبناء عندهم شراكة بين جميعهم، ما عدا نساء الزعيم وأبناءه. ومن يغوي زوجة الزعيم ينبغي أن يؤدّي له معزاة غرامة. وتحرص النساء على تكحيل حواجبهن بدقّة بمادّة تدعى «ستيبي»[42]، ويعلّقن في أعناقهنّ قواقع وصدفات بدل التمائم. ويحارب التروغلوديتي من أجل المراعي؛ وفي أوّل الأمر يشقّون طريقهم بالكلمات والعراك بالأيدي، ثمّ برمي الحجارة، وما أن يصاب الخصم بجراح حتّى يبادروا إلى الأقواس والسهام والسيوف. ثمّ توقف النساء الاقتتال إذ تخرجن إلى الأمام وتقفن بين المتقاتلين متوسلات الكفّ عن القتل. ويتألّف قوت هذه القبائل من اللحوم والعظام التي يدقّونها أوّلاً مع بعضها، ثمّ يلفّونها في الجلود ويشوونها؛ وفي بعض الأحيان يعدّ الطعام طبّاخون يدعونهم «نجسين»[43]. كما يستخدمون طرائق أخرى لإعداد طعامهم. وعلى هذا النحو لا يأكل هؤلاء اللحم فقط، بل يأكلون العظم والجلد أيضاً؛ ويشربون خليطاً من الدم واللبن. أمّا فيما يخصّ مشروباتهم فإنّ أكثرهم يشرب نقيعاً من الباليور[44]، بينما يشرب زعماؤهم العسل الممزوج بالماء، ويستخلصون هذا العسل من نوع محدّد من الزهور. وعندما يبدأ فصل الرياح الموسمية، يحلّ عندهم فصل الشتاء (تهطل عندئذٍ الأمطار)؛ أمّا باقي فصول السنة فهي عندهم صيف. وهم يتجولون عراة دائماً، إذ لا يرتدون سوى الجلود،

ويحملون الهراوات. ولا يكتفي هؤلاء بتشويه أجسادهم، إنما يختن بعضهم نفسه كما يفعل المصريون. ويطوّق الميغاباريون الإثيوبيّون هراواتهم بأشواك حديدية، ويحملون الرماح والتروس المصنوعة من جلود الحيوانات الطرية الخام، بينما يتسلّح الإثيوبيون الآخرون بالرماح، والأقواس والسهام. ويدفن بعض التروغلوديتي موتاهم مربوطة أعناق الجثامين إلى القدمين برباط من الباليور، ثمّ يرمونهم في اللحظة عينها بالحجارة وهم يصخبون ويقهقهون، وعندما تغطي الحجارة الجثمان تماماً، يضعون على كوم الحجارة قرن ماعز ويمضون. وعندما يرتحلون ليلاً يعلقون على ذكور حيوانات النقل أجراساً لإبعاد الوحوش عنهم، كما يستخدمون ضدها المشاعل والسهام؛ ويصرفون الليل كلّه ساهرين على حراسة قطعانهم ينشدون أغنية ما حول نار يشعلونها.

18- وبعد أن يصف أرتيميدور التروغلوديتي وجيرانهم الإثيوبيين، يعود إلى العرب. وإذ يبدأ من بوسيديوس، يباشر أرتيميدور وصف العرب الذين يجاورون الخليج العربي، ويعيشون قبالة التروغلوديتي. فيقول، إن بوسيديوس تقع أبعد من خليج إيلانا. ويجاور بوسيديوس دغل من شجر النخيل مرويّ جيّداً، وما يزيد من أهمية هذا الدغل أنّ المحيط المجاور كلّه قاحل، ومحروم من الماء والظلّ. وخصوبة النخيل هنا تثير الدهشة. وقد عيّنوا للعناية بهذا الدغل رجلاً وامرأة، وعُهد إليهما بهذه المهمّة لأنهما ينتميان إلى سلالة شهيرة. ويرتدي هذان الجلود ويقتاتان بثمار النخيل. وترغمهما كثرة الوحوش هنا على بناء أكواخ فوق الشجر واللجوء إليها عند الضرورة. وتأتي بعد ذلك جزيرة الفقمات التي حملت اسمها هذا بسبب الأعداد الكبيرة من هذه الحيوانات التي تعيش عليها. وعلى مقربة من الجزيرة تقع رأس بحرية تمتدّ حتّى ما يسمّى «صخور» العرب الأنباط ومنطقة فلسطين إلى حيث يحمل المينيون والحيريون والقبائل المجاورة الأخرى أحمالهم من العطور. ثمّ يلي ذلك ساحل آخر كان يدعى في الماضي ساحل المارانيتيين؛ ويمارس فريق من هؤلاء العمل الزراعي، والفريق الآخر يعيش في الخيام. ويدعى هذا الساحل الآن ساحل الهاريندين الذين استأصلوا شأفة المارانيتيين غدراً. فقد هاجموا هؤلاء بينما كانوا يحتفلون بأحد أعيادهم الشعبية الذي كانوا يقيمونه كلّ أربع سنوات، ولم يكتف الهاريندين بإبادة المشاركين في الاحتفال كلّهم، إنما أبادوا القبيلة عن بكرة أبيها، ويلي ذلك خليج إيلانا والنبطية، وهي منطقة فيها كثافة سكّانية عالية ومراعي خصبة وجميلة. ويعيش النبطيون على الجزر التي تقع على مقربة من الشاطئ. وقد عاش هؤلاء في الماضي بسلام، إلاّ أنّهم أخذوا مؤخراً

يغيرون في قواربهم على المبحرين من مصر. إلاّ أنهم دفعوا ثمن عدوانيتهم غالياً حينما أبحر إليهم أسطول وخرّب بلادهم ونهبها. ويمتدّ بعد النبطية سهل غني بالغابات والمياه ومليئ بشتّى أنواع المواشي المنزلية، لاسيما البغال. ويسرح هنا كثير من الإبل البرية، والأيائل، والظباء، وكذلك الأسود، والنمور والذئاب[45]. وتقع أمام هذا السهل جزيرة تدعى ديا. ويأتي بعد ذلك بحوالي 500 مرحلة، خليج تحيط به الجبال، ومدخله وعر جدّاً. ويعيش حول هذا الخليج صيادون يصيدون الطرائد البرّية. وتليه ثلاث جزر موحشة مليئة بشجر الزيتون، لكنّ شجرها هذا لا يشبه الشجر الذي ينمو عندنا، فهو نوع غريب؛ ونحن ندعو هذا الشجر، بشجر الزيتون الإثيوبي؛ ولعصير ثمره خاصيات دوائية. وبعد هذا مباشرة يمتدّ شاطئ صخري، يليه شاطئ شاقولي يمتدّ على ما يقارب 1000 مرحلة، والإبحار بمحازاته صعب بسبب نقص المراسي والمحطات الشراعية، فعلى امتداده كلّه يرتفع جبل عال وشاقولي. ثمّ تمتدّ بعد ذلك حتّى البحر، مرتفعات صخرية تشكل خطراً على البحارة، لأنه لا فرار منها، خاصة عندما تهب الرياح الموسمية وتهطل الأمطار الموسمية. ثمّ يقع خليج تنتشر فيه جزر مبعثرة؛ وتجاور هذا الخليج ثلاث هضاب من الرمل الأسود عالية جدّاً. وبعدها تقع ميناء خارموفا التي يبلغ امتداد محيطها حوالي 100 مرحلة، مدخلها ضيّق وخطر بالنسبة لأيّ نوع كان من السفن. ويصبّ في هذه الميناء نهر، وثمّة في وسط خليجها جزيرة تكسوها الغابات الكثيفة، وأرضها صالحة للعمل الزراعي. ويمتدّ بعد ذلك شاطئ شديد الوعورة. وبعده عدد من الخلجان ثمّ منطقة الرحّل الذين يحصّلون موارد عيشهم من الإبل. فيركبونها في معاركهم، وأثناء تنقّلهم ويستهلكون لبنها ولحومها في غذائهم، ويجري عبر بلادهم نهر يحمل معه رمالاً ذهبية، لكنّ السكّان لايعرفون تصنيعه. ويدعى سكّان هذه البلاد ديبيين، فريق منهم بدو رحّل، والفريق الآخر فلاّحون. وأنا أتجاهل العدد الأكبر من أسماء هذه القبائل، لأنها لا أهمية لها، ولأن أسماءها غريبة غير معتادة. وبعد الديبيين تسكن قبائل أكثر تحضّراً في منطقة مناخها معتدل، لأنّ بلادها غنية بالمياه وغالباً ما تهطل فيها أمطار غزيرة. وعند هؤلاء ذهب يستخرج من الأرض، لكنّه ليس على شكل ذهب الرمال، إنما على شكل فلزّات لا تحتاج سوى قليل من التنقية من الشوائب، وأصغر هذه الفلزات يقارب حجمها حجم حبّة البلح، بينما يقارب حجم الوسط منها حجم حبّة الزعرور، ويقارب حجم أكبرها حجم حبة عين الجمل. ويصنع السكّان من هذه الفلزات عقوداً، فيثقبونها ويعلّقونها على خيط ويضعون بينها حجارة

شفافة؛ وهم يحملون مثل هذه العقود في أعناقهم وعلى معاصمهم. كما يبيعون الذهب لجيرانهم بأسعار زهيدة: بثلاثة أضعافه من النحاس، وضعفين من الفضّة، يرغمهم على ذلك عدم معرفتهم بتقنية تعدين الذهب، وقلّة الأشياء القابلة للتبادل من تلك التي يحتاجونها أكثر لتلبية ضرورات عيشهم.

19- وتجاور منطقة هذه القبيلة بلاد شديدة الخصوبة تسكنها قبيلة كبيرة جدّاً تدعى قبيلة السبئيين، حيث ينمو المرّ والبخور والقرفة. وتلقى على الساحل البلسم ونبات عطري آخر سرعان ما يفقد رائحته. وهناك أيضاً نخيل عطريّ، وقصب عطريّ، وتسعى هناك ثعابين حمراء قاتمة طول واحدها شبر واحد، وتقفز هذه حتّى الخصر، ولا شفاء من لدغتها. وبسبب وفرة الغلال، ينغمس هذا الشعب في اللهو ويعيش لامبالياً. وينام البسطاء هنا متوسدين جذوع الأشجار التي يقطعونها[46]. وتصل البضائع دائماً إلى الذين يعيشون على مقربة، فيحملونها إلى الذين يقطنون بعدهم من القبائل الأخرى وصولاً إلى سوريا وبلاد ما بين النهرين. وإذا يخدّر هؤلاء أنفسهم بالعطور، يتخلّصون بعد ذلك من الخدر بإحراق الإسفلت وشيّ رؤوس الماعز[47]. وتدعى مدينة السبئيين مأرب التي تقع على جبل تكسوه غابة كثيفة. ويقيم فيها الملك الذي يقضي بين الناس ويفصل في خلافاتهم. ولا يسمح للملك أن يغادر القصر الملكي؛ وإذا [ما خرج من القصر]، فإنّ المتنبّئ يوعز فوراً لحشد من الناس فيرميه بالحجارة. ويعيش الملك وحاشيته عيشة باذخة منعّمة. ويعمل قسم من الناس العاديين بالزراعة، والقسم الآخر بتجارة العطور والأفاويه، سواء التي تنتج محلّياً، أو تلك التي يأتون بها من إثيوبيا، إذ يبحرون إلى هناك عبر المضيق في قوارب مطاطية. والعطور والأفاوية وفيرة في هذه البلاد لدرجة أنهم يستخدمون القرفة، والقرفة الصينية وسوى ذلك من النباتات العطرية، بدلاً من الحطب القشاش والمحروقات الأخرى. كما ينمو في بلاد السبئيين نبات اللاريمن[48] أيضاً، وهو أكثر النباتات العطرية أريجاً. وقد جعلت تجارة هذه السلع من السبئيين والحيريين أغنى قبيلتين بين القبائل كلها؛ فهؤلاء يملكون كثرة كثيرة من الأشياء الذهبية والفضّية كالملاعق، وثلاثيات القوائم، والأكواب، والكؤوس. وقد تميّزت موجودات منازلهم بالفخامة والبذخ: الأبواب، والجدران، والسقوف مطعّمة بالعاج، والذهب، والفضّة، والحجارة الثمينة. إنّ هذه هي معطيات أرتيميدور عن هذه القبائل. أمّا فيما تبقى فهو يتّفق مع إيراتوسفين، لكنّه يقتبس جزئياً عن مؤرّخين آخرين[49].

20- فهو يقول مثلاً، إنّ بعضهم يدعو هذا البحر بالبحر الأحمر تبعاً للون

مياهـه الناشئ عـن انكسـار ضـوء الشـمس عنـدما تكـون في السـمت، أو عـن الجبـال الملوّنـة بـالأحمر بسـبب القـيظ اللاهـب، لأنهـم يفترضـون، كمـا يقـول، إن هـذا يحصـل للسـببين معـاً. أمّـا كتيسـيوس الكنيـدي فيتحـدّث عـن نبـع ميـاه حمـراء (لـون الصـخر النـاري) يصبّ في البحـر. ويروي أغاثارخيـدس، مـواطنَ كتيسـيوس، علـى لسـان المـدعو بوكس، وهـو فارسـي العرق، ما يلي: لقد طاردت لبوة مسعورة يوماً، سرب جيـاد إريثـرا (وهـو فارسـي أيضـاً) حتّـى البحـر، فعبرت الجيـاد إلى إحـدى الجـزر، عندئـذ بنـى إريثـرا طوفاً، وكـان أوّل من عبـر إلى الجزيـرة. ولمّـا رأى أنّ الجزيـرة ملائمـة جـدّاً للاسـتيطان، قاد الجياد وعاد بها إلى بيرسيدا، وأرسـل مـن هنـاك مسـتوطنين إلى تلك الجزيـرة كمـا إلى الجـزر الأخـرى والسـاحل، وأطلـق علـى هـذا البحـر اسمـه. ولكـنّ آخـرين قـالوا، إن إريثـرا هـو ابن برسيوس وملك هـذه الـبلاد. ويحـدّد بعضـهم المسـافة مـن القسـم الضـيّق في الخليج العربي حتّى آخر بـلاد القرفـة بــ 5000 مرحلـة، مـن غير أن يوضّـح بدقّـة، في أيّ اتجـاه: جنوبـاً أو شـرقاً. ويـروى أنهـم يجـدون في منـاجم الـذهب، الزمّـرد والبريـل. ويقـول بوسيدونيوس إنّ في أرض العرب ملح عطري.

21- لقـد كـان النبطيـون والسـبئيون أوّل قبائـل العربيـة السـعيدة فـوق سـوريا. لكـنّهم كـانوا في أحيـان كـثيرة يشـنّون عليهـا غـزوات نهـب وسـلب، إلى أن أخضـع الرومـان هـذه الـبلاد لسـلطانهم. ويخضـع هـؤلاء وسـوريا الآن للرومـان. ومدينـة النـبط الرئيسـة هـي المدينـة الـتي تـدعى بيترا[50]، لأنهـا تقـع في مكـان مسـتو أملـس، تحرسـه الصـخور مـن جوانبـه كلـها؛ وهـذا المكـان مـن الخـارج شـاقولي شـديد الانحـدار، وفي داخله ينابيع مياهـا غزيـرة وصـالحة للاسـتخدام المنزلـي وريّ البسـاتين. والشـطر الأكـبر مـن المكـان الممتـدّ وراء أسـوار المدينـة، صـحراوي مقفـر، خاصـة باتجـاه اليهوديـة. وهنـا تمتدّ أقصر طريق إلى هيريكونت، إذ لا يستغرق اجتيازها سوى 3-4 أيام، وخمسة أيـام إلى دغل النخيل. والمدينة يحكمها دائمـاً ملك ينتمـي إلى سـلالة ملكيـة. ويسـاعد الملك حاكم، هو عادة أحد أصدقائه، وكـان هـذا يـدعى «أخـا» الملك. وفي المدينـة نظـام دولـة رائع. فأثينودوروس الفيلسوف ومرافقي، زار البيترائيين ومكـث عنـدهم، وتحـدّث عـن بناء دولتهم بإعجاب شديد. وعلى حدّ قوله، إنه أدرك هنا كثيراً مـن الرومـان والأجانـب الآخرين. وقدّر له أن يتابع هناك الدعاوى القضائية الـتي كـان يرفعهـا الأجانـب بعضـهم ضدّ بعض، وضدّ السكّان المحلّيين، لكـنّ السـكّان المحلّيـون لا يـدّعي واحـدهم علـى الآخر أمام القضاء أبداً، بل يعيشون في سلام ووئام.

22- ونحن لم نتعرّف على كثير من السمات الفريدة للعربية إلاّ بفضل الحملة التي شنّها الرومان على العرب منذ بعض الوقت، وقادها إيليوس غالوس. لقد أرسل أغسطس قيصر غالوس لدراسة هذه القبائل والأماكن في العربية وإثيوبيا أيضاً. فقد رأى أغسطس أنّ تروغلوديتي المتاخمة لمصر، تقع في جوار العرب، وأنّ الخليج العربي الذي يفصل العرب عن التروغلوديتي ضيّق جدّاً. ولذلك عزم على أن يجعل من العرب أصدقاء، أو خاضعين. كما كان لديه على وجه العموم اعتبار آخر: منذ القدم شاعت عنهم شائعة تفيد بأنهم يملكون ثروات مهولة، لأنهم كانوا يبادلون بعطورهم وأفاويههم وحجارتهم الثمينة، الفضّة والذهب، لكنّهم لم ينفقوا يوماً أي شيء من هذا على التبادل. وعلى هذا النحو رام أغسطس أن يكتسب بهؤلاء أصدقاء أثرياء، أو يخضع أعداء أثرياء. وقد عزّز عزم أغسطس العون الذي كان ينتظره من النبط، فقد كان هؤلاء «أصدقاءه»، ووعدوا بتقديم كلّ عون ممكن للرومان.

23- وفي هذه الظروف شنّ غاللوس حملته. لكنّ سيلليوس حاكم النبط خدعه. فمع أن سيلليوس وعد غاللوس بأن يكون دليله في حملته، وأن يزوّد قوّاته بكلّ ما هو ضروري، وأن يساعده في شتّى المجالات، إلاّ انه خدعه وخانه في كلّ شيء: لم يرشده إلى الطريق البحرية الآمنة، ولا إلى الطريق البرية الآمنة، ففي البرّ قاد الرومان إلى أماكن ليس فيها طرقات، أو إلى طرقات إلتفافية عبر أماكن قاحلة؛ وفي البحر قادهم على امتداد سواحل صخرية خالية من المراسي، أو عبر مياه ضحلة، أو بين صخور تحت الماء. لكنّ الأذى الأكبر تلقاه الرومان في هذه الأماكن من المدّ والجزر. وكانت خطيئة غاللوس الأولى أنه أمر ببناء سفن قتالية، مع أنّ أيّ حرب بحرية لم تكن تنتظره. ففي البرّ لم يكن العرب مقاتلين شجعاناً، لأنهم على وجه العموم كانوا تجاراً، فما بالك في البحر. وكان غاللوس قد أمر ببناء 80 سفينة: بثلاثة أنساق من المجاديف، ونسق واحد من المجاديف، وسفن خفيفة في كليوباتريدا قرب القناة القديمة التي تصل النيل بالخليج. وما إن أدرك غاللوس الخديعة حتّى بنى 130 سفينة شحن، وأبحر عليها ومعه 10.000 من جنود المشاة الرومان الذين كانوا مقيمين في مصر، إضافة إلى الحلفاء؛ وكان بين هؤلاء الأخيرين 500 يهودي، و1000 من النبط كان يقودهم سيلليوس. وبعد معاناة مريرة، وشظف وحرمان وصل غاللوس في اليوم الخامس عشر إلى لوكوس كوموس[51]، وهي مركز تجاري كبير في أرض النبط. وبسبب الإبحار غير الموفّق، وليس بسبب أيّ عدوّ كان، فقد غاللوس كثيراً من

السفن، بل غرق بعضها مع طاقمه. وكان غدر سيلليوس هو السبب في وقوع هذه الخسائر، فقد أعلن هذا أنه لا توجد طرق برّية إلى لوكوس كوموس، مع أن التجار مع قوافلهم من الجمال يأتون من بيترا إلى هنا ويذهبون من هنا إلى بيترا بسهولة وأمان، ولا تقلّ حشودهم من الجمال والناس عن حشود الجيوش.

24- وعلى وجه العموم وقع هذا كلّه لأنّ الملك عبادة لم يول أهمية للشؤون العامّة، خاصة العسكرية منها (وهنا تكمن حالة الضعف المشترك لدى الملوك العرب) وترك كلّ شيء لسيلليوس. وكان هذا غدّاراً مخاتلاً في كلّ شيء، وأنا أرى أنه سعى إلى استكشاف هذه البلاد لكي يخضع مع الرومان عدداً من مدنها وقبائلها، ثمّ ينصّب نفسه ملكاً عليها كلّها بعد أن يهلك الرومان من الجوع والعطش والأمراض وسوى ذلك من المآسي التي دبّرها هو نفسه. ومع ذلك نزل غاللوس في لوكوس كوموس، لكنّ قواته كانت قد أصيبت باثنين من الأمراض المحلّية: الأسقربوط، ووهن في الساقين[52]، ويظهر المرض الأوّل في ارتخاء عضلات الفم، والثاني في وهن حركة الساقين بسبب الخواص المدمّرة التي تحملها مياه المكان وأعشابه. وعلى أيّ حال كان غاللوس مرغماً على أن يقضي الصيف هناك والشتاء بانتظار شفاء جنوده المرضى. وتنقل شحنات العطور والأفاوية من لوكوس كوموس إلى بيترا، ومن هناك إلى رينوكولورا الواقعة في فينيقيا على مقربة من مصر، ثمّ من هناك إلى المدن الأخرى. ولكنّ أكثر هذه الشحنات ينقل الآن في النيل إلى الإسكندرية؛ وينقلونها من العربية والهند إلى ميوس هورموس[53]، ثمّ يحملونها على الجمال إلى كوبتوس في منطقة طيبة على قناة النيل، ومنها إلى الإسكندرية. وبعد أن ترك لوكوس كوموس من جديد، سار غاللوس عبر أماكن اضطر فيها بسبب مخاتلة الأدلاّء إلى نقل الماء على الإبل. ولذلك لم ينجح في الوصول إلى أرض أريتيس قريب عبادة، إلاّ بعد أيام كثيرة. والحقيقة أن أريتيس استقبله بودّ وعلى الرحب والسعة، وقدّم له الهدايا، لكنّ غدر سيلليوس جعل عبور هذه البلاد مضنياً. فقد صرف غاللوس 30 يوماً حتّى عبر البلاد التي لم يكن فيها سوى الحنطة الرومية وقليل من الثمر، والسمنة البقرية بدلاً من زيت الزيتون، لأنهم ساروا في أرض ليس فيها طرقات. وكان يشغل المنطقة التالية التي وصل إليها القائد الروماني البدو الرحّل، إلاّ أن الشطر الأكبر منها هو صحراء حقيقية. وكانت هذه المنطقة تدعى أرارينا؛ وكان ملكها يدعى سبأ. وعبر هذه الأرض قدّر لغاللوس أن يجتاز طرقات شديدة الوعورة استغرقت منه 50 يوماً أخرى حتّى وصل

مدينة نجران الواقعة في بلاد مسالمة وخصبة. فهرب ملك البلاد، وأُخذت المدينة بقوة السلاح. ومن هنا وصلت القوات بعد 6 أيام إلى نهر وقعت عليه معركة الرومان مع البرابرة، فخسر فيها هؤلاء ما يقارب 10.000 مقاتل، بينما لم يخسر الرومان سوى مقاتلين اثنين. فهؤلاء البرابرة الذين لم يكونوا مقاتلين في أيّ حال من الأحوال، لم يكونوا يحسنون استعمال الأسلحة، خاصة الأقواس، والرماح، والسيوف، والمقاليع؛ وكان أكثرهم مسلّحاً ببلطات حربية حادة الطرفين. وبعد المعركة مباشرة تمّ الاستيلاء على مدينة تدعى آسكا كان الملك قد غادرها هارباً. ومن هنا وصل غاللوس إلى مدينة أفرولا فأخذها من غير قتال وترك فيها وحدة حماية. ثمّ أعدّ القمح والتمور مؤونة للطريق، ووصل إلى مارسيابا التي كانت لقبيلة الرامانيتيين الخاضعة لإيلاسار. فهاجم غاللوس المدينة وحاصرها 6 أيام، لكنّه أرغم على التراجع بسبب نقص المياه. وبحسب أقوال الأسرى إنه كان يقع على بعد مسير يومين عن البلاد التي تنتج العطور والأفاوية، بيد أنه صرف 6 أشهر في المعابر بسبب مخاتلة الأدلاّء. ولم يدرك أنه كان ضحية نيّة شريرة إلاّ في وقت متأخر جدّاً، فعاد أدراجه عبر طرقات أخرى. فوصل نجران في اليوم التاسع، حيث وقعت معركة، ومن هنا وصل بعد أحد عشر يوماً إلى جبتافريتا[54]، وقد دعي المكان بهذا الاسم لأنّ فيه 7 آبار. وانطلق من هناك عبر بلاد مسالمة، فوصل إلى قرية خآلا، ثمّ إلى قرية أخرى تدعى مالوفا واقعة على نهر. وامتدت طريقه بعد ذلك عبر منطقة صحراوية ماؤها قليل، حتّى وصل إلى قرية أجرا. وتقع هذه القرية في بلاد عبادة عند البحر. لكنّ طريق عودة غاللوس استغرق 60 يوماً، بعد أن صرف على المسير الأوّل 6 أشهر. ومن هنا قاد قواته إلى ميوس هورموس في أحد عشر يوماً؛ ثمّ نقل أحماله إلى حيوانات نقل وسار برّاً إلى كوبتوس، ومنها بلغ الإسكندرية مع كلّ من ابتسم له الحظ ونجا من تلك الحملة. أمّا الجنود الآخرون فقد فقدهم، ولكن ليس بسيوف الأعداء، بل راحو ضحية الأمراض، والنوازل، والجوع، والسير في مناطق خالية من الطرقات؛ أمّا الحرب نفسها فلم تأخذ سوى 7 أشخاص. ولهذه الأسباب لم تأت هذه الحملة بفوائد تذكر بالنسبة لمعرفة هذه المناطق، مع أنّها ساعدت على هذا بعض الشيء. أمّا سيلليوس، الذي تقع عليه مسؤولية فشل الحملة، فقد نال عقابه في روما؛ ومع أنه تظاهر بصداقته للرومان، إلاّ أنه إضافة إلى هذه الخيانة، اتهم بجرائم أخرى وقطعت رأسه.

25- وتتقسم بلاد العطور والأفاويه إلى أربعة أقسام، كما كنت قد

أشرت[55]. ويقولون إن البخور والمرّ من العطريات التي يستخرجونها من الأشجار، أمّا القرفة الصينية فيجمعونها من المستنقعات. وبحسب بعضهم إن الكمّ الأكبر من هذه الأخيرة يأتي من الهند، بينما يأتي أفضل البخور من بيرسيدا. وبحسب رأي آخر أنّ العربية السعيدة كلّها تنقسم إلى 5 ممالك يعيش في إحداها المقاتلون الذين يقاتلون عن جميعهم من غير استثناء، ويعيش في الثانية الفلاّحون الذين يمدّون الآخرين بالمؤن، ويعيش في الثالثة الحرفيون؛ وفي الرابعة والخامسة الذين ينتجون البخور والمرّ؛ ومنهما أيضاً يستخرجون القرفة الصينية، والقرفة، والناردين. ولا تنتقل المهنة عندهم من شخص لآخر، بل تبقى داخل العائلة. ويستخرجون الكمّ الأكبر من النبيذ من النخيل. والأخ عندهم مقدّم على الابن. وينال أعقاب السلالة الملكية السلطة الملكية وفق حق البكورية، ولهم أيضاً حقّ شغل المناصب العليا الأخرى. ويملك الأقارب كلّ شيء جماعة، لكنّ الزعامة للأكبر سناً في العائلة. ولكلّ أفراد العائلة زوجة واحدة، يعاشرها من يدخل البيت أوّلاً، إذ يضع عصاته أمام الباب (تقضي العادة عندهم بأن يحمل كلّ رجل عصاة). لكنّ الزوجة يجب أن تبيت الليل عند الأكبر سناً من أفراد العائلة. ولذلك يعدّ الأولاد كلهم أخوة. ويعاشر هؤلاء جنسياً حتّى أمهاتهم. وعقوبة الزنى عندهم الموت. والزاني في هذه الحال، هو كلّ من ينتمي إلى عائلة أخرى. فقد كان لأحد الملوك ابنة ساحرة الجمال، لها 15 أخاً أحبّها كلّ منهم حباً جارفاً، ولذلك كانوا يترددون إليها من غير انقطاع إلى أن أرهقتها مداعباتهم، فابتكرت الحيلة الآتية. لقد صنعت لنفسها عصياً شبيهة بعصيّ إخوتها. وفي كلّ مرّة يغادرها أحد أخوتها، تضع أمام بابها عصاة تشبه عصاة أخيها الذي غادرها، وبعد قليل تضع العصاة الأخرى حتّى إذا ما جاء أحدهم لا يجد عصاة تشبه عصاته. ومرّة كان أخوتها كلّهم في السوق، فجاء إليها واحد منهم ورأى عصاة أمام الباب، فظنّ أن عندها أحداً ما. ولكن بما أنه كان قد ترك إخوته كلّهم في السوق، فقد ظنّ أنّ عند أخته عشيقاً لها. عندئذ هرع إلى والده وجاء به إلى البيت، ليكتشف أن ظنّه بأخته ليس صحيحاً.

26- إن النبط شعب عقلاني اقتصادي حكيم. ولذلك ينزلون عقاباً علنياً بمن يبذر أرزاقه، ويكافئون علناً من يضاعفها. وبما أنّ العبيد عندهم قلّة نادرة، فهم يلجؤون أكثر ما يلجؤون إلى خدمات الأقارب، أو يتبادلون الخدمات بعضهم مع بعض؛ وينسحب هذا التقليد حتّى على الملوك. ويقيمون ضيافة لثلاثة عشر شخصاً، ويكون في كلّ وليمة موسيقيان. وغالباً ما يقيم الملك ولائم باذخة، ولا يسمح لأي من

المشاركين فيها أن يشرب أكثر من 11 كوباً، وفي كلّ مرّة يبدّلون الكوب بكوب ذهبيّ آخر. ويحافظ الملك على صلة وثيقة جدّاً مع الشعب، حتّى أنه يدير شؤونه الخاصة من غير خدم، بل وأحياناً ما يردّ بنفسه الخدمة بمثلها. وليس نادراً أن يقدم كشفاً عن عمله أمام مجلس الشعب، وأحياناً ما يناقشون طريقة عيشه. ومساكن النبط غالية الثمن لأنها مبنية من الحجر. ولا تحاط مدنهم بأسوار لأنهم يعيشون بسلام ووئام. والشطر الأكبر من البلاد غنيّ بالغلال، ما عدا الزيتون؛ ويستخدمون زيت السمسم بدلاً من زيت الزيتون. وصوف أغنامهم أبيض اللون، وأحجام ثيرانهم كبيرة، ولكن ليس في البلاد جياد، فتحلّ الإبل محلّها. ولا يرتدي الناس هنا الجلابيب، بل يحيطون أوراكهم بمآزر، وينتعلون الصنادل، حتّى الملوك الذين يرفلون بالملابس القرمزية، لا يتميّزون عن الآخرين في هذا. ويحملون لهم بعض السلع من الخارج من غير عائق، وثمّة سلع أخرى يمنع استيرادها قطعاً، إذا كانت تنتج محلّياً، كالذهب، والفضّة، وأكثر المنتوجات العطرية. أمّا النحاس، والحديد، والملابس القرمزية، والميعة العطرية، والقرفة البيضاء، والمسكوكات، واللوحات، والتماثيل فاستيرادها كان مباحاً لأنها لا تصنع محلّياً. ويرى النبط في الأجساد الميتة قاذورات، بحسب مأثور هيراقليط الذي يقول:

أسرع بإبعاد الأموات قبل إبعاد القاذورات.

ولذلك يدفنون حتّى ملوكهم قرب أكوام القاذورات. ويبجّل النبط الشمس فيبنون لها مذبحاً على سطح البيت؛ ويسكبون لها كلّ يوم ويحرقون البخور.

27- وعندما يقول هوميروس:

إلى الإثيوبيين السود توغلّت، وحللت ضيفاً على

الصيدونيين الأريمبيين،

(*الأوذيسا* IV، 84)

تنشأ لدى الشارحين صعوبة بالنسبة للصيدونيين أوّلاً: هل ينبغي أن يعدّ هؤلاء واحدة من القبائل التي تقطن الخليج الفارسي، الذي كان قد استعمره الصيدونيون الذين يقطنون في القسم الذي نعيش فيه من العالم، على نحو مماثل لما يقولونه عن صوريين سكّان جزر وعرب يقال إن مستعمريهم يعيشون في شطر العالم الذي نعيش فيه، أو ينبغي أن نرى فيهم الصيدونيين أنفسهم. وتأتي بعد ذلك مسألة الأريمبيين التي تعدّ أكثر غموضاً: هل ينبغي أن نقصد هنا إلى التروغلوديتي (كما يفعل الذين يتعسفون

في التعامل مع اشتقاق كلمة «اريمبيين» إذن يشتقونها من eran embainein، أي «يمشي في الأرض») أم إلى العرب؟ فزينوننا[56] مثلاً، يغيّر في النصّ ليصبح على النحو الآتي:

... حللت ضيفاً على الصيدونيين العرب.

أمّا بوسيدونيوس فيقرأ هذا البيت قراءة مقنعة أكثر، لكنّه يدخل عليه تغييراً ليس ذا أهمية:

... حللت ضيفاً على الصيدونيين، والأرامبيين.

مفترضاً في غضون ذلك أنّ هوميروس دعا العرب المعاصرين على هذا النحو، كما كان يفعل كتّاب عصره الآخرون. وبحسب بوسيدونيوس أنّ العرب كانوا يشكلون ثلاث قبائل كانت أراضيهم تقع واحدتها بعد الأخرى مباشرة، الأمر الذي يدلّ على وحدة منشئهم؛ ولذلك دعوهم بأسماء متشابهة؛ فحملت إحدى هذه القبائل اسم «أرميان»، والأخرى اسم «آراميين»، والثالثة اسم «أريمبيين»، إذن يمكننا أن نتخيّل أن العرب كانوا ينقسمون إلى ثلاث قبائل، تبعاً لاختلاف دوائر العرض (التي تتغيّر دائماً أكثر فأكثر)، ولذلك يمكن قبول فرضية أن يكون لهم عدّة أسماء بدلاً من اسم واحد. ولا نستطيع أن نقبل أيضاً قراءة بعضهم الذين يستخدمون كلمة «إريمينيين»[57]، لأنّه من المناسب أكثر أن يطلق هذا الاسم على الإثيوبيين. ويأتي هوميروس على ذكر «الأريميين»[58] أيضاً، وبحسب بوسيدونيوس إنّ الشّاعر لم يعن بهذا الاسم أيّ مكان في سوريا أو كيليكيا، أو في أيّ بلاد أخرى، إنما عنى سوريا نفسها. فالشعب الذي يعيش في سوريا هو الشعب الآرامي، ولكن قد يكون الإغريق دعوهم أريميين أو أريمانيين. ومن المعروف أن التغيير في أسماء القبائل، خاصة القبائل البربرية، كان أمراً شائعاً لدى الإغريق. فقد دعوا داريوس على سبيل المثال «داريكوس»، وبارساتيدا- «فارزيريدا»، وأفارا- «أترغاتيس»، مع أنّ كتيسيوس يدعوها «ديركيتو». وفيما يخصّ «سعادة» العرب، فيمكننا أن نسوق برهاناً عليها نيّة الإسكندر، الذي يقال إنه أراد أن يجعل من العربية مقرّه الملكي بعد عودته من الهند. لكنّ خططه كلّها انهارت بسبب وفاته المفاجئة. وعلى أيّ حال فقد قضت واحدة من خططه باستطلاع ما إذا كان العرب سيقبلون به طوعاً، وإذا ما جاءت النتيجة بالرفض، فهل ينبغي محاربتهم وإخضاعهم بالقوة. ولذلك حينما رأى الإسكندر أن العرب لم يرسلوا إليه سفراء لا قبل حملة الهند ولا بعدها، أخذ يستعد للحرب، كما كنت قد أشرت[59].

الكتاب السابع عشر

الفصل الأول

1- بما أنني أدخلت في وصفي للعربية الخلجان التي تحيط بها لتجعل منها شبه جزيرة، خاصة الخليج الفارسي والخليج العربي، وتطرّقت في أثناء حديثي عن هذا الأخير إلى أجزاء من مصر وإثيوبيا، وتحديداً منطقة التروغلوديتي والقبائل التي تقطن بعد ذلك وصولاً إلى آخر بلاد القرفة، فإنه ينبغي عليّ أن أتحدّث الآن عن باقي الأراضي المجاورة لهذه القبائل؛ وأنا أقصد هنا إلى الأماكن الواقعة حول النيل. وسأعطي بعد هذا وصفاً موجزاً لليبيا التي تشكّل القسم الأخير في وصفي للأرض. وهنا ينبغي أن أعرض أوّلاً أخبار إيراتوسفين.

2- فوفق إيراتوسفين أنّ النيل يقع على بعد 900 أو 1000 مرحلة إلى الغرب من الخليج العربي، وهو يشبه من حيث الشكل مقلوب الحرف N[1]. ويواصل إيراتوسفين قائلاً: لأنه يجري على امتداد يقارب 2700 مرحلة إلى الشمال من ميرويه، ثمّ ينعطف نحو الخلف ليجري جنوباً نحو المطلع الشتوي للشمس على امتداد 3700 مرحلة؛ وبعد ذلك يكاد أن يبلغ المناطق القريبة من ميرويه، ثمّ يتوغّل بعيداً في ليبيا بعد منعطفه الثاني، ليجري مسافة 3500 مرحلة نحو الشمال حتّى الشلال الأكبر، مع ميل بسيط نحو الشرق؛ وبعدها 1200 مرحلة حتّى الشلال الأصغر عند سيينا، وأخيراً 5300 مرحلة أخرى ليبلغ البحر. وثمّة نهران ينبعان من بحيرات ما في الشرق ويحيطان بجزيرة ميرويه الكبيرة، ثمّ يصبّان في البحر. ويدعى أحدهما، الذي يجري على الجانب الشرقي، أستابورا، ويدعى الثاني أستاب، مع أن بعضهم يدعوه أستاسوبا، ويقولون إن أستاب نهر آخر ينبع من عدد من البحيرات الجنوبية؛ ويشكل هذا النهر الأخير ما يقارب كلّ القسم المستقيم من نهر النيل، ويمتلئ من مياه الأمطار الصيفية. ويقول إيرتوسفين إنه

إلى الأعلى من ملتقى أستابورا والنيل، وعلى مسافة 700 مرحلة تقع ميرويه، وهي مدينة تحمل اسم البحيرة نفسه. وهناك جزيرة أخرى إلى الأعلى من ميرويه يملكها المصريون المنفيون الذين ثاروا في عهد بساميتيخ؛ ويدعى هؤلاء سيمبريتيين، أي ما يشبه «الوافدين»[2]. وتحكم على هؤلاء امرأة - ملكة، إلاّ أنهم يخضعون لملوك ميرويه. أمّا المناطق المنخفضة من البلاد، على جانبي ميرويه على طول مجرى النيل نحو البحر الأحمر، فيسكنها الميغاباريون، و البليميّون الخاضعون للإثيوبيين، والمجاورون للمصريين؛ و على امتداد ساحل البحر يقطن التروغلوديتي (يقيم التروغلوديتي الذين قبالة ميرويه على بعد 10 أو 12 يوماً عن النيل)؛ أمّا الأجزاء الواقعة على الجهة اليسرى لمجرى النيل في ليبيا، فتقطنها قبيلة كبيرة هي قبيلة النوبيين التي تنتشر على مدى يمتدّ من ميرويه حتّى منعطف النهر؛ و لا يخضع النوبيون لسلطة الإثيوبيين، لكنّهم ينقسمون إلى عدد من الممالك. و يمتدّ الساحل البحري المصري من المصبّ البيلوسي حتّى المصبّ الكانوبي، 1300 مرحلة. هذه هي معطيات إيراتوسفين.

3- بيد أنه من الضروري أن نعطي وصفاً أكثر تفصيلاً لهذه المنطقة، وفي المقام الأوّل المناطق القريبة من مصر، و نسوق عرضنا بدءاً من الأماكن المعروفة لنسير به نحو الأماكن النائية. فالنيل يمنح بعض المزايا المشتركة لهذه البلاد والبلاد التي تجاورها من الأعلى، أي إثيوبيا، لأنه عندما يفيض يروي أراضي البلادين، ويجعل من أراضي الغمر وحدها أراضيَ صالحة للعيش؛ وعلى الضدّ من هذا، يعبر النهر الأماكن العالية الواقعة على ضفتيه أعلى من مجراه، فيحوّلها كلّها إلى مناطق قاحلة غير صالحة للعيش بسبب شحّ المياه. وعلى وجه العموم، يعبر النيل إثيوبيا كلّها (ولا يعبرها هذا النهر فقط)، ولكن ليس على خطّ مستقيم، وليس عبر الأماكن ذات الكثافة السكّانية العالية؛ أمّا مصر فليس فيها أيّ نهر آخر سوى نهر النيل، الذي يعبر البلاد كلّها على خطّ مستقيم، بدءاً من الشلال الأصغر، إلى الأعلى من سيينا وإليفانتين (اللتين تشكلان حدود مصر مع إثيوبيا)، حتّى مصبّه في البحر. وواقع الحال، هو أنّ أكثر الإثيوبيين يعيش حياة البداوة، حياة فقر و عوز بسبب شحّ التربة، والمناخ غير المعتدل، وبعدهم عنّا، بينما استقرّ لدى المصريين وضع مختلف تماماً. فمنذ أقدم الأزمنة يعيش هؤلاء حياة مدنية ثقافية، وقد سكنوا في أماكن شهيرة، وإنجازاتهم معروفة. وعلاوة على هذا يحظى المصريون بالاحترام والتبجيل من قبل الآخرين، لأنهم يعتقدون أنّ هؤلاء أحسنوا استغلال خصوبة تربة بلادهم، وقسموا أراضيها تقسيماً

صحيحاً، واعتنوا بها العناية الواجبة. فبعد أن اختاروا ملكهم قسّموا الشعب إلى ثلاث طبقات: دعوا إحدى هذه الطبقات طبقة المقاتلين، ودعوا الأخرى طبقة الفلاّحين، ودعوا الثالثة طبقة الكهنة؛ وقد أشرف هؤلاء الأخيرون على الشؤون المقدّسة، بينما اهتمت الطبقتان الأخريان بتلبية الاحتياجات البشرية، وتحديداً الشؤون العسكرية، وكلّ الشؤون الأخرى التي تتطلّبها حالة السلم، فحرثوا الأرض و زرعوها، وصنعوا المصنوعات الحرفية، وقد وفّر هذا كلّه موارد للملك. و كرّس الكهنة جهودهم للاشتغال بالفلسفة وعلم الفلك؛ و كانوا مقرّبين من الملوك. وفي الأوّل انقسمت البلاد إلى نومات[3]: انقسمت منطقة طيبة إلى 10 نومات، و الدلتا إلى 10 نومات، والمنطقة الفاصلة بينهما إلى 16 نوما (لكنّ بعض الكتّاب يقول، إن عدد النومات كان يساوي عدد قاعات اللابيرينتيوم؛ وعدد هذه أقلّ من 36)[4] ؛ ثمّ كانت النومات تنقسم بدورها إلى وحدات أخرى، فأكثرها كان ينقسم إلى توبارخات، وكانت هذه تنقسم إلى وحدات أصغر، وأصغر هذه التقسيمات كان يدعى أرورا[5]. وكان مثل هذا التقسيم الدقيق إلى أقسام صغيرة، أمراً ضرورياً جدّاً يفرضه الاختلاط الدائم للحدود الذي يتسبب به النيل في أثناء فيضانه، فقد كان النهر يقلّص الأراضي أو يزيدها، فيبدّل حدودها ويجعل علاماتها غير مرئية نهائياً، الأمر الذي يجعل التمييز بين أرضك وأرض الغير أمراً متعذراً. وعلى هذا النحو كانت تبرز ضرورة إجراء قياسات جديدة دائماً. ويقال إنّ علم الهندسة[6] قد نشأ من هذا، كما نشأ الإحصاء والحساب عند الفينيقيين بفضل تجارتهم[7]. وكما الشعب كلّه كذلك سكّان كلّ نوم انقسموا إلى ثلاثة أقسام، لأنّ البلاد كلّها قسّمت إلى ثلاثة أقسام متساوية. وكان نشاط الناس المرتبطين بالنهر متنوّعاً بقدر نجاحهم في التغلّب على الطبيعة بعملهم الدؤوب. لأنّ هذه البلاد بطبيعتها تعطي غلالاً أكثر مما تعطيه البلدان الأخرى وأكثر بفضل الري؛ فالفيضان الأكبر يروي بطبيعته أراض أكثر، ولكنّ المهارة غالباً ما تؤدّي دوراً مماثلاً في هذا الشأن، فحتّى عندما تمتنع الطبيعة عن مدّ يد العون [للفلاح]، ويكون الفيضان محدوداً، يمكن ريّ مساحات من الأراضي تساوي تلك التي يرويها الفيضان الأكبر، باللجوء إلى شقّ القنوات والبرك. وعلى أيّ حال كان المحصول في الزمن السابق على بترونيوس وكذلك الفيضان في أعلى مستوى لهما، عندما كان ارتفاع مستوى الماء في النيل يصل إلى 14 ذراعاً؛ أمّا عندما لم يكن يرتفع لأكثر من 8 أذرع، كانت تحلّ المجاعة. ولكن حينما كانت مصر تحت حكم بترونيوس، وكان مؤشر

ارتفاع منسوب المياه في النيل لا يسجّل سوى 12 ذراعاً، كان المحصول يبلغ أعلى مستوياته، ومرّة عندما لم يسجل ارتفاع منسوب الماء سوى 8 أذرع، فإنّ أحداً لم يشعر مع ذلك بوجود مجاعة. إنّ هذه هي بنية البلاد وتنظيمها؛ وها أنا أنتقل الآن لأصف ما يأتي بعد ذلك.

4- ابتداء من الحدود الإثيوبية يجري نهر النيل على خطّ مستقيم نحو الشمال حتّى يبلغ المكان الذي يدعى «الدلتا»، وبعد ذلك، بحسب قول أفلاطون[8] «يتفرّع عند القمّة»، فيقتطع هذا المكان ليبدو كأنه رأس مثلث ويتشكل ضلعا هذا المثلث من فرعي النهر اللذين ينفصلان بكلا الاتجاهين ويمتدّان نحو البحر: إحداهما يميناً إلى البحر عند بيلوسي، والأخرى يساراً إلى البحر عند كانوب وجارتها التي تدعى هيراقليا؛ ويشكّل الخطّ الساحلي من بيلوسي إلى هيراقليا قاعدة هذا المثلث. وعلى هذا النحو شكّل البحر وفرعا النيل جزيرة تدعى الدلتا، تبعاً لتشابه شكلها؛ ولكنّ المكان الذي يقع عند رأس المثلث يدعى بالاسم عينه أيضاً، لأنه يعدّ بداية الشكل المذكور، كما تدعى القرية الموجودة هناك دلتا أيضاً. وعلى هذا النحو هناك مصبّان لنهر النيل: أحدهما يدعى المصبّ البيلوسي، والآخر المصبّ الكانوبي أو الهيراقلي؛ وتقع بين هذين المصبّين 5 مصبّات أخرى (تستحقّ الذكر)، وعدد آخر من المصبّات الصغيرة؛ لأنه ابتداء من الأجزاء الأولى للدلتا شكّل كثير من فروع النيل التي تجري في مختلف أنحاء الجزيرة كثيراً من الأنهار والجزر، بحيث باتت الدلتا كلّها صالحة للملاحة، زد إلى ذلك أن القنوات قسّمت إلى قنوات يمكن الإبحار فيها بسهولة جعلت بعضهم يستخدم حتّى المعدّيات الطينية لعبورها. وعلى هذا النحو تشكّل هذه الجزيرة كلّها محيطاً يقارب 3000 مرحلة؛ وهي تحمل مع مناطق الدلتا الأخرى اسم مصر السفلى[9]. وفي مواسم فيضان النيل تغمر المياه البلاد كلّها ما عدا المناطق السكنية، وتجعل منها جزيرة؛ فالقرى تقوم فوق الهضاب أو المرتفعات الصناعية، وكذلك المراكز السكّانية الأخرى التي تعدّ مدناً كبيرة، وتبدو هذه كلّها من بعيد كأنها جزر. وفي الصيف تبقى مياه الفيضان ثابتة 40 يوماً، ثمّ تبدأ بالانحسار تدريجياً على النحو الذي كانت قد ارتفعت فيه؛ وخلال 60 يوماً يتعرّى السهل تماماً ويبدأ يجفّ، وكلما تسارع الجفاف، أسرعوا بحراثة الأرض وزراعتها؛ ويتسارع الجفاف خاصة في المناطق الحارّة أكثر. وتروى مناطق البلاد التي تقع إلى الأعلى من الدلتا بهذه الطريقة عينها، ما عدا أنّ النهر يجري باتجاه مباشر قرابة 4000 مرحلة في مجرى واحد؛ زد إلى

هـذا أنّ جـزراً صغيرة تتوزّع على طريقـه هنـا وهنـاك، وأكبرهـا تلـك الـتي تشـمل نـوم هيراقليا، أو ينعطف النهر في مكان ما ليشـكّل قنـاة تمتـدّ أكـثر مـن المعتـاد في بحيرة كبيرة أو في منطقـة يمكـن أن ترويهـا (مـثلاً، القنـاة الـتي تـروي نـوم أرسـينويا وبحـيرة ميريدا[10]، وكذلك القنوات التي تجـري إلى بحيرة مريـوط). قصـارى القـول، إنّ مصـر كلّها تتألّف فقط من المنطقة النهرية، وتحديداً من أقصى أطرافها علـى جـانبي النيـل، ابتداء من حدود إثيوبيا حتّى رأس الدلتا، ونادراً ما تشغل في مكان ما حيّزاً عـامراً مـن غير انقطاع عرضه 300 مرحلة. وعلى هذا النحو فإن الـبلاد الـتي تجـفّ بعـد الفيضـان، تشـبه في طولها شـريط الحـزام، مـا عـدا المنـاطق الأكـثر أهميـة[11]. وشـكل المنطقـة النهرية التي أتحدّث عنه هذا، وكذلك شـكل الـبلاد كلّهـا، تعطيـه لهـا الجبـال الـتي تعلو على جانبها، والتي تمتدّ مـن منطقـة سـيينا حتّـى البحـر المصـري؛ لأنّ المسـافة الـتي تمتدّ عليها هذه الجبال والمسافة التي تفصل بين واحدها والآخر، هـي الـتي تحـدّد تضـيّق النهر أو اتّساعه وتعطي الأرض المسـكونة أشـكالها المختلفـة. أمّـا المنطقـة الواقعـة علـى هذه الجهة من الجبال، فهي مقفرة على امتداد كبير[12].

5- لقد اسـتند الكتّـاب القـدماء اسـتناداً أساسـاً إلى التخمينـات، لكـنّ كتّـاب الأزمنة الأحدث بيّنوا، بعـد أن بـاتوا شـهود عيـان، أنّ الأمطـار الصـيفية هـي الـتي تمـلأ النيل حينما يقع الفيضان في إثيوبيا العليا، خاصة في منطقتها الجبلية النائية، وأنـه بعـد توقّف الأمطـار يتوقـف الفيضـان أيضـاً بالتـدرّج. وبـات هـذا الواقـع واضـحاً جليّـاً لأولئـك الذين أبحـروا في الخليج العربـي حتّـى بلغـوا بـلاد القرفـة، كمـا بـات جليـاً تمامـاً للـذين كـانوا يرسـلون لصـيد الفيلـة[13] (أو لتأديـة أيّ مهمّـة أخـرى كـان بطالمـة مصـر يرونهـا ضرورية). فقد اهتمّ هؤلاء الملوك بمثل هذه الأشياء. خاصة بطليموس الملقّب فيلاديلف، لأنه تميّز بالفضول وبسبب ضعف جسده كان دائم البحث عن الجديد من أسباب اللهو والتسـلية. بيـد أنّ هـذا لم يسـتهو الملـوك القـدماء كـثيراً، مـع أنهـم هـم أنفسـهم كـانوا يظهـرون اهتمامـاً واضـحاً بـالعلم، ومثلـهم كـان الكهنـة الـذين كـان الملـوك يصـرفون الشطر الأكبر من حياتهم معهم. ولذلك ليس هـذا وحـده مـا يثير دهشـتنا، إنمـا مـا يـثير الاسـتغراب أيضـاً، هـو أن سيسوسـتريس عـبر إثيوبيـا كلّهـا وصـولاً إلى بـلاد القرفـة ويعرضـون النصـب التذكـارية لحملتـه - الصـفائح الحجريـة والنقـوش- حتّـى يومنـا هـذا. وعندما استولى قمبيز على مصر، وصل مع المصرين حتّى ميرويـه نفسـها؛ ويقـال إنـه هـو مـن أعطـى الجزيـرة والمدينـة اسمهـا هـذا، لأنّ أختـه (وآخـرون يقولـون زوجتـه) توفّـت

هنـاك[14]. لكنّـه في الأحـوال كلّهـا دعـا هـذا المكـان على شـرف امـرأة. ولـذلك يبـدو مسـتغرباً ألاّ يكـون لـدى نـاس ذلـك الـزمن الـذين كانـت لـديهم في الأوّل مثـل هـذه المعطيات، تصوّراً واضحاً تماماً عـن أسباب هطـول الأمطـار، خاصـة أنّ الكهنـة دأبـوا على أن يدوّنوها في كتُبهم المقدّسة وحافظوا هناك على كلّ ما يكشف عن معارفهم الرائعة. ولكن إذا كانوا قد اشتغلوا بالعلم على وجه العموم، فإنـه كـان ينبغـي عليهم أن يدرسوا هذه المسألة أيضاً، وهـي لا تزال تدرّس حتّى يومنـا هـذا: لماذا تهطـل الأمطـار في الصيف، وليس في الشتاء، ولماذا تهطل في أقصى الأجزاء الجنوبية، وليس في منطقة طيبة والمنطقة المجاورة لسـيينا؟[15] بيـد أنّ واقـع حـدوث فيضـان النهـر بسـبب الأمطـار لا يخضع للدراسة، وهـذه المسـألة لا تحتاج للشـهود الـذين يتحـدّث عنهم بوسـيدونيوس. فهـو يقـول مـثلاً، إن كالليسـفين يـرى في الأمطـار الصـيفية سـبب الفيضـانات، مـع إنّ كالليسفين أخذ هذا الزعم عن أرسطو، الذي كان قد أخذه بدوره عـن ثراسيالكس الفاسوسي (أحد الفيزيائيين القدماء)، وهذا الأخير أخذه عـن أحـد مـا آخـر، كـان قـد أخذه عن هوميروس الذي دعا النيل «بالذي يجري من السماء».

ومرّة أخرى إلى مصر، إلى أرض النهر الذي يجري من السماء

[وجّهت سفني].

(*الأوذيسا* IV، 581)

لكنّي أعزف عن مناقشة هذه المسألة، لأنّ كتّاباً كثراً كـانوا قـد عالجوهـا؛ ويكفـي أن أذكـر اثـنين مـنهم فقـط (اللـذين كتبـا في زمـني كتابـاً عـن النيـل)، وأنـا أقصـد هنـا إلى يـودوروس، والمشّـائي أريسـتون؛ فباسـتثناء البنيـة، فـإنّ مـا تبقّـى كلّـه متشـابه لـدى هـذين الكـاتبين: الأسـلوب، والبـراهين. ولأنـه لا تتـوفّر لـديّ الجـداول[16] لإجـراء مقارنـة، فقـد قابلـت مؤلّفـاً بـآخر؛ بيـد أننـا لا نسـتطيع أن نعـرف إلاّ في معبـد آمـون[17]، مَـنْ مِـن هـذين الكـاتبين نسـب لنفسـه عمـل الآخـر. فقـد اتهـم يـودوروس أريستون؛ لكنّ الأسلوب أقرب إلى أسلوب أريستون. وعلى هذا النحو لم يطلق الكتّاب القدماء اسم مصر إلاّ على شطر واحـد مـن الـبلاد، هـو الشـطر المسـكون الـذي يرويـه النيل، ابتداء من منطقة سيينا حتّى البحر؛ ثمّ أضاف كتّاب الأزمنة الأحدث وصولاً إلى زمننا هذا، على الجهة الشرقية من البلاد كلّ الأجزاء الواقعة بين الخليج والنيل تقريباً (لا يبحر الإثيوبيون في البحر الأحمر البتّة)؛ وأضافوا على الجانـب الغربـي الأجـزاء الـتي تمتـدّ حتّـى الواحـات، وعلـى السـاحل مـن مصـبّ كـانوب حتّـى كاتاباسـم وأمـلاك

القورينائيين. لأنّ الملوك الذين جاؤوا بعد بطليموس[18]، بلغوا من القوّة ما مكّنهم من الاستيلاء على قورينائية نفسها، بل ألحقوا قبرص أيضاً بمصر. لكنّ الرومان الذين ورثوا البطالمة فصلوا أملاك هؤلاء وأبقوا لمصر حدودها السابقة. ويدعو المصريون الأماكن المأهولة التي تحيط بها صحارى كبيرة فتبدو كالجزر في عرض البحر، يدعونها «واحات». وفي ليبيا كثير من الواحات؛ ثلاث منها تقع بعيداً عن مصر، لكنّها تخضع لها. وبهذا أكون قد قدّمت وصفي العام الموجز لمصر. وسوف أتحدّث الآن عن مناطقها كلّ على حدة، ثمّ أتحدّث عن ميزات البلاد.

6- وبما أنّ الجزء الاكبر والأهمّ من هذا الوصف مكرّس للإسكندرية وتوابعها، فإنه ينبغي عليّ أن أبدأ من هذه المدينة. يمتدّ الساحل من بيلوسي إذا أبحرت غرباً حتّى مصبّ كانوب، على ما يقارب 1300 مرحلة، وأنا دعوت هذه المسافة «قاعدة» الدلتا[19]؛ ومن هنا إلى جزيرة فاروس 150 مرحلة أخرى. وفاروس هي جزيرة صغيرة متطاولة تكاد تلامس البرّ، وتشكّل ميناء بمدخلين؛ ويشكل ساحل البرّ خوراً، لأنه يمتدّ في عرض البحر برأسين بحريتين تقع بينهما جزيرة تغلق الخور لأنها تمتدّ بالطول في موازاة الشاطئ. وأقرب أطراف فاروس إلى البرّ والرأس البحرية الواقعة قبالتها (تدعى هذه الرأس، لوهيادس) طرفها الشرقي، الذي يجعل ثغر الميناء أضيق؛ وعلاوة على ضيق مدخل الميناء تقوم هناك أيضاً صخور بعضها تحت الماء وبعضها الآخر يبرز فوق سطح البحر؛ وتجعل هذه الصخور من الأمواج أمواجاً مزبدة إذ ترتطم بها آتية من عرض البحر. والرأس البحرية لهذه الجزيرة نفسها، عبارة صخرة تغسلها مياه البحر؛ ويقوم فوق هذه الصخرة بناء مذهل، هو عبارة عن برج كثير الطوابق مبنيّ من المرمر الأبيض[20]، ويحمل اسم الجزيرة نفسه. وهذا البرج هدية قدّمها سوسترات الكنيدسي، صديق الملوك، من أجل إنقاذ البحارة، على حدّ قول النقش؛ فالساحل المنبسط خال من المراسي على أيّ من جانبيه، وأمامه تقع صخور تغمرها المياه، عدّاك عن المخاضات الضحلة، لذلك كان من الضروري أن تكون أمام البحارة وعلى مرآى منهم علامة عالية مضيئة يسترشدون بها ليصلوا بدقّة إلى مدخل الميناء. وليس الوصول إلى الثغر الغربي سهلاً بدوره، مع أنه لا يتطلب كثيراً من الحذر. فهو يشكل الميناء الثانية التي تدعى ميناء يونوستوس[21]. وتقع هذه الميناء أمام ميناء أخرى اصطناعية ومغلقة[22]. لأنّ الميناء التي لها مدخل من جهة برج فاروس المذكور، هي ميناء كبيرة، بينما الميناءان الأخريان المجاورتان مباشرة للميناء الأخرى في تجويف الخور، منفصلتان

عنها فقط بمحبس يدعى هيبتاستاديوس[23]. ويشكّل هذا المحبس المائي جسراً يمتدّ من البرّ إلى الشطر الغربي من الجزيرة التي لا تترك سوى مدخلين مفتوحين إلى ميناء يونوستوس، وهما متصل بعضهما مع بعض بجسر أيضاً. ولم تكن هذه المنشأة مجرّد جسر إلى الجزيرة، بل كانت قناة مائية أيضاً، في أقلّ تقدير عندما كانت فاروس مأهولة. أمّا في الوقت الراهن فقد خرّبها قيصر الإلهي وأخلاها من سكّانها، ونهبها أثناء الحرب على الإسكندريين، لأنّ الجزيرة أخذت جانب الملوك. ومع ذلك لا يزال يقيم هناك غير بعيد عن البرج، بعض البحارة. أمّا فيما يخصّ الميناء الكبيرة، فعدا عن أنّ المحبس المائي والشروط الطبيعية تغلقها جيّداً، إلاّ أنها عميقة قرب الشاطئ إلى حدّ يسمح لأكبر السفن بالرسوّ فيها عند السلّم. إلاّ أنّ ملوك مصر السابقون، كانوا راضين على وجه العموم ومكتفين بما عندهم، ولم يكونوا بحاجة أبداً لأي بضائع مستوردة، ولذلك كانوا عدائيين تجاه البحارة كلّهم، خاصة الإغريق (لأن هؤلاء كانوا لصوصاً طامعين دوماً بما يملكه الآخرون، فأرضهم شحيحة)؛ فقد أقاموا حراسة على هذا المكان وأمروا الحرّاس بتوقيف كلّ من يقترب من الجزيرة. وحدّد الملوك مكان إقامة هؤلاء الحرّاس في المكان الذي يدعى راكوتيدا، والذي يعدّ الآن جزء مدينة الإسكندرية الذي يقع إلى الأعلى من أحواض بناء السفن وإصلاحها، بيد أن هذا كان في تلك الأزمنة قرية؛ وقد أعطيت ضواحي هذه القرية للرعاة الذين كان يمكنهم أيضاً أن يعوقوا أيّ هجوم يشنّه الغرباء. وحينما وصل الإسكندر إلى هنا ورأى أن الموقع ملائم، قررّ أن يبني فيه عند الميناء مدينة محصّنة. وذكر الكتّاب حدثاً، بصفته علامة على الرخاء الذي ينتظر المدينة، وقع لدى وضع مخطط بنائها. فعندما أخذ المعماريون يحدّدون بالجير[24] خطوط محيط مدينة المستقبل، نفذ مخزون الجير الذين كان بين أيديهم؛ وبعد أن وصل الملك صرف الموظفون القائمون على شؤون التموين جزءاً من الدقيق المعدّ للعاملين؛ وبهذا الدقيق خططوا عدداً من الشوارع أكبر مما كان من قبل. ويقولون، إن هذه الواقعة عدّت فأل خير[25].

7- إن فوائد موقع المدينة متنوّعة؛ أوّلاً، يشاطئ ساحتها بحران: من الشمال البحر الذي يسمّى البحر المصري، ومن الجنوب مارييا التي تدعى مريوط. وتمتلئ هذه البحيرة بمياه كثرة من القنوات التي استجرّت من النيل، كما من أعاليه كذلك من جهة فروعه؛ وينقل عبر هذه القنوات من البضائع أكثر مما ينقل من البحر، ولذلك فإن ميناء البحيرة هي فعلاً أكثر غنى من الميناء البحرية؛ والتصدير من الإسكندرية

هنا أكثر من الاستيراد؛ وهذا يمكن أن يحكم عليه كلّ من زار الإسكندرية أو ديكيارخيا وراقب سفن الشحن لدى رسوّها وإقلاعها، وإلى أيّ حدّ هي مثقلة أو خفيفة لدى وصولها أو مغادرتها. وبالإضافة إلى القيمة العالية للبضائع المتجهة بالاتجاهين، إلى الميناء البحرية كما إلى ميناء البحيرة، ينبغي أن نذكر أيضاً هواء المدينة الصحّيّ. وسبب هذا أيضاً هو أنّ البلاد محاطة من جهتين بالمياه بسبب فيضان النيل الذي يحدث في وقته الملائم. فالهواء في المدن الأخرى الواقعة على البحيرات ثقيل خانق، لأنّ أطراف البحيرة تتحوّل في فصل الصيف إلى مستنقعات تتشكّل بسبب التبخّر الذي تتسبّب به حرارة أشعة الشمس. وعلى هذا النحو، عندما تصعد إلى الأعلى مثل هذه الكمية من الرطوبة الملوّثة، فإن الناس يتنفّسون هواء غير صحّي يتسبّب بأمراض قاتلة. أمّا في الإسكندرية فإن النيل يمتلئ في أوّل الصيف بالماء، فتمتلئ البحيرة ولا تسمح للمياه المستنقعية أن تلوّث الأبخرة المتصاعدة. وتهبّ في هذا الوقت أيضاً الرياح الإيتيّة[26] الآتية من الشمال ومن البحر، ولذلك يقضي الإسكندريون صيفاً هانئاً.

8- ومن حيث تخطيطها تشبه المدينة الكلاميدس[27]؛ فأضلاعها الطويلة التي يقارب قطر واحدتها 30 مرحلة، تغسلها المياه من الجانبين؛ أمّا أضلاعها القصيرة فهي عبارة عن برازخ عرض واحدها 7 أو 8 مراحل، يحدّها البحر من جهة والبحيرة من الجهة الأخرى. وتخترق الشوارع أرجاء المدينة كلّها، وهي شوارع صالحة للتنقل عبرها خيّالاً أو في المركبات؛ وفيها شارعان عريضان جدّاً، إذ يتجاوز عرض واحدهما البليفر الواحد، ويتقاطع واحدهما مع الآخر في زاوية قائمة فيشطر كلّ منهما الآخر في المنتصف. وفي المدينة مساحات رائعة من الأراضي المقدّسة، والقصور الملكية التي تشكّل ربع مساحة المدينة كلّها، وربّما ثلثها. فعلى النحو الذي كان فيه كلّ ملك يضيف، بدافع البذخ، زخرفة ما إلى المعالم العائلية، كذلك كان كلّ منهم يبني على نفقته الخاصة قصراً يضاف إلى القصور التي بنيت من قبل، وهذا ما يصحّ عليه قول الشّاعر:

واحدها [الأبنية] يمسك بالآخر.

(*الأوذيسا* XVI، 266)

فالقصور يتّصل بعضها ببعض وبالميناء، وينسحب هذا حتّى على تلك التي تقع

خارج الميناء[28]. ويعدّ الموسيوس[29] أيضاً واحداً من أجزاء القصور الملكية؛ ففيه مكان للتنزّه، ورواق استراحة، ومنزل كبير يقع فيه المطعم المشترك للعلماء الذين يعملون في الموسيوس. ولهذه الأخوية من العلماء ملكيتها المشتركة، وكاهنها الذي يدير شؤون الموسيوس، وفيما مضى كان الملوك هم الذين يعيّنون هذا الكاهن، أمّا الآن فيعيّنه قيصر. ويشكّل السيما جزءاً لا يتجزّأ من منشآت القصور الملكية. والسيما سياج يحيط بأضرحة الملوك وضريح الإسكندر. فقد نجح بطليموس بن لاغ بانتزاع جثمان الإسكندر[30] من بيرديكاس، عندما كان هذا ينقله من بابل، وانعطف به نحو مصر يدفعه تعطّشه لأخذ البلاد لنفسه. زد إلى هذا أنّ بيرديكاس قتل على أيدي جنوده في الوقت الذي هاجمه فيه بطليموس وحاصره على جزيرة مقفرة. وهكذا قتل بيرديكاس إذ اخترقت جسده رماح جنوده الذين هاجموه؛ أمّا الملوك الذين كانوا معه: أريدييوس وأبناء الإسكندر، وروكسانا زوجة الإسكندر، فقد أرسلوا إلى مقدونيا؛ وحمل بطليموس جثمان الإسكندر ودفنه في الإسكندرية التي لا يزال فيها حتّى يومنا هذا[31]، ولكن ليس في الناووس نفسه، كما في الماضي، لأنّ النعش الحالي من الحجر الشفاف، بينما كان بطليموس قد سجّى الجثمان في ناووس ذهبي. ولكنّ بطليموس المدعو «كوكّيس»[32]، و«باريساكتوس»[33]، الذي جاء من سوريا، سرق الناووس، لكنّه طرد منها فوراً، فباءت سرقته بالفشل.

9- في الميناء الكبيرة، لدى مدخل الجهة اليمنى، تقع جزيرة فاروس وبرجها، وعلى الجهة الأخرى توجد الصخور التي تغمرها المياه، ورأس لوهيادس البحرية وعليها القصر الملكي. ولدى مدخل الميناء من اليسار، ترى القصور الملكية الداخلية المتخالطة مع قصور لوهيادس؛ وفيها كثير من المخادع والحدائق. وتقع تحتها ميناء صناعية محفورة مخفية هي ملكية خاصة للملوك، مثلها مثل جزيرة أنتيرودوس الصغيرة والميناء الصناعية الواقعة أمامها بقصرها الملكي وميناءه الصغيرة. وقد دعيت الجزيرة باسمها هذا كأنها منافسة رودوس. ويقوم فوق الميناء الصناعية مسرح، ثمّ يأتي البوسيديوس، وهو إذا جاز القول، ثنية تبرز ممّا يدعى الإيمبوريوس مع معبد بوسيدون. وقد ألحق أنطونيو بهذه الثنية ردميات تمتدّ أكثر في وسط الميناء، وعلى أطراف هذه الردميات بنى قصراً ملكياً دعاه تيمونيوس. وكان هذا آخر ما قام به أنطونيو من أعمال، عندما تركه أصدقاؤه فأبحر عائداً إلى الإسكندرية بعد هزيمته عند أكسيوم[34]، وقد اختار أن يقيم في هذا القصر ما تبقى له من أيام على قيد

الحيـاة، بعيـداً عـن مثـل هـذا الكـمّ مـن الأصـدقاء[35]. ويقـع بعـد ذلـك معبـد قيصـر، والإيمبوريوس ومستودعات البضائع؛ ثمّ تليها أحواض بنـاء السـفن وإصـلاحها الـتي تمتدّ حتّى هيبتاستاديوس. إنّ هذا هو وصفي للميناء الكبيرة وضواحيها.

10- وتأتي بعد الهيبتاستاديوس ميناء يونوستوس، وفوقها ميناء صناعية تحمل اسم «كيبوت»؛ وفيها حوض لبناء السفن وإصلاحها. وأبعد في العمق تقع قناة صالحة للملاحة تمتدّ حتّى بحيرة مريوط. ويبقى خلف القناة شطر صغير من المدينة، ثمّ تأتي ضاحية- مدينة موتى- فيها كثير من البساتين، والمقابر، والأقبية الملائمة لتحنيط الموتى. وعلى هذا الجانب من القناة يقع السارابيوم وسواه من الأماكن المقدّسة القديمة الأخرى شبه المهملة الآن، لأنّ أبنية جديدة شيّدت اليوم في مدينة الموتى؛ ففيها على سبيل المثال مدرّج وستاد تقام فيه المباريات الرياضية كلّ خمس سنوات؛ أمّا الأبنية القديمة فهي مهملة ومتروكة. قصارى القول، إنّ المدينة مليئة بالمعالم الاجتماعية والمعابد؛ وأجملها هو مبنى الجمنازيوم بأروقته التي يتجاوز طولها المرحلة الواحدة. ويقوم في مركز المدينة مبنى المحكمة وحدائق. ويقع هنا أيضاً حرم بان، وهو شيء ما يشبه «المرتفع»، الذي صنعته يد الإنسان؛ ويبدو على شكل كوز سكب الزيت ويشبه الهضبة الصخرية، وتقود إلى هذا المرتفع طريق حلزونية الشكل[36]؛ ويمكن للواقف على قمته أن يرى كلّ المدينة التي تنبسط تحته. ويخترق المدينة شارع طويل يمتدّ من مدينة الموتى ويمرّ على مقربة من الجمنازيوم إلى البوابات الكينوبية؛ يليه ما يدعى الإيبودروم والشوارع الأخرى المجاورة وصولاً إلى قناة كينوب[37]. وإذ تعبر الإيبودروم، تدنو من مدينة الموتى التي لها قرية قرب البحر ليست أصغر من المدينة. وتقع مدينة الموتى على بعد 30 مرحلة من الإسكندرية. وقد أحاط أغسطس قيصر هذا المكان بما يليق به من الإجلال والتبجيل، لأنه انتصر في المعركة التي وقعت هنا بينه وبين أنصار أنطونيو. وبعد أن استولى على المدينة من الجولة الأولى، أرغم أغسطس أنطونيو على الإنتحار، وأرغم كليوباتر على الاستسلام. ولكنّها وضعت حدّاً لحياتها بعد فترة وجيزة قضتها في السجن: [هلكت] بلدغة حيّة أو(لأنه ثمّة روايتان) بمرهم سام لتدليك الجسد. وبهذا يكون قد وضع حدّ لوجود إمبراطورية اللاجيديين التي عاشت سنين طويلة.

11- فبطليموس بن لاغ كان خليفة الإسكندر؛ وخلف فيلاديلف بطليموس، ثمّ خلف يوريجيت فيلاديلف؛ ثمّ توالى بعد ذلك على عرش مصر فيلوباتور[38] بن

اجاثوكليس وإيبفان وفيلوميتور، وفي غضون ذلك كان الابن دوماً يرث أباه؛ لكن فيلوميتور ورثه أخوه يوريجيت الثاني الذي دعوه أيضاً فيسكون؛ وكان بطليموس المدعو لاثور[39] خليفة هذا الأخير؛ أمّا لاثور فقد ورثه أوليت، الذي كان في زمننا والد كليوباترا. لكنّ حياة البذخ أفسدت كلّ الملوك الذين جاؤوا بعد بطليموس الثالث، فأداروا شؤون الدولة إدارة أقلّ كفاءة من أسلافهم، بيد أنّ الأسوأ بينهم بطليموس الرابع وبطليموس السابع، وبطليموس الأخير- أوليت؛ فهو إضافة إلى نمط عيشه المستهتر، كان يعزف على المزمار ويرافق بعزفه فرق الغناء،وكان فخوراً بهذا إلى درجة أنه لم يخجل من إقامة مباريات موسيقية في القصر الملكي نفسه؛ وكان يشارك هو نفسه في تلك المباريات ضدّ المتبارين الآخرين. لكنّ الإسكندريين طردوه. وبما أنه لم يكن بين بناته الثلاث سوى ابنة واحدة شرعية، هي ابنته الكبرى[40]، لذلك أعلنوها ملكة عليهم؛ لكنّ ولديه الصغيريّ السنّ[41] أقصيا عندئذٍ تماماً عن السلطة. وبعد جلوسها على العرش دعوا المدعو كيبيوسكات[42] من سوريا ليتزوّج الملكة، وكان هذا يدّعي انتماءه إلى السلالة الملكية السورية. ولكنّ الملكة أمرت بعد مرور أيام قليلة بخنق هذا الرجل، فلم تتحمّل فظاظته ودناءته؛ وظهر بدلاً منه رجل آخر قدّم نفسه ابناً لميتريدات إيفباتور؛ وقد كان هذا هو أرخيلايوس ابن أرخيلايوس الذي حارب سولاّ، والذي كرّمه الرومان بعد ذلك؛ فقد كان جدّ الملك الأخير الذي حكم القبدوقيين في زمننا هذا، وكاهناً في كومانا التي على البونتس. وكان في ذلك الوقت يعيش مع غابينوس، ويعدّ العدة لحملة ضدّ البارثيين؛ ولكنّ بعضهم جاء به إلى الملكة خفية عن غابينوس، وأعلنوه ملكاً[43]. وفي الوقت نفسه استقبل بومبييوس الأكبر أفليت الذي كان قد وصل إلى روما، وقدّمه إلى السينات وحصل له على موافقة بإعادته إلى عرشه، وإعدام العدد الأكبر من أعضاء السفارة التي جاءت ضده (كان عددهم 100 شخص)؛ وكان بين هؤلاء السفراء ديون الفيلسوف الأكاديمي الذي غدا السفير الأكبر. وعلى هذا النحو لم يكتف بطليموس الذي أعاده غابينوس إلى العرش بقتل أرخيلايوس، بل قتل ابنته أيضاً. وبعد أن أضاف بعض الوقت لسنوات حكمه، مات بطليموس مريضاً؛ وترك وراءه ولدين وابنتين؛ وكانت الكبرى منهما كليوباترا. فأعلن الإسكندريون الابن الأكبر وكليوباترا ملكين؛ لكنّ أنصار الفتى أعلنوا العصيان وطردوا كليوباترا، فأبحرت ومعها أختها إلى سوريا. وفي ذلك الوقت كان بومبييوس الأكبر، قد فرّ هارباً من باليفرسال وجاء إلى بيلوسي وإلى جبل

كاسيوس. فقتله أنصار الملك غدراً؛ ولمّا وصل قيصر إلى مصر أمر بقتل الملك الفتى، واستدعى كليوباترا من منفاها ونصّبها ملكة على مصر، وعيّن شقيقها الأصغر الذي بقي على قيد الحياة شريكاً لها، مع أنه كان لا يزال صغير السن. وبعد موت قيصر ومعركة فيلبي[44]، توجّه أنطونيو إلى آسيا؛ وقد أحاط كليوباترا بمزيد من الإجلال والتكريم، بل اختارها زوجة له وأنجب منها؛ وخاض معها معركة أكسيوم، وهرب معها حينما هربت. وبعد ذلك لاحقهما أغسطس قيصر وقضى على كليهما ووضع حدّاً لعربدة ملوك مصر واستهتارهم.

12- ومصر الآن ولاية، ومع أنها تؤدّي إتاوات مهمّة، إلاّ أنّ أناساً عقلاء حكماء[45] يديرون شؤونها - الولاة الذين يرسلون إلى هنا من وقت لآخر. فالمرسل إلى هنا يحلّ محلّ الملك؛ فيخضع له القاضي الأكبر[46] الذي له السلطة العليا في أكثر الدعاوي القضائية؛ والشخصية الأخرى، هو الشخص الذي يدعى الإيديولوج[47]، والذي له الحق في الرقابة على أيّ ملكية متروكة لا مالك لها، وعلى الملكية التي ينبغي أن تعود لقيصر. ويلحق بهؤلاء الموظفين الكبار معتوقو قيصر، وكذلك المدراء الذين يعهد إليهم بأمور لها هذه الأهمية أو تلك. وتعسكر هناك ثلاثة أفواج من الجنود؛ أحدها في المدينة، والاثنان الآخران في أنحاء مختلفة من البلاد؛ وهناك إضافة إلى هذا تسع كوغورتات رومانية: ثلاث في المدينة، وثلاث على الحدود مع إثيوبيا تقيم في سيينا لحماية هذه المنطقة، وثلاث في باقي أجزاء البلاد. كما توجد أيضاً ثلاث فصائل من سلاح الفرسان موزّعة على أهمّ الأماكن. ومن الحكّام المحلّيين في المدينة: الإيكسيجيت[48] الذي يرفل بالأرجوان، وله حق التشريفات المتوارثة والاهتمام باحتياجات المدينة؛ وسكرتير الدولة[49]؛ والقاضي الأكبر[50]؛ وقائد الحرس الليلي[51]. لقد كانت هذه السلطات المحلّية موجودة في زمن الملوك أيضاً، لكن سوء الإدارة الملكية والتعسّف أفضيا إلى انهيار رخاء المدينة. وعلى أيّ حال فإن بوليبيوس الذي زار المدينة في ذلك الوقت، يتحدّث باشمئزاز عن واقع الأشياء فيها عندئذ؛ فعلى حدّ قوله إنّ في المدينة ثلاث مجموعات من الناس: أوّلاً، المجموعة المصرية أو المحلّية التي تتميّز بسرعة الانفعال، وتصعب قيادتها والسيطرة عليها؛ ثانياً، المجموعة التي تضمّ أعداداً كبيرة من الجنود المأجورين، وهي مجموعة من المتهتيكين المتمرّدين (وفق التقليد القديم كان المصريون يقتنون مأجورين غرباء، لكنّ ضعف الملوك وضآلتهم جعلا هؤلاء يتعلّمون قيادة أنفسهم بأنفسهم ولا يخضعون للآخرين)؛ ثالثاً،

مجموعة الإسكندريين التي بدورها لم تكن تميل إلى الحياة المدنية للأسباب نفسها، إلاّ أنّ أفرادها كانوا أفضل من أولئك الآخرين[52]؛ ومع أنهم كانوا قبيلة مختلطة، إلاّ أنهم مع ذلك كانوا من حيث المنشأ إغريقاً، وحافظوا على ذكريات العادات الإغريقية المشتركة. وبعد أن أُبيد أكثر أفراد هذه المجموعة، خاصة في عهد يوريجيت فيسكون، الذي في عهده زار بوليبيوس الإسكندرية (لأن فيسكون الذي أرهقته الانتفاضات أطلق أيدي الجنود مراراً لتعمل السيف في رقاب الحشود الشعبية)، كانت الحالة في المدينة، كما يقول بوليبيوس، على نحو ينطبق فيه عليها قول الشاعر:

أأعود إلى مصر ثانية وأقطع كلّ تلك الطريق الطويلة المضنية.

(*الأوذيسا* IV، 483)

13- وفي عهود الملوك الذين حكموا بعد ذلك، كانت الأوضاع على حالها نفسها، إن لم تكن أسوأ؛ وبحسب الممكن عالج الرومان أكثر العيوب، إذ فرضوا النظام في المدينة، كما أشرت سابقاً[53]، وعيّنوا في البلاد موظفين دعوهم إيبيستراتيجيين[54]، ونومارخ[55]، وإيتارخ[56]، وعهدوا إليهم بإدارة الشؤون الأقلّ أهمية. وأهم ميزة بين ميزات موقع المدينة، هو أنه المكان الوحيد في مصر كلّها الذي جعلته الطبيعة رائعاً في أمرين: في العلاقات البحرية بفضل موانئ ممتازة بالنسبة للتواصل مع الأجزاء الداخلية من البلاد، لأنه من السهل نقل كلّ شيء وتجميعه في مكان هو أكبر موانئ المعمورة. وعليه يمكننا أن نذكر الميزات الآتية لهذه المدينة. ففيما يخصّ واردات مصر يقول سيتسيرون في إحدى خطبه[57]، إن أفليت والد كليوباترا كان يتلقى إتاوات سنوية مقدارها 12500 تالانت[58]. وإذا كان شخص أحمق أدار شؤون البلاد باستهتار ولامبالاة يتلقّى مثل هذه الواردات الكبيرة، فما الذي يمكن أن نقوله عن واردات اليوم التي تجبى بحرص شديد ودقّة متناهية، وعندما تضاعفت التجارة مع الهنود والتروغلوديتي إلى هذه الدرجة؟ في الماضي بالكاد كانت تجرؤ 20 سفينة على اجتياز الخليج العربي لتخرج إلى ما وراء المضيق؛ أمّا الآن فإن أساطيل كبيرة تبحر حتّى الهند وأطراف إثيوبيا حيث يحملون إلى مصر مختلف أنواع البضائع الثمينة لترسل من هنا إلى شتّى البلدان الأخرى؛ ولذلك تجبى رسوم مضاعفة: رسوم الاستيراد ورسوم التصدير؛ ورسوم السلع الثمينة كبيرة جدّاً. والبلاد تستغل فعلاً احتكارها لكثير من السلع؛ فالإسكندرية وحدها تعدّ إلى درجة كبيرة مخزن مثل

هذه السلع، وهي إضافة إلى ذلك تزوّد الأصقاع الغربية بها. ونحن يمكننا أن نلاحظ حسنات هذا الموقع إذا ما طفنا حول البلاد وزرنا أوّلاً ذلك الشطر من الساحل الذي يبدأ عند قورينائية، وتعرفنا إلى البرابرة المارماريدس الذين يعيشون بجواره.

14- فإذا أبحرنا من كاتاباسم إلى باريتونيوس مباشرة، فإن طول الطريق 900 مرحلة. وباريتونيوس مدينة وميناء كبيرة امتداد محيطها 40 مرحلة. ويدعو بعضهم المدينة باسم باريتونيوس، بينما يدعوها آخرون آمونيوس. وتأتي بعد ذلك قرية للمصريين، ورأس إينيسيفيرا البحرية، وصخور تينداروس: 4 جزر صغيرة فيها ميناء؛ يلي ذلك مباشرة رأس دريبان البحرية، وجزيرة إينيسيبيا وميناؤها، ثمّ قرية أبيس التي تفصلها عن باريتونيوس 100 مرحلة، وعن معبد آمون مسير 5 أيام. والمسافة من باريتونيوس إلى الإسكندرية 1300 مرحلة تقريباً؛ وتأتي بعد ذلك في أوّل الأمر رأس بحرية تربتها بيضاء تدعى لوكوس أكتوس، وميناء ثينيكونت، وقرية بنيجييوس، وبعد ذلك جزيرة بيدونيا وميناؤها، وأنتيثيرا التي تبعد مسافة طويلة عن البحر. ولا تنتج هذه المنطقة كلّها نبيذاً جيّداً، لأنّ كلّ وعاء للنبيذ فيه من ماء البحر أكثر مما فيه من النبيذ؛ ويدعى هذا النبيذ ليبيّاً؛ ويستهلكه (كما يستهلك الجعة أيضاً) القسم الأعظم من شعب الإسكندرية؛ ويسخرون من الأنتيثيريين أكثر ما يسخرون بسبب هذا النبيذ الرديء. ثمّ تأتي ميناء ديريس[59] التي دعيت بهذا الاسم لأنّ صخرة سوداء تشبه جلد الحيوان تقع على مقربة منه؛ ويدعى المكان الذي يقع بجوارها زيفيروس. وتقع بعد ذلك ميناء أخرى تدعى لوكاسبيس[60]، ثمّ عدة موانئ أخرى؛ وبعدها كينوس- سيما[61]؛ ثمّ تأتي تابوسيريس التي لا تقع على البحر، وفيها تقام احتفالات شعبية كبيرة (هناك تابوسيريس أخرى على الجانب الآخر للإسكندرية، بعيداً عنها مسافة كبيرة). وعلى مقربة من تابوسيريس، عند البحر، يقع مكان صخري يجتمع فيه في كلّ وقت من أوقات السنة حشد من المتبطلين الذين لا يفعلون شيئاً سوى اللهو والمرح. ويأتي بعد ذلك بلينثينا، وقرية تدعى نيقيا، تليها قلعة كيرسونيس القريبة من الإسكندرية ومدينة الموتى، فهي لا تبعد عنهما أكثر من 70 مرحلة. وتتبسط بحيرة ماريبا[62]حتى كيرسونيس بعرض 150 مرحلة وطول أقلّ من 300 مرحلة. وفي البحيرة 8 جزر، وضواحيها كلّها مسكونة بأعداد كبيرة من الناس؛ ومحصول العنب في هذه المنطقة جيّد لدرجة أنهم يسكبون نبيذ مريوط في أوان حتّى يغدو معتّقاً.

15- وينمو البرديّ في مستنقعات مصر وعلى ضفاف بحيراتها، كما ينمو الفول

المصري (الذي يخرج منه الكيبوريوس)[63]؛ ولكلّ من هذين النباتين ساق يقارب ارتفاعها 10 أقدام. ولكنّ البرديّ عبارة عن ساق عارية في رأسها ضمّة من الأوراق، أمّا الفول فيعطي أوراقاً وزهوراً في مختلف أجزائه، كما يعطي ثمراً يشبه ثمار فولنا نحن، لكنّه يتميّز عنه بحجمه وطعمه. وحقول الفول هذه منظرها يبهج القلب وتمنح السعادة لمن يريد أن يولم هناك. ويولم المصريون في هذا المكان على قواربهم ذات القمرات، فيتوغلون في حقول الفول ويتفيّؤون ظلالها، لأنّ أوراق هذا النبات كبيرة إلى حدّ أنّهم يستخدمونها بدلاً من أواني الشرب والكؤوس؛ فلهذه الأوراق ما يشبه التجويفات المعدّة لمثل هذه الاستخدامات؛ وورش الإسكندرية مليئة فعلاً بهذه الأوراق التي يستخدمونها كأواني، وتشكل هذه الأوراق أحد مصادر الدخل بالنسبة للقرى. إن هذه هي مواصفات الفول المصري وخاصياته. أمّا فيما يخصّ البرديّ فإنه لا ينمو هنا بكميات كبيرة (لأنهم لا يزرعونه)؛ لكنّه في الأجزاء السفلى من الدلتا موجود بكثرة: أحد نوعيه رديء، والآخر الكهنوتي تحديداً جيّد. وقد لجأ هنا بعض من أراد أن يحسن دخله إلى الحيلة اليهودية التي ابتكرها اليهود واستخدموها في التعامل مع النخيل (خاصة شجرة الجوز)، وشجرة البلسم؛ فقد منع هؤلاء زراعة البرديّ في أماكن كثيرة، وبسبب النقص في وجوده، ارتفعت أسعاره، فارتفع بالتالي دخلهم من تجارته، مع أنّ هذا السلوك أدّى إلى إلحاق الأذى بالاستخدام العام لهذا النبات.

16- على الجانب اليميني، إذا خرجت من البوابات الكانوبية، تقع قناة تتّصل بالبحيرة وتؤدّي إلى كانوب؛ ولا يبحرون في هذه القناة إلى سخيديا فقط، إلى النهر الكبير، إنّما إلى كانوب أيضاً، ولكن إلى إيليفسين أوّلاً. وإيليفسين هذه هي قرية قرب الإسكندرية ونيكوبولبس وتقع على قناة كانوب مباشرة؛ وفيها تعريشات وأبراج تطلّ على مناظر خلّابة لمن يريد أن ينادم سواء من الرجال أو النساء؛ وتبدو هذه كأنها بداية نمط العيش «الكانوبي»[64]، والرعونة السائدة هناك. وما إن تجتاز مسافة قصيرة بعد إيليسفين حتّى تدنو من قناة على يمينك تقود إلى سخيديا. وتقع سخيديا على بعد 4 سخينات من الإسكندرية؛ وهي قرية مدينة فيها مرسى لقوارب ذات قمرات يبحر عليها الولاة إلى مصر العليا. وتقع في سخيديا أيضاً نقطة لجباية الرسوم المفروضة على البضائع الصاعدة والنازلة عبر النهر؛ ولهذا الغرض بني على النهر جسر عائم[65] أعطى هذا المكان اسمه. وبعد القناة التي تقود إلى سخيديا يتّجه الإبحار بعد ذلك إلى كانوب في موازاة ذلك الجزء من الخطّ الساحلي، الذي يمتدّ من

فاروس حتّى مصب كانوب؛ لأنّ حيّزاً من الأرض يمتدّ هنا شريطاً ضيّقاً بين البحر والقناة التي يقع عليها السابوسيريس الأصغر بعد نيكوبوليس، وكذلك زيفيروس، وهي رأس بحرية عليها معبد صغير لأفروديت وأبوللون، إن مدينة ثونيدا كانت تقع هنا، وقد دعيت المدينة باسم الملك الذي استقبل منيلايوس ويلينا على الرحب والسعة. وهذا في أقلّ تقدير ما يقوله عن عقاقير يلينا:

بسخاء وهبتها بوليدامنا، زوجة ثوون.

(الأوذيسا IV، 228)

17- إنّ كانوب هي مدينة تبعد عن الإسكندرية 120 مرحلة على الطريق البّرية، وقد دعيت باسم ربّان سفينة منيلايوس كانوب الذي مات هنا. وفي المدينة معبد لسرابيس محاط بقدر عظيم من التبجيل، فهو يصنع معجزات في المداواة جعلت حتّى كبار الشخصيات تؤمن بقدرته الشفائية، ويبيت هؤلاء فيه طلباً لمنفعة شخصية ما، أو يرغمون الآخرين على المبيت فيه. ويدوّن بعضهم حالات الشفاء التي حصلت، ويسجّل آخرون الكرامات السامية للمتنبّئين المحلّيين وجدارتهم التي لا ترقى إليها جدارة. لكنّ أوّل ما يثير الدهشة، هو منظر الحشود المهولة المبحرة نزولاً في القناة من الإسكندرية لتشارك في الاحتفال بالعيد الشعبي المشترك. فكلّ نهار وكلّ ليلة تجتمع حشود الشعب في القوارب، وتعزف على المزامير، والناي، وتدور في رقص مجنون لا ضابط لتهتكه، يشارك فيه الرجال والنساء معاً؛ ويشارك في حفل اللهو هذا سكّان كانوب أيضاً، الذين يملكون نزلاً على القناة ويديرونها بأنفسهم، وهذه النزل مؤهّلة خاصة للراحة وممارسة مثل هذا اللهو.

18- وبعد كانوب تقع هيراقليا وفيها معبد لهرقل، ثمّ يليها مصب كانوب، وبداية الدلتا. والأماكن الواقعة على الجانب الأيمن من قناة كانوب، هي نوم منيلايوس، الذي دعي باسمه هذا تيمناً باسم شقيق بطليموس الأوّل، بيد أنني أقسم بزيوس، أن التسمية لا علاقة لها باسم منيلايوس البطل، كما يزعم بعض الكتّاب، ومنهم أرتيميدور. وبعد مصب كانوب يأتي المصبّ البولبيتي، ثمّ السيبينّيتي، فالفاتنيتي، وهو الثالث من حيث الحجم مقارنة بالأوّل والثاني اللذين يشكلان حدود الدلتا؛ لأنه ليس بعيداً عن رأس المصبّ الفانتيني يخرج فرعان إلى الشطر الداخلي من الدلتا. ويجاور المصب الفنتيني المصبّ الميناديسي، ثمّ يأتي المصبّ التانيسي وأخيراً

المصبّ البيلوسي. وهناك مصبّات أخرى بين هذه المصبات، مصبات تبدو كأنها وهمية، لكنّها أقلّ أهمّية. وللمصبات مداخل للسفن، بيد أنها غير مؤهلة لاستقبال سفن الشحن، بل سفن الدعم، لأنها مصبّات ضحلة ومستنقعية. ومع ذلك كان مصب كانوب يستخدم ميناء أساساً عندما تكون أخوار الإسكندرية مغلقة، كما ذكرت من قبل[66]. وبعد المصبّ البولبيتي تأتي رأس بحرية منخفضة ورملية تبرز بعيداً في عرض البحر؛ وهي تدعى أنغو- كيراس[67]. ثمّ يليها برج الحراسة بيرسيوس وسور الميلتوسيين، لأنّ الميلتوسيين رسوا هنا في زمن بساميتيخ (وقد عاش هذا في زمن كياكسار الميدي) في 30 سفينة في المصبّ البولبيتي، وفور نزولهم إلى البرّ حصّنوا القرية المذكورة سابقاً بسور، لكنّهم مع مرور الوقت صعدوا مع النهر حتّى نوم سايس، وهزموا مدينة إينار في معركة بحرية وأسّسوا ناوكراتيس إلى الأعلى قليلاً من سخيديا. وبعد سور الميلتوسيين إذا تقدمت نحو المصبّ السيبينيتي، تقترب من بحيرات تدعى إحداها بوطية، نسبة إلى مدينة بوط، كما تدنو أيضاً من مدينتي سيبينيت وسايس؛ وهذه الأخيرة هي عاصمة البلاد السفلى؛ ويعبدون فيها أثينا؛ ففي معبد هذه الإلهة دفن بساميتيخ. وعند بوط تقع مدينة هيرموبوليس على جزيرة؛ وفي بوط موْحى للاتونا[68].

19- وفي عمق البلاد، إلى الأعلى من المصبّ السيبينيتي والفاتنيتي، تقع كسويس، وهي جزيرة ومدينة في نوم سيبينيت. وهنا تقع هيرموبوليس، وليكوبوليس، وميندیس، حيث يعبدون بان، ومن الحيوانات يعبدون التيس؛ وبحسب بينداروس أنّ النساء هنا تعاشر التيوس.

ميندیس التي عند الجرف البحري الشديد الانحدار،

قرن النيل الأقصى، حيث النساء

زوجات التيوس- تعاشرن التيوس

(*مقطع* 201، *بيويش*)

وعلى مقربة من ميندیس تقع أيضاً ديوسبوليس[69] وبحيراتها، وليونتوبوليس[70]؛ وعلى مسافة أبعد تقع مدينة بوسيريس في نوم بوسيريس، ومدينة كينوسبوليس[71]. وبحسب إيراتوسفين أنّ عادة طرد الغرباء سمة مشتركة بين البرابرة كلّهم، وكلّهم يتهم المصريين بهذه التهمة بسبب أساطير بوسيريس التي أُنشئت في نوم بوسيريس، لأن



كتّاب الأزمنة الحديثة أرادوا أن يوجّهوا إلى [سكّان] هذا المكان تهمه كاذبة تقول، إنهم بخلاء لا يطيقون الضيوف؛ مع أنني أقسم بزيوس، أنه لم يكن هناك في يوم من الأيام ملك أو تيران يدعى بوسيريس؛ ويقول أيضاً، إنهم يقتبسون دائماً قول الشاعر:

أأعود إلى مصر ثانية وأقطع كلّ تلك الطريق الطويلة المضنية.

(*الأوذيسا* IV، 483)

وقد ساهم مساهمة كبيرة في ظهور هذا الرأي وشيوعه نقص المرافئ في مصر، وكذلك حقيقة أنّ الميناء الموجودة عند فاروس، لم يكن دخولها متاحاً؛ لأنّ الرعاة قطّاع الطرق كانوا يحرسونها، ويهاجمون السفن التي كانت ترمي مراسيها هناك؛ ويضيف إيراتوسفين قائلاً، إنّ القرطاجيين كانوا يغرقون في البحر كلّ سفن الغرباء الذين كانوا يبحرون على مقربة من بلادهم نحو سردينيا أو أعمدة هرقل، وعليه فإن العدد الأكبر من القصص التي تروى عن البلاد الغربية لا تستحقّ أن يركن إليها؛ كما يقول أيضاً، إنّ الفرس كانوا يغدرون بالسفارات فيقودونها في طرقات جانبية تمتدّ في أماكن وعرة مسالكها صعبة.

20- ويجاور هذا النوم النوم الأثريبيسي، ومدينة أثريبيس، وكذلك نوم بروسوبيت، حيث تقع مدينة أفروديت. وتقع فوق المصبّ المينديسي والمصبّ التانيسي بحيرة كبيرة، ويقع هناك أيضاً نوم ميندیس ونوم ليونتوبوليس، ومدينة أفروديت، ونوم ثاريبيس؛ ثمّ يأتي مصبّ تانيس الذي يدعوه آخرون سايس؛ وتقع عليه مدينة كبيرة هي مدينة تانيس.

21- وبين المصبّ التانيسي والمصبّ البيلوسي تقع بحيرة وتمتدّ من غير انقطاع مستنقعات كبيرة، وينتشر كثير من القرى. وحول بيلوسي نفسها تقع مستنقعات تدعى الآن الباراثرات[72]، والسبخات القذرة؛ وتقع القرية على بعد أكثر من 20 مرحلة عن البحر، ويبلغ امتداد محيط سورها 20 مرحلة؛ وقد أخذت هذه القرية اسمها من Pelos[73]، والسبخات القذرة. ومصر هنا أيضاً عصيّة وعرة، كما هي الحال من جهة مناطقها الشرقية القريبة من فينيقيا واليهودية، وكذلك من جهة العربية النبطية التي لها حدود مباشرة مع مصر؛ وثمّة طريق إلى مصر تمتدّ عبر هذه المناطق. والبلاد التي بين النيل والخليج العربي، هي العربية؛ وعلى أطرافها تقع بيلوسي، لكنّها كلّها خالية من السكّان ومسالكها وعرة عصية على الجيوش. ويمتدّ البرزخ الذي بين بيلوسي

والقسم الداخلي من الخليج عند هيرونبوليس[74] 1000 مرحلة، لكنّ بوسيدونيوس يرى أنه يمتدّ أقلّ من 1500 مرحلة؛ أضف إلى ذلك أنّ البرزخ خال من المياه وتغطيه الرمال، وتعيش هنا كثرة من الزواحف التي تختبئ بين الرمال.

22- إذا أبحرت من سخيديا إلى ممفيس، فسوف ترى على الجهة اليمنى كثيراً من القرى التي تمتدّ حتّى بحيرة مارييا، وبينها القرية التي تدعى حبريا؛ أمّا على النهر فتقع هرموبوليس؛ ثمّ تأتي هينيكوبوليس[75]، ونوم هينيكوبوليس، يلي ذلك على التوالي موميفيس، ونوم مومفيس؛ وفي الحيّز الفاصل يمتدّ عدد من القنوات التي تقود إلى مريوط. ويعبد سكّان مومفيس أفروديت؛ ويقيمون هنا بقرة مقدّسة، على غرار ما هو حاصل في ممفيس إذ يقيمون فيها أبيس، وفي هليوبوليس مينيفيس. وتعدّ هذه الحيوانات هنا آلهة، ولا تعدّ الأخرى في أماكن أخرى آلهة (ففي كثير من الأماكن الأخرى، سواء في الدلتا أو خارجها يعتنون بثور أو بقرة)، مع أنها تعدّ مقدّسة.

23- وتقع إلى الأعلى من مومفيس بحيرتان قلويّتان تحتويان على نسبة عالية جدّاً من القلويات، ويقع هنا أيضاً نوم نيترويس. ويعبد السكّان هنا سارابيس، وسكّان هذه المنطقة وحدهم خلافاً لكلّ سكّان مصر، يقدّمون الشاة ذبيحة. وفي هذا النوم، وعلى مقربة تقع مدينة منيلايوس؛ وفي الدلتا على الجهة اليسرى، تقع ناوكراتيس على النهر، بينما تقع سايس على بعد سخينين عن النهر. وإلى الأعلى قليلاً من سايس يقع حرم أوزيريس، الذي دفن فيه كما يقولون، جثمان أوزيريس؛ لكنّ كثيرين يجادلون في هذا، خاصة سكّان فيلاّ التي فوق سيينا وإليفانتين؛ لأنهم يروون قصة أسطورية تقول، إنّ إيزيس حفرت قبوراً لأوزيريس في كثير من الأماكن (لكن جثمان أوزيريس مدفون في واحد منها فقط، ولا أحد يعرفه)؛ وقد فعلت إيزيس ذلك لتخفي الجثمان عن تيفون خوفاً من أن يأتي ويرميه خارج القبر.

24- هذا هو وصف البلاد من الإسكندرية حتّى رأس الدلتا. وبحسب أرتيميدور إنّ الإبحار صعوداً في النهر يشغل 28 سخيناً، أي 840 مرحلة، عادّاً أن السخين الواحد يساوي 30 مرحلة. وحينما أبحرت أنا بنفسي في نهر النيل، حدّدوا المسافة لي باستخدام مقاييس للسخين تختلف باختلاف الزمن، حتّى أنهم اعتمدوا قياساً يساوي فيه السخين الواحد 40 مرحلة أو أكثر، تبعاً للمكان. وفي خبره الذي تلا هذا الخبر، يقول أرتيميدور بوضوح، إن قياس السخين غير محدّد لدى المصريين، فمن ممفيس حتّى منطقة طيبة، كلّ سخين واحد يساوي 120 مرحلة، ومن منطقة

طيبة حتّى سيينا يساوي السخين نفسه 60 مرحلة؛ وإذا أبحرت من بيلوسي إلى رأس الدلتا هذه عينها فإن المسافة، كما يقول أرتيميدور 25 سخيناً، أي 750 مرحلة، إذا استخدمنا ذلك القياس عينه للسخين. والقناة الأولى، على حدّ قوله، إذا انطلقت من بيلوسي إلى الأمام، هي القناة عينها التي تملأ ما يسمّى البحيرات المستنقعية؛ وعدد هذه الأخيرة اثنتان واقعتان على يسار النهر الكبير فوق بيلوسي في العربية؛ ويتحدّث أرتيميدور عن بحيرات وقنوات أخرى في تلك المناطق نفسها، لكنّها موجودة خارج الدلتا. وثمّة قرب البحيرة الثانية نوم يدعى سيفرويت؛ ويرى أرتيميدور فيه واحداً من النومات العشرة الواقعة في الدلتا؛ وتصبّ في هذه المستنقعات نفسها قناتان أخريان.

25- وتوجد قناة أخرى تصبّ في البحر الأحمر وفي الخليج العربي قرب مدينة أرسينويا التي يسمّيها آخرون كليوباتريدا. وتجري هذه القناة عبر البحيرات التي تسمّى البحيرات المرّة التي كانت من قبل مرّة بالفعل، ولكنّ عندما شقّت القناة المذكورة تغيّر تركيب المياه فيها بسبب اختلاط مياه النهر فيها؛ وهي مليئة الآن بالأسماك والطيور المائية. وكان سيسوستريس قد حفر القناة في أوّل الأمر قبل حرب طروادا؛ ولكنّ بعضهم يزعم أن الذي قام بهذا العمل، هو ابن بساميتيخ[76]، الذي لم يكد يبدأ العمل فيها حتّى توفّي؛ وفيما بعد باشر العمل في شقّ القناة من جديد داريوس الأوّل الذي ورث مهمّة إنجاز هذا العمل. ولكنّه أوقف العمل الذي كان قد بلغ نهايته تقريباً، وقد دفعه إلى ذلك تصوّر خاطئ تماماً، إذ أقنعوه بأن مستوى البحر الأحمر أعلى من مصر، وإذا ما حفر البرزخ كلّه فإنّ البحر سيغرق مصر كلّها. ومع ذلك أنجز ملوك السلالة البطلمية[77] حفر البرزخ وجعلوا المضيق بمعبر مغلق، بحيث كان يمكن الإبحار حسب الرغبة ومن غير عائق إلى عرض البحر الخارجي والعودة إلى نقطة الانطلاق. وأنا كنت قد تحدّثت في الكتب الأولى من عملي هذا[78] عن مستوى مياه البحار.

26- وغير بعيد عن أرسينويا تقع هيرونبوليس وكليوباتريدا (في عمق الخليج العربي نحو مصر)، ثمّ تأتي موانئ وقرى، وعلى مقربة عدد من القنوات والبحيرات. ويقع هنا نوم فاغروريوبوليس ومدينة فاغروريوبوليس. وكانت بداية القناة التي تصبّ في البحر الأحمر تقع عند قرية فاكوسا التي تجاورها قرية فيلون. وعرض هذه القناة 100 ذراع، وعمقها كاف لسفن شحن كبيرة جدّاً، وهذه الأماكن تقع قرب رأس الدلتا.

27- كما يقع هنا نوم بوباست ومدينة بوباست؛ وإلى الأعلى من هذا النوم يقع نوم هليوبوليس. وتقع هليوبوليس في هذا النوم فوق هضبة عالية، وفيها معبد هليوس والثور منيفيس الذي يضعونه هنا في مكان مقدّس داخل سياج؛ ويعبدونه هناك بصفته إلهاً، مثله مثل أبيس في ممفيس. وتقع أمام الهضبة بحيرة تملؤها مياه القناة المجاورة. ولكنّ المدينة خالية الآن تماماً؛ فيها معبد قديم مبنيّ بأسلوب العمارة المصري، ويحافظ على كثير من شواهد جنون قمبيز واعتداءاته على المقدّسات، فقد أطعم بعض المعابد للنار، وأعمل السيف والحديد في الأخرى فهدمها، وأحرق المسلاّت من جميع جوانبها. وكانت هناك مسلّتان نجتا جزئياً من عربدة قمبيز، فنقلتا إلى روما، أمّا المسلاّت الأخرى فهي تقوم في المكان أو في طيبة، وهي ديوسبول الآن، ولا يزال بعض هذه المسلاّت يقف محترقاً من جميع جوانبه، وبعضها الآخر ملقى على الأرض.

28- إنّ مخطط بناء المعابد المصرية، هو الآتي: عند مدخل الحرم المقدّس أرضية مرصوفة بالحجارة عرضها حوالي بليفر واحد أو أقلّ، وطولها ثلاثة أو أربعة أضعاف عرضها، وأحياناً أكثر؛ وهي تدعى «دروموس»[79]، على حدّ قول كاليماخ:

إنه دروموس أنوبيس المقدّس.

وعلى امتداد الطول كلّه يقف نسقان من السفينكسات الحجرية، نسق على الجانب اليميني، ونسق على الجانب اليساري، والمسافة بين كلّ سفينكس وآخر 20 ذراعاً أو أكثر بقليل. ويلي السفينكسات مدخل كبير[80]، ثمّ إذا ما تقدّمت إلى الأمام، مدخل آخر، يليه ثالث؛ ولكنّ عدد المداخل والسفينكسات ليس محدّداً بدقّة: يختلف من معبد لآخر، مثله مثل طول الدروموس وعرضه. وبعد المدخل نصل إلى المعبد نفسه وبروناوسه[81] الكبير الرائع والحرم الذي يتناسب معه من حيث الحجم، بيد أنه لا يوجد فيه أيّ تمثال من التماثيل التي تشبه البشر في أقلّ تقدير، ولا يوجد هناك سوى تمثال لحيوان ما لا يقبله العقل. وعلى جانبي البروناوس يبرز إلى الأمام شكلان يدعونهما جناحين. وهذان عبارة عن جدارين ارتفاعهما واحد ومعهما معبد، وهما متباعد واحدهما عن الآخر في البداية مسافة أكبر بقليل من عرض قاعدة المعبد، وإذا تقدّمت بعد ذلك في الاتجاهات نفسها فإن المسافة ستكون 50 أو 60 ذراعاً؛ ويحتوي هذان الجداران على أشكال تماثيل كبيرة تشبه التماثيل التيرينية[82] والأعمال الفنية الإغريقية القديمة جدّاً. ويوجد هنا أيضاً ما يشبه منشأة أعمدتها كثيرة (كما في

ممفيس مثلاً) بنيت بذوق بربري، لأنه عدا عن أن الأعمدة عظيمة وكثيرة وتنتصب في كثير من الأنساق، فإن البناء يخلو من أيّ جاذبية جمالية كانت، ويبدو كأنه بني خبط عشواء.

29- وقد رأيت في هليوبوليس منازل كبيرة كان يعيش فيها كهنة، فالروايات تقول، إنّ هذه المدينة كانت في الأزمنة القديمة حيّ الكهنة الذين كانوا يشتغلون بالفلسفة وعلم الفلك، لكنّ هذه الأخوية اندثرت الآن، وأعمالها توقّفت. وأنا فعلاً لم أجد في هليوبوليس أيّ مشرف يقود مثل هذه الأعمال، وليس ثمّة سوى الكهنة الذين يقيمون طقوس تقديم الذبائح ويشرحون للغرباء مغزى الطقوس المقدّسة. وفي أثناء الجولة التي قام بها الوالي الروماني إيلوس غاللوس في مصر العليا، رافقه شخص إسكندريّ يدعى هيريمون كان يدّعي معرفة هذا النوع من الأشياء، بيد أنه كان مثار سخرية بصفته دعيّاً جاهلاً وحسب. بيد أنهم أرونا في هليوبوليس منازل الكهنة ومدرستيّ أفلاطون وإيفدوكس؛ وكان إيفدوكس قد جاء إلى هنا هو وأفلاطون، وبحسب بعض الكتّاب إنهما أقاما هنا 13 عاماً[83] مع الكهنة. والحقيقة أنّ هؤلاء الكهنة كانوا يتوفرون على مخزون كبير من المعلومات عن الظاهرات الفلكية، بيد أنّ هؤلاء كانوا أناساً كتومين وغير ميّالين لنقل معلوماتهم للآخرين، ولذلك مع مرور الوقت فقط استطاع أفلاطون وإيفدوكس أن يكسبا ودّ الكهنة وإقناعهم بأن ينقلوا إليهما بعض الموضوعات الأساسية في تعاليمهم؛ ومع ذلك أخفى البرابرة الجزء الأكبر من معارفهم. ولكنّ هؤلاء الناس علّموا أفلاطون وإيفدوكس اعتماد النهار والليل اللذين يجمعان أكثر من 365 يوماً ويملآن زمن العام «الفعلي»[84]. ولكنّ الإغريق لم يكونوا عندئذٍ على علم بالعام الحقيقي، كما لم يكونوا على معرفة بأشياء أخرى كثيرة، إلى أن تعلّمها فلكيو الأزمنة الحديثة على أيدي الذين ترجموا مدوّنات الكهنة المصريين إلى اللغة الإغريقية؛ ولا يزالون حتّى الآن يدرسون ابتكارات الكهنة المصريين، وكذلك ابتكارات الكلدانيين.

30- ومن هليوبوليس يبدأ النيل فوق الدلتا. وإذا أبحرت صعوداً مع النيل، فإن المناطق الواقعة على يمين الدلتا تدعى ليبيا، ومثلها أيضاً المناطق القريبة من الإسكندرية وبحيرة مريوط، بينما تدعى المناطق التي في الجانب الأيسر، العربية. وعلى هذا النحو فإن هليوبوليس تقع في العربية، بينما تقع مدينة كيركيسورا الواقعة على مقربة من مرصد إيفدوكس في ليبيا؛ وأمام هليوبوليس يرونك شيئاً ما يشبه برج

الحراسة (كالذي أمام كنيدس)، اتخذه إيفدوكس نقطة أجرى رصده لحركة بعض الأجرام السماوية بالنسبة إليها. وهذا النوم هو نوم ليتوبوليس. وإذا أبحرت صعوداً مع النهر أبعد إلى الأمام، فإنك تصل إلى بابل، وهو حصن منيع قويّ أعلنت فيه مجموعة ما من البابليين عصياناً، وانتزعوا من الملوك موافقة على بناء مستعمرة؛ وهذه المستعمرة هي الآن معسكر لواحد من الأفواج الثلاثة التي تحرس مصر. وتمتدّ من المعسكر حتّى نهر النيل سلسلة جبلية يرفعون عبرها الماء من النهر[85] مستخدمين عجلات غرف ومضخات لولبية؛ ويعمل هنا في [هذا] العمل 150 أسيراً مقيّدين بالأغلال. وتظهر الأهرامات[86] من هذا المكان بوضوح على الضفّة الأخرى لنهر النيل عند ممفيس التي تقع على مقربة منها.

31- وغير بعيد من هنا تقع ممفيس، مقرّ الملوك المصريين، لأنّ المسافة من الدلتا إليها 3 سخينات فقط. وفي ممفيس معابد، وقبل كلّ شيء معبد أبيس الذي يُدغم باوزيريس؛ فهنا يقيم الثور أبيس في أحد المعابد المقدّسة، وكانوا يعبدونه بصفته إلهاً، كما كنت قد قلت؛ وعلى مقدّمة رأسه وبعض أجزاء جسده الأخرى علامات بيضاء، أمّا باقي أجزاء جسده فهي سوداء اللون؛ فوفق هذه العلامات كانوا دائماً يختارون الثور المناسب لخلافة الثور الراحل. وأمام الحرم فناء فيه حرم آخر تقيم فيه والدة الثور المعبود. وإلى هذا الفناء يطلقون الثور في ساعة محدّدة ليعرض أمام الغرباء خاصة؛ ومع أنّ رؤيته ممكنة عبر النافذة، إلاّ أنهم يفضّلون عرضه في الخارج. وبعد أن يتحرّك الثور في المكان قليلاً، يعيدونه إلى مربط خاص. وعلى هذا النحو يقع هنا معبد أبيس، على مقربة من الهيفيستوس الذي يعدّ هو نفسه منشأة بديعة، إن من حيث حجم المعبد، أو من حيث الوجوه الأخرى. وأمام المعبد في الدروموس يقف تمثال مهول نحت من كتلة حجرية واحدة؛ وقد شاعت عندهم عادة إقامة عروض قتال الثيران على أرض هذا الدروموس، وكانت الثيران التي تشارك في هذه العروض تربّى لهذا الغرض تحديداً؛ مثلها في هذا مثل الخيل التي تربّى لأغراض معيّنة؛ فقد كان الثور الذي يطلق من رباطه يندفع إلى القتال من فوره، والذي يفوز يمنح مكافأة. وفي ممفيس معبد لأفروديت أيضاً، ويعدّ المصريون هذه الإلهة إلهة إغريقية، لكنّ بعضهم يزعم أن هذا المعبد هو معبد سيلينا.

32- ويوجد في ممفيس سارابيوم أيضاً، وهو يقع في مكان كثير الرمال إلى حدّ أنّ الرياح تشكّل هناك هضاباً. والسفينكسات التي رأيتها هناك كانت الرمال

تغطي بعضها حتّى الرأس وبعضها الآخر حتّى الوسط؛ ويستدلّ من هذا على الخطر الشديد الذي يتهدد عابر السبيل إذا ما أدركته العاصفة الرملية هناك وهو في طريقة إلى المعبد. ومدينة ممفيس مدينة كبيرة فيها كثافة سكّانية عالية، وهي تشغل المكانة الثانية بعد الإسكندرية بسكّانها الذين ينتمون إلى خليط من الأعراق، مثلهم في هذا مثل الذين يعيشون في الإسكندرية. وثمّة بحيرة هناك تنبسط أمام المدينة والقصور التي ترقد الآن أطلالاً خاوية؛ وكانت هذه قد شيّدت على مرتفع وتصل إلى القاعدة السفلية للمدينة؛ وتجاور المدينة حديقة وبحيرة.

33- وإذ نبتعد عن المدينة 40 مرحلة نصل إلى نجد جبلي يقوم فوقه كثير من الأهرامات - مقابر الملوك؛ ويشتهر منها خاصة الهرمان 3 و 2 اللذان يعدّان من عجائب الدنيا السبع، فارتفاعهما يبلغ المرحلة، وشكلهما مربّع، أمّا ارتفاعهما فأكبر قليلاً من طول كلّ ضلع؛ ولكنّ أحدهما[87] أكبر قليلاً من الآخر[88]. وثمّة في الأعلى، تقريباً في الوسط بين الأضلاع، يقوم حجر يمكن انتزاعه؛ وإذا ما رفعت هذا الحجر تجد معبراً حلزونياً يؤدّي إلى المقبرة. وتقع هذه الأهرامات واحدها قرب الآخر على مستوى واحد تقريباً؛ ولكن إلى الأبعد قليلاً يقع الهرم الثالث على أعلى علوّ في هذا النجد الجبلي، بيد أنه أصغر بكثير من الهرمين الأولين، مع أنهم استخدموا لبنائه موارد أكثر بكثير، لأنه مبني من أساسه حتّى منتصفه تقريباً بالحجر الأسود الذي يصنعون منه الأجران، وقد أتوا به من بعيد، من جبال إثيوبيا؛ ولأنه حجر صلب وتصنيعه صعب، كانت كلفة البناء عالية جداً. ويدعى هذا الهرم «ضريح العشيقة»؛ فقد بناه عشاق هذه البغي التي تدعوها سابفو[89]، الشاعرة الماجنة باسم دوريخا عشيقة أخيها كاراكاس الذي كان ينقل نبيذ ليسبوس ليبيعه في ناوكراتيس[90]؛ بيد أنّ آخرون يدعونها باسم رودوبيس[91]. ويروون قصّة مثيولوجية تقول، إنه بينما كانت رودوبيس تغتسل انقض صقر واختطف فردة حذائها من بين يديّ خادمتها وحملها إلى ممفيس؛ وفي الوقت الذي كان الملك يعقد فيه محكمته ويقضي بين الناس في الهواء الطلق، حلّق الصقر فوق رأسه ورمى بفردة الحذاء على ركبتيه. فذهل الملك لروعة فردة الحذاء وغرابة الحدث وأرسل أناساً في الاتجاهات كلّها بحثاً عن المرأة صاحبة فردة الحذاء هذه. وعندما عثروا عليها في ناوكراتيس وجاؤوا بها إلى ممفيس، غدت زوجة للملك؛ وبعد وفاتها استحقت الملكة أن تدفن في الضريح المذكور.

34- ونحن ينبغي علينا ألاّ نغفل واحدة من الظاهرات المدهشة التي قدّر لي أن

ألاحظها بأمّ العين عند الإهرامات: أمام الأهرامات عدد من كومات الكسرات الحجرية؛ بينها كسرات تشبه العدس من حيث الشكل والحجم؛ وفي بعض الكومات شيءٌ ما يشبه البذور التي تبدو كأنها نصف مقشورة. ويقال، إنّ هذه بقايا متحجّرة من طعام العمال، ولا أظنّ أن هذا الزعم يفتقر إلى المشروعية. ففي وطني[92] هضبة متطاولة الشكل تقع في سهل من السهول؛ وهذه الهضبة مليئة بالحصى المسامية التي تشبه حبوب العدس؛ والحصى البحرية منها والنهرية تمثل صعوبة لدى محاولة تفسير منشئها، ففي الوقت الذي يمكن فيه أن نفسّر منشأ هذه الأخيرة بالحركة التي تنتج عن جريان مياه النهر، إلاّ أن تفسير منشأ الظاهرة الثانية يمثّل صعوبة حقيقية. وأنا كنت قد أشرت في مكان آخر[93]، إلى أنه غير بعيد عن مقالع الحجارة التي بنيت الأهرامات من حجارتها، وهي تقع على الجانب الآخر من النهر قبالة الأهرامات، في العربية، يقع جبل صخري يدعى «الطروادي»؛ وتقع عند سفح هذا الجبل كهوف وقرية تدعى طروادا (قرب هذه الكهوف)؛ وهذه القرية هي مستوطنة الأسرى الطرواديين الذين رافقوا منيلايوس، لكنّهم استقرّوا هناك[94].

35- وبعد ممفيس تقع مدينة أكانثوس الواقعة في ليبيا أيضاً، يليها حرم أوزيريس ودغل أكانثوس[95] الطيبي الذي يستخرجون منه الصمغ[96]. ثمّ يأتي نوم أفروديتوبوليس، فمدينة في العربية تحمل الاسم عينه، وهنا في هذه المدينة مقرّ لبقرة بيضاء مقدّسة يعتنون بها. ويأتي بعد ذلك نوم هيراقليا الواقع على جزيرة كبيرة، حيث على الجانب اليميني تمتدّ قناة تقود إلى نوم أرسينويا في ليبيا، وبذلك يكون لهذه القناة مصبّان يقع بينهما شطر من الجزيرة. ويعدّ هذا النوم الأفضل بين النومات الأخرى كلّها من حيث منظره وخصوبته، كما من حيث نوعية حراثة الأرض، فهو وحده المزروع بشجر الزيتون، وشجره كبير وناضج ويعطي ثمراً ممتازاً، ينتج بدوره زيتاً جيّداً إذا ما جمع المحصول بحرص. ولكن بما أن السكّان يستهترون بهذا (والحقيقة أنهم ينتجون كميات كبيرة من الزيت)، لذلك تفوح من زيتهم رائحة خبيثة (لا وجود لشجر الزيتون في باقي أنحاء مصر، ما عدا ما يزرعونه منها في البساتين الواقعة في ضواحي الإسكندرية، وأشجار تلك البساتين كبيرة بما يكفي لتعطي ثمراً، لكنّه لا يعطي زيتاً). كما ينتج هذا النوم كميّة كبيرة من النبيذ، والأقماح، والبقول، وكثيراً من المحاصيل الزراعية الأخرى. وتقع فيه بحيرة مدهشة تدعى بحيرة ميريدا، اتساعها كاتساع البحر المفتوح، ولون مياهها كلون مياهه؛ وشكل شواطئها كشكل

شواطئه، وعليه يمكن أن نستخلص الافتراض نفسه بخصوص هذه المنطقة والمنطقة الواقعة عند معبد آمون (والحقيقة أن آمون ونوم هيراقليا لا يبعد واحدهما عن الآخر، وعن باريتونيوس مسافة كبيرة)؛ فهذا المعبد، كما تشير كثير من المؤشرات، كان يقع في الأزمنة الماضية على البحر، كما كانت هذه المنطقة بدورها منطقة ساحلية أيضاً. لقد كانت مصر السفلى والمنطقة التي تمتدّ حتّى بحيرة سيربونيدس بحراً، وربّما بحراً متصلاً مع البحر الأحمر عند هيرونوبوليس وخليج إيلانا.

36- وأنا كنت قد تحدّثت بالتفصيل عن هذه المادّة في الكتاب الأوّل من «جغرافيتي»[97]، ولكن ينبغي عليّ أن أعود الآن لأذكّر ثانية باختصار بما فعلته الطبيعة وما فعلته العناية الإلهية في الوقت نفسه، لأنهما تفضيان إلى هدف واحد. ويتلخص ما فعلته الطبيعة في أنّ كلّ شيء يسعى إلى نقطة واحدة، هي مركز كلّ شيء، ليشكل حولها كرة؛ والجسم الأكثر كثافة ومركزية، هو الأرض؛ يليها الماء، أقلّ كثافة؛ وهذه وتلك عبارة عن كرة؛ الكرة الأولى كثيفة، والأخيرة فارغة لأنها تحتوي الأرض في داخلها. أمّا عمل العناية الإلهية فيتلخص في كونها شيئاً ما يشبه المزخرف الذي يزخرف الأشياء، وخالق مخلوقات لا عدّ لها، فقد قررت أن تصنع أوّل ما تصنع من مخلوقاتها، الكائنات الحيّة التي تتفوّق كثيراً على كلّ ما عداها، والأكثر جبروتاً بين هذه الأخيرة هم الآلهة والناس الذين من أجلهم صنع كلّ شيء آخر. وعلى هذا النحو كرّست العناية الإلهية السماء للآلهة، والأرض للناس، والسماء والأرض هما أقصى طرفي جزأيّ الكون، لأنّ أقصى نقطتي الكرة، هما المركز والسطح[98]. ولكن بما أنّ المياه تحيط بالأرض والإنسان الذي يعدّ حيواناً غير مائي، بل حيواناً يعيش على اليابسة، ويحتاج الهواء وكثيراً من الضوء، فقد صنعت العناية الإلهية على الأرض كثيراً من المرتفعات والمنخفضات، وتحتوي هذه الأخيرة المياه كلّها أو الجزء الأعظم منها الذي يخفي الأرض تحته؛ بينما تبرز الأرض في الأولى وتخفي المياه تحتها، ما عدا الكمّ الذي يحتاجه الجنس البشري والحيوانات والنباتات التي تحيط به. ولكن بما أنّ الأشياء كلّها في حال حركة وتطرأُ عليها تغيّرات دائمة (وإلاّ لاستحال توجيه ذلك النوع من الأشياء في الكون، الكثيرة العدد والمهولة الحجم)، وهذا ما يبيح أوّلاً، ألاّ تبقى الأرض على هذا الشكل إلى الأبد، محافظة على أبعادها هذه أو تلك من غير أن تضيف أيّ شيء إلى حجمها أو لا تتقلّص؛ ثانياً، وهذا ينسحب على المياه أيضاً؛ ثالثاً، ألاّ تستقرّ هذه ولا تلك في مكان محدّد بعينه، لاسيما أنّ تحوّل

واحدتهما إلى الأخرى والعكس يحصل بأكثر الأشكال طبيعية وببساطة شديدة؛ ولكن على النحو الذي يتحوّل فيه كثير من الأرض إلى ماء، كذلك يتحوّل كمّ كبير من الماء إلى يابسة بالطريقة عينها، كما يحصل على الأرض التي تتعرّض لكثير من التغيّرات؛ لأنّ هناك أرضاً رخوة، وأرضاً صلبة أو صخرية، أو تحتوي على فلزات الحديد، وما إلى ذلك. والأمر نفسه ينسحب على خاصيات السوائل: هذا مالح، والآخر عذب وصالح للشرب والثالث يحتوي على عقاقير، منها ما يشفي ومنها ما يميت، والرابع حارّ أو بارد. وعليه ما الغرابة إذا ما كانت بعض أجزاء الأرض المسكونة الآن مغمورة بالبحر في أزمنة مضت، أو ما إذا كانت بحار اليوم مسكونة في أزمنة خلت؟ وعلى هذا الغرار حصل أن جفّت ينابيع بعد أن كانت تهدر بالماء، وانبجست أخرى لم يكن لها قبل ذلك وجود على سطح الأرض، وهذا نفسه حصل لأنهار وبحيرات؛ وعلى هذا النحو عينه تحوّلت جبال إلى سهول وسهول إلى جبال. وأنا كنت قد عالجت هذا الموضوع بالتفصيل من قبل[99]، وما قيل فيه الآن يكفي.

37- وعلى أيّ حال فإن بحيرة ميريدا تستطيع بفضل اتساعها وعمقها أن تتحمّل فيضان النيل في مواسمه من غير أن تغمر الأماكن السكنية والمزروعات؛ ولدى انخفاض مستوى الماء في النهر، تعيد له الفائض عبر القناة نفسها عند كلّ مصبّ من مصبّيه، فالبحيرة نفسها والقناة قادرتان على حفظ الباقي من الماء لاستخدامه في الريّ. وبصرف النظر عن تسمية هذه الظاهرات بنشاط الطبيعة، إلاّ أنّ عيون خزانات تقع عند كلّ مصبّ من مصبّي القناة بمساعدتها يقيس الميكانيكيون[100] نقص المياه وزيادتها. وإضافة إلى ذلك ثمّة في هذا النوم لابيرينتيوم، وهي منشأة يمكن مقارنتها بالأهرامات، وإلى جانبها ضريح الملك الذي بنى اللابيرينتيوم[101]. وعند مدخل القناة الأولى، إذا ما تقدّمت 30 أو 40 مرحلة إلى الأمام، تصل إلى مكان منبسط له شكل المعيّن تقع فيه قرية وقصر كبير يتألّف من كثير من الحجر التي يساوي عددها عدد النومات التي كانت في مصر قديماً[102]؛ لأنّ هناك كثيراً من القاعات التي تحيط بها أعمدة يجاور واحدها الآخر مباشرة؛ وتتوضّع هذه الأعمدة كلّها في صف واحد على طول جدار واحد يساوي طوله طول الجدار والقاعات التي أمامه؛ وتقع الطرقات التي تقود إلى القصر قبالة الجدار مباشرة. ويقع أمام مداخل القاعات كثير من القناطر الطويلة المغلقة التي تمتدّ بينها طرقات متعرّجة، ولذلك فإن أيّ غريب سيعجز عن إيجاد طريقه إلى المخرج هنا من غير دليل. وما يثير الدهشة أنّ سقف كلّ مخدع هنا يتألّف

من حجر واحد عظيم الحجم، ولا وجود فيه لأيّ أخشاب أو أيّ مادّة أخرى. وإذ تصعد إلى سقف علوّه غير كبير، لأنّ اللابيرينتيوم يتألّف من طابق واحد، يمكنك أن ترى سهلاً صخرياً يتكوّن من صخور بالحجم الكبير نفسه؛ وإذا ما هبطت من هنا مرّة أخرى إلى القاعات يمكنك أن تلاحظ أنها تتوضّع في نسق وتستقرّ على 27 عموداً؛ وجدرانها مبنية بدورها من حجارة ليست أقلّ حجماً. وفي آخر هذا البناء الذي يشغل حيّزاً يتعدّى المرحلة، يقع ضريح هو عبارة عن هرم مربّع كلّ ضلع من أضلاعه عرضها بليفر واحد، وارتفاع الأضلاع الأربع متساو. واسم المدفون هناك إيماندس[103]. ويقال، إنّ بناء هذا العدد الكبير من القاعات اقتضاه تقليد كان يقضي باجتماع النومات كلّها هنا بحسب أهمية كلّ منها مع كهنته وكاهناته لإقامة طقوس تقديم الذبائح، والتقدمات للآلهة، والبتّ في الدعاوى المتعلّقة بأهمّ المسائل. وقد كرّست لكلّ نوم قاعة خاصة به.

38- وإذا ما أبحرنا بالقرب من هذا البناء، فستلقانا على بعد مئة مرحلة مدينة أرسينويا. وكانت هذه المدينة تدعى من قبل مدينة التمساح. فعبادة التمساح كانت متطوّرة كثيراً هنا؛ ولديهم حيوان مقدّس واحد من هذه الحيوانات، يروّضونه ويضعونه على حدة في بحيرة. ويدعى هذا التمساح عندهم سوخ. ويطعمونه الخبز، واللحم، ويسقونه النبيذ؛ ويأتي الغرباء بهذه المأكولات دائماً معهم عندما يحضرون إلى هنا ليتأمّلوا هذا الحيوان المقدّس. لقد كان مضيفنا واحداً من كبار الموظفين، وهو الذي كرّسنا هناك في المسرحية الدينية، إذ جاء معنا إلى البحيرة حاملاً معه رغيفاً وقطعة لحم مشوية ودورقاً من النبيذ المخلوط بالعسل. ولمّا وصلنا وجدنا التمساح مستلقياً على شاطئ البحيرة. وحينما دنا الكهنة من الحيوان، فتح أحدهم شدقه ودسّ الآخر الرغيف هناك، ثمّ اتبع الرغيف باللحمة، وبعد ذلك سكب خليط النبيذ والعسل. وعندئذٍ قفز الحيوان في البحيرة وسبح إلى الشاطئ الآخر. ولكن حينما اقترب غريب آخر، وكان يحمل معه أيضاً تقدمة من بواكير الغلال، أخذ الكهنة التقدمات منه؛ واتّجهوا جرياً حول البحيرة، ولمّا وجدوا التمساح، قدّموا له التقدمات بالطريقة نفسها.

39- بعد نوم أرسينويا ونوم هيراقليا، تأتي هيراقليبوليس، حيث على الضدّ من سكّان أرسينويا، يعبدون النمس؛ فعند الأرسينويين شاعت عبادة التمساح، ولذلك تمتلئ القناة عندهم وبحيرة ميريدا بالتماسيح (لأنهم يرون في التماسيح كائنات مقدّسة فيرأفون بها ويبقون عليها)، أمّا الهيراقليبوليسيون فعلى الضدّ، إذ يعبدون النمس، وهو

العدوّ اللدود للتماسيح والثعابين إذ يدمّر بيوض هذه الأخيرة ويقتلها هي نفسها متخذاً من الأوحال والقاذورات درعاً يحتمي بها؛ فيهيل النمس الوحل على نفسه ثمّ يستلقي في الشمس ليجفّ، وفي اللحظة المناسبة ينقضّ على الثعبان فيمسك به من رأسه أو من ذيله، ويجرّه إلى النهر حيث يفتك به؛ ولكنّ النمس يحاذر التمساح عندما يفتح هذا شدقه وهو مستلق ليأخذ حاجته من أشعة الشمس؛ فيزحف متسلّلاً عبر الشدق المفتوحة ليفتك بأحشاء التمساح وبطنه ثمّ يزحف خارجاً من الجثة الهامدة.

40- ويأتي بعد ذلك نوم كينوبوليس ومدينة كينوبوليس[104]، حيث يعبدون أنوبيس وجرى عندهم تقليد عبادة الكلاب وطقس إطعامها المقدّس. وعلى الضفّة الأخرى من النهر تقع مدينة أوكسيرينخ والنوم الذي يحمل الاسم عينه. ويعبد السكّان هنا الأوكسيرينخ[105]؛ وعندهم له معبد؛ لكنّ عبادة هذا السمك مشتركة وشائعة عند المصريين كلّهم. والحقيقة أن عبادة عدد من الحيوانات شائعة كعبادة مشتركة عند المصريين كلّهم؛ فمن الحيوانات البرّية يعبدون الثور، والكلب، والهرّ؛ ويعبدون من الطيور الحدأة وأبي منجل؛ ومن الأسماك عبدوا ذات الحراشف والحفّار؛ أمّا الحيوانات الأخرى فقد كانت عباداتها محلّية، بصرف النظر عن عبادات الآخرين، فالسايسيون مثلاً، وكذلك الطيبيّون يعبدون الشاة؛ ويعبد سكّان لاتوبوليس نوعاً من أسماك النيل يدعى لاتوس[106]؛ ويعبد الليكوبوليسيون ابن آوى[107]، والهيرموبوليسيون الكينوليثالوس[108]، ويعبد البابليون الذين كانوا يعيشون قرب ممفيس القرد كيبوس[109] (والكيبوس كائن وجهه يشبه الساتيروس، وهو فيما تبقى كائن وسط بين الكلب والدبّ؛ يعيش في إثيوبيا)؛ ويعبد الطيبيون الصقر، والليونتوبوليسيون الأسد، والمينديسيون المعزاة والتيس، والإفريبيتيون الذبابة[110]، أمّا المصريون الآخرون فيعبدون حيوانات أخرى؛ ولكنّهم يسوقون أسباباً مختلفة لعباداتهم هذه.

41- تلي ذلك نقطة حراسة هيرموبوليس الحدودية، وهي شيء ما يشبه مركز جباية الرسوم عن البضائع الواردة إلى طيبة عبر النهر؛ وهنا يبدأ حساب السخينات التي تحتوي 60 مرحلة حتّى سيينا وإليفانتين. ثمّ تأتي نقطة حراسة طيبة الحدودية وقناة تقود إلى تانيس، وبعدها إلى ليكوبوليس، وأفروديتوبوليس، وبانوبوليس، والمستوطنة القديمة للنسّاجين والحجّارين.

42- وتقع بعد ذلك بطليموسيا التي تعدّ أكبر مدن منطقة طيبة، وهي لا تقلّ عن ممفيس حجماً، وفيها بنية حكومية على النمط الإغريقي. وتقع فوق هذه المدينة

مدينة أبيدوس التي يقوم فيها ممنونيوس، وهو قصر ملكيّ، عمارته رائعة، ومبنيّ كلّه من الحجارة وفق نمط اللابيرينتيوم الذي كنت قد وصفته، مع أنّه ليس معقّداً مثله؛ وثمّة في عمق ممنونيوس ينبوع يهبطون إليه عبر ممرّات مقنطرة حفرت تحت الأرض في صخرة واحدة، وهي ممرات عظيمة الحجم بديعة البناء. وتوجد هناك قناة شقت ومدّت إلى هنا من النهر الكبير. ويقوم عند القناة دغل للأكانثيين المصريين الذين كرّسوا الدغل لأبوللون. ويبدو أنّ أبيدوس كانت في يوم ما مدينة كبيرة شغلت المكانة الثانية بعد طيبة؛ أمّا الآن فهي قرية صغيرة. وعلى وجه العموم إذا كان صحيحاً ما يقال إنّ المصريين يدعون ممنون إيسمانديس(111)، فإن اللابيرينتيوم يمكن أن يكون ممنونيوس ومن عمل المعماري نفسه الذي بنى ممنونيوس أبيدوس وطيبة؛ فبحسب الرويات، إنّ في طيبة ممنونيوسات ما. وتقع قبالة أبيدوس واحدة من واحات ليبيا الثلاث التي أتينا على ذكرها سابقاً، والمسافة بينها وبين أبيدوس مسير تسعة أيام في الصحراء؛ وهذه الواحة عبارة عن قرية غنية بالمياه والنبيذ، كما تنتج غلالاً أخرى بكميات وافية. وتقع الواحة الثانية قرب بحيرة ميريدا؛ والواحة الثالثة هي تلك التي على مقربة من موحى آمون. وهذه القرى الثلاث تستحقّ الذكر أيضاً.

43- ومع أنّي تحدّثت كثيراً عن آمون(112)، إلاّ أنني أرغب في أن أزيد الآتي. لقد كان فنّ التنبّؤ خاصة المتنبّئين، يحظون بإجلال وتبجيل كبيرين لدى القدماء؛ أمّا الآن فالسائد هو ازدراؤهم، لأنّ الرومان يكتفون الآن بنبوءات سيفيلاّ، والتكهنات التيرينية بأحشاء الحيوانات، وطيران الطيور، والآيات الفلكية. ولذلك كاد موحى آمون أن يخبو تماماً، بينما كان يحظى فيما مضى من الأزمنة بمجد عظيم. ويبرهن على صحّة هذا بوضوح لا لبس فيه، الكتّاب الذين وصفوا مآثر الإسكندر؛ وعلى الرّغم من أنّ هؤلاء أضافوا كثيراً من التملّق، إلاّ أنهم مع ذلك نقلوا ما يستحقّ الثقة. فيقول كاليسفين، إن التعطّش إلى المجد دفع بالإسكندر إلى أن يصعد في نهر النيل إلى الموحى، لأنه كان قد سمع أنّ بيرسيوس وهرقل كانا قد قاما في الأزمنة الغابرة بمثل هذه الرحلة. لقد انطلق الإسكندر من باريتونيوس ووقع في منطقة الرياح الجنوبية، لكنّه كان مرغماً على أن يواصل طريقه التي ضلّها بعد ذلك بسبب سحب الرمال الكثيفة التي أثارتها الرياح؛ ولم ينقذه من الهلاك سوى هطول أمطار غزيرة وغرابين أرشداه إلى الطريق. والحقيقة أن هذه القصة ليست سوى تملّق خالص، مثلها مثل القصة التالية التي تقول، إنّ الكهنة لم يأذنوا إلاّ للملك أن يدخل المعبد بثيابه

المعتادة؛ بينما كان على الآخرين أن يبدّلوا ملابسهم ويستمعوا إلى ما يقوله المتنبّئ وهم خارج المعبد، ولم يسمح إلاّ للإسكندر وحده أن يستمع إليه وهو داخل المعبد. ولم تكن إجابات المتنبّئ تنقل بالكلمات، كما هي الحال في دلفي وعند البرانهيدس[113]، إنّما أكثرها بإيماءة الرأس والإشارات، كما عند هوميروس:

بإيماءة من حاجبيه الأسودين، أعلن زيوس،

(*الإلياذا* I، 528)

ولكنّ المتنبّئ أخذ على عاتقه في غضون ذلك أن يؤدّي دور زيوس. وقال للملك بعبارات واضحة، إنه ابن زيوس. وقد أضاف كاالليسفين إلى هذه القصة، كما يليق بالشّاعر التراجيدي، ما يلي: بعد أن غادر أبوللون موحى البرانهيدس، منذ أن نهب البرانهيدس المعبد (وكان هؤلاء قد أخذوا جانب الفرس في عهد كسيراكس)[114]، جفّ الينبوع؛ ولكنّ المياه عادت وظهرت فيه من جديد مع وصول الإسكندر إلى هنا، وليس هذا وحسب، بل حمل سفراء ميلتوس إلى ممفيس كثيراً من نبوءات الموحى ذات الصلة بمولد الإسكندر من زيوس، والانتصار الذي ينتظره عند أربيل، ونهاية داريوس، ومحاولات العصيان في لاكيديمون. ويقول كاالليسفين إن اثينايدس الإرثرية[115]، تنبأت بدورها عن المنشأ الإلهي للإسكندر، فبحسب قوله، إنّ هذه المتنبّئة كانت تشبه سيفيلاّ الإرثرية القديمة. إن هذه كانت قصص المؤرّخين.

44- وفي أبيدوس يعبدون أوزيريس. ولا يسمحون للمنشد، وعازف الناي، والقيثارة أن يبدأ الطقوس على شرف الإله في معبد أوزيريس، كما هو معتاد لدى إقامة شعائر خدمة الآلهة الآخرين. وبعد أبيدوس تأتي ديوسبوليس الصغرى، ثمّ مدينة تينتيرا. وعلى الضدّ من باقي المصريين، يزدري السكّان هنا التمساح ازدراء خاصاً، فهم يبغضونه أكثر من أيّ حيوان آخر. وعلى الرغم من أنّ المصريين الآخرين يعرفون أنّ التمساح حيوان شرير، كما يعرفون الأذى الذي يمكن أن يتسبب به للإنسان، إلاّ أنهم يعبدونه ويمتنعون عن إزعاجه؛ أمّا سكّان تينتيرا فإنهم يطاردونه في كلّ مكان ويقتلونه. ويزعم بعضهم أنه على النحو الذي يكره فيه البسيليون[116] الذين يعيشون قرب قورينائية، الزواحف «كرها»[117] طبيعياً، كذلك لدى التينيتريين «مناعة» ضدّ التماسيح، فهم لا يعانون منها قط، بل يغوصون في مياه النهر من غير وجل ويعبرون بينها، وهو ما لا يجرؤ أيّ من الآخرين على فعله. فسكّان تينتيرا رافقوا التماسيح إلى

روما عندما نقلوها إلى هناك لعرضها في الاحتفالات الشعبية. ولدى بناء حوض وشيء ما يشبه السقف فوق أحد جانبيه، حتّى إذا خرجت الحيوانات من الماء تستطيع أن تتشمّس، كان هؤلاء الناس يغوصون مع بعضهم في الماء فيسحبون التماسيح بالشبكة إلى المشمسة ليراها المشاهدون، أو يسحبونها إلى الوراء لتدخل الحوض. لقد شاعت عند هؤلاء عبادة أفروديت. وخلف معبد أفروديت يقع حرم إيزيس؛ ثمّ تقع التيفونات وقناة تقود إلى كوبتوس، وهي مدينة مشتركة للمصريين والعرب.

45- ويبدأ من هنا البرزخ الذي يصل إلى البحر الأحمر قرب مدينة برينيقي. ومع أنّ المدينة ليس فيها موانئ، لكنّ موقع البرزخ الملائم جعله يمتلك نُزُلاً جيّدة. ويقال، إنّ فيلاديلف كان أوّل من شقّ مع قواته هذه الطريق في هذه المنطقة القاحلة، وبنى عليها محطّات تبدو كأنها مهيأة لاستقبال التجار والجمال التي تحمل بضائعهم؛ وقد فعل فيلاديلف هذا لأنّ البحر الأحمر ليس ملائماً للملاحة، خاصة بالنسبة لأولئك الذين يبحرون من منخفضه. ويتّضح من التجربة أنّ فكرة فيلاديلف كانت ذات منفعة عظيمة، ففي وقتنا الراهن تنقل البضائع الهندية والعربية وكذلك الإثيوبية كلّها، التي تأتي عبر الخليج العربي، إلى كوبتوس التي تعدّ بمثابة ميناء مثل هذه البضائع. وعلى مقربة من برينيقي تقع مدينة ميوس - هورموس التي تضمّ محطة شراعية للبحارة، وغير بعيد عن كوبتوس تقع مدينة تدعى أبوللونوبوليس، وعلى هذا النحو قامت على كلّ جانب من جانبي البرزخ مدينتان تحدّدان حدود كلّ طرف من أطرافه. ولكوبتوس وميوس- هورموس في وقتنا الراهن سمعة طيبة، والناس تزورهما دائماً. وفيما مضى كان تجار قوافل الجمال لا يعبرون هنا إلاّ ليلاً، إذ كانوا يحدّدون اتجاه طريقهم بالنجوم؛ ومثلهم مثل البحارة كان هؤلاء يحملون الماء معهم؛ أمّا الآن فقد حفروا هنا آباراً عميقة، وبنوا أحواضاً خاصة لجمع ماء المطر، مع أنّ هذا الأخير لا يكفي. وتستغرق الطريق إلى هناك 6 أو 7 أيام[118]. كما توجد في هذا البرزخ مناجم الزمرّد[119] وسواه من الحجارة الكريمة الأخرى التي يحفر العرب لاستخراجها ممرات جوفية عميقة.

46- بعد أبوللونوبوليس تقع طيبة[120] (تدعى الآن ديوسبوليس):

المدينة التي فيها مئة بوابة، يخرج من كلّ منها مئتا
مقاتل في مركباتهم وعلى خيولهم السريعة.

(الإلياذا IX، 383)



هذا ما يقوله هوميروس، كما يذكر ثراء طيبة فيقول:

... أو طيبة المصريين،

المدينة التي لا حصر لثرواتها المكنوزة في بيوت سكّانها.

(الإلياذا IX، 381)

كما ينقل كتّاب آخرون قصصاً أخرى على هذا المنوال، عادّين طيبة عاصمة مصر. وحتى في أيامنا هذه يكشفون عن بقايا هذه المدينة على امتداد يصل إلى 80 مرحلة طولاً[121]. فهناك كثير من المعابد؛ لكنّ قمبيز دمّر العدد الأكبر منها. والمدينة الآن عبارة عن مجموعة قرى تقع التي تطوّق منها المدينة نفسها في العربية، وتقع الأخرى على الضفّة الأخرى للنهر حيث كان يقوم ممنونيوس. ومن التمثالين المهولين المصنوع كلّ منهما من حجر واحد، واللذين كانا يقومان هنا واحدهما قرب الآخر، لم يبق سوى تمثال واحد والأجزاء العليا من الآخر ابتداء من الوركين، أمّا الباقي فقد دمّره زلزال، كما يقولون. وثمّة اعتقاد هنا مفاده، أن أجزاء التمثال المتبقية على العرش أطلقت مرّة في كلّ يوم صوتاً كأنه صوت ضربة خفيفة. وعندما كنت في تلك الأماكن مع إيليوس غاللوس في حاشية كبيرة، سمعت هذا الصوت بأذني عند الساعة الواحدة[122]؛ بيد أنني لا أستطيع أن أؤكّد بدقّة ما إذا كان الصوت قد انطلق من المنصّة أم من التمثال نفسه، أم أطلقه عن سابق قصد أحد الموجودين حول المنصة وعلى مقربة منها. ولأنّ سبب هذه الظاهرة مبهم يمكننا أن نتوقّع أي توقّع كان، ما عدا أن يكون الصوت صادراً عن حجارة متوضّعة على هذا النحو. وإلى الأعلى من ممنونيوس يقع ما يقارب 40 كهفاً محفوراً في الصخر هي مقابر لملوك مبنية بناء بديعاً يستحقّ التأمل. وفي طيبة[123] يحمل بعض النّصب التذكارية[124] نقوشاً تظهر مدى ثراء ملوك تلك الأزمنة، وممتلكاتهم التي كانت تمتدّ حتّى أرض السكيثيين، والباكتريين، والهنود، وإيونيا الحالية، والمجموع الكلّي للإتاوات التي يجبونها، وتعداد قواتهم المقاتلة الذي يصل إلى ما يقارب المليون مقاتل. ويقولون، إنّ أكثر الكهنة المحلّيين كانوا فلكيين وفلاسفة. ومن ابتكاراتهم، حساب الأيام وفق الشمس وليس وفق القمر، ففي كلّ عام يضيفون 5 أيام إلى 12 شهراً كلّ منها 30 يوماً. ولأن جزءاً إضافياً معروفاً من النهار يبقى خارج الحساب، لذلك، وبهدف إتمام العام لكي يغدو مكتملاً، يضمّون مقطعاً زمنياً محدّداً يتألّف من عدد من الأيام التامة أو الأعوام التامّة

يساوي عدد الأجزاء التي تبقى خارج الحساب مضمومة معاً لتؤلّف يوماً كاملاً[125].

وهذه الحكمة كلّها ينسبونها إلى هرمس بشكل أساس. أمّا زيوس الذي يجلّونه إجلالاً خاصاً، فيكرّسون له أجمل فتاة من أعرق عائلة (يدعو الإغريق مثل هؤلاء الفتيات «بالآدس»)[126]؛ فتمارس هذه البغاء، وتهب نفسها كلّ من يرغب إلى أن يحين وقت التطهّر الطبيعي لجسدها؛ وبعد تطهيرها يزوّجونها، لكنّهم قبل ذلك، وبعد نهاية فترة معاشراتها قبل الزواج، يعلنون الحداد عليها.

47- وبعد طيبة تأتي هيرمونثيدا حيث يعبدون أبوللون وزيوس. كما يحتفظون هنا بثور أيضاً. ثمّ تلي هيرمونثيدا مدينة التماسيح التي يعبد سكّانها هذا الحيوان. وتأتي بعدها أفروديتبوليس ولاتوبوليس التي تعبد فيها أثينا ولاتوس[127]؛ ثمّ تأتي مدينة إيلثيا ومعبدها؛ وبعدهما أبوللونوبوليس التي تشنّ بدورها حرباً على التماسيح.

48- أمّا سيينا وإليفانتين فإنّ الأولى تقع على الحدود بين إثيوبيا ومصر، والثانية جزيرة في النيل تقع قبالة سيينا على بعد نصف مرحلة؛ وتقع في هذه الجزيرة مدينة فيها معبد كنوثيدا، ونيلوميتر، كما في ممفيس. والنيلوميتر هي بئر على ضفّة النيل مبنية من حجارة متراصة يرصدون بها أعلى مستوى لفيضان النيل، وأدنى مستوى له، ومتوسط مستواه، لأنّ المياه في البئر ترتفع وتنخفض تبعاً لمستوى ارتفاعها وانخفاضها في النهر. وعلى هذا النحو فإن جدار البئر يحمل علامات تقيس أعلى مستويات ارتفاع مياه النهر وسواها من الارتفاعات الأخرى. وينقل مراقبو هذه العلامات مشاهداتهم للآخرين؛ لأنّ هذه العلامات والقياسات[128] تنبئ بمستوى ارتفاع الماء في النهر قبل حدوثه بوقت. وهذه المعلومات ضرورية للفلاحين من أجل توزيع مياه الري، وبناء الحواجز، والقنوات وما شابه من المنشآت؛ كما أنها ضرورية للحكّام أيضاً لتحديد حجم واردات الدولة، فالفيضانات القوية تنبئ بواردات أكبر. وفي سيينا بئر تحدّد الانقلابات الشمسية الصيفية، لأنّ هذه المنطقة تقع تحت الدائرة الاستوائية[129]، وترغم المَيْل على ألاّ يلقي عند منتصف النهار ظلاًّ. فلو تقدّمنا إلى الجنوب من منطقتنا (وأنا أقصد هنا إلى اليونان)، فإنّ الشمس سوف تقع لأوّل مرّة فوق رؤوسنا وتمنع المَيْل من إلقاء ظلّ. وإذا كانت الشمس فوق رؤوسنا فإنها بالضرورة ستلقي بأشعتها في البئر حتّى سطح الماء فيه، حتّى لو كان الماء فيه على عمق كبير.فنحن نقف على خطّ متعامد مع الأرض وحُفر الآبار تحفر بالاتجاه عينه. وتعسكر هناك ثلاث فصائل حراسة رومانية.

49- وإلى الأعلى قليلاً من إليفانتين يوجد مسقط مائي يقيم عنده القواربيون للولاة ما يشبه العرض. ويقع هذا المسقط في وسط النهر؛ فيبدو كأنه صخرة بارزة، قمّتها مستوية بحيث تتلقى ماء النهر عليها، لكنّها تنتهي بانهدام شديد الانحدار تهوي المياه عبره هادرة؛ وعلى جانبيّ الصخرة نحو البرّ يجري مجرى مائي يمكن الإبحار فيه صعوداً مع النهر. وعلى هذا النحو، بعد أن يبحر القواربيون في هذا المجرى إلى الأعلى أوّلاً، يعودون من ثمّ ليبحروا فيه نزولاً، إذ يشدّهم التيار نحو المسقط المائي، فيهوون مع القوارب في الانهدام، ليخرجوا في نهاية المطاف سالمين مع قواربهم. وإلى الأعلى قليلاً من الشلال تقع تقع جزيرة فيلاّ؛ وهي مستوطنة مشتركة بين الإثيوبيين والمصريين، ومبنية كما إليفانتين، وتساويها من حيث الحجم؛ وفيها معابد مصرية. وتوجد هنا أيضاً عبادة الطائر الذي يسمّى الحدأة، على الرغم من أنني لا أرى شيئاً مشتركاً بينها وبين حدآتنا أو الحدآت المصرية، فهي أكبر قليلاً، وألوان ريشها مختلفة تماماً. ويقولون إنّ هذا الطائر طائر إثيوبي، وأنّ الآخر جيء به من تلك البلاد عندما مات الأوّل أو قبل ذلك بقليل. وقد أرونا الطائر فعلاً عندما كان يحتضر بعد أن فتك به المرض.

50- لقد وصلنا إلى فيلاّ من سيينا في مركبة بعد أن عبرنا منطقة سهلية امتدت على ما يقارب 100 مرحلة[130]. وعلى امتداد هذه الطريق كلّها يمكن أن ترى على الجانبين، وفي كثير من الأماكن، قطعاً صخرية مستديرة عالية ملساء تماماً، كروية تقريباً، وهي من الحجر الأسود الصلب الذي يصنعون منه الأجران؛ والحجر الأكبر منها يقف على الأصغر دائماً، وفوقه آخر، و... وفي بعض الأحيان كانت الحجارة كلاًّ على حدة؛ وأكبر الحجارة لم يكن قطره أقلّ من 12 قدماً، أمّا الحجارة كلّها مجتمعة فقد كان حجمها أكبر من نصف هذا الحجم. وقد انتقلنا إلى الجزيرة على باكتون. والباكتون هو قارب صغير مصنوع من أغصان الصفصاف المربوط بعضها إلى بعض بحيث يشبه القفص. وعلى هذا النحو انتقلنا إلى هناك وقوفاً في الماء أو جلوساً على مقاعد خشبية ما، وكانت الرحلة سهلة، ولذلك كان الخوف الذي عشناه لا مبرر له، لأنّ هذه القوارب آمنة تماماً إذا لم تحمل أكثر من طاقتها.

51- مع أنّ شجر النخيل في مصر على وجه العموم، يعطي ثمراً رديئاً، ويعطي في الدلتا والإسكندرية ثمراً غير صالح للأكل، إلاّ أنّ نخيل منطقة طيبة هو الأفضل على وجه العموم، وما يثير الاستغراب، هو أن هذه البلدان التي تقع على دائرة طول

واحـدة مـع اليهودية وجوارهـا (البلـدان الواقعـة حـول الـدلتا والإسـكندرية)، مختلـف واحـدها عـن الآخـر اختلافـاً كـبيراً؛ فاليهودية تنـتج عـلاوة علـى نـوع مختلف مـن أنـواع التمور، ثمر جوز الهند، وهو يعدّ أفضل قليلاً مـن الـذي تنتجه بابل. وفي منطقـة طيبـة، وكذلك في اليهودية نوعان من النخيل - جوز الهند والنوع الآخر؛ وتمـور نخيـل منطقـة طيبة أكثر صلابة، وأطيب مذاقاً. وثمّة هناك جزيرة هي التي تنـتج أفضـل التمـور الـتي تـدرّ علـى الـولاة مـردوداً كـبيراً. فمـزارع النخيـل كانـت فيمـا مضـى ملكيـة خاصـة للملوك، ولم يكن لأيّ فرد حق فيها؛ أمّا الآن فهي ملكية خاصة للولاة.

52- ويهـذر هـيرودوت[131] وكتّـاب آخـرون بكـثير مـن الترّهـات، فيزخرفـون قصصهم بأوهام لا سابق لها، كأنها نغمات موسيقية، إيقاعات، أو توابل. فعلى هـذا المنوال مثلاً، زعمهم أنّ منابع النيل تقع في مكـان مـا قـرب سيينا وإليفـانتين (وعـددها هناك بضعة منابع)، وإن عمق مجرى النهر هناك لا قرار له. وفي النيل يتبعثـر كـثير مـن الجـزر الـتي تغرق المياه بعضها تماماً وقت فيضان النهر، وبعضـها الآخـر تغمـره الميـاه جزئياً؛ أمّا الأماكن التي تعلو كثيراً فوق سطح الماء فتروى بمضخّات حلزونية.

53- لقد تميّزت مصر منذ أقدم الأزمنة بحياتها المسالمة، فهـي كانـت دائمـاً بلاداً مكتفية، ومنيعة ضدّ غزو الخـارج، فتحتمـي مـن الشـمال بـالبحر المصـري الـذي يخلـو سـاحله مـن أي مـوانئ، ومـن الشـرق والغـرب بجبـال العربيـة وجبـال ليبيـا، كمـا كنـت قـد أشـرت مـن قبـل[132]. وفي أجزائهـا الأخـرى باتجـاه الجنـوب، يقطـن التروغلوديتيون، والبليمّيون، والنوبيون، والميغاباريّون، والإثيوبيـون الـذين يعيشـون إلى الأعلى من سيينا. وهؤلاء كلّهم بدو رحّل؛ أعدادهم قليلة وليسـوا عـدوانيين، مـع أن القدماء عدّوهم عدوانيين لأنهم غالباً ما كانوا يهاجمون العزّل ليسلبوهم. أمّا فيمـا يخصّ الإثيوبيين الـذين تمتـدّ منطقتهم أبعد نحو الجنوب، حتّى ميرويه، فأعـدادهم ليست كبيرة أيضاً، ولا يجمعهم أي تحالف، لأنهم، كما قلت سابقاً[133]، يعيشـون في واد نهريّ طويل، ضيّق ومتعرّج؛ وهم غير مؤهلين لحياة التنقل وما شابهها. ولا تـزال البلاد حتّى يومنا هذا تعيش مثل هذه الحياة المسالمة الآمنة نسبياً. ويشهد على هـذا مـا يلي: يحقّق الرومان نجاحاً واضحاً في تعاملهم مع حماية البلاد بثلاث فصائل فقـط، بـل حتّى هذه ليست كاملة؛ وعندما تجرّأ الإثيوبيون يوماً وهاجموا الرومان، عرّضـوا بلادهم نفسها للخطر. وبالكاد تكون القوات العسكرية الرومانية الأخرى في مصـر أكبر من هذه القوات، فالرومان لم يوحّدوها في أي وقت لإدارة عمليات مشتركة.

وبسبب قلّة أعداد القوات المقاتلة لم يتميّز سلوك المصريين أنفسهم ولا سلوك جيرانهم بالعدوانية. فكورنيلوس غاللوس، وهو أوّل وال عيّنه قيصر على مصر، هاجم مدينة هيرونبوليس الثائرة بقوة عسكرية صغيرة واستولى عليها؛ كما نجح في وقت قصير أن يخمد الاضطرابات التي قامت في منطقة طيبة احتجاجاً على الإتاوات. وفيما بعد حينما هاجم بترونيوس حشد من عشرات آلاف من الإسكندريين، وأخذوا يرجمونه بالحجارة، صدّ هجومهم بمن كان معه من حرسه الشخصي، فقتل عدداً منهم وأخضع الباقي. وأنا كنت قد تحدّثت عن إيليوس غاللوس[134]، وكيف اكتشف ضعف الروح القتالية لدى السكّان المحلّيين عندما اجتاح العربية بجزء من الفوج الذي كان معسكراً في مصر. ولولا خيانة سيلليوس، ربّما كان قد نجح في الاستيلاء على العربية السعيدة كلّها.

54- بعد أن امتلأ الإثوبيون شجاعة، لأنّ جزء من القوات الرومانية في مصر بقيادة إيليوس غاللوس كان قد زجّ به في حرب مع العرب، هاجموا منطقة طيبة وفوج سيينا المؤلّف من ثلاث فصائل، واستولوا على سيينا، وإليفانتين، وفيلاّ، وحولوا السكّان إلى عبيد، وحطموا تمثال قيصر. ولكنّ بترونيوس زحف إلى هناك على رأس جيش قوامه أقلّ من 10.000 من المشاة، و800 فارس، ليواجه 30.000 من قوات الأعداء، فأرغم العدو على أن ينحدر إلى المدينة الإثيوبية بسيلخيس أوّلاً، ثمّ أرسل إليهم سفارة بطلب ردّ ما كانوا قد استولوا عليه، وبسؤال عن السبب الذي دفعهم لبدء الحرب. وعندما أعلن الإثيوبيون أن النومارخ[135] أساؤوا إليهم، أجابهم بترونيوس، أن هؤلاء ليسوا حكّام البلاد، إنما قيصر هو حاكمها. وعندما طلبوا ثلاثة أيام مهلة للتفكير بالأمر، ولم يفعلوا شيئاً مما كان ينبغي أن يفعلوه فعلاً، هاجمهم بترونيوس وأرغمهم على الدخول في المعركة، وألحق بهم هزيمة سريعة، لأنهم لم يعرفوا كيف ينظمون صفوفهم جيّداً، ولأن أسلحتهم كانت رديئة. فقد كانوا يحملون تروساً كبيرة متطاولة مصنوعة من جلود الثيران الخام غير المدبوغة، وكانت الفأس الحربية هي سلاحهم القتالي، لكنّ بعضهم كان يحمل رماحاً، وآخرون يحملون سيوفاً. لقد دفع الرومان بفريق من الأعداء القهقرى نحو المدينة، بينما فرّ فريق آخر منهم نحو الصحراء، ورمى فريق ثالث بنفسه إلى القناة (بسبب شدّة تيار الماء لم يكن فيها سوى قليل من التماسيح)، ووجد ملجأ على الجزيرة المجاورة. وكان بين الفارّين قادة قوّات الملكة كانداكا التي كانت في أيامنا ملكة على الإثيوبيين، وكانت هذه امرأة ذات

طباع رجالية، وعوراء بعين واحدة. وقد أخذ بترونيوس هؤلاء كلّهم أسرى، إذ أبحـر إلى هناك على متون القوارب والسفن، ثمّ أسرع وأرسلهم إلى الإسـكندرية؛ ثمّ شـنّ هجومـاً على بسيلخيس واستولى عليها. وعندما أحصى قتلى الأعداء وأسـراهم، تبيّن لـه أنـه لم ينـج مـنهم سـوى عـدد قليـل. ومـن بسـيلخيس وصـل بترونيـوس إلى المدينـة المحصّـنة بريمنيس، بعد أن اجتاز منطقة كثبان رملية كانت قد حاصرت عاصفة رملية فيها قوات قمبيز وطمرتها. فهاجم بترونيوس القلعة واستولى عليها عنوة. ثمّ تحـرّك بعد ذلك ضدّ ناباتا. وكانت هذه المدينة هـي عاصمة كانداكا ومقرّهـا الملكـيّ؛ وكـان ابنهـا هناك، أمّا هي فقد استقرّت في ضاحية قريبة. ومع أنّ الملكة أرسلت سفارة تطلب عقد اتفاق صداقة، وتتعهّد بردّ الأسـرى والتماثيـل الـتي كانـت قـد اسـتولت قواتهـا عليهـا في سيينا، إلاّ أنّ بترونيوس شنّ هجوماً علـى ناباتـا، فاسـتولى عليهـا (وكـان ابنهـا قـد نجـح في الفرار من المدينة)، ودمّرها تماماً، وأخذ سكّانها عبيـداً، وعـاد أدراجـه بالغنيمـة إذ رأى أن المناطق التي تقع بعد ذلك، هي مناطق وعرة عصية على القوات. ومع ذلك حصّن بـريمينس أفضـل ممـا كانـت عليـه تحصيناتها مـن قبـل، وتـرك هنـاك حراسـة ومؤونـة تكفـي 400 إنسـان مـدّة عـامين، وعـاد أدراجـه إلى الإسـكندرية. أمّـا الأسـرى فقـد بـاع أعداداً منهم كغنيمة حربية، وأرسل ألفاً منهم إلى قيصر الذي كـان قـد عـاد لتـوّه مـن كانتابريا، وأهلكت الأمراض ما تبقى منهم. وفي الأثناء زحفت كانداكا علـى القلعـة بأعداد لا تحصـى مـن المقـاتلين، لكـنّ بترونيـوس سـبق الملكـة ووصـل إلى القلعـة قبلـها. وبعد أن اتخذ عدداً من الإجراءات الضرورية، وأمّن القلعة من اقتحام الأعداء لها، جـاءه السـفراء مـن جديـد، لكنّـه أمـرهم بالتوجـه إلى قيصـر. وعنـدما أعلـن هـؤلاء أنهـم لا يعرفون من هو قيصر، ولا إلى أين عليهم أن يذهبوا إليه، ألحق بترونيـوس بهـم مرافقـة. وجاء السفراء إلى سـاموس حيـث كـان قيصـر يسـتعدّ فيهـا ليتوجّـه إلى سـوريا، بعـد أنّ جهّز طيباريوس وأرسله إلى أرمينيا. وبعد أن نال هـؤلاء مطـالبهم كلّهـا، أضـــاف إليهـا قيصر إعفاءهــم من الإتــاوات التي كـــان هو نفســـه قد فرضها عليهم.

الفصل الثاني

1- لقد نقلت فيما سبق من هذا العرض كثيراً من المعلومات عن شعوب إثيوبيا، وعليه يمكـن أن نعطي وصفاً لبلادهم في سياق وصفنا لمصر. ويمكـن القـول علـى وجـه العموم، إن أطراف المعمورة الواقعة علـى طول المنطقـة غير المعتدلـة، هـي منطقـة خاليـة

من السكّان بسبب شدّة الحرّ أو شدّة البرد، وينبغي أن تكون بمثابة تشويه للمنطقة المعتدلة أو تردّؤ لها. وهذا ما يمكن أن نراه في نمط عيش سكّان هذه الأطراف، ونقص متطلبات العيش عندهم. وواقع الحال أنهم يعيشون عيشة بائسة، وأكثرهم يطوف عارياً، ويحيا حياة التنقل. ويقتنون من الحيوانات المنزلية الأغنام، والماعز، والأبقار القصيرة القامة، والكلاب الصغيرة الحجم، لكنّها رشيقة وشرسة. وربّما قصر قامة هؤلاء الناس، هو الذي أنتج أساطير الأقزام والتصوّرات التي شاعت عنهم؛ فلم يؤكّد أيّ ممن يستحقّون الثقة أنه رآهم بأمّ عينه.

2- ويعيش الإثيوبيون على الدخن والشعير الذي يستخرجون منه شراباً أيضاً، ويستهلكون بدلاً من زيت الزيتون الزبدة البقرية والدهن الحيواني. وليس في بلادهم أشجار مثمرة، ما عدا بعض أشجار النخيل المزروعة في الحدائق الملكية. ويستهلك بعضهم في غذائه الأعشاب، والنباتات الغضّة، وزهر اللوتس، وجذور القصب؛ كما يأكلون اللحوم، والأجبان، ويشربون الدماء، والحليب. ويعبدون ملوكهم كآلهة؛ ويقيم هؤلاء في قصورهم في عزلة. وأكبر مقرّ ملكي عندهم هو مدينة ميرويه، سميّة إحدى الجزر. ويقولون إن الجزيرة المذكورة لها شكل الترس المتطاول. وربّما بالغوا في تقدير أبعادها: ما يقارب 300 مرحلة في الطول، و1000 مرحلة في العرض. وفي هذه الجزيرة كثير من الجبال، والأدغال الكبيرة؛ ويتألّف سكّانها من البدو الرحل والصيادين، كما من الفلاحين أيضاً؛ وفيها مناجم نحاس، وحديد، وذهب، وشتّى أنواع الحجارة الكريمة. وتحيط بالجزيرة من جهة ليبيا كثبان رملية كبيرة، ومن جهة العربية جروف صخرية شديدة الانحدار متصل بعضها ببعض من غير انقطاع، ومن جهة الجنوب ملتقى أنهار أستابورا، وأستابود، وأستاسوبا، ومن الشمال باقي مجرى النيل وصولاً إلى مصر على طول التواءات النهر المذكورة. ومنازل المدن مبنيّة من خشب النخيل المضفور أو من آجرّ أحفوري متحجّر، كما عند العرب. ومن الأشجار غالباً ما نلقى النخيل، والبيرسيا[1]، والأبنوس، والكيراتيا[2]. ويصيدون الفيلة، والأُسود، والنّمور. وتسعى هنا الثعابين التي تصارع الفيلة؛ ويوجد هنا أيضاً كثير من الحيوانات البرّية الأخرى؛ فالحيوانات تهرب من الأماكن الحارّة الجافّة إلى الأماكن الرطبة المستنقعية.

3- وتقع فوق ميرويه بحيرة كبيرة تدعى بسيبو، وفيها جزيرة كبيرة فيها أعداد كبيرة من السكّان. وبما أنّ الليبيين يشغلون الجانب الغربي من مجرى النيل،

ويشـغل الإثيوبيـون الجانـب المقابـل، فـإن هـؤلاء يسـتولون دوريـاً علـى الجـزر والمنطقـة النهرية، فيطرد فريق الفريق الآخـر الـذي يخلـي المكـان للأقوى. ويسـتخدم الإثيوبيـون الأقـواس الخشـبية المشـوية علـى النـار لتقسـيتها، ويبلـغ طـول القـوس الواحـدة منهـا أربـع أقدام. كما يسلّحون نسـاءهم أيضـاً، وأكثـر النسـاء يغرسـن في شفاهن حلقـة معدنيـة. ويرتدي الإثيوبيون فراء الضأن، لأنه ليس عندهم صوف، فأغنـامهم مكسـوّة بالشـعر، كالماعز؛ وبعضهم يسير عارياً، بينمـا يتـأزّر بعضـهم الآخـر بجلـود صغيرة أو أحزمـة مـن الشعر مشغولة بإتقان. ويعتقدون بأن هناك إلهين، أحدهما خالد (وهو علّة كلّ شـيء)، والآخـر فـانٍ لا اسـم لـه ومـبهم. ويعبـد أكثـرهم المحسـنين مـنهم وأفـراد العائلـة المالكـة كآلهة؛ ويعدّون ملوكهم مخلّصين وحماةَ كلّ شـيء، ويـرون في المتميّـزين آلهـة مـن نـوع خاص بالنسبة لأولئك الـذين أحسـنوا إليهم. ويعـدّ بعـض الـذين يعيشـون علـى مقربـة مـن المنطقة الحارّة، أناساً ملحدين، وفي أقلّ تقدير يقولون، إنهـم يكرهـون حتّـى الشـمس، ويشـتمونها وهـم ينظـرون نحـو مشـرقها، لأنهـا تحـرق، وتكـنّ لهـم العـداء؛ ولـذلك يلجـأ هؤلاء إلى المستنقعات. ويعبد سكّان ميرويه هرقـل، وبـان، وإيـزيس، إضـافة إلى إلـه مـا آخـر بربـريّ. أمّـا الأمـوات فبعضـهم يرمـون بهـم في النهـر، وآخـرون يحتفظـون بهـم في منـازلهم تحـت غطـاء زجـاجي؛ وفريـق ثالـث يـدفنهم في مقـابر طينيـة حـول المعابـد؛ وهـم يطالبون بالالتزام بالأيمان التي يقسـمونها باسـم المتوفّين، ويـرون في هـذه الأيمـان أيمانـاً أكثر قدسية من أيّ شيء آخر. ويختارون ملـوكهم مـن الأشـخاص الأكثـر وسـامة، أو مـن المتميّـزين في تربيـة المواشـي، والشـجاعة، أو الثـراء. وفي ميرويـه شـغل الكهنـة منـذ أقدم الأزمنة المكانة الأعلى في المجتمع، حتّى أنّ هؤلاء كانوا يأمرون الملك نفسـه عبـر رسول منهم بأن يموت، ثمّ يعيّنون ملكاً آخر مكانه. لكنّ أحد الملوك ألغـى فيمـا بعـد هذا التقليد، فقد أغار بقواته المسلحة على المعبد الذي كانوا يحتفظون فيه بالصـندوق الذهبي وقتل الكهنة عـن بكـرة أبيهم. كمـا يعـدّ التقليـد الثـاني إثيوبيـاً بـدوره: إذا مـا أصـيب أحـد أعضـاء جسـد الملـك بـأذى مـا، فـإن الأذى نفسـه يجـب أن يلحـق بـأقرب أصدقائه، حتّى أنهم ينبغي أن يموتوا مع الملك؛ ولذلك كانوا يحافظون على حيـاة الملـك بمنتهى الحيطة والاهتمام. أرى أنّ ما قلته هنا عن الإثيوبيين كاف.

4- وينبغي عليّ أن أذكر من بين المعـالم المصـرية الأخـرى، سمـات البـلاد الآتيـة أيضـاً، مـثلاً، مـا يسـمّى بـالفول المصـري[3] الـذي يصـنعون منـه كؤوسـاً يسـتخدمونها للشـرب، وكـذلك نبـات البيبـل[4]؛ فهـذا النبـات لا ينمـو إلاّ هنـا وفي الهنـد؛ والبيرسـيا

بدورها لا تنمو إلاّ هنا وعند الإثيوبيين؛ وهذه الأخيرة شجرة كبيرة تطرح ثمراً كبير الحجم حلو المذاق؛ ومن المعالم الأخرى أيضاً، شجرة التوت التي تطرح ثمراً يدعى سيكومور، لأنه يشبه التين، لكنّ أهميته الغذائية متواضعة. وينمو هنا أيضاً نبات الكورسوس[5]، وهو من التوابل التي من أنواع الفلفل، لكنّه أكبر منه قليلاً. أمّا أسماك النيل فإنها كثيرة ومتنوّعة وتتميّز بسمات محلّية خاصة. ومن أشهرها الأوكسيرينخ[6]، والليبيدوت[7]، واللاتوس[8]، والألابيتيا[9]، والكورالكين[10]، والكويروس[11]، والفاغروريوس[12]، وكذلك ما يدعى الفاغروس؛ ثمّ القرموط، والسلمون، والفريسّا[13]، والكيستري[14]، والليخين[15]، والفيسا[16]، والبوس[17]؛ ومن الرخويات، القواقع الكبيرة التي تصدر صوتاً يشبه النقيق. وفيما يخصّ الحيوانات المحلّية فإنّ في مصر منها الفأر الفرعوني، والحيّة المصرية التي تتميّز عن حيّات البلدان الأخرى ببعض السمات الخاصة بها؛ وثمّة نوعان من هذه الحيّة: نوع يبلغ طوله شبراً واحداً لدغته تقتل في الحال، والنوع الآخر طوله ساجن تقريباً، كما يقول نيكاندرس[18] الذي كتب بحثاً بعنوان «الترياق». ومن الطيور أبو منجل، والحدأة المصرية، وهي طائر أليف بالمقارنة مع حدآت الأماكن الأخرى، ومثلها في هذا مثل الهرّ؛ وغراب الليل في مصر من نوع خاص، فحجمه عندنا يبلغ حجم النسر ويطلق صوتاً ضعيفاً؛ أمّا في مصر فيبلغ حجمه حجم الغراب ويصرخ بصوت مختلف. وأكثر الطيور إلفة هنا، هو أبو منجل؛ وهو يشبه اللقلق من حيث الشكل والحجم، ولكنّه نوعان بحسب اللون: أحدهما من نوع اللقلق، والآخر أسود تماماً. وتملأ هذه الطيور تقاطعات شوارع الإسكندرية كلّها، وقد يكون أبو منجل نافعاً في بعض الأحيان، وضارّاً في أحيان أخرى، فهو نافع لأنه يلتقط كلّ الحيوانات المؤذية ونفايات حوانيت اللحامين والمخابز؛ ومؤذ لأنه يلتهم كلّ شيء، وقذر وبالكاد يمكن إبعاده عن الأشياء النظيفة التي لا تحتمل أي تقذير كان.

5- إنّ ما يقوله هيرودوت[19] عن المصريين إنهم يعجنون الطين بأيديهم ودقيق الخبز بأرجلهم صحيح تماماً. وكذلك يعجنون الكاكيس[20]، وهو نوع خاص من أنواع الأقماح له فاعلية قابضة للمعدة؛ والكيكي[21]، وهو نوع من أنواع الثمار التي يزرعونها في حقولهم؛ ويستخرجون منها زيتاً يستخدمه سكّان البلاد كلهم تقريباً لإضاءة القناديل، أو يدهن به أجسادهم أكثر أفراد فئات السكّان فقراً، الذين يؤدّون أعمالاً مضنية، سواء كانوا نساء أم رجالاً. وكذلك الكوكينا[22]، وهي نوع من

أنواع الحصر المصرية المجدولة من نبات ما، والتي تشبه المصنوعات القصبية أو المصنوعات التي تصنع من شجر النخيل. ويصنع المصريون جعّتهم من الشعير بطريقة خاصة؛ والجعّة مشروب شعبي واسع الانتشار، لكنّ طرائق تحضيرها مختلفة. ومن التقاليد التي يحرص المصريون حرصاً شديداً على الالتزام بها التقليد التالي: ترضع المصريات المواليد الجدد كلّهم، ويختتون الذكور والإناث، على غرار ما يفعل اليهود؛ فهؤلاء الأخيرون من أصل مصريّ أيضاً، وهذا ما كنت قد ذكرته في وصفي لبلادهم[23]. وبحسب أريستوبول أنّ أيّ سمكة بحرية لا تدخل النيل بسبب وجود التماسيح في مياهه، ما عدا الكيستري، والفريسّا، والدلافين؛ فالدلفين أقوى من التمساح، والكيستري، لسبب طبيعي ما يرافقه الكويروس[24] على طول الشاطئ؛ وتحرص التماسيح على أن تكون بعيدة عن الكويروس، لأنّ هذا الأخير دائري الشكل وفي رأسه أشواك تشكّل خطورة على التماسيح. وفي فصل الربيع يصعد سمك الكيستري مع مجرى النهر، ثمّ يهبط عائداً قبيل شروق الثريا أسراباً لكي يضع بيوضه؛ وعندئذٍ يبدأ موسم صيده، لأنه يقع إسراباً في المصائد التي تنصب له. والسبب عينه يمكن أن ينسحب على الفريسّا. هذا هو وصف مصر.

الفصل الثالث

1- بحسب الترتيب الذي اتّبعناه جاء الآن دور ليبيا، فلم يبق من «جغرافيتنا» كلّها سوى هذا الجزء من العالم. ومع أنه كان قد تسنّى لي من قبل أن أتحدّث كثيراً عن هذه البلاد، إلاّ أنه ينبغي الآن أن أذكّر مرّة أخرى بكلّ ما يناسب هذه المادّة، لأضيف ما لم أقله من قبل. فعندما قسّم الكتّاب المعمورة إلى قارّات، قسموها إلى أجزاء غير متساوية. والحقيقة إنّ تقسيمها إلى ثلاثة أجزاء يرغمنا على أن نتوقّع تقسيماً إلى ثلاثة أجزاء متساوية؛ ولكنّ ليبيا، عدا عن أنها لا تولّف ثلث المعمورة، فإنها إضافة إلى أوروبا لا يمكن مقارنتها بآسيا. وقد تكون مساحتها هي نفسها أقلّ من مساحة أوروبا، كما أنها أضعف قوّة من هذه الأخيرة، لأنّ الشطر الأعظم من جزئها الداخلي وساحلها على المحيط هو أقاليم صحراوية؛ وهي مزروعة بقرى صغيرة مبعثرة هنا وهناك وأغلب سكّانها من الرحّل؛ وعلاوة على الصحارى، تعدّ ليبيا موئلاً للحيوانات البرّية التي ترغم الناس على أن تغادر حتّى المناطق التي يمكن العيش فيها. كما تشمل شطراً كبيراً من المنطقة الحارّة. وعلى وجه العموم فإن الساحل المقابل لنا

كلّه، وعلى وجه التحديد بين النيل وأعمدة هرقل، خاصة الجزء الذي كان يوماً ما للقرطاجيين، يعدّ إقليماً خصيباً وفيه كثافة سكّانية عالية؛ ولكن توجد هنا مناطق قاحلة أيضاً، كالمنطقة القريبة من السرتين، والمارماريدونيين، وكاتاباسم.

وإذا تخيّلنا ليبيا على سطح مستو، فإنها من حيث الشكل عبارة عن مثلث قائم الزاوية قاعدته الساحل المقابل لنا الذي يمتدّ من مصر والنيل حتّى ماوروسيا وأعمدة هرقل؛ ويشكل النيل الضلع العمودية عليها حتّى إثيوبيا، وأنا مددت هذه الضلع حتّى المحيط؛ وأخير الضلع التي تشكل الزاوية القائمة، وهي ساحل المحيط كلّه الممتدّ بين الإثيوبيين والماوروسيين. أمّا رأس الشكل المذكور، والتي تكاد تنتمي إلى المنطقة الحارّة، فإنّ وعورة مسالكها ترغمنا على أن نكتفي بالتوقعات فقط، فأنا لا يمكنني أن أحدّد أقصى حدود هذه البلاد؛ مع أني كنت قد تحدّثت كثيراً فيما سبق من عرضي[1] هذا عن أننا لو اتّجهنا جنوباً من الإسكندرية إلى ميرويه عاصمة الإثيوبيين، فإن طول الطريق سيقارب 10.000 مرحلة، ومن هناك على خطّ مباشر إلى الحدود الفاصلة بين المنطقة الحارّة والمنطقة المعمورة، 3000 مرحلة أخرى، وهذا الامتداد هو الذي ينبغي اعتماده كأقصى عرض لليبيا، وعلى وجه التحديد 13.000 أو 14.000 مرحلة، أمّا طولها فهو أقلّ من هذا بمرتين. إن هذا وصفي لليبيا على وجه العموم. ويجب أن أنتقل الآن إلى التفاصيل، وسأبدأ من الأجزاء الغربية الأكثر شهرة.

2- تقطن هنا شعوب يدعوها الإغريق بالشعوب الماوروسية، ويدعوها الرومان محلّية: ماورية؛ وهؤلاء قبيلة ليبية غنية وكبيرة تعيش على الجانب المقابل لإيبيريا من المضيق. فهنا يوجد مضيق عند أعمدة هرقل كنت قد أتيت على ذكره مراراً. وإذا ما أبحرت من هذا المضيق إلى الأمام متخذاً ليبيا على يسارك، فإنك تصل إلى الجبل الذي يدعوه الإغريق جبل أطلس، بينما يدعوه البرابرة ديريس. ويخرج من هذا الجبل فرع: أقصى قمة إلى الغرب من ماوروسيا، وتدعى كوتيسا. وثمّة على مقربة مدينة صغيرة على البحر يدعوها البرابرة تينكس[2]، ويدعوها أرتيمدور لينكس، ويدعوها إيراتوسفين ليكس[3]. وتقع هذه المدينة على الجانب الآخر من المضيق عند المعبر المقابل لغادير على مسافة 800 مرحلة؛ وعلى مسافة مماثلة تقع كلّ من هاتين النقطتين عن مضيق أعمدة هرقل. وإلى الجنوب من ليكس وكوتيسا يقع خليج يدعى إيمبوريك عليه مستوطنات تجارية فينيقية. والحقيقة أن كلّ الساحل الذي يجاور هذا الخليج مليء بالأخوار، ولكن لو استبعدنا الأخوار والنتوءات من على هذا الشكل المثلث الذي

رسمتـه، فإنـه ينبغـي عندئـذٍ أن نتخيّـل أنّ امتـداد القـارّة سـيزداد نحـو الجنـوب والشـرق. وكما الجبل نفسه الذي يعبر في وسط ماوروسيا من كوتيسا حتّى السرتين، كذلك الجبـال الأخـرى الواقعـة في موازاتـه، يسـكنها في بـداياتها الماوروسـيون، لكـنّ عمـق البلاد تسكنه أكبر القبائل الليبية، قبيلة الجيتوليين.

3- ابتـداء مـن «رحلـة أوفيلـوس»[4]، جـاء المؤرّخـون بكـثير مـن الاختلاقـات حـول سـاحل ليبيـا الخـارجي؛ وأنـا كنـت قـد ذكّـرت بهـذا مـن قبـل[5]، وهـا أنـا أتحـدّث الآن ثانيـة، لكـني أُقـدّم اعتـذاري مسـبقاً عـن الحكـايـات العجيبيـة، إذا مـا وجـدت نفسـي مضطراً في مكـان ما على أن أذعن لشيء مـا يشـبه هـذا، لأنّـي لا أميـل إلى إغفـال هـذا كلّياً فأفسد بذلك روايتي إلى حدّ ما. فيروى مثلاً، إنـه ثمّـة في خليـج إيمبوريك كهـف يبتلـع البحـر في أثنـاء المـدّ علـى امتـداد سـبع مراحـل؛ وإن أمـام هـذا الخلـيج يقـع مكـان منخفض ومستو يقوم فيه مذبح لهرقل، وبحسـب الروايات أنّ المدّ لا يغمـره. وأنـا أرى أن هذه الرواية واحدة من الروايات المختلقة. وتشبه هذه الترّهة قصة تقول: كانـت تقـوم في الخلجان التي تلي خليج إيمبوريك مباشرة، قرى التيرينيين القديمة المهجورة الآن، والـتي لا يقـلّ عـددها عـن ثلاثمئـة مدينـة دمّرهـا الفاروسـيون والنيغريتيـون؛ ويقولـون، إن هـذه القبائل تقع على بعد ثلاثين يوماً عن لينكس.

4- ويقرّ جميعهم بحقيقة أن ماوروسيا بلاد فيها أنهار وبحيرات. ومـا عـدا منطقـة صغيرة لا أهمية لها، يكثر في هذه البلاد الشجر الكبير المتنوّع الذي يطرح كثيراً مـن الثمر. وتزوّد ماوروسـيا الرومـان بمناضـد كـبيرة الأحجـام، متنوّعـة الألـوان، ومصـنوعة من قطعة واحدة من الخشب. ويقال إن التماسيح ومختلف أنواع الحيوانـات الأخـرى الـتي تشـبه حيوانـات النيـل، تعيـش في أنهـار هـذه البـلاد. بـل وبحسـب بعضـهم، إن منـابع نهـر النيـل تقـع علـى مقربـة مـن أطـراف ماوروسـيا. ويعيـش في واحـد مـن أنهارهـا علـق طـول الواحدة منها 7 أذرع[6]، لها غلاصم مثقوبة تتنفّس منها. ويروى عـن هـذه البـلاد أنّ فيهـا عـرائش عنـب بالكـاد يسـتطيع أن يحضـنها شخصـان، وهـي تعطـي عناقيـد يصـل طـول الواحـد منهـا إلى مـا يقـارب الـذراع. وكـلّ نبـات في هـذه البـلاد ينمـو عاليـاً، كنبـات الأروم[7]، ونبات الدراكتونتوس[8] مثلاً، أمّا سيقان الستافيلين[9]، والهيبومارات[10] أو السـكوليم[11]، فيصـل طولها إلى 12 ذراعـاً، وثخنهـا 4 أشـبار. كمـا تعـدّ هـذه البـلاد موئلاً ملائماً للثعابين، والفيلة، والأيائل، والظباء[12]، وما شابه من الحيوانـات، ومثلها الأسـود، والفهـود. وتسـرح فيهـا بنـات عـرس الـتي يبلـغ حجـم واحـدتها حجـم الهـرّ، وهـي

تشبهه في كلّ شيء، ما عدا بوزها الأكثر بروزاً إلى الأمام. وهناك أيضاً كثير من القردة التي يروي عنها بوسيدونيوس ما يلي: في أثناء إبحاره من غادير إلى إيطاليا دُفع به إلى الساحل الليبي، فرأى هناك غابة تمتدّ حتّى البحر، مليئة بهذه الحيوانات؛ بعضها كان يجلس على الشجر، وبعضها الآخر على الأرض، وكان لدى بعضها صغارها الذين ترضعهم؛ وقد ضحك عندما رأى حيوانات بضروع ثقيلة؛ وكان بعضها أصلع، وبعضها الآخر بفتقٍ أو سوى ذلك من العيوب.

5- وفوق ماوروسيا على البحر تقع بلاد الذين يسمّون بالإثيوبيين الخارجيين، والشطر الأكبر من هذه البلاد سكّانه قلّة نادرة. وبحسب إيثيكراتيس(13)، إن الزراف، والفيلة، وما يدعى الريدزيس(14)، تسرح في هذه البلاد. وهذه الحيوانات الأخيرة تشبه الثيران من حيث الشكل، ولكنّها من حيث نمط عيشها، وكبر حجمها وقوتها في العراك، تشبه الفيلة. وهو يتحدّث عن ثعابين كبيرة إلى درجة أن الأعشاب تنبت على ظهورها. ويقول، إن الأُسود تهاجم صغار الفيلة فتجرحها، بيد أنها لا تلبث أن تولّي الأدبار مع اقتراب الأمهات؛ وعندما ترى الأمهات صغارهن مضرجين بالدماء، يجهّزن عليهم؛ عندئذٍ تعود الأسود وتلتهمهم. وعن الملك إله الماوروسيين يقول إيثيكراتيس، إن هذا الأخير سار إلى الأعلى ضدّ الإثيوبيين الغربيين، وأرسل من هناك هدية إلى زوجته عصيّاً قصبية تشبه العصيّ القصبية الهندية، اتسعت عقدتها لثمانية خينكيين، وأرسل إليها أيضاً سيقان من نبات الهليون من الحجم نفسه.

6- وإذا أبحرت من لينكس إلى البحر الداخلي، فستلقى على طريقك مدينة زيلوس وتينغوس، ثمّ نصب الأخوة السبعة والجبل الواقع فوقه والذي يدعى أبيلا، وهو مكان يعجّ بالحيوانات البرّية، ويكسوه شجر كبير. ويقولون، إنّ طول المضيق عند الأعمدة 120 مرحلة، وأصغر عرض له عند جبل إليفانتا 60 مرحلة. وتظهر للمبحر في البحر بعد ذلك عدة مدن وأنهار، حتّى نهر مولوهاس الذي يمثّل حدود أرض الماوروسيين والماسيسيليين. وتقع قرب النهر رأس بحرية كبيرة، وميتاغونيوس، وهي منطقة قاحلة جرداء؛ ويمتدّ الجبل الذي يبدأ من كوتيسا ليصل إلى هذا المكان تقريباً، ويبلغ طوله من كوتيسا حتّى حدود الماسيسليين 5000 مرحلة. أمّا ميتاغونيوس فهي تقع على الشاطئ الآخر قبالة قرطاجا الجديدة تقريباً؛ ويخطئ تيموسفين إذ يزعم أن ميتاغونيوس تقع قبالة ماساليا. فالمعبر من قرطاجا الجديدة إلى ميتاغونيا يشكّل 3000 مرحلة، ويمتدّ الإبحار على طول الساحل حتّى ماساليا أكثر من 6000 مرحلة.

7- ومع أن الشطر الأكبر من البلاد الذي يشغله الماوروسيون، أرض خصيبة. إلاّ أنّ أكثر سكّانه لا يزال حتّى يومنا هذه يعيش حياة البدو الرحّل. لكنّهم يحاولون تجميل منظرهم الخارجي، فيضفرون شعرهم على رؤوسهم، ويطلقون لحاهم، ويتزيّنون بالحليّ الذهبية، وينظفون أسنانهم، ويقلّمون أظافرهم. ومن النادر أن ترى بعضهم يلامس بعضاً أثناء التنزّه، لأنهم يحرصون على ألاّ تمسّ تسريحة شعرهم. ويقاتل أكثر فرسانهم مسلّحاً بالمزاريق، وعلى جياد لجامها من حبل ومن غير سروج؛ لكنّهم على أيّ حال يحملون سيوفاً. أمّا الجنود المشاة فيرتدون جلود الفيلة دروعاً يحتمون بها، ويرتدون جلود الأسود، والنمور، والدّببة وينامون عليها. وهذه القبيلة، ومثلها الماسيسيليون وكذلك الليبيون على وجه العموم، يرتدي أكثرهم الأزياء نفسها، ويشبهون بعضهم بعضاً في الميادين الأخرى أيضاً. جيادهم صغيرة، لكنّها سريعة ومطيعة إلى درجة أن قيادتها ممكنة بغصن صغير. ويضعون على جيادهم هذه أطواقاً من الشعر أو من النسيج القطني، وعليها يربطون أعنّة. وثمّة جياد تسير خلف أصحابها حتّى إذا لم يكن هؤلاء يقودونها من أعنّتها. ومن الشائع عندهم استخدام تروس جلدية صغيرة، ورماح صغيرة نهاياتها عريضة؛ ويرتدون جلابيب حاشياتها عريضة ومن غير أحزمة، كما يرتدون أيضاً جلوداً على شكل معاطف ودروع. ويستخدم الفاروس والنيغريت الذين يقطنون إلى الأعلى من هذه القبائل على مقربة من الإثيوبيين الغربيين، الأقواس، مثلهم مثل الأثيوبيين، كما يستخدمون المركبات القتالية المزوّدة بمناجل. ونادراً ما يتواصل الفاروس عبر الصحراء حتّى مع الماوروسيين، ويربطون إلى بطون جيادهم في غضون ذلك قرباً مملوءة بالماء؛ بل يأتون أحياناً إلى كيرتا عبر مناطق مستنقعات وبحيرات. ويروى أن بعضهم يعيش على غرار التروغلوديتيين، فيحفرون مساكن لهم في الأرض. ويقال أيضاً، إن الأمطار تهطل هنا أساساً في فصل الصيف، أمّا فصل الشتاء فهو فصل الجفاف؛ ويستخدم بعض البرابرة في هذا الجزء من العالم جلود الثعابين والأسماك ملابس ومفارش. وبحسب الكتّاب، إن الماوروسيين[15] هم هنود جاؤوا إلى هنا مع هرقل. وقبيل عصرنا بزمن قليل كان يملك هذه البلاد ملوك من سلالة بوغه وبوغ، الذين كانوا «أصدقاء الرومان» وبعد وفاتهم ورث يوبا مملكتهم، لأنّ أغسطس قيصر منحه هذه المملكة إضافة إلى أملاكه الموروثة. وكان هذا اليوبا ابن يوبا الذي حارب مع سيبيون ضدّ قيصر الإلهي. وقد توفى يوبا منذ بعض الوقت، فآل العرش إلى ابنه بطليموس الذي أنجبته له ابنة أنطونيو وكليوباترا.

8- يعارض أرتيميدور إيراتوسفين لأنه يدعو مدينة ما عند الأطراف الغربية لماوروسيا ليكس بدلاً من لينكس، ثمّ يذكر عدداً كبيراً من المدن الفينيقية المدمّرة التي لم يبق أيّ أثر منها اليوم؛ ويعارضه أيضاً لأنه يصف الهواء في منطقة الإثيوبيين الغربيين مالحاً، فإيراتوسفين يؤكّد أن الهواء في ساعات الصباح وساعات المساء كثيف وضبابي. فيتسائل أرتيميدور، كيف يمكن أن يكون هذا ممكناً في المناطق الجافة والحارّة؟ ولكنّه هو نفسه ينقل عن هذه المنطقة نفسها معلومات تثير الشك أكثر بما لا يقاس. فيروي قصة عن وافدين لوتوفاغيين يعيشون في منطقة قاحلة لا ماء فيها، ويقتاتون باللوتوس، وهو نوع معروف بنباته وجذره، وبعد أن يتذوّقه الإنسان لا يحس بحاجة للماء؛ وعلى حدّ قوله، إنّ مساكن اللوتوفاغيين تنتشر حتّى المنطقة الواقعة فوق قورينائية؛ بيد أنّ سكّان تلك الأماكن يشربون اللبن ويأكلون اللحم، مع أنهم يعيشون في دائرة العرض عينها. وعلى وجه العموم حتّى المؤرّخ الروماني غابينيوس لم يستطع أن يمسك نفسه بعيداً عن الحكايات الخرافية التي تروى عن ماوروسيا. فهو يتحدّث مثلاً عن قبر أنتييوس الواقع قرب لينكس، وعن طول هيكله العظمي الذي يبلغ 60 ذراعاً، والذي كان قد اكتشفه سرتوريوس ثمّ أمر بإعادة دفنه من جديد[16]. كما يروي قصصاً خيالية عن الفيلة. فيروي على سبيل المثال، أنه في الوقت الذي تفرّ فيه الحيوانات الأخرى هاربة من النار، فإن الفيلة تصارعها وتدافع عن نفسها ضدها، لأنّ النار تفني الغابات؛ وتصارع الفيلة البشر بضراوة، وترسل في غضون ذلك فرق استطلاع أمامها؛ وحينما ترى أن الناس ولّت الأدبار هاربة، تفعل هي الشيء عينه؛ وعندما تصاب الفيلة بجروح، فإنها تمدّ أغصاناً، أو أعشاباً، أو تثير الغبار علامة على طلب المساعدة.

9- بعد بلاد الماوروسيين تأتي منطقة الماسيسيليين التي تبدأ من نهر مولوهاس وتنتهي عند رأس بحرية تدعى تريتوس، التي تشكل الحدّ الفاصل بين بلاد الماسيسيليين وبلاد الماسيليين. والمسافة من ميتاغونيوس إلى تريتوس 6600 مرحلة، مع أنّ بعضهم يزعم أنها أقلّ. ويقع على الساحل عدد من المدن والأنهار ومنطقة خصيبة؛ ولكن يكفي أن نذكّر بالأكثر شهرة منها فقط. فعلى بعد ألف مرحلة من الحدود المذكورة تقع مدينة سيغا، وهي عاصمة الملك سوفاكس؛ لكنّ المدينة الآن أطلال. وكان قد استولى على البلاد بعد سوفاكس ماساناسّا، ثمّ ميكيبسا، وبعده خلفاؤه، وأخيراً في أيامنا هذه، يوبا والد يوبا الذي توفّي منذ بعض الوقت. وقد دمّر الرومان بعد

ذلك عاصمته. وبعد 600 مرحلة من سيغا تقع ثيون- ليمين[17] ثمّ أماكن أخرى لا أهمية لها. أمّا المناطق التي تقع في أعماق البلاد، فهي مناطق جبلية وصحراوية (تقع بينها في بعض الأحيان أماكن مسكونة يشغلهاالجيتوليون)[18]، وصولاً إلى السرتين، إلاّ أنّ الأماكن الساحلية هي عبارة عن سهول خصبة فيها كثير من المدن، والأنهار، والبحيرات.

10- وأنا لا أعرف إذا كان بوسيدونيوس على حقّ عندما يزعم أنّ «عدداً قليلاً فقط من الأنهار التي لا أهمية لها» يجري عبر ليبيا؛ فهذه الأنهار هي نفسها التي يشير أرتيميدور إلى أنها تقع بين لينكس وقرطاجا، ويصفها بالأنهار «الكبيرة والكثيرة العدد»[19]. ويسوق بوسيدونيوس نفسه سبب هذا، ففي الأجزاء الشمالية من ليبيا لا تهطل الأمطار، وهذا ما يزعمونه أيضاً بخصوص إثيوبيا؛ ولذلك ليس نادراً أن يتسبب الجفاف بانتشار الأمراض المعدية، فتمتلئ البحيرات بالوحل وينتشر الجراد. ويقول بعد ذلك، إنّ «الأجزاء الشرقية من ليبيا مشبعة بالرطوبة؛ لأنّ الشمس سرعان ما تعبرها لدى شروقها، بينما المناطق الغربية جافّة، لأنّ الشمس تنعطف هناك عائدة». فتدعى الأماكن جافّة أو رطبة تبعاً لوفرة المياه ونقصها، أو تبعاً لشدّة أشعة الشمس؛ لكنّ بوسيدونيوس لا يريد أن يتحدّث إلاّ عن تأثير أشعة الشمس؛ والكتّاب كلّهم يحدّدون تأثير هذه الأشعة تبعاً لدائرة العرض الشمالية أو الجنوبية. والحقيقة أنّ الجهة الشرقية والجهة الغربية تتبدّلان بالنسبة للأماكن المسكونة تبعاً لكلّ منطقة مسكونة ولتبدّل دوائر الأفق، وفي ظلّ وجود أعداد لا عدّ لها من الأماكن المسكونة، يغدو التأكيد على أنّ المناطق الشرقية على وجه العموم رطبة، والمناطق الغربية على وجه العموم جافة أمراً متعذّراً. ولكن بما أنّ المقصود بهذا التأكيد، هو العالم المسكون كلّه، ومناطقه الطرفية كالهند وإيبيريا، فقد يكون بوسيدونيوس قصد بقوله هذا إلى مثل هذا المغزى. فما هي حظوظ هذا التعليل من الصحّة؟ فهل «الارتداد»، أيّ ارتداد كان، ممكن في حركة الشمس الدائمة؟ أضف إلى هذا أنّ سرعة عبور الشمس هي واحدة في كلّ مكان. وعدّاك عن هذا كلّه من ذا الذي سيعارض ما هو مرئيّ بالعين المجرّدة ويصف إيبيريا أوماوروسيا (الطرفين الغربيين) بأكثر الأماكن جفافاً في العالم؛ فالمناخ في هذين الإقليمين معتدل، كما هو معروف، بل وأمطارهما غزيرة. ولكن إذا فهمنا «ارتداد» الشمس بمعنى أنها هنا في أقصى أطراف المعمورة تقع فوق الأرض، فإن السؤال الذي يطرح نفسه، هو ما علاقة هذا بالجفاف؟ فليس هنا فقط، إنما في أجزاء

المعمورة الأخرى كلّها التي تقع على دائرة العرض عينها مع مرور حدّ زمني واحد هو الليل، تعود الشمس من جديد لتسخّن الأرض[20].

11- ويقع هنا[21] في مكان ما ينبوع إسفلت، ومناجم للنحاس. ويذكرون أيضاً حشوداً كبيرة من العقارب المجنّحة والتي ليس لها أجنحة، وهي تتميّز بحجمها [الكبير]، ولها 7 فقرات[22]؛ كما يتحدّثون عن رتيلاء هذا المكان العظيمة الحجم؛ والعظاءات التي يبلغ طول واحدتها ذراعين. ويروى أنّ الشطر الجبلي من البلاد فيه ليخنيت[23] وحجارة تدعى بالحجارة القرطاجية[24]؛ وفي السهول كميات كبيرة من الصدف المحاري ذي الدرفين، وهذا ما ذكرته سابقاً لدى وصفي لآمون[25]. وتنمو هناك شجرة تدعى ميليلوت[26]، يستخرجون منها النبيذ. وعند بعض القبائل المحلّية تعطي الأرض محصولين، محصول يجنونه في الصيف، ومحصول يجنونه في الربيع؛ ويبلغ طول ساق النبات هنا خمس أذرع، وثخانته ثخانة الخنصر، ويعطي ثمراً يعادل ضعفه 240 مرّة. وفي الربيع لا يبذرون، إنما يجرحون سطح الأرض الزراعية بحزم من الباليور[27] ويكتفون [بالبذور] التي تتساقط من السنابل في أثناء الحصاد؛ لأنّ هذا يعطي محصولاً صيفياً كاملاً. وبسبب وجود أعداد كبيرة من الحيوانات المؤذية، تراهم يعملون وهم ينتعلون الجِزم، ويغطّون باقي أجزاء الجسد بالجلود. وعندما يستلقون للنوم يدهنون قوائم أسرتهم بالثوم خوفاً من العقارب، ويطوّقونها بحزم من الباليور.

12- وكانت تقع على هذا الساحل مدينة تدعى إيول أعاد بناءها يوبا بن بطليموس، وغيّر اسمها إلى قيصرية؛ وتوجد هناك ميناء تقع أمامها جزيرة صغيرة. وتقع بين القيصرية وتريتوس ميناء كبيرة تدعى سلدا؛ وتشكّل هذه الميناء الحدّ الفاصل بين يوبا والرومان. فقد كانت البلاد تقسم بطريقة مختلفة لأنّ القبائل التي كانت تسكنها كثيرة، وقد تعامل الرومان معها بطرق اختلفت بحسب الزمن: تارة «كأصدقاء» وتارة كأعداء؛ ولذلك كانوا ينتزعون أجزاء من الأرض من بعضها أحياناً، أو يضيفون أجزاء منها إلى أراضي بعضها الآخر أحياناً أخرى، ولم يفعل الرومان ذلك بوسيلة واحدة. وعلى وجه العموم كانت البلاد الواقعة قرب ماوروسيا أكثر غنى وقوّة، بينما تلك القريبة من قرطاجا والماسيليين أكثر ازدهاراً، وأفضل استثماراً، مع أنها كانت من قبل تعاني من حروب القرطاجيين، وبعد ذلك من حرب يوغورتا. فهذا الأخير حاصر أداربال صديق الرومان، في إيتيكا وأخذه أسيراً ثمّ قتله،

ومن ثمّ أضنى ليبيا كلّها بحربه. واشتعلت بعد ذلك الحروب واحدة إثر الأخرى، وآخر هذه الحروب تلك التي دارت بين قيصر الإلهي وسيبيون؛ وفي هذه الحرب هلك يوبا نفسه. ومع إبادة القادة العسكريين، دمّرت المدن أيضاً، خاصة مدن تيسياونت، وفاغا، وفالا، وكابسا التي كانت تخزن فيها كنوز يوغورتا، إضافة إلى مدينة زاما وزينخا، أي تلك المدن التي حقّق قيصر الإلهي قربها نصره على سيبيون، فقد هزمه عند روسبين أوّلاً، ثمّ عند أوزيتا[28]، وبعد ذلك عند فابس قرب البحيرة المجاورة، وعند المدن الأخرى أيضاً. وغير بعيد من هنا تقع المدينتان الحرّتان زيلاّ وآخولا. واستولى قيصر عنوة على جزيرة كيركينا ومدينة ثينا الساحلية. وقد اندثرت واحدة من هذه المدن اندثاراً تاماً، أمّا الأخرى فقد بقيت شبه مدمّرة. وأحرق فرسان سيبيون مدينة فارّا.

13- وبعد تريتوس تمتدّ بلاد الماسيليين ومنطقة القرطاجيين التي تشبهها. وتقع كيرتا في وسط البلاد؛ وهي عاصمة ماساناسّا وخلفائه؛ وتعدّ هذه المدينة محصّنة تحصيناً قوياً، ومجهّزة أفضل تجهيز من النواحي كلّها، خاصة في عهد ميكيبسا الذي أسكن فيها حتّى الإغريق، وضاعفها حتّى بات بإمكانه أن يجندّ 10.000 فارس وضعفي العدد من المقاتلين المشاة. وعلى هذا النحو لا تقع هنا كيرتا فقط، إنّما هيبونان أيضاً: واحدة قرب إيتيكا، والأخرى على الطريق نحو تريتوس؛ وكانت المدينتان مقرّين ملكيين. ومن حيث الحجم والأهمّية تعدّ إيتيكا المدينة الثانية بعد قرطاجا. فبعد دمار قرطاجا غدت هذه المدينة بمثابة العاصمة لدى الرومان، ونقطة استناد لتحركاتهم في ليبيا. وتقع هذه المدينة في الخليج القرطاجي نفسه عند واحدة من الرؤوس البحرية التي تشكّل هذا الخليج؛ وتدعى إحدى هذه الرؤوس، وهي الرأس الواقعة قرب إيتيكا، تدعى رأس أبوللونيوس، والأخرى رأس هرمييوس؛ وتقع المدينتان قبالة بعضهما وجهاً لوجه. ويجري قرب إيتيكا نهر باغرادا. ومن تريتوس إلى قرطاجا 2500 مرحلة؛ بيد أنه ليس ثمّة توافق حول هذه المسافة وكذلك حول المسافة من هنا إلى السرتين.

14- وتقع قرطاجا على ما يشبه الجزيرة، ويبلغ امتداد دائرة سورها 360 مرحلة؛ وتبلغ دائرة البرزخ نفسه الذي يمتدّ من البحر إلى البحر 60 مرحلة؛ وكانت لدى القرطاجيين هناك مرابط للفيلة، وهي مكان رحب جدّاً. وفي وسط المدينة كان يقع الأكروبوليس الذي دعوه بيرسا، وهذا عبارة عن مرتفع شديد الانحدار إلى حدّ ما،

يسـكنه النـاس مـن مختلـف جهاتـه؛ وعلـى قمتـه كـان يقـوم معبـد أسـكليبوس الـذي أحرقتـه وأحرقـت نفسـها معـه زوجـة هسـدروبعل بعـد سـقوط المدينـة. وتقـع عنـد سـفح الأكروبوليس مـراس وكفـون، وهـذا الأخير عبـارة عـن جزيـرة دائريـة تحيط بهـا قنـاة انتشرت على امتدادها ترسانات لبناء السفن وإصلاحها.

15- وكانت ديدونا هي التي بنت هذه المدينة وجاءتها بالسكّان من صور. وقد كانت هـذه المستعمرة ومثلها المستعمرات الأخرى التي وصلت حتّى إيبيريا على هـذا الجانب من الأعمدة وذاك، نشاطاً فينيقياً موفقاً إلى درجة أنها لا تـزال حتّى يومنا هـذا تشـغل أفضـل شـطر بـرّي مـن أوروبـا والجـزر المجـاورة، بـل وأخضـعت لسـلطانها ليبيـا كلّهـا، فهنـاك يسـتطيع العـيش أيضـاً غـير البـدو الرحّـل. وبفضـل هـذا الجـبروت نجـح القرطاجيون في جعل مدينتهم منافساً خطيراً لروما، وليس هـذا وحسـب، إنمـا خاضـوا ضدّها ثـلاث حـروب كـبرى. وربّمـا يكـون جبروتهم هـذا قـد تجلّـى بأسـطع صـوره في الحـرب الأخيرة الـتي هزمـوا فيهـا أمـام يميليـان سـيبيون ودمّـرت فيهـا مـدينتهم. فعنـدما بدؤوا هذه الحرب كانوا يملكون في ليبيا ثلاثمئة مدينة، وكـان عـدد سـكّان مـدنهم عندئذٍ 700.000 نسمة. ولمّا أرغمهـم الحصـار علـى الاستسـلام لتفـادي مواصلـة الحـرب، سلّموا 200.000 وحدة كاملـة مـن السـلاح، و3000 جهـاز منجنيـق؛ ولمّـا قـرروا اسـتئناف الحـرب، هبّـوا مباشـرة لصـناعة السـلاح، فكـانوا يصـنعون في كـلّ يـوم 140 ترسـاً طويلاً، و300 سيف، و500 رمح، و1000 قذيفة منجنيق؛ وكانت الخادمات هن اللـواتي يوفّرن الشعر لصناعة حبال المنجنيق. ومع أن شـروط اتفـاق السـلام الـذي وقّعـوه منـذ 50 عاماً بعد الحرب الثانية، قضت بألاّ يملكوا سوى 12 سـفينة، إلاّ أنهـم علـى الـرغم مـن ذلك، نجحوا في خلال شهرين ببناء 120 سفينة ذات سطح (مع أنهم أُرغموا علـى الفـرار إلى البيرسا)؛ وبما أن ثغر الكوفون كـان تحـت سيطرة الأعـداء، فقـد حفـروا لـه ثغـراً آخر، وخرج أسطولهم إلى البحر على حين غرّة من أعدائهم. لقـد كـان لـديهم احتيـاطي قديم من الخشب الصالح لبناء السفن، وأعداد كبيرة من البناة النجارين الذين كـانوا يعيشـون علـى نفقـة الدولـة؛ ومـع ذلـك سـقطت قرطاجـا ودمّـرت. وفيمـا يخـصّ منطقـة قرطاجا، فقـد حـوّل الرومـان الجـزء الخاضـع منهـا لسـيطرة القرطـاجيين إلى مقاطعـة، وأعطـوا الجـزء الآخـر لماسـاناسـا وخلفائـه ابتـداء مـن ميكيبسـا. فقـد كـان ماسـاناسـا يحظى بمكانة خاصة لدى الرومـان، بفضـل شـجاعته وبسـالته وموقفـه الـودّي تجـاههم. والحقيقة أن هذا الرجل أهّل البدو لنمط العيش المدني، وجعـل مـنهم فلاّحـين، وعلّمهـم

شؤون الحرب ومعها شنّ الغزوات. فقد وقع لهؤلاء الناس شيء ما غريب: مع أنهم كانوا يعيشون في بلاد معطاءة، ليست غنية إلاّ بالوحوش البرية، إلاّ أنهم لم يتخذوا أيّ إجراء للتخلّص منها كي يتمكنوا من حراثة الأرض وزراعتها بأمان، بل كانوا يهاجمون بعضهم بعضاً، وتركوا الأرض للوحوش البرية. وعلى هذا النحو لم يبق لهم إلاّ أن يعيشوا حياة التنقّل والترحال مثلهم مثل القبائل التي أدّى بها الفقر والشحّ، وجدب التربة، أو المناخ السيّئ إلى هذا النمط من العيش؛ ولذلك أطلق على الماسيليين اسم خاص، إذ يدعونهم «نوماديين»[29]. وينبغي أن تكون مثل هذه القبائل بالضرورة قبائل قانعة بحياتها: يقتات أفرادها أساساً على الجذور واللحوم، ويستهلكون اللبن والجبن في غذائهم. وهكذا بقيت قرطاجا ركاماً لزمن طويل (ما يقارب الزمن الذي بقيته كورينثوس تحت الركام). إلاّ أنّ قيصر الإلهي أعاد بناءها تقريباً في الوقت الذي أعاد فيه بناء كورينثوس؛ لقد أرسل قيصر إلى هناك مستعمرين رومان آثروا أن يعيشوا في قرطاجا، كما أرسل إلى هناك بعض الجنود أيضاً. وتزدهر قرطاجا في وقتنا الراهن، مثلها في هذا مثل أيّ مدينة في ليبيا.

16- وتقع قبالة الجزء الأوسط من خليج قرطاجا، جزيرة كورسورا[30]. وعلى الجانب الآخر من المضيق. قبالة هذه الأماكن، تقع صقليا، وعلى وجه التحديد جزؤها القريب من ليليبيه، على مسافة تقارب 15.000 مرحلة، لأنهم يقولون، إنّها المسافة نفسها بين ليليبيه وقرطاجا. ولا تبتعد عن كورسورا وصقليا كثيراً جزيرة إيغيمور والجزر الأخرى. فالمسافة بين قرطاجا وأقرب نقطة على الشاطئ المقابل لها[31]، تشكّل 60 مرحلة، والطريق من هناك إلى داخل البلاد 120 مرحلة حتّى نيفيريس المدينة المحصّنة المبنية على الصخر. وفي ذلك الخليج نفسه، حيث قرطاجا أيضاً، تقع مدينة تينيس، والينابيع الحارّة، ومقالع حجارة. وتأتي بعد ذلك رأس هيرمييوس الصخرية البحرية، والمدينة التي تقع عليها، ثمّ نابولي؛ وبعدها رأس تافيتيدس البحرية وعليها هضبة تدعى أسبيس[32]؛ وكان أجاثوكليس التيران الصقلي قد عمّر هذه الهضبة بالسكّان بينما كان يشنّ حملته البحرية ضدّ القرطاجيين. ولكنّ هذه المدن دمّرها الرومان مع تدمير قرطاجا. وعلى بعد 400 مرحلة من تافيتيدس تقع جزيرة كوسّور[33]، قبالة نهر سيلينونت الصقلي والمدينة التي تحمل الاسم نفسه، والتي يبلغ امتداد محيطها 150 مرحلة؛ وتبعد المدينة عن صقليا 600 مرحلة؛ وعلى بعد 500 مرحلة من كوسور تقع جزيرة ميليتا. ثمّ تأتي مدينة أدريميس التي كانت فيها ترسانة لبناء

السفن وإصلاحها؛ ثمّ تأتي بعد ذلك مجموعة جزر صغيرة تدعى تارخيس تقع واحدتها قرب الأخرى مباشرة؛ وبعدها تأتي مدينة فابس تليها لوبادوسا، وهي جزيرة في عرض البحر؛ ثمّ تلي رأس آمون باليثون البحرية التي يقع عندها مكان لمراقبة حركة أسماك التنّ(34)؛ وبعد ذلك مدينة ثينا الواقعة عند أوّل سرت الصغير. وفي المدى الفاصل بين هذه الأماكن يقع كثير من المدن الصغيرة التي لا تستحقّ الذكر. وعند بداية سرت تقع جزيرة طويلة بعض الشيء هي جزيرة كيركينا، وهي جزيرة كبيرة فيها مدينة تحمل الاسم عينه؛ كما تقع هنا جزيرة أخرى أصغر من كيركينا، تدعى كيركينيتيدس.

17- وتجاور هذه الجزر سرت الصغير الذي يدعى أيضاً سرت اللوتوفاغيين. ويبلغ امتداد محيط هذا الخليج 1600 مرحلة، وعرض ثغره 600 مرحلة. وعلى كلّ رأس من الرأسين البحريتين اللتين تشكلان ثغر الخليج، تقع جزر قريبة من البرّ، وهي على وجه التحديد جزيرة كيركينا المذكورة، وجزيرة مينينغا المتساويتان بالحجم. ويعدّون مينينغا أرض اللوتوفاغيين التي ذكرها هوميروس: يعرضون عليك هناك بعض العلامات- مذبح أوديسيوس وثمرة اللوتوس نفسها؛ وينمو على هذه الجزيرة فعلاً، كثير من الأشجار التي تدعى لوتوس، ولثمارها طعم لذيذ حقّاً. وثمّة على الجزيرة عدد من المدن الصغيرة، تحمل واحدة منها اسم الجزيرة. وفي سرت نفسه عدد من المدن الصغيرة. وتقع في عمق الخليج ميناء كبيرة جدّاً، ونهر يصبّ في الخليج. وتصل فاعلية المدّ والجزر إلى هذه النقطة، فيخفّ السكّان إلى هنا في وقت حصولهما لكي يصيدوا الأسماك.

18- وبعد سرت تقع بحيرة زوخيوس التي يبلغ محيطها 400 مرحلة، مدخلها ضيّق؛ تقوم عليه مدينة تحمل اسمها نفسه، وفي المدينة ورش للصباغ، ومختلف أنواع ورش تمليح الأسماك؛ ثمّ تليها بحيرة أخرى أصغر منها بكثير؛ وبعدها مدينة أبروتون وبعض المدن الأخرى؛ وتقع بعدها مباشرة مدينة نابولي التي تدعى ليبتوس أيضاً؛ وتبلغ مسافة المعبر من هنا إلى اللوكريين الإيبيزيفيريين 3600 مرحلة. ويأتي بعد ذلك نهر يليه ما يشبه المزلقان الفاصل الذي بناه القرطاجيون الذين كانوا قد بنوا جسوراً عبر بعض المهاوي التي تمتدّ إلى داخل البلاد. وثمّة بعض الأماكن هنا خالية من الموانئ والمراسي، بينما باقي الشاطئ عليه ما يكفي منها. ونلقى بعد ذلك رأساً بحرية عالية تكسوها غابة، وهذه الرأس هي التي تشكّل بداية سرت الكبير، وتدعى كيثالا. والمسافة من قرطاجا حتّى هذه الرأس أكثر من 5000 مرحلة بقليل.

19- وفوق الساحل، من قرطاجا حتّى بلاد الماسيسيليين، تمتدّ أرض الليبيين -الفينيقيين التي تصل حدودها حتّى منطقة الجيتوليين الجبلية التي هي ليبيا نفسها. وإلى الأعلى من الجيتوليين تمتدّ بلاد الجرمنت على موازاة أرضهم التي يأتي القرطاجيون منها بالحجارة. وبحسب الروايات أن الجرمنت يبعدون مسافة تسعة أو عشرة أيام عن الإثيوبيين الذين يعيشون على شواطئ المحيط، ويبعدون عن آمون خمسة عشر يوماً. ولا ينبسط بين الجيتوليين وساحلنا كثير من السهول وحسب، بل يرتفع كثير من الجبال أيضاً، كما يقع كثير من البحيرات والأنهار الكبيرة؛ ويختفي بعض الأنهار تحت الأرض ليغيب تماماً عن الرؤية. وتعيش الناس هنا عيشة بسيطة، وترتدى ملابس بسيطة جدّاً، ويتزوّج الرجال بكثير من الزوجات وينجبون كثيراً من الأولاد؛ وفيما تبقّى يشبهون العرب الرحّل في كلّ شيء؛ وأعناق الخيل والثيران هنا أطول منها في البلدان الأخرى. ويربيّ الملوك الخيل هنا بشغف كبير، ويبلغ عدد المهور منها سنوياً ما يقارب 100.000 رأس. ويطعمون الغنم لبناً ولحماً، خاصة في المناطق القريبة من الإثيوبيين. وهذا ما يمكنني قوله عن المناطق الداخلية من البلاد.

20- يشغل محيط السرت الكبير ما يقارب 3960 مرحلة، ويبلغ قطره حتّى المنخفض 1500 مرحلة، ومثلها تقريباً يبلغ عرض ثغره. والخطر في هذا السرت والسرت الصغير، هو أنّ فيهما كثيراً من الأماكن الضحلة، وفي وقت المدّ والجز يقع بعض البحارة في هذه الأماكن ويعلقون هناك، ومن النادر جدّاً أن تنجو السفن من ورطتها وتخرج من هناك. ولذلك يبحر البحارة عبر معابر بعيدة عن هذا المكان خوفاً من أن تدفعهم الريح على حين غرّة إلى الخليج. وعلى وجه العموم، ترغم المخاطرة الناس على كلّ شيء، خاصة على الإبحار الخطر على طول الساحل. وعلى الجانب اليميني لدى الدخول إلى السرت الكبير، بعد كيثالا، تقع بحيرة يقارب طولها 300 مرحلة، وعرضها 70 مرحلة؛ وهي تصبّ في الخليج وفيها جزر صغيرة، وأمام ثغرها تقع محطة شراعية. ويقع خلف الجزيرة مكان يدعى أسبيس، وتقوم أفضل ميناء في السرتين. وبعد ذلك مباشرة يرتفع برج يوثرانس الذي كان يشكّل الحدّ الفاصل بين أملاك قرطاجا السابقة وأملاك قورينائية في عهد بطليموس؛ ويأتي بعد ذلك مكان يدعى خاراكس كان القرطاجيون يستخدمونه ميناء لهم؛ فإلى هنا كانوا يأتون بنبيذهم ليبادلوا به السلفيوم وعصيره اللذين كان يحملهما التجار إلى هنا سرّاً من قورينا. ويقع بعد ذلك مذبحا الأخوين فيلني، وبعدهما قلعة أوتومالا التي يعسكر فيها فوج، وتقع

في عمق الخليج كلّه. ودائرة العرض التي تمرّ عبر هذه الزاوية، تقع إلى الجنوب قليلاً من دائرة العرض التي تمرّ عبر الإسكندرية- على مسافة 1000 مرحلة - وأقلّ من 2000 مرحلة إلى الجنوب من دائرة العرض التي تمرّ عبر قرطاجا. وتتطابق دائرة العرض هذه مع دائرة العرض التي تمرّ عبر هيرونبوليس الواقعة في منخفض الخليج العربي من جهة، ودائرة العرض التي تمرّ عبر المناطق الداخلية للماسيسيليين والماوروسيين من جهة أخرى. والشطر المتبقي من الساحل من هنا حتّى مدينة برينيقي، يمتدّ طولاً مسافة 1500 مرحلة. ويقيم النسّامونيون - قبيلة ليبية - إلى الأعلى من الساحل، وتمتدّ منطقتهم حتّى مذبحيّ الأخوين فيليني. ولا يوجد في هذه الحيّز سوى قليل من المراسي، أمّا المجّمعات المائية فهي نادرة. وتقع هنا رأس بحرية تدعى بسيدوبنيادس تقع عليها برينيقي عند بحيرة ما تدعى تريتونيدس تشتهر فيها على وجه الخصوص جزيرة صغيرة فيها حرم لأفروديت. وثمّة في هذا المكان بحيرة[35] الهسبيريدس التي يصبّ فيها نهر يدعى لاثون. وبعد ذلك في العمق[36]، بعد برينيقي تقع رأس بحرية صغيرة تدعى بورياس تشكّل مع كيثالا ثغر السرت. وتقع برينيقي قبالة أطراف البيلوبونيز مقابل ما يدعى إيختيس، وكذلك قبالة زكينثوس على مسافة معبر امتداده 3600 مرحلة. ومن هذه المدينة طاف مارك كاتون السرت برّاً في 30 يوماً ومعه جيش قوامه أكثر من 10.000 مقاتل[37]، قسمّه إلى وحدات بما يتلاءم ومصادر المياه؛ لقد سار كاتون راجلاً عبر الرمال العميقة والحرّ الشديد. وبعد برينيقي تقع مدينة تاهيرا التي تدعى أرسينويا أيضاً، تليها برقة التي تدعى الآن بطليموسيا، ثمّ رأس ثيكونت البحرية، ومع أنها منخفضة إلاّ أنها تبرز عميقاً نحو الشمال مقارنة بباقي الساحل الليبي؛ وتقع هذه الرأس قبالة تينار في لاكونيا على مسافة معبر يمتدّ 2800 مرحلة؛ كما تقع هنا مدينة تحمل اسم الرأس نفسه. وغير بعيد عن ثيكونت تقع محطة شراعية للقورينيين، وعلى ما يقارب 170 مرحلة من هذه المدينة تقع مدينة أبوللونيا، وعلى مسافة 1000 مرحلة عن برينيقي، و80 مرحلة عن قورينا؛ وهذه الأخيرة مدينة كبيرة تقع في سهل على شكل شبه منحرف، كما بدا لي عندما رأيته من البحر.

21- لقد أسّس قورينا مستعمرون من جزيرة ثيرا اللاكونية التي كانت تدعى قديماً كالليستا، كما يقول كاليماخ:

في الماضي كانت كالليستا، وأعطيت فيما بعد اسم ثيرا،

مسقط رأس أمّي، البلاد الشهيرة بالخيل.

وتقع محطّة القورينيين الشراعية قبالة الطرف الغربي من كريت-كريوميتوبون- على مسافة 2000 مرحلة منه؛ ويبدأ الإبحار مع لوكونوت[38]. ويروى أن قورينا تأسّست على يدي باتوس[39]، الذي دعاه كاليماخ جدّه. وقد نمت مدينة قورينا واتسعت بفضل التميّز الاستثنائي لمنطقتها، فهذه المنطقة تنتج خيولاً ممتازة، وتربتها شديدة الخصوبة وكثيرة الغلال؛ وكان يسكنها كثير من الناس الذين اشتهروا بقدرتهم على حماية حريتهم كما يجب، وبجبروتهم في مقاومة الأعداء البرابرة الذين كانوا يسكنون المناطق الواقعة إلى الأعلى. وفي الأزمنة القديمة كانت قورينا مدينة مستقلّة، ثمّ هاجمها المقدونيون الذين استولوا على مصر، وقد قاد الهجوم عليها ثيبرون ومعاونوه الذين قتلوا غاربال. وكان القورينيون قد عاشوا بعض الوقت تحت حكم الملوك، ثمّ انتقلت السلطة عليهم إلى الرومان؛ وتشكّل المدينة الآن مع كريت ولاية رومانية واحدة. وتقوم في ضواحي مدينة قورينا مدن صغيرة تابعة لها، هي أبوللونيا، وبرقة، وتاهيرا، وبرينيقي؛ وثمّة في المنطقة مدن صغيرة أخرى تقع على مقربة.

22- وتجاور قورينائية بلاد تنتج السلفيوم والعصير القوريني الذي يستخرج منه بعد أن يُعصر. ويكاد يكون هذا النبات قد انقرض، بعد أن اجتاح البرابرة البلاد بسبب عداوة ما واجتثّوا جذوره. وكان هؤلاء من البدو الرحّل. ومن أشهر شخصيات قورينا، أريستيبوس الذي كان ينتمي إلى مدرسة سقراط، وقد أنشأ هذا مدرسة قورينا الفلسفية؛ تليه ابنته أريتا التي ورثت مدرسته؛ وورثها عنها ابنها أريستيبوس الذي حمل لقب ميتروديداكت[40]؛ ثمّ تزعّم المدرسة أنّيكيريستوس الذي يُظنّ أنه صحّح تعاليم المدرسة، وأدخل بدلاً منها التعاليم «الأنّيكيريستية». ومن القورينيين أيضاً كاليماخ وإيراتوسفين اللذان حظيا بتكريم كبير عند ملوك مصر؛ الأوّل بصفته شاعراً وعالماً يشتغل في ميدان الأدب، وتميّز الثاني في هذا الميدان نفسه وفي ميدان الفلسفة والرياضيات كما لم يتميّز فيها أحد آخر. ومن قورينا أيضاً كارينادس[41] الذي يجمع الكتّاب على أنه كان أفضل فلاسفة الأكاديميا، ومنها أيضاً أبوللونيوس كرونوس معلّم ديودوروس دياليكتيكوس؛ وقد نال هذا الأخير بدوره لقب «كرونوس»، لأنّ بعضهم أطلق لقب المعلّم على تلميذه. وبعد أبوللونيا يمتدّ ما تبقّى من الساحل القوريني حتّى كاتاباسم مسافة 2000 مرحلة؛ وليس الإبحار على طول هذا الساحل سهلاً البتّة، لأنّ الموانئ هنا قليلة وكذلك المحطات الشراعية، والقرى، والأحواض المائية. ومن المواقع على طول هذا الساحل، ناوستاسم وزيفيروس بمحطته

الشراعية، ثمّ زيفيروس آخر، ورأس بحرية تدعى كيدونيس عليها ميناء. وتقع هذه الرأس قبالة كيكليس في كريت، على مسافة 1500 مرحلة مع الريح الجنوبية الغربية. ويأتي بعد ذلك حرم ما لهرقل، وفوقه قرية تدعى باليور؛ وبعدها ميناء منيلايوس وأردانيس، وهذه الأخير رأس بحرية منخفضة عليها محطة شراعية؛ وتأتي بعد ذلك ميناء كبيرة تقع قبالتها كيرسونيس في كريت؛ وتبلغ المسافة بين هذين الموقعين حوالي 2000 مرحلة[42]. وفي الجهة المقابلة، على موازاة هذا الساحل تقريباً، تمتدّ جزيرة كريت الطويلة الضيّقة كلّها. وبعد الميناء الكبيرة تقع ميناء بلينوس، وفوقها تيترابيرغييا[43]؛ ويدعى هذا المكان كاتاباسم. وإلى هنا تمتدّ قورينائية. وأنا كنت قد تحدّثت لدى وصفي لمصر، عمّا تبقّى من هذا الساحل حتّى باريتونيوس، ومن هنا حتّى الإسكندرية.

23- يسكن الليبيون بلاداً قاحلة جافّة تقع في عمق القارّة فوق سرت وقورينائية؛ أوّلاً، النسّامونيون، وبعدهم البسيليون وبعض الجيتوليين، ثمّ الجرمنت؛ وأبعد إلى الشرق يسكن المارماريديون الذين يجاورون قورينائية على امتداد شاسع وتصل حدودهم حتّى آمون. وإذا ما انطلقت من منخفض السرت الكبير، عند أوتومالا تقريباً، نحو مطلع الشمس شتاء، فإنك تصل أوجيلا بعد 4 أيام. ويشبه هذا المكان آمون: لقد نبت هنا النخيل، وثمّة في المكان وفرة من المياه؛ ويمتدّ المكان فوق قورينائية نحو الجنوب مسافة 100 مرحلة تكسوها الأشجار، و100 مرحلة أخرى من الأراضي الزراعية فقط، مع أن الجفاف[44] لا يسمح بإنتاج الرزّ. وتقع فوق هذا المكان منطقة تنتج السلفيوم؛ ثمّ تلي ذلك منطقة مسكونة فأرض الجرمنت. والمنطقة التي تنتج السلفيوم منطقة ضيّقة وطويلة، وإلى حدّ كبير جافّة؛ فإذا اتّجهنا شرقاً، يبلغ طولها قرابة 1000 مرحلة، وعرضها 300 مرحلة أو أكثر بقليل، وينسحب هذا في أقلّ تقدير على الشطر المعروف منها. فنحن نستطيع أن نفترض أنّ كلّ البلاد التي تمتدّ امتداداً متواصلاً على دائرة عرض واحدة، متشابهة من حيث المناخ وعالم النبات؛ ولكن بما أنّ بعض الصحارى تتوزّع هنا، لذلك فإننا لا نعرف هذا المكان كلّه. وعلى النحو عينه نحن نجهل الأماكن التي تقع فوق آمون والواحات وصولاً إلى إثيوبيا؛ ولا نستطيع أن نعيّن حدود إثيوبيا ولا حدود ليبيا، بل ولا حدود المنطقة المجاورة لمصر، وبدرجة أقل حدود ما يمتدّ على ساحل المحيط.

24- لقد كانت تلك هي حال أجزاء العالم الذي نسكنه. ولكنّ بما أنّ

الرومان يملكون أفضل أجزائه وأكثرها شهرة، وتفوّقوا في ذلك على كلّ من سبقهم من الحكّام الذين نعرفهم، لذلك ينبغي أن نعرض لو لمحة موجزة عن أمراء إمبراطوريتهم. وأنا كنت ذكرت من قبل[45]، إنهم بعد أن خرجوا من مدينة واحدة، هي روما، استولوا على إيطاليا كلّها بالحرب، وبإدارة دولتهم إدارة حكيمة؛ وشرحت كيف استخدموا مهاراتهم وحذقهم نفسه وضموا إلى دولتهم، إضافة إلى إيطاليا، كلّ الأراضي الأخرى المجاورة. فمن القارّات الثلاث يمتلكون ما يقارب أوروبا كلها، ما عدا الأراضي الواقعة على الجانب الآخر إيستر ومناطق ساحل المحيط التي تقع بين الراين وتانايس. ويخضع لهم كلّ الساحل الليبي من بحرنا؛ أمّا الشطر الآخر من ليبيا، فهو غير مسكون البتّة، أو تسكنه أعداد من قبائل الرحّل. وعلى النحو نفسه يخضع لهم الساحل الآسيوي من بحرنا كلّه، إذا استثنينا مناطق الآخيين، والزيغيين، والجينوبيين، حيث يعيش السكّان هنا في الأخاديد والمناطق القاحلة على النهب، ويتنقلون دائماً من مكان لآخر. أمّا المناطق الداخلية من القارّة، والأراضي الواقعة في أعماقها، فإن الرومان يمتلكون شطراً منها، والشطر الآخر يمتلكه البارثيون والبرابرة الذين يعيشون إلى الأعلى منهم؛ وفي الشرق والشمال يعيش الهنود، والباكتريون، والسكيثيون، ثمّ العرب والإثيوبيون. ولكنّ شطراً ما من هذه الأملاك ينتقل دائماً إلى الرومان. ومن كلّ الأراضي الخاضعة لسلطة الرومان، يدير الملوك شؤون بعضها، وبعضها الآخر يملكه الرومان أنفسهم تحت مسمّى ولايات ويرسلون إلى هناك ولاة وجباة إتاوات. وثمّة هنا بعض المدن الحرّة: بعضها كان منذ البداية «صديقاً» للرومان، وبعضها الآخر منحه الرومان أنفسهم الحرية تعبيراً عن احترامهم لها. ويتبع للرومان هنا بعض زعماء القبائل والكهنة. ويعيش هؤلاء ويحكمون وفق قوانين أبوية موروثة.

25- وكانت الولايات تقسم في أوقات مختلفة بطرائق مختلفة؛ والتقسيم السائد الآن هو التقسيم الذي وضعه أغسطس قيصر. فبعد أن منحه الوطن المكانة الأولى في إدارة شؤون الدولة، والسلطة مدى الحياة في تقرير مسائل الحرب والسلام، قسّم أراضي الإمبراطورية كلّها إلى قسمين: قسم وضعه تحت سلطته الشخصية، والقسم الآخر تحت إدارة الشعب. فقد أبقى لنفسه المناطق التي تعدّ القوّة العسكرية ضرورية لحمايتها (لقد كانت هذه المناطق هي المناطق البربرية التي تجاور قبائل لم تخضعها روما لسلطتها بعد، أو أراضي قاحلة غير صالحة للعمل الزراعي؛ ولذلك كان

سكّان هذه المناطق الذين يعانون نقصاً في كلّ شيء، ويملكون كثيراً من الحصون، يحاولون دائماً التخلّص من التبعية وينزعون نحو العصيان)؛ أمّا الشعب فقد أعطاه أغسطس قيصر ما تبقى من الأراضي، لأنّ هذه كانت بلداناً مسالمة تسهل إدارتها من غير اللجوء إلى القوّة العسكرية. ثمّ قسم كلاً من الجزأين إلى عدد من الولايات يدعى بعضها «ولايات قيصر»، وتدعى الأخرى «ولايات الشعب». وكان قيصر يرسل إلى «ولايات قيصر» وكلاء ماليين، ومبعوثين، وهو يقسم الأراضي في غضون ذلك بطرائق تختلف من وقت لآخر، ويدير شؤونها بما يتوافق والظروف، بينما كان الشعب نفسه، هو الذي يرسل إلى «ولايات الشعب» قضاة، أو قناصل. وعلى وجه العموم كانت تقسيمات هذه الولايات تخضع بدورها لمختلف التغيّرات بما يتوافق والمنفعة منها. وفي أوّل الأمر أنشأ قيصر في أقلّ تقدير، ولايتين قنصليتين: ليبيا، لأنها كانت خاضعة للرومان (ما عدا أجزائها التي كانت تحت سلطة يوبا، والآن تحت سلطة ابنه بطليموس)، والجزء الآسيوي الواقع على هذا الجانب من هاليس وطوروس، ما عدا مناطق الغلاطين والقبائل الخاضعة لسلطة أمينتا، وكذلك بيثينيا وبروبونتيدا؛ ثانياً، 10 مقاطعات في أوروبا والجزر القريبة منها، على رأسها قضاة: أوّلاً، إيبيريا القصوى، التي تقع عند نهريّ بيتيس وأناس[46]؛ ثانياً، ناربونيتيدا في سلتيا؛ ثالثاً، سردينيا ومعها كيرن؛ رابعاً، صقليا؛ خامساً وسادساً في إيلليريا المنطقة الواقعة عند إيبير ومقدونيا؛ سابعاً، آخيا حتّى تساليا، وإيثوليا، وأكارنانيا وبعض القبائل الإيبيرية المجاورة لمقدونيا؛ ثامناً، كريت ومعها قورينائية؛ تاسعاً، قبرص؛ عاشراً، بيثينيا ومعها بروبونتيدا وبعض أجزاء البونتس. أمّا باقي المقاطعات فهي ملك لقيصر الذي يرسل إلى بعضها القناصل السابقين ممثلين له ومراقبين، ويرسل إلى بعضها الآخر القضاة السابقين، وإلى بعضها الثالث الفرسان. ويوجد دائماً في الأراضي التابعة لقيصر ملوك، وحكّام، وديكارخ. هكذا كانت عليه الحال وكذلك هي الآن.



ملحقـات

سترابـون و«جغرافيته»

ولد الجغرافي الإغريقي الشهير سترابون في حوالي العام 64 أو 63 ق.م، وتوفي في حوالي العام 23 أو 24م؛ أي إنه كان معاصراً لتشكيل الإمبراطورية الرومانية ونهاية العصر الهلنستي: أمام عيني سترابون سقطت في العام 30 ق.م. مملكة بطالمة مصر، آخر الممالك الهلنستية. وكان قد مرّ أكثر من مئة عام على خضوع اليونان الأوروبية لروما (في العام 146 ق.م). وعلى مدى 30 عاماً قبل معركة أكسيوم كانت اليونان مسرحاً لحروب مدمّرة، ونهب مفتوح، واستنزاف متواصل لأراضيها الزراعية. وكانت حروب ميتريدات (87-63 ق.م). آخر ضربة تلقاها اقتصاد اليونان الأوروبية وثقافتها: لم تقم لليونان قائمة بعد الدمار الذي تسببت به لها تلك الحروب.

ففي زمن سترابون كانت اليونان حقلاً من الأطلال تنتشر في شتّى أرجائه معالم الماضي العظيم: مناطق بكاملها خلت من سكّانها[1]، وصارت المدن التاريخية الشهيرة إلى قرى منسية، أو اختفت عن وجه الأرض تماماً. وانتقلت المراكز الاقتصادية والثقافية من شبه جزيرة البلقان إلى إيطاليا، والإسكندرية، وآسيا الصغرى، لكنّ مدن آسيا الصغرى الإغريقية، على الرغم من المحن كلّها، حافظت إلى حدّ ما على مستوى من الرخاء الاقتصادي، وعاشت حياة ثقافية نشطة.

ومع قيام الإمبراطورية تبدّلت سياسة روما الاقتصادية[2]، وصار استغلال

---

[1]- كانت عملية خلوّ اليونان من سكانها قد بدأت منذ القرن 2 ق.م. وفي زمن سترابون كانت حقول إيتوليا، وأكرانانيا، وأركاديا، وأرغوليدا التي خلت من سكانها قد تحوّلت إلى مراع تسرح فيها قطعان الخيل.

[2]- لقد اعتمد أغسطس في سياسته تجاه المقاطعات الإغريقية على الشرائح الاجتماعية الثرية في المدن الإغريقية، وعلى الأرستقراطيا الزراعية التي تهلنست؛ قارن: ن. أ. ماشكين. برينتسيبات أغسطس. موسكو- لينيغراد، 1949، ص. 485.

المقاطعات الإغريقية إلى منظومة أعدتها الدولة الرومانية الجديدة. لقد أقام أغسطس سيّد روما الجديد السلام، ووضع حدّاً لتعسّف حكّام المقاطعات، ونظّم نظام بيع حق جباية الضرائب[3]. واتخذ اجراءات لإعادة إعمار ما دمّرته الحروب والكوارث الطبيعية في المقاطعات[4]. ونتيجة لهذه التغيرات أخذت مدن آسيا الصغرى الإغريقية تتعافى بعض الشيء، بيد أنّ ذلك النهوض الاقتصادي والثقافي لم يطل اليونان الأوروبية؛ فقط أثينا وحدها استمرّت تحافظ على مكانتها كمركز ثقافي، وكأنها جامعة هلّادا، حيث واصل ممثلو مختلف المدارس الفلسفية قراءة محاضراتهم كالمعتاد، لكنّ أيّ عمل إبداعي علمي لم يجر وضعه بعد ذلك[5].

لقد غير كبار مالكي العبيد في المقاطعات سادتهم، وتصالحوا مع السيطرة الرومانية: كانت الحاميات الرومانية سنداً يعتمد عليه في إخماد انتفاضات العبيد وجماهير الأحرار الذين أضناهم الفقر والعوز[6].

كما أدركت دوائر المثقفين بدورها أن السلطة الجديدة راسخة «رسوخاً جدياً، ولأمد طويل»، ولذلك أخذت تتلاءم مع ذوق الحكّام الرومان وحاجاتهم. وقد طالب هؤلاء «بعلوم عملية ذات نفع». فأعلن كبار الفلاسفة والعلماء: بوليبيوس، وبانيسيوس، وبوسيدونيوس، صراحة أنهم من أنصار الرومان، وامتدحوا القوّة العسكرية الرومانية، وحكمة بناء الدولة الرومانية. وأخذ الفلاسفة، واللغويون، ومدرّسو البلاغة والبيان، والأطباء يتوافدون إلى روما تباعاً، وقد حقّق بعضهم شهرة عظيمة فيها من خلال تغلغلهم في الأوساط العليا للمجتمع الروماني، فبلغوا شأواً عظيماً في سمو

---

[3]- المرجع نفسه، ص 469.

[4]- أعاد أغسطس إعمار ما دمّره أنطونيو في آسيا، وأعاد التحف المسروقة، ومنح المدن هبات كبيرة، بل أدّى مرّة عن مقاطعة آسيا الإتاوة التي كانت مفروضة عليها.

[5]- يقول سيتسيرون: «منذ زمن بعيد مات العمل العلمي في أثينا لدى الأثينيين أنفسهم، لكنّ هذه المدينة بقيت موئل العلوم، التي لا يمارسها المواطنون، إنّما يستمتع بها الأجانب فقط، وكأنهم أسرى اسم المدينة وشهرتها» (الخطيب III، 11).

[6]- لقد أعلنت الشرائح الثرية في مدن آسيا الصغرى الإغريقية، التي كانت قد اعتادت الخنوع والتذلّل أمام الملوك الهلنستيين، أعلنت أغسطس إلهاً- مخلّصاً، عرفاناً منها وشكراً على إقامة السلام و«النظام». فأقيمت في كثير من مدن آسيا الصغرى معابد لإقامة طقوس عبادة أغسطس والإلهة روما (قارن: ن. أ. ماشكين، برينتسيبات أغسطس، ص. 488). وجاء عن أغسطس في نقش بريينا الذي يرقى تاريخه إلى العام 9 ق.م: (لقد أُرسل إلينا ولأعقابنا منقذاً ومخلّصاً، ليضع حدّاً للحرب، ويوطدّ كلّ شيء.... لقد كان يوم ميلاد هذا الإله بالنسبة للعالم كلّه بداية «بشرى» جاء بها مولده) (Dittenberger. Orientes Graeci Incriptiones Seleectae 458).

المكانة وامتلاك الثروة[7]. ومن بين العلماء الإغريق الآخرين الذين جاؤوا إلى عاصمة ذلك العالم، المؤرّخ والجغرافي البارز، سترابون ابن إقليم البونتس الذي كانت روما قد أخضعته لسلطانها منذ بعض الوقت.

يعود منشأ سترابون إلى أماسيا البونتية، وهي المركز الهلنستي الكبير الذي كان يسكن فيه عدد كبير من الإغريق. وكان أفراد عائلته يشغلون مناصب عالية لدى ملوك البونتس. فوالد جدّه كان القائد العسكري (taktikós) عند ميتريدات إيفباتور، وشغل قريبه الآخر منصب الكاهن الأكبر في كومّاجينا، وهو المنصب الذي يلي الملك من حيث الأهمية. وانتقل جدّ سترابون إلى جانب الرومان، لكنّه لم يتلق المكافأة التي وعده بها لوكولاّ، لأنّ السينات الروماني خضع لتأثير بومبيوس ورفض إقرار إجراءات لوكولاّ في آسيا.

وعلى أيّ حال نجحت عائلة سترابون التي اتخذت جانب الرومان، في أن تحافظ على ثروتها، وتحظى بنفوذ في الأوساط الرومانية داخل المقاطعة وفي روما نفسها. وتبعاً لذلك تمكّن سترابون من تحصيل تعليم عالٍ وفق مفهوم ذلك الزمن، في العلوم الفلسفية، بل وتكريس نفسه للرحلات العلمية، والعمل العلمي.

ومنذ أن كان سترابون شاباً صغيراً أرسله والده إلى نيسّا التي على نهر مياندرس، ليتلقّى محاضرات في البلاغة والبيان وفقه اللغة لدى أريستوديموس النيسي، قريب بوسيدونيوس ومربّي أبناء بومبيوس[8]. وكان معلّم سترابون في الفلسفة هو المشائي كسينارخ الذي كان ينتمي منشأ إلى سلوقيا الكيليكية (XIV، V، 4). وعلى أغلب الظنّ أنّ سترابون استمع إلى محاضرات كسينارخ في الإسكندرية أو في روما، حيث كان يتعلّم فيها أيضاً لدى اللغوي تيرانيون الأميسي[9] الذي دعاه سترابون «من أتباع أرسطو». ولكنّ الدراسة لدى الفلاسفة المشّائين، لم تمنع الجغرافي المقبل من الانتماء إلى الرواقيين[10]، لأنّ سيطرة الانتقائية في ذلك الوقت محت التباين بين

---

[7]- فمعلّم سترابون، كسينارخ المشّائي الذي كان ينتمي إلى سلوقيا الكيليكية، ألقى محاضرات في سلوقيا، ثمّ في الإسكندرية، وأثينا، وأخيراً في روما. كما كان بوسيدونيوس وثيوفانوس الميتيلينيان قريبين جدّاً من بومبيوس، أمّا آريوس ديديم فكان قريباً من أغسطس، و...

[8]- قد يكون سترابون تعرّف عن طريقه على أعمال الفيلسوف الشهير. فبحسب أثينوس (XIV، 75) أنّ لقاء جرى فيما بعد بين سترابون وبوسيدونيوس.

[9]- كان سيتسيرون (إلى أتيكوس II، 6، 1) قد رأى أنّ تيرانيون متخصص في الجغرافيا، وفكّر في أن يستعين به لكتابة مؤلّف في الجغرافيا. وقد يكون تيرانيون هو الذي غرس في سترابون اهتمامه الخاص بالجغرافيا.

[10]- في مؤلّفه «الجغرافيا» (I، II، 34) يدعو سترابون زينون: «زينوننا» (أي «كبير مدرستنا نحن الرواقيين»).

المدارس. ومنذ أن كان شاباً في مقتبل العمر جاب سترابون كثيراً من البلدان، وأجرى في كلّ مكان مراقبات دقيقة[11]. فقد زار نيسا، وكومانا الكاتاونية (XII، II، 3)، وأخدود نهر بيرام في طوروس (XIV، II، 23)، ثمّ زار ترالاّ (XIV، I، 42)، وهيرابوليس (XIII، IV، 14)، وإفسس (XIV، I، 23).

وفي سنّ النضج أيضاً طاف سترابون طويلاً مثلما كان قد فعل بوسيدونيوس وبوليبيوس، وهو ما تحدّث عنه هو نفسه متفاخراً (II، V، 10). فقد سافر من أرمينيا حتّى سردينيا ومن البحر الأسود حتّى جبال إثيوبيا في النيل الأعلى. ولكن يبدو أنّ هذه الرحلات لم تكن رحلات علمية متخصصة، كما كانت عليه رحلات بوسيدونيوس. ويمكن تحديد تاريخ بعض رحلات سترابون بدقّة. ففي العام 29 ق.م مثلاً، رسا سترابون وهو في طريقه إلى كورينثوس (حيث كان أغسطس هناك)، على شواطئ جزيرة هياروس الصغيرة (X، V، 3). وفي كورينثوس تفحّص سترابون أطلال المدينة وجزءها الذي أعاد قيصر بناءه، وصعد بنفسه إلى الأكروكورينثوس (VIII، VI، 26)؛ ولكن يبدو أنّ سترابون لم يزر أثينا أو أوليمبيا (في ذلك الوقت كانت ديلوس ركاماً).

في عاصمة العالم عاش سترابون طويلاً[12]، وتواصل مع الدوائر العليا في المجتمع الروماني. وكان بين أصدقائه سرفيليوس الإيسافري[13]، وجينيوس بيسون، وإيليوس غاللوس، وربّما هوراسيوس أيضاً[14]. وربّما كان سترابون على معرفة سابقة بثيوفانوس الميثيليني، صديق بومبيوس ومؤرّخ حملاته الشرقية، ثمّ التقى به ثانية في روما. وفي روما رأى سترابون شباناً بريطانيين (IV، V، 2)، وشاهد في السيرك موت قاطع الطريق الصقلي سيلوروس (VI، II، 6)، ونجح في أن يرى في معبد سيريس[15] لوحة أريستيد الشهيرة (VII، VI، 23). ومن روما وصل سترابون عبر طريق أبيوس إلى برونديزي (V، III، 6)، ووصل من هناك بحراً إلى بوبولونيا (V، II، 6). وفي الطريق من إيطاليا إلى الإسكندرية، أبحر سترابون على طول شواطئ إفريقيا. ورأى قورينا من

11- لا نعرف شيئاً عن أهداف هذه الرحلات ومدد استمرارها.

12- في المرة الأولى جاء إليها منذ العام 44 ق.م. (XII، VI، 2).

13- ربّما كانت عائلة سترابون من أتباع سرفيليوس الإيسافري (Strabon, 80 وRE).

14- انظر: W. Aly. Strabon von Amaseia. Munchen, 1960, p. 398.

15- احترق المعبد في العام 31 ق.م.

السـفينة (XVII، III، 20). وفي الإسـكندرية أقـام سـترابون فـترة طويلـة (II، III، 5). والتقـى فيهـا المـؤرّخ نيقموديمـوس الدمشـقي (XV، I، 73)، وشـاهد الثعـابين الهنديـة، والقزم «هرمس»، وهي الهدايا التي حملها سفراء الهند إلى أغسطس في العام 20 ق.م. (XV، IV، 45). ومن الإسكندرية قام سترابون بالرحلة التي كانت قد تحوّلت في ذلك الـزمن إلى موضـة- نزهـة في نهـر النيـل في عـداد حاشـية إيليـوس غـاللوس علـى خـط: هيليوس- ممفيس- الأهرامات- أرسينويا التي على بحيرة ميريدا- طيبـة- سيينا- جزيـرة فيلي- حدود إثيوبيا (XVII، I، 29، 31، 38، 46، 50).

في العام 13 ق.م زار سترابون الإسـكندرية مـرّة أخـرى[16]، ثمّ عـاد بعـد ذلـك إلى روما، على أغلب الظنّ.

ولـيس معروفـاً حتّـى الآن أيـن قضـى سـترابون آخـر سـني حياتـه: بعضـهم يقـول في روما، وبعضهم الآخـر في الشـرق[17]. وقـد تـوفّي سـترابون شـيخاً هرمـاً في حـوالي العـام 23- 24م.

وكـان أوّل عمـل كتبـه سـترابون هـو «مـدوّنات تاريخيـة»، الـذي لم يبـق ليصـل إلينا، وقد وضعه المؤلّف بطريقة يبدو فيها كأنه استمرار «لتاريخ» بوليبيوس؛ وتناولـت «مدوّنات» سترابون الأحداث التاريخية التي وقعت منـذ دمـار قرطاجـا وكورينثـوس[18]، حتّى معركة أكسيوم (في العام 31 ق.م).

ثمّ جاء كتاب «الجغرافيا»، أو «المدوّنات الجغرافيـة» بمثابـة اسـتمرار «للمـدوّنات التاريخية»[19]، التي انتهى منها في العام 7 ق.م[20]، عنـدما كـان لـه مـن العمـر 70 عامـاً. ومن الواضح أنّ مؤلّف سـترابون هـذا خـرج إلى النـور بعـد وفاتـه، فقـد خـلا مـن التحريـر الأخير للمؤلّف[21].

وكان العقل الاستطلاعي الفضولي الإغريقي قد أخذ يهتم بالجغرافيا منذ وقت

16- يأتي على ذكر قيصريون (الذي كرّس لأغسطس في العام 10 ق.م)، ورواق ليبيا (الذي كرّس في العام 7 ق.م).

17- ثمّة اعتراض جدي على وجهة النظر الأخيرة هذه؛ لأن معرفة سترابون بأحداث الشرق في أواخر عهد أغسطس محدودة جداً (قارن RE, Strabon, 84)، أمّا الرأي القائل إن سترابون عمل مؤرّخاً لقصر الملكة بيثودوريدس، وإنه كتب لها «جغرافياه»، فإنه رأي ضعيف لا سند له (قارن: RE, Strabon, 83).

18- في العام 146 ق.م.

19- Geographira Hypomnemata.

20- RE, Strabon, 90.

21- انظر: W. Aly. Strabon von Amasela, p. 21

مبكر. فالمعطيات الجغرافية كانت قد وردت في أقدم مؤلّفات الإغريق: في ملحمتي هوميروس وقصائد هسيود الملحمية.

لقد ظهرت الجغرافيا في إيونيا في القرن السادس قبل الميلاد كجزء من «التاريخ»، وكانت في أوّل الأمر ذات طابع وصفي صرف، ومكرّسة لخدمة أغراض التجار والملاحين.

وكان إيراتوسفين القوريني (القرن 3 ق.م)، هو مؤسّس الاتجاه الرياضي الفلكي في الجغرافيا. فقد طبّق إيراتوسفين منهج الرياضيات في الجغرافيا، محاولاً بذلك إيجاد حلول للمسائل المتعلّقة بهيأة الأرض وأبعادها على وجه العموم، وببعض أجزاء المعمورة. فمدّ محورين رئيسين: دوائر الطول ودوائر العرض التي تتقاطع في رودوس، وحدّد طول دائرة الطول عبر بزنطا- رودوس- الإسكندرية وسيينا[22]. ثمّ ابتكر الفلكي الشهير هيبارخ شبكة الدرجات، فقسم متوازي دائرة عرض إيراتوسفين الرئيسة إلى 360°. فقد مدّ اثني عشر موازي دائرة عرض، وقسّم الأرض كلّها إلى «أقاليم» أو مناطق، فوضع بذلك أسس علم الخرائط.

ثمّ جاء بوليبيوس (القرن 2 ق.م) ليمثل اتجاهاً آخر في علم الجغرافيا، هو الجغرافيا التطبيقية السياسية؛ فبالنسبة إليه لم تكن الجغرافيا سوى علم تاريخي مساعد لا يمكن من دونه فهم الحملات العسكرية. وقصر بوليبيوس مهمّات الجغرافيا على الوصف التجريبي لبعض مناطق المعمورة[23].

ووفقاً لضرورات العصر ومصالح الحكّام الرومان المثقفين (I، I، 23) كان نزوع سترابون للأخذ برؤية بوليبيوس حازماً. فالجغرافيا بالنسبة لسترابون، هي علم عملي تطبيقي يهدف إلى خدمة الحكّام (II، I، 8)، ولذلك أكّد أنه لدى كتابة بحثه أخذ «مصالح الدولة ومنفعة الشعب»[24] بعين الحسبان. لقد جاء «جغرافياه» ليتيح لرجال الدولة والقادة العسكريين إمكانية لدراسة مسرح عملياتهم (I، I، 16). ولذلك ينبغي على الجغرافي أن يهتمّ أساساً بالمعمورة؛ أمّا المسائل النظرية المتعلّقة

22- إن منهج إيراتوسفين منهج عبقريّ ببساطة، فنتائج القياس جاءت مذهلة بدقتها بالنسبة لذلك الزمن.

23- يميّز سترابون الطبغرافيا، والكوروغرافيا عن الجغرافيا، وقد عثر على الطبغرافيا في أعمال بوليبيوس، وإيثور، وتيموسفين، وأرتيميدور (VIII، I، 1). وتختلف الطبغرافيا عن «وصف السواحل» و«المراحل» من جهة، وعن جغرافيا بوليبيوس وهيبارخ الفيزيائية والرياضية من جهة أخرى (قارن: VIII، I، 1؛ Physikos mathematirkos topos). والكوروغرافيا، هي وصف محلّي محدود (ما قاله بوليبيوس عن أوروبا مثلاً، II، 4، 1).

24- Politikon Kai demopheles.

بالأرض على وجه العموم، وذات الصلة بسكن أجزائها الأخرى، فينبغي ألاّ تكون لها أهمية جوهرية بالنسبة إليه. وفي الوقت نفسه يجب على الجغرافي أن يمتلك بعض المعطيات في الرياضيات، والفلك (I، I، 18)، مفترضاً أن لدى قرّائه مثلها (I، I، 22). ومن جهة أخرى يجب على رجل الدولة والقائد العسكري أن يحسن كلّ منهما استخدام المعطيات الجاهزة التي يقدّمها له الجغرافي في ميداني الرياضيات والفلك، لأنه ليس لديه مايكفي من الوقت للدخول في التفاصيل وممارسة أبحاثه الخاصة (I، I، 21). وعليه ليست الرياضيات والفلك بالنسبة للجغرافي سوى علمين مساعدين (II، V، 1).

وعلى هذا النحو يتبيّن أن سترابون يلتزم وجهة نظر الرومان التطبيقية الضيّقة، فلم يكن هؤلاء يحبّذون النظريات العلمية (Logos, thearia)، التي لا تعطي منفع مباشرة[25].

لقد كان سترابون يدرك تمام الإدراك أهمية بحثه وعظمته؛ فهو يسقط أحياناً في المنحى التربوي الإرشادي، وينتقد بكثير من الطيش (X، III، 5)، وفي مكان ما يعلن أنه لا يليق به أن يناقش جميعهم، إنما فقط من كان مثل إيراتوسفين، وبوسيدوينوس، وهيبارخ، وبوليبيوس[26]. وفي الدراسات الأوروبية الغربية اتهموا سترابون في وقت ما بافتقاره لروح الصيغة الفنية والقدرة على التذوّق[27]. بيد أنّه ينبغي أن نتذكّر أن سترابون لم يسع لغاية فنية، بل حدّد لنفسه مهمات أخرى: جدّية البحث وسهولة وصوله إلى القارئ. وهو لم يدّع «فنّ الأدب»[28]، بل عمل على الالتزام بالمنطق العلمي واللغة المعتدلة الجافّة.

إنّ «جغرافيا» سترابون ينتمي إلى جنس «المدوّنات الخالدة» (Hypomnemata)، فهو مؤلّف علمي خالص. وحيث يتحدّث المؤلّف باسمه يسود عنده نثر المقالات العلمية الجاف البعيد عن أي زخرفة فنّية، وهو يذكّر من حيث الأسلوب بنثر ديودوروس

25- قارن: J. Heiberg (Gereke- Norden. Einleitung in die Altert- umswissenschatt, Berlin, 1912), p. 422-423. وهو ينتقد إيراتوسفين وهيبارخ على مبالغتهما في زيادة الميادين الثانوية بالنسبة للجغرافي (الرياضيات- والفلك)، وينتقد بوسيدونيوس على ميله إلى الاشتقاق ومحاكاة أرسطو (II، III، 8).

26- والحقيقة أنه يتجاهل هذا الإعلان بعد بعض الوقت ويبدأ جدالاً مع إيثور (X، III، 2-4).

27- قارن: M. Dubois. Examen de La Geographie de Strabon Paris, 1891, p. 382.

28- تغيب البلاغة غياباً تامّاً عن عمله هذا، علماً بأنها كانت موضة ذلك العصر.

الصقلّي، أو ديونيسيوس الغاليكارناسي. وبسبب الكمّ الكبير من المصادر التي يقتبس منها سترابون، وتنوّع أساليب واضعيها، يصعب كثيراً تمييز أسلوبيته عن أسلوب المصادر[29]. وبعد أن يقتبس صفحات كاملة من مؤلّفات مختلف المؤلّفين (مؤلّفات أونيكسيريتيس مثلاً)، يعلن سترابون أنّ هذه المادّة لا نفع منها، لكنّه مع ذلك ينقل آلياً طابع أسلوبيتها[30]. وفي غالب الأحيان ينسب العلماء الأوروبيون الغربيون إلى سترابون تعسفاً، مختلف الإخفاقات في مغزى العرض وأسلوبيته، أمّا سموّ الفكرة وأناقة الأسلوب فقد نسبوهما على حساب نماذج سترابون، إلى بوسيدونيوس، وإيراتوسفين، وهيبارخ[31].

لقد فرضت المادّة نفسها على سترابون بنية كتاب «الجغرافيا» (ما عدا أوّل كتابين، أي ما يسمّى «المقدّمة»). ومن الواضح أن عرض الكتاب لم يأت وفق مخطط معدّ مسبقاً؛ لأنه يقطع في غالب الأحيان باستطرادات طويلة لا صلة لها بالموضوع الرئيس[32].

وغني عن البيان القول، إن منهج سترابون النقدي ليس منهجاً علمياً. ولكن على الرغم من الكيفية الظاهرية، إلاّ أن لنقده حدوداً ومعايير؛ فهو موجّه للبحث في المصدر عن «التناقضات» التي تلائم مقولات المدرسة الكلامية: «غير يقيني» (apithanon)، «مستحيل» (adynaton)، «متناقض» (enantion). وبعد إظهار مثل هذه «التناقضات»، ووفق معايير المنطق المدرسي، يستخدم سترابون طريقة «التسخيف» (reduction ad absurdum)[33]. وفي أحيان كثيرة تتأتّى المماحكات السخيفة، والتسرّع

---

[29]- قارن: RE, Strabonm, 96. تتباين على وجه الخصوص إحصاءات سترابون الجامدة، وأساليب الجدال المدرسية، والمعاندات الصغيرة، وعادية الصيغة والمحتوى على خلفية اقتباسات طويلة من بوسيدونيوس، المفكّر الفريد وصاحب الأسلوب البديع.

[30]- انظر: M. Dubois. Examen de La Geographie de Strabon, 247.

[31]- يزعم برغير مثلاً، أنّ سترابون أخذ عن بوليبيوس أهمّ موضوعات نقده لإيراتوسفين وهيبارخ، ومادّة النقد كلّها (قارن: H. Berger. Geschichte d. wissensch-aftlichen Erdkunde d. Griechen Berlin, 1887-1893, p. 504).

[32]- ليس نادراً أن يقطع عرض نظرية ما أو وصف، باعتراض لا أهمية له، وبصيغة انتقالية هي «يكفي عن هذا» ثمّ يتحوّل سترابون بعدها إلى موضوع آخر (قارن: RE, Strabon, p. 95).

[33]- قارن: RE, Poseidonnlos, p. 666. في بعض الأحيان يساق الانتقاد وفق نموذج المشاحنات المدرسية؛ فعندما ينتقد سترابون بوسيدونيوس مثلاً، يأخذ موضوعاته «كمسائل» ثمّ يورد تعليلات «لها»، وبعد ذلك حججاً «ضدها» (II، III، 7).

لـدى سـترابون عـن عـدم فهمـه للمـادّة الـتي بـين يديـه. ويصـعب كـثيراً بسـبب الجـدال، استعادة المغزى الحرفي للاقتباس ثانية[34].

بيد أنه ينبغي ألاّ نلقي بوزر هذا كلّه على سترابون وحده: كلّ ما فعله الرجل، هو أنه التحق بالاتجاه «المدرسي» الذي كان سائداً عندئذٍ؛ فقد ساد المدارس الفلسفية في زمنـه مبـدأ التقليـد، وشـاعت المباشـرة، اللـذان عبّـرا عـن كـلّ شـيء بحقـائق تافهـة مبتذلة[35].

إنّ منهج سترابون وهدفه وصفيان، ومتوافقان تماماً مع متطلبـات عصـره. فهـو لم يسع لشرح أسباب الظاهرات، وبناء بنى نظرية ونظريات، بل اقتصـر سـعيه علـى دراسـة «وصـف السـواحل» و«الأسـفار»، والمؤلّفـات الكوروغرافيـة، والتاريخيـة، والميثولوجيـة. وبدلاً من الشرح تجد عنده تقرير الوقائع، والظـاهرات، وهـو مـا يفـاخر بـه خاصـة: «أنـا أعرض أكثر الوقائع التاريخية أفضل من الآخرين، وأضيف إليهـا مـا أغفلـوه جهـلاً بـه» (X، III، 5).

وعلى هذا النحو لا يعدّ سترابون باحثاً مستقلاً[36]، بيد أنـه مـع ذلـك لـيس مجـرّد جـامع أو مقتـبس أعمـال غـيره، أو سـائر في ركـاب إيراتوسـفين، وبوسـيدونيوس أو بوليبيوس كتابع وحسب. فمشروعه عظيم كان يهدف إلى وضع وصف جغرافي للمعمورة كلّها، وتصـحيح خارطـة العـالم وفـق المعطيـات العلميـة الـتي اسـتجدّت وتراكمـت منـذ زمـن إيراتوسـفين. ومـن حيـث المقصـد، ووفـرة المـادّة وتنوّعهـا، لا يوجـد لمؤلّـف سـترابون العظيم مثيل بين المؤلّفات الجغرافية القديمـة كلّهـا؛ فهـو يمثّـل المحاولـة الأولى للمقارنـة بـين كـلّ المعطيـات الجغرافيـة الـتي كانـت متـوفرة في زمنـه، وعرضـها عرضـاً منظمـاً ومصـنّفاً. وعـلاوة علـى ذلـك كلّـه كـان سـترابون يتـوفّر أيضـاً علـى كـلّ الإرث الثقـافي الهلنستي؛ فقد كان بمقدوره أن يفيد من المكتبة البالاتينية الشهيرة في روما[37]. ونحـن مدينون لسترابون بالجزء الأكبر من كلّ ما وصل إلينا من العصر الهلنسـتي[38]. ولكـنّ سترابون كـان عاجزاً عن تحقيق المهمّة الكونية التي أخذها على عاتقه.

---

[34]- بهدف النقد والجدال يجمع سترابون في أحيان كثيرة نصوصاً مختلفة لمؤلّف بعينه، فيختصرها ويعيد تجميعها وينتزعها من النص (قارن: RE, Strabon, p. 95).

[35]- قارن: RE, Strabon, p. 95.

[36]- قارن: W. Aly. Strabon, Von Amaseia, p. 397.

[37]- المصدر نفسه، ص. 398.

[38]- المصدر نفسه، ص. 400.

وتتلخص مسألة يقينية المادّة التي حفظها لنا سترابون في السؤال المتعلّق بمنهج تعامله مع المصادر. فمن الصعب تحديد ما قرأه من المصدر الأصل وما قرأه منقولاً بأقلام الآخرين. عدّاك عن ذلك أن كتب «الجغرافيا» لم تعالج كلّها بالمستوى نفسه (وبقاؤها متباين)[39] في ظلّ كثرة المصادر وتكرار تبدّلها؛ فلدى سترابون كثير من المقولات المقتطعة وغير الواضحة في أكثر الأحيان. إنّ المهمّة الرئيسة عند سترابون هي مقابلة المصادر بعضها مع بعض. فلدى وصفه لشبه جزيرة العرب مثلاً (XVI، IV، 5-21)، استخدام سترابون ثلاثة مصادر: إيراتوسفين، وأرتيميدور، وبوسيدونيوس. فقدّم العرض العام عن شبه الجزيرة العربية وفق إيراتوسفين، ثمّ أتبعه بنصّ طويل أخذه من أرتيميدور؛ وأدخل ملاحظاته الخاصة على نصّ هذا الأخير، ثمّ عاد من جديد إلى المصدر[40].

ولا يخفي سترابون مصادره، لكنّه غالباً ما يخلخل نظام تسلسل أفكار الآخرين ويجمّع أماكن معينة ويعيد صياغتها بأسلوبه هو[41].

أمّا طابع المصادر المستخدمة في «الجغرافيا» وحجمها، فلا يمكن تحديده بدقّة إلاّ عندما يكون المؤلّف المقتبس منه على قيد الحياة، أو يتميّز بأصالة الأسلوب والمحتوى (كما هي الحال مع أعمال بوسيدونيوس وإيراتوسفين). وفي أكثر الحالات يغطي «الجغرافيا» مصادر سترابون تغطية كاملة، لكن تحديد حجم المادّة المستخدمة غير ممكن.

ولم يسع سترابون (كما فعل الجامعون المتأخرون الذين كانوا يحشدون كمّاً مهولاً من النصوص المقتبسة) لإظهار نفسه عالماً من العلماء. فلم يورد أيّ اقتباس أو اسم أيّ مؤلِّف «للزخرفة» فقط: لم يكن يورد اسم المؤلّف إلاّ لكي ينتقده أو يؤكّد واقعة ما. وقد قال في هذا السياق: «هناك حيث لدي حكمي الخاص بي، أطرح ما أراه صحيحاً، وحيث لا يكون لديّ رأي أورد أسماء المخبّرين، وهناك حيث لا يوجد أي مصادر، فإنّني ألزم الصمت» (VI، III، 10).

والتزاماً بمنهجه الوصفي يسعى سترابون لبلوغ منتهى الدقّة التي رأى أنها

39- لم يبق لنا الكتاب VII من «جغرافيا» سترابون إلاّ جزئياً في مقتطفات وردت لدى باحثين أحدث عهداً.

40- قارن: RE, Strabon, p. 100

41- على هذا النحو يفعل لدى وصفه مناجم إيبيريا (الكتاب III) متبعاً في أثناء ذلك المصدر الأساس، أي بوسيدونيوس، لكنّه يحرّف فكرة هذا المؤلف بمعالجته لها (قارن: W. Aly. Gottingis-cne Gelehrte Anzeiger. 1927, Bd. 189, p. 272-277).

تتحقّق: 1) بشهادة شهود عيان، 2) باتفاق المصادر. وفي حال اختلاف المصادر، تعطى الأفضلية لواحد من المؤلّفين وتلقى على عاتقه مسؤولية صحّة الخبر أو عدم صحّته. ولذلك يبحث سترابون في كلّ مكان عن شهود (آوتوبسيا)، حتّى في آخر المعمورة - في إيبيريا، في غادير، في هيرنا = (إيرلندا)، وعلى ضفاف نهر الهندوس. وبالنسبة للغرب الأقصى (إيبيريا، وغاليا، وبريطانيا)، فإن شاهده العيان عالم له وزنه هو بوسيدونيوس الذي زار إيبيريا ومكث فيها؛ وبالنسبة للهند شهوده هم مؤرّخو الإسكندر، وإيراتوسفين الذي كتب على ضوء انطباع مباشر اكتشافات عظيمة. كما نقل صديقا سترابون- إيليوس غاللوس وأثينودوروس الذي عاش في بيترا (في شبه جزيرة العرب)، نقلا له معطيات عن هذه الأخيرة. واستخدم سترابون لوصف أرمينيا والقفقاس وصفاً تاريخياً جغرافياً «أعمال بومبييوس»، الذي ألّفه ثيوفانوس الميتليني الذي رافق بومبييوس في حملته على الشرق، و... وكان سترابون نفسه يعرف كثيراً من مدن البونتس بصفته واحداً من السكّان المحلّيين. كما وصف سترابون روما، وبعض أقاليم إيطاليا ومصر (الإسكندرية، ورحلته في نهر النيل)، معتمداً جزئياً على مشاهداته الشخصية.

إنّ المسألة الرئيسة في دراسة مصادر كتاب «الجغرافيا»، هي مسألة حجم مؤلّفات بوسيدونيوس وطرائق استخدامها، فاسترابون يصف بوسيدونيوس بأنّه «الفيلسوف الأكثر علماً في زماننا» (XV، II، 10). فقد استخدم سترابون مؤلّفات هذا الفيلسوف («تاريخ» بومبيوس ووصف مآثره)، وبحثه الشهير «المحيط» (يفترضون أن مقتطفات سترابون في الكوسمولوجيا، والميترولوجيا، والإثنوغرافيا كلّها تقريباً من هذا المؤلّف)[42]. ولكنّ سترابون لا يقدّم عرضاً منتظماً لمحتوى بحث بوسيدونيوس هذا، بل يقتبس ما يلزمه لإدارة الجدال فقط، وما يتلاءم ومقولات مدرسته الكلامية (apithanon, adynaton enantion)[43]، عدّاك عن أنّ اختيار النصوص المقتبسة كان يرتبط غالباً بالطابع الوصفي «للجغرافيا»[44]. أمّا ما لا يتلاءم مع الوصف فإنه يلحقه

---

[42]- مع أنّ النصوص المقتبسة من بحث «المحيط» مبعثرة على امتداد مؤلّف سترابون كله، إلاّ أنّ كتابيّ «الجغرافيا» الأول والثاني (=المقدّمة)، يحتويان على أكثر المواد المأخوذة من هناك (RE, Strabon, p. 113).

[43]- قارن: RE, Poseidonios, p. 666. فمن وصف المحيط الكوني كلّه الذي أعطاه بوسيدونيوس يختار سترابون قصّة رحلة إيفدوكس فقط، عادّاً إياها apithanon «(غير يقيني)» (II، III، 5).

[44]- ففي بداية بحث «المحيط» لدى بوسيدونيوس المسائل عينها التي لدى سترابون فيما يدعى «بروييميا» (I، 1) (السماء، المدارات، المناطق)، لكنّ بوسيدونيوس يقدم تفسيراً سببياً للظاهرات (قارن: K. Reinhardt. Posidonus. Munchen, 1923, p. 64)، أمّا سترابون فإنه يصف الظاهرات أو يذكرها.

بالرحلات مقتفياً في هذا إثر بوسيدونيوس في تقديم العرض. ونحن نتعرّف على محتوى البحث وأفكاره من نقد سترابون بشكل رئيس (II، II، 1-3، 8).

وما تجدر الإشارة إليه أنّ رؤى بوسيدونيوس وسترابون لأغراض الجغرافيا ومهماتها متباعدة كلياً: كانت الجغرافيا بالنسبة لبوسيدونيوس «فيزياء»، وليست وصفاً للعالم بل تفسيراً له؛ ومن هنا جاء موقف سترابون السلبي من جغرافيا بوسيدونيوس، وعدم رضاه عن استخدام هذا الأخير للرياضيات[45]. يقول سترابون: «إنّ بوسيدونيوس يكثر من "تقصّي الأسباب" ويحاكي أرسطو، وهذا بالذات ما تتفاداه مدرستنا»[46] (II، III، 8)؛ إنه يحاول أن يفسّر الظاهرات الفيزيائية كلّها «بسبب واحد» (apo mias aitias).

في «المقدّمة» (الكتابين I-II)، يقتفي سترابون إثر خطة عرض المادّة لدى بوسيدونيوس، ويعطي موجزاً لتاريخ علم الجغرافيا، ثمّ يعرض المسألة الهوميروسية[47]، وتغيّر سطح الأرض[48]، وهيئة الأرض والمعمورة (I، III، 12)[49]، والتعاليم التي تتحدّث عن المناطق والمدارات[50]، ومسألة المحيط (II، V، 18)[51]،

45- يعلن سترابون أنّ «رؤى بوسيدونيوس في العلوم الطبيعية تستحق الدراسة في هذه النقطة، أو أنه لا حاجة لدراستها البتّة» (II، III، 8؛ II، II، 1)؛ وبحسب سترابون أنّ لدى بوسيدونيوس «كثيراً جداً من الرياضيات» (II، II، 1).

46- أي المدرسة الرواقية.

47- كان شائعاً عندئذٍ أن يحدّد الجغرافي موقفاً من المسألة الهوميروسية (RE, Strabon, p. 126). وما كان يثير قلق سترابون، هو أن يرى القراء أن العرض الذي يقدّمه لن يكون فرضياً إذا تضمّن أفكاراً تناقض الحكم المعتاد، ولم توصف فيه إلى جانب الحالة المعاصرة للبلدان، حالتها التي كانت عليها في عصر هوميروس (VIII، III، 3). وهوميروس بالنسبة لسترابون، هو المرجع الأعلى في الجغرافيا؛ ولذلك كان يدافع عنه ضد كلّ من يتهمه بالجهل في المعرفة الجغرافية. ولكي ينقذ هيبة هوميروس ومكانته، يسوق سترابون مختلف قراءات النصّ الهوميروسي، ويرجع إلى إيسخليوس ويوريبيدس (I، 27).

48- بحسب بوسيدونيوس أنّ تغيّر سطح الأرض أخرج هيأة المعمورة: الطبيعة والتمدّد صنعا الشكل الكروي للأرض؛ فالماء والأرض عنصران كرويان (XVII، I، 36).

49- يقسم سترابون الكرة الأرضية إلى أربعة أرباع وفي داخل واحد منها يصف المعمورة بأنها على شكل الكلاميس (II، V، 14).

50- تثير اهتمام سترابون المسألة التالية: إلى أي مدى تمتدّ المعمورة جنوباً وشمالاً، وما هو عدد المناطق الجغرافية (خمس أم سبع مناطق - بحسب بوسيدونيوس، أم ست مناطق- بحسب بوليبيوس) (قارن: K. Reinhardt. Posidonus, 60.). ومن توافق الدوائر الكونية والأرضية أخرج بوسيدونيوس تقسيماً جديداً وفق الدوائر السماوية (أي بالنسبة إلى الظلال)- Pros ta urania، وفق حدود الدفء (المناطق المناخية بمعناها المعاصر)- Pros ta anthropeia (II، II، 3؛ II، V، 43).

51- يقبل سترابون فرضية إيراتوسفين- بوسيدونيوس عن المحيط الكوني الواحد، متجاوزاً اعتراض هيبارخ عليها (I، 8-9). فمن تقسيم المعمورة إلى سبع مناطق فيزيائية (وسبع مناطق دوائر عرض)، أخرج بوسيدونيوس اختلاف عالم النبات، وعالم الحيوان، والنمط الفيزيائي للناس (I، II، 34؛ II، III، 7).

ونظرية المدّ والجزر، وقياس الأرض (II، V، 26)، وخريطة المعمورة، و«السيفراجيدس» (II، I، 22)، ونبذة عامّة لوصف الأرض (II، V، 26).

إن كلّ المسائل «النظرية» مثل هيأة الأرض، ومسألة المناطق والمدارات، و...، هي بالنسبة لسترابون مجرّد «فرضيات» يعرضها مسبقاً بحسب بوسيدونيوس، لكي يكون لدى القارئ تصوّر عن الكلّ عندما يبدأ دراسة البلدان على حدة (II، II، 1).

ولا يظهر تأثير بوسيدونيوس على سترابون في المسائل النظرية فقط (في «المقدّمة»)، بل هو عظيم جدّاً في وصف بعض البلدان أيضاً (إيبيريا، غاليا، بريطانيا). لكنّ أسلوب بوسيدونيوس، وأناقته، وتوزيعه المادّة على مجموعات، هذا كلّه لم يعجب سترابون. ولذلك ينبغي ألاّ نبالغ في تأثير بوسيدونيوس ونرى في «جغرافيا» سترابون مجرّد استكمال لبحث بوسيدونيوس، ونزعم أنّ حالات الاقتباس المسهبة عنه ليست سوى وساطة آلية[52].

كما يقرّ سترابون بأنّ سلفه العظيم الآخر إيراتوسفين، واحد من أبرز علماء الأزمنة كلّها (XVII، III، 22)، وبتأثير من بوسيدونيوس يأخذ رؤاه بعين الحسبان.

وغنيّ عن البيان القول، إنّ «جغرافيا» سترابون، من حيث مادّة عصره، قد شاخت، بيد أنها تبقى مؤلَّفاً كلاسيكياً عظيماً. فالقرنان اللذان أعقبا ظهور مؤلّف إيراتوسفين قدّما كثيراً من الاكتشافات الجغرافية [بفضل حملات الرومان، والبارثيين وميتريدات (I، II، 1)]، كما تمايزت العلوم وتخصصت، وتغيّرت الرؤى تجاه مهمات العلم.

وإذ يعتمد انتقاد بوليبيوس، وبوسيدونيوس، وأرتيميدور مادّة إيراتوسفين، وخاصة انتقاد هيبارخ لمنهجه، فإن سترابون ينضمّ إلى هؤلاء العلماء. وليس نقد سترابون لأخبار إيراتوسفين مستقلاً إلاّ استقلالاً جزئياً؛ لأنه على وجه العموم يتبع بوليبيوس، وأرتيميدور، وبوسيدونيوس. فسترابون يكرّر أحكام هؤلاء العلماء ويتهم إيراتوسفين بنقص معارفه الفلسفية (I، II، 2)، وانتحال الكثير عن ديكيارخ (II، IV، 2)، وعدم فهم هوميروس فهماً صحيحاً (I، II، 3)، وضعف معرفته بأثينا[53].

لقد سعى سترابون لتصحيح جغرافيا إيراتوسفين قدر الإمكان (I، II، 2). ولكنّ هذا التصحيح يقتصر على تغيير الأرقام السابقة للمسافات بين النقاط

---

[52]- قارن: RE, Strabon, 123.

[53]- لكنه على أيّ حال يدافع عن إيراتوسفين ضد الاتهامات الباطلة (I، II، 2).

الجغرافية ووضع الأرقام الجديدة. وأهمّ تصحيحاته هذه طالت غاليا، وبريطانيا، وجرمانيا، والقفقاس (VII، II، 4؛ VII، I، 5). ويقبل سترابون من غير تحفّظ أخبار إيراتوسفين عن بعض البلدان (عن الهند مثلاً)[54] (مقتفياً إثر بوليبيوس)، ويعتمد رؤيته حيال شكل المعمورة وأبعادها (مع بعض التدقيقات).

لقد طرح بعض العلماء (غروسكورد) فكرة مفادها أنّ هناك قرابة بين بنية كتاب سترابون «الجغرافيا»، وكتاب إيراتوسفين، ورأوا في هذا السياق أنّ الأوّل ليس سوى استكمالاً مسهباً للثاني[55]. ولكنّ تباين مهمّات هذين المؤلّفين وأهدافهما وحده لا يجيز لنا الإقرار بصحّة هذه الرؤية.

في أكثر الحالات يسوق سترابون نصوصاً مقتبسة مباشرة من إيراتوسفين، لكنّه في الكتابين الأوّلين من عمله يستخدم، كما يرون، مصدراً وسيطاً، وهذا ما أرخى ظلالاً كثيفة في عرضه على صلة «جغرافيا» إيراتوسفين ومحتواها.

وفي بعض الأحيان لا يفهم سترابون الأفكار الأصلية لإيراتوسفين حتّى النهاية. فعندما يضع إيراتوسفين تقسيمه الشهير للأراضي إلى «سفراجيدس» و«آجرّات» مثلاً، فإنه لا يشير إلى القيمة العملية والنظرية للتقسيم الجديد، ولدى وصف البلدان على حدة لا يأتي على ذكرها البتّة[56] معلناً بذلك قبوله الحدود السياسية الحديثة.

وإذ يرفض من حيث المبدأ منهج إيراتوسفين الرياضي[57]، فإن سترابون ينتقده بسبب ثقته الزائدة بمصادر مثل بيفوس[58]، وداماستوس (I، III، 1) اللذين يرى فيهما سترابون مجرّد أفّاكين (I، IV، 3). لكنّ سترابون يقبل منهج الإسقاط والدرجات المتقاطعة عمودياً الذي يعتمده إيراتوسفين، لكنّه بتأثير بوليبيوس يصحّح قياساته للمعمورة وتعداد دوائر العرض (I، IV، 3)[59].

---

[54]- لقد أخذ سترابون معطيات إيراتوسفين عن الهند أساساً انطلق منه (XV، 1، 10)، ثمّ قارنها بمعطيات مؤرّخين آخرين (XV، 1، 14)، وأعطاه الأفضلية في حالات كثيرة.

[55]- انظر: M. Dubois. Examen de la Geography de Strabon, p. 280.

[56]- انظر: RE, Strabon, 135.

[57]- بيد أنه يقول في مكان ما، إن «إدخال إيراتوسفين أسس الرياضيات والفيزياء إلى الجغرافيا، شيء يستحق الثناء» (I، IV، 1).

[58]- مقتفياً أثر بوليبيوس يرى سترابون أن بيفوس كان يفتقر إلى الموارد اللازمة لرحلاته الواسعة، لاسيما أنّ الجغرافيين المعاصرين لا يعرفون شيئاً عن المناطق الواقعة وراء هيرنا (إيرلندا) (II، IV، 2؛ II، V، 8).

[59]- لا يقبل سترابون معطيات بيفوس عن امتداد المعمورة إلى دوائر عرض أعلى (I، IV، 1؛ II، V، 2)، ولذلك كان عليه أن يرفض وجود فولا ودائرة العرض التي اعتمدها إيراتوسفين لها.

ويرى سترابون أنّ موقف إيراتوسفين مطعون به لأنه «يعدّ إذا صحّ القول، رياضياً بين الجغرافيين وجغرافياً بين الرياضيين» (II، I، 41).

ويعيد سترابون سرد محتوى مؤلّف إيراتوسفين الشهير على عجل ومن غير ترابط، فيوافقه في بعض الحالات، ويقتفي أثر هيبارخ في حالات أخرى ويعلن موقفاً ضدّ عدم دقّة منهج إيراتوسفين.

أمّا السلف العظيم الثالث لسترابون، أي هيبارخ، فإن موقفه منه يحكمه فهمه لمهمات الجغرافيا، وعدم توفّره على ثقافة متخصصة في الرياضيات.

لقد رأى هيبارخ أنّ وضع خريطة للأرض، هو مهمّة الأجيال القادمة، وعمل فقط على تحديد الموقع النسبي للنقاط الجغرافية بطريقة رياضية صارمة (لم يُلق بالاً للمسافات الحقيقية). لقد طالب بالقياسات والملاحظات الدقيقة التي ينبغي على الفلكيين تقديمها للجغرافيين، وفي حال عدم توفّر مثل هذه المعطيات أو عدم توفّر إمكانية للحصول عليها، نصح بالاكتفاء بالمهمات الوصفية وحسب (II، I، 11). وكان انتقاده لإيراتوسفين ذا طابع سلبي خالص.

ولمّا كان سترابون غير مؤهّل في مسائل الرياضيات التخصصية، فإنه كان عاجزاً عن الحكم في صحّة نقد هيبارخ. لكنّه انبرى للدفاع عن إيراتوسفين، وطالب بنقد «بنّاء» أكثر وتفصيليّ أكثر (II، I، 41). فهناك حيث يجانب إيراتوسفين الصواب «يكفي تصويب مزاعمه بإظهار الحقائق في "جغرافيتي"» (II، I، 41)[60]. وبحسب رأيه أنّ «ما يرى بأمّ العين، وتوافق قرائن المشاهدات، أكثر يقينية من أيّ أداة كانت» (II، I، 11). وعلى هذا النحو يتكشف في مقصد سترابون تناقض يرون أن سببه اختلاف تأثيرات بوسيدونيوس وبوليبيوس؛ فهو ضدّ اشتغال الجغرافي بالعلوم الدقيقة من جهة، ومن جهة أخرى ينبغي أن يكون لدى الجغرافي بعض المعارف في أسس علمه، بيد أنه ليس ملزماً أن يغوص في التفاصيل[61].

وفي نقده لهيبارخ وإيراتوسفين، يظهر سترابون مستقلاً إلى حدّ ما (لقد كانت

---

[60]- يتهم سترابون هيبارخ «بالميل إلى المماحكات» (II، I، 41) ويؤكّد بخبث أن هذا الأخير يطلب من الآخرين مطالب مبالغاً فيها، بينما يكتفي هو نفسه أحياناً بمعطيات الجغرافيين القدماء القائمة على «وصف الساحل» (II، I، 11). ويظهر بعض الأخطاء (مثلاً، الخطأ في حساب دائرة عرض بزنطا) مدى ضعف توافق نتائج هيبارخ نفسه مع مطالبه الصارمة (.RE, Strabon, 131).

[61]- RE, Strabon, 130.

بـين يديـه المؤلّفـات العظيمـة لهـذين العـالمين)، ولكنّـه مـع ذلـك يلجـأ جزئيـاً إلى حجـج بوسيدونيوس[62].

وإلى جانب بوسيدونيوس، وإيراتوسفين، وهيبـارخ يضـع سـترابون بوليبيـوس بـين العلمـاء الـذين يشـرّف المـرء أن يتعامـل معهـم (I، II، 1). لقـد كـان الجغـرافي في زمـن أغسـطس بحاجـة لمقصـد سياسـي وفلسـفي محـدّد. وبصـفته مكمّـلاً لبوليبيـوس في «مدوّناته التاريخية» اعتمد سترابون في «الجغرافيا» أيضاً برنامجه الجاهز، فهو يتوجه إلى الذين أنهوا «دورة العلوم المعدّة لمن ولدوا أحراراً» (نموذج ثقافة الرومان الـذين كـان لهم موقف سلبي من العلوم النظرية؛ I، II، 22)[63].

وتبعاً لتركيزه على ما هو «نافع عملياً» (chresimon)، طلب بوليبيوس من المؤرّخ والجغرافي الحدّ الأدنى من المعارف الرياضية والفلكية الضرورية للقائد العسكري ورجل الدولة في بلوغ أهدافه العملية حصراً: تحديد الوقت بحسب الشمس والنجوم. ولذلك رأى أنّ الأبحاث النظرية في هذا السياق لا حاجة لها (كدراسة هيأة الأرض مثلاً، وموقعها في الفضاء الكوني، وما إلى ذلك)، كما لا أهمية لدراسة الأراضي الواقعة خارج إطار المصالح السياسية لروما، وكذلك استخدام المنهج الرياضي-الفلكي[64]. ويظهر تأثير بوليبيوس على سترابون بشكل رئيس، في اعتماد هذا الجغرافي العظيم منهج بوليبيوس الوصفي وإرشاداته النظرية العامّة.

ففي «الجغرافيا» أسهب سترابون في استخدام مواد بوليبيوس[65]، خاصة لدى وصفه لإيطاليا واليونان، كما اقتبس عنه كثيراً من المعطيات التاريخية أيضاً. ويتّضح منهج استخدام معطيات بوليبيوس بجلاء في عرض سترابون لتاريخ الآخيين (VIII، II، 1-3): يأخذ سترابون معطيات بوليبيوس أساساً ويربط بينها وبين مادّة المصادر الأخرى ليشكل صورة عامّة عن حالة البلاد[66]. وهذا ما اعتمده سترابون بدقّة في

---

[62]- المصدر نفسه، 132. ومن المهم أن نشير إلى أنّ سترابون، تبعاً لإيراتوسفين وهيبارخ، لا يذكر بعد ذلك ممثلي الاتجاه الرياضي- الفلكي في جغرافياه (سيرابيون مثلاً).

[63]- يرتبط تشابه رؤى سترابون وبوليبيوس إلى حدّ ما بتشابه الاتجاهات العلمية التي عرفها الزمن الهلنستي، وبوضع العلماء الإغريق في العالم الروماني.

[64]- قارن: RE, Polybios, 1568.

[65]- حوالي 40 نصاً مقتبساً (قارن: RE, Strabon, 128).

[66]- RE, Strabon, 128.

تعاطيه مع أخبار إيراتوسفين (كما رأينا سابقاً) - الدليل على أن إيراتوسفين وبوليبيوس كانا من أهمّ مرشديه (في الجزء الوصفي من «الجغرافيا»).

لقد اقتصر الجزء الأعظم من انتقادات سترابون لبوليبيوس (وهي في بعض الأحيان ليست أكثر من مماحكات صغيرة؛ قارن: II، IV، 7)، على تدقيق المسافات. فسترابون يحاول أن يبيّن أن «الآراء الشائعة» (Laodogmatika apophaseis) عن المسافات هي آراء خاطئة وينبغي تبريرها أمام بوسيدونيوس، وأرتيميدور، والكتّاب الآخرين (X، III، 5). ورأى أن مقياس صحّة القياسات والمسافات أو خطئها، هو «توافق الكتّاب المعاصرين» (II، IV، 4) أو «اعتراف أكثرهم».

وفضلاً عن هذه المصادر «الرئيسة» (بوسيدونيوس، إيراتوسفين، هيبارخ، بوليبيوس)، يمكن أن نقسم الكتلة المتبقية من المصادر التي أخذ سترابون عنها، إلى قسمين: كتّاب كانت مؤلّفاتهم بين يديه وقرأها يقيناً، وكتّاب استخدم مؤلّفاتهم عبر مصدر وسيط (بشكل أساس عبر بوسيدونيوس، وإيراتوسفين، وبوليبيوس).

ومن الكتّاب الذين استخدم سترابون مؤلّفاتهم مباشرة نذكر أوّل ما نذكر أرتيميدور الأفسسي- جاءت شهرته أساساً من وصفه لسواحل البحر المتوسّط (وهو ممثل الجغرافيا الوصفية)[67]. ويبدو أنّ أرتيميدور كتب عمله (في حوالي العام 104 ق.م) للملاّحين والتجار، وقد أعطى فيه وصفاً جامداً للساحل[68] المذكور. ومع أنّ وصف أرتيميدور لم يكن مبتكراً وأصيلاً، إلاّ أن عمله قيّم بما تضمنّه من اقتباسات عن كتّاب آخرين، ومشاهدات شخصية دوّن نتائجها فيه[69]. ولم يورد سترابون أخبار أرتيميدور إلاّ لضبط معطيات الكتّاب الآخرين (بوليبيوس مثلاً).

وتبعاً لولعه بآثار هوميروس وجغرافياه، يكثر سترابون من استخدام معطيات شارحي هوميروس (لدى وصفه هلاّدا وطروادا) - ديميتري السكيبسيسي وأبوللودوروس الأثيني[70] الذي واصل مهمّة هذا الأخير. ويجادل سترابون ديميتري عدة

---

[67]- بحسب ويلاموفيس، أنه «لو بقي بحث أريتيميدور ليصل إلينا، لخبا مجد سترابون إلى حدٍّ كبير» (Kultur d. Gegenwrt. Griechische Litteratur. Leipzig, 1907, p. 156).

[68]- أخذ عنه سترابون حوالي 50 نصاً مقتبساً (من الكتاب III، حتّى الكتاب XVII).

[69]- قارن: RE, Strabon, 124.

[70]- لا تمثل أعمال ديميتري («نظام الاصطفاف العسكري عند الطروادِيين») وأبوللودوروس («سجلّ السفن الهوميروسي»)، سوى نماذج عن مستوى علمي هزيل.

مــرات (VII، III، 6؛ XII، III، 20-23، 24-27) ويأخــذ عنــه مــادّة لاســتطراد طويــل يتحدّث فيه عن الكوريتيس (X، III، 19، 22) (ربّما عبر بوسيدونيوس)[71].

أمّا العلماء المعاصرون الذين يأخذ سترابون عنهم مباشرة فهم: تيماجين (IV، I، 13؛ XV، I، 57)، وأزينيوس (هو معتوق أزينيوس بولليون) (IV، III، 3)، ونيقولا الدمشــقي (XV، I، 7، 3)، وديللــوس (II، V، 12)، وثيوفــانوس الميتيلــيني[72]، وأبوللودوروس الأرتيميتي[73] (XI، II، 1)، وميترودور السكيبسيسي (XI، V، 1؛ XVI، IV، 16)، وأسكليبيدس الميليري (III، IV، 3، 19)، و...

ومن أكبر ممثلي الجغرافيا قبل زمن إيراتوسفين: ديكيارخ، وإيفدوكس الكنيدي. ومع أن سترابون يقتبس نصوصاً من أعمال هذين، بيد أنه من الواضح أنه لم يقرأهما. كما يأخذ سترابون عن كثير من الكتّاب عبر بوسيدونيوس، وإيراتوسفين أو بوليبيوس (مثل أرسطو، وثيوفراست، وستراتون، وتيمييوس، وثيوبومبوس، وبيفوس، و...) وفي أحيان كثيرة تأتي تقويماته متأثرة بهؤلاء الوسطاء. فتحت تأثير بوليبيوس مثلاً، غالباً ما يقتبس سترابون عن إيثور ويمدحه[74]، ويقتبس عن إيثور وينتقده (II، V، 8). وليس واضحاً حتّى الآن ما إذا كان سترابون قد قرأ مؤلّفات أفلاطون نفسها أم لا[75]، أمّا «الكتّاب القدماء» - كيتسيوس، وهيلاّنيكوس، وثوكيديدس، وكسينوفونت، فإن سترابون يستخدم أعمالهم اعتماداً على كتّاب آخرين، وسطاء، ويعاكس سترابون هيرودوت بهيكاتوس وهوميروس[76] (مقتفياً في هذا أثر إيراتوسفين)، ويرى أنّ أخباره قد شاخت، ويبدو أنه يستخدم أخبار هيرودوت عبر أحد الوسطاء[77].

---

[71] - قارن: RE, Strabon, 145. من السهل تمييز مقتبسات سترابون عن ديميتري، وأبوللودوروس، وأرتيميدور (في كتبه من VIII إلى X).

[72] - يقتبس عنه سترابون خمسة نصوص (قارن: RE, Strabon, 108.).

[73] - RE, Strabon, 109.

[74] - إن استخدام معطيات إيثور وإيراتوسفين في وصف اليونان والشرق – XIV، II) يعني أنّ بوليبيوس رأى أنّهما جديران بالثقة.

[75] - لقد طرح و. آلي فكرة غريبة مفادها أنّ هوميروس (!) وأفلاطون كان لهما تأثير على لغة سترابون. (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 400).

[76] - قارن: RE, Strabon, 142.

[77] - يرى سترابون أنّ هيرودوت، وهيلاّنيكوس وكتيسيوس لا يعرفون الحدّ الفاصل بين الأسطورة والتاريخ، ولذلك ينبغي أن تكون ثقتنا بهم أقلّ من ثقتنا بهوميروس وهسيود (I، II، 35؛ XI، VI، 3)؛ RE, Strabon, 144. ويتجاهل سترابون بعض الكتّاب المعاصرين تجاهلاً كاملاً، فلا يأتي على ذكرهم، مثل يوبا (أواخر القرن 1 ق.م- أوائل القرن 1م).

واسـتخدم سـترابون «مدوّناتـه التاريخيـة» في «جغرافيـاه»، ولكـن يبـدو مـن بعـض الملاحظات أنه سعى إلى الابتعاد عن التكرار[78].

ويبدأ وصف بعض بلدان المعمورة في «الجغرافيا»، من إيبيريا (إسبانيا) (الكتاب III).

لقد اضطر الجغرافيـون القـدماء إلى وصـف هـذا البلـد أو ذاك مـن غير خارطـة. وللتبسيط والإيضاح كانوا يشبّهون البلاد المعنية بشكل هندسي ما، أو بشيء ما محدّد وملائم: شبهوا شكل البيلويونيز بشكل ورقة الدلب، وإيبيريا بجلد الثور، وما إلى ذلك.

ولـدى وصـفه لإيبيريـا يسـتخدم سـترابون معطيـات بوسـيدونيوس الـذي عـاش في غادير (قادس)[79]؛ ثمّ يسوق نصوصاً مقتبسة عن بوليبيوس (III، II، 10)، والكتّاب اللاتين[80]- تانوسيوس وكتّاب مجهولين، ويستشهد بأرتيميدور (XV، I، 4)، وتيموسفين (III، I، 7).

وفي الكتـابين IV و VI (وصـف غاليـا والألـب) اسـتخدم سـترابون أخبـار بوسيدونيوس، وأرتيميدور، وتيماجين، وأزينيوس[81] (اطلع سترابون على «مذكرات» قيصر عبر تيماجين)[82]. واضطر سترابون لاستخدام معطيات بيفوس (عبر بوسيدونيوس)، في وصفه لبريطانيا.

ومصادر سترابون في كتابيه V و VI، هم بوليبيوس، وكوروغراف مجهول، وأرتيميدور (الساحل)[83]. واقتبست المقاطع التاريخية عن مدوّنين (فابيوس، وأسيليوس اللذين يتخفى وراءهما تيميوس أحياناً)، وتيمييوس، وبوسيدونيوس[84]. ويصف سترابون روما، وربّما كامبانيا على أساس مشاهداته الشخصية. أمّا أخباره عن جنوبي

78- W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 399.

79- لقد قدّم بوسيدونيوس وصف إقامته في غادير بصيغة مذكرات يومية (III، I، 5).

80- لقد عاش سترابون طويلاً في روما، وكان يعرف اللاتينية، لكنه كان يفضّل المصادر الإغريقية (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 115).

81- كان أزينوس أحد مصادر «مذكّرات» قيصر.

82- قارن: W. Aly. Strabon, 103.

83- هنا حيث ترد المسافات بالميل الروماني، يكون المصدر دائماً هو الكوروغراف، وحيث ترد بالمرحلة، يكون المصدر بوليبيوس وأرتيميدور (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 228).

84- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 245.

إيطاليا (اليونان العظمى) وصقليا فهي مأخوذة عن أنطوخ السيراكوزي، وبوليبيوس، وإيثور[85].

وكرّست الكتب التي تحدّثت عن هلاّدا (X-VIII) وجزئياً عن آسيا الصغرى (طروادا) لجغرافيا هوميروس بشكل رئيس (للتعليقات على هوميروس). ويختلف أسلوب الوصف المعتمد في هذه الكتب اختلافاً تاماً عن أسلوب وصف باقي المعمورة. فسترابون يتبع هنا تقاليد مصادره (ديميتري السكيبسيسي، وأبوللودوروس، وأرتيميدور). وليس العرض هنا متماثلاً، إنما مرتبط كلياً بطابع المصادر المختارة[86]. فاستناداً إلى أرتيميدور مثلاً، يصف سترابون بالتفصيل (بالروح العلمية الجافة التي يتسم بها شارحو هوميروس)، الأماكن الصغيرة[87] التي جاء هوميروس على ذكرها، بينما لم يكرّس أكثر من أسطر قليلة لوصف أماكن ومدن اشتهرت في التاريخ[88] (كأتيكا وأثينا على سبيل المثال). ولا يولي سترابون اهتماماً يذكر لوضع اليونان في زمنه وهي تحت سلطة الرومان (بالكاد رأى بنفسه أيّ أماكن في اليونان ما خلا كورينثوس وربّما باتروس (VIII، VII، 5). ويدلّ عدم اهتمام سترابون باليونان المعاصرة له، واهتمامه الزائد بماضيها البطولي، على أنّ هلاّدا لم تكن بالنسبة له سوى «متحف عاديات» جعلته التربية المدرسية الأدبية عزيزاً على قلبه[89].

وفي وصف طروادا ومنطقة إيوليا (الكتاب XII) كانت مصادر سترابون هي قبل كلّ شيء، مؤلّفات ديميتري السكيبسيسي وهيجيسياناكس (بصفتهما من السكّان المحلّيين وشاهدي عيان)، ثمّ إيثور ومؤلّف مجهول كتب أحد أبحاث وصف السواحل[90].

---

[85] - قارن: The Sinko. Litertura grecka, II. Varshava, 1959, p. 126.

[86] - قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 334.

[87] - أماكن في جزيرة إيبيوس مثلاً (X، I، 3).

[88] - «كي نبتعد عن الموضوع ولا نكرر ما هو معروف لجميعهم» (X، I، 16). ومن حسن حظ علماء الآثار أن سترابون يصف بعض الأماكن بالتفصيل: كريت، وبيلوس نسطور (التي ذكرها هوميروس). لكنّه لم يتطرّق إلى تاريخ اسبرطا «لأنه معروف» (VIII، V، 5).

[89] - لقد كانت «الاهتمامات الأدبية» جزءاً من روح العصر. فستسيرون مثلاً، يبدي في رسائله إلى أتيكوس (VI، II، 3) اهتماماً بالغاً بالأماكن التي يرد ذكرها في «سجلّ السفن»، ويستشهد بإيراتوسفين (VI، I، 18). وبصفتهما شاهديّ عيان، يستدعي سترابون كلاً من إيراتوسفين (شاهداً على هلاك هيليكا المأساوي- VIII، VII، 2)، وبوليبيوس (شاهداً على تدمير كورينثوس وبربرية الجنود الرومان - VIII، VI، 23).

[90] - يرى هونيغمان أن مؤلّف بحث وصف السواحل، هو أرتيميدور (RE, Strabon, 144, W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 312, 320).

ووصف سترابون البسبور الكيميري والبونتس[91] (الكتاب XI) وفق المادّة التي وردت في بحث وصف السواحل القديم[92] (الساحل الشمالي للبحر الأسود بشكل رئيس)، و«أعمال بومبيوس» لثيوفانوس الميتليني[93]، ومؤلّفات مؤرّخيّ ميتريدات: هيبسيكراتوس الأميسي[94]، وميترودور السكيبسيسي[95] (وهي أساساً أخبار تاريخية).

واعتمد سترابون في وصف هركانيا وباكتريا على المواد التي استقاها من أبوللودوروس الارتيميسي[96]، وجزئياً من أعمال رفاق الإسكندر [كيرسيلوس (؟)، وميديوس - XI ، VI ، 1؛ وإريستوبول[97] - XI ، VII ، 3؛ وتيماجين[98] وباتروكليس].

ويدين سترابون لثيوفانوس الميتليني[99] بالصورة الحية التي رسمها لساحل القفقاس وسكّانه (XI ، IV ، 2). كما استقى سترابون أخبار ما وراء القفقاس وأرمينيا عن ثيوفانوس الميتليني[100] أيضاً (لم يكن سترابون يثق به كثيراً)، وديلليوس، مرافق أنطونيو في الحملة البارثية (XI ، XIII ، 3). وأخذ القصص الخرافية التي تُروى عن الأمازونيس في كولهيدا، أخذها عن هيبسيكراتوس وميترودور[101].

ويظهر سترابون القدر الأكبر من الاستقلالية لدى وصفه آسيا الصغرى، التي رأى وهو من سكّانها الأصليين، إنها تقع في مركز العالم[102]: لقد وصف كثيراً من

---

[91] - ينفصل وصف الساحل لدى سترابون عن وصف المناطق الداخلية. فالشاطئ اليساري- الأوروبي- لميوتيدا (بحر آزوف) جاء وصفه في الكتاب VII ، بينما جاء وصف الشاطئ اليميني- الآسيوي- في الكتاب XI. وكانت أبحاث «وصف السواحل» هي مصادر الوصف، أمّا في وصف المناطق الداخلية فقد استخدمت موادّ أخرى (قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 101).

[92] - W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 103. م. إ. يرى روستوفتسيف (سترابون كمصدر لتاريخ البسبور. مجموعة أبحاث على شرف ف. ب. بوزيسكول. خاركوف، 1914، ص. 375) إن هذا البحث في «وصف السواحل» هو لأرتيميدور الأفسسي.

[93] - قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 22

[94] - م. إ. روستوفتسيف. سترابون كمصدر....، ص. 339. (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 89).

[95] - W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 86

[96] - المرجع نفسه.

[97] - المرجع نفسه.

[98] - The Sinko. Literatura grecka II, p. 126.

[99] - [(FHG II Dm p. 615) ضدّ ياكوبي] W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 86

[100] - المرجع نفسه.

[101] - المرجع نفسه.

[102] - المرجع نفسه، ص. 23.

الأماكن هنا كشاهد عيان[103]. وحيث لم تكن لدى سترابون مشاهداته الخاصة ولا وثائق، كان يقتبس في أحيان كثيرة عن أرتيميدور وأبوللودوروس. وأبدى اهتماماً خاصاً بقبائل آسيا الصغرى وشعوبها؛ فأعطى وصفاً تفصيلياً لميسيا وما يسمّى فريجيا «إيبيكتيت» (XII، IV، 5)[104]. وحدّد أبعاد البلاد وفق هيرودوت وإيراتوسفين (II، V، 8؛ II، I، 3)[105].

ولدى وصف الهند فرضت نفسها على سترابون كثرة من المصادر المتضاربة التي تتحدّث عن هذه البلاد (XV، I، 2) فأهمل تماماً أخبار التجار والملاّحين المعاصرين له[106]. وأخذ رواية إيراتوسفين أساساً لوصفه, ثمّ أضاف إليها أخبار «الكتّاب الآخرين» (XV، I، 14)، أي باتروكليس، وكتيسيوس، وأريستوبول، وأونيسيكريتيس، ونيارخس، وميغاسفين، وأرتيميدور، وديماخ[107] (أضاف إلى أخبار أرتيميدور معطيات نيقولا الدمشقي- XV، I، 72). ومع أنّ سترابون يصف كلّ من كتب عن الهند بأنه كاذب (ما عدا إيراتوسفين)، خاصة ديماخ (II، I، 9)، إلاّ أنه مع ذلك يستخدم موادّهم. وهو يعرف أكثر هؤلاء الكتّاب (رفاق الإسكندر)، عبر إيراتوسفين وبوسيدونيوس[108].

وتنقسم أخبار غربي آسيا (الكتاب XVI) إلى أربعة أقسام: 1) أعمال الإسكندر (XVI، I، 3-4، 27)؛ والمصادر هنا: المشاركون في حملة الإسكندر، وإيراتوسفين[109]؛ 2) مقتطفات تاريخية (المعركة مع سربيدون، وعصيان تريفون، و...) منقولة من «تاريخ» بوسيدونيوس[110]؛ 3) تاريخ بومبييوس والاستيلاء على القدس

---

[103]- نيسا التي في مياندرس، وترالاّ، ومغنيسيا، وأماسيا، مدينته الأم، وأفسس، وديديما، وسلوقيا.

[104]- المرجع نفسه، ص. 65.

[105]- المرجع نفسه، ص. 26.

[106]- على الرغم من أنّ التجار المعاصرون وصلوا إلى الغانج، إلاّ أنّهم أمّيون، وغير مؤهّلين البتّة لدراسة البلاد (XV، I، 4).

[107]- يثير أونيسيكريتيس، وداماستوس، وديماخ حنق سترابون: فأونيسيكريتيس الذي كان نوتياً لدى الإسكندر، يدعوه سترابون «نوتي الخزعبلات الرئيس» (XV، I، 28).

[108]- قارن: RE, Strabon, 138 ؛ M. Dubois S. Examen de la Geographie de Strabon, p. 244. لم يستخدم سترابون مباشرة سوى نيارخس وأونيسيكريتيس- (M. Dubois S. Examen de la Geographie de Strabon, p. 248). ويعرف سترابون ما يسمّى «سجلّ المحطات الآسيوية» الذي وضعه المسّاحون الملكيون، لكنه لا يعرفه إلاّ عبر إيراتوسفين (II، I، 7)، وهو ما يعدّ قرينة أخرى للتأكيد على أن سترابون لم يستخدم في وصف الهند مصادر مباشرة (قارن: RE, Strabon, 138).

[109]- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 158

[110]- المرجع نفسه، ص. 160.

(XVI، I، 19-2، 46) مـأخوذ مـن «أعمـال بومبييـوس» لثيوفـانوس الميتيلـيني[111]؛ 4) «الأحـداث المعاصـرة» (XVI، I، 28-4، 24) (العلاقـة مـع البـارثيين وحملـة إيليـوس غاللوس)، مـأخوذة مـن التقـارير حينـاً، ومـن قصـص غاللوس نفسـه حينـاً آخـر. ويشـغل حيّـزاً خاصـاً هنـا الاسـتطراد الطويـل عـن موسـى، الـذي أخـذه سـترابون عـن بوسيدونيوس[112].

ويعدّ وصف مصر وليبيا (الكتاب XVII) من ألمع كتب سترابون، وهـو ينقسم بدوره إلى عدّة أجزاء. ولكلّ جزء وظائفه الخاصة، وقد استخدم سترابون لكلّ جزء مصادر مختلفة. ومن الواضح أن البلاد الواقعة على النيل كانت معروفة جيّداً لدى سترابون، فقد وصف الإسكندرية استناداً إلى مشاهداته الشخصية. وكان سترابون قد وصل إلى مصر وهو إنسان ناضج يملك خلفية علمية راسخة، ومطلع على الأبحاث العلمية ذات الصلة. فتقديره الذي وضعه عن رحلته في نهر النيل ضمن حاشية غاللوس، يتميّز بحيوية الوصف ودقّته. والمصادر الرئيسة للكتاب XVII، هـم أرتيميدور (لوصف السـواحل)، وتانوسـيوس وإريسـتوبول (مقتطفـات تاريخيـة، وتأسـيس الإسـكندرية- (XVII، II، 5، I، 6) وجاء وصف رحلة بترونيوس الإثيوبية استناداً إلى رواية أحد المشـاركين فيهـا (قـد يكـون بترونيـوس نفسـه)[113]. وأخـذ سـترابون وصـفه لجـبروت قرطاجـا (XVII، III، 14) عـن بوليبيـوس[114]. وفي خاتمـة بحثـه يعطـي سـترابون عرضـاً موجزاً عن الإمبراطورية الرومانية لا علاقة له بمحتوى كتابه.

ويبـيّن عـرض مصـادر «الجغرافيـا» ومـنهج اسـتخدامها، إنَّ سـترابون نـادراً مـا يسـتخدم أبحـاث الكتّـاب الـذين يـذكرهم نفسـها، بـل عـبر مصـدر وسـيط. ولا يعـدّ هـوميروس بالنسـبة إلى سـترابون مصـدراً لمعطيـات تاريخيـة عـن العصـر البطـولي، بـل موضوعاً يطرح من خلاله آراءه في ميدان «العاديات» التاريخية.

وفي ميـدان الجغرافيـا العلميـة لا يتعـدّى سـترابون نطـاق المعطيـات الـتي ينقلـها بوسيدونيوس[115].

111- المرجع نفسه، ص. 163.

112- بحسب رينغارد؛ وبحسب و. آلي (W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 207)، أنّ لقصة موسى علاقة وثيقة بهيكاتيوس الأبديري، لكنّها مقتبسة عن بوسيدونيوس. ويعدّ خلوّ العرض عن اليهودية من نزعة العداء لليهود، دليلاً على اقتباسه عن بوسيدونيوس.

113- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia, p. 77

114- المرجع نفسه، ص. 76.

115- قارن: RE, Strabon, 147. لا يعرف سترابون أبحاث سربيدون الإسكندري، نصير إيراتوسفين وهيبارخ؛ كما لا يعرف شيئاً عن ظهور جزيرة هييرا البركانية في العام 66 ق.م. (بين ثيرا وثيراسيا).

ويقتبس سترابون عن سابقيه (إيراتوسفين، وهيبارخ، وبوسيدونيوس)، «المسلّمات» الجغرافية الرئيسة. فهو يقرّ بأنّ الأرض كروية وتقع في مركز الكون؛ وتبرز على الكرة الأرضية خمس مناطق ودوائر (دائرة الاستواء، ودائرة البروج، أو منطقة البروج، والدائرتان القطبيتان) ناجمة عن دوران الأجرام السماوية. والقسم المسكون (ولا يهتم سترابون إلاّ به)، أو المعمورة، ويتألّف من ثلاث قارّات، ولا يشكّل سوى جزء من الكرة الأرضية، ومحدّد بدائرتي عرض ودائرتي طول. والمعمورة هي من حيث الهيأة على شكل مربّع (أو «كلاميس») تتطابق حدوده تقريباً مع حدود المنطقة المعتدلة من نصف الكرة الشمالي. وإذ يقبل سترابون تقسيم كلّ دائرة كبيرة إلى 60 قسماً (كلّ قسم 2400 مرحلة، أي أن الدرجة تساوي 700 مرحلة، - II، V، 7)، فإنه يرى (في إثر إيراتوسفين) إن الحدّ الأقصى لطول المعمورة هو 70.000 مرحلة (ثلث محيط الكرة الأرضية). وفي مدى ثلثي محيط الأرض الآخرين، يفترض سترابون (بحسب بوسيدونيوس) إمكانية وجود معمورتين أو أكثر (I، IV، 6). ولكنّ هذه المعمورات الأخيرة تسكنها أجناس بشرية أخرى، لا يقاربها سترابون أبداً (II، V، 13).

إن الأجزاء الشمالية من مسكونتنا أكثر ضيقاً، أمّا المسكونة نفسها فإنها متطاولة نحو الجنوب. وتمتدّ أطرافها الشمالية من مصبات البوريسفين (= نهر الدنيبر) 4000 مرحلة على دائرة عرض إلى الشمال من هيرنا (= إيرلندا). وتمرّ الأطراف الجنوبية للمنطقة المسكونة على بعد يقارب 8000 مرحلة من سيينا في مصر، على دوائر عرض تمدّ عبر منطقة الأفتوموليين وبلاد القرفة على بعد 8800 مرحلة عن دائرة الاستواء (II، V، 14). وتشطر القسم الشرقي من المسكونة سلسلة جبال طوروس التي تمتدّ من المتوسّط حتّى المحيط الشرقي. والمسكونة عبارة جزيرة كبيرة في المحيط الكوني، وخلجان هذا الأخير، هي بحر قزوين، والخليج الفارسي، والخليج العربي.

وبصفته جغرافياً يقصّر سترابون كثيراً عن إيراتوسفين في دقّة تحديد أبعاد حتّى المناطق المعروفة جيّداً في أوروبا وحوض البحر المتوسّط. فتبعاً لبوليبيوس يرفض جغرافينا هذا معطيات بيفوس عن وجود فولاّ وسواها من المناطق المسكونة عند الدائرة القطبية، ويرى في هيرنا = (إيرلندا) آخر نقطة شمالية مسكونة (II، V، 7). وبعد ذلك ينقل دائرة عرض ماساليا = (مرسيليا) التي حدّدها إيراتوسفين، بعيداً عن موقعها الحقيقي نحو الجنوب (أي إلى الجنوب من بزنطا بكثير). ويضيف سترابون إلى هذه الأخطاء تصوّراً خاطئاً آخر مفاده أن ساحل إفريقيا الشمالي يشكّل خطاً

مستقيماً تقريباً. ومن هنا أخذت خارطة أوروبا وحوض البحر المتوسّط صورة مشوّهة لدى سترابون.

ولوصف بعض البلدان أضاف سترابون إلى بحثه، فضلاً عن المصادر المكتوبة والمشاهدات الشخصية، شهادات شفهية لشهود عيان، وأشخاص مطلعين، وشائعات دارجة، ورأى في وصفه الوصف الأكمل. فقال متفاخراً: «على أغلب الظنّ أنه ليس بين الجغرافيين من جاب أراض أكثر مني... ومع ذلك فإنّ الكمّ الأكبر من المعطيات التي حصلوا عليها هم، وحصلت عليها أنا، جاءت من الأخبار الشائعة» (II، V، 11).

وتتجلى النزعة السياسية و«الوطنية» لسترابون بوضوح وجلاء. فهو قلّما يولي اهتماماً للقبائل البربرية[116]، لكنّه يتحدّث باحترام واضح عن الهنود والمصريين. وإدراكاً منه لتفوّق الإغريق ثقافياً، فإنه يفضّل الكتّاب الإغريق على الرومان.

وبما أنّ «الجغرافيا» كان كتاباً معدّاً ليكون بمثابة دليل للحكّام الرومان (وموجهاً للإمبراطور في آخر الأمر)، فقد التزم سترابون فيه وجهة النظر الرسمية فيما يخصّ كلّ ما هو معاصر. ومع أنه أجاز لنفسه توجيه شيء من النقد إلى إدارة المقاطعات (V، II، 7)، إلاّ أنه يتحدّث عن أغسطس باحترام، ولكن من غير تدليس أو تملّق، فيمتدح شجاعته - Clementia وLiberatitas[117]. وفي خاتمة بحثه يعود سترابون ليبرز من جديد شخصية البرينتسيبس، مؤكّداً على الرواية الرسمية عن المنشأ الدستوري لسلطته[118].

ولكنّ الأحكام والتقويمات الصارمة التي يوجهها العلماء الغربيون لسترابون أحياناً، ليست عادلة، لأنهم غالباً ما يقارنونه بأسلافه العظام - إيراتوسفين، وهيبارخ، وبوسيدونيوس، وغالباً ما لا تكون هذه المقارنة لصالح سترابون. لكنّ شخصية سترابون تبرز بوضوح عندما يوضع في صفّ واحد مع كتّاب عصره ومؤرّخيه مثل، ديونيسيوس الغاليكارناسي، أو ديودوروس.

---

[116]- حتّى أسماؤها لم ير دائماً أنّ ذكرها ضرورياً (XVI، IV، 18).

[117]- يعدّد سترابون مراحمه (Iustitia, Clementia)، ومكرماته (Liberalitas) [«رحمته» بعد إعدام أدياتوريغ- XII، III، 35؛ إعادة الاعتبار لأثينوس المتورّط في قضية مورينا- (XIV، V، 4؛ و«كرمه»: إعادة بناء سيراكوزا- VI، II، 4؛ وإعادة بناء طيباريوس لساردا- XII، VIII، 18].

[118] «لأنه بعد أن قلّده الوطن [قلّد أغسطس] المكانة الأولى في إدارة الدولة (=The Prostasian Principatus)، والسلطة مدى الحياة في مسائل السلم والحرب (Polemu kai eirenes kateste kyrios)، و....» (VII، III، 25).

إنّ القيمة الخالدة لهذا الجغرافي العظيم لا تقتصر على كونه نقل إلينا معطيات مهمّة عن النظم العظيمة لإيراتوسفين، وهيبارخ، وبوسيدونيوس، إنما لكونه أحيا من جديد عالماً بكامله كان يمكن أن يبقى لولاه مبهماً إلى حدّ كبير بالنسبة إلينا.

إرث المخطوطات والإصدارات الأولى

لم يأت أقرب خلفاء سترابون: بليني وبطليموس، على ذكر «جغرافياه». لكنّ يوسف فلافيوس، وبلوتارخ، وأثينوس استخدموا إرث سترابون. وغدا هذا بالنسبة لمصنِّف المعاجم، ستيفان البزنطي (القرن 6م) المرجع الأوّل في مسائل الجغرافيا، وكذلك عدّه يوستافيوس (القرن 12م).

وفي القرون الوسطى لم يكن سترابون معروفاً في الغرب. ففي العام 1423م حمل جيوفاني آوريسبا إلى فينيسيا نسخة من مخطوط «الجغرافيا» (اشتراها منه تشيرياكو دي أنكونا). وفي العام 1438م حمل العالم البزنطي جيورجي هيميستيوس بليفون مخطوطات سترابون الأخرى (Marcianus 379, 406, 517). ولفت بليفون انتباه كتّاب النزعة الإنسانية إلى سترابون، فوجّه بذلك ضربة مؤلمة لتأثير بطليموس عليهم.

وفي العام 1472م صدر كتاب «الجغرافيا» بالترجمة اللاتينية أوّلاً[1]، لكنّ تلك الترجمة كانت مأخوذة عن مخطوط سيّئ. وفي العام 1480م، وبإيحاء من البابا نيقولا الخامس (مؤسّس مكتبة الفاتيكان) صدرت ترجمة لاتينية جديدة «للجغرافيا» وضعها غوارينو. ولم تظهر الطبعة الأولى للنصّ الإغريقي إلاّ في العام 1516م. لدى آلد مانوسيوس (على أساس المخطوط السيّئ). وفي العام 1587م صدرت في باريس طبعة نقدية «لجغرافيا» سترابون، أعدّها وعلّق عليها اللغوي الشهير كازوبون (مع ترجمة كسيلاندير) (وعن صفحات هذه الطبعة ينسخون سترابون عادة). وفي العام 1815م (بمبادرة من نابليون الأوّل) ظهرت في باريس طبعة نقدية وضعها كوريه (في 4 مجلدات)؛ ثمّ طبعة غ. كرامر (برلين 1844-1852، في 3 مجلدات)، وطبعة مينيكيه (1866 في «Bibliotheca Tubeneriana»)؛ وطبعة ميوللر- ف. ديوبنر (باريس 1853-1858، في مجلّدين).

---

[1]- قد يكون اطّلاع كولومبوس على الترجمة اللاتينية لكتاب سترابون، هو الذي ألهمه فكرة وجود أرض مسكونة في المحيط الأطلسي، تقع على دائرة عرض رودوس؛ وفكرة وجود طريق غربية إلى الهند.

لكنّ المخطوط الأفضل لكتاب «الجغرافيا»- Codex Parisinus 1397 (A)[2]- لا يتضمن سوى كتبها I-IX (والكتاب VII في مقاطع)، وفيه إغفالات طويلة. أمّا المخطوطات الأخرى فلا تحتوي سوى النهاية- الكتب X-XVII. ولم تبق الكتب السبعة عشر كاملة إلاّ في Codex Parisinus 1393، مع إغفالات طويلة (خاصة في الكتاب VII). وفي الأعوام 1875-1895م. اكتشف غ. كوتسا- لوتسا مقاطع من كتاب «الجغرافيا» وأصدرها على رّق (في حوالي العام 500م). ويتبيّن من الرّق أنّ النصّ كان لا يزال في حالة جيّدة حتّى القرن الخامس الميلادي، وحافظ على خاصيات قواعد الإملاء الأغسطية. لكنّ النموذج الأصل المكتوب بحروف صغيرة جداً (في حوالي القرنين 1-2م) كان يعاني من بعض العيوب: إغفالات، لطخ، حقول ممزّقة[3]. وفي العام 1956 أعاد و. آلي[4] ترميم حروف الرّق من جديد وأصدره.

وكان ر. كونتسي[5] قد نشر مقاطع سترابون مأخوذة عن يوستافيوس وستيفان البزنطي. ونشر العرض القديم لمحتوى الكتاب(Kephalaia)، والمقتطفات (الإيبيتيومات): Gerographi Graeci Minor (II، ص. 529)؛ F. Jacoby. Die Fragmente d. griechischen Historiker، IIA، ص. 430 وIIC، ص. 291 (Belin, 1926)؛والأكثر أهمية هي اللاتينية (في القرن 10م)، والفاتيكانية (في القرن 14م) (Epit. Palattina et Vatiana).

2- في القرن 13 رمّم مكسيم بلانوديس المخطوط A (Paris, 1397)، على أساس مخطوط من المجموعة W (قريبة المجموعة A).

3- قارن: W. Aly. Strabon von Amaseia. Untersuchungen uber Text Aufbau u. Quellen d. Geographice. Munchen, 1960, p. 397.

4- قارن: Fr. Sbordone. De Strabonis palimpsesto ceterisque codicibus memoria. Studi e Testi, 188. Bibl. Apost. Vaticana, 1956, p. 274-275.

5- Rheinisches Museum, 1902, 57, p. 437.

الهوامش

الكتاب الحادي عشر

الفصل الأول

1- III، II، 5، 31.

2- في آسيا على هذا الجانب من طوروس.

3- وراء طوروس.

4- البحر المتوسّط.

5- البونت الإيفكسيني.

6- أي نحو الغرب.

الفصل الثاني

1- ذوو اللحى الطويلة.

2- آكلو القمل.

3- بصدد «الأقاليم» انظر: 1، I، 12.

4- بوليمون الأوّل، ملك البسبور (حوالي العام 16 ق.م؛ انظر: ديون الكاسي IV، 1، 24).

5- أي مصب تانايس.

6- خلف مسير الأسماك.

7- XII، IV، 5.

8- انظر: VII، IV، 4.

9- أي حتّى المضيق.

10- بالإغريقية apaté.

11- أي «القوارب المغلقة».

12- في المخطوط Rhekas؛ قراءة مينيكيه.

13- معنا الحرفي «الحوذية».

14- «حاملو الصولجان»، أو «حاملو الحربة الثلاثية».

15- انظر: II، V، 22؛ VII، IV، 3.

16- دوائر إقليمية كان يريد شؤونها «سكيبتوخات».

17- ألقاب ملكية هللنستية.

18- XII، المقطع 28.

19- ليوكوفيا (انظر المقطع 17).

20- انظر: XI، II، 1.

21- أي يغسلون الرمال الذهبية.

الفصل الثالث

1- XI، II، 15.

الفصل الرابع

1- ثيوفانوس الميلتوسي على وجه الخصوص (انظر: XI، II، 2).

2- تحمل حياة السيكلوب الأسطوريين في «الأوذيسا» سمات الشيوعية البدائية و«العصر الذهبي».

3- قارن: XI، XIV، 9.

4- بحسب بلوتارخ (بومبييوس، 35)، 12.000.

5- يبدو أن المقصود هنا هي الرتيلاء.

6- انظر: XI، XIV، 12.

الفصل الخامس

1- انظر: XIII، I، 55.

2- أي عشرة أشهر في العام.

3- اسمه الآخر، الميرومواليدس (انظر: المقطع 1).

4- XI، II، 16.

5- معناها الحرفي: «النائمون على الأرض».

6- الشرهون.

الفصل السادس

1- عن تقسيم آسيا انظر: XI، I، 5.

2- المحيط الشمالي (انظر: XI، I، 5).

3- XI، II، 1.

4- عن حرب قورش والماساجيتيين انظر: هيرودوت، I، المقطع 201.

الفصل السابع

1- أي، يتلقى المؤمنون النبوءة أثناء نومهم في المعبد.

2- p.pinea، p.picea، pinus maritima.

3- قارن: XI، XIII ، 7.

4- من أرطميس.

الفصل الثامن

1- XI، VII، 1.

2- أي قمم طوروس النائية.

3- أو عبيد المعبد (nierodulo).

4- المحيط الشمالي.

5- انظر: XI ، V، 1.

6- VII ، III، 7-8 على سبيل المثال.

7- انظر أريانوس، حملة الإسكندر الثالث، 28، 16؛ 29، 12؛ 30، 1.

8- يتكرر هذا الاستنتاج الخاطئ في XV، II، 8.

الفصل التاسع

1- من الجذر -rhag = «يكسر».

الفصل العاشر

1- النصّ تالف.

2- من الواضح أن طوله ذراعان.

الفصل الحادي عشر

1- انظر: X، V، 6.

2- أبوللون.

3- عندما يحدث أن يعثر عليها.

4- عن تغيّر طول السخين انظر XVII، I، 24.

5- إلى الشمال من طوروس.

6- I، IV، 5؛ II، I، 35؛ II، IV، 3.

7- انظر: II، V، 6.

8- 6000 مرحلة (II، I، 17).

الفصل الثاني عشر

1- انظر: XI، I، 5.

2- أي نحو دائرة العرض.

3- في المخطوط E «الوديان الكبيرة».

4- II، I، 35.

الفصل الثالث عشر

1- في معركة أربيل (331 ق.م).

2- من الواضح أنه ثمّة خطأ هنا، فإيكاباتانا العاصمة الصيفية. (انظر المقطع 1).

3- هيراقليا.

4- يستخدم اسم المدينة بصيغتيّ المفرد والجمع.

5- Hippobotos- صفة أطلقها هوميروس على آرغوس (الأوذيسا، IV، 99).

6- رداء طويل.

7- عصابة ملكية.

8- غطاء رأس فارسي يذكّر شكله بشكل عرف الديك. (قارن: أريستوفانوس، الطيور 497).

9- النصّ تالف.

الفصل الرابع عشر

1- انظر: II، V، 6.

2- XI، XII، 4.

3- أي بما في ذلك سوفينا بين أنتيطوروس وطوروس.

4- التسمية تالفة؛ ربّما تكون «فانينا».

5- أو «ماتيانا».

6- من الواضح أنّ هناك خطأ، لأنه بحسب XVI، I، 21، أنّ هالونيتيدا «تقع غير بعيد عن غورديا».

7- II، I، 27.

8- النصّ تالف.

9- مادّة خام تحتوي على زرنيخ، يستخرج منها صباغ أحمر.

10- XI، IV، 8.

11- حرفياً aparaxai.

12- Kataraxai.

13- لعب على الكلمات باستخدام الجذر arax.

14- هيرودوت 1، 202.

15- انظر: هيرودوت III، 70.

16- بحسب ستيفان البزنطي «sophene s.v.»، أرساك.

17- يبدو أنّ الكلمة تالفة: لم تكن مدينة إيبيريا في هذه المنطقة.

18- في العام 69 ق.م.

19- I، 93، 199.

الكتاب الثاني عشر

الفصل الأول

1- أي «صخرية» أو «حجرية».

2- Strategiai.

3- Strategos.

4- I، VI، 28.

5- الأراضي «المكتسبة».

6- في العام 17م.

7- طيباريوس.

الفصل الثاني

1- «kome- شعر»؛ مدينة كومانا.

2- II، 5.

3- الأوذيسا IV، 354.

4- أي غدت شبه جزيرة.

5- وفق كرامر أنّ المقطع 5 وضع محلّ المقطع 6.

6- ومثله بحيرة الكاب.

7- في مورمينا.

8- حرفياً perathen.

9- انظر: XII، I، 4.

10- خطأ في المخطوط: «الفرات».

11- خطأ آخر: «الفرات».

12- philoi- لقب ملكي لدى الملوك الهلنستيين.

13- صححها مينيكيه، فاستبدل بها kyrinu.

14- حرفياً «الذي يروي القوانين».

15- انظر: XI، XIV، 15.

16- يبدو أنه الملق أو البيكا.

17- يأتي في المخطوط بعد ذلك فراغ.

18- XIV، V، 1.

الفصل الثالث

1- بين البونتس وبيثينا.

2- التيترارخ هو حاكم ربع البلاد.

3- ميتريدات إيفباتور.

4- حرفياً Synodos.

5- VIII، III، 17.

6- VIII، III، 7، يدعون «كافكونياتيين».

7- الإلياذا III، 187؛ XVI، 719.

8- Aconitun anthora 1- نباتات برية (ساقها أجوف).

9- معناه الحرفي «البنّاتي»- اسم زهرة كانوا يضفرون منها أكاليل.

10- بدلاً «من الأينيتيين».

11- انظر: V، I، 4.

12- I، 6.

13- من بافلاغونيا.

14- XII، III، 41-42.

15- الإلياذا II، 853.

16- من erythros- «أحمر».

17- II، V، 22؛ VII، IV، 3؛ XI، II، 14، 14.

18- حرفياً «جدار أبون».

19- في العام 183م

20- انظر: VII، VI، 2؛ XII، III، 19.

21- انظر: بلوتارخ، لوكولاّ 23.

22- على «الرأس المقدّسة» (XIV، III، 8) في خلكيدونيا.

23- Hals- «ملح».

24- «البيض البشرة»، أي القبدوقيين.

25- انظر: XII، V، 1.

26- فراغ في المخطوط.

27- في العام 31 ق.م.

28- انظر: XII، III، 11.

29- صححها ميوللر فوضع بدلاً منها Kytoros.

30- XI، II، 15.

31- حرفياً speiras؛ 600 نسمة.

32- انظر: VII، VI، 2.

33- وثلاثتها من سمك التنّة.

34- VII، المقطع 27a.

35- الإلياذا IX، 381.

36- أي للقبدوقيين.

37- صححها مينيكيه من «بيموليتيدا».

38- صححها مينيكيه من «بيموليتيدا».

39- بدلاً من «الأينيتيين».

40- XII، III، 9.

41- I، II، 14، 19.

42- VII، III، 6-7.

43- XII، III، 26.

44- الإلياذا II، 866؛ XXI، 835.

45- الإلياذا II، 783.

46- «الأرض الحدودية».

47- مدينة النصر.

48- قارن: XIV، I، 42.

49- ملك الأودريسيين.

50- في العام 19م. دبّرها ضده ملك البسبور.

51- ملك تراقيا.

52- بوليمون الثاني.

53- زينون.

54- في العام 17م.

55- ميتريدات إيفباتور.

56- «المكان الجديد».

57- مدينة زيوس.

58- باللاتينية Augusta.

59- أي الذي أسّسه فارناك.

60- أو أسكينا.

61- المواكب الاحتفالية.

62- علامة الجدارة الملكية.

63- X، IV، 10.

64- كما في كومانا القبدوقية (انظر: XII، II، 3).

65- في العام 57 ق.م.

66- انظر المقطع 34.

67- انظر المقطع 32.

68- انظر VIII، VI، 20.

69- XI، XIV، 16.

70- المدينة الجديدة.

71- الاسم تالف.

72- أماسيا.

73- «السهل الذي فيه 1000 قرية».

74- جبل السانداراك (الزرنيخ الأصفر).

75- «مؤسّس» المملكة البونتية المستقلّة.

الفصل الرابع

1- أي الفريجيين.

2- نيقوميدس الأوّل، في العام 264 ق.م.

3- أي البلاد «التي اكتسبت مرّة أخرى» أو «التي ضمّت مرّة أخرى».

4- فراغ في المخطوط: حارب «كريز».

5- أي على الجانب الأوروبي.

6- الإلياذا II، 828.

7- XII، VIII، 7.

الفصل الخامس

1- انظر: IV، I، 13.

2- في العام 25 ق.م.

3- ربّما تكون هذه الكلمة تالفة.

الفصل السادس

1- قراءة مينيكيه بدلاً من «الكيليكيين».

2- سولبيوس كويرينوس، حاكم سوريا.

الفصل السابع

1- شجرة من فصيلة الحجريات - Storax officinalis.

الفصل الثامن

1- XII، IV، المقطع 4.

2- XII ، IV، 4.

3- V، II، 4؛ VII، VII، 10.

4- قارن: XII، VIII، 7.

5- قارن: XIII، I، 60.

6- I، 173؛ 7.

7- في «الإلياذا»- إيساندرس.

8- الإلياذا VI، 199.

9- أي المناطق الواقعة على هذا الجانب من هاليس.

10- انظر: XVI، II، 7.

11- XIII، 1، 34-35.

12- كوينتوس لابينوس ابن المنبر الشعبي يوليوس قيصر.

13- في العامين 40-39 ق.م.

14- جبل الدبّ.

15- تحتوي التربة هنا على حامض الكربونيك.

16- معناها الحرفي: المنطقة «المحروقة».

17- شطر فريجيا الذي يمتدّ «على طول الجبال».

18- فراغ في المخطوط. تأويل جووناز.

19- إيفمين الثاني، ملك برغاموس في العام 190 ق.م.

20- من الواضح إن ثمّة خطأ هنا، فقد كتبوا أركيوس بدلاً من «أسكييوس» (انظر: XII، III، 31).

21- قارن: III، II، 6.

22- الصباغ والصوف «الكالوسي» ذو اللون الأحمر القاتم.

23- انظر: V، IV، 5.

24- انظر: V، IV، 8.

25- من Kelainos - «أسود».

26- طيباريوس (انظر: تاسيت، الحوليات، II، 47).

27- I، III، 4.

28- قارن: XIII، IV، 11.

29- من حيث الأبعاد والعمق.

30- النصّ تالف. تأويل تيكير.

31- على اسم مؤسّسها هيروفيل الخلكيدوني (القرنان 4-3 ق.م.) - أحد أعظم الأطباء وعلماء التشريح في العالم القديم.

32- على اسم الطبيب الشهير إيراسيستراس الكيوسي (حوالي الأعوام 300-260 ق.م).

33- النصّ تالف. اتّبع تأويل كوريه.

الكتاب الثالث عشر

الفصل الأول

1- الإلياذا II، 824.

2- حشرة من نوع Myriapoda.

3- غرانيكوس، وإيسيب، وسكاماندرس، وسيمويس.

4- الإلياذا XIV، 284.

5- الإلياذا II، 824.

6- الإلياذا XIV، 292، 352.

7- XIII ، I، 2.

8- انظر: II، V، 7.

9- ديميتري السكيبسيسي وأنصاره على وجه التحديد.

10- الإلياذا XII، 92.

11- الإلياذا I، 369.

12- حرفيا aphncioi.

13- أي ثيران بريام.

14- الإلياذا XII، 20 .

15- النصّ تالف.

16- لقد سقط عدد المراحل من المخطوط.

17- الجذر harpag- «يخطف».

18- تلي ذلك ثلاث كلمات تالفة.

19- أي الآلهة.

20- حرفياً «المولودون من الثعابين».

21- «أخوية» أو «مانا» (قوّة خاصة كانت الشعوب المتخلّفة تعتقد أنّ زعماء القبائل والأشخاص البارزين يملكونها).

22- من pitys- «شجرة الصنوبر».

23- انظر: I، II، 10.

24- ورد ذكره في الإلياذا (II، 829).

25- بحيرة - بركة ماء أمر أغريبا بحفرها في روما على مقربة من البانثيون،وهي تصل بين Aqua Virgo وقناة يوريبوس. وورد ذكر هذه البركة لدى تاسيت (الحوليات، XV ، 37)، تحت اسم Stagnum Agrippae.

26- اريسبا بيركوتا ، وسللينس.

27- ربّما في القسم المفقود من الكتاب السابع.

28- Heptastdion.

29- أي «شبه جزيرة».

30- معناها الحرفي: «مكان الإنزال» أو «العبور».

31- VII، المقاطع 51، 55b، 51a، 52، 53.

32- القوانين، III، 677، 679.

33- القوانين، III، 680.

34- القوانين، III، 682.

35- في العام 334 ق.م.

36- سرعان ما توفّي الإسكندر وذهبت تلك الوعود أدراج الرياح.

37- لكنّ اهتمام ليسيماخ لم ينصبّ على إيليون، إنما على الإسكندرية (H.L. Jones. The Geography of Strabo, 6. London, 1933, p.52).

38- في العام 86 ق.م.

39- XIII، I، 11.

40- كليوباترا.

41- «المصبّ المستنقعي».

42- خطأ، بدلاً من «إيلييا».

43- VII، المقاطع 51، 54، 55.

44- الإلياذا V، 640.

45- لقد خدع لاوميدون هرقل ولم يعطه جياده الخالدة التي وعده بها لقاء تحرير هيسيونا من الوحش البحري.

46- XII، VIII، 7.

47- أو: كيبرين.

48- أي الإسكندر- باريس.

49- الإلياذا V، 433.

50- الإلياذا II، 793.

51- الإلياذا II، 813.

52- الإلياذا X، 415.

53- انظر الهامش 41.

54- في العام 427 ق.م (ثوكيديدس، III، 18-49).

55- بأمر من الموْحى كان اللوكريون يرسلون كلّ عام اثنتين من فتياتهم إلى إيليون استرضاء لأثينا التي اشتعل غضبها بسبب العنف الذي مارسه إيانثوس ضدّ كاساندرا.

56- إيدومينييوس تحديداً.

57- الأوذيسا IV، 502.

58- الأوذيسا IV، 500.

59- ينسب سترابون هذا القول لهوميروس، ولكن لا وجود له في أيّ من ملحمتيه.

60- Gunasin حالة الإضافة لصيغة الجمع من كلمة «ركبة».

61- أي الباخوسيات «الميناديس».

62- النص تالف.

63- ضدّ ليوكراتيس، 62.

64- إيليون.

65- XIII، I، 26.

66- الإلياذا XV، 94.

67- أي في مكان طروادا.

68- XII، III، 20-27.

69- كاريس.

70- المدينة الفضّية، نياكوما، ربّما تكون قراءة خطأ، بدلاً من أنييا (Aniea).

71- أي يدعك جبينه حتّى يحمرّ، لكي يخفي حمرة الخجل.

72- الإلياذا II، 816-877.

73- «الإله الفأر».

74- فراغ في المخطوط.

75- كوريثانتيس وهيراقليا (انظر المقطع 51).

76- XIII، I، 7.

77- أي hypo - «تحت» بدلاً من «epi- على، لدى».

78- أو أنتاندرس أوّل مدن الليليغيس.

79- يبدو أنّ النصّ تالف.

80- عن بوليميدس.

81- سكيبسيس- «مشاهدة، معاينة».

82- المقطع 10، ناؤوك.

83- أي، بدلاً من Troessin (الطروادیین)، يكتبون Pantessin- «جميعهم».

84- أي، في روما.

85- تيغيران.

86- Orichalcum- خامة نحاسية صفراء.

87- بدلاً من Asson- «إلى آسوس»، نقرأ عند هوميروس âsson- «أقرب».

88- إيبول.

89- I، 175؛ VIII، 104.

90- XIII، I، 7، 49.

91- الإلياذا I، 430.

92- مبيد الديدان.

93- الإلياذا VI، 396.

94- ميتريدات.

95- أي «المستوطنة القديمة».

96- تريبيل- حجر مصقول- شرحها جوونز (The geography of Strabo, VI. (London, 1933, p.131).

97- أي «aix - عنزة».

98- لكنّ سترابون يقول في مكان آخر، إن «بحر إيجة أخذ اسمه من مدينة إيجي البيوتية » (VIII، VII، 4).

99- المقطع، 131، بيرغك، 696.

100- المقطع، 696، ناؤوك.

101- المقطع، 66، بيرغك.

الفصل الثاني

1- في حرب البيلوبونيز انفصل الميتيلينيون عن الأثينيين. وبعد أن حاصر الأثينيون المدينة واستولو عليها، اتخذ مجلس الشعب الأثيني بضغط من كليون وحزبه قراراً بقتل الميتيلينيين البالغين كلهم.

2- القيثاريدس، هو مؤدّي أغان على أنغام القيثارة (وهي آلة موسيقية وترية).

3- Apollonnesoi- «جزيرة أبوللون».

4- لجذريّ - Perd و - Pord معنى بذيء.

5- كلمات لجذورها معنى فاحش.

الفصل الثالث

1- Neon teichos.

2- الإلياذا II، 842.

الفصل الرابع

1- 263- 241 ق.م.

2- 241- 197 ق.م.

3- 197- 159 ق.م.

4- 159- 138 ق.م.

5- 138- 133 ق.م.

6- بيثينا «المكتسبة» (انظر: XII، III، 7 وسواها).

7- I، 80.

8- المنطقة المحروقة.

9- الإلياذا II، 865.

10- السلال التي كانت تحملها الفتيات على رؤوسهن أثناء الاحتفال بالعيد.

11- Pithekoi.

12- I، 93.

13- المنطقة «المحروقة» في أعالي جيرم وروافده.

14- pyrigenes.

15- كهنة كيبيلاّ.

16- عند هوميروس- «إيساندرس».

الكتاب الرابع عشر

الفصل الأول

1- XII، I، 3.

2- المقطع 10، بيرغيك.

3- أي المنطقة الواقعة «خلف ليبرا».

4- البلاد «غير المستوية» أو «الصخرية».

5- أي في ديديما.

6- «الجرح الملتئم»، «ندبة».

7- artemeas.

8- الإلياذا II، 868.

9- في المقاطع 34- 40.

10- قارن: هيرودوت، III، 40 -43، و120، 125.

11- تسمية تطلق على فتيان في أثينا- إيثيبيين-، يخضعون عند بلوغهم 18 لاختبارات معينة، ثمّ يلحقون بعداد المواطنين.

12- VIII، VII، 2.

13- Pygalgeas.

14- «واشي»، «وبش».

15- للإسكندر.

16- خطأ، ورد الاسم بدلاً من اسم دينوقراط (فينتروفيوس، I، 1، 4).

17- للمجرمين والعبيد الفارّين.

18- مصباح.

19- قصائد هجائية ضدّ هومروس وهسيود.

20- الممثلون الذين يؤدّون تراجيديات وكوميديات.

21- XIII، I، 54.

22- «الجياد».

23- «الأسود».

24- في العام 131 ق.م.

25- في العام 129 ق.م.

26- أي الليبيين الغربيين.

27- أغان هجائية غير لائقة.

28- أغان هزلية فظة وغير لائقة.

29- مهذار سوقي.

30- أي aude أو audei.

31- أي «قادة الآسيويين». على غرار البيثينارخ، والقبدوقينارخ، فقد كان هذا هو المنصب الكهنوتي الأعلى في عبادة الإمبرطور [حسب شرح موديستينوس (14، 6، 1، XXVII، Dig) (قارن: أ- رانوفيتش. المقاطعات الشرقية في الإمبرطورية الرومانية في القرون 1-3 م. 1949. P. 48].

32- XIII، III، 29، 31، 37.

33- «مرج».

34- النصّ تالف؛ اتّبع قراءة جونز.

الفصل الثاني

1- مجهول.

2- لقد عدّت مياه نهر ستيكس الأسطوري مياه مميتة.

3- الكلمة متهدّمة.

4- I، X، 3، 7، 19.

5- III، IV، 8.

6- مقاتلون مسلّحون بأسلحة خفيفة.

7- الأوليمبيا، VII، 61.

8- يرى سترابون (استناداً إلى إيراتوسفين) أنّ رودوس والإسكندرية تقعان على دائرة طول واحدة.

9- X، V، 14.

10- Molon- «وافد» أو«مقبل»- كلمة شاعرية استخدمت بدلاً من الكلمة المعتادة elthon.

11- معناها الحرفي «قبر الكلب».

12- من هنا جاءت كلمة «موفزوليه» = «ضريح».

13- «الخارجة من البحر»- لوحة أبيلليس.

14- أي أريستون الفيلسوف المشّائي الكيوسي (القرن 3 ق.م).

15- «إنسان ما قبل الطوفان»، «الطفل الشيخ».

16- بروت، 91 (315).

17- انظر المقطع 13.

18- I، 3.

19- حالة الإضافة (barbaron).

20- barbaroi.

21- dardanoi.

22- «تلعثم»، «لثغ» و«غمغم».

23- «غرغرة»، «صوت»، «طرقة»، «صرخة»، «قرقعة».

24- «يتحدّث الإغريقية على الطريقة الكارية».

25- يتحدّث الإغريقية خطأ كسكّان مدينة سولوس في كيليكيا.

26- أي فريجيا التي تمتدّ على طول السلسلة الجبلية.

27- «المنطقة المحروقة».

الفصل الثالث

1- معنا الحرفي «قائد الليكيين».

2- المقطع 5.

3- أي على دائرة طول واحدة مع كانوب المصرية.

4- عبر البحر الأحمر.

5- XII، VIII، 5، XIII، IV، 7.

الفصل الرابع

1- VII، 91.

الفصل الخامس

1- تراخيبيا- «غير مستوية»، «صخرية»؛ بيديادا- «السهلية».

2- الكلمة متهدّمة؛ ربّما ينبغي أن تقرأ «سيدريا»، «سييدرا»، أو «آونيسس».

3- أي حتّى الحدود الغربية.

4- خطأ واضح في المخطوط: «إلى روما».

5- «الرحبة، الشاسعة».

6- المقطع 3.

7- Crocus sativa.

8- Pikron hydor.

9- من الرومان (انظر: XII، I، 4) .

10- أي من الغرب إلى الشرق.

11- نحو الجنوب الشرقي.

12- أي حتّى مصبّ كيدنس.

13- رئيس الجمنازيوم، المشرف على إعداد الشباب فيزيائياً.

14- أحد «نجوم الشعر» الإسكندريين السبعة الذين دعوهم على اسم البليادس، بنات أطلس اللواتي حوّلهن زيوس إلى مجموعة نجوم الثريا.

15- XII، XXI، 4.

16- XIV، I، 27.

17- XII، 3، 24.

18- في الشعر اليامبي. لم يصل المؤلَّف إلينا. (المقصود هنا هي الخارطة التي نسب إليها أبوللودوروس الخرافة الشعرية).

19- XII، III، 20.

20- XIV، I، المقطع 3.

21- انظر: XII، III، 21.

22- XII، III، 4.

23- VII، III، 2-3؛ XII، III، 3؛ XII، IV، 5.

الفصل السادس

1- XIV، V، 3.

2- «حرّاس متطوّعون» في قصر ملوك مقدونيا.

3- في المقطع 3 تدعى هييروكيبيدا.

الكتاب الخامس عشر

الفصل الأول

1- المحيط الهندي.

2- انظر: XV، I، 73.

3- «المرضع، الذي حمل به في الورك». لقد أخذ زيوس ديونيسيون من رحم أمّه ووضعه في وركه.

4- انظر: II، I، المقطع 1.

5- انظر: XI، VIII، 1.

6- «سجلّ محطات الطرق» (XV، II، 8)، يدعى «سجلّ المحطات الآسيوية»، وضعه أمينتا، مرافق الإسكندر (انظر: اثينوس XI، D 500؛ XII، 529 E؛ إيليانوس XVII، 17).

7- أي 19.000 مرحلة.

8- II، I، المقطع 4.

9- انظر المقطع 18. نوع من الاقماح (الحنطة؟).

10- انظر: I، II، 29.

11- أي نجم الشعْرى.

12- شلاّل.

13- القطن.

14- الفيسّون- الحرير. يرى فيه سترابون نوعاً من القطن. لقد دعا الإغريق الشعوب التي كانت تقطن إلى الشرق من الهند، سيريين، وهؤلاء هم الصينيون أساساً.

15- قصب السكر.

16- البانيان- Ficus bengalensis.

17- Nardostachys Iatamnsi.

18- المؤرّخون والجغرافيون الذين كانوا برفقته.

19- معناها الحرفي، «الذي له رأس ثور».

20- من فصيلة Cercopitheces (انظر: XVI، I، 37.

21- أي قرار العودة إلى ما وراء هيبانيس.

22- المقطع 28.

23- المقطع 8.

24- المقطع 8.

25- انظر: VIII، V، 4؛ XII، III، 4.

26- نهر إيرانّوبواس (انظر: أريانوس، وصف الهند، 10).

27- انظر: II، I ، 9.

28- حيوان نصفه أسد، ونصفه نملة. يقول هيرودوت III، 20 إنه «أصغر من الكلب وأكبر من الثعلب» (انظر: المقطع 44).

29- انظر: المقطع 29.

30- قارن: ديودورس، II، 40، 5.

31- انظر المقطع 41.

32- سمكة من فصيلة Trichiuridae.

33- حمراء الذقن (من فصيلة Mugilidae).

34- ليس الدلفين سمكة، بل من الثدييات.

35- القريدس «Caridae».

36- النصّ تالف.

37- Astynomoi. يدعوهم سترابون موظفين على غرار الأستينوموس الأثينيين الذين كانوا يجمعون بين مهمات الشرطة والإشراف على الأعمال العامّة والحفاظ على نظافة الشوارع والمباني.

38- بعد كلّ فيضان.

39- إلى أهله.

40- الأدميرال، قائد الأسطول.

41- أي أنها ملك للملك أيضاً.

42- الإلياذا III، 3، 6.

43- معناه الحرفي «العدّاؤون».

44- «النائمون على آذانهم».

45- «الذين لا أنوف لهم».

46- السرامانيون.

47- ولذلك ليس خالداً.

48- براهما.

49- «سكّان الغابات».

50- يدعوه أريانوس (الإسكندر، VII، 2)، وبلوتارخ (الإسكندر، VIII، 65)، دانداميوس.

51- انظر: المقطعين 37 و44.

52- طائر أسطوري (إيليانوس، XVII، 22).

53- أو الكاستريه - الطاووس الهندي.

54- في المقطعين 60-61.

55- لقد دُعي مثل هؤلاء المشوّهين «هرمسات» لأنّ صور هذا الإله كانت تتمثل بأعمدة مربّعة الشكل تنتهي بصدر ورأس.

56- يدعو ديون كاسيوس هذا الشخص زارمار.

الفصل الثاني

1- تنقل المخطوطات الرقم «12.900 مرحلة»؛ وأنا أعتمد تصحيح كرامر.

2- معناها «آكلو الأسماك».

3- «كرنب» النخيل- قلب النخيل، الجزء الصالح للأكل (enkephalon).

4- انظر: XV، 1، 5.

5- ربّما تكون القبيلة نفسها التي دعيت من قبل قبيلة الأوريتيين.

6- انظر: XV، I، 11.

7- انظر المقطع 1، حيث الطول 13.900 مرحلة.

8- معناها الحرفي «المحسنون»، اللقب الذي أطلقه قورش الأكبر على هذه القبيلة عرفاناً منه على الخدمات التي قدمتها له في أثناء حملته على كارمانيا (أريانوس، III، 27، 37).

9- الأصحّ: هادرابسا.

10- خطأ، والصحيح «آريا».

11- تنقل المخطوطات الرقم «19000 مرحلة»، وهو مالا يتوافق وواقع الأشياء. اعتمد قراءة جونز.

12- أي تريسولفيد الزرنيخ.

13- أي نحو الزاوية الشمالية الغربية.

الفصل الثالث

1- النصّ تالف (انظر: II، I، 26).

2- في مكان آخر (II، I، 26). يعطي سترابون الرقم «ما يقارب 3000 مرحلة».

3- الفرس 17، 118.

4- كإتاوة على استخدام المعابر.

5- من الواضح أن هنا خطأ، والصحيح «1800 مرحلة».

6- باسيدجلة- أحد الأنهار التي تجري من سوسيدا (انظر: أريانوس، الأناباسيس III، 17).

7- من الواضح أنّ خطأ وقع هنا، والصحيح «600 مرحلة».

8- «بيرسيدا المجوّفة» أو «الجوفاء».

9- كانوا ينحرون الفرس ذبيحة لقورش (قارن: أريانوس VI، 29).

10- ليس واضحاً من هو المقصود: أريستوبول، أم نيارخس، أو أونيسيكريتيس.

11- قارن: هيرودوت I، 131.

12- «قادحو النار».

13- أقرؤها هنا بدلاً من aletheuein- «يقول الحق»، athleuein- «يقاتل، يصارع، يعارك».

14- Pistacia terebinthus.

15- Nasturtium Orientale أو Tropaeolum mainus .

16- كانت الخماسية تتألّف من مباريات في القفز، ورمي القرص، والجري، والمصارعة، ورمي الرمح.

17- من الواضح أن خطأ قد وقع هنا، والصحيح «بوليكليتوس».

18- يرى أكثر الناشرين أن هذا التعبير محرّف.

الكتاب السادس عشر

الفصل الأول

1- معناها الحرفي «جسر».

2- نينوى.

3- في العام 608 ق.م.

4- «جبل النصر».

5- خطأ. والصحيح «اديابينا».

6- بمعنى آخر«أناهيت».

7- يعطي هيرودوت (I، 178) أبعاداً أكبر بكثير.

8- «المدينة العظيمة».

9- الذين يعيشون في الخيام.

10- انظر: XI، XII، 3 وXI، XIV، 2.

11- ديوجينوس البابلي.

12- انظر: XI، XIV، 15.

13- الكلمة متهدّمة.

14- معناها الحرفي «بين النهرين».

15- في العام 51 ق.م.

16- .Amomum subulatum Roxb - نبات عطري (ثيوفراست، دراسة عن النباتات XI، 7، 2).

17- حجر «الهاغاس» الذي ذكره بليني (X، 3، XXXVI، 19).

18- XVI، II، 5.

19- «المدينة المقدّسة».

20- مصطلح القانون الدولي الروماني. لقد كان يمكن أن يكون «صديق الشعب الروماني» (Romani amicus populi) شخص فرد، أو دولة. إن مفهوم «صديق» (amicus) كان أكثر شمولاً، فضمّ «الحليف» (Socius). فلم يكن Amicus ملزماً بتقديم العون العسكري في أثناء الحروب، لكنّ Socius كان ملزماً بذلك. لقد كانت الدولة التي تربطها بروما علاقات amicitia (الصداقة) تحظى لمواطنيها وسفرائها بحق الضيافة، كما كان عليها أن تؤدّي واجبات الضيافة للمواطنين الرومان (RE, Amicusm العمود 1882-1883).

21- في العام 54 ق.م.

22- لقد استولى باكور ابن الملك اورود على سوريا وشطر من آسيا الصغرى بالتعاون مع لابينيوس، لكنّه هزم في العام 39 ق.م أمام وينتيديوس والي أنطونيو. وفي العام 38 ق.م هاجم باكور سوريا ثانية، لكنّه هزم وسقط في أرض المعركة.

23- ارتافساد الرابع (انظر: XI، XIII، 4).

24- أي، خلفاء فرآت.

الفصل الثاني

1- المدن الأربع.

2- أنطاكيا.

3- النصّ تالف.

4- XVI، I، 25.

5- XII، VIII، 19.

6- انظر: XVI، I، 28.

7- في العام 146 ق.م.

8- بحسب ديون كاسيوس (VIII، II، 41)، أو بحسب بلوتارخ (أنطونيو، 33)، إنّ اسمه هو فارناباس.

9- معناها الحرفي «أنهار الماء».

10- لقد أمر دولا بيلاّ جندياً أن يقتله (في العام 43 ق.م) كي لا يقع أسيراً لدى كاسيوس.

11- قراءة غروسكورد بدلاً من «مدينة».

12- شبه جزيرة.

13- «صديق» (amicus) - مصطلح القانون الدولي الروماني (انظر: XVI، I، الهامش 20).

14- «المدن الثلاث».

15- «وجه الإله».

16- تراخونا- منطقة متعرجة، صخرية.

17- انظر الهامش 16.

18- سوريا المجوّفة.

19- أي ملقارت الفينيقي.

20- الإلياذا XXIII، 743.

21- «مدينة الطيور».

22- «صور القديمة».

23- بحسب أثينوس (VIII، 2، ص. 333)، أنّ سربيدون قائد قوات ديمتري، وتريفون- ديودوس قد شاركا في هذه المعركة، وإنّ تريفون انتصر فيها، لكنّ موجة المدّ البحري أغرقت قوّاته.

24- انظر: I، 3-4؛ X، 13.

25- في هذا المكان بنى هيرودوس مدينة القيصرية على شرف أغسطس.

26- انظر المقطع 37.

27- مدينة «ذوي الأنوف المجدوعة».

28- «الانهدام».

29- أي من بيترا شبه الجزيرة العربية (XVI، I، IV، 21).

30- XVI، 28.

31- لقد أخذ سترابون قصة موسى وتأسيس أورشليم عن «تاريخ بومبيوس» الذي كتبه بوسيدونيوس وطابع بوسيدونيوس واضح من المنهج المقارن، وغياب الموقف المعادي لليهود، وحضور الفكرة المحببة التي تقول بالانحطاط التدرّجي للشعوب والبنى الاجتماعية- السياسية، والدينية. فمن عبادة الإله «الكلي» التي اكتشفت أوّلاً، خرجت «معتقدات خرافية» دينية مستقلّة؛ وتراجعت «العدالة» القديمة شيئاً فشيئاً أمام السعي إلى السيطرة وتحوّلت الحرية البدائية إلى تيرانية (قارن: RE, Poseidonios، العمود 639).

32- من الواضح أن سترابون يعني عبادة الثور التي كانت شائعة لدى المصريين. فقد عدّ الثور في مصر القديمة رمز الجبروت الإلهي.

33- أي يؤسس مدينة ويبني معبداً.

34- انظر: XVI، II، 28.

35- انظر: X، IV، 18.

36- انظر: XII، III ، 5.

37- انظر: VII، III ، 5.

38- XVI، I، 43.

39- أي، يوم السبت.

40- الذي بناه هيرودوس الأكبر.

41- كيتيس- Medico arborea.

42- شجرة التيربينث- Pistacia trebinthus.

43- يخلط سترابون بين البحر الميت وسربونيدس. ينسحب وصف بحيرة سربونيدس على البحر الميت، وهو مأخوذ من بحث بوسيدونيوس («المحيط»).

44- يؤكّد العلماء المعاصرون على صحّة وصف سترابون (H. L. Jones. The geography of Strabo, VII. London, 1933.p. 294).

45- كريسوكول- معناها الحرفي «السبيكة الذهبية»، قد يكون حجر الملخيت، الحجر الأخضر (؟).

46- انظر: VII، V، 8.

47- قراءة كوريه وكرامر بدلاً من «بحر» (thalatta).

48- قراءة كوريه بدلاً من «هيرودوس».

49- أرخيلايوس.

50- أنتيبا وفيليب.

الفصل الثالث

1- XVI، I، 26.

2- XVI، I، 6.

3- XV، II، 14.

4- أرطميس تافروبولا.

5- أي البحر الأحمر.

6- من الواضح أنّ سترابون يعني الأرياف المرجانية.

7- الكافسوس- قبعة مقدونية فضفاضة مصنوعة من اللبادّ.

الفصل الرابع

1- أي من جهة شمال الشرق.

2- العرب الفلاّحون على أغلب الظنّ.

3- Mimosa Nilotica.

4- XVI، II، 30.

5- Myos hormon.

6- Numida Meleagris.

7- «القذر».

8- «الافعواني».

9- الإلهة المخلّصة.

10- بطليموس فيلاديلف.

11- «مقلع الحجارة».

12- أي، البحر الأحمر.

13- الذين يقتاتون على الجذور.

14- الذين يعيشون في المستنقعات.

15- الذين يقتاتون على البذور.

16- آكلو اللحوم.

17- حرفياً: Koloboi- «ذوو الأعضاء التناسلية المشوهة».

18- «حالبو الكلاب».

19- «المتوحّشون».

20- «الذين يقتاتون على لحم الفيلة».

21- أي، القذرين.

22- الذين يقتاتون على الطيور.

23- الذين يقتاتون على الجراد.

24- «ذوو الفكوك الأربع».

25- «المشوّهون» (انظر المقطع 5).

26- ستيراكس أو ستوراكس، - شجيرات يُستخرج منها الصمغ العطري.

27- ربّما لكي يقتلوها.

28- آكلو السلاحف.

29- Mimusops Schimperi Hochst شجرة ثمارها طرية غضّة جاء بها قمبيز إلى فارس (انظر: ديودوروس I، 34).

30- شجرة التوت.

31- بشر برؤوس كلاب.

32- القرن الجنوبي.

33- انظر: XV، I، 44.

34- فراغ في المخطوط.

35- أي الجمال- الفهود.

36- الربّاح الضخم - papio sphinx.

37- «الكلبيوّ الرؤوس»- الربّاح papio hamadryas.

38- الربّاح papio cebus (انظر: XVI، I ، 40.

39- نوع من الضباع.

40- قارن II، I ، 9 و XV، I ، 28.

41- انظر XVII، III ، S.

42- باللاتينية stibium- واحد ونصف كبريتيد الأنتيمون.

43- akathartoi.

44- Ramnus paliurus.

45- ربّما المقصود هنا، بنات آوى.

46- النصّ تالف.

47- ... .Tragopogon porrifolius L، خضار (انظر: ثيوفراست. بحث عن النباتات VII، 7، 1).

48- نبات غير معروف (انظر: فوتيوس 459، 15).

49- يعني سترابون بكلمة «آخرين» كلاً من كتيسيوس، وأغافارهيدس الكنيدي (RE, Strabon 101).

50- الصخرة.

51- «القرية البيضاء».

52- عارض مرض الإسقربوط نفسه، وليس عارض مرض جديد.

53- ميناء الفئران.

54- «الآبار السبع».

55- XVI، IV، 2.

56- أي زينون الرواقي.

57- أي السود.

58- الإلياذا II، 783.

59- XVI، I ، 11.

الكتاب السابع عشر

الفصل الأول

1- أي N.

2- انظر: XVI، IV، 8. وبحسب هيرودوت (II، 30) إن أعداد هؤلاء المنفين بلغت 240.000 نسمة.

3- أي دوائر أو مقاطعات.

4- بحسب قراءة مينيكيه، بدلاً من «ثلاثين».

5- أرورا - وحدة قياس مساحة الأرض في مصر (قرابة 0.2 هـ - انظر: هيرودوت II، 168).

6- الجيوميتريا، معناها الحرفي «قياس الأرض».

7- قارن: XVI، II، 24.

8- ثيمييوس 21E.

9- قارن: I، II، 23.

10- انظر هيرودوت II، 149.

11- النصّ متهدّم.

12- انظر: I، II، 25.

13- انظر: XVI، IV، 7.

14- هي بحسب ديودوروس (I، 33) والدته.

15- XV، I، 19.

16- أي سجلاّت الأماكن المتوازية في مؤلّفين.

17- أي لا يحسم هذه المسألة سوى موحى زيوس- آمون.

18- بطليموس الأوّل سوتير (323- 285 ق.م).

19- XVII، I، 4.

20- لقد عدّ هذا البرج إحدى عجائب الدنيا السبع، وبلغت قيمته 800 تالانت (بليني VI، 18)؛ وليس معروفاً زمن بنائه على وجه اليقين؛ ويُرى من مسافة 300 مرحلة من داخل البحر(يوسف فلافيوس، الحرب اليهودية IV، 10، 5).

21- أي «ميناء العودة الميمونة».

22- ميناء «كيبوت» «الصندوق».

23- أي «السدّ ذو المراحل السبع».

24- معناها الحرفي «التراب الأبيض» (gei leukei).

25- انظر بلوتارخ. الإسكندر، 26.

26- الرياح الموسمية المصرية- رياح تهب طول الصيف من جهة شمال غرب.

27- معطف عسكري مقدوني.

28- على رأس لوهيادس البحرية.

29- حرفياً «معبد الميوزات»- مكان إقامة العلماء، وإجراء الأبحاث العلمية.

30- ويروي المؤرّخون الآخرون (ديودوروس، وكالليسفين المنحول) روايات مختلفة.

31- عندما زار أغسطس الإسكندرية شاهد ناووس الإسكندر وجثمانه (سفيتونيوس أغسطس 18؛ ديون LI، 16).

32- الأحدب.

33- «المدّعي غير الشرعي»، «المغتصب»، بطليموس الحادي عشر على أغلب الظنّ.

34- في العام 31 ق.م.

35- في العام 30 ق.م انتحر أنطونيو.

36- النصّ تالف؛ أعتمد قراءة جونز.

37- قارن بلوتارخ. أنطونيو 86.

38- أي بطليموس السابع. يغفل سترابون في تعداده هذا بطليموس التاسع، وبطليموس العاشر اللذين لم يرد اسماهما في السجلّ الرسمي للملوك الشرعيين.

39- «عازف المزمار».

40- بحسب ديون كاسيوس (XXIX، 13)، إنها كانت تدعى برينيقي.

41- بطليموس الثاني عشر، وبطليموس الثالث عشر.

42- هو لقبه: «تاجر أسماك مقددة». يدعوه ديون كاسيوس (XXIX، 57) باسم «سلوقس».

43- لم يحكم سوى ستة أشهر، إذ سقط قتيلاً في معركة مع غابينيوس.

44- في العام 42 ق.م.

45- أوّل حاكم روماني على مصر هو كورنيلوس غاللوس (انظر: II، V، 12).

46- باللاتينية iuri dicendo praefectus.

47- ممثل خاص لقيصر أو وكيله المالي.

48- المترجم، باللاتينية interepres.

49- Scriba publicus.

50- Iudi cum praefectus.

51- Praetor nocturnes (ما يشبه قائد الشرطة).

52- أي ممثلي المجموعة الأولى - المصريين.

53- المقطع 12.

54- يخطئ سترابون في هذا. فالإيبيستراتيجيون (القادة العسكريون) كانوا موجودين منذ العام 118 ق.م. وقد أبقى الرومان على هذه الوظيفة، لكنّهم سلبوا شاغليها السلطة العسكرية (H. L. Jones.The geography of Strabo, VIII London. 1932, p.52).

55- حكّام النومات.

56- زعماء القبائل.

57- لم يتحدّث سيتسيرون عن هذا في أيّ من خطبه التي وصلت إلينا.

58- بحسب ديودوروس (XVII، 52) 6000 تالانت.

59- معناها الحرفي «الجلد».

60- «الدرع البيضاء».

61- «قبر الكلب».

62- أو«مريوط».

63- «غطاء البذرة» الذي كانوا يصنعون منه كؤوساً وأكواباً.

64- لقد ذهب نمط العيش الكانوبي الباذخ مثلاً.

65- سخيليا- «طوف»، أو«جسر عائم».

66- للاستيراد من الخارج (انظر المقطع 6).

67- معناها الحرفي: «القرن الجديد».

68- انظر: هيرودوت II، 155.

69- مدينة زيوس.

70- مدينة الأسد.

71- مدينة الكلاب.

72- «حفر» أو«هاويات».

73- «قذارة».

74- «مدينة الأبطال».

75- «مدينة النساء».

76- أي نخو الذي أهلك في الأعمال 120.000 نسمة (هيرودوت II، 158).

77- بطليموس الثاني، بحسب ديودوروس (I، 33، 11).

78- I، I، 20؛ I، III، 8.

79- معناها الحرفي «جري»، «معبر».

80- Proylon - منشأة تشكّل بوابة المعبد.

81- «معبر، مدخل».

82- في المقابر الإيتروسكية.

83- يقول ديوجين اللايرسي (VIII، 87)، إنهما أقاما هناك 16 شهراً، ويقول إيبيتومي، إنهما أقاما 3 سنوات.

84- بحسب ديودوروس (I، 50) أنّ الكهنة المصريون أضافوا إلى الأشهر الاثني عشر خمسة أيام وربع اليوم، فأتمّوا بذلك مدّة العام.

85- أي إلى بابل.

86- أهرامات الجيزة التي وصفها هيرودوت (II، 124) وبليني (XXXVI، 16).

87- هرم خيوبس(خوفو- ح. إ).

88- هرم خفرع.

89- المقطع 138. بيرغك.

90- قارن: أثينوس XIII، 68.

91- هيرودوت II، 134-135.

92- في أماسيا البونتية.

93- ليس في «الجغرافيا»، ربّما في «المدوّنات التاريخية».

94- قارن: ديودوروس I، 56، 4.

95- Mimosa Nilotica.

96- «هومي آرابيك» (الصمغ العربي- ح. إ).

97- I، III، 4، 13. هذا المقطع كلّه مكرّس لعرض رؤى بوسيدونيوس.

98- بحسب بوسيدونيوس (ديوجينوس اللايرسي VII، 138): السماء - أقصى جزء خارجي في الكون، مكان إقامة الإلهي.

99- I، III، 4، 12-15.

100- معناها الحرفي «المعماريون» (Architektones).

101- عن هذا اللابيرينتيوم انظر: هيرودوت II، 148؛ وديودوروس I، 66؛ وبليني XXVI، 19.

102- قارن XVII، I، 3.

103- خطأ. بدلاً من ماندس (ديودوروس I، 66؛ كان اسمه ينطق بالمصرية Maindes (H. L. Jones. The geog- rephy of Strabo, VIII, London, 1932, p.105).

104- مدينة الكلاب.

105- السمكة «الحفّار»- ما يشبه الكراكي.

106- Latos- غطاس النيل الكبير (perca niloticus).

107- Canis Lupaster- ابن آوى المصري.

108- Simia hamadryas- الربّاح ذو الرأس الكلبي.

109- Papio cebus- القرد الربّاح.

110- Mus aranus.

111- انظر المقطع 37.

112- أي عن معبد أو قصر آمون.

113- في ديديما على مقربة من ميلتوس (قارن: XIV، I، 5).

114- انظر: XI، II، 4.

115- انظر: XIV، I، 34.

116- قارن XIII، I، 14.

117- حرفياً «أنتيباتيا» = (نفور- ح. إ.). إنّ الأمثلة التي يوردها سترابون هنا عن «الميل المتبادل» (السيمباتيا)، و«النفور» (انتيباتيا)، توضّح تعاليم الرواقيين وبوسيدونيوس عن الميل بصفته صلة متوغلة في شتّى أرجاء الكون الأصغر والكون الأعظم- بين السماء والأرض، وبين الإنسان والإله، و... (قارن RE, poseidonios,654).

118- قارن II، V، 2.

119- يميّز بليني (XXXVII، 17) ما يقارب العشرين نوعاً من الزمرّد، ومنها الزمرّد المصري (H. L. Jones, The geography of Strabo, VIII. London 1932, p.121).

120- الأقصر.

121- بحسب ديودوروس (I، 45)، إن امتداد محيط المدينة 140 مرحلة.

122- بدءاً من لحظة انبلاج الفجر.

123- اعتمد قراءة زويغ. بدلاً من كلمة thekais- «في المقابر».

124- يقوم أحد هذه النصب اليوم في- place de La Concord في باريس.

125- أي إنهم حدّدوا اليوم الشمسي «الحقيقي» بـ $\frac{1}{1460}$ 1 يوماً، والعام الشمسي «الحقيقي» بـ $\frac{365}{1460}$ يوماً، أو $365\frac{1}{4}$ اليوم. وليتخلّصوا من الكسر، أضافوا كلّ أربع سنوات يوماً واحداً. وقد اعتمد هذا التقليد فيما سمي فيما بعد إصلاح يوليان للتقويم السنوي.

126- النصّ تالف. ديودوروس (I، 47، 1) يدعو هؤلاء الفتيات Pallakides (خليلات) زيوس.

127- انظر المقطع 40.

128- أقرؤها وفق قراءة كوريه، Kai metron.

129- وفي الحقيقة أن سيينا تقع إلى الشمال قليلاً من المنطقة الاستوائية؛ على دائرة العرض $24° 1'$، وكان ميْل دائرة البروج في زمن سترابون $23° 42'$، أمّا الآن فهو $23° 27'$.

130- خطأ، الصحيح «50» مرحلة.

131- II، 28.

132- قارن المقطع 4.

133- انظر القطعين 3-4.

134- XVI، IV، 23.

135- حكّام النومات.

الفصل الثاني

1- اللوز المصري (انظر XVI، IV، 14). شجرة الأبنوس - Diospyros mespilitormis.

2- الأكاسيا البرية، شجرة قرنية (Ceratonia silqua L.).

3- انظر XVII، I، 15.

4- البردي.

5- الكورسوس- سوسن النيل المائي (Nymphaea stellata).

6- الأوكسيرينخ- سمك من فصيلة الزجر (Acipenserldae).

7- نوع من أسماك النيل له حراشف كبيرة (Cyerinus bynni).

8- انظر المقطع 2.

9- نوع مجهول من أسماك النيل (انظر: بليني V، 51)؛ قد يكون Silurus anguillaris L.

10- نوع مجهول من أنواع السمك، لونه أسود.

11- نوع مجهول من أنواع أسماك النيل («السمكة- الخنزير»).

12- Pagrus vulgaris (الشلْبة البحرية).

13- نوع مجهول من أنواع السمك.

14- الكيثال- سمكة من فصيلة Mugilidae.

15- باللاتينية Lucerna (سمكة فوسفورية).

16- سمك نوعه مجهول (باللاتينية Pustula).

17- قد تكون Notidinus griseus.

18- الترياق 168.

19- II، 36.

20- نلقى هذه الكلمة مرّة واحدة فقط، وعند سترابون وحده.

21- الكيكي- ثمرة الخروع Ricinus communnis، التي يستخرجون منها زيت الخروع.

22- مضفورات من شجرة جوز الهند.

23- XVI، II، 34.

24- انظر الهامش 11.

الفصل الثالث

1- I، IV، 2.

2- أو: تينغيس.

3- يخلط سترابون بين تينغيس (تانجر) ولينكس أو ليكس (العريش)؛ انظر المقطع 7.

4- النص متهدم.

5- I، I، 5 و III، II، 13.

6- على أغلب الظنّ سمك الشلْق (Petromizontidae).

7- على أغلب الظنّ Arum maculatum.

8- Dracunculus (قارن: ثيوفراست. تاريخ النباتات I، 6، 6؛ VII، 12، 2).

9- نوع من الجزر أو الجزر الأبيض.

10- شمرة الحصان (Prangos ferulacea L.)- نبات برّي معمّر خال من الأشواك.

11- نبات الحسك الصالح للأكل Scolymus hispanicus.

12- Antilopa bubalis.

13- قد يكون حصل خطأ، والصحيح «هيبيكرات».

14- قد يكون وحيد القرن.

15- على الراجح أن خطأ حصل هنا، والصحيح «الفاروسيين».

16- قارن: بلوتارخ. سيرتونيوس 9.

17- «ميناء الآلهة».

18- النصّ داخل القوسين متهدّم.

19- النصّ متهدّم.

20- يحتوي هذا المقطع على جزء من تعاليم بوسيدونيوس عن دوائر الطول والعرض. فقد نسب بوسيدونيوس للشمس في السمت قوّة تأثير خاصة على الأرض. وحسب بوسيدونيوس إن سبب الاعتدال الأكبر لمنطقة جنوبي خطّ الاستواء، هو السرعة الأكبر لتغيّر دائرة العرض عندما تكون الشمس في السمت، ومثلها أيضاً الانتقال من شروق الشمس إلى غروبها، لأنّ «الدوران المؤقت الذي يحصل على الدوائر الأكبر، هو الأسرع بين حركات الدوران المؤقتة الأخرى» (II، III، 3) (قارن: K. Reinhardt. Posidonus, Munehen, 1921, p. 66).

21- في ماسيسيليا على وجه التحديد.

22- Pandinus heros.

23- «حجارة مضيئة»، قد يكون النورمالين.

24- الياقوت الخمري.

25- I، III، 4.

26- اللوتوس العسلي- Trigonella graeca (قارن: ثيوفراست. تاريخ النباتات IX، 40، 49).

27- نوع من الشجرات الشائكة (Rhamnus Paliurus).

28- هي أوتيكا = (عتيقة- ح. إ.).

29- أو «النوميديين»، أي البدو الرحّل.

30- دمّرت في العام، 14 ق.م، وأعاد بناءها يوليوس قيصر وأغسطس.

31- من الواضح أنه الجزء الشرقي من خليج قرطاجا.

32- «الترس».

33- أوكوسّورا.

34- قارن: V، II، 6، 8.

35- قراءة كرامر ومينيكه بدلاً من «ميناء» (Limen).

36- إلى الجنوب.

37- في العام 47 ق.م، عندما مضى ليلتقي مع سيبيون ميتيللوس.

38- الريح الجنوبية.

39- في حوالي العام 631 ق.م.

40- «الذي دربتّه أمّه».

41- يبدو أنّ التسمية تالفة.

42- صححها ليترونّ بدلاً من «3000».

43- الأبراج الأربعة.

44- «لا» (UK) ألحقها كوريه.

45- VI، IV، 2.

46- في المخطوط «أتاكس»؛ تصحيح الناشرين قبل كرامر.



المحتـــــــــويات